أسد حيدر

الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

مع إضافات وتحقيقات جديدة

المجلد الأول

الجزء الأول - الجزء الثاني

دار التعارف للمطبوعات

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

مـــع إضافات وتحقيقات جديدة

أسـد حيـدر

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

مـع اضافـات وتحقيقـات جديـدة

المجلد الأول

الجزء الأول ـ الجزء الثاني

دار التعارف للمطبوعات

الطبعة الخامسة
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

دار التعارف للمطبوعات

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكاش - بناية الحسنين
ص.ب: ٦٤٣ - ١١ - ٨٦٠١ - ١١
هاتف: ٢٧١٩٠٧ - ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١
موبايل: ٨٢٣٦٢٠ ٣ ٠٠٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى صادق بيت الوحي، رضيع ثدي النبوة وربيب مهد الإمامة.

إمام الأمّة بالحق وقدوة الأئمة بالصدق.

إلى منهل شرائع الكتاب وسنة المصطفى.

إلى سيدي الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه صلوات من ربه ورحمة.

أرفع صحيفتي هذه وهي مجهودي الضئيل راجياً حسن القبول فهو غاية النجاح ومنتهى الأمل والسعادة لعبدكم.

أسد حيدر

المقدمة الأولى

في ساعة من ساعات الفراغ آويت لمكتبتي، أروح النفس من عناء الدراسة الشاقة بمطالعة كتب السير والتاريخ، وكل كتاب تناولته لم أجد فيه بغيتي ورغبت عن مطالعته من دون أن أعرف السبب الحقيقي لذلك، حتى وقعت على مقدمة ابن خلدون بدون مقدمة، وكأنه كان هو المطلوب دون غيره.

فطالعته وما كنت مستوفياً أبحاثه من قبل، فراقني أسلوبه وجذبني تعبيره، ولم أستوف الغرض من مطالعته حتى فوجئت بهذه الكلمة القاسية والقول المؤلم: «وشذ أهل البيت في مذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به».

فأخذتني الدهشة استغراباً، إنها لجرأة على مقام أهل البيت، وأصبحت عند ذلك «كالمستجير من الرمضاء بالنار».

وهناك نسيت ترويح نفسي وتجردت عن العوامل التي دعتني إلى ملاقاة هذا الرجل والاجتماع به، وشعرت أن الرجل كان منقاداً للعاطفة العمياء في هذه الجرأة، وجعلت أعلل نفسي في البحث عن المذاهب الإسلامية وتكوينها، وبيان مذهب أهل البيت ومكانته في التشريع الإسلامي، وبقيت الفكرة تخامرني وأنى لي بتحقيقها، وأنا تحت سلطة شواغل لا تعرف الرحمة، ولا تحلم بالعدل، ولكن إذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه، فتسلمت رسالة من صديق فاضل من أهل الموصل هو الأستاذ هاشم زين العابدين الصرّاف الموصلي كنت قد اجتمعت به خارج النجف الأشرف، واتصلت به اتصالاً وثيقاً، ودارت بيننا أبحاث يطول ذكرها، وكان يطلب في رسالته أن أذكر له شيئاً عن حياة الإمام الصادق، لأنه لا يعرف عنه، إلا أنه ابن محمد الباقر أستاذ أبي حنيفة. وهذا ما حفزني على نشر الحقيقة بالبحث عن حياة الإمام الصادق عليه السلام

وبيان مذهب أهل البيت، وفقههم الذي انتشر في عصره، ولا يتسنى لي الدخول في هذا المضمار دون أن أتعرض لذكر المذاهب الإسلامية ونشأتها والتعرف على أئمتها بدراسة حياتهم دراسة تاريخية إظهاراً للحقائق، وخدمة للحق، فوضعت هذا الكتاب وقد منحته وقتاً من أوقاتي، بالرغم من تلك العراقيل الشائكة التي كدستها الظروف في طريق الوصول إلى الغاية، وواجهت المصاعب وجهاً لوجه، فجاء هذا المؤلف في عدة أجزاء متتالية وموسوعة كبيرة، وقد أعطيت فيها صورة واضحة عن تلك العصور التي لها أثرها في إيجاد عوامل التفرقة بين المسلمين، والتي فسحت المجال لخصومهم في التدخل بين صفوفهم بدافع التشفي والانتقام لبث روح العداء والتباغض.

ولم أجهد نفسي في إبراز الكتاب مؤنق العبارة رشيق اللفظ، ولئن فاتني التفوق في الإنشاء وسعة الخيال ومهارة الفن في إبرازه فلن يفوتني إخلاص النية، وصدق القول والتثبت في النقل والاتزان في الرد، فهو بهذا الشكل أتقدم به خدمة لأهل البيت عليهم السلام بما استطعته، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

النجف الأشرف

١٣٧٥هـ ١٩٥٦م

أسد حيدر

المقدمة الثانية

صدر هذا الجزء وهو الأول من كتابنا (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) فكان الإقبال عليه يبعث على التشجيع ومواصلة البحث، والمضي في خوض هذا الموضوع الشائك الذي يتطلب دراسة عميقة، وتحمل مصاعب، بعزيمة لا تستكين لصعوبة، ولا يحد من قوتها ملل.

وإن موضوع البحث عن المذاهب قد أحيط بغموض وملابسات، وكان من وراء ذلك حصول مشاكل في المجتمع الإسلامي، تحتاج إلى حل وعمل جدي، وتفكير صحيح، ليزول ما خلفته تلك العصور من ترسبات، وما أودعت في المجتمع من أفكار، نتيجة للتعصب، مما أدى إلى وقوع حوادث مؤلمة، جرت على الأمة بلاء الفرقة، إذ اتسعت فيها شقة الخلاف، ووجد أعداء الإسلام مجالاً واسعاً، لبث روح التباغض بين طوائف المسلمين، وأصبحت المفاهيم معكوسة، وعندها توارت الحقيقة وراء سحب الخصومات، من جراء النعرات الطائفية.

وقد تكفل هذا الجزء لبيان الكثير من ذلك، بآراء حرة، وبيان مستفيض عما نجم من وراء ما أحدثته الخلافات من خطر على الجامعة الإسلامية.

ومهما تكن أهمية هذا الموضوع فقد تناولته ـ قدر الاستطاعة والإمكان ـ بدراسة واقعية، مستفيضة الجوانب، تزيل اللبس، وترفع الغموض، فطالما رافق اللبس والغموض أكثر الدراسات التي صدرت في هذا الموضوع؛ لأنها لم تكن خالية من نزعة التعصب، الذي جرّ على هذه الأمة ويلات الدمار، وعوامل الانهيار.

وإني أجد فيما لقيه الكتاب من إقبال واهتمام لدى الكتّاب والقراء جانباً يكشف أني قد وفقت إلى ما صبوت إليه.

وكان من عناية الله وتوفيقه أن يصدر من هذا الكتاب ـ في فترات متتالية ـ ستة أجزاء، تتكفل بالبحث عن المذاهب الإسلامية، ونشأتها وعوامل انتشارها، والتعرف على شخصيات رؤسائها، عن طريق الواقع مع إعطاء صورة عن الخلافات المذهبية، والآراء الفقهية والحوادث التاريخية، وغير ذلك مما له صلة بالموضوع.

وقد نفد الجزء الأول والثاني حتى آخر نسخة منهما، قبل إكمال السلسلة فأصبح من اللازم إعادة الطبع مع كثرة الطلب، وشدة الإلحاح، من مختلف الجهات.

وهذا هو الجزء الأول أقدمه للقراء الكرام بطبعته الثانية مع زيادة وتنقيح، راجياً منهم التنبيه على ما يقفون عليه من خطأ، فإني لا أضمن لنفسي السلامة، مما لا يخلو منه مؤلف، والله الموفق ومنه أطلب حسن القبول وعليه الاتكال وهو حسبي ونعم الوكيل.

النجف الأشرف
١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م

أسد حيدر

(*) طبع الجزء الأول والثاني من الكتاب طبعة ثانية في العراق ثم توقف طبع الأجزاء الأخرى. وصدرت طبعة جديدة في لبنان غلب عليها (الطبعة الثانية).

مقدمة الطبعة الثالثة

بسمه تعالى:

يكاد يمر عقد من السنين على صدور الطبعة الثانية من كتابنا «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» وها أنذا أستجمع بقايا قدراتي وأتحامل على نفسي لأعدّ الكتاب لطبعة ثالثة إن شاء الله بعد أن احتل مكاناً مشرفاً في المكتبة الإسلامية.

ولقد كانت «الطبعة الثانية» حكاية غريبة وتجربة صعبة بتفاصيلها وما كانت عليه من أخطاء وتلاعب حتى كأن يداً قصدت الإساءة والعبث بالكتاب. وما تعرضت إليه من نمط تجاري في التعامل تمكن من تحقيق المصلحة المادية بلبوس من العاطفة وإظهار غاية شريفة روعي بها وضوح قصدي وذيوع منهجي في إصدار الكتاب الذي أنفقت عليه ما أجهدني تحصيله واستغرق مني شطراً مهماً من حياتي. وخرج مني تاجر الكتب بالموافقة على قيامه بطبع الكتاب طبعة ثانية.

وراح يطبع الكتاب بآلاف النسخ ويوزعها في العالم الإسلامي ولم يراجعني في الأمور التي تتعلق بالإصدار أو الوفاء بالالتزامات التي ترتبت عليه.

وقد طلب مني كثير من المخلصين أن أقوم بما يضمن حفظ الكتاب كأثر إلى جانب حقي الذي هو آخر ما أفكر فيه.

زارني مرة أحد السادة من الباكستانيين بصحبة صديق في منزلي في النجف الأشرف وطلب موافقتي على ترجمة الكتاب إلى اللغة الأردية لأن هناك إقبالاً شديداً وطلباً كثيفاً.

ثم أذنت للعلامة السيد حيدر كراوري بترجمته وطبعه. وترجم الكتاب ونشر في

لاهور ولم نتطرق حتى اليوم إلى شيء اسمه اتفاق أو شروط لأني أعلم بدوافع الأخوة في الباكستان.

وفي آخر زيارة لي لبيروت كنت أتوقع من الناشر أن يأتيني وهو يعلم بوجودي ويعرف محل إقامتي في بيروت ليؤدي ما عليه أو لأحصل منه على النسخ التي أحتاجها والتي هي من شروط الاتفاق، فإن من عادتي أن أهدي إخواني العلماء والباحثين في بعض الأقطار الإسلامية نسخاً من مؤلفاتي. وأقوم بالإشراف على إرسالها وطريقة إيصالها إلى بعض الأجزاء من الوطن العربي التي منع فيها الكتاب وأصبح اقتناؤه يعاقب عليه القانون فأُضطر إلى شراء النسخ من المكتبات أو أحضر معرض الكتاب العربي الذي يقام في الكويت وأشتري بضاعتي بمالي من جناح الناشر نفسه.

ولقد كانت نواقص الطبع وأخطاء الطبعة مؤلمة تَحُزّ في النفس ويوحي تكرار الأخطاء بأفكار لا سبيل إلى التغلب عليها، ولقد تطلب ذلك تحقيقاً مرهقاً وتدقيقاً صعباً أوقعني في حالٍ من الإرهاق والتعب المضني فإن التحقيق يكون في أعمال الآخرين وأسفارهم لدواعي الزمن وعوامل التاريخ لا في عمل أناملِكَ ونتاج فكركَ ولا أقول بأني استطعت تدارك كل ما في الطبعة من خلل.

وختاماً أسأل الله العلي القدير أن يفسح في الأجل ويمدّني بالعون لأكمل الجزء الثامن بعد أن أكملت الجزء السابع وتوسعت في أجزاء الكتاب وقد قدمت إعداد الأجزاء الستة للطبعة الثالثة على إنهاء الجزء الثامن وإنجازه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أسد حيدر

الكويت / ربيع الأول / ١٣٩٩

كتاب الإمام الصادق
والمــذاهــب الأربعــة

بقلم
الدكتور حامد حفني داود
أستــاذ الأدب العــربــي
بكلية الألسن في القاهرة

منذ أكثر من عشرين عاماً استرعى التفاتي ـ وأنا أبحث في تاريخ التشريع الإسلامي والعلوم الدينية ـ الإمام جعفر الصادق سليل البيت النبوي الكريم، وما كان له من شخصية عظيمة في الفقه الإسلامي ومنزلة لا تجارى في عالم الفكر العربي، وفي الجانب الروحي بصفة خاصة. فوضعت في ذلك الوقت بحثاً تناولت فيه جوانب من سيرته وعلمه ومنهجه الفكري والفقهي، واستغرق ذلك مني قرابة ثمانين صفحة. ثم عرضت الفكرة على أستاذنا المرحوم عبد الوهاب عزام، وهو من النفر القليل المشهود لهم ـ في نظري ـ بالقدرة على الجمع بين أخلاق القدماء ومناهج المحدثين. ولكن الأستاذ الوقور لم يكد يسمع بعنوان البحث حتى علت وجهه السمح بسمة خفيفة، فهمت منها كل شيء... فهمت أن هذه الشخصية ـ على الرغم مما تحتله من مكانة عظيمة ـ هي مما يهم علماء الشيعة أكثر مما يعني علماء السنة، ولو كان ذلك البحث في مجال «الجامعة» التي يجب أن تكون أرحب صدراً مما تدعو إليه الطائفية المذهبية من تخصص أو تفرضه البيئة من مخططات محدودة ضيقة في مجال الفكر.

خامرتني هذه الفكرة أمداً طويلاً، وكدت أن أعيش فيها وأخرج بها إلى الناس في كتاب خاص، أردت أن يكون عنوانه «جعفر الصادق: إمام العلماء الربانيين وأول المبعوثين من المجددين».

وعلى الرغم من كثرة ما كتبت وما حصلت من مراجع حول هذه الشخصية العظيمة منذ عام ١٩٤٣ ـ فإن الدوافع البيئية والوجدانية لمن يعيشون حولي كانت تردني إلى الوراء وتحملني على اليأس أكثر مما تحملني على الكتابة والانطلاق في الموضوع. وقد ضاعف من الزهد في إتمام ما بدأت ما قرأته من أبحاث مهلهلة هنا وهناك حول شخصية هذا الإمام، فطويت صحافي وتركت الكتابة، وتأبيت على التعليق والرد.

ولكن يأبى الله سبحانه إلا أن يظل الحق حقاً، وأن تكون قوته فوق طاقات الزمان وحواجز المكان. وهكذا بعد عشرين عاماً قضت إثر انقطاعي عن الكتابة حول هذه الشخصية الفذة، تخللتها ألوان من التخبط المنهجي، وصور من الكتابات التي لا تقوم على أساس علمي، طالعتنا الأقدار التي تأبى إلا أن تضع الحق في نصابه بمن يميط اللثام عن وجه الحق سافراً، ويحمل السحب على الانقشاع بعد الذي طال من تلبد. كان هذا الفتح الجديد في دراسة الإمام منذ عشرة أعوام حين خرج إلينا الباحث الأديب والعالم العراقي الحصيف الأستاذ أسد حيدر بالجزء الأول من كتابه «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة»، والذي تم نشره على ما يبدو من مقدمة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م. فكان هذا الكتاب الجامع إيذاناً بإنهاء مرحلة التخبط حول سيرة الإمام الصادق، كما كان نقطة الانطلاق التي عرفنا من ورائها الكثير عن تاريخ «المذهب الجعفري»، وما بينه وبين المذاهب الفقهية الأربعة من صلات وروابط يجهلها الكثيرون من علماء هذه الأمة على الرغم مما حصلوه من ثقافات تاريخية وفقهية وفلسفية.

وأول ما يسترعي التفاتنا من هذا السفر الضخم شموله وسعة آفاقه .واستيعابه أكثر جوانب هذه الشخصية العظيمة، ولعل ذلك راجع إلى سعة اطلاع المؤلف فلا يكاد يرى رأياً لصاحب رأي حول شخصية الإمام إلا وأتى به، ولا قضية تتصل بالموضوع من قريب أو بعيد إلا وساقها وناقشها في أسلوب أدبي أقرب ما يكون إلى الموضوعية والنهج الفني وأبعد ما يكون عن التحيز المسف والتعصب الأعمى.

وفي كتابات المؤلف واسترسالاته التحليلية حول هذا الموضوع ـ نلمس اتزان العالم الحصيف حين يهرع إلى كلمة الحق ويفر بنفسه عن كل ما يشوه هذه الكلمة. وإن من يقرأ صدر الجزء الأول من كتابه «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» يقف على

عجالة دقيقة في الخلافة الإسلامية أرسلها المؤلف واضحة المعالم سافرة الأركان، يقرأها القارىء فيخيل إليه أنه يعيش في هذه الحقبة من التاريخ. إن هذا الأسلوب العلمي في علاج التاريخ الإسلامي خليق بأن ينال من النقاد الحظوة من التقدير، وخليق بأن يكون أساساً لما بعده من مؤلفات.

إننا في حاجة إلى دراسة التاريخ دراسة علمية، وفي حاجة أشد إلى دراسة المذاهب السياسية والفقهية في صورة أعمق مما وصل إلى أيدينا لنقول للمحق أحققت وللمخطىء أخطأت. وتشتد حاجتنا إلى هذه الدراسة حين نعلم عن يقين لا يقبل الشك القدر الذي لعبته السياسة الأموية والسياسة العباسية في تصوير المذاهب الفقهية، وحين نعلم عن يقين لا يقبل الشك مدى ما أصاب الشيعة من عنت واضطهاد في ظل هاتين الأسرتين الحاكمتين خلال ثمانية قرون كاملة.

إن هذا الإحياء الصادق الذي يقوم به علماء الشيعة في صرح الثقافات الإسلامية يعتبر في نظري انعكاساً لهذه الثورة النفسية التي أشعلت نيرانها السياسة الأموية والعباسية في نفوس شيعة الإمام عليّ والأئمة من بعده. ولقد كان اضطهاد هذه الشيعة بالقدر الذي خامر أعماق الإيمان واستقر في النفوس بحيث توارثه هؤلاء الشيعة في معارج التاريخ كلها وامتزج منهم بالدم واللحم امتزاج الإيمان الصادق في نفوس المؤمنين.

فالشيعة ـ من هذه الناحية بالذات ـ مؤمنون عقائديون وليس إيمانهم من هذا النوع الذي يقف عند حدّ التقليد والقول باللسان. وهذا الإيمان العميق المسلك العقائدي الذي يحياه الشيعة في كل قرن هو ـ وحده ـ سرّ هذا النشاط المستمر الملحوظ في دعوتهم، وهو أيضاً سر الانبثاقات المتلاحقة في مؤلفاتهم وهذا النفس الطويل الذي نلمسه في كتاباتهم.

ولو شئنا أن ننصف المؤلف فيما كتبه عن «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» لاستوعب منا ذلك مجلداً، فقد أصدر المؤلف من هذا الكتاب ستة أجزاء كاملة مهد في أولها للتاريخ الإسلامي والأدوار التي لعبها في خلق الأحداث المؤثرة في كيان المذاهب الفقهية، وكيف كانت حياة الإمام الصادق منها، وأين كان يقف المذهب الجعفري، ثم مدى تأثيره في المذاهب الأربعة الأخرى، ومدى ما بينه وبينها من خلافات أكثرها في الفروع وقليل منها في الأصول.

نعم لو أردنا أن ننصف المؤلف فيما أطرف به مكتبة التاريخ، وفيما أطرف به مكتبة الفقه لاستوعب منا ذلك قرابة المجلد الكامل. ولكننا نكتفي من هذا القدر العظيم بالإشارة السريعة التي ترسم بعض معالم هذه الصورة العلمية عن الإمام الصادق، معبرين فيها عن مشاعرنا إزاء هذا النهج القويم الذي سلكه المؤلف في سفره الضخم.

ولعل أروع ما يستوقف النظر ويطمئن الناقد على ما بلغه المؤلف من توفيق في هذا الكتاب إرساؤه القواعد في مشكلة الخلافة التي أشرت إليها آنفاً. وأنا ـ في هذا الصدد ـ أوافق المؤلف أن المشكلة بدأت في خلافة عثمان حين انتهز بنو أبيه خلافته فعبثوا بمصائر البلدان الإسلامية. ولكني كنت أود أن يبدأ حديث الخلافة ومشكلتها في الصورة الجذرية التي بدأت بانتقال الرسول صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى.

وقد أنصف المؤلف تاريخ الإمام «عليّ» حين صور المشاكل التي كانت تحيط خلافته من خروج أم المؤمنين «عائشة» إلى مؤامرات «معاوية» وعبثه بشخصيتين كبيرتين هما: «طلحة» و«الزبير» حين بايعهما لا لذاتهما ولا لسبقهما في الإسلام ولكن ليجعل منهما جسراً لمعارضته وموضوعاً لبث أهوائه الشخصية، إلى غير ذلك من المطالبة بدم عثمان وعليّ بريء من هذا الدم.

وقد كانت هذه المشاكل من الكثرة بالقدر الذي استعصى على فلاسفة التاريخ من عرب ومستشرقين، فأخطأوا فهم شخصية «الإمام علي» ونزعوا عنه صفة السياسة واكتفوا بوصفه بالورع والزهد. ولكن اجتهاد الإمام عليه السلام ونزوعه الشديد إلى منهج التوفيق بين الورع في الدين والصراحة في السياسة كان فوق مدارك هؤلاء المؤرخين. وكم كنت أود أن يشير مؤرخنا البارع إلى مهاترات المستشرقين وضحالة تفكيرهم في إدراك معنى «التكامل النفسي» ـ كما أسميه ـ في شخصية «الإمام علي»، وهو القدر الذي أخطأ فيه «جولد تسيهر» وغيره. ونحن نرى أن انتصار معاوية على الإمام إنما هو صورة من صور الثأر والتآمر التي نزع إليها الشرك بعد أن غلبه الإسلام، فهي على حد تعبيرنا قصاص المتمسلمين وأدعياء الإسلام من المسلمين المؤمنين حقاً وهم الذين قتلوا آباءهم وأجدادهم من أجل الحق وإعلاء كلمة الإسلام.

ولا أحب أن أطيل في التعليق على هذا الكتاب القيم الذي أعتبره دائرة معارف عامة وموسوعة قيمة في تاريخ المذهب الجعفري والمذاهب الفقهية لا غنى للباحثين

عنه. وأوثر في ختام هذه الكلمة أن أنوه بما كتبه المؤلف عن محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه في الحديث. وقد لاحظت في تعليق المؤلف على «البخاري» جانبين: جانب موضوعي وهو الذي تناول فيه المؤلف الأحاديث الموجودة في هذا الصحيح كما تناول أسانيدها ورجالها. وجانب اجتهادي تحدث فيه المؤلف عن انصراف البخاري عن الأحاديث التي تروى في فضائل بيت النبوة.

أما الجانب الأول فنحن فيه على اتفاق تام، ذلك لأن أحاديث الرسول ﷺ لم تدون في حياته إلا ما روي عن صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص، ومن ثم لا بد من أن يخضع الحديث سنداً ومتناً للنقد النزيه، فما وافق منه القرآن الكريم وروح السيرة النبوية العطرة جزمنا بصحته، وما كان بعيداً عنهما صار موضع نظر، وهنا يأتي ـ فقط ـ الخلاف بين نقاد الحديث.

وأما الجانب الثاني ـ وهو الذي يتلخص ـ ظاهراً ـ في إعراض البخاري عن الأحاديث المروية عن أئمة آل بيت النبوة. فإني أرى فيه رأياً لا ألزم فيه أخي المؤلف. ذلك أن هذا الإعراض عن أحاديث هؤلاء السادة هو من أفعال القلوب التي لا تستطيع الحكم عليها إلا بعد الاستقصاء التام، وكما نستطيع أن نقول: إن إعراضه عن الأحاديث المروية عن الأئمة كان آتياً بدافع عدم التوثيق، نستطيع ـ بلا شك ولا ريب ـ أن نقول: إنه امتنع عن روايتها خوفاً وفرقاً من حكام العباسيين الذين كانوا يناصبون آل محمد العداء. وهو يعلم أنه لو روى عنهم لأهمل كُتابه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لقضي عليه وقبر وهو في مهده.

فإذا كانت الشجاعة الأدبية قد تخطت الإمام البخاري فيما يتعلق بأحاديث فضائل آل محمد فإن ذلك لايقضي على ما بذله من جهد ولا أقل من أن يقال في هذا الصدد: إنه اجتهد وأخطأ، ولعل إهماله لهذا الجانب من الأحاديث كان درءاً لما يخشاه من سطوة الحاكم، فاكتفى من ذلك أن يقر بقلبه دون المشافهة باللسان والتسجيل بالقلم وذلك ما يطابق أضعف الإيمان.

هذا إن ثبت خوفه من حكام ذلك العصر ـ وإلا فإننا لا نستبعد أنه حاول الرواية عن رجال البيت النبوي واستعصى ذلك عليه بسبب ما كان يضربه الحكام حول أفراد هذا البيت من سياج منيع ليحولوا بينهم وبين اتصال طلاب العلم بهم، ونحن نعرف مدى اضطهاد الحكام لهم وحقدهم عليهم.

وقصارى القول فإن إغفال البخاري لهذه الأحاديث لا يضعف من شأنها ولا ينقص من قدرها وقد رواها أصحاب السنن، كما أن ذلك ـ علمياً ـ لا يصبح دليلاً قاطعاً على موقفه من الأئمة رضوان الله عليهم.

وإني لأرجو الله سبحانه أن يؤاتينا فنتصفح ما فاتنا من صفحات هذا الكتاب القيم، متمنين لمؤلفه العلامة الأستاذ أسد حيدر التوفيق والسداد في إتمام ما بدأ، وإنا لمنتظرون.

دكتور حامد حفني داود

الإمام الصادق بين عهدين

العهد الأموي ـ العهد العباسي

العهـــد الأمـــوي

بنو أُمية في عهد عثمان:

أتاح القدر لبني أمية فرصة نادرة، إذ انتخب عثمان[1] خليفة للمسلمين بعد عمر بن الخطاب، فأصبح زعيم الأمة ورب دستها المطاع، وأميرها المسُلط وخليفة صاحب الرسالة، وبذلك برقت لهم الآمال من بين ظلمات اليأس، وتنشقوا روائح الراحة فتعلقوا بعرى الفوز، وطلع فجر ليلهم الذي باتوا ينشدون فيه أملهم الضائع ويأسفون لحزبهم الفاشل.

بعد أن خاب كل أمل في نيل بغيتهم لإعادة ذلك الحزب المنحل، والمنهزم في ميدان المعارضة للحق.

ولكن الأقدار تجري بين عشية وضحاها لامتحان الخلق وغربلة الناس فإذا بهم يسوسون الأمة ويتلاعبون بالإمرة.

ولسنا بصدد البحث عن حوادث عهد الخليفة عثمان، وما فيه من بلاء ومحن وما لقي المسلمون من أبناء أبيه.

عندما أصبح مروان بن الحكم[2] أميناً عاماً ووزيراً خاصاً للخليفة الجديد،

---

(١) عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، بويع له بالخلافة سنة ٢٣هـ و٢٤هـ وقتل صبيحة الجمعة ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥هـ فكانت خلافته ١٢سنة وحوصر في داره ٢٢ ليلة ودفن في حش كوكب مقبرة لليهود واختلف في عمره فقيل ٩٠ و٨٨ و٧٥ و٨٦ و٦٣ انظر الطبري ج٢ حوادث سنة ٣٥.

(٢) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد يوم أحد وقيل عام الخندق وقيل بالطائف. قال ابن عبد البر: ولد على عهد رسول الله (ص) سنة ٢ من الهجرة وطرد رسول الله أباه وهو طفل لا يعقل، وبهذا لا تثبت له صحبة. =

يحبى بالأموال ويختص بخمس الغنائم ويتنعم بأموال الأمة بعد ذلك الشقاء، ويتقلب بأحضان الراحة بعد العناء.

والأغيلمة الذين على أيديهم هلاك الأمة، يتولون الحكم ويتلاعبون بالإمرة كتلاعب الغلمان بالكرة، وينزون على منبر رسول الله نزو القردة(١).

فلنترك ذلك العهد وما فيه من أحداث وحوادث، ولا نناقش ذلك الانتخاب الذي فاز فيه عثمان، لا بسابقة في الإسلام، ولا قرابة في رحم، وما هو بأولى من علي عليه السلام لو كان هناك انتخاب حر ومقاييس صحيحة.

نعم لا نريد أن نتعرض لما خلفته تلك الأحداث من آثار مؤلمة، وأوضاع شاذة مما دعا أصحاب النبي ﷺ إلى مقاطعة الخليفة، عندما أصبحت مقاليد الحكم بيد بني أبيه، فعم الاستياء جميع الأقطار الإسلامية مما أدى إلى قيام ثورة مخضت عن قتل عثمان في داره، ومبايعه علي عليه السلام وانتصار معاوية بعد قتله وقد خذله في حياته.

= ويعرف مروان بخيط الباطل ولما بويع بالخلافة قال فيه أخوه عبد الرحمن بن الحكم:

لحا الله قوماً أمروا خيط باطل ... على الناس يعطي ما يشاء ويمنع

ونظر إليه علي (ع) فقال: ويلك وويل أمة محمد منك ومن بنيك، بويع له بعد معاوية بن يزيد سنة ٦٤هـ ومات سنة ٦٥هـ قتلته زوجته أم خالد بن يزيد وهو معدود فيمن قتلته النساء - انظر ابن عبدالبر ج٣ ص٤٢٨ بهامش الإصابة ط الأولى سنة ١٣٢٨، والحكم بن العاص نفاه النبي (ص) إلى الطائف ثم أعيد إلى المدينة في خلافة عثمان وروى الزهري وعطاء أن أصحاب النبي (ص) دخلوا عليه وهو يلعن الحكم فقالوا: يا رسول الله ماله؟ قال: دخل على شق الجدار وأنا مع زوجتي فلانة فكلح في وجهي، ومر النبي (ص) بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي (ص) باصبعه فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزغاً فزحف مكانه.

ومر الحكم يوماً فقال (ص): ويل لأمتي مما في صلب هذا. ومن حديث عائشة أنها قالت لمروان أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه وطرده النبي (ص) ونفاه إلى الطائف ومات في خلافة عثمان سنة ٣٢هـ وضرب فسطاطاً على قبره وعاب الناس عليه ذلك - انظر الإصابة ج١ ص٣٤٦.

(١) حديث - اخرج ابن جرير في تفسيره قال: رأى رسول الله (ص) بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبره فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات وأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وأخرجه السيوطي في اللؤلؤ المنثور من حديث عبد الله بن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن علي وغيرهم (وطرق هذا الحديث كثيرة).

علي... ومبايعة معاوية لطلحة والزبير:

وجد معاوية[١] نفسه بدائرة ضيقة بعد قتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة أيعلن معارضة علي؟ وقد عقدت بيعته على أكمل وجه وناصره أصحاب محمد. والقلوب تغلي على بني أمية، أم يدخل فيما دخل فيه الناس كارهاً كدخوله في الإسلام هو وأبوه من قبل، وهو لا يجهل مكانة علي ومنزلته في الإسلام فهو أول القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً وأفضل الناس بعد رسول الله وأقربهم منه.

وعلي قد طبعت نفسه على العدل لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يستطيع معاوية أن يعمل في عهد علي عمله الذي يحاول به نجاح مهماته، وتأبى نفس معاوية أن ترضخ للعدل، وتستسلم للواقع، لأنه يعرف علياً وسيرته وخشونته في الأمر.

وعلي يعرف معاوية، وعلى أي طابع طبعت نفسه، وهو أدرى بحركاته وما يهدف إليه في دهائه الذي استطاع أن يستجلب به رضا عمر ويخاتل عثمان من قبل.

إذاً كيف يصنع معاوية؟ إذا اشتد جانب علي وعظمت شوكته، فكان موقفه تجاه هذه المشاكل موقف حيرة وارتباك، ودنياه حبلى ولا يعلم ما تلد في الغد.

كاد معاوية أن يفر من ميدان المعارضة لعلي لأنه أعزل من كل سلاح يستطيع به مقابلة علي إن أعلن حربه، وليس له حجة يستهوي بها قلوب الناس. بماذا يدعي معاوية وأي أمل له بالخلافة والإمرة على المسلمين؟ وهو يعرف نفسه ولا يفوته منها كل شيء، فهو ابن هند[٢] وابن أبي سفيان[٣] زعيم المشركين ومثير الحرب على صاحب الرسالة.

---

(١) معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد قبل البعثة بخمس سنين وقيل سبع سنين أسلم عام الفتح ومات في رجب سنة ٦٠هـ قال أبو عمر معاوية وأبوه من المؤلفة قلوبهم وقال ابن أبي الحديد كان معاوية مطعون في دينه انظر ج١ ص١١١ وقول الزمخشري في ربيع الأبرار في نسبه وكانت إمارة معاوية عشرين سنة ولاه عمر بن الخطاب الشام وحاسب عماله إلا معاوية وبعد وقوع الصلح تم الأمر لمعاوية فاستقل مدة عشرين سنة.

(٢) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد مناف والدة معاوية ـ كانت تثير شعور المشركين بأراجيزها في حروبهم على النبي وتشجعهم هي وباقي نساء المشركين وكانت ترجز يوم أحد (نحن بنات طارق) وبذلت لوحشي ما يحب أن قتل حمزة عم النبي (ص) فلما قتل مثلت به واستخرجت كبده فشوت منه وأكلت ـ انظر الاستيعاب بهامش الإصابة ج٤ ص٤٢٦ وتوفيت في عهد عمر بن الخطاب في اليوم الذي مات فيه أبو قحافة والد أبي بكر الصديق.

(٣) أبو سفيان: هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس وأمه صفية بنت حرب الهلالية مات في =

نعم كاد معاوية أن يهزم ويخضع لسلطان علي وهو كاره له، ولكن خروج أم المؤمنين عائشة(١) ونقض طلحة(٢) والزبير(٣) بيعة علي فتحا له باب أمل ارتج عليه من قبل، فأسرع بالكتاب إلى الزبير: (إني قد بايعتك ولطلحة من بعدك فلا يفوتكما العراق).

وليس له بغية بهذه البيعة إلا الفرار من علي والخروج عن سلطانه، إذ لا يجد من نفسه قدرة على اتباع علي (فعلي مع الحق والحق مع علي).

وبهذه البيعة انتهى رأيه ليتخلص من المشاكل الشائكة، ووجد فسحة في الأمل وفرجاً بعد الشدة أن انتصر حزب المعارضين لعلي عليه السلام.

= خلافة عثمان سنة ٣٤هـ وقيل ٣١هـ وهو ابن ثمان وثمانين سنة وكان يكنى بأبي حنظلة الذي قتل يوم بدر كافراً قتله علي (ع).

(١) عائشة بنت أبي بكر الصديق زوجة النبي (ص) أمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ولدت بعد المبعث بأربع سنين دخل بها النبي (ص) في السنة الثانية من الهجرة وهي بنت تسع سنين وتوفي عنها وهي بنت ١٧ أو ١٨ سنة وماتت سنة ٥٨هـ وقيل سنة ٥٧هـ ودفنت بالبقيع بأمر منها وأن تدفن ليلاً وصلى عليها أبو هريرة.

(٢) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وأمه الصعبة الحضرمية شهد أحداً وأبلى بها بلاءاً حسناً ولم يشهد بدراً وآخى النبي (ص) بينه وبين الزبير وقيل بينه وبين كعب بن مالك وكان أحد أبطال الثورة على عثمان وقتل يوم الجمل مع عائشة قتله مروان بن الحكم أخرج البغوي بسند صحيح قال: لما كان يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال لا أطلب ثاري بعد اليوم فنزع بسهم فقتله وكان ذلك في جمادى الأول سنة ٣٦هـ ومات وله أربع وستون سنة ودفن بالبصرة ثم نقل لمكان آخر فيها ـ انظر الإصابة ج٢ ص٢٣٠ وابن كثير ج٧ ص٢٤٦.

(٣) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي أمه صفية بنت عبد المطلب أحد أصحاب الشورى الستة قتل يوم الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ وعمره ٦٦ ولا يعرف قبره أما قبره الحالي الواقع في مدينة الزبير قريباً من البصرة فقد شيد على الخطأ يقول ابن كثير في تاريخه ج١١ ص٣١٩ في حوادث ٣٨٦ ما هذا نصه وفي محرمها كشف أهل البصرة عن قبر عتيق فإذا هم بميت طري عليه ثيابه وسيفه فظنوه الزبير بن العوام فأخرجوه وكفنوه ودفنوه واتخذوا عند قبره مسجداً ووقفوا عليه أوقافاً كثيرة وجعل عنده خدام وقوام وتنوير.

ويقول أبو الفرج ابن الجوزي في المنتظم ج٧ ص١٨٧ في حوادث سنة ٣٨٦ ما هذا نصه: (فمن الحوادث فيها أن أهل البصرة في شهر المحرم ادعوا أنهم كشفوا عن قبر عتيق فوجدوا فيه ميتاً طرياً بثيابه وسيفه وأنه الزبير بن العوام فأخرجوه وكفنوه ودفنوه بالمربد بين الدربين وبنى عليه الأثير أبو المسك عنبر بناء وجعل الموضع مسجداً ونقلت إليه القناديل والآلات والحصر والسمادات وأقيم فيه قوام ووقف عليه وقوفاً.

وهل كان معاوية في غفلة عن سلاح فاتك يستطيع به أن يأمل نجاح أمره وتكون له حجة في مقابلة علي وهو الإعلان في الطلب بدم عثمان، واستبعد بعد ذلك عن تفكيره أو أنه غافل عنه، فهو بدهائه ومكره لا تعزب عنه هذه الفكرة، ولكن في نظر الواقع أنها فكرة خاطئة وحجة ليس لها برهان، فعثمان قتل بأيدي المسلمين، وما هو ولي دمه، وليس منه في شيء، وبنوه أولى بذلك، ولا يعزب عن معاوية مثل هذا فهو بحاجة إلى من يدعم حجته، ويؤيد هذه الدعوى الكاذبة، ولكنه جعل هذه الفكرة في جعبة آماله ولم يستطع استعمالها إلا بعد أن عرف نجاحها بيد غيره واستخدامها من قبل الآخرين فهذه أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر من تيم تعلن الطلب بدم عثمان الأموي، وهي التي فتحت باب المؤاخذة عليه وآزرها على ذلك قوم أراقوا بأيديهم دمه بالأمس، وهم يمسحون بها دموع الحزن المصطنعة اليوم (واعثماناه إنه قتل مظلوماً) دوت هذه الصرخة وإذا بالشام تقوم لها وتقعد. وقاموا بحركات عاطفية وأعمال تقليدية من دون وقوف على حقيقة الأمر وهم يشاركون قاتل عثمان في الندبة عليه ويؤازرون من خذله في الأمس ومن حرض الناس على قتله.

طلب معاوية بدم عثمان:

انتحل معاوية لنفسه حق الطلب بدم عثمان وانه أقرب الناس إليه وأولاهم بدمه، وان عثمان قتل مظلوماً وقد جعل الشارع لوليه سلطاناً.

إذاً لمن يطالب معاوية والكل مشتركون في إثارة الناس عليه؟ وهؤلاء الذين يبكون عليه اليوم قد فتحوا عليه باب المؤاخذة من قبل وأعلنوا للناس انحرافه عن جادة الصواب، لسيره في ركاب بني أبيه، إذاً فالأمر يحتاج إلى مزيد من التأمل والتفكير فليس لمعاوية غرض إلا مناوأة علي وجعله هو القاتل وحده، ولم يلتفت إلى المعارضات التي قام بها أصحاب محمد ﷺ ضد عثمان، فإنهم عندما لمسوا ميله لأبناء أبيه واختصاصهم بالغنائم وتوليتهم الأمر، وتقريب مروان بن الحكم وجعله أميناً للدولة، وإهانة بعض الصحابة وتبعيد آخرين ـ حتى أعلنوا مقاطعته والغضب عليه، فهذا عبد الرحمن بن عوف[1] المناصر لعثمان والباذل جهده في انتخابه، هجره

(١) عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحرث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري اسمه في الجاهلية عبد عمر ـ وقيل عبد الكعبة. أمه الشفاء بنت عوف بن الحرث بن زهر ولد بعد الفيل بعشر سنين =

وأوصى أن لا يصلي عثمان عليه[1] وكان يقول: عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه، وقال لعلي عليه السلام: خذ سيفك وآخذ سيفي فإنه قد خالف ما أعطاني.

وكان طلحة من أشد الناس على عثمان حتى كان عثمان يدعو ويقول: اللهم اكفني طلحة فإنه حمل على هؤلاء وألبهم عليّ، والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يسفك دمه[2].

موقف عائشة وعمرو بن العاص:

وهذه أم المؤمنين عائشة تعلن معارضة عثمان، وتخرج شعراً من شعر رسول الله ﷺ وثوباً من ثيابه ونعلاً من نعاله ثم قالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد[3] فغضب عثمان غضباً شديداً حتى ما درى ما يقول، وكانت تقول: إن عثمان عطل الحدود، وتوعد الشهود، وأغلظت لعثمان وأغلظ لها، وقال: ما أنت وهذا إنما أنت امرأة، أمرتي أن تقري في بيتك، فقال قوم مثل قوله، وقال آخرون: ومن أولى بذلك منها فاضطربوا بالنعال، وكان أول قتال بين المسلمين بعد النبي ﷺ[4] وهذا عمرو بن العاص وزير معاوية وشريكه في الأمر كان من الثائرين والمحرضين على عثمان يقوم إليه في ملأ من الناس ويقول: إنك ركبت نهابير وركبناها معك فتب نتب[5] وقال له: اتق الله يا عثمان، فقال له عثمان: وإنك هناك يا ابن النابغة قملت جبتك منذ عزلتك عن العمل. ونودي من ناحية أخرى تب إلى الله[6] فخرج إلى فلسطين وأقام هناك وجعل يحرض الناس على عثمان حتى رعاة

= وكان من المهاجرين وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) وهو أحد الستة أصحاب الشورى وكان من أهل الثروة الطائلة وخلف من بعده ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس وأوصى بأن يتصدق من ماله بخمسين ألف دينار وصولحت إحدى نسائه التي طلقها في مرضه عن ربع الثمن بثلاث وثمانين ألف انظر الرياض النضرة ص٣٨٩ وكان عنده من الذهب ما كسر بالفؤوس وتوفي سنة ٣٢هـ وقيل ٣١هـ ودفن بالبقيع.

(١) البلاذري ج٥ ص٧٥.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٣ ص٨٦.

(٣) البلاذري ج٥ ص٤٨.

(٤) البلاذري ج٥ ص٨٤.

(٥) الطبري ج٣ ص٣٦٩.

(٦) الكامل ج٣ ص٨٠.

الغنم ولما بلغه قتله قال: أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها[1].

وجل الصحابة أظهروا الإنكار على عثمان لسوء ما ارتكبه بنو أبيه الذين حملهم على رقاب الأمة، وكان جيش مصر - الذي حاصر عثمان واشترك في قتله - تحت قيادة عبد الرحمن بن عديس البلوي من كبار الصحابة وهو ممن شهد الحديبية وبايع بيعة الشجرة، كما اشترك في حصار عثمان جمع من أهل بدر كرفاعة بن رافع الأنصاري وغيره. وقتل نيار بن عياض وهو من الصحابة المحاصرين له.

كما أن النصوص التاريخية مجمعة بالاتفاق على مكاتبة الصحابة من أهل المدينة إلى من بالآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فهلموا إليه فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم[2].

ومهما يكن من أمر فقد أعلن معاوية الطلب بدم عثمان ولا يريد بذلك إلا إعلان الحرب على علي عليه السلام، لأنه يبغض علياً بغضاً لا يحمله قلب إنسان على وجه البسيطة؛ إن معاوية يبغض علياً لإيمانه وعدله، وعلي يبغض معاوية لنفاقه وظلمه.

لذلك سلك معاوية طرق المكر والخداع واتخذ أعواناً هم على شاكلته يثيرون الناس لحرب علي عليه السلام بتهمة قتل خليفة المسلمين، ودب وهم هذه الفكرة في أفئدة ضعفاء العقول والإيمان، وأحاطوا بقميص عثمان يبكون عليه، ويتوقدون لطلب القود من قاتله.

قدم قبيصة العبسي إلى المدينة رسولاً من معاوية، فقال علي: ما وراءك؟ قال: تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود. قال: ممن؟ قال: من خيط رقبتك، وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال علي: أمني يطلبون دم عثمان؟!![3]

موقف معاوية من عثمان:

ما هذا العطف من معاوية على عثمان وهذه الرحمة المرتجلة. أين كانت عاطفة

---

(١) البلاذري ج٥ ص٧٤.

(٢) الكامل ج٣ ص٨٣ والبلاذري ج٥ ص٦٠ والطبري ج٣ ص٤٠٠.

(٣) الكامل ج٣ ص١٠٠.

معاوية على ابن عمه يوم كان محصوراً وترده أخباره، ويستنجده فلا يجيبه بشيء، ويستغيث به وكأن في أذنيه صمم؟!!.

يحدثنا الطبري[1]: أن عثمان كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإن أهل المدينة كفروا وخلعوا الطاعة، ونكثوا البيعة، فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول..

فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله ﷺ وقد علم اجتماعهم.

لا يريد معاوية نصرة عثمان وإنما يحاول أن ينتصر المسلمون عليه فيقتل فتكون له وسيلة لنجاح الخطط التي رسمها ضد علي وبني هاشم، لأن الأمويين يحاولون أن يكيلوا لهم صاع الانتقام كل أذى، وكانوا في حذر من تنازل عثمان عن العرش فتفشل ريحهم، ويخيب كل أمل لهم في الأمر، لذلك كان مروان وباقي الحزب الأموي يقفون حاجزاً دون تحقيق الأهداف التي أراد المصلحون الوصول إليها في إبعاد المفسدين من الأمويين عن الحكم وتجرد الخليفة عن معاونتهم، وكان الأمر المهم الذي يتطلبه إصلاح وضع الأمة هو إبعاد عثمان عن الحكم، وقد قام الإمام علي بمعالجة الوضع وكلما أراد إصلاح أمر عثمان بالاتفاق بينه وبين الثائرين، من طريق التفاهم وإيقاف تيار الخلاف عند حده، كان الأمويون يسلكون طرق الشغب، ويوقدون نار الفتنة، فكانت مواعيد عثمان كلها فاشلة، وأعمال بني أمية وفي طليعتهم مروان تزيد حراجة الموقف. وتضاعف الحال تعقيداً.

وكان الخليفة المقتول يأمل من معاوية نصره في تلك المشكلة ولكنه خذله بصورة لا مجال للتشكيك فيها.

ولما ازداد نشاط الثوار عاود عثمان أمله فانتصر بمعاوية مرة أخرى، فأرسل معاوية جيشاً تحت قيادة يزيد القسري، وأمره أن يقيم بذي خشب ولا يتجاوز، وقال له: لا تقل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فإني أنا الشاهد وأنت الغائب. فأقام الجيش حتى قتل عثمان، فاستقدمه معاوية إلى الشام، وإلى هذا يشير أبو أيوب

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٠٢.

الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ بقوله لمعاوية: إن الذي تربص بعثمان وثبط يزيد بن أسد عن نصرته لأنت.

فمعاوية بطلبه لثأر عثمان بعد موته وخذلانه له في حياته دليل على سوء نواياه وما يقصده من وراء ذلك. وهو مخطط أموي للاستيلاء على السلطة ومقابلة علي بكل وجه. وإن معاوية لا يقيم لقتل عثمان وزناً ولا يرى له قيمة ولكنها حجة استهوى بها أمة أخضعها لإرادته وسيرها كما شاء، وإلا فإن من قتلة عثمان من أصبحوا أنصار معاوية وحزبه وهو يعرف ذلك، ويعلم جيداً أن الإمام علي أكثر الناس حرصاً على الدماء، وأن ما كان من قواعد الولاية أن تكون البيعة ثم تفوض الأمور بالأموال والدماء وكل الحقوق إلى صاحبها كما هو العهد في حكم من سبق الإمام، ولكن الأمر لم يكن القصاص أو الثأر لعثمان وإنما كراهية دولة الحق وسلطان الدين وقد جاءا علياً ليعيدها بأصولها، وعلي من اليقين بالله والثقة بدينه ما يجعله يجد في الخلافة أمراً يتعلق بالدين لا بالدنيا، ولذلك كان تجاوزه من قبل، فليس أمام معاوية إلا الخديعة والمكر والتظاهر بأمر هو من أدرى الناس بملابساته. وليس لمعاوية نصيب من خصائص علي ودين علي، وعليه أن يظهر للناس بأمر مقبول يجند له كل ما يمكنه من الخديعة والدهاء.

وقد نجح معاوية في مخاتلته ومكره، فقد أصبح خصماً لعلي عليه السلام وطرفاً مقابلاً، والتف حوله ضعفاء العقول الذين يحاولون الوصول لغاياتهم بكل وسيلة، فها هم يقومون في الأندية والمجتمعات، ويبثون بين الأفراد والجماعات يذيعون بين الناس أن خليفة المسلمين قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وهم يبكون ويتألمون واستدرجوا لهذه الغاية من عرف بالنسك ووسم بالصلاح لتكون كلمته أوقع في النفوس، وسرت هذه الدعوى المفتعلة بخطى واسعة، وتلقتها النفوس الضعيفة بكل قبول فأصبح شتم قاتل عثمان على ألسنتهم، وهم يتوقدون بنار الغيظ لطلب الثأر، ومعاوية وحزبه يحركون شعور الناس بنشر قميص عثمان فيطول بكاؤهم ويعلو نحيبهم، وأقسموا أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه.

وجاء عمرو بن العاص إلى دمشق راجلاً ومعه ابناه وهو يبكي كما تبكي المرأة ويقول: واعثماناه أنعي الحياء والدين حتى دخل دمشق، وانضم لجانب معاوية على

حرب علي، وذلك لما بلغه بيعة علي لأنه يكره ولا ية علي عليه السلام وبيعته[1] ولكنه اشترط على معاوية أن يعطيه ولاية مصر ما دام على قيد الحياة ثمناً لافتعاله واصطناعه التظلم لمقتل عثمان، فرضي معاوية بذلك ولا يهمه اشتراك عمرو بن العاص بقتل عثمان في التحريض عليه لهياج الرأي العام، كل ذلك لا يهم معاوية ما دام ابن العاص أصبح عدواً لعلي وكان أكثر اعتماد معاوية على المتمردين على الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

وازداد نشاط خصوم علي بهذه الفكرة وقويت شوكة معاوية، وعظم جانبه، وبرأ الكل من دمه إلا علي وحده، وانقلب بعض المعارضين لعثمان والثائرين عليه من قبل إلى جهة الشفقة والحنان عليه.

عائشة وعثمان:

وكانت أم المؤمنين عائشة تتطلع أخبار المدينة وهي في مكة، وقد تركت عثمان محصوراً، فقدم عليها رجل يقال له أخضر فقالت: ما صنع الناس؟ قال: قتل عثمان المصريين، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون أيقتل قوماً جاؤوا يطلبون الحق وينكرون الظلم؟!! والله لا نرضى بهذا.

فهي بهذه اللحظة متمسكة بالإنكار على عثمان وان من رأيها أحقية المطالبين لعثمان، والثائرين عليه ثم لقيها رجل آخر فسألته ما صنع الناس؟ قال: قتل المصريون عثماناً. قالت: العجب لأخضر زعم المقتول هو القاتل ولم يظهر إلى هذا الحد منها تغير وتبدل، ولكن عندما بلغها قتل عثمان وبيعة علي عليه السلام وهي تريد الخروج إلى المدينة نادت: ردوني إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا بدم عثمان[2]. ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك (تعني علياً) ردوني ردوني قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه.

فقال لها الرجل: ولم؟!! والله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر، قالت: قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من الأول فقال لها:

---

(١) الكامل ج٣ ص١٢٩.

(٢) الطبري ج٣ ص٣٦٩ والكامل ج٣ ص١٠٢.

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر

والتف حولها بنو أمية الذين هربوا إلى مكة، وجاء طلحة والزبير فأيدوا هذا الرأي وانضموا لجانب عائشة، ومن هناك تألف جيش البصرة، وكثر نعي عثمان وإعلان الحرب على علي عليه السلام.

فكانت حرب الجمل[1] وبعدها صفين تلك الحرب التي طال أمدها وعظم وقعها فلجأ معاوية إلى المكر والخداع وانتهت بذلك التحكيم الذي جرى بغير ما أنزل الله ثم كانت حرب النهروان التي أثارها المارقون عن الدين والخارجون على إمام المسلمين فانتصر عليهم وشتت شملهم. وارتحل علي عليه السلام إلى دار البقاء شهيداً بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه وأقام في الأمة العدل وسار بسيرة الرسول (ص) واهتدى بهديه فصلوات الله عليه ورحمته ومغفرته ورضوانه.

وقام من بعده ولده الحسن عليه السلام بنص من أبيه من جهة، واجتماع المسلمين على بيعته من جهة أخرى وهو ريحانة رسول الله وسبطه الذي خلفه في أمته، فكان ما كان من مقابلة معاوية له بإعلان الحرب عليه، ومقابلته له بما يكره، واستعماله طرق الخداع والمكر لتفريق الناس عنه، ليضرب معاوية ضربته القاضية، ويتم له الأمر بالظفر والغلبة.

فكان من حنكة الحسن عليه السلام وحسن تدبيره تنازله للصلح ليوقف تيار غلبة معاوية عند حده، فإن معاوية لو تم له الأمر بالغلبة لكان ما كان من أفعال انتقامية كما هو شأن الظافر الذي لا وازع له يحجزه عن ارتكاب ما يريد وقوعه في خصومه، ولكن الحسن عليه السلام قيده بشروط تقف حاجزاً دونه ودون مآربه وتجعله لا يشعر بسلطة الظفر الذي يبيح ما يريد، وكان يثقل عليه وجود الحسن في الوجود فتوصل إلى قتله بالسم فإنا لله وإنا إليه راجعون وتم لمعاوية ما أراد (وإن ربك لبالمرصاد).

(١) كانت حرب الجمل في سنة ٣٦ هجرية في جمادى الآخرة وقتل فيها من الطرفين عدد لا يقل عن عشرة الآف وفيها قتل طلحة رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله وقد اشتهر عنه قوله أينما أصابت فتح وكذلك وقعة صفين ابتدأت في هذه السنة وانتهت في أمر التحكيم في شهر رمضان سنة ٣٧.

معاوية والخلافة:

ما كان معاوية يحلم يوماً ما بتلك العظمة فيتسنم عرش الخلافة الإسلامية، لقد كان صعلوكاً لا مال له، وذليلاً تحت عزة الإسلام، ووسم هو وأبوه وحزبهم الفاشل بالطلقاء، يوم فتح الله على نبيه ونصره نصراً عزيزاً «ودخلوا في الإسلام وقلوبهم مملوءة بالحقد على الإسلام يتربصون الفرص لمحو سطوره وقلع جذوره وما تغير شيء من نفسيات أبي سفيان بعد دخوله في حضيرة الإسلام قلامة ظفر».

فلا يستغرب من معاوية تلك المقابلة التي قابل بها علياً بوجه لا يعرف الخجل، لأنه وريث ذلك العداء المتأصل بين بني هاشم وبني أمية فتلك «عداوة جوهرية ذاتية يستحيل تحويلها ويمتنع زوالها» فما أعظم محنة المسلمين وما أشد بليتهم عندما يعود أمرهم لخصوم لا يعرفون الرحمة، ولا عهد لهم بالعدل، وناهيك بما في القلوب من حقد، وبما في النفوس من حب الانتقام، وقد آن الأوان لتحريك ساكن الغل وإظهار مكنون العداء.

وإنه ليثقل على معاوية ذكر علي بخير، وتأبى نفسه أن يرى في الوجود أنصاراً لعلي يحفظون به وصايا محمد ﷺ ويرعون حقه، لذلك أصدر أمره إلى عماله عامة بنسخة واحدة: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه.

فما أعظم بلاء الأمة عندما فتح معاوية عليهم باب التشفي والانتقام، وما أكثر المأخوذين بهذه التهمة، ومعاوية يحاول بذلك أن يوقع بين صفوف الأمة عداء تتوارثه الأجيال، ويبعث العصبية بين القبائل ليشق الطريق إلى غايته.

ويحدثنا المدائني في كتاب الأحداث أنه كتب إلى عماله نسخة واحدة أن برأت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته.

وقام الخطباء في كل كورة ينالون من علي ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي، إذ استعمل عليهم المغيرة بن شعبة[1] ثم زياد بن سمية وضم إليه البصرة فكان يقتل كل من اتهمه بحب علي،

(١) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود المتوفى سنة ٥٠ وكان أحد الدهاة استعان به معاوية =

ويهدم الدور ويقطع الأيدي والأرجل، فكان ذلك الدور من أهم أدوار الإرهاب والانقلاب على مفاهيم العدل الإسلامي وإحياء لدور الجاهلية في قتل أهل التوحيد.

والذين على شاكلة معاوية أخلصوا له وقاموا بما يحب فأعلنوا شتم علي والبراءة منه. فكان المرتزقة يتقربون إليه بذلك، وعلماء السوء يوازرونه في نشر الحكايات المفتعلة حتى أدت الحالة في الشام بأن تختم مجالس الوعظ بشتم علي عليه السلام[1]. وبعد ذلك فكر معاوية أن هذا العمل الذي يقوم به لا يثمر كثير فائدة لأنه عمل إرهابي وسرعان ما يتبدل الوضع، فضم لهذا العمل شيئاً آخر من تقريب خصوم علي والمتظاهرين بعدائه والمعروفين بشيعة عثمان وإغداق العطاء عليهم ومنحهم الصلات الجزيلة، ورعايتهم والعناية بهم وتسجيل أسمائهم وأسماء عشائرهم، ليكونوا في محل الاعتبار، ورفع أسماءهم للبلاط الأموي ليشملهم بعطفه ويرعاهم بلطفه، فما أكثر المتقربين إليه خوفاً من شفرة السيف وظلمة السجن، وضيق اللحد وعناء المطاردة والتبعيد. وقد تلقى شيعة علي عليه السلام كل ذلك بصبر وثبات، وتحملوا ظلم معاوية وجوره، ولم يتحولوا عن عقيدتهم أو تزل بهم قدم خوف الإرهاب والفتك.

ثم فكر معاوية بشيء يستطيع به إنجاح خططه عندما يستعمل أولئك الدجالين وذوي الضمائر الرخيصة لوضع الأحاديث على لسان صاحب الرسالة بما تشاء نفسه وتتطلبه مصلحة ملكه، بدون التفات إلى مؤاخذة وعدم مبالاة بجريمة الكذب على الله وعلى رسوله، ولم تقف أمامه حواجز عند ارتكاب جرائم قتل المسلمين على الظنة والتهمة، وسلب الأموال، وهتك الأعراض، وسبي النساء، وهدم الدور، وإلقاء الجثث في الطرقات، والقتل في المساجد وأخذ البريء بالسقيم، إلى غيرها من جرائم يتصدع لها قلب المسلم وتكاد نفسه تذهب حسرات.

وها نحن نتخطى عهد معاوية ولا نقف موقف المدقق الذي يريد حصرها فليس من غرضنا ذلك، وقد كفانا رجال التحقيق من علماء الأمة، والتاريخ الصحيح بيان ذلك إذ ليس لنا من الوقت ما يتسع لنشر تلك الصحائف السود وذكر تلك الفضائع المؤلمة.

= واستعمله على الكوفة وكان عمر قد ولاه البصرة وعزله لقضيته مع أم جميل، قال قبيصة بن جابر: لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج منها إلا بالمكر لخرج المغيرة منها كلها.

(١) ابن عساكر ج٣ ص٤٠٢.

فأعمال معاوية سجلها التاريخ عليه وهي بعيدة عن روح الإسلام ومجانبة للعدالة، وإن ضرب الحصانة عليه باسم الصحبة بدعة في الدين وافتراء محض.

بيعة يزيد وأعماله:

ومضى معاوية لسبيله مثقلاً بأوزاره تاركاً وراءه ولي عهد فرضه على المسلمين بشكل قسري، كما فرض على نفسه الحلم الاصطناعي، ومداراة الناس ليحملهم على إجابته، ومن سوء حظ الأمة أن يلي أمرها فاسق لا يعرف إلا الرذيلة وهو أشرّ خلق الله والعنهم[1] وسيعلم الذي مهد له ذلك أي نوعية قدم للمسلمين وولاه رقابهم. ولا يستبعد من معاوية وكيده للإسلام ومحاربته له من البداية إلى النهاية، أن يرشح يزيد لعلمه بما طبعت عليه نفسه من الفسق وعدم المبالاة بما يرتكبه، ليتم له نجاح الخطط التي رسمها معاوية في حياته لمحاربة الإسلام وأهل البيت، وشرع في تطبيقها في حياته وعهد إلى يزيد لتنمو في عهده فينال معاوية غرضه. فكان يزيد كما أراد أبوه فقد قام بدور خطر ومثل تلك العظائم التي يقف القلم عند بيانها.

فكانت باكورة عمله أن قتل الحسين ابن بنت رسول الله وسبى نساءه بصورة يذوب لها قلب كل إنسان مهما اختلفت ملته ونحلته فضلاً عن المسلم الذي يعرف الحسين ومنزلته من رسول الله ﷺ ومكانته من الإسلام، وما أعظمها من جريمة تقشعر لها الجلود وتذوب لها النفوس حسرات فكانت وقعة الطف سلسلة فجائع مروعة ونكبات أليمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) مما يثير الأسى أن ينجم عن سياسة إضفاء الصحبة وطابع القداسة على معاوية وأمثاله الإيمان بالطاعة لأولي الأمر ممن ظلموا أو سفكوا دماء المسلمين وما نتج من آراء بعدم الطعن بمعاوية أو لعن ابنه يزيد أو تكفيره أو حتى رواية قتل الحسين وما جرى بين الصحابة لأنه يبعث على ذمهم وعندهم لا يجوز نسبة المسلم إلى الفسوق، بدون تحقق، بماذا سيجيبون نبيهم وهم يلقونه غداً؟ نعوذ بالله من خطل القول وزلل اللسان وكل ما يسخط رسوله (ص) ويرضي أعداءه.
أما أولئك الذين أفسد دينهم النُصب وأعمى قلوبهم التعصب ووقعوا ضحايا حملات التضليل فمن فقد عقله راح يفصح عن سخائم سريرته، ومن تزيا بزي العلم على طريقة علماء بلاط ملوك الأمويين فجاهر بالكفر بالتزامه سياسة يزيد فننشد في وصفهم ما قاله الجوهري صاحب الصحاح وقد رمى الزمن أمامه من أمثال هؤلاء:

رأيت فتى أشقراً أزرقاً ... قليل الدماغ كثير الفضول
يفضّل من حمقه دائباً ... يزيد بن هند على ابن البتول

وفي السنة الثانية أباح مدينة الرسول وأصبح جنده يجوسون خلال ديار الوحي ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل، يتدفقون في شوارع ذلك البلد الطيب، يهجمون على البيوت، ليهتكوا أعراضاً، ويسلبوا أموالاً، فلا تزعجهم أصوات النساء المعولات على أزواجهن وأولادهن. ولم تلن قلوبهم لأنين الأطفال وذعرهم.

وترى مخدرات ذلك البلد كأسراب القطا تتخطفها البزاة الجارحة، أو كقطعان الغنم تتناهبها الذئاب الضارية، فهن تحت تصرف أولئك الوحوش ثلاثة أيام يفعلون ما شاؤوا، ومروان بن الحكم ينظر الفجائع فيهتز طرباً ومرحاً يعجبه أن يرى شيوخ الصحابة ووجوه العرب وأبطال الإسلام يقادون لقائد الجيش ليأخذ منهم البيعة ليزيد بيعة عبودية. فبعين الله ما لقيت الأمة، ولا تخفى على الله خافية في الأرض ولا في السماء.

وفي السنة الثالثة هدم الكعبة ولعلها أبلغ أمنية لنفس الأمويين وأعظم إنجاز لعائلتهم أن ينالوا من البيت الذي كان مهبط الوحي على ابن عبد الله (ص) وقبلة الإسلام الذي قضى على مكانتهم وأباد رجالهم، وحرم التوحيد والإيمان، فبنار مجانيقهم يكون يوماً بيوم هبل واللات والعزى. هذا هو ولي عهد معاوية الذي عرف لياقته للحكم وصلاحيته للأمر.

فلنترك عهده ونتخطى فظائعه بدون تفصيل فهي أشهر من أن تذكر، وإن ربك لبالمرصاد. فلم يطل عهده وأراح الله منه الأمة والله شديد الانتقام.

تحول الحكم من آل أبي سفيان إلى بني الحكم:

وتحول الأمر من بعد يزيد بن معاوية من آل أبي سفيان إلى بني الحكم لأن عهد معاوية بن يزيد[1] لم يطل وقد فر بنفسه من ولاية ورثها بدون حق، وهو يعرف أهلها، وإن أباه وجده غاصبون لها، فصرح بذلك في خطبته فقال:

(١) معاوية بن يزيد أبو عبد الرحمن ويقال أبو يزيد ويقال أبو ليلى استخلف بعهد من أبيه في ربيع الأول سنة ٦٤ وكان شاباً صالحاً وكانت مدة خلافته أربعين يوماً ولم يخرج إلى الناس بعد هذه الخطبة ولا فعل شيئاً ولا صلى بالناس ومات وهو ابن ٢١ سنة وقيل ٢٣ وقيل غير ذلك ودفن بمقابر باب الصغير بدمشق ولما حضرته الوفاة قيل له ألا توصي فقال: لا أتزود مرارتها وأترك حلاوتها لبني أمية ولما دفن حضر مروان دفنه فقال أتدرون من دفنتم؟ قالوا نعم معاوية بن يزيد فقال: مروان نعم هو أبو ليلى الذي يقول فيه الفزاري:

إني أرى فتنة تغلي مراجلها ... والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

إن هذه الخلافة حبل الله، وإن جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه علي بن أبي طالب عليه السلام وركب بكم ما تعلمون، حتى أتته منيته فصار في قبره رهيناً بذنوبه، ثم قلد أبي الأمر، وكان غير أهل له، ونازع ابن بنت رسول الله ﷺ فقصف عمره، وانبتر عقبه، وصار في قبره رهيناً بذنوبه. ثم بكى وقال: إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله ﷺ وأباح الخمر، وخرب الكعبة. ولم أذق حلاوة الخلافة. فلا أتقلد مرارتها فشأنكم أمركم والله لإن كانت الدنيا خيراً فقد نلنا منها حظاً ولإن كانت شراً فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها[1] ثم تنازل عن عرش أقيم على جماجم الأبرياء من المسلمين، وخلع برداً نسج على نول المكر والخداع والتمويه، وفر بنفسه عن التلبس بتلك الجرائم فعفى الله عنه.

وولي الأمر مروان بن الحكم، بعدأخذ ورد ووقوع فتن في الشام وغيره وتعصب بين القبائل، وحروب في جميع الأقطار وكثرة الدعاة ضد بني أمية.

فأصبح مروان خليفة المسلمين، ولم تطل أيامه ومات سنة ٦٥هـ قتلته زوجته أم خالد بن يزيد، وهو معدود فيمن قتلته النساء.

ثم جاء دور عبد الملك بن مروان، بويع له بعد أبيه والأمور مضطربة والبلاد تموج من فوضى الأمويين وسوء سيرتهم، وعبد الله بن الزبير قارب أن يتم له الأمر، والمختار بن أبي عبيدة نهض لطلب ثأر الحسين عليه السلام ونكل بقاتليه ومزقهم كل ممزق، وشفى صدور قوم مؤمنين، وقضى على علوج الشرك، وقتلة أولاد الأنبياء فرحمه الله وجزاه خيراً، فكان مجيء عبد الملك للحكم، مجيء فاتك لا يقف عند حد، وناقم لا يعرف قلبه الرحمة، وظالم لا عهد له بالعدل فكان دوره دور إرهاب وجور.

ولادة الإمام الصادق:

وبهذا الدور في عهد عبد الملك بن مروان ولد الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام في ليلة الجمعة في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٢هـ وقيل في

---

(١) ابن حجر في الصواعق ص١٢٤.

غرة شهر رجب والأمة الإسلامية تلاقي تلك الأحكام القاسية، وقد انتشر فيها دعاة الفساد، وتحكم أئمة الجور، واستولى على الأقطار الإسلامية أولئك الجزارون الذين يتقربون لأئمتهم بضحايا البشرية بدون جناية، والأخيار من الأمة الذين ينكرون تلك الأعمال الوحشية عرضة للأخطار ومحلاً للنقم.

ولد عليه السلام في حجر الرسالة، ونشأ في بيت النبوة، وترعرع في ربوع الوحي، وتربى بين جده زين العابدين وأبيه الباقر عليهما السلام.

أقام مع جده علي بن الحسين عليه السلام اثنتي عشرة سنة، وقيل خمس عشرة سنة، وعلى رواية المدائني ست عشرة سنة، وأخذ عنه في حياته وتربى في مدرسته.

وبدون شك ان جده زين العابدين هو أفضل الهاشميين، وسيد أهل البيت في عصره، وأعلم الأمة في زمانه وأورعهم وأصدقهم حديثاً، وبعد وفاة جده تفرد بتربيته أبوه الباقر عليه السلام(١) وهو هو في عمله وورعه، فنشأ الإمام تلك النشأة الصالحة وهو خليفة أبيه، والمتحمل أعباء الإمامة من بعده وعاشر أباه بعد وفاة جده تسع عشرة سنة.

نشأة الإمام الصادق:

ولا شك ان الإمام الصادق نشأ في وسط مجتمع لا يتصل بآل البيت إلا من طريق الحذر والتكتم لشدة المراقبة التي تحوط بهم من السلطة الأموية، وشاهد طلاب العلم يتصلون بمدرسة جده وأبيه وهم بأشد حذر، لأن ذلك الدور لا يستطيع أحد أن يتظاهر بالاتصال بآل محمد ومن عرف في ذلك فإنما مصيره القبر أو ظلمة السجن إلى حيث الأبد.

نشأ الصادق في عصر تتنازع فيه الأهواء، وتضطرب فيه الأفكار وطغت فيه موجة الإحن والأحقاد، وتلاطمت فيه أمواج الظلم والإرهاب.

وتقرب الناس إلى ولاة الأمر بالوشايات والاتهامات فلا حرمة للنفوس ولا قيمة للدين ولا نظام يشمل الرعية، بل هي فوضى والأمراء يحكمون بما شاؤوا والرعية بين أيديهم ألعوبة لأغراضهم.

(١) ستأتي في الجزء الثاني لمحة من حياة الإمام الباقر عليه السلام.

وأشد الناس بلاءً هم أنصار آل محمد وشيعتهم واتخذ خصومهم شتم عليّ سنة يتمون به فرضهم، فلا يدخل الداخل إلى مسجد ولا معبد ولا مجلس ولا حلقة علم إلا ويسمع تلك العبارات التي يعبر بها أولئك القوم عن سوء سريرتهم، ولا يكاد يصغي لخطيب أو قصاص أو واعظ إلا وكانت براعة استهلاله شتم علي عليه السلام.

فكان آل محمد يلاقون تلك المشاق ويواجهون تلك المصاعب بقلوب مطمئنة بما وعد الله الصابرين، وكل هذه الأمور شاهدها الإمام الصادق في نشأته، أو أخذ عنها من أبيه صورة واقعية بعد حدوثها حتى شمله العسف الأموي عندما جيء به مع أبيه الباقر إلى الشام مقر الظالمين وموطن البغاة. فبعين الله ما لقيت الأمة الإسلامية وما لقي آل محمد الذين هم حملة العلم ومبلغي رسالات الإسلام.

أدرك الإمام الصادق صلوات الله عليه ثلاث سنين من خلافة عبد الملك، وتسع سنين وثمانية أشهر من خلافة الوليد بن عبد الملك، وثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام من خلافة سليمان، وسنتين وخمسة أشهر من خلافة عمر بن عبد العزيز، وأربع سنوات وشهراً من خلافة يزيد بن عبد الملك، وعشرين سنة من خلافة هشام بن عبد الملك، وسنة واحدة من خلافة الوليد بن يزيد، وستة أشهر من خلافة يزيد بن الوليد، وبعده لم يبق خليفة للأمويين بعينه لكثرة الاضطرابات حتى زال ملكهم في سنة ١٣٢هـ.

كل هذه الأدوار شاهدها الإمام الصادق، وهو يعيش وأهل بيته بتلك الدائرة الضيقة محاطاً بالرقابة، وبتلك الاتهامات التي يحوكها ضده المتقربون لخصوم آل محمد، وهو يرى بين آونة وأخرى مصارع زعماء الشيعة وسجن آخرين ومطاردة السلطة لبقية السيف منهم، وكان يطرق سمعه مدة تسع عشرة سنة شتم جده علي عليه السلام وانتقاص آله، وكان يرى بعض ولاة المدينة يجمع العلويين يوم الجمعة قريباً من المنبر يسمعهم شتم علي وانتقاصه، حتى ولي عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ فرفع السب عن علي عليه السلام كما سيأتي بيانه.

عصر الإمام الصادق:

كانت نشأة الإمام الصادق نشأة خشونة وملاقاة مصائب، وخوض غمرات محن وبلاء، من ولاة أضاعوا الحق وظلموا الأمة، واتبعوا شهواتهم وأعلنوا العداء لآل

محمد ﷺ ومع هذا كله فإنه كان لا يمتنع من الجهر بالحق وإرشاد الناس وتحذيرهم من مخالطة أولئك الظلمة، وكان ينهى عن المرافعة إليهم وينهى عن الاختلاط بهم وإعانتهم في شيء، والتولي لهم وقبول أي عمل منهم.

وفي أيامه كان خروج زيد بن علي في الكوفة ولما قتل زيد كان يؤبنه بكلماته البليغة، ويلعن قاتله وذلك في أيام هشام بن عبد الملك ذلك الجائر الذي أظهر العداء لآل أبي طالب بصورة إرهابية بعد قتل زيد، وأمر عماله بالتضييق عليهم، وأن تمحى أسماؤهم من ديوان العطاء وملأ منهم السجون، وكتب لعامله يوسف بن عمر الثقفي بقطع لسان الكميت ويده لأنه رثى زيداً، كما منع العطاء عن أهل المدينة لاتهامه إياهم بالميل إلى زيد، وألزم آل أبي طالب بالبراءة من زيد، إلى آخر ما هنالك من فجائع وأمور كانت تحوط بالإمام، وتنكد عيشه، ولكن عناية الله قضت بأن يزداد شعور الناس نحو آل محمد مع تلك المحاولات التي اتخذها الأمويون، فكانت هناك اجتماعات ومؤتمرات سرية سعياً إلى انقلاب عام يزيل مملكة الأمويين وتحويلها لآل محمد، وبانتشار الدعاة لهذه الفكرة وحصول خلاف بين الأمويين أنفسهم اضطربت الدولة، ودب في جسمها الضعف، وأحاطت بها عوامل الانهيار، فكانت فترة سعيدة ولكنها كانت فترة مؤلمة في الوقت نفسه، إذ كان الإمام الصادق يرى ما يصيب الدين الإسلامي من وهن وتشويه وانتهاك فانبرى لفتح أبواب مدرسته، وليقوم بما يجب عليه من توجيه الناس، وبث الأحكام وتعاليم الدين فهو بين شيخوخة الدولة الأموية، وطفولة الدولة العباسية قام في عصر ازدهار العلم لتعليم الناس حتى عد تلامذته أربعة آلاف رجل.

المرحلة السعيدة:

وكان بيته عليه السلام في تلك الفترة كالجامعة، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين[1].

وكان يؤم مدرسته طلاب العلم ورواة الحديث من الأقطار النائية، لرفع الرقابة وعدم الحذر فأرسلت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ

(١) مجلة رسالة الإسلام العدد٤ السنة ٦.

أكبادها، ومن كل قبيلة من بني أسد ومخارق، وطي، وسليم، وغطفان، وغفار، والأزد، وخزاعة، وخثعم، ومخزوم، وبني ضبة، ومن قريش، ولاسيما بني الحارث بن عبد المطلب، وبني الحسن بن الحسن بن علي[1].

ونقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من الأئمة وأعلامهم مثل يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريح، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عيينة، وأبي حنيفة، وشعبة، وأيوب السجستاني، وغيرهم، وعدّوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها[2].

ونالت مدرسة الصادق شهرة عظيمة ففي تلك الفترة السعيدة، كان هو زعيم الحركة الفكرية في ذلك العصر، ويعتبر في الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية في الإسلام، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية[3]، وستطلع على جوانب تكوين هذه المدرسة الكبرى ووجوه نشاطها المختلفة. وإن من جوانب عظمة الإمام الصادق أن ينهض في هذا الدور من التاريخ الإسلامي الذي شهد تلك الأحداث السياسية والتحولات الفكرية، ويقيم صرحاً فكرياً على قواعد دينية ومناهج علمية وهو يواجه سياسة الضغط وحملات العنف ويعالج روح الأمة ويتجه إلى أفكار أبنائها، وبقيت مدرسة الإمام الصادق ـ برغم سياسة الأمويين ـ في محو آثار أهل البيت جامعة تمد الرجال بعلوم الدين وزاد الإيمان، يتخرج منها الطلاب للدعوة إلى الحق، كما بقيت على استقلال نهجها ووضوح مناهجها في عهد العباسيين، وقد حفظت لنا مصادر التاريخ صورة لمكانة الإمام الصادق في عصره ومدى انتشار علمه في الأقطار الإسلامية، حتى كان اسمه في الحديث والرواية من إمارات الصحة وعلامات العلم، ففي كل مسجد من مساجد المسلمين المعروفة راح الرواة والمحدثون ينهلون من فيضه وكلٌ يقول: حدثني جعفر بن محمد، حتى قال أحدهم: أدركت في جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين والورع كلهم يقول: حدثني جعفر بن محمد.

---

(١) كتاب جعفر بن محمد لسيد الأهل.

(٢) كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في مطالب السؤول ج٢ ص٥٥.

(٣) تاريخ العرب للسيد مير علي الهندي ص١٧٩.

العَهد العبّاسي

ما كاد المسلمون يلمسون من الأمويين انحرافهم عن الدين واستهانتهم برجال الأمة، ومحاربتهم أهل البيت حتى اشتد إنكارهم على تلك السيرة الملتوية وذلك النظام الجائر الذي لا يعرف العدل ولا عهد للمسلمين به من قبل.

وكانت نهضة الحسين عليه السلام صرخة داوية، فهي على دعاة الجور بركان بلاء ونقمة، ولدعاة الحق شعلة هداية ورحمة يستنيرون بها في طريق الوصول إلى الدعوة الصالحة، أعقبتها سلسلة ثورات دموية، مهدت الطريق لحدوث انقلاب الحكم وإبعاد أولئك القوم الذين تربّعوا على دسته، فقد ثقلوا على الناس وطال عهدهم الجائر، فكان أفقهم مثقلاً بسحب السخط على أعمالهم، فتألفت الجمعيات السرية التي كان هدفها تحقيق ثورة إصلاحية، لنقل الحكم من أمية ـ التي تعتبر في الواقع عدوة للإسلام من البداية إلى النهاية ـ إلى آل محمد الذين هم دعاة الحق وأئمة العدل.

وكان العباسيون في طليعة أنصار العلويين، وكانوا أشد الناس حماساً لتحقيق ذلك الغرض. وكان لمحمد بن عبد الله بن الحسن نشاط سياسي في ذلك العهد، وبويع في مؤتمر عقده الهاشميون من العباسيين والعلويين، وأول من بايعه السفاح وأخوه المنصور.

ومهما يكن من أمر فقد اندلعت نيران الثورة وهتافات الثوار: الدعوة إلى الرضا من آل محمد، فوقعت الواقعة بأمية ودارت بهم الدوائر، وزال ملكهم وأراح الله العباد والبلاد منهم، وتطلع المسلمون إلى العهد الجديد الذي يأملون به انتشار العدل وتطهير الأرض من الفساد، لاسيما إذا قام على رأس الدولة الجديدة زعيم علوي لا شك في حقه بالخلافة. فانتحل العباسيون أحقيتهم بالأمر وانهم آل محمد وأهله الأدنون.

السفاح:

وجرت الحوادث ودارت عجلة الزمن، وانتقل الأمر إلى بني العباس الذين استغلوا شمولهم باسم آل محمد ثم انتحلوا انطباقه عليهم دون غيرهم، وبويع السفاح[1] فكان عهده عهد ثورة، وقد شغل الناس بمطاردة الأمويين وتتبع البقية منهم، واستطاع السفاح بمهارته أن يظهر للناس عطفه على أبناء عمه بإكرامهم، وعدم التعرض لهم وهو يحاول بذلك جلب قلوبهم، وإقناع الأمة التي ترى أن الحق لهم دونه، وأنه أحد الأفراد المطوقين بالبيعة لآل علي عليه السلام فاقتضت سياسة الدولة الفتية أن يسير على خطة المجاراة لأبناء عمه، والتظاهر بأخذ الثأر من قتلة الحسين عليه السلام لمصانعة الناس الذين بدأوا يدركون بأن العباسيين كانوا يسعون في تحصيل الخلافة لأنفسهم باسم (آل البيت) وما كانوا يقصدون بآل البيت إلا أنفسهم دون العلويين. تمويهاً على الرأي العام.

المنصور:

ولم تطل أيام السفاح حتى مضى لسبيله وقد عهد بالأمر لأخيه المنصور[2] وهو ذلك الداهية الذي أعطته التجارب درساً من التيقظ وجعلته يحذر أشد الحذر حتى من أقرب الناس إليه.

فقد قام المنصور والدولة لم ترتكز دعائمها على أسس قوية فهي مهددة من نواح شتى: فالعلويون يرون العباسيين دعاتهم وأنصار دعوتهم والأمة متجهة بأنظارها إليهم، وان الأمر لهم دونهم، وقواد الثورة يرون أن قيام العباسيين بالأمر كحكومة مؤقتة يستطيعون أن يحولوا الأمر عنهم متى شاؤوا، وبقية السيف من الأمويين يخشى على الدولة من انتشارهم في الآفاق.

وكان علماء المدينة يجهرون بالفتوى بأن بيعة العباسيين غير صحيحة، فتعددت

---

(١) السفاح هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بويع له بالخلافة سنة ١٣٢هـ وتوفي بالجدري في الأنبار يوم الأحد ١١ ذي الحجة سنة ١٣٦هـ وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

(٢) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وهو أكبر من أخيه السفاح وأمه أم ولد اسمها سلامة وكان أكبر من أخيه أبي العباس بويع له بالخلافة سنة ١٣٦هـ وكانت خلافته ٢٢ سنة وتوفي سنة ١٥٨هـ.

صور معارضة العباسيين على أن أهم ما كان يثير القلق في نفس المنصور هو أمر العلويين، وفي طليعتهم جعفر بن محمد الصادق (ع) فكان يحذر منه أشد الحذر ويحاول زوال تلك العقبات بكل حيلة ولا يقف عند حد.

والمنصور عندما يلي الخلافة يرجع بتفكيره إلى الوراء ويتذكر سالف أيامه وماضيه المحزن، يوم كان جوالاً، تتقاذفه أمواج الخوف، وتسوقه الحاجة وطلب العيش إلى رواية الحديث، وهو لا ينسى ضرب السياط وظلمة السجن في عهد الدولة الأموية، ولا ينسى استعطاف الناس بمدح آل محمد، وهو أحد رواة حديث الغدير[١] كل ذلك لا تنمحي صورته عن مخيلته فهو أمامه ومعه.

أعمال المنصور:

والآن وقد أصبح أمير المؤمنين تجبى له الأموال من الشرق والغرب وأودع في خزائنه ما يكفي للدولة عشر سنين بعد أن كان لا يجد درهماً واحداً وتحوط به آلاف من الجنود، بعد أن كان يقطع المسافة البعيدة وحده خائفاً فهو بحكم الغريزة النفسية يشح بما أوتي حتى على نفسه، فكان يرقع ثيابه بيده ويحاسب على الدانق، حتى عرف به، ويكون في حذر من أقل واهمة يتخيل بها زوال ملكه، فحصنه بالسيف، وجعل بينه وبين الخطر سوراً من أشلاء الأبرياء وبحراً من الدماء التي حرم الله إراقتها.

وقد اتخذ طبيباً نصرانياً يستعين به على قتل من لا يود أن يتظاهر في قتله، فكان يدس السم بالدواء، فهذا الطبيب النصراني (كان زنديقاً معطلاً) لا يبالي بمن قتل، أرسل إليه المنصور يأمره بأن يقتل محمد بن أبي العباس. فاتخذ سماً قاتلاً ثم انتظر علة تحدث به، فوجد محمد حرارة فقال له الطبيب: خذ شربة دواء، فقال هيئها فهيأها له وجعل فيها ذلك السم ثم سقاه منها. فكتبت أمه تخبر المنصور فأمر بضرب الطبيب ثلاثين سوطاً خفيفة وسجنه ثم أطلقه وأعطاه ثلاثمائة درهم[٢].. هذه دية القتيل في شرع المنصور.

وهناك نوع آخر من ألوان العذاب الذي كان يعذب بها من وقع تحت قبضته، وهو وضع الأحياء في البناء، فهو اطلال الهاشمية وبغداد لو تمكنت من الإفصاح عن

(١) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٤٤.

(٢) الطبري ج٧ ص٣٠٩.

شيء لكان أول شيء تفصح عنه هي جثث الأبرياء الذين دخلوا في بطونها بدون جرم، وعند الله تجتمع الخصوم.

لقد سلبت الرحمة من قلبه فلا يعرف لها فيه موضعاً، وكان يقف أمام المشاهد المحزنة موقف رجل لا تؤلمه مناظر البؤس أو تزعجه مواقف الشقاء، وقد جمع بين دمامة الوجه وقبح السيرة.

يمر موكبه عندما أراد الحج بابنة عبد الله بن الحسن (ع) وكان أبوها تحت أسره وقد حمل مع من حمل من العلويين، فأرادت استعطافه، والرفق بحال أبيها فأنشأت:

ارحم كبيراً سنه متهدم ... في السجن بين سلاسل وقيود
وارحم صغار بني يزيد انهم ... يتموا لفقدك لا لفقد يزيد
إن جدت بالرحم القريبة بيننا ... ما جدّنا من جدكم ببعيد

فكان جواب المنصور: أذكرتنيه. ثم أمر به فأحدر في المطبق وكان آخر العهد به.

هذه صورة من جور المنصور وقساوته لم تعطفه عاطفة الرحم، ولم تدعه الإنسانية إلى الرحمة بهذه المسكينة، ولم يراقب القربى وحرمة النسب وذل موقفها بين يديه، وكيف يؤمل منه العطف على أهل بيت ينظر إليهم نظر خصم ملأ قلبه عليهم حقداً ونفخ في أوداجه غضباً.

مع المنصور وبني الحسن:

إنه لا يرى لملكه بقاءً إن بقي منهم أحد في الوجود، وكان الفتك بهم هو شغله الشاغل ولا يتوقف في تنفيذ إرادته مهما كلفه الأمر فقام بذلك العمل الإرهابي وفتك بهم فتكاً ذريعاً يوم دخل المدينة محتجاً بأداء فريضة الحج، وما الحج أراد ولكنه أراد أن يعرف حقيقة الأمر عندما يقوم بمهمة الفتك بآل محمد.

وها هو يدخل المدينة وبنو الحسن في سجن رياح، فأمر بالقبض على من بقي منهم فترى شرطته وقواده يعلوهم الغضب، ويرتكبون الشدة، يأتون بأبناء علي واحداً بعد واحد ويودعونهم في السجن بأشد ما يتصور من القسوة.

وكان العباس بن الحسن بن الحسن[1] واقفاً على باب داره وأمه تراقبه وقلبها كجناح الطير من الخوف، فقبض عليه الشرطة، فأخذتها الدهشة ولم تستطع شيئاً في الدفاع عنه، إلا أنها طلبت منهم أن تشم ولدها وتودعه، فكان الجواب بشدة وغلظة: لا يكون ذلك، وقبض على محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان أخو بني الحسن لأمهم، فأحضره أمامه وكلمه بما لا يليق ذكره، وأمر بأن يشق إزاره لتبدو عورته، وأمر بضربه بالسياط فضرب حتى سال دمه، وأرجعه لإخوانه فأقعد إلى جنب أخيه عبد الله بن الحسن، وكان قد أخذ العطش منه مأخذاً فاستقى ماءً فلم يجسر أحد أن يسقيه إلا خراساني رق عليه فسقاه ماءً.

ثم أصدر المنصور أمره بحملهم من المدينة إلى العراق، بعد أن أثقلوا بالحديد وضربوا بالسياط، وهو مطرب لنغمة السلاسل، وأنين المعذبين، فسار ذلك الموكب في شوارع المدينة محاطاً بالجند، وهو يسرع الخطى من المدينة إلى الكوفة، إلى مقرهم الأخير فأودعوا ذلك السجن المظلم، الذي لا يعرف فيه الليل من النهار.

لقد أودعهم المنصور في بطن الأرض، وفعل بهم ما لا يفعل الحيوان المفترس بفريسته، وعاملهم بأقسى ما يتصور من الشدة، فهم لا يعرفون الليل من النهار، وكان الواحد إذا مات من شدة العذاب بقيت جثته ما بينهم، وهم صابرون محتسبون، يتلون الكتاب، ويقيمون الصلاة ولا يعرفون أوقاتها إلا بأجزاء من القرآن يقرأونها، وكانت خاتمة مطافهم أن هدم عليهم السجن فماتوا تحت أنقاضه.

الإمام الصادق ومشاكل العهدين:

وعلى أي حال فقد لقي أبو عبد الله في هذين العهدين كثيراً من المشاكل، فهو في العهد الأموي عرضة لأخطار أولئك القوم الذين يكيدون آل محمد ﷺ ويتوقعون الفرص للفتك بهم، وهو في عصره عميد البيت النبوي وسيد الهاشميين، والمبرز من آل محمد ﷺ ومن رجال الأمة الذين كانوا يهم الدولة أمرهم باتجاه الأنظار إليهم،

---

(١) هو العباس بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب وأمه عائشة بنت طلحة الجود بن عمر بن عبد الله التيمي وكان العباس أحد فتيان بني هاشم وله يقول إبراهيم بن علي الشاعر:

لما تعرضت للحاجات واعتلجت ... عندي وعاد ضمير القلب وسواسا
جعلت أسعى لحاجاتي ومصدرها ... براً كريماً لثوب المجد لباسا

توفي في سجن المنصور سنة ١٤٥هـ لسبع بقين من شهر رمضان وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

ولا يستبعد من الأمويين أن يقابلوه بكل أذى وشدة، ولكن الله سبحانه وتعالى عصمه منهم، ورد كيدهم عنه. ولما دب الضعف في جسم الدولة كانت فترة مريحة استطاع الإمام أن يركن إلى الراحة والاطمئنان مدة من الزمن فتوافد عليه طلاب العلم من رجال الأمة كما مر ذكره.

أما في العهد العباسي فهو قذى في عيونهم لأنه زعيم أهل بيت ثارت الأمة لأجلهم، وانهارت الدولة الأموية بالدعوة لهم، ورفعت شعارات البيعة لهم.

وقد كان في أيام السفاح برفاهية نظراً للظروف والأوضاع التي سايرها السفاح بمقتضى سياسة الدولة. وفي زمن المنصور كانت المشكلة أشد مما هي عليه من قبل، فقد كان المنصور يقظاً لا يفوته ما لجعفر بن محمد من المنزلة في المجتمع، ويعظم عليه اتجاه الأنظار إليه، وقد عاشره من قبل وعرف منزلته وعلمه لذلك كان حذراً منه أشد الحذر، والمخاوف تحيط به والأوهام والشكوك تساوره، كما أن الوشاة ملأوا سمع المنصور من الأكاذيب على جعفر بن محمد عليهما السلام مما جعله يحاول الفتك به، وكانت سياسة جعفر بن محمد وانعزاله ونظره إلى الأمور بعين الواقع برهنت على كذب أولئك الوشاة وخففت من سورة غضب المنصور قليلاً ولكنها لم ترفع أصل الاتهام، فهو على حذر دائم لأنه يعرف مقام الإمام جعفر بن محمد ومنزلته العلمية ومكانته الاجتماعية.

اتهامات المنصور للإمام الصادق:

ومهما يكن من أمر فقد كثرت الوشاة على أبي عبد الله عليه السلام فأثارت من المنصور كوامن ضغنه وحركت عوامل غيظه، فحج في سنة ١٤٧هـ. ودخل المدينة وأمر الربيع بإحضار الإمام جعفر الصادق وقال له: ابعث إلى جعفر من يأتينا به تعباً قتلني الله إن لم أقتله، فتغافل عنه الربيع لينساه، ثم أعاد ذكره وقال: أرسل إليه من يأتيني به متعباً، فلما حضر الصادق عليه السلام أعلم أبا جعفر حضوره، فلما دخل عليه قابله بوحشية وكلام لا مجال لذكره.

وقال: اتخذك أهل العراق إماماً يجبون إليك زكاة أموالهم، وتلحد في سلطاني وتبغي الغوائل، قتلني الله إن لم أقتلك، فقال الصادق عليه السلام: يا أمير إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر. فقال أبو جعفر: إلي وأنت عندي يا أبا عبد الله البريء الساحة السليم الناحية، القليل الغائلة، جزاك الله من

ذي رحم أفضل ما جزى ذوي الأرحام عن أرحامهم، ثم تناول يده فأجلسه معه ثم قال: عليّ بالمتحفة فأتي بدهن فيه غالية فخلقه بيده. ثم قال: في حفظ الله وفي كلاءته. ثم قال: يا ربيع ألحق أبا عبد الله جائزة وكسوة.

قال الربيع فلحقته فقلت له: إني قد رأيت قبل ذلك ما لم تره ورأيت بعد ذلك ما قد رأيت فما قلت يا أبا عبد الله حين دخلت؟ قال عليه السلام قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بركنك الذي لا يرام، واغفر لي بقدرتك عليّ، لا أهلك وأنت رجائي، اللهم إنك أكبر وأجل ممن أخاف وأحذر، اللهم بك أدفع في نحره وأستعيذ بك من شره(١).

وتركزت في ذهن المنصور فكرة الفتك بجعفر بن محمد، لأنه يعلم أن مئات الآلاف يقولون بإمامته وتجبى له الأموال، وينظر بعين العظمة والاحترام، كما أن أكثر الملتفين حول المنصور والمؤازرين له يذهبون إلى القول بإمامته.

وأراد امتحانه مرة ليكون له طريق في المؤاخذة. فدعا ابن مهاجر وقال: خذ هذا المال وآت المدينة والق عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد وأهل بيتهم وقل لهم: إني رجل غريب من أهل خراسان من شيعتكم، وقد وجهوا إليكم بهذا المال، فادفع إلى كل واحد منهم على هذا الشرط كذا وكذا فإذا قبض المال فقل: إني رسول وأحب أن يكون معي خطوطكم بقبض ما قبضتم مني. ومضى فلما رجع قال له أبو جعفر: ما وراءك؟ فقال: أتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد فإني أتيته وهو يصلي في مسجد الرسول ﷺ فجلست خلفه وقلت: ينصرف وأذكر له فعجل وانصرف، فالتفت إليّ فقال: يا هذا، اتق الله ولا تغرّن أهل بيت محمد، وقل لصاحبك اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان وكلهم محتاج، فقلت: وما ذاك أصلحك الله؟ فقال: ادنو مني فدنوت، فأخبرني بجميع ما جرى بيني وبينك حتى كأنه ثالثنا، فقال له: يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم محدث وان جعفر بن محمد محدثنا اليوم(٢).

وصعبت على المنصور تلك الطرق التي اتخذها جعفر بن محمد في حذره

---

(١) ابن الجوزي في صفوة الصفوة ج٢ ص٩٦ وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة ص٢٠٧ والمفيد في الإرشاد ص٢٥.

(٢) ابن شهر آشوب ج٢ ص٣٠٢.

واحتياطه عن أي مؤاخذة من المنصور له ليستحل بها دمه فإنه لم يبق طريقاً إلا سلكه، من إرسال الكتب المزورة عن لسان شيعة جعفر بن محمد يدعونه للنهوض وإرسال الأموال الكثيرة مع أناس استخدمهم المنصور لهذه الغاية عساه أن ينجح بموافقة جعفر عليه السلام في قبض المال أو جواب الكتب، لتكون له وسيلة للقضاء على الإمام، ولكن تلك المحاولات ذهبت بدون جدوى وكان نصيبها الفشل.

وإن المنصور ليهمه أمر جعفر بن محمد أكثر من غيره وله معه أخبار أهمل كثير من المؤرخين ذكرها، وكانت بينهما صلة أيام بني أمية وعاشره في خلافته أكثر من عشر سنين، ولقي في هذه المدة جهداً وامتحن غير مرة، وكان الخطر محدقاً به والمنصور لا يجهل مكانته عليه السلام، فهو الشخصية التي كان يتطلع إليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية، وكان لمدرسته حركة واسعة ونشاط علمي، وازدحم عليه طلاب العلم، واشتهر ذكره، وكان زعيم أهل الحديث في معركة أهل الرأي وأهل الحديث كما يأتي بيانه. فكان المنصور يخشى خطر هذه الشهرة، ويحذر من حدوث انقلاب مفاجىء من قبل العلويين ينضم إليه علماء الأمة الذين اتصلوا بجعفر بن محمد وعرفوا منزلة أهل البيت، مع علمه بمعارضته لبيعة محمد بن عبد الله فإنه اعترض على هذه البيعة معلناً أنها جاءت سابقة لأوانها، ولكن المنصور يخشى أن يترأس الإمام الصادق دعوة العلويين فيشتد الخطر على الدولة الجديدة.

ولكن جعفر بن محمد كان بحدسه الصائب ونظره الثاقب يخترق الحجب ويستشف أحداث المستقبل ويخبر بكثير من الكوائن قبل وقوعها.

فكان من رأيه عدم التعرض لطلب الأمر، ونهى قومه عن عقد تلك البيعة وكان ينصحهم في التجافي عن شؤون الدولة في عصره، وقد عرض عليه الخلافة أبو سلمة الخلال وزير آل محمد في بدء الدعوة، قبل وصول الجند إليه فأبى الإمام قبولها فلم يقنع أبو سلمة بهذا الرد وحاول إقناع الإمام بكل صورة، وعندما أقبلت الرايات كتب أبو سلمة إليه: إن سبعين ألف مقاتل وصل إلينا فانظر أمرك[1] فأجابه بالرد وأن الأمر للسفاح وللمنصور من بعده.

كما أنه عليه السلام لم يستجب لما دعاه إليه أبو مسلم الخراساني قائد الثورة في

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ج٢ ص٣١٠.

بلاد فارس، وصاحب السلطان في ذلك الدور، فإن أبا مسلم كان يدعو الناس إلى الرضا من آل محمد ﷺ، وأعلن غضبه على بني أمية لأنهم ظلموا أهل البيت، وأراقوا دماءهم، وأراد إسناد الأمر لآل علي عليه السلام لأنهم أحق بهذه الدعوة من غيرهم، فكتب إلى الإمام الصادق عليه السلام وهو زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره، وإليه تطلعت الأنظار، واتجهت القلوب ـ وقال في كتابه للإمام الصادق عليه السلام:

إني قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فلا مزيد عليك.

فأجاب الإمام الصادق عليه السلام: ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني[١].

فهو عليه السلام بنظره الصائب ومنهجه السديد، وعلمه بما وراء الحوادث، لا يرى أن يستجيب لدعوة لا تتركز على ما يؤمل فيه تحقيق أهداف الأمة الإسلامية وإصلاح الأوضاع الفاسدة، لعلمه بأن هؤلاء الذين أظهروا الولاء لم يكونوا مخلصين في ذلك وإنما هناك غايات لا يمكنه أن يوافقهم على تحقيقها فهو ينظر إلى الأمور بمنظار الواقع، ويسير على خطط حكيمة وآراء سديدة في تقدير الظروف ومناسباتها.

وقد أخبر عليه السلام من قبل بصيرورة الخلافة لبني العباس دون غيرهم من الهاشميين (ولذلك كان أسد الهاشميين رأياً بمعارضته لبيعة النفس الزكية. والواقع أن أئمة أهل البيت كثر تحدثهم قبل عصر الصادق عن الدولة الهاشمية وتعددت إشاراتهم إلى ملك بني العباس، وأنهم سيطأون أعناق الرجال، ويملكون الشرق والغرب ويجمعون من الأموال ما لم يجتمع لأحد من قبلهم، وأن مدة ملكهم ستطول، وتكون أضعاف مدة الدولة الأموية، وقد أخبروا بهذه الحوادث قبل وقوعها)[٢].

كما أنهم كانوا ذوي تجارب سياسية، واختبارات اجتماعية تفيض لخواطرهم نوعاً من الفراسة واستطلاع الحوادث التي لا بد لها أن تقع في ميادين الانقلابات الحزبية والثورات المتشابكة في طول الدولة الإسلامية وعرضها.

* * *

(١) الملل والنحل ج١ ص٢٤١.

(٢) مؤرخ العراق ابن الفوطي لفضيلة العلامة الشبيبي.

الإمام الصادق شخصيته
وأقـــوال العـلمـــاء فيـــه

شخصية الإمام الصادق:

التاريخ هو مرآة تعكس الصور فتحفظها للأجيال بصفحات تضم الأحداث، وهو للجميع لا يختص بأمة دون أخرى، ولا يتقيد برأي دون رأي، وهو أمين، والأمين يقبح به أن يخون أمانته. ولئن تحتم عليه أن يحتفظ بالحقائق والأضاليل معاً فليس ذلك إلا إلى أمد الآماد ثم تنكشف الحقائق لتثبت وحدها سليمة من مجاورة الأضاليل.

والتأريخ يسجل الحوادث على ما هي عليه بصورها وأشكالها، فلا تغيير ولا تبديل، ولا نقل صورة وترك أخرى؛ هذه هي وظيفة التأريخ الصحيح في كل دور من الأدوار.

ولكن التلاعب السياسي الذي لعب دوراً هاماً في سيطرته على نظام التأريخ وتصرفه في سيره، وسلب حريته في أداء أمانته، جعلنا نعترف بأنه لم يتمكن من أداء واجبه على الوجه الصحيح، وقد أودعت في طياته أشياء هي أعظم عليه من وخز المديْ، وتركت أشياء هي مفخرته عندما يؤديها للأجيال، وان من المؤسف جداً أن يفقد التأريخ حريته، وتلتوي به الطرق، وإذا به ينظر في مرآة الغير ولا ينظر الغير في مرآته. بفعل المسيطرين عليه لا بفعله هو.

ولئن كبّل التأريخ بتلك القيود فهو لا يخلو من حقائق يطمئن إليها كل باحث، وها نحن على ضوء تلك الحقائق نتنزع من أشواك العصبية والأهواء زهرة حياة الإمام الصادق، وإن أكثر المؤرخين قد أهملوا أخباره وسيرته ولم يذكروا إلا النزر منها، ومن وقف على ما كتبه ابن كثير في تأريخه عن بعض الشخصيات التي لا قيمة لها في

سوق الاعتبار يعرف مدى انحرافه وأنه أهمل الواقع وظلم الحقيقة، وتراه عندما يأتي لذكر جعفر بن محمد الصادق في حوادث ١٤٨هـ يقتصر على قوله: وفيها مات الإمام جعفر الصادق. ولا يروق له ذكر شيء عن حياته. وكثيرون أمثال ابن كثير من قبل ومن بعد.

وأغرب شيء وقفنا عليه أن البحاثة محمد محيي الدين المعروف بالتتبع وضبط الألفاظ في تصحيحه وتعليقه على الكتب أهمل اسم جعفر بن محمد وغير اسمه، فيقول عند ذكر وفاته في العنوان: وفاة محمد بن جعفر العلوي[1]. وهب أن ذلك غلط مطبعي أو من الناسخ في أصل الكتاب فإن الواجب عليه التنبيه والإلفات لهذا الغلط. وما نرى ذلك إلا من نتائج جهود النواصب وأعداء أهل البيت الذين اتجهوا بنشاط واضح إلى الأقلام المعاصرة في مصر العروبة والإسلام للتأثير في واقعيتها والتحول عما اتصفت به من الدقة والصدق في مواقف كثيرة.

ومثل شخصية جعفر بن محمد تلك الشخصية الإسلامية العظيمة يجب على التأريخ إعطاءها حقها من البحث، فهو أبرز شخصية في عصره وأعلم الأمة على الإطلاق.

ولا نتجاوز الحقيقة إن قلنا ان الإمام الصادق عليه السلام كان أعلم أهل عصره وهو أولى الناس بحفظ أمانة الدين، ولا نبعد عن الواقع، إن قلنا ان تلك الخطوات التي سار عليها في عصر ازدهار العلم قد أعطت الأمة دروساً، وعلمتهم كيف يجب أن يكون المصلح الذي يقتدي به عظماء الأمة ورجال الدعوة، وأن يستقل العلم بمؤهلاته النفسية ويفرض نفسه على المجتمع بقيمه الروحية، بدون التزام بالقوة. بل الأولى أن يكون مقبولاً من حيث هو، لا من حيث الإرهاب والسلطة أو المغريات الخداعة، وإن الكثير ممن درسوا حياة الإمام الصادق عليه السلام إنما سلكوا طرق الحذر والتكتم، فتلك دراسة سطحية لا تتجاوز حدود دائرة الحذر أو التعصب، وقد رسمت صورته في إطار التأريخ بريشة مفن مرتعشة لذلك لم تبرز طبق الأصل ومع هذا جاءت سليمة من التشويه وفريدة في الإبداع. لم تنل منها أغراض الحكام، ولم تتمكن من منزلته سياستهم، فكان غاية ما في وسع من أشبع بروح العداء أو نذر نفسه لخدمة أغراض

(١) مروج الذهب ج٣ ص٢١٢.

الملوك، أو خشي السيف وظلمة السجون أن يغفل ذكر الإمام أو يهمله، فكان عملهم هذا كأنه إشارة بالغة وصرخة عالية للدلالة على فضل الإمام جعفر الصادق.

ولو تأملنا شخصية الإمام لرأيناها موضع الاهتمام الأول من قبل السلطة ومصدر همومهم، ولوجدناها محور حركة علوم الدين والفقه، فقد أثر نبوغه وتفرده الذي أثار الحكام في مجموع النشاط العلمي.

وغرضنا في البحث عن حياة الصادق بيان منزلته العلمية بالقياس إلى غيره ممن أخذ الشهرة وما هو منه في شيء، والأسباب غير مجهولة والحقيقة غير صامتة. وهنا يلزمنا أن نتخلى عن الموضوع ونستمع إلى أقوال علماء الأمة ورؤساء المذاهب، وحفاظ الحديث، وكبار المؤرخين والكتّاب من القدماء وبعض المعاصرين في انطباعاتهم عن شخصية الإمام الصادق عليه السلام بدون إحاطة للكل، بل من يحضرنا ذكره فلنصغ لأقوالهم تمهيداً للبحث.

أقوال العلماء في الإمام الصادق:

«في كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه»[1].

زيد بن علي (ع)

«إن جعفراً كان ممن قال الله فيه: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا). وكان ممن اصطفاه الله وكان من السابقين في الخيرات[2] وإنه ليس من أهل بيت إلا وفيهم محدث وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم»[3].

المنصور الدوانيقي

«جعفر بن محمد اختلفتُ إليه زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال، إما مُصَلٍ، وإما صائم وإما يقرأ القرآن[4]، وما رأت عين ولا سمعت أذن ولا

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ج٢ ص١٤٧.

(٢) اليعقوبي ج٣ ص١٧٧.

(٣) المناقب ج٢ ص٣٠٢.

(٤) إلى هنا عبارة التهذيب، وما بعدها زيادة في كتاب المجالس السنية ج٥ وقد ذكر ابن تيمية في كتاب التوسل والوسيلة ص٥٢ ط٢ هذه العبارة في جملة طويلة في ضمنها هذه الجملة.

خطرَ على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً»[1].

مالك بن انس

«كنت اذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين»[2].

عمرو بن المقدام

«ما رأيت افقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيىء له من المسائل الشداد فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما أبصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه وأومأ إلي فجلست ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة.

قال جعفر: نعم. ثم اتبعها قد أتانا. كأنه كره ما يقول فيه قوم انه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت المنصور إلي فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك. فجعلت ألقي عليه فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا فربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»[3].

أبو حنيفة

«ما هذا ببشر وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء، ويتروح إذا شاء، فهو هذا. وأشار إلى الصادق».

ابن أبي العوجاء

«جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير وأدب كامل في الحكمة وزهد في الدنيا وورع تام عن الشهوات وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع في الخلافة أحداً، ومن غرق في بحر المعرفة لم يقع في شط، ومن تعلاّ إلى

---

(١) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤.

(٢) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤.

(٣) مناقب أبي حنيفة للموفق ج١ ص١٧٣ وجامع مسانيد أبي حنيفة ج١ ص٢٢٢ وتذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص١٥٧.

ذروة الحقيقة لم يخف من حط»[1]

ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني

«الإمام الصادق كان بين أخوته خليفة أبيه نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره. كان رأساً في الحديث، روى عنه يحيى بن سعيد وابن جريج ومالك بن أنس وابن عيينة وأبو أيوب السجستاني وغيرهم».

القرماني في تاريخه

«جعفر بن محمد كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً».

ابن حيان

«جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله»[2].

الحافظ ابو حاتم

«جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت وساداتهم، ذو علوم جمة، وعبادة موفورة، وأوراد متواصلة، وزهادة بينة، وتلاوة كثيرة، يتتبع معاني القرآن ويستخرج من بحره جواهره ويستنتج عجائبه، ويقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكّر بالآخرة، واستماع كلامه يزهّد في الدنيا، والاقتداء بهديه يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوة، وطهارة أفعاله تصدق أنه من ذرية الرسالة، نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من أعيان الأمة وأعلامهم، مثل يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريح، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عيينة، وأيوب السجستاني، وغيرهم، وعدوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها»[3].

كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي

«جعفر بن محمد الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق أقبل على العبادة والخضوع، وآثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع»[4].

ابو نعيم

---

(١) الملل والنحل ج١ ص٢٧٢ ـ ط٢.
(٢) تهذيب ج٢ ص١٠٤.
(٣) مطالب السؤول ج٢ ص٥٥.
(٤) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٢.

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرئاسة»[1].

عبد الرحمن بن الجوزي

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكنيته أبو إسماعيل ويلقب بالصادق والطاهر والفاضل، وأشهر ألقابه الصادق»[2].

أبو المظفر يوسف شمس الدين

«أدركت في هذا المسجد (يعني الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد»[3].

الحسن بن علي الوشاء

«جعفر بن محمد، ازدحم على بابه العلماء، واقتبس من مشكاة أنواره الأصفياء، وكان يتكلم بغوامض الأسرار وعلوم الحقيقة وهو ابن سبع سنين»[4].

عبد الرحمن بن محمد الحنفي البسطامي

«جعفر بن محمد، الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال: إن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب»[5].

ابو بحر الجاحظ

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقيه صدوق»[6].

ابن حجر العسقلاني

«مناقب الصادق فاضلة، وصفاته في الشرف كاملة، جرى على سنن آبائه الكرام وأخذ بهديه وهديهم عليهم السلام، ووقف نفسه الشريفة على العبادة وحبسها على الطاعة والزهادة، واشتغل بأوراده وتهجده وصلاته وتعبده لو طاوله الفلك لتزحزح عن مكانه».

الوزير ابو الفتح الأربلي

---

(١) صفوة الصفوة ج٢ ص٩٤.
(٢) تذكرة الخواص - ص٣٥١.
(٣) المجالس للسيد الأمين ج٥ ص٢٠٩.
(٤) مناهج التوسل ص١٠٦.
(٥) رسائل الجاحظ للسندوبي ص١٠٦.
(٦) تقريب التهذيب ص٦٨.

«أبو عبد الله الإمام المعظم جعفر الصادق، صاحب الخارقات الظاهرة والآيات الباهرة المخبر بالمغيبات الكائنة أمه وأم أخيه عبد الله أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ولذا كان جعفر بن محمد عليه الرضوان يقول ولدني أبو بكر مرتين ولد سنة ٨٣ وتوفي سنة ١٤٨هـ ودفن بالبقيع»[١].

نقيب حلب محمد بن حمزة بن زهرة

* * *

«جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السجستاني»[٢].

احمد بن حجر الهيتمي

«ولد الصادق بالمدينة يوم الجمعة عند طلوع الفجر سنة ٨٣ وعاش ٦٥ سنة وكانت إمامته أربعاً وثلاثين سنة، وقد نقل الناس عنه على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم ما سارت به الركبان، وقد عد أسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف رجل. توفي في شوال سنة ١٤٨ ودفن بالبقيع مع أبيه وجده وقيل قتله المنصور الدوانيقي بالسم»[٣].

محمد سراج الدين الرفاعي

«جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، سمي الصادق لصدقه، وينسب إليه كلام في صفة الكيمياء والزجر والفال ولد سنة ٨٠ بالمدينة بالبقيع».

عمرو بن الوردي في تاريخه

«جعفر الصادق بن محمد الباقر الإمام السيد أبو عبد الله الهاشمي العلوي الحسيني المدني، وكان يلقب بالصابر والفاضل والطاهر، وأشهر ألقابه الصادق.
حدث عنه أبو حنيفة وابن جريح وشعبة والسفيانان ومالك وغيرهم»[٤].

جمال الدين ابو المحاسن

---

(١) غاية الاختصار ص٦٢.

(٢) الصواعق المحرقة ص١٢٠.

(٣) صحاح الأخبار ص٤٤.

(٤) النجوم الزاهرة ج٢ ص٨.

«وجعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب السادس من الأئمة الإثنى عشر والدته أم فروة كريمة القاسم بن محمد بن أبي بكر (رض). ولد الإمام جعفر في المدينة المنورة سنة٨٢هـ وهو أكبر أولاد الإمام محمد الباقر وتتلمذ على والده فريد زمانه في العلم والفضل، استمر على حلقة تدريس وإفادات جعفر الصادق الإمام الأعظم أبو حنيفة، واستفاد منه أولاً في المعارف الظاهرية والباطنية، وكان للإمام اليد الطولى في الجفر والكيمياء والإلمام بسائر العلوم، وكان ممن تتلمذ على الإمام موجد فن الكيمياء جابر، لم يكن له نضير في الزهد والتقوى، والقناعة وحسن الأخلاق، ولصدق حسبه سمي بالصادق. كان أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين يدعو إلى تعظيم الإمام وتكريمه ويستنير بآرائه وإرشاداته ونصائحه، وعرض أبو مسلم الخراساني الخلافة ابتداء على الإمام جعفر الصادق فلم يقبلها، كان له من الأولاد سبعة أبناء وثلاث بنات، توفي في سنة ١٤٨ عن عمر ناهز ٦٥ سنة في المدينة المنورة ودفن بجوار جده ووالده، عرف صاحب الترجمة بإمام المذهب الشيعي والمنتمون إليه سموا بالجعفرية»(١).

* * *

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني المعروف بالصادق أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر... متفق على إمامته وجلالته»(٢).

علي القاري

«جعفر بن محمد الصادق وهو ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي رضي الله عنهم، ويكنى أبو عبد الله وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وأمه أم فروة أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان من سادات أهل البيت، سمع أباه ومحمد بن المنكدر وعطاء بن أبي رباح، روى عنه عبد الوهاب الثقفي، وحاتم بن إسماعيل، ووهيب بن خالد، وحسن بن عياش، وسليمان بن بلال، والثوري والدراوردي ويحيى بن سعيد الأنصاري، وحفص بن

---

(١) قاموس الأعلام تأليف ش سامي ج٣ ص١٨٢١ استانبول وقد ترجمت الكلمة عن اللغة التركية.

(٢) شرح الشفا لعلي القاري ج٢ ص٣٥.

غياث ومالك بن أنس، وابن جريح، ولد سنة ثمانين ومات سنة ثمان وأربعين ومائة وهو ابن أربعة وستين سنة»[1].

محمد بن طاهر بن علي المقدسي

«جعفر الصادق أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي، سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية: كان من أجل التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه جماعة منهم: أبو حنيفة، ومالك وجابر بن حيان، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، له أخبار مع الخلفاء من بني العباس، وكان جريئاً عليهم صداعاً في الحق، وصنف تلميذه جابر بن حيان كتاباً في ألف ورقة يتضمن (رسائل الإمام جعفر الصادق) وهي خمسمائة رسالة، مولده ووفاته بالمدينة»[2].

خير الدين الزركلي

«لولا السنتان لهلك نعمان».

أبو حنيفة

يقول الألوسي: «هذا أبو حنيفة وهو من أهل السنة يفتخر ويقول بأفصح لسان لولا السنتان لهلك نعمان» يعني السنتين اللتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الإمام جعفر الصادق[3].

«جعفر الصادق فاق جميع أقرانه من أهل البيت وهو ذو علم غزير، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وأدب كامل في الحكمة».

الشيخ عبد الرحمن السلمي

«جعفر الصادق كان من بين اخوته خليفة أبيه ووصيه، نقل عنه في العلوم ما لم ينقل عن غيره وكان إماماً في الحديث ومناقبه كثيرة».

السويدي في سبائك الذهب

«جعفر الصادق له عمود الشرف، ومناقبه متواترة بين الأنام، مشهورة بين الخاص والعام، وقصده المنصور الدوانيقي بالقتل مراراً فعصمه الله».

جمال الدين الداودي

---

(١) الجمع بين رجال الصحيحين ج١ ص٧٠.

(٢) الاعلام ج١ ص١٨٦.

(٣) التحفة الإثنى عشرية ص٨.

«ولا مشاحة ان انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذي تزعم تلك الحركة: هو حفيد علي بن أبي طالب المسمى بالإمام الصادق، وهو رجل رحب أفق التفكير، بعيد أغوار العقل، ملم كل الإلمام بعلوم عصره، ويعتبر في الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الإسلام، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية»(١).

السيد مير علي الهندي

* * *

جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكنيته أبو عبد الله وقيل أبو إسماعيل وألقابه الصادق والفاضل والطاهر وأشهرها الأول، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الكبار كيحيى ومالك وأبي حنيفة»(٢).

محمود بن وهيب البغدادي

* * *

«الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم الهاشمي المدني الصادق، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، روى عن أبيه والقاسم بن محمد ونافع وعطاء ومحمد بن المنكدر والزهري وغيرهم، وروى عنه محمد بن إسحاق ويحيى الأنصاري ومالك والسفيانان وابن جريج وشعبة ويحيى القطان وآخرون ـ واتفقوا على إمامته وجلالته، قال عمر بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين»(٣).

أبو زكريا محيي الدين بن شرف

---

(١) تاريخ العرب ص١٧٩.
(٢) جواهر الكلام ص١٣.
(٣) تهذيب الأسماء ج١ ص١٥٥.

«جعفر الصادق أبو عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب روى عنه كثيرون كمالك والسفيانان وابن جريج وابن إسحاق، واتفقوا على إمامته وجلالته وسيادته، ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٤٨هـ قيل مسموماً، وثقه في روايته الشافعي وابن معين وأبو حاتم والذهبي وهو من فضلاء أهل البيت وعلمائهم».

أحمد شهاب الدين الخفاجي

* * *

«كان جعفر بن محمد الصادق مستجاب الدعوة إذا سأل الله شيئاً لا يتم قوله إلا وهو بين يديه».

الشبلنجي في نور الأبصار

* * *

«جعفر بن محمد سيد بني هاشم أبو عبد الله العلوي».

الذهبي

* * *

«جعفر بن محمد أبو عبد الله فقيه صدوق»[١].

الزرقاني

* * *

«أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين أحد الأئمة الإثنى عشر على مذهب الإمامية وكان من سادات آل البيت، ولقب بالصادق لصدقه وفضله أشهر من أن يذكر».

ابن خلكان في وفياته

* * *

«سلالة النبوة ومعدن الفتوة أبو عبد الله جعفر الصادق بن أبي جعفر محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين الهاشمي العلوي، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، فهو علوي الأب بكري الأم ولد سنة ثمانين في المدينة

---

(١) شرح المواهب ج١ ص٥١.

وفيها توفي ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر، وجده زين العابدين، وعم جده الحسن بن علي رضوان الله عليهم أجمعين وأكرم بذلك وما جمع من الأشراف الكرام، أولي المناقب، وإنما لقب بالصادق لصدقه في مقالته، وله كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها وقد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائله وهي خمسمائة رسالة»[1].

اليافعي

* * *

وقال الشيخ المناوي[2] عند ذكر الإمام جعفر الصادق: وكانت له كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة منها:

«انه سعي به عند المنصور فلما حج أحضر الساعي وقال للساعي: أتحلف؟ قال نعم، فحلف، فقال جعفر للمنصور: حلفه بما أراه فقال: حلفه. فقال: قل برئت من حول الله وقوته والتجأت إلى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا فامتنع الرجل، ثم حلف فما تم حتى مات مكانه.

ومنها أن بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل ليلته يصلي ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الضجة بموته.

ومنها لما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبي في عمه زيد:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

قال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. فافترسه الأسد.

ومنها ما أخرجه الطبري من طريق ابن وهب قال: سمعت الليث بن سعد يقول حججت سنة ثلاث عشرة ومائة فلما صليت العصر رقيت أبا قبيس فإذا رجل جالس يدعو فقال: يا رب، حتى انقطع نفسه ثم قال: يا حي يا حي حتى انقطع نفسه ثم قال: إلهي إني أشتهي العنب فأطعمنيه وإن بردي قد خلق فاكسني قال الليث: فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنباً إلى آخر ما ذكره».

المناوي

---

(١) مرآة الجنان ج١ ص٣٠٤.

(٢) الكواكب الدرية ج١ ص٩٤.

«السادس من الأئمة جعفر الصادق ذو المناقب الكثيرة والفضائل الشهيرة، روى عنه الحديث كثيرون مثل مالك بن أنس وأبي حنيفة ويحيى بن سعيد، وابن جريج والثوري، ولد رضي الله عنه بالمدينة المنورة سنة ثمانين من الهجرة وغرر فضائله على جبهات الأيام كاملة، وأندية المجد والعز بمفاخره ومآثره آهلة وتوفي رضي الله عنه سنة ١٤٨»(١).

عبد الله الشبراوي

* * *

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو عبد الله الصادق المدني أحد الأعلام حدث عن أبيه وجده وأبي أمه القاسم بن محمد وعروة وعنه خلق لا يحصون فمنهم ابنا موسى وشعبة والسفيانان قال الشافعي وابن معين وأبو حاتم ثقة مات سنة ١٤٨ عن ٦٧»(٢).

الجزري

* * *

«أبو عبد الله جعفر الصادق: كان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، ولد سنة ثمانين وروى عنه مالك بن أنس وأبو حنيفة وكثيرون من علماء المدينة»(٣).

محمد الخضري

* * *

«وأكبر شخصيات ذلك العصر في التشريع الشيعي بل ربما كان أكبر الشخصيات في ذلك في العصور المختلفة الإمام جعفر الصادق، وعلى الجملة فقد كان الإمام جعفر من أعظم الشخصيات في عصره وبعد عصره، وقد مات في العام العاشر من حكم المنصور».

الدكتور احمد امين

* * *

---

(١) أتحاف الأشراف ص٥٤.
(٢) الخلاصة ص ٧٦.
(٣) التشريع الإسلامي ص ٢٦٣.

«جعفر بن محمد كان إماماً مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط، وإنما بقي منها في كل غد قادم حتى القيامة صوت صارخ، يعلم الزهاد زهداً؛ ويكسب العلماء علماً، يهدي المضطرب ويشجع المقتحم، يهدم الظلم ويبني للعدالة، وهو ينادي بالمسلمين جميعاً أن هلموا واجتمعوا، وان قوماً لم يختلفوا في ربهم وفي نبيهم لمجموعون مهما اختلفوا في يوم قريب»[1].

عبد العزيز سيد الأهل

* * *

«كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، وقد ألف تلاميذه من جميع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري».

السيد محمد صادق نشأة الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

* * *

«أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين هو أحد الأئمة الإثنى عشر على مذهب الإمامية كان من سادات أهل البيت النبوي لقب بالصادق لصدقه في كلامه».

فريد وجدي

* * *

«جعفر الصادق وهو ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه، وفضله عظيم، له مقالات في صناعات الكيمياء والزجر والفال وكان تلميذه جابر بن حيان قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن «رسائل الصادق» وهي خمسمائة رسالة، إليه ينسب كتاب الجفر وسيذكر، وكان جعفر أديباً تقياً ديناً حكيماً في سيرته»[2].

بطرس البستاني

---

(١) كتاب جعفر بن محمد ص٦.

(٢) دائرة المعارف ج٦ ص ٤٦٨.

«عندما يتفرغ الباحث لدراسة شخصية الإمام جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب دراسة صحيحة على ضوء الضمير النقي، والواقع العقلي، والتجرّد العلمي، متبعاً الأصول الحديثة، مبتعداً عن العاطفة، ومرض التعصب، وأثر الجنسية، فلا يستطيع إلا الإقرار بأنها مجموعة فلسفية قائمة بذاتها، تزخر بالحيوية النابضة، والروحية المتجسدة، والعقلية المبدعة التي استنبطت العلوم، وأبدعت الأفكار، وابتكرت السنن، وأوجدت النظم والأحكام»[1].

معهد البحوث الشرقية

عارف تامر، والأب أ. عبده خليفة اليسوعي

***

وبهذا نكتفي عن ذكر أقوال بقية العلماء الآخرين، وسيأتي محل آخر ننشر فيه آراء علماء العصر من المسلمين وغيرهم. ويلزمنا التنبيه على شيء مر ذكره في بعض هذه الأقوال وهو نسبة الزجر والفال إلى الإمام الصادق عليه السلام، وهذا من الخطأ والاشتباه، وإنما كان الإمام يستشف ما وراء الحجب باستقراء الحوادث السياسية، وينظر المستقبل بحكمته وصفاء باطنه، يخبر بالحوادث قبل وقوعها، وقد أخبر بأن الخلافة للسفاح ومن بعده للمنصور وتبقى في أولاده من بعده، وأخبر بمقتل محمد وإبراهيم على يد المنصور، وكان معارضاً لبيعة محمد في المؤتمر الذي عقده الهاشميون من عباسيين وعلويين لبيعة محمد بن عبد الله، وقال لعبد الله بن الحسن: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد، فقال عبد الله لقد علمت خلاف ما تقول، قال الصادق: لا، ولكن هذا وأبناؤه دونك وضرب بيده على أبي العباس. ثم نهض فأتبعه عبد الصمد بن علي وأبو جعفر المنصور فقالا له: أتقول ذلك؟ قال: نعم أقوله والله وأعلمه.

وليس في وسعنا بسط القول في علمهم (ع) وانكشاف حقائق الأشياء لهم، فقد أخبروا بكثير من الحوادث قبل وقوعها، وقد صدر عن الصادق كثير من ذلك مما لا يتسع المجال لذكره.

وأما نسبة الزجر والفال إليه فهو خطأ نشأ من اشتباه في الاسم وتقارب في

---

(١) مقدمة كتاب الهفت والأظلة ص١٥ ـ ١٦.

الزمن، وذلك أن جعفر بن محمد البلخي المعروف بأبي معشر الفلكي كان مشهوراً بالزجر والفال وأستاذ عصره في التنجيم، ونقل الناس أخباره وشاع ذكره.

قال ابن كثير: والظاهر أن الذي نسب إلى جعفر بن محمد الصادق من علم الزجر والطرف، واختلاج الأعضاء إنما هو منسوب إلى جعفر بن أبي معشر هذا وليس بالصادق وإنما يغلطون[1].

هذا ما يتعلق بالانطباعات عن شخصيته عليه السلام وسيأتي في الجزء الرابع إن شاء الله ما له صلة بالموضوع.

* * *

(١) البداية والنهاية ج١١ ص٥١.

الإمـــام الصـــادق
مدرسته وتلامذته ورواة حديثه

مدرسة الإمام الصادق:

لم يكن من المبالغة وصف مدرسة الإمام الصادق بأنها جامعة إسلامية، خلفت ثروة علمية وخرجت عدداً وافراً من رجال العلم، وأنجبت خيرة المفكرين وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء، وقد عدت أسماء تلامذته والمتخرجون من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل، وقد صنف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه وأنهاهم إلى أربعة آلاف.

روى الشيخ الصدوق أن سليمان بن داود المنقري قال: كان حفص بن غياث[1] إذا حدثنا عن جعفر بن محمد قال: حدثني خير الجعافر جعفر بن محمد (ع).

قال الشيخ المفيد في الإرشاد: «إن أصحاب الحديث قد جمعوا الرواة عن الصادق من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف».

وقال الشيخ محمد بن علي الفتال في روضة الواعظين: «وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف».

وقال السيد علي بن عبد الحميد النيلي في كتاب الأنوار: «ومما اشتهر بين

(١) القاضي أبو عمر حفص بن غياث النخعي من الثقات روى عن الإمام الصادق وروى عنه إسحاق وأحمد وخَلْقٌ، وثّقه ابن معين والعجلي وكان متشدداً في الرواية، وصفه ابن عمار بأنه كان عَسِراً في الحديث جداً، توفي سنة ١٩٤هـ، خرّج حديثه أصحاب الصحاح.

العامة والخاصة أن أصحاب الحديث جمعوا أسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف».

وقال الشيخ الطبرسي في أعلام الورى: «ولم ينقل عن أحد من سائر العلوم ما نقل عنه، فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات فكانوا أربعة آلاف رجل، وقال في القسم الثالث: «وروى عن الصادق من أهل العلم أربعة آلاف إنسان».

وقال ابن شهرآشوب في المناقب: «نقل عن الصادق من العلوم ما لا ينقل عن أحد، وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء فكانوا أربعة آلاف».

وقال المحقق في المعتبر في جملة كلامه عن الصادق: «فإنه انتشر عنه من العلوم الجمة ما بهر به العقول وروى عنه جماعة من الرجال ما يقارب أربعة آلاف رجل».

وقال الشهيد في الذكرى: إن أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق كتب من أجوبة مسائله أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف، ودون من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق والشام والحجاز».

وقال الشيخ حسين والد العلامة البهبهاني في ذكر الصادق: «ودون العامة والخاصة ممن تبرز بعلمه من العلماء والفقهاء أربعة آلاف».

وعلى أي حال فإن مدرسة الإمام الصادق، كانت مصدراً للعلم وينبوعاً يفيض على الأمة بالعلوم والمعارف الإسلامية، وأغدقت على العالم الإسلامي بخدماتها الجليلة، في بث تلك التعاليم القيمة في عصر ازدهر فيه العلم، وأقبل المسلمون على انتهاله.

ولو تسنى لمدرسة الإمام الصادق عليه السلام الظهور التام لأدت رسالتها على أحسن ما يتطلبه واقع المسلمين وما هم فيه من الحاجة إلى نشر التعاليم القيمة في بث روح الأخوة الإسلامية، والعدالة الاجتماعية، ومحو المعتقدات الفاسدة والآراء الشاذة.

ولكن بمزيد الأسف أن السلطة الحاكمة قد اتخذت جميع التدابير لمحاربة تلك المدرسة، لأن شهرة الإمام الصادق عليه السلام في العالم الإسلامي كانت تقض

مضاجعهم، وتبعث في قلوبهم الوجل من نشاطه العلمي إلى جانب ما لأهل بيته من النشاط السياسي، ولهذا فقد كانوا يضعون الخطط التي يأملون فيها الوصول إلى غلق أبواب تلك المدرسة والقضاء على الإمام الصادق بكل وسيلة، لأن الأنظار أصبحت متجهة إليه، وكانت وفود رجال الأمة وطلاب العلم تتسابق إلى الحضور عنده، والاستماع منه حتى كان ذكره حديث الركبان، وكانت أندية العلم في العواصم الإسلامية تلهج بذكره، وينتهي الاحتجاج في الاستشهاد بقوله.

«والحقيقة، أن مدرسة الإمام جعفر الصادق الفكرية قد أنجبت خيرة المفكرين، وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء، وإذا كانت هناك حقيقة يجب أن تقال فهي: أن الحضارة الإسلامية والفكر العربي مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالتطور والرقي والخلود، ولعميدها الصادق بالمجد العلمي والتراث الثمين».

كما أنها وجهت الأمة إلى قواعد الاستنباط ونقد الحديث وبعثت على النشاط في مجال التأليف وتبويب الأحكام فكانت ملتقى العلماء، ومجمعاً لطلابه رغم تلك المحاولات التي تبذل في طريق شهرتها، والوقوف أمام انتشار ذكرها.

وأود بأن أسارع هنا فأشير إلى ما يأتي فيما بعد: بأن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام: كان طابعها التي طبعت عليه ومنهجها الذي اختصت به، هو استقلالها الروحي، وعدم خضوعها لنظام السلطة، ولم تفسح المجال لولاة الأمر بأن يتدخلوا في شؤونها، أو تكون لهم يد في توجيهها وتطبيق نظامها لذلك لم يتسن لذوي السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم في شؤون الدولة، ومن المستحيل ذلك - وإن بذلوا جهدهم في تحقيقه - فهي لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين، ولا تركن إليهم كما لا ترتبط وإياهم بروابط الألفة، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام، وبهذا النهج الذي سارت عليه، والطابع الذي اختصت به أصبحت عرضة للخطر، فكان النزاع بينها وبين الدولة يشتد والعداء يتضخم، الأمر الذي جعل المدرسة عرضة للخطر.

ورغم ذلك كله فقد صمدت لتلك الهجمات التي توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود، وقد عانت من بطش الجبارين وعسف الظالمين ما لا يحيط به البيان.

وعلى كل حال فإن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كانت بعيدة عن التأثر بآراء

الحكام الذين يفرضون إرادتهم على العلم والعلماء، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية إلى جانب السلطة التنفيذية.

وقد بذل المنصور كل ما في وسعه لجلب رضا الإمام الصادق عليه السلام والفوز بمسايرته له، ولكنه لم يفلح، فقد أعلن عليه السلام مقاطعته، وأوعز إلى أصحابه ذلك، فسارت مدرسته على ذلك الاستقلال الروحي، ونالت تلك الشهرة العظيمة، وخلفت ذلك التراث الثمين والمجد العلمي، وإن الحضارة الإسلامية مدينة لها بالتطور والخلود. وسيأتي في الأجزاء القادمة مزيد بيان لذلك.

تلامذة الإمام الصادق ورواة حديثه:

أما تلامذته فقد أجمع العلماء على أنهم كانوا أربعة آلاف، وهم من مختلف الأقطار الإسلامية على اختلاف آرائهم ومعتقداتهم، وقيل: إن الثقات منهم كانوا بهذا العدد، ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى البعض منهم مقتصرين على ذكر أسمائهم بدون تفصيل لأنا سنشير إلى جملة منهم في الجزء الثاني، كما اننا لم نذكر منهم إلا من اشتهر بالعلم وخرج حديثه أصحاب الصحاح كالبخاري، ومسلم، والترمذي، وأصحاب السنن. وان منهم من أصبحوا رؤساء طوائف، وأئمة مذاهب: كأبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ صاحب المذهب المنسوب إليه وقد اشتهر قوله: ما رأيت أعلم من جعفر بن محمد. . وقوله: لولا السنتان لهلك النعمان[١] وكانت له مع الإمام الصادق اتصالات متفرقة بالمدينة والكوفة، وقد لازمه مدة سنتين متواصلتين بالمدينة. فجعل هاتين السنتين نجاة له من الهلكة.

مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ رئيس المذهب المنسوب إليه وكانت له صلة تامة بالإمام الصادق عليه السلام وروى الحديث عنه واشتهر قوله: ما رأت عين أفضل من جعفر بن محمد.

سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١هـ وهو من رؤساء المذاهب وحملة الحديث وأعلام الأئمة وقد بقي مذهبه معمولاً به إلى ما بعد القرن الرابع، وكان لسفيان الثوري اختصاص بالإمام الصادق وقد روى عنه الحديث كما روى كثيراً من آدابه عليه السلام وأخلاقه ومواعظه.

---

(١) التحفة الإثنى عشرية ص٨.

سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ والمدفون بالحجون وهو من رؤساء المذاهب البائدة. وغير هؤلاء من حملة الحديث وأعلام الأمة ولا يتسع المجال لذكرهم الآن ونكتفي بذكر البعض منهم في عرض موجز وهم:

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي المتوفى سنة ١٦٠هـ خرج له أصحاب الصحاح والسنن وروى عنه خلق كثير. قال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق. وقال أحمد: شعبة أمة وحده.

وفضيل بن عياض بن سعد بن بشر التميمي اليربوعي المتوفى سنة ١٨٧هـ قال الجزري: «هو أحد أئمة الهدى والسنة، روى عنه الأعمش وسليمان التيمي وابن المبارك وابن القطان وأحمد بن المقدام وخلق كثير، وثقه النسائي وغيره، وخرج له البخاري والترمذي ومسلم والنسائي».

وحاتم بن إسماعيل المتوفى سنة ١٨٠هـ كوفي الأصل خرج له البخاري ومسلم والترمذي والجماعة وكان ثقة في الحديث، أخذ عن الصادق وأخذ عنه خلق كثير منهم إسحق وابن معين[١].

وحفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك أبو عمرو الكوفي المتوفى سنة ١٩٤هـ روى عن الصادق وروى عنه أحمد، وإسحق، وأبو نعيم، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني وعفان بن مسلم، وعامة الكوفيين، ولي قضاء بغداد ثم عزل وولي قضاء الكوفة، وكان كثير الحديث حافظاً له ثبتاً فيه مقدماً عند المشايخ كتبوا عنه من حفظه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث، خرج له الجماعة أجمع[٢].

وزهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة ١٦٢هـ أخذ عن الإمام الصادق وعنه أبو داود الطيالسي، وروح بن عبادة، وأبو عامر العقدي، وعبد الرحمن بن مهدي، والوليد بن مسلم، ويحيى بن بكير، وأبو عاصم وغيرهم وثقه أحمد ويحيى وعثمان الدارمي وهو من رجال الصحاح.

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان الحافظ البصري المتوفى سنة ١٩٨هـ روى له رجال الصحاح وحدث عنه ابن مهدي، وعفان ومسدد وأحمد وإسحق وابن معين.

---

(١) خلاصة الكمال ٥٦.

(٢) تاريخ بغداد ج٨ ص١٨٨ والخلاصة ص٧٤.

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري المتوفى ببغداد سنة ١٨٠هـ روى عنه محمد بن جهضم ويحيى بن يحيى النيسابوري، وأبو الربيع الزهراني، وأبو معمر الهذلي وغيرهم، قال ابن سعد: ثقة وهو من أهل المدينة قدم بغداد ولم يزل بها حتى مات، خرج له البخاري ومسلم والجماعة[(١)].

إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني المتوفى سنة ١٩١هـ روى عن الصادق، وله كتاب مبوب في الحلال والحرام، وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست، وروى عنه إبراهيم بن طهمان والثوري وهو أكبر منه وكني عن اسمه، وابن جريج والشافعي وسعيد بن أبي مريم وأبو نعيم وآخرون ويعد من مشايخ الشافعي وقد أكثر عنه في كتبه[(٢)] وقد اتهم إبراهيم بالحط من السلف فضعف ونسب إلى الكذب، ولعل سبب ذلك اختصاصه بحديث أهل البيت أكثر من غيره.

الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل البصري المتولد سنة ١٢٢هـ والمتوفى سنة ٢١٤ روى عنه الصادق وعنه البخاري وأحمد بن حنبل وابن المديني وإسحاق بن راهويه، قال ابن شيبة: والله ما رأيت مثله.

محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة ١٧٧هـ روى له البخاري والنسائي وابن ماجة.

عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى ١٩٤هـ روى عنه محمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن المديني وغيرهم؛ قدم بغداد في أيام المنصور وحدث بها وثقه ابن معين وكانت غلة عبد الوهاب في كل سنة مائتين وأربعين ألف ينفقها على أصحاب الحديث لا يحول الحول على شيء منها. خرج له مسلم والبخاري.

عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصري خرج له البخاري في صحيحه والترمذي وروى عنه ابن المديني وابن المثنى وزيد بن أحزم، قال ابن حبان مستقيم الحديث.

---

(١) تاريخ بغداد ج٨ ص١٨٨ والخلاصة ص٧٤.

(٢) تهذيب التهذيب ج١ ص٢٨٢ ـ ٧٦٠.

عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز الزهري بن أبي ثابت الأعرج المدني المتوفى سنة ١٩٧هـ خرج له الترمذي في صحيحه.

عبد الله بن دكين الكوفي خرج له البخاري في الأدب المفرد وثقه أحمد وروى عنه يحيى الوضاحي وموسى بن إسماعيل.

زيد بن عطا بن السائب روى عنه إسرائيل وجرير بن عبد الحميد وثقه أبو حاتم. وخرج حديثه النسائي والترمذي.

مصعب بن سلام التميمي الكوفي روى عنه أحمد وأبو سعيد الأشج وخرج له الترمذي، قال ابن معين: ليس به بأس، وقال أبو حاتم: شيخ محلة الصدق.

بشير بن ميمون الخراساني المتوفى سنة ١٨٤هـ روى عنه أحمد بن عاصم الخراساني؛ قدم بغداد وروى الحديث عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام خرج له ابن ماجة.

إبراهيم بن سعد الزهري المتوفى سنة ١٨٣هـ أحد الأعلام ومن رجال الصحاح وهو من شيوخ أحمد بن حنبل.

سعيد بن مسلمة الأموي المتوفى سنة ٢٠١هـ وهو من رجال الصحاح وشيوخ الشافعي.

الحارث بن عمير البصري نزل مكة روى عن الصادق عليه السلام وعنه ابن عيينة وابن مهدي وأبو أسامة.

المفضل بن صالح الأسدي أبو جميلة الكوفي خرج له الترمذي وروى عنه محمد بن عبيد الله المحاربي.

أيوب بن أبي تميمة السختياني أبو بكر البصري مولى عنزة، ويقال مولى جهينة روى عنه الأعمش وقتادة وهو من شيوخه والحمادان والسفيانان وشعبة، وخلق كثير، وثقه ابن سعد وابن معين، ولد سنة ٦٦هـ ومات سنة ١٢١هـ.

عبد الملك بن جريج القرشي أحد العلماء المشهورين ويقال: إنه أول من صنف الكتب في الإسلام، ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٤٩هـ.

وغير هؤلاء ممن نسب لمدرسة الصادق، وأخذ عنه وروى حديثه، وقد ذكر ذلك ابن حجر في تهذيب التهذيب ولسان الميزان وتقريب التهذيب، والذهبي في

ميزان الاعتدال وتذكرة الحفاظ، والجزري في الخلاصة، والخطيب في تاريخه، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل وغيرهم. ولا يصعب على المتتبع إحصاءهم، وقد أفرد بعض علمائنا رسائل في عددهم وذكر أسمائهم وسيأتي في الجزء الثاني بيان جملة منهم.

أما حملة فقهه عليه السلام وخواص أصحابه، الذين كانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الاجتماعية والسياسية، ومحاربة أهل الإلحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والآراء الشاذة ومقابلة الظلمة في شدة الإنكار عليهم وتوجيه الانتقاد إليهم، فسيأتي في الجزء الثالث تفصيل عن حياة بعضهم والمشهورين منهم، كأبان بن تغلب، ومؤمن الطاق، وهشام بن الحكم وغيرهم.

ونكتفي هنا بالتنويه عن بعضهم:

أبان بن تغلب:

أبو سعد الكوفي، روى عن السجاد، والباقر، والصادق، ومات في أيامه. قال الشيخ في الفهرست[1]: «أبان بن تغلب بن رباح أبو سعيد البكري الحريري مولى جرير بن عباد، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي أبا محمد علي بن الحسين وأبا جعفر الباقر وروى عنهم، وكانت له عندهم حظوة وقدم»، وقال له أبو جعفر الباقر: «اجلس في مسجد المدينة وافتِ الناس فإني أحب أن يُرى في شيعتي مثلك... وكان فقيهاً لغوياً» وكان غزير العلم متضلعاً في عدة علوم وله كتب ذكرها ابن النديم في الفهرست منها كتاب معاني القرآن، كتاب القراءآت، كتاب من الأصول في الرواية على مذهب الشيعة[2].

وقال ابن سعد في الطبقات: أبان الربعي توفي في الكوفة في خلافة أبي جعفر وعيسى بن موسى والٍ على الكوفة، وكان ثقة وروى عنه شعبة، وقال في التهذيب روى عنه موسى بن عقبة، وشعبة، وحماد بن زيد وابن عيينة وجماعة، وثقه أحمد، ويحيى، وأبو حاتم، والنسائي.

---

(١) الفهرست ص١٧.

(٢) ابن النديم ص٣٠٨.

قال الذهبي في ميزان الاعتدال أبان بن تغلب الكوفي شيعي جلد لكنه صدوق فلنا صدقه وعليه بدعته[1] وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو داود خرج له مسلم وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة.

قال الجوزجاني: أبان بن تغلب زائغ مذموم المذهب، قال ابن حجر: وأما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين، فالتشيع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل عثمان، وأن علياً كان مصيباً في حروبه وأن مخالفه مخطىء مع تقديم الشيخين، وربما اعتقد بعضهم أن علياً أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً صادقاً مجتهداً فلا ترد روايته[2].

أبان بن عثمان بن أحمر البجلي أبو عبد الله أصله كوفي، وكان يسكنها تارة والبصرة أخرى، وقد أخذ عنه أهلها منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى وأبو عبد الله محمد بن سلام، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام، روى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام وأبي الحسن موسى عليه السلام وله مؤلفات منها كتاب المبتدي، والبعث والمغازي والوفاة، وذكره ابن حبان في الثقات، قال محمد بن أبي عمر: كان أبان من أحفظ الناس بحيث إنه يرى كتابه فلا يزيد حرفاً، توفي على رأس المائتين[3].

وهو من الستة أصحاب أبي عبد الله (ع) الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم والإقرار لهم بالفقه وهم: جميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحماد بن عيسى، وحماد بن عثمان، وأبان بن عثمان.

بكير بن أعين الشيباني أخو زرارة روى عن الباقر والصادق عليهما السلام ومات في أيام الصادق عليه السلام ولما بلغه خبر موته قال: أما والله لقد أنزله الله بين رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام. وذكره يوماً فقال: رحم الله بكيراً. وهو من الثقات، وقد روى عنه جماعة.

---

(١) لم يكن أبان مبتدعاً ولكنه بتفضيله لعلي وقوله بإمامته أصبح مبتدعاً في نظر الذهبي وأضرابه ممن حملهم التعصب على تضعيف المشاهير من الحفاظ من أهل السنة وغيرهم لأنهم يروون الأحاديث الصحاح في أهل البيت كما حدث لابن جرير الطبري لأنه يروي حديث: من كنت مولاه. والحاكم لتصحيحه حديث الطير، وحديث الموالاة. وغيرهم كثير سيأتيك بيانه.

(٢) تهذيب التهذيب ج٣ ص٩٣.

(٣) لسان الميزان ج١ ص٢٤.

جميل بن دراج بن عبد الله النخعي روى عن الصادق والكاظم وتوفي أيام الرضا، وهو من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم.

حماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي روى عن الصادق عليه السلام والكاظم والرضا عليه السلام، وهو من أصحاب الصادق عليه السلام ومن الستة المار ذكرهم توفي سنة ١٩٠هـ.

الحارث بن المغيرة النصري روى عن الباقر عليه السلام وعن الصادق (ع) والكاظم (ع)، كان جليل القدر مقبول الرواية له منزلة عظيمة.

هشام بن الحكم البغدادي الكندي مولى بني شيبان كنيته أبو محمد وقيل أبو الحكم أصله من الكوفة وانتقل إلى بغداد قال ابن النديم: هو من جلة أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) وهو من متكلمي الشيعة ممن فتق الكلام في الإمامة وهذب المذهب والنظر وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب سئل عن معاوية أشهد بدراً؟ فقال: نعم من ذاك الجانب، وكان ينزل الكرخ من مدينة السلام وتوفي بعد نكبة البرامكة مستتراً، وقيل في خلافة المأمون وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب الدلالات، ثم ذكر له أكثر من عشرين مؤلفاً.

ودعى له الإمام الصادق (ع) قال: «لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك، وكان أولاً من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل إلى القول بالإمامة بالدلائل والنظر، وكان الصادق (ع) يقول فيه: هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ويقول أيضاً: هشام بن الحكم رائد حقنا وسائق قولنا المؤيد لصدقنا والدامغ لباطل أعدائنا.

وكان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا إلى من ولاه الله من سمائه فعزلوه، وإلى من عزله الله من سمائه فنصبوه، ولهشام أخبار كثيرة ومحاجات ومناظرات مع خصوم آل محمد، وكان يخوض غمرات البحث فيخرج منها وحليفه النصر.

روى الكليني في الصحيح أنه ورد على الصادق (ع) رجل من أهل الشام فقال له: إني صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك.

فقال له الصادق (ع): كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أو من عندك؟

فقال الرجل: بعضه من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وبعضه من عندي، قال الإمام

الصادق (ع): فأنت إذاً شريك رسول الله ﷺ! قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن الله تعالى؟ قال: لا، قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله ﷺ؟ قال: لا، فقال الصادق (ع): هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم أخرج الصادق (ع) رأسه وكان في خيمة في الحرم قبل الحج بأيام فإذا هو ببعير يخب فقال (ع): هشام ورب الكعبة. فإذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول ما اختطت لحيته وليس في أصحاب الصادق (ع) إلا من هو أكبر سناً منه فوسع له الصادق (ع) وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ثم قال للشامي: كلّم هذا الغلام. يعني هشام بن الحكم.

فقال الشامي لهشام: سلني في إمامة هذا. يعني الصادق (ع). فغضب هشام حتى ارتعد وقال: يا هذا ربك أَنْظَرُ لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال: بل ربي أنظر لخلقه، قال هشام: فعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟ قال: كلّفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلفهم وأزاح في ذلك عللهم.

قال: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟

قال: هو رسول الله ﷺ، قال: فبعد رسول الله ﷺ؟ قال: الكتاب والسنة، قال: فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع عنا الاختلاف؟

قال: فقال الشامي: نعم. فقال هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت وجئتنا من الشام تخالفنا وتزعم أن الرأي طريق الدين وأنت تقر أن الرأي لا يجتمع على القول الواحد للمختلفين؟ فسكت الشامي كالمفكر فقال له الصادق (ع): مالك لا تتكلم؟ قال: إن قلت ما اختلفنا كابرت، وإن قلت إن الكتاب والسنة يرفعان الاختلاف أبطلت لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك. فقال الصادق (ع): سله تجده ملياً. فقال لهشام: من انظر للخلق ربهم أو أنفسهم؟ قال: بل ربهم، قال: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين حقهم من باطلهم؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: أما في ابتداء الشريعة فرسول الله ﷺ، وأما بعده فغيره، قال: من هو غيره؟ قال: في وقتنا هذا هو هذا الجالس الذي تشد إليه الرحال. يعني الصادق (ع) إلى آخر ما ذكره[1].

المعلى بن خنيس كان من أصحاب الإمام ومواليه ومن عذب في الله وقتل

(١) أصول الكافي ج١ ص١٧٢ ـ ١٧٣.

بحب آل محمد، قتله الأمير داود بن علي وصادر أمواله ـ والأسباب غير مجهولة في ذلك ـ لأن المعلى كان من خواص الإمام الصادق (ع) بصورة تستدعي غضب الوالي، وكان داود بن علي عندما ولي المدينة أو الجزيرة برمتها استعمل العسف والجور والاضطهاد للطالبيين فكان شديداً في مطاردتهم وتتبع أنصارهم. وبطبيعة الحال ان مثل المعلى بمواقفه واتصاله بالإمام لا يسلم من شر هذا الوالي وقد تلقى الإمام الصادق هذه الحادثة بالاستياء وأثر في نفسه ومشى إلى ديوان الأمير وهو محنق على خلاف عادته وقال له: قتلت مولاي وأخذت مالي أما علمت أن الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب، وقابله الإمام بالشدة والعنف وحاول ذلك الأمير أن يسند هذا الجرم لصاحب الشرطة ويبرأ من تبعته، فأمر بقتله ليتستر بذلك، ولكن صاحب الشرطة فضح أمره فأعلن للملأ عندما سيق للإعدام بقوله: يأمرونني بقتل الناس فأقتلهم لهم ثم يأمرون بقتلي.

وقد اختلفت أقوال المؤرخين في الحادثة فتارة يذكرونها في عهد السفاح وأخرى في عهد المنصور.

هذا وليس في إمكاننا إحصاء أصحابه عليه السلام ورواة الحديث عنه من الشيعة وغيرهم ونكتفي بهذا القدر، وقد أرجأنا ذكر بعض الأعيان منهم إلى الجزء الثالث: كعبد الملك بن أعين وزرارة وابنه، وعلي بن يقطين، وعمار الدهني وعمرو بن حنظلة، والفضيل بن يسار، وأبو بصير، ومؤمن الطاق، ومحمد بن مسلم، ومعاوية بن عمار، والمفضل بن عمر، وهشام بن سالم، وغيرهم.

مع البخاري

شهرة البخاري:

قطع صحيح البخاري[1] شوطاً بعيداً من الشهرة ونال قبولاً دون غيره من كتب الحديث، فأصبحت له منزلة لا يشاركه بها غيره، ومن العسير مؤاخذته بشيء لأن

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن (بردزبه) بباء موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم دال مهملة مكسورة ثم زاء ساكنة ثم باء موحدة ثم هاء، معناه بالعربية الزراع، وكان جده المغيرة مجوسياً كأبيه أسلم على يد اليمان البخاري الجعفي لذلك قيل للبخاري جعفي لأنه مولى يمان الجعفي ولد سنة ١٩٤ وتوفي سنة ٢٥٦ ودفن بخرتنك قرية على فرسخين من سمرقند.

ذلك يدعو إلى الرمي بالبدعة والخروج عن سبيل المؤمنين[1] ولهذا تهيب أكثر الحفاظ نقده، ووقفوا أمامه موقف خضوع وتسليم.

يقول الذهبي في ذكره لبعض الأحاديث: ولولا هيبة الصحيح لقلت إنها موضوعة. وذهب ابن حزم إلى تكذيب بعض أحاديثه[2] فعنف، لأن التسليم بجميع ما في كتاب البخاري أصبح سنة وصحيحه أصبح معمولاً به، فلا يمكن لأحد أن يعمل بحرية الرأي، ومع هذا فإن بعض الحفاظ من كبار المحدثين تناولوه بالنقد بصراحة وحرية في الرأي من وجوه أهمها:

١ ـ ترتيب الكتاب والعلاقة بينه وبين الترجمة وما تحتها.

٢ ـ انه يقطع الحديث فيذكر بعضه في باب وبعضه في آخر، وقد تختلف الرواية في الأجزاء المختلفة، وقد يذكر بعضها متصل السند وبعضها منقطعه، وقد أخذ عليه في هذا الباب بعض مآخذ لم يستطع المتصرون له أن يجيبوا عنها[3].

٣ ـ انتقده الحفاظ في بعض أحاديث بلغت ١١٠ منها ٣٢ حديثاً اتفق فيها هو ومسلم ومنها ما انفرد بتخريجه وهو ٧٨.

٤ ـ إن بعض الرجال الذين روى لهم غير ثقات وقد ضعف الحفاظ من رجال البخاري نحو الثمانين.

وعلى كل حال فإن صحيح البخاري كان محلاً للوثوق والاعتماد عند أكثر المحدثين فهم يقبلون روايته بدون نقاش تهيباً لمكانته، وحذراً من المؤاخذات القاسية والتهجم المر، لأن أكثر الناس يزعمون أنه أعظم كتاب على وجه الأرض، أو أنه:

«هو عدل القرآن وأنه إذا قرأ في بيت أيام الطاعون حفظ أهله منه، وأن من ختمه على أي نية حصل ما نواه، وأنه ما قرأ في شدة إلا فرجت، ولا ركب به في مركب فغرقت»[4].

وقد جرى على العمل بذلك كثير من رؤساء العلم، ومقدمي الأعيان إذا ألم

(١) قواعد التحديث ص٢٤١.
(٢) تهذيب التهذيب ج٨ ص١٤٦.
(٣) ضحى الإسلام ج٢ ص١١٦.
(٤) قواعد التحديث للقاسمي ص٢٥٠.

بالبلاد نازلة، يوزعون أجزاءه على العلماء والطلبة (لكشف الخطوب وتفريج الكروب، فهو يقوم عندهم في الحرب مقام المدافع والصارم والأسل، وفي الحريق مقام المضخة والماء، وفي الهيضة مقام الحيطة الصحيحة وعقاقير الأطباء، وفي البيوت مقام الخفراء والشرطة، وعلى كل حال هو مستنزل الرحمات ومستقر البركات)[1].

والحاصل أن صحيح البخاري قد أحيط بهالة من التقديس والإكبار فهو عدل القرآن وهو أصح كتاب على وجه الأرض ـ كما يقال ـ ولهذا فقد تهيب أكثر الحفاظ عن نقد أحاديثه ومن أقدم على ذلك عنف.

ومن أظرف الأشياء: أن مجلس المبعوثان في عهد الأتراك بالعراق قد قرر مبلغاً جسيماً لوزارة الحربية جعلوه لقراءة البخاري في الأسطول، فقال الشاعر العراقي الزهاوي ـ وكان عضواً في المجلس ـ: أنا أفهم أن هذا المبلغ في ميزانية الأوقاف، أما الحربية فالمفهوم أن الأسطول يمشي بالبخار لا بالبخاري فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة[2].

ونحن لا ننكر عظمة حديث النبي ﷺ وبركة آثاره، ولكن لنا أن نتساءل لأي شيء اختص صحيح البخاري دون غيره بهذه الخصوصية من كتب الحديث؟ ولماذا كانت له هذه المنزلة دونها؟! ونتساءل لِمَ لم يقرأ القرآن وفيه شفاء للناس ودفع لما يكرهون؟! ولماذا كان صحيح البخاري عدلاً للقرآن وأصبح التوسل به من العقائد الراسخة يتلى لدفع المجاعة ويوزع أحزاباً في المساجد والبيوت كما حدث في مجاعة سنة ٧٩٨ في مصر؟؟؟ فإن كان لصحة أحاديثه فلماذا لم تكن هذه الخصوصية لموطأ مالك الذي قيل فيه إنه أصح كتاب بعد كتاب الله؟!! وصحيح مسلم الذي قالوا فيه: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم[3] ويقول ابن حجر: حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله بحيث إن بعض الناس كان يفضله على صحيح محمد بن إسماعيل وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ من دون تقطيع ولا رواية بمعنى. وقال الحاكم: سمعت

---

(١) من مقال لأحد علماء الأزهر نشر في إحدى المجلات المصرية في معرض نقده لذلك الاعتقاد السائد نشر سنة ١٣٢٠هـ وقواعد التحديث ص٢٥١.

(٢) مجلة الرسالة السنة الخامسة ص٤٠٣.

(٣) تذكرة الحفاظ ج٢ ص١٠٤.

أبا الوليد يقول، قال لي أبي: أي كتاب تجمع؟ قلت أخرج على كتاب البخاري، قال: عليك بكتاب مسلم فإنه أكثر بركة.

وهذا صحيح الترمذي بحسن ترتيبه وتنميقه وتتبعه للصحيح من غيره لم يكن بمنزلة البخاري؟! وقد قالوا: إن كتاب الترمذي أنور من كتاب البخاري. فإن كانت تلك العظمة التي أحرزها صحيح البخاري لما حواه فالقرآن أولى بأن يتخذ لدفع تلك المشاكل، أو كان لعظمة البخاري نفسه؟ فإن مالك بن أنس صاحب الموطأ أعظم منزلة وأعلى كعباً، وأعرق نسباً، وأغزر علماً.

ولا نريد أن نقسو على البخاري بالحكم، أو نجحف بحقه، ونقول بمقالة جمال الدين الحنفي: «من نظر في كتاب البخاري تزندق»[1].

ولا نذهب بعيداً عن الواقع فنقول: إن كل ما فيه صحيح يلزم الاعتقاد به والتصديق له، وإن عدم التصديق بدعة، أو كفر بالله وتكذيب لأحاديث الرسول ﷺ كما ذهب إلى ذلك كثير من المقلدين الذين لا يعقلون.

إن كتاب البخاري لا يخلو من أحاديث لا تتصف بالصحة كما لا يخلو من أحاديث عليها علامة الوضع كحديث «إن النبي كان مسحوراً..» وغيره من الأحاديث التي لا يمكن القول بصحتها، لتناقضها أو تعارضها مع غيرها مما يصعب الجمع بينها، ولا ننكر أن الرجل كان همه خدمة الدين ولكنه كان جمّاعة يتلقى كل ما يسمع بالقبول رغم أنه كان يتنقل من مصر إلى مصر، ويتحول من أفق إلى أفق، وقد جاب العالم الإسلامي من موطنه الأصلي ومحل إقامته حتى الحرمين، ومن السهولة عليه التمييز في النظم والسياق والغرض لكنه صرف همه إلى الرواية فحسب، ففتح أوعية آذانه ولم يفتح أوعية أفهامه لأن أمر تدقيق الطرق وفحص الروايات يحتاج إلى خصائص لا تتوافر إلا بعد جهد، ومن الناس من جُبل على خصلة أو فُطر على شيء لا يستطيع تجاوزه، فكان البخاري مقبلاً على الجمع، ولم يحذر إلا من أمر واحد ستجدنا مضطرين إلى إثباته وهو خوف الملوك الذين يعادون أهل البيت، وليس عليه من خوف إن أخذ الحديث بطرق الخوارج والمارقين والوضّاع والضعفاء. وكل ما يسمعه البخاري يراه مادة حتى نجد أن بعض الأبواب التي تخص السيرة النبوية تضم

---

(١) شذرات الذهب ج٧ ص٤٠.

من الأحاديث التي تتعلق بحياة الرسول الأعظم التفصيلية فيها توغل لا مبرر له ولا حاجة، بل إن عدم ذكرها أولى صيانة للنبي الأعظم ومكانته من تسويته بباقي الخلق، ولكنه الوضع والكذب اللذين جعلا أصحابهما يتناولون كل ناحية ليكذبوا على الرسول الكريم وهم تتحكم فيهم أغراض شتى نفسية وسياسية واقتصادية. والهالة التي أحاط بها الحفاظ شخصية البخاري والقدسية التي رفع إليها بتضافر أوساط وجهات مختلفة لم تمنع بعض علماء السنّة (حفاظاً ومحدثين) من التوقف عن الأخذ بكل ما جاء به البخاري، وعدم تقليد ما جرى عليه ذوو الشأن في الحديث والسياسة، بل تركوا البخاري في بعض ما لا يصح من رواية أو قول كأبي حاتم وابنه عبد الرحمن، وكأبي زرعة، كما ضعف الحافظ أبو الحسن الدارقطني طائفة كبيرة من أحاديثه.

والعلماء الذين أنكروا صحة بعض أحاديثه لم ينكروها إلا بأدلة قامت عندهم، ولا ندري كيف يعد ذلك طعناً في دين الإسلام، وهدماً للسنة كما يذهب بعضهم.

وقد انتقد العلماء من أحاديث البخاري أكثر من مائة حديث، كما انتقدوا رجاله وطعنوا في كثير منهم لأنهم أناس لا قيمة لهم في ميزان الصدق والعدالة، ومنهم ضعفاء لا يتصف حديثهم بالصحة.

ولقد ترك البخاري الرواية عن كثير من علماء الأمة وأعلام الحديث، ومن هم أدرى بحديث الرسول ﷺ، وأشد عناية فيه وإحاطة له، وفي طليعتهم الإمام الصادق عليه السلام فلم يقدح ذلك فيهم أو يحط من مقامهم.

وقد خرج أحاديث أناس لم يسلموا من الطعن، سواء في العقيدة أو العدالة، أو الوثاقة، فإن منهم من اتهم بالكذب، ووصف بوضع الحديث، وللمثال نذكر منهم:

إسماعيل بن عبد الله بن أويس بن مالك المتوفى سنة ٢٢٦.

قال يحيى بن معين: إن إسماعيل مخلط كذاب. وقد تكلم فيه النسائي كما أنه عرف بوضع الحديث لأهل المدينة إذا اختلفوا فيما بينهم.

وزياد بن عبد الله العامري المتوفى سنة ٢٨٢ فإنه منهم بالكذب. قال الترمذي عن وكيع: إن زياد بن عبد الله على شرفه كان يكذب في الحديث.

والحسن بن مدرك السدوسي الطحان رماه أبو داود بالكذب، وتلقين المشايخ وغير هؤلاء ممن لا نحب إطالة الحديث عنهم وبسط القول فيهم.

أما الضعفاء فقد ذكروا منهم عدداً لا يقل عن الثمانين أمثال: الحسن بن ذكوان البصري فقد كان قدرياً يدلس، وعرف بالخطأ، وضعفه أحمد وابن معين، والنسائي، والترمذي، وابن المديني.

ومنهم أحمد بن أبي الطيب البغدادي، وسلمة بن رجاء التميمي، وبسر بن آدم الضرير وغيرهم ممن نص الحفاظ على ضعفهم.

أما القدرية، فهم عدد كثير كعبد الله بن أبي لبيد المدني، وعبد الله بن أبي نجيح المكي، وكهمس بن منهال السدوسي، وهارون بن موسى الأزدي وسفيان بن سليمان، وعبد الوارث بن سعيد، وغيرهم.

والقول: بأن تخريج البخاري هو دليل الوثاقة، وشاهد العدالة، وأن من يروي له البخاري «فقد جاز القنطرة» كما يقول بعضهم بمعنى أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه. فهذا مجرد افتراض لا يدعمه دليل، وتخالفه القرائن والشواهد، فليس قول البخاري في الشخص هو الحكم العدل والقول الفصل، فالخلاف في الجرح والتعديل لم ينته إلى حد أو يقف عند قول أحد، على أنهم قد أحصوا على البخاري أخطاء في معرفة الرجال وأسمائهم، كجعله اسم الرجل الواحد اسمين أو ثلاث، كالوليد بن أبي الوليد مولى عبد الله بن عمر، وهٰرون بن سعد مولى قريش، وكثير بن خنيس وغيرهم، فقد جعل اسمين لكل واحد منهم، وكذلك جعل محمد بن أيوب اليمامي ثلاثة أسامي وهو واحد، كما نسب عبد الملك بن أخي القعقاع إلى القعقاع، وذكر في باب النون اسم ناسح الحضرمي، وهو عبد الله بن ناسح الذي يروي عنه شرحبيل بن شفيعة، إلى غير ذلك من المؤاخذات عليه.

وهناك ناحية ذات أهمية في الموضوع وهي تخريجه لأناس عرفوا بالنصب والعداء لعلي عليه السلام وبغضهم لآل محمد من خوارج وغيرهم أمثال:

عمران بن حطان السدوسي البصري المتوفى سنة ٨٤هـ. كان من رؤوس الخوارج والمعلنين عداء الإمام علي عليه السلام وهو الذي مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي بقوله:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

فهذا الرجل قد تحدى مقام النبي ﷺ فسمى من وسمه النبي ﷺ بأنه أشقى

الأولين والآخرين، بأنه تقي، وقد صح عن النبي ﷺ بأنه قال:

«يا علي أتدري من أشقى الأولين؟ فقال علي عليه السلام: الله ورسوله أعلم فقال ﷺ عاقر الناقة. قال ﷺ: يا علي أتدري من أشقى الآخرين؟ فقال علي عليه السلام الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: قاتلك يا علي». أخرجه أحمد بن حنبل وابن الضحاك ورواه الطبري[1].

وروى صهيب عن النبي ﷺ مثله وكان علي عليه السلام لأهله: والله وددت لو انبعث أشقاها. أخرجه أبو حاتم.

فأي ثقة وأي عدالة لمن يخالف قول النبي ﷺ ويتجرأ على مقامه، فيسمي من سماه ﷺ شقياً تقياً ويعلن مدحه والثناء عليه. وقد انبرى للرد عليه كثير من علماء الإسلام نظماً ونثراً مما لا يتسع المجال لذكرهم.

وأبو الأحمر السائب بن فروخ المتوفى سنة ١٣٦ وكان شاعراً هجاء خبيثاً فاسقاً مبغضاً لآل محمد، وهو القائل لأبي عامر بن واثلة الصحابي المعروف بأبي الطفيل[2].

لعمرك إنني وأبا طفيل لمختلفان والله الشهيد
لقد ضلوا بحب أبي تراب كما ضلت عن الحق اليهود[3]

فهذا الرجل كسابقه أيضاً قد تحدى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «علي مع الحق والحق مع علي» وقوله ﷺ: «علي مع القرآن والقرآن مع علي» إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة عنه ﷺ بأن الهدى في اتباع علي عليه السلام والضلالة في خلافه ولكن هذا الشاعر الأموي قد رد أقوال النبي ﷺ وتحدى مقامه، فأي عدالة يتصف بها وأي ثقة تدعو إلى الاطمئنان بقوله؟!!

وحريز بن عثمان الحمصي[4] المتوفى سنة ١٦٣هـ كان من المشهورين بالنصب والمعلنين العداء لعلي عليه السلام، وكان ينال منه ويقول: لا أحب علياً قتل آبائي.

---

(١) ذخائر العقبى ص١١٥.

(٢) أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمر الليثي الكناني صحابي جليل وهو آخر الصحابة وفاة. بقي إلى سنة ١٠٠هـ وتوفي فيها وكان من شيعة علي شهد معه حروبه كلها.

(٣) نكت الهميان للصفدي.

(٤) تهذيب التهذيب ج١ ص٢٣٨ وتاريخ بغداد ج٢ ص٢٩٥ وشذرات الذهب ج١ ص٢٥٧ وغيرها.

ويقول: لنا إمامنا (يعني معاوية) ولكم إمامكم (يعني علياً).

وغير هؤلاء من رجال صحيح البخاري الذين عرفوا بالنصب أمثال إسحق بن سويد التميمي المتوفى سنة ١٣١هـ، وعبد الله بن سالم الأشعري المتوفى سنة ١٧٩هـ، وزياد بن علاقة أبو مالك الكوفي المتوفي سنة ١٢٩هـ، وغيرهم من النواصب والخوارج الذين أعلنوا العداء لعلي وتظاهروا بالتحامل عليه، وقد قال ﷺ: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق». وإن المنافقين لفي الدرك الأسفل من النار.

فكيف تصدق أخبارهم ويؤخذ بأحاديثهم (والله يشهد أن المنافقين لكاذبون).

فمن الحق وواجب العلم أن نستنكر على البخاري تخريج حديث أناس خالفوا أحاديث الرسول ﷺ في وجوب حب آله لحبه ﷺ وأعلنوا العداء لهم وعرفوا بالنصب، ولعل هناك أمراً خفي علينا وكان هو الداعي له على إقدامه لروايته عنهم واحتجاجه بهم، ولست أدري أخفي على البخاري قول النبي لعلي: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق. حتى اشتهر في عصر الصحابة أنهم كانوا لا يعرفون المنافقين إلا ببغضهم علي بن أبي طالب. وبغض علي بغض رسول الله ﷺ؟!

أم خفي على البخاري قوله ﷺ: يا علي حربك حربي وسلمك سلمي أليس علي هو من النبي بمنزلة هٰرون من موسى كما يحدثنا البخاري نفسه في صحيحه ج٢ ص١٩٩؟!!

وهناك آلاف من الأحاديث في فضل علي عليه السلام وأهل بيته وقد خرجها الحفاظ من طرق عديدة، ولكن البخاري لم يخرج إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة منها، وليس من المعقول أن عدم تخريجه لأكثر من هذا كان لعدم وثوقه بصحتها، ولكن هناك شيء غير هذا، ولعله كان يفقد الشجاعة والجرأة الأدبية كما لاحظ ذلك منه بعض الكتّاب فقال ما مضمونه: إن كتاب البخاري لا تتجلى فيه الشجاعة وعدم الخوف من العباسيين كمسند أحمد لأنه ـ أي مسند أحمد ـ لم يتحرج من ذكر أحاديث كثيرة في ذكر مناقب علي وشيعته. وعكسه البخاري.

وللإيضاح نذكر بعض ما ورد في أهل البيت مما خرجه حفاظ الحديث وعلماء الأمة من طرق صحيحة ليتضح لنا مدى تحفظ البخاري وإعراضه عن ذكر فضائل آل محمد.

آيــة التطهــير

وأنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين

تخريج الحفاظ لآية التطهير:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١].

أخرج مسلم في صحيحه عن طريق عائشة: خرج النبي ﷺ وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي عليه السلام فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢].

وأخرج الترمذي من طريق عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ في بيت أم سلمة فدعا النبي ﷺ فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء ثم قال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**» قالت أم سلمة: يا رسول الله وأنا معهم؟ قال: أنت على مكانك وأنت على خير[٣].

وأخرج الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ٣٠٣هـ من طريق سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء أهل بيتي[٤].

وأخرج الخطيب من طريق أبي سعيد عن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية وكان في البيت علي وفاطمة والحسن والحسين، قالت: وكنت على باب البيت فقلت: أين أنا يا رسول الله؟ قال: أنت في خير وإلى خير[٥].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.
(٢) صحيح مسلم ج٤ ص١٢٧.
(٣) الترمذي ج٤ ص٣٠٤.
(٤) الخصائص ص٤.
(٥) الخطيب ج٩ ص١٢٧.

وأخرج أيضاً من طريق أبي سعيد عن النبي ﷺ في نزول هذه الآية قال: جمع رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ثم أدار عليهم الكساء فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي... الخ.

وأخرج ابن عبد البر[1] قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطماً وعلياً وحسناً وحسيناً في بيت أم سلمة وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» وأخرجه ابن الأثير من طريق أم سلمة[2].

وأخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ، وفي علي، وحسن وحسين وفاطمة. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وأخرج عن أم سلمة أن هذه الآية نزلت في بيتها وأن في البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

وعن أبي سعيد الخدري عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وأخرج أيضاً من طريق أبي هريرة عن أم سلمة مثله، وكذلك أخرجه عن شهر بن حوشب عن أم سلمة.

وأخرج عن واثلة بن الأسقع[3] عن علي عليه السلام أنها نزلت في رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر كلما خرج إلى الصلاة فيقول الصلاة أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص٢٧.

(٢) أسد الغابة ج٥ ص٥٢١.

(٣) واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر من بني ليث بن عبد مناة أسلم قبل تبوك وشهدها، روى عن النبي (ص) وكان من أهل الصفة وأشار ابن حجر في الإصابة إلى وهم البخاري فيه.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وعن أبي الحمراء مثله[1].

وقال السيوطي[2] من طريق أم سلمة: أخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان في بيتها على منام له وعليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة فقال ﷺ: ادعي لي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . . الآية﴾ فأخذ النبي بفضلة إزاره فغشاهم ثم أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي. الخبر[3].

وقال محمد بن أحمدالمالكي: روى الواحدي في كتابه المسمى أسباب النزول يرفعه بسنده إلى أم سلمة أنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله في بيتها يوماً فأتته فاطمة ببرمة فيها عصيدة فدخلت بها عليه، فقال لها: ادعي لي زوجك وابنيك. فجاء علي عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام فدخلوا يأكلون والنبي ﷺ جالس على دكة وتحته كساء خيبري قالت: وأنا في الحجرة قريب منهم فأخذ النبي الكساء فغشاهم به، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فأدخلت رأسي وقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال ﷺ: إنك على خير، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . . الآية﴾[4].

وأخرجه محب الدين الطبري قال: في بيان أن فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً هم أهل البيت المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إلى آخر ما ذكر.

ورواه من طريق أم سلمة، ومن طريق عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله ﷺ، ومن طريق زينب بنت أبي سلمة، ومن طريق واثلة بن الأسقع ومن طريق عائشة[5].

---

(١) تفسير ابن جرير ج٧ ص٢٢.

(٢) (٣) الدر المنثور ج٥ ص١٩٨.

(٤) الفصول المهمة ص٦.

(٥) ذخائر العقبى ص٢١ ـ ٢٤.

وعن أبي سعيد الخدري أنها نزلت في خمسة: رسول الله، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، أخرجه أحمد في المناقب والطبراني.

وأخرجه الخطيب البغدادي عن سعد بن أبي عوف عن أبي سعيد عن أم سلمة. وعن أبي سعيد الخدري أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين(١) وأخرجه البغوي من طريق عائشة(٢).

وأخرجه الحاكم في المستدرك عن عطاء بن يسار عن أم سلمة(٣).

وقال عبد الملك الثعالبي النيسابوري: جمع النبي علياً وفاطمة والحسن والحسين، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: ويروى أن جبرائيل انضم إليهم واندس فيهم تقرباً إلى الله تعالى بمداخلتهم وقال: كساء آل محمد يضافون إليه فيقال: آل الكساء كما قال ديك الجن في مدحهم:

والخمسة الغر أصحاب الكساء معاً خير البرية من عجم ومن عرب(٤)

وقال ابن تيمية في جواب من سأله عن دخول علي عليه السلام في أهل البيت: مما لا خلاف فيه بين المسلمين، وهو أظهر عندهم من أن يحتاج إلى دليل بل هو أفضل أهل البيت وأفضل بني هاشم بعد النبي ﷺ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أدار كساه على علي وفاطمة وحسن وحسين فقال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»**(٥).

وقال ابن حجر الهيثمي في شرح همزية البوصيري ص٣١٩ عند قوله:

وبأم السبطين زوج علي وبنيها ومن حوته العباء

وهم النبي ﷺ وفاطمة وعلي وابناهما الحسن والحسين.

وقال: وصح أنه ﷺ جعل على علي وفاطمة وابنيهما كساء وقال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»**، فقالت أم سلمة:

---

(١) تاريخ بغداد ج٩ ص١٢٩ وج١٠ ص٢٧٨.
(٢) معالم التنزيل بهامش الخازن ج٥ ص٢١٣.
(٣) المستدرك ج٢ ص٤١٦.
(٤) ثمار القلوب ٤٨٣ ـ ٤٨٤.
(٥) الفتاوى لابن تيمية ج١ ص٢٣٠.

وأنا منهم؟ قال: إنك على خير، وفي رواية ألقى عليهم كساء ووضع يده عليهم وقال: «اللهم إن هؤلاء آل محمد ﷺ فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد إنك حميد مجيد».

وقال الشيخ عبد القادر الرافعي: عند ذكر بيت البوصيري ومن حوته العباء هم: النبي وعلي وفاطمة وابناهما(١).

وذكر ابن كثير في تفسيره طرق نزول هذه الآية في الخمسة فقط، وهم محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين في خمسة عشر مورداً. ونود الإشارة إليها زيادة في التوضيح وتأكيداً للبيان:

١ - حديث أبي الحمراء أن النبي ﷺ كان إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي عليه السلام وفاطمة وقال: الصلاة الصلاة يا أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.

٢ - حديث شداد بن عمار عن واثلة، قال ابن عمار: إني جالس عند واثلة بن الأسقف إذ ذكروا علياً فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه، كنت عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم فألقى عليهم كساء له، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

٣ - حديث أبي رياح عمن حدثه عن أم سلمة أنها نزلت في الخمسة.

٤ - من طريق أبي هريرة عن أم سلمة أيضاً.

٥ - عن حكيم بن سعد: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

٦ - عن عطية عن أبيه عن أم سلمة.

٧ - عن أبي سعيد عن أم سلمة.

٨ - عن شهر بن حوشب عن أم سلمة.

٩ - عن عمر بن أبي سلمة عن أم سلمة.

---

(١) نيل المراد ص٦٥.

١٠ ـ عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبي ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء علي فأدخله معه ثم قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

١١ ـ وعن العوام بن حوشب، عن ابن عم له قال: دخلت مع أبي على أم المؤمنين عائشة فسألتها عن علي فقالت: تسألني عن رجل كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وكان ابنته تحته، رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فألقى عليهم ثوباً، فقال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**» قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقال: تنحي إنك على خير[1].

١٢ ـ عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنها نزلت في خمسة: فيّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين.

١٣ ـ عن عامر بن سعد عن سعد قال: إن النبي ﷺ حين نزلت عليه فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: ربي هؤلاء أهلي وأهل بيتي.

١٤ ـ عن أبي جميلة عن الحسن بن علي عليه السلام.

١٥ ـ عن السدي عن أبي ديلم عن علي بن الحسين عليه السلام.

هذا ما ذكره ابن كثير في تفسيره سلكنا في نقله طريق الاختصار وأعتقد أن المنصف يكتفي بما ذكرنا ولا نحتاج إلى ذكر تفاصيل أخرى حول تخصيص نزول هذه الآية في أهل البيت خاصة، فالأمر أجلى من الشمس.

وكان صلى الله عليه وآله يؤكد بعمله أمام أصحابه بهذه المنزلة، لذلك كان يمر على باب فاطمة يرفع صوته بالسلام عليهم ويتلو هذه الآية.

روى الترمذي في صحيحه عن أنس بن مالك. قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر كلما خرج إلى صلاة الفجر ويقول: الصلاة

---

(١) أخرجه البغوي عن عائشة في معالم التنزيل ج٥ ص٢١٣ المطبوع بهامش تفسير الخازن، وكذلك الخازن نفسه ذكره عن طريق عائشة ج٥ ص٢١٣ وفيه زيادة أنت من أزواج النبي ولا نتكلف البحث عن قوله (ص) لعائشة تنحي. والحاق أنت على خير أو أنت من أزواج النبي.

يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وفي رواية أبي الحمراء: أن النبي ﷺ كان يمر ببيت فاطمة وعلي عليه السلام فيقول: السلام عليكم أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

رواه السيوطي عن أبي الحمراء أن النبي ﷺ كان يمر على باب بيت فاطمة ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى الصلاة الغداة إلا وأتى باب فاطمة ويقول: السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله. الآية[2].

ورواه ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة أبي الحمراء قال رواه الثلاثة[3].

وعن ابن عباس: شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي عليه السلام عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله... الآية خمس مرات.

وهذا البيان منه ﷺ زيادة في البيان لأمته وتأكيداً لهم في إبراز أهله بتلك المنزلة العظيمة وبديهي أنه ما كان قصده أن يوقظهم للصلاة فهم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.

ولكن لشدة اهتمامه بآله وبإظهار فضلهم للأمة كان يعمل هذا ليطبقه تطبيقاً عملياً. وقال الشيخ عبد المجيد الشرنوبي الأزهري[4].

ثم إنه يختلف تفسير آله ﷺ باختلاف المقامات، ففي مقام الزكاة هم الذين تحرم عليهم الصدقة كبني هاشم وفي مقام المدح هم أهل بيته الكرام الذين بحبهم وبزيارتهم يبلغ العبد المرام. وفي الحديث: من مات على حب آل محمد مات مغفوراً له. ولله در القائل:

أرى حب آل البيت عندي فريضة ... على رغم أهل البعد يورثني القربى

فما اختار خير الخلق منا جزاءه ... على هديه إلا المودة في القربى

---

(١) شرح الترمذي لابن العربي ج١٣ ص٨٥ وابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الإصابة ج٤ ص٤٦.

(٢) الدر المنثور ج٥ ص١٧٤.

(٣) الدر المنثور ج٥ ص٩٩ وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب ج٤ ص٦٤.

(٤) شرح الشافية ص١٢٣.

وهم أهل العبا جمعهم النبي ﷺ تحت الكساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فأنزل الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . . الآية﴾. وهم الحسن والحسين وأمهما وأبوهما كما قال بعضهم:

إن النبي محمداً ووصيه وابنيه وابنته البتول الطاهرة

أهل العباء وإنني بولائهم أرجو السلامة والنجا في الآخرة

وراه الشيخ عبد الله الشبراوي[1]. وأخرجه ابن عساكر في تاريخه وأطال البحث في تحقيقه[2]. ومحمد بن يوسف الشافعي في كفاية الطالب[3]. والشيخ أبو بكر بن ملا الحنفي في كتاب قرة العيون[4]. وابن عبد ربه في العقد الفريد[5].

والشيخ نعمان الألوسي في غالية المواعظ قال أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن الآية نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين وأخرج البيهقي والترمذي وابن المنذر عن أم سلمة...[6].

وأخرجه الواحدي في أسباب النزول عن أبي سعيد عن أم سلمة[7].

ويطول بنا البحث، في تتبع إيضاح هذه الآية، وذكر رواتها، وبيان اختصاصها بآل محمد ولا يشاركهم بتلك المنزلة أحد، فنقتصر على هذا البيان الموجز بالنسبة لما تقتضيه من إيضاح يستدعي إلى وضع مجلدات كثيرة للخوض في نتاجات روح التعصب والطائفية التي رعتها وغذتها سياسات الملوك والأمراء الذين صبوا جام حقدهم على أهل البيت الأطهار وشيعتهم وراحوا يجندون علماء السوء وعبدة السلطان للتأثير على أفهام الناس والتحكم فيهم حتى اختلط على الناس ما هم فيه وجازت عليهم البدع والضلالات التي يروجها هؤلاء، فما بين شتم الإمام أمير المؤمنين (ع) على سنّة معاوية وبين إرهاب أهل البيت (ع) على سنة أولاد عم

(١) الأتحاف السنية ص٥.
(٢) تاريخ ابن عساكر ج٤ ص٢٠٤.
(٣) كفاية الطالب ج٢ ص١٣.
(٤) قرة العيون ج١ ص١٨٩.
(٥) العقد الفريد ج١ ص٣٧.
(٦) غالية المواعظ ج٢ ص٨٦.
(٧) أسباب النزول ص٢٦٧.

النبي ﷺ من العباسيين الذين كانوا يقسمون بلا خجل بهذه القرابة وأيديهم ملطخة بدماء أبنائه، كان الناس يحنون الرقاب لأصحاب السلطان والملك ويذعنون (لأولي الأمر)، وليس أولو الأمر غير أئمة الحق والدين وورثة علم النبي المصطفى وحملة رسالته من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وإنها لرزيّة أن يتكلف مسلم مناقشة أمور هي من أنصع الحقائق.

حديث الغدير

رواة حديث الغدير من الصحابة:

رواه جماعة من الصحابة، ينوف عددهم على المائة، وفي طليعتهم أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري المتوفى سنة ٢١هـ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «ما أضلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»، رواه عنه جماعة من الأعلام.

وحذيفة اليماني المتوفى سنة ٢٩هـ والبراء بن عازب، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري المتوفى بغزوة الروم سنة ٥٠هـ، وسعد بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي المتوفي سنة ٣٦هـ وطلحة بن عبيد التيمي، وعائشة زوجة النبي ﷺ أخرج حديثها ابن عقدة[1] في كتاب حديث الولاية.

وعبد الله بن عباس المتوفي سنة ٦٨هـ والعباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وآله وعثمان بن عفان، وأبو اليقظان عمار بن ياسر العنسي شهيد صفين سنة ٢٧هـ، والصديقة فاطمة بنت النبي ﷺ وغيرهم إلى عدد يتجاوز المائة.

ورواه من التابعين عدد ينوف على الثمانين، وكانت عناية الجميع بهذا الحديث

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي المتوفي ٢٣٠ قال الذهبي: هو حافظ العصر والمحدث البحر، كان إليه المنتهى في قوة الحفظ وكثرة الحديث، وقال الدارقطني أجمع أهل الكوفة أنه لم يكن بالكوفة من زمن ابن مسعود إلى زمن ابن عقدة أحفظ منه، وقال أبو علي الحافظ: ما رأيت لحديث الكوفيين أحفظ من أبي العباس بن عقدة، وكان ابن عقدة يقول: أحفظ مائة ألف حديث بأسانيدها ويقول أجيب في ثلثمائة ألف حديث من أحاديث أهل البيت قال الذهبي وكان مقدماً في الشيعة، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج٣ ص١٦ وذكرنا ترجمته هنا لأنه من الذين ألفوا في حديث الغدير في القرن الرابع وأخرج الحديث من مائة وخمسين طريقاً.

ظاهرة، وقد خرجه جماعة من العلماء في كتبهم المعتبرة كمسلم في صحيحه، والترمذي والحاكم، وعدد لا يمكننا حصره بهذه العجالة، وقد ألف فيه جماعة كتباً خاصة يربو عددهم على الثلاثين.

وشهد به لأمير المؤمنين عدد من الصحابة، يوم ناشدهم بحديث الغدير في مواطن عديدة كيوم الشورى، وأيام عثمان، ويوم الرحبة، وقام له في ذلك اليوم من الصحابة عدد ليس بالقليل وفي طليعتهم: أبو الهيثم بن التيهان وأبو هريرة الدوسي؛ وأبو سعيد الخدري، وغيرهم عدد لا يقل عن العشرين وتواتر النقل بتعدد مناشدة أمير المؤمنين أصحاب محمد ﷺ بإظهارهم للملأ هذا الحديث الشريف كما ورد أنه ناشدهم يوم الجمل، ويوم الركبان في الكوفة، وشهد له بذلك جماعة من الصحابة منهم عمار بن ياسر وهو من البدريين، وأبو الهيثم بن التيهان، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقيس بن سعد بن عبادة، وهم ممن شهدوا بدراً، وقد أخفى ذلك الحديث جماعة من القوم لمؤثرات العاطفة وعوامل التعصب فدعا عليهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: اللهم من كتم هذه الشهادة وهو يعرفها فلا تخرجه من الدنيا حتى تجعل به آية يعرف بها، فبرص أنس، وعمي البراء بن عازب، ورجع جرير اعرابياً بعد هجرته وهم ممن كتموا شهادتهم ولم يؤدوا ما حملوا، ومنهم زيد بن أرقم، ويزيد بن وديعة.

وكذلك ناشد أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب محمد ﷺ يوم صفين، واحتجت به فاطمة (ع) والإمام السبط الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن جعفر وغيرهم، ولزيادة البيان نورد طرفاً من خطبة النبي ﷺ يوم الغدير.

خطبة النبي يوم الغدير:

أخرج ابن جرير الطبري المتوفي سنة ٢١٠هـ في كتاب الولاية بسنده عن زيد بن أرقم قال: لما نزل النبي ﷺ بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى وحر شديد فأمر بالدوحات فقمن ونادى الصلاة جامعة فجمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال:

إن الله تعالى أنزل إليّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقد أمرني جبرئيل عن ربي أن أقوم في هذا

المشهد وأُعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي، فسألت جبرئيل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي، وشدة إقبالي عليه حتى سموني أُذُناً، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٦١] ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكني بسترهم قد تكرمت، معاشر الناس فإن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً وفرض طاعته على كل أحد ماض حكمه جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدقه، اسمعوا وأطيعوا فإن الله مولاكم وعلي إمامكم، ثم الإمامة من صلبه إلى القيامة. ومنها:

«افهموا كتاب الله، ولا تتبعوا متشابهه ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده شائل بعضده ومعلمكم: إن من كنت مولاه فعلي مولاه وموالاته من الله عزَّ وجلَّ أنزلها عَليّ. ألا وقد أديت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت»، إلى آخر خطبته ﷺ التي رواها الثقات من رجال الأمة.

ومن أراد الاطلاع وسعة البيان فليراجع ما كتبه الحجة المتتبع فقيه التأريخ شيخنا العلامة الأمين الشيخ عبد الحسين الأميني في كتابه «الغدير» ففيه نجعة الرائد وبغية الطالب.

فهذا بيان موجز عن حديث الغدير، الذي تحرج البخاري عن إخراجه وتنكر له كما تنكر لكثير من فضائل أهل البيت، وحادثة الغدير أهم الحوادث الإسلامية التي سجلها التاريخ بصورة لا مجال لأحد إنكارها، ومن المؤسف إنكار بعض المسلمين لهذه الحادثة المهمة، مكابرة منهم بعد وضوح الحجة والدليل القاطع يوم قام النبي ﷺ في ذلك الحفل الرهيب، والجمع الحاشد وفي ذلك الهجير المضطرم، في غدير خم حيث مفترق المدنيين والمصريين والعراقيين، وعدد الجمع لا يقل عن مائة ألف، وبلغ ما أمره به ربه «بأن ينص على علي عليه السلام وينصبه علماً للناس من بعده، وكان النبي ﷺ يعلم أن ذلك سوف يثقل على الناس وقد يحملونه على المحاباة والمحبة لابن عمه وصهره، ومن المعلوم أن الناس ذلك اليوم وإلى اليوم ليسوا في مستوى واحد من الإيمان واليقين بنزاهة النبي ﷺ وعصمته عن الهوى والغرض، ولكن الله سبحانه لم يعذره في ذلك فأوحى إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، فلم يجد بداً من الامتثال بعد هذا الإنذار

الشديد، فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غدير خم فنادى وجلّهم يسمعون: ألستُ أوْلىٰ بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقالوا: اللهم نعم. فقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» إلى آخر ما قال ثم أكد ذلك في مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً وإشارة ونصاً حتى أدى الوظيفة، وبلغ عند الله المعذرة، ولكن كبار المسلمين بعد النبي ﷺ تأولوا تلك النصوص نظراً منهم لصالح الإسلام حسب اجتهادهم فقدموا وأخروا وقالوا: «الأمر يحدث بعده الأمر»[1].

عناية الشيعة بعيد الغدير:

وكان عيد الغدير محل عناية أهل البيت وشيعتهم على ممر العصور يقيمون شعائره حسب مناسبات الظروف، وفي عهد آل بويه أقيم في بغداد سنين متطاولة بصورة علنية نظراً لرفع الرقابة وعدم الحذر، وقد عظم ذلك على خصوم الشيعة فثاروا ضد إعلان هذا العيد وحدثت ثورات دموية بين السنة والشيعة على فترات من الزمن، والشيعة متمسكة بإظهار هذا العيد لا تقف تلك المحاولات في طريق إقامة شعائره، ولما رأى خصوم الشيعة أن وسائلهم التي قاموا بها ضد هذه الشعائر كان نصيبها الفشل، التجأوا إلى المغالطات العلمية فقاموه في إحداث عيد يقابلون فيه عيد يوم الغدير الزاهر. وهو يوم الغار وجعلوه عيداً وأقاموا الزينة ونصبوا القباب في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة، وزعموا أن النبي ﷺ وأبا بكر اختفيا في الغار، وهذا من الجهل والغلط البين، فإن أيام الغار إنما كانت في آخر صفر أو أول شهر ربيع الأول[2] واستمروا على ذلك مدة ثم كان مصير هذا العيد إلى الإهمال والنسيان.

أما الشيعة فقد استمروا على إحياء عيد الغدير وإقامة المآتم يوم عاشوراء فضاق بأعدائهم ذرعاً ففي سنة ٣٦٣هـ عمدوا إلى مقابلة الشيعة وأركبوا امرأة وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير، وقالوا: نقاتل أصحاب علي فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير[3].

واستمرت الفتن بين الطرفين بسبب إقامة هذه الشعائر، وبلغت مبلغاً شديداً

---

(١) أصل الشيعة وأصولها ص١٠٨.

(٢) شذرات الذهب لابن العماد ج٣ ص١٢٠.

(٣) تاريخ ابن كثير ج١١ ص٢٧٥.

حتى التجأ خصوم الشيعة إلى الاستعانة بالجند والسودان وذلك في سنة ٣٥٠هـ ٩٦١م وكان الجنود يسألون من يجدونه في الطريق من خالك؟ فإن لم يقل معاوية ضربوه.

وطاف أحد السودان المتهجمين بالطرقات وهو يصيح بين الناس: معاوية خال علي فتابعه العامة، وأصبحت هذه هي صيحة أهل السنة بمصر حينما يريدون قتال الشيعة(١).

ويحكى عن بعض الشيعة في تلك المحنة قيل له: معاوية خالك فقال: لا أدري أكانت أمي نصرانية. كل ذلك محاولة منهم لإرغام الشيعة على ترك إقامة هذه الشعائر، ولكنها مرت على ذلك غير مبالية بتلك المقابلات الفاشلة.

كما أنهم قابلوا يوم عاشورا بيوم مصرع مصعب بن الزبير، وأقاموا عليه النياحة وزاروا قبره يومئذ بمسكن(٢) ونظروه بالحسين عليه السلام لكونه صبر وقاتل حتى قتل، ولأن أباه ابن عمة رسول الله وحواريه، كما أن أبا الحسين عليه السلام ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وفارس الإسلام فنعوذ بالله من الهوى والفتن(٣).

وناهيك ما جرى في بغداد من حروب دامية مبعثها الجهل والتعصب التي يقف القلم عند وصفها، وأعظمها محنة وقعة الكرخ التي تجلت فيها نفسية قوم أشرب قلوبهم بغض آل محمد والقضاء على من يواليهم، فقد هجمت طوائف يبعثهم صلف الولاة وميلهم للنزعات، حتى أحرقوا دور شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله وقتلوا الرجال والأطفال فكانت عاقبة الدولة إلى الدمار والانهيار بعد تلك الحادثة بقليل، وليس في وسعنا التعرض لذكر تلك الفجائع السود ولا نود نبش تلك الدفائن التي مرت في تلك العصور المظلمة، ونحن في عصر ما أحوجنا فيه إلى الاخوة والاتحاد لنقابل من يكيد الإسلام ويحاول القضاء على تعاليمه ولا يروق له اتحاد المسلمين لأن في اتحادهم يكون القضاء على المستبدين بأمور الأمة، وكلنا أمل بالوعي المتعاظم بوجوب تطبيق نظام الإسلام ومن الله نسأل تحقيق ذلك.

---

(١) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز ج١ ص١١٢.

(٢) مسكن موضع على نهر دُجيل في العراق دارت الحرب فيه بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ فقتل مصعب ودفن فيه.

(٣) شذرات الذهب ج٣ ص١٣٠.

حديث الثقلين

تخريج الحفاظ لحديث الثقلين:

أخرج مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أرقم خطبة النبي ﷺ يوم الغدير وقوله ﷺ فيها: وأنا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي[(١)].

وأخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما[(٢)].

وأخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض[(٣)].

وعن أبي سعيد أيضاً عن النبي ﷺ قال: إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا بم تخلفوني فيهما[(٤)]؟

ورواه البغوي في مصابيح السنة[(٥)] والقاضي عياض في الشفاء.

وأخرج الخطيب البغدادي من طريق حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ قال: يا أيها الناس إني فرط لكم وأنتم واردون علي الحوض، وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم واستمسكوا به[(٦)].

---

(١) صحيح مسلم ج٧ ص١٢٢.
(٢) سنن الترمذي ج٢ ص٣٠٨.
(٣) مسند أحمد ج٢ ص١٤ ط١.
(٤) مسند أحمد ج٢ ص١٧ ـ ٢٦.
(٥) مصابيح السنة ج٢ ص٢٠٤.
(٦) تاريخ البغدادي ج٨ ص٤٤٣.

وأخرجه الحاكم من طريق زيد بن أرقم في المستدرك[١] ورواه السيوطي من ثلاث طرق: من طريق زيد بن أرقم، وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري.

وأخرجه فقيه الحرمين محمد بن يوسف الشافعي في كتابه كفاية الطالب، وأخرجه الطبري في الذخائر من طريق زيد بن أرقم.

وأخرجه ابن حجر في الصواعق المحرقة ثم ذكره بطرق مختلفة وقال: ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً[٢]. وذكره الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوي في كتاب الاتحاف بحب الأشراف والسيوطي في كتاب إحياء الميت بفضائل أهل البيت المطبوع على هامش الاتحاف، وذكره الشيخ العدوي في مشارق الأنوار عند ذكره لفضائل أهل البيت[٣] والعلامة السيد خير الدين أبي البركات نعمان أفندي الآلوسي في غالية المواعظ[٤].

وقال ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية عند ذكر آل محمد ﷺ: وفي الحديث والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد بي حتى يحبني ولا يحبني حتى يحب ذوي قرابتي، أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم، ألا ومن آذى قرابتي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ثم ذكر حديث الثقلين واختصاصه بآل محمد ﷺ.

ورواه ابن كثير في تفسيره، من طريق زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي[٥].

وقال الشيخ عبد الرحمن النقشبندي في كتابه العقد الوحيد بعد ذكره أهل البيت: كيف وهم أنجم ديننا ومصدر شرعنا وعمدة أصحابنا، فيهم ظهر الإسلام

---

(١) المستدرك ج٤ ص١٠٩.

(٢) الصواعق المحرقة ص١٣٦.

(٣) مشارق الأنوار ص١٤٦.

(٤) غالية المواعظ ج٢ ص٨٧.

(٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٨٦.

وفشى، وبهم تأيدت أركانه ونشأ، ومن ثم صح أنه صلى الله عليه وآله قال: إني تارك فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني. وصح عنه ﷺ قال: من سره أن يكتال بالميكال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل، اللهم صل على محمد وآله وروى عن الشافعي أنه قال بوجوب الصلاة على الآل في التشهد الأخير وروى له قوله:

يا آل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له[1]

وجاء في مجلة المسلم: أهل البيت حراس هذا الدين وورثة هذا المجد إلى أن يقول: وكان أهل البيت هدفاً للطعن والأذى المنوع، بل وللإبادة في كل عصور التاريخ من عهد الإمام علي رضي الله عنه، وقد اتخذ أعداؤهم محاربتهم ديناً نسبوه ظلماً لجدهم ﷺ ولعبت أطوار التأريخ في ذلك أدواراً مريرة، حتى جردوهم من أنسابهم وأملاكهم وأوقافهم؛ بعد أن أفاءوا عليهم صنوف المهانات وألوان العذاب باسم الدين المظلوم ما لا يعلمه إلا الله، ولم يكفهم أن ينالوا منهم حتى دفعهم سوء الطبع وسوء الأدب وسوء الإيمان والغل الدفين إلى تأليف الكتب في اضطهاد آل الرسول وسبهم باسم إحياء السنة واجتهاد الرسول والعياذ بالله. انتهى[2].

وقال في القاموس في مادة ثقل: الثقل كعنب، ضد الخفة، والثَّقَلُ محركة متاع المسافر وحشمته وكل شيء نفيس مصون، ومنه الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي».

وقال محب الدين في التاج في مادة ثقل عند ذكر الحديث: جعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لهما، قال ثعلب: سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما ثقيل والعمل بهما ثقيل، قال الأزهري: وروى شريك عن الركين عن القاسم عن حسان عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين خلفي: كتاب الله وعترتي فإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض. قال محمد بن إسحق: وهذا حديث حسن صحيح، ورفعه نحوه زيد بن أرقم وأبو سعيد الخدري وفي بعضها: إني

(١) العقد الوحيد ص٧٨.
(٢) مجلة المسلم ع١ س٢ ـ ١٣٧١هـ ص٨.

تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي. فجعل العترة أهل البيت. وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه قال: العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه. قال: فعترة النبي ﷺ: ولد فاطمة البتول (ع)(١).

وقال ابن أبي منظور في لسان العرب: روي عن النبي ﷺ أنه قال في آخر عمره: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» ثم ذكر قول ثعلب وقال: واصل الثقل إن العرب تقول لكل شيء نفيس مصون خطير ثقل فسماهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لشأنهما ويقال للسيد العزيز ثقل، إلى آخره.

وقال ابن الأثير في النهاية بعد أن ذكر قوله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل، ويقال لكل خطير ثقل، وقال في العترة: والمشهور المعروف أن عترته أهل بيته الذين حرمت عليهم الزكاة(٢)، وقال في المصباح: العترة نسل الإنسان قال الأزهري وروى ثعلب عن ابن الأعرابي: أن العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه ولا تعرف العرب من العترة غير هذا(٣).

وقال السيد محمد صديق حسن البخاري في كتاب الدين الخالص بعد ذكره لهذا الحديث من طريق زيد بن أرقم:

هذا الحديث فيه فضيلة أهل البيت وبيان عظم حقهم في الإسلام، وانهم قرين القرآن في التعظيم والإكرام، وليس بعدهذا البيان من رسول الله ﷺ بيان، ولا قرية بعد عبادان.

وقال: وعندي أن المراد بهم «أي بأهل البيت» هم الموجودون في عصر النبوة أولاً بالذات، ولكن يدخل فيهم أيضاً من وجد بعدهم من السادة القادة إلى العلم والعبادة، كالأئمة الأثنى عشر من العترة.

إلى أن يقول: والمراد بأهل البيت ـ هنا ـ العترة الطاهرة، والذرية المطهرة خاصة دون أزواج النبي ﷺ(٤).

---

(١) تهذيب اللغة ج٢ ص٢٦٤.
(٢) النهاية ج٣ ص١٧٧.
(٣) المصباح المنير ج٢ ص٥٩٧.
(٤) الدين الخالص ج٣ ص٥١١ ـ ٥١٤.

ويطول بنا الحديث إذا حاولنا تتبع مخارج هذا الحديث وبسط القول فيه، وقد اقتصرنا على هذا القدر من طرقه وقد ألف الحافظ محمد بن طاهر بن علي المعروف بالقيصراني كتاباً خاصاً جمع فيه طرق هذا الحديث وقد خرجه عن ٢٧ صحابياً.

وهناك أمر يستدعي الانتباه وهو أن يد التحريف التي لا زالت تبعث في الأمة عوامل التفرقة قد جنت جناية عظيمة، إذ امتدت إلى نص الحديث فتلاعبت به فإن الحديث يقول: كتاب الله وعترتي، فبدلوه إلى: «كتاب الله وسنتي» وهم يقصدون من وراء ذلك تغيير الواقع والتمويه لما يتضمنه هذا الحديث الشريف الذي قرن العترة بالكتاب، وجعلهما كتوأمين يلزم التمسك بهما، وإيثار حقهما، وأن العترة باقية إلى يوم القيامة.

قال الشريف السمهودي: هذا الخبر يفهم منه وجود من يكون أهلاً للتمسك به من عترته ﷺ في كل زمن إلى قيام الساعة حتى يتوجه الحث المذكور على التمسك به، كما أن الكتاب كذلك، ولذا كانوا أماناً لأهل الأرض، فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض[(١)].

وقال الشيخ الزرقاني ـ بعد شرحه لهذا الحديث ـ: أما الكتاب فلأنه معدن العلوم الدينية، والأسرار والحكم الشرعية، وكنوز الحقائق، وخفايا الدقائق.

وأما العترة فلأن العنصر إذا طاب أعان على فهم الدين، فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق، ومحاسنها يؤدي إلى صفاء القلب ونزاهته وطهارته، وأكد ﷺ تلك الوصية وقواها بقوله: «فانظروا بماذا تخلفوني فيهما» هل تتبعوني فتسروني، أو لا فتسيئوني؟[(٢)].

وهو ﷺ أعرف بالمصالح العامة، ورأى أن مصلحة أمته في التمسك بهذين الثقلين من باب رعاية المصلحة لهم، وتحصيلاً لسعادتهم، فأكد (ص) في عدة مواطن على لزوم اتباع أهل بيته وأنهم أولى الناس برعاية شؤون الأمة ولذا جعل مثلهم كمثل سفينة نوح.

حدث أبو ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ ـ وهو آخذ بباب الكعبة ـ أنه قال: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».

---

(١) الدين الخالص ج٣ ص٥١١ ـ ٥١٤. (٢) شرح المواهب اللدنية ج٨ ص٢.

خرجه أحمد بن حنبل والحاكم في المستدرك، وغيرهما من المحدثين. وأخرج الطبراني عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إنما أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له».

وغير هذه الأحاديث الواردة بالطرق الصحيحة مما ملأ سمع الدنيا ورددتها الأجيال وأوردها العلماء فهي تقضي بوجوب التمسك بأهل البيت واتباعهم وحبهم ومناصرتهم، فهم دعاة الحق وهداة الخلق، وأعلام الرشاد وقادة العباد.

ونحن نقطع بأن المسلمين لو توفرت لهم حرية الرأي توافراً تاماً ليعلنوا غير خائفين فيمن يجب أن يرشحوه خليفة عليهم، ويؤهلوه لرعاية أمورهم وولاية أمرهم لتحقيق المصالح العامة وسعادة المجتمع الإسلامي من جميع الوجوه، لما عدلوا عن أهل بيت النبي ﷺ رعاية لوصاياه ﷺ وامتثالاً لأمره، وان أهله المرشحين للخلافة قد اجتمعت فيهم خصال الكمال وأهلية الرعاية وولاية الأمر ولم يستطع أحد أن يلصق بهم عيباً وإن كان خصماً لهم، وحرباً عليهم.

ولكن الأمر أصبح وراثياً في أسرة معينة، ينتقل من واحد لواحد بالوصاية وولاية العهد، كما رأينا من فعل معاوية ببيعة يزيد بالسيف وقوة السلطان، وهكذا من بعده في ولاية الحكم ولا رأي للأمة في ذلك. ولننظر إلى ما عليه الحكام وما ارتكبوه بحق الأمة والدين وكيف كانت العلاقات. يقول السيوطي: وأخرج البخاري والنسائي وابن أبي حاتم في تفسيره ـ واللفظ من طرق ـ إن مروان خطب بالمدينة وهو على الحجاز من قِبَلِ معاوية فقال: إن الله قد أرى أمير المؤمنين في ولده يزيد رأياً حسناً وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر ـ وفي لفظ ـ: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سنّة هرقل وقيصر، إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألستَ الذي قال لوالديه أفٍ لكما. فقال عبد الرحمن: الستَ من اللعين الذي لعن أباك رسولُ الله (ص)؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: كذب مروان، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان، ولكن رسول الله (ص) لعن أبا مروان ومروان في صلبه فمروان بعض من لعنه الله[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء ص٧٨.

وعلى أي حال فإن أهل البيت هم هداة الأمة، وكانت الأنظار تتجه إليهم في جميع الأدوار، وسنوضح فيما بعد التفاف الناس حول الإمام الصادق وترشيحه لولاية الأمر، لأنه زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره.

ونعود إلى القول: بأن عدم تخريج الشيخ البخاري أحاديث الإمام الصادق هو شيء يعود إلى البخاري نفسه ولا يقدح بشخصية الإمام الصادق عليه السلام فهو الذي أجمعت الأمة على صدقه فلقبوه بالصادق، وقد خرّج البخاري أحاديث تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ولكنه تجنب الروايات التي يروونها عنه عليه السلام.

وليس بغريب أن تقضي الظروف القاسية بأن يبتعد الناس عن أهل البيت حباً للسلامة أو استسلاماً لعوامل أخرى.

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن البخاري لم يجمع الأحاديث الصحيحة عنده كلها فإنه قد ترك الكثير منها.

حدث الإسماعيلي عنه أنه قال: لم أخرّج في هذا الكتاب إلا صحيحاً وما تركت من الصحيح أكثر(١).

وقد نقل عنه أنه يحفظ مائة ألف حديث صحيح(٢) وليس في كتابه بالنسبة لذلك إلا القليل، فإن جميع ما فيه أربعة آلاف والمكرر ألفان فيكون المجموع ستة آلاف.

ومع هذا فلا يمكن القطع بصحة كل ما يرويه أو أنها أصح الأحاديث.

قال المحقق ابن همام في شرح الهداية: وقول من قال: أصح الأحاديث ما في الصحيحين، ثم ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما اشتمل على شرطهما، ثم ما اشتمل على شرط أحدهما تحكم لا يجوز التقليد فيه، إذ الأصحية ليست إلا لاشتمال رواتها على الشروط التي اعتبراها، فإن فرض وجود تلك الشروط في رواية حديث في غير الكتابين أفلا يكون الحكم بأصحية ما في الكتابين عين التحكم؟!

وبعد هذا نقول: لعل ترك البخاري للأحاديث الصحاح في فضائل أهل

---

(١) هداية الباري ص٥.

(٢) شرح ألفية العراقي ج١ ص٤٨.

البيت (ع) لم يكن لعدم وثوقه بصحتها، أو توقفه عن قبولها، ولكنه مع ذلك تركها عمداً اختصاراً لكتابه، أو تهيباً مما وراء ذلك من اتهام.

كما أن عدم تخريج أحاديث الإمام عليه السلام لا يعود بالتأثير السلبي على شخصية الإمام الصادق أو أنه يشكل غضاً من مكانته يعتدّ به، فإن ذلك ما عجز عنه ملوك العصر بكل ما أوتوه من إمكانات، وفشل أذنابهم فيه أيضاً. كذلك لم يستطع البخاري ولا غيره أن يجرحوا الإمام الصادق عليه السلام بشيء أبداً.

والأمة الإسلامية قد تقبلت رواياته وأخذت بأقواله عليه السلام حتى لقب بالصادق، وكان المرجع الوحيد لإيضاح المبهم وحل ما أشكل عليهم: وقد ملأ رواة حديثه الأقطار الإسلامية، وكان في الكوفة ألف شيخ محدث كل يقول: حدثني جعفر بن محمد.

ولا نطيل الحديث هنا وسيأتي فيما بعد ما له صلة بالموضوع إن شاء الله.

الإمـــام الصـــادق
ملوك عصره وأمراء بلده

تمهيد:

لقد رفضت الدولة الأموية الأخذ بنظام الإسلام في حرية الرأي والإجماع الصحيح من أهل الحل والعقد، ودعت إلى محاربته وارتبطت أشد الارتباط بفوضى الجاهلية، وجمعت شتات ذلك الجمع الذي فرقه المصلح الأعظم بدعوته.

فالإسلام يأمر بوحدة وهم فرقوا الكلمة، وينهى أن تراق الدماء وقد ولغوا فيها، ويأمر بالإحسان والعدل وقد جاروا في الحكم وأساؤوا السيرة في الأمة، فإذا رجعنا إلى ماضي الجاهلية والتاريخ الذي سجل تلك العصور الوحشية أدركنا أنه تمثل في عصرهم بأوضح صورة، وقد دفعوا الناس إلى التخطي عن حدود الدين الإسلامي الذي جاء بتعاليم تحسبها النفوس الشريرة سجناً ضيقاً تتمنى الخروج منه، والتمرد على أوامره ونظمه التي سنها الشرع المقدس لحفظ النظام وسعادة البشر؛ فهو يعاقب على ترك الصلاة، وشرب الخمر، وقتل النفس وأكل الأموال بالباطل، وحدد حدوداً، ونظم قوانين يعاقب بها المجرم بمخالفته حسب جريمته، ولم يفرق في تطبيقها بين أفراد الأمة جمعاء، فهي بعمومها تشمل الشريف والوضيع، والحر والعبد، والذكر والأنثى، ولم تكن هناك رخصة لأحد فيها، ولا ميزة تطبق من أجلها على طبقة دون أخرى، فالكل يخضعون لذلك النظام على حد سواء، وليس هناك طبقة فوق القانون الذي شرعه الإسلام، وما ذلك إلا لقلع جذور الشقاء، وغرس السعادة، ورعاية المصلحة العامة، ليجتني الناس ثمر ذلك الغرس الذي غذاه محمد ﷺ بتعاليمه، وأجهد نفسه أي جهد في تفهيم الناس منافعه ومصالحه.

ولا ريب ان هذه التعاليم التي تكفلت للأمة السعادة في اتباعها تحتاج إلى تنفيذ

وتطبيق، ولا يقوم بهذه المهمة إلا الإنسان الكامل الذي لا تهمه مصلحة نفسه، بل إن أهم شيء عنده المصلحة العامة، وهو الذي يغذي الأمة بعلمه لتنال السعادة على ضوء تعاليمه، وتحيى، الحياة المطلوبة في صعيد إرشاداته.

وما الإسلام إلا مجموعة نظم وقوانين سماوية هبطت إلى الأرض بواسطة النبي الأعظم، فهو الذي يتولى تطبيقها في حياته، ومن يختاره لذلك بعد وفاته بأمر من المشرع الأعلى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[1].

قال الإمام كاشف الغطاء رحمه الله: فالإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي، فالنبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي، والإمامة متسلسلة في اثنى عشر، كل سابق ينص على اللاحق وهو معصوم ـ كالنبي ـ عن الخطأ والخطيئة، وإلا لزالت الثقة ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾[2] لأن الغرض هو تكميل البشر وتزكية النفوس بالعلم والعمل الصالح: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[3] والناقص لا يكون مكملاً لغيره والفاقد لا يكون معطياً. انتهى[4].

ولأن شريعة الإسلام قائمة إلى قيام الساعة فلا بد من استمرار الدعوة وبقاء مقتضيات الإرشاد ووسائل التوجيه، ومن اللازم أن يكون الدوام والبقاء في الدين على يد مؤهل يحمل صفات صاحب الرسالة الأصلي ويتحلى بخصائص مميزة تمكنه من الاضطلاع بمهمات النيابة عن صاحب الرسالة وتمثيل أحكام الشريعة وأداء أعباء قيادة الناس وتصدّرهم بحيث لو انقاد الناس في أمر ديني وشرعي إلى غيره لبان جلياً الفرق في مباشرة الأمر من قبل مؤهل بطريق الاختيار والحكمة الإلّهية عنه من قِبَل مرشح آخر تتداخل في إظهار أمره عوامل كثيرة لا حاجة للدخول فيها. أما لو اتفق الناس في

(١) سورة القصص، آية: ٦٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

(٣) سورة الجمعة، آية: ٢.

(٤) أصل الشيعة وأصولها ص١٠٢.

الانقياد إلى حاكم زمني فإن أمر الدين سيكون أوضح وأكثر جلاءً كما حدث على مر العصور، فإن الإمام من أهل البيت الأطهار كان في ورعه وتقاه وعلمه لا يزيده إجرام الحكّام وتعسفهم إلا تمسكاً بموقعه ومسؤولياته في ولايته الدينية فيزداد سلطانهم في النفوس ويتسع اتجاه الناس إليهم بعوامل الإيمان والتمسك بأهداب الدين في مقابل الإذعان والخنوع لقوة السلطة وحراب المتحكمين.

والإمام الصادق هو سادس الأئمة الإثنى عشر، وهو صاحب هذه الولاية وولي أمر المسلمين، وهو الإنسان الكامل الذي اختاره الله لتطبيق ذلك النظام المقدس في عصره. وحسبك دليلاً على نزاهته وعظمته أن خصومه ـ على كثرة عددهم واختلاف عقائدهم ـ لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه زلة أو منقصة اجتماعية، أو نكسة علمية حتى ساعة وفاته.

وظلت الأنظار متجهة إليه فهو المبرز من أهل البيت وسيدهم في عصره وقد طلب منه قواد الثورة أن يبايعوه، لأهليته للخلافة ولثقة المجتمع به ولكنه امتنع عن ذلك لما يراه من وراء سير الحوادث كما سنبينه إن شاء الله.

ولسنا في موقف الراغب هنا في البحث عن الإمامة والولاية العامة، فلها محل آخر.

ولكننا في معرض بيان موجز، عن أعمال الولاة في عصر الإمام الصادق عليه السلام الذين يفترض أن يتولوا رعاية الأمة وليس لهم قدرة على إصلاح أنفسهم فكيف تصلح بهم الأمة؟! وقد شاهد عليه السلام صنيعهم السيىء وسيرتهم الملتوية في منهجهم السياسي الفاتك من اضطراب حبل الأمن، وانصرافهم إلى أعمال تسيىء إلى الدين وترهق المسلمين لا يهمهم شيء إلا الرياسة والسيطرة على الرعية وإشباع رغباتهم، من أي طريق كان، إلى ما هنالك من جرائم هي سلسلة عذاب ونقمة أضعفت الأمة، خالفوا الكتاب والسنة، ووقفوا حاجزاً دون المجتمع ودون سعادته التي جعلها الله لهم باتباع أوامر الدين والخضوع لنظامه.

وسنعرض بعض الحوادث التي جرت في ذلك العصر لنعرف مقدار ما تحمله الإمام الصادق عليه السلام من عظيم المسؤولية وصعوبة ما أحاط به من أوضاع مؤلمة قاسية انتهج فيها الإصلاح الروحي وهو وسط ظروف سياسية يتوقع فيها الأذى كل

حين، فكان (ع) يتجه إلى المسلمين فيشاركهم أحوالهم ويعمل على إبقاء نظام الدين في الحياة كما هو في نفوسهم، كما كان عليه في ذات الوقت أن يتحاشى نقمة الحكام الذين تعددت وسائل مراقبتهم له وعيون رصدهم ومضايقاتهم.

موقف الإمام الصادق من الظالمين:

فكان موقفه عليه السلام في تلك المدة موقف الرجل المصلح الذي يصول بيد جذاء لقلة أعوانه، فهو يراقب الحوادث عن كثب، ويتألم لتلك الفظائع ويشارك المسلمين في مآسيهم.

ولم يكن عليه السلام ليترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الناس مع شدة الرقابة ونصب حبائلهم له ليلحقوه بشهداء آل محمد ولكن الله دفع شرهم عنه.

فكان عليه السلام يبث تعاليمه في معارضتهم، ويحذر الأمة من مخالطة أئمة الجور، كما اشتهر ذلك عنه فكان عليه السلام يقول: إياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور.

أيما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة إلى قاض أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم.

أيما رجل كان بينه وبين أخ له مماراة في حق فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبينه فأبى إلا أن يرافعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾(1).

اتقوا الحكومة فإن الحكومة للإمام العالم بالقضاء، العادل بالمسلمين كنبي أو وصي نبي.

وسأله رجل عن قاض بين فرقتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق؟ فأجابه عليه السلام: إن ذلك سحت. وقال: العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به كلهم شركاء ثلاثتهم، إلى كثير من ذلك، وسنذكر بعضها فيما بعد.

وكان يحث الناس ويدعوهم إلى مقاطعتهم وعدم الركون إليهم، ويدعو الأمة

(1) سورة النساء، آية: ٦٠.

إلى الاتحاد ضد أولئك الظلمة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[1] فهو يبث نصيحته بين طبقات ذلك المجتمع بصفته إمام زمانه ويواصل جهاده في سبيل الدعوة الإصلاحية، ليفك أسر الأمة من يد من أفسدوا ذلك المجتمع الصالح، وقدعاش عليه السلام مدة من الزمن وعاشر كثيراً من ملوك عصره فما ركن لهم، وما استطاعوا أن يستميلوه وقد حاول المنصور أن يستميله عليه السلام ليوهم الناس أن ولايته على حق، فأرسل إليه: لِمَ لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟.

وكان المنصور يظن أن ينال من الإمام جواباً يحقق هذا الطلب إذ المنصور سلطان العصر ومهاب الجانب.

فكان جواب الإمام عليه السلام: «ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها، ولا تعدها نقمة فنعزيك عليها، فلِمَ نغشاك؟؟»

وعظم هذا الجواب على المنصور ولكنه يعرف منزلة الصادق عليه السلام وصدقه في ذلك، وحاول أن يسلك طريقاً لضم الإمام إلى جانبه كما ضم غيره، إذ يصعب عليه انعزاله وترفعه عن مخالطته، فأرسل إليه: إنك تصحبنا لتنصحنا. ولم يخف مراده على الإمام فأجابه: «من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك».

وقد استخدم المنصور وجهَي سياسته من الفضاضة الدنيئة والليونة المصطنعة ليجعل الإمام كالآخرين الذين يتحاشونه ثم ينفذون ما يريده منهم، والحقيقة أن موقف الإمام الصادق من المنصور كان يمثل مشكلة سياسية ودينية احتلت أهمية كبيرة في سياسة المنصور، وما دام الإمام يقطن في المدينة فقد كانت الشكوك تأكل قلب الدوانيقي فيهب إلى الموسم أو العمرة وغرضه أن يرى بنفسه ما يفعل الإمام جعفر الصادق وقد احتل تلك المكانة السامية في نفوس العلماء والعامة، ويقوم المنصور بإحضاره إذا ما جاء المدينة أو وهو في حاضرة ملكه فنرى في أحاديثه وأقواله مع الإمام محاولاته المختلفة حتى أعياه، فهو يقصد رجلاً يفيض علماً وإيماناً ومن صفوة استتر المنصور وأهله بشعارهم حتى تمكنوا من الحكم، ومنزلة آل البيت تزداد قوة،

(١) سورة هود، آية: ١١٣.

فكل ما يصدر عن المنصور بحق الإمام يسري سريعاً بين الناس، فإن من شيعته من هم في قصره لأن الأوضاع لم تصل بعد إلى درجة التفريق بين من يأبى سياسة العباسيين وهم يستأثرون بالحكم وبين من بقي بانتظار تحقيق ما قامت عليه الثورة. وقد حاول المنصور أكثر من مرة الانتقاص من الإمام إذ اعترض الإمام قائلاً: لا تتفقه عليّ، فأجابه الإمام: أين يذهب مني الفقه؟ فانزجر المنصور. كما أنه صرّح مرات بعزمه على قتل الإمام ولكن الله أحبط عمله ومسعاه، وحفظ لهذه الأمة إمامها.

ملوك عصره

عاصر الإمام الصادق عليه السلام عشرة من ملوك بني أمية وهم: عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد بن مروان بن الحكم المعروف بالحمار وهو آخر ملوكهم.

وعاصر (ع) من العباسيين عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بالسفاح، وأخيه المنصور الدوانيقي.

ولا بد لنا من الوقوف على تراجمهم وذكر بعض الحوادث التي جرت في أيامهم.

عبد الملك بن مروان:

عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، فهو أموي بين أمويين.

وكان جده المغيرة من أشد الناس عداء لرسول الله ﷺ فظفر به (ص) في خروجه لغزوة حمراء الأسد فأمر بضرب عنقه[1] وقال ابن كثير: المغيرة جد عبد الملك لأمه هو الذي جدع أنف حمزة يوم أحد[2].

---

(١) السيرة لابن حزم ص١٧٥.

(٢) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٦٣.

تولى عبد الملك بعهد من أبيه مروان سنة ٦٥هـ وبقي في الملك إلى سنة ٨٦هـ وهي سنة وفاته.

وكان قبل ولايته يجالس العلماء، ويحفظ الحديث ويتعبد في المسجد وكان متقشفاً، وقد أنكر على يزيد بن معاوية حربه لعبد الله بن الزبير، وقال ـ لبعض من سار في ذلك الجيش ـ:

ثكلتك أمك أتدري إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد في الإسلام، ومن حنكه رسول الله ﷺ وابن حواريه، وابن ذات النطاقين.

أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً، وليلاً وجدته قائماً، فلو أن أهل الأرض اطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعاً في النار.

قال ذلك الرجل الذي خاطبه عبد الملك بهذا: فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك وجهنا عبد الملك مع الحجاج حتى قتلناه، أي ابن الزبير[١].

وذلك أن عبد الملك بن مروان عندما ولي الخلافة أرسل الحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير في جيش من أهل الشام، وحوصر ابن الزبير ستة أشهر وسبع عشرة ليلة، وكان الحجاج يرمي الكعبة بالمنجنيق من أبي قبيس[٢].

روى ابن عساكر: أن الحجاج لما رمى الكعبة بالمنجنيق أخذ قومه يرمون من أبي قبيس ويرتجزون:

خطارة مثل الفنيق المزبد ارمي بها أعواد هذا المسجد

فجاءت صاعقة فأحرقتهم، فامتنع الناس من الرمي، وخطب بهم الحجاج فقال: ألم تعلموا أن بني إسرائيل كانوا إذا قربوا قرباناً فجاءت نار فأكلته، علموا أنه قد تقبل منهم، وإن لم تأكله النار علموا أن القربان لم يقبل ولم يزل يخدعهم حتى عادوا فرموا[٣].

ودام الحصار والرمي للكعبة حتى قتل عبد الله بن الزبير في جمادى الآخرة سنة

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي ج٣ ص٣١٧.
(٢) شفاء الغرام للقاضي تقي الدين المكي ج١ ص١٦٩.
(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٤ ص٥٠.

٨٣ وصلبه الحجاج منكوساً بعد قتله وبعث رأسه إلى عبد الملك بن مروان فطيف به في البلاد[(١)].

ولما أفضى الأمر إليه كان المصحف بيده فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك أو هذا فراق بيني وبينك[(٢)].

قال ابن كثير: حج عبد الملك في سنة ٧٥هـ وخطب الناس بخطبة قال فيها: إنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون ويوكلون، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، ولست بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا الخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا الخليفة المأبون - يعني يزيد بن معاوية - أيها الناس إنا نحتمل منكم ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه قرابته وابنه قال برأسه هكذا قلنا بسيفنا هكذا، وإن الجامعة التي خلعها من عنقه عندي، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء فليبلغ الشاهد الغائب[(٣)].

وعمرو بن سعيد هو المعروف بالأشدق قتله عبد الملك بيده سنة ٦٩ وقال بعد أن فرغ من قتله: كان أبو أمية أحب إليّ من زهر النواظر ولكن والله ما اجتمع فحلان في شول قط إلا أخرج أحدهما صاحبه[(٤)] وكان قتله لعمرو بن سعيد غدراً لأنه آمنه وحلف له وجعله ولي عهد من بعده.

وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء ولما قالت له أم الدرداء: بلغني أنك شربت الطلى بعد العبادة والنسك!! فقال: أي والله والدماء أيضاً شربتها[(٥)].

وكانت أول بادرة صدرت منه وتعتبر منهاجاً لسيرته أنه نهى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال: لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه.

توليته للحجاج:

وهو الذي حمل الحجاج بن يوسف على رقاب المسلمين عندما ولاه على الحجاز والعراق.

---

(١) شفاء الغرام ج١ ص١٧٠.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٨٤ وتاريخ ابن كثير ج٩ ص٦٣.

(٣) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٦٤.

(٤) تهذيب التهذيب ج٧ ص٣٧.

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٨٤ والبداية والنهاية ج٩ ص٦٦.

والحجاج ذلك الطاغية الذي أذاق الأمة أنواع العذاب، يغمد سيفه في رقاب الأبرياء، وقد اتخذ ذلك السجن المكشوف الذي يضم بين جدرانه عدداً لا يقل عن مائة وعشرين ألفاً بين رجل وامرأة، يلاقون فيه حرارة الشمس وألم الجوع، ويكابدون غصص وضع الرماد على الرؤوس، وهم يموجون من الشدة، ويغلون كالمرجل، تحرقهم حرارة الشمس وتقلبهم السياط وبعج الرماح وصرخات السجانين، ولقد اتخذ الحجاج في معاملة الناس عند ولايته أقسى ما يتصور من القسوة والشدة، فهو يضرب بسيفه أنّى شاء وكيف شاء، وله أساليب في إنزال العذاب والعقوبة بمن يظفر بهم، فأصبح إمام سنّة الظلمة وأستاذ القتلة من الحكام.

فهذا سجين يشد عليه القصب الفارسي المشقوق ويجر عليه ثم ينضح عليه الخل، وذاك أسير آخر أصيب ساقه بنشابة ثبت نصلها في ساقه. وعلم الحجاج أن أشد عذاب يعامل به أسيره أن يحرك النصل ليسمع استغاثة السجين وصياحه فتأخذه نشوة الطرب تجبراً وطغياناً. قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم[1].

وقال عاصم: ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا قد ارتكبها الحجاج[2].

وكان الحجاج قد تطلع إلى إمرة العراق وهو يرى عبد الملك قلقاً على ملكه مما يحدث فيه ويخاطب أصحابه: ويلكم! من للعراق؟ وتم للحجاج ما رغب فيه واتجه رضيع الدماء المبير إلى العراق حيث الثوار فكان غاشماً عاتياً في فعله وقوله. ومن جملة أقواله:

يا أهل العراق هل استنبحكم نابح، أو استشلاكم غاو، أو استخفكم ناكث، أو استنصركم عاص إلا تابعتموه وبايعتموه وآويتموه وكفيتموه؟ يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو ربى كاذب إلا كنتم أنصاره وأشياعه[3].

ويخاطب أهل الشام:

يا أهل الشام أنتم العدة والعدد، والجنّة في الحرب، إن نحارب حاربتم أو

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ج٤ ص٢٣٦ ـ ٢٨٢.
(٢) تاريخ ابن كثير ج٩ ص١٣٢.
(٣) مروج الذهب ج٣ ص١٤٠.

نجانب جانبتم وما أنتم وأهل العراق إلا كما قال نابغة بني جعدة:

وإن تـداعـيـهـم حـظـهـم ولـم تـرزقـوه ولـم تـكـذب
كـقـول الـيـهـود قـتـلـنـا الـمـسـيـح ولـم يـقـتـلـوه ولـم يـصـلـب

وأنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة. يقول ابن الأثير: وهو أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم وهو إلى الآن لاسيما في بلاد العجم ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وقيل أحصي من قتله الحجاج صبراً فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً. وروي أن الحجاج مر بخالد بن يزيد بن معاوية هو يخطر في مشيته، فقال رجل لخالد: من هذا؟ قال خالد بخ بخ، هذا عمرو بن العاص، فسمعهما الحجاج فرد عليهما بكلام منه: أنا الذي ضربت بسيفي هذا مائة ألف كلهم يشهد أن أباك كان يشرب الخمر ويضمر الكفر[1].

وسئل الحسن البصري عن عبد الملك بن مروان؟ فقال: ما أقول في رجل الحجاج سيئة من سيئاته[2].

ويقول ابن الأثير وهو يصف خوف عبد الملك من الموت وهو في ساعاته الأخيرة: «ويحق لعبد الملك أن يحذر هذا الحذر ويخاف فإن من يكن الحجاج بعض سيئاته يعلم على أي شيء يقدم عليه».

وكان عبد الملك يشجع الحجاج ويشد أزره، ولا يسمع عليه أي شكاية ولا يرق لأي استغاثة، ولما أدركه الموت أوصى ولي عهده الوليد برعاية الحجاج وإكرامه[3] وكيف لا يوصيه برجل كان من رأيه أن عبد الملك أفضل من النبي ﷺ. ولا عجب من الحجاج بل العجب ممن يطلب له المعاذير ويحاول أن يوفق بين أعماله القبيحة وبين الدين، ويريد أن يدخله الجنة رغم الحواجز، وليس ببعيد عن التعصب والعاطفة حصول هذا وأمثاله، ونستطيع أن نعرف نفسية عبد الملك وما هو فيه من جرأة على سفك الدماء، في ولايته للحجاج وتوليته أمور المسلمين مع علمه بجوره

(١) ابن الأثير ج٤ ص٢٨٢ وابن عبد ربه ج٣ ص٢٤٢.
(٢) تاريخ أبي الفداء ج١ ص٢٠٩.
(٣) السيوطي ص٨٥.

وتعسفه، وقد كانت تصله أخباره وترفع إليه الشكايات والاستغاثة منه فلا يرون عنده إلا تشجيع الحجاج على عمله.

ولما حضرته الوفاة أوصى ولده الوليد، في أخذ البيعة له بالسيف وقال وهو في آخر ساعة من الدنيا: يا وليد حضر الوداع وذهب الخداع وحل القضاء. فبكى الوليد، فقال له عبد الملك: لا تعصر عينك كما تعصر الأمة الوكاء، إذا أنا مت فغلسني وكفني وصلي عليّ وأسلمني إلى عمر بن عبد العزيز يدليني في حفرتي، واخرج أنت إلى الناس والبس لهم جلد نمر، واقعد على المنبر، وادع الناس إلى بيعتك، فمن مال بوجهه كذا فقل له بالسيف كذا، وتنكر للصديق والقريب، واسمع للبعيد، وأوصيك بالحجاج خيراً[١].

وبهذا نأخذ صورة عن كيفية أخذ البيعة من الناس لخليفة جديد، يتولى إدارة شؤون الأمة، فهل للأمة اختيار في الانتخاب أم أنها مرغمة ليس لها أي رأي؟! ولا يحق لها الاعتراض على شيء من ذلك، والمعارض يقتل، فهل تصح مثل هذه البيعة التي سن نظامها العهد الأموي، وهل يصح أن يسمى من يفوز بمثل هذا التعيين الإجباري بأمير المؤمنين ويكتب ذلك بحروف بارزة؟ أنا لا أدري ولعل هناك من يدري وإلى القارىء النبيه الحكم.

وكان عبد الملك يبتعد عن دماء بني هاشم لا تديناً ولكنه رأى عاقبة آل أبي سفيان السيئة من وراء ذلك ما يشير بكتابه للحجاج بن يوسف في عدم التعرض لهم ومع هذا فقد حمل الإمام زين العابدين عليه السلام مقيداً من المدينة إلى الشام كما حدث الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء[٢]. ولا يسعنا التوسع في البحث عن عبد الملك وأعماله وسوء سيرة عماله في الرعية، وسيأتي بعض منها.

الوليد بن عبد الملك:

ولي الأمر بعد أبيه يوم الخميس في النصف من شوال سنة ٨٦هـ وهو اليوم الذي مات فيه عبد الملك. وكان الوليد ولي عهده، وبقي والياً إلى أن مات يوم

(١) الإمامة والسياسة ج٢ ص٧٤.

(٢) حلية الأولياء ج٣ ص١٣٥.

السبت في النصف من جمادى الأولى سنة خمس وتسعين، وكانت مدة ولايته تسع سنين وسبعة أشهر، وله ست وأربعون سنة.

وأمه ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي.

وكان الوليد له سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب، وكان كثير النكاح والطلاق، يقال إنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة[1] غير الإماء. وكان لجوجاً كثير الأكل. وكان يغلب عليه اللحن.

وهو الذي بنى جامع دمشق، والذي عرف بالجامع الأموي، وأنفق على ذلك أربعمائة صندوق من الذهب، وفي كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وقيل كان في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، وقد لامه الناس على ذلك وأنه أنفق مال بيت المسلمين فخطبهم وقال: إنما هذا كله من مالي لأن الأمويين يعدون الأموال التي تجيء لهم هي ملكهم يتصرفون بها كيف شاءوا.

كما أنه زاد في مسجد النبي ﷺ وزخرفه ونمقه، ورصعه بالفسيفساء وهي الفص المذهب، وأدخل فيه حجر أزواج النبي ﷺ وسائر المنازل التي حوله[2] فقال له خبيب بن عبد الله بن الزبير أنشدك الله أن تهدم آية من كتاب الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ فأمر الوليد بضربه حتى مات، وسيأتي بيان السبب الذي من أجله وسع الوليد مسجد النبي ﷺ.

وفي أيامه مات الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام مسموماً، وذلك في الخامس والعشرين من شهر محرم الحرام سنة ٩٥هـ، وكان الوليد هو الذي دس إليه السم ويقال: إن هشام بن عبد الملك هو الذي دس إليه السم بأمر من الوليد[3] وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

---

(١) الاناقة في مآثر الخلافة ج١ ص١٣٣.

(٢) الاناقة في مآثر الخلافة ج١ ص١٣٦.

(٣) ذكر ذلك جماعة من الحفاظ والمؤرخين كالقرماني في تاريخه، وابن حجر في صواعقه، وابن الصباغ المالكي في الفصول، وابن جرير في دلائل الإمامة، وروضة الواعظين للحافظ النيسابوري وغيرهم مما لا يترك مجالاً للشك في ذلك.

مقتل سعيد بن جبير:

وفي أيامه قتل سعيد بن جبير، قتله الحجاج بن يوسف في شعبان سنة ٩٥هـ، وكان سعيد قد هرب من الحجاج إلى أذربيجان، ومنها توجه إلى مكة مستجيراً بالله، ولائذاً في حرمه.

وكتب الحجاج إلى الوليد: إن جماعة من التابعين قد التجأوا إلى مكة فكتب الوليد إلى عامل مكة خالد القسري: يأمره بحملهم إلى الحجاج. وكانوا خمسة وهم: سعيد بن جبير، وعطاء، ومجاهد، وطلق بن حبيب، وعمر بن دينار.

ولما دخل سعيد على الحجاج دارت بينهما محاورة، وأسمعه الحجاج كلاماً شائناً ثم سأله عن عبد الملك؟ فقال سعيد تسألني عن امرىء أنت واحد من ذنوبه.

وأمر الحجاج بقتله فقال سعيد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له استحفظكها يا حجاج حتى ألقاك يوم القيامة، ولما قتل هلل رأسه ثلاثاً أفصح فيها بمرّة، والتبس عقل الحجاج يومئذ وجعل يقول: قيودنا قيودنا فظنوها قيود سعيد التي في رجليه فأخذوها من رجليه بعد أن قطعوا رجليه من ساقيه.

وجعل الله من مقتل هذا التابعي الجليل بداية لعذابه في الدنيا قبل أن يلحق بأوليائه في جهنم في الآخرة، فإذا نام الحجاج رأى سعيداً بمنامه وهو يأخذ بمجامع ثوبه قائلاً: يا عدو الله فيما قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير[1].

ولم يبق الحجاج بعد ذلك إلا أياماً، فإنه قتل سعيداً في شعبان ومات هو في شهر رمضان من السنة المذكورة.

وكذلك الوليد فإنه مات في السنة الثانية ٩٦هـ في النصف من جمادى الآخرة. أو الأولى.

قال بعض من هرب من جور الحجاج: مررت بقرية، فوجدت كلباً نائماً في ظل حب، فقلت في نفسي ليتني كنت مثل هذا الكلب وكنت مستريحاً من خوف الحجاج.

(١) انظر الطبري ج٨ ص٩٥. وابن الأثير ج٤ ص٢٧٩. وتاريخ ابن خلدون ج٣ ص٦٥.

قال ثم عدت بعد ساعة فوجدت الكلب مقتولاً فسألت عنه؟ فقيل: جاء أمر الحجاج بقتل الكلاب[1].

لقد تركت سلطة الأمويين الحجاج يفعل مايشاء ويتصرف مع أعدائهم بسيفه دون أن تحرك ضمائرهم مناظر القتل والتشريد وانتهاك الأعراض، فهو «جلدة ما بين العينين» في أعز موقع من وجه السلطة الدموي. كما تركوه يتمادى في الكفر ويأتي بما يشاء من الكفر والخروج عن الإسلام.

فكان يدّعي نزول الوحي عليه وأنه لا يعمل إلا بوحي من الله تعالى[2] وبلغت به الجرأة القول: إن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله[3] وبهذا ينطبق عليه الحديث الشريف «**إن في ثقيف مبير وكذاب**».

وقد حققنا ذلك في غير هذا المكان.

سليمان بن عبد الملك:

ولي الأمر بعد أخيه الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ٩٦ بعهد من أبيه عبد الملك، وبقي والياً إلى أن مات يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩هـ وكانت ولايته عامان وتسعة أشهر وأيام، وهو شقيق الوليد.

وأراد الوليد أن يعزل سليمان عن ولاية العهد، ويبايع لولده عبد العزيز فأبى سليمان، فكتب الوليد إلى عماله، ودعى الناس إلى ذلك، فلم يجبه إلا الحجاج، وقتيبة بن مسلم[4].

ولهذا غضب سليمان على آل الحجاج ونكبهم، وقتل قتيبة بن مسلم سنة ٩٦ وعزل عمال الحجاج، وعذب أهله، وأطلق في يوم واحد من المسجونين في سجن الحجاج أَحَدَ وثمانين ألفاً من الأسراء، وأمرهم أن يلحقوا بأهاليهم، ووجد في سجن الحجاج ثلاثين ألفاً ممن لا ذنب لهم، وثلاثين ألف امرأة[5].

---

(١) ابن نباتة في سرح العيون ص٩٦.
(٢) ابن عساكر ج٤ ص٧٠.
(٣) ابن عبد ربه ج٣ ص٢٦٦.
(٤) سمط النجوم العوالي لعبد الملك العصامي المكي ج٣ ص١٨٧.
(٥) ابن عساكر ج٤ ص٨٠.

وسجن يزيد بن مسلم كاتب الحجاج، وأدخل عليه وهو مكبل في الحديد فلما رآه سليمان ازدراه فقال: ما رأيت كاليوم قط، لعن الله رجلاً أجرك رسنه وحكّمك في أمره.

فقال له يزيد: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنك رأيتني والأمر عني مدبر وعليك مقبل.

ثم قال سليمان: عزمت عليك لتخبرني عن الحجاج ما ظنك به أتراه يهوي بعد في جهنم أم قد استقر؟ قال: لا تقل هذا في الحجاج، فقد بذل لكم نصحه، وأحقن دونكم دمه، وأمن وليكم، وأخاف عدوكم، وإنه يوم القيامة لعن يمين أبيك عبد الملك، ويسار أخيك الوليد، فاجعله حيث شئت، فقال سليمان: اخرج عني إلى لعنة الله[1].

وكان سليمان يأخذ برأي عمر بن عبد العزيز في بعض أموره يستشيره فيها، وقال له: إنه قد ولينا ما ترى، وليس لنا علم بتدبيره، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به فليكتب. فكان رد الصلاة إلى ميقاتها، بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها[2].

وسمع سليمان ليلة صوت غناء في عسكره فلم يزل يفحص حتى أتى بهم، فقال سليمان: إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة، وإن الجمل يهدر فتضبع له الناقة، وإن التيس لينب فتستخذي له العنز، وإن الرجل ليغني فتشتاق له المرأة، ثم أمر بهم فقال: أخصوهم. فيقال إن عمر عبد العزيز قال: يا أمير المؤمنين إنها مثلة، ولكن انفهم. فنفاهم[3].

وقد أجمع المؤرخون على شدة نهم سليمان وأنه يأكل كثيراً يجوز المقدار. وقال بعضهم: كان يأكل مائة رطل وغير ذلك مما ذكروه.

وكان يلبس الثياب الرقاق؛ وثياب الوشي، ولبس الناس جميعاً الوشي جبابا وأردية وسراويل، وعمائم وقلانس، وألبس جميع أهله وحاشيته الوشي؛ حتى الطباخين وأمر أن يكفن فيه[4].

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص١٨٧. والعقد الفريد ج٣ ص١٧١.
(٢) البداية والنهاية ج٩ ص١٧٨.
(٣) ابن كثير ج٩ ص١٨٠. (٤) مروج الذهب ج٣ ص١٨٥.

وكان مجحفاً في جباية الأموال، فمن ذلك أنه كتب إلي عامله على خراج مصر ـ وهو أسامة بن زيد التنوخي ـ: احلب الدر حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم.

قال الكندي: فذلك أول شدة دخلت على أهل مصر.

وقد أعجب سليمان بفعل أسامة وقال: هذا أسامة لا يرتشي ديناراً ولا درهماً. فقال له عمر بن عبد العزيز: أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشي ديناراً ولا درهماً.

فقال سليمان: ومن هو؟ قال: هو عدو الله إبليس. فغضب سليمان وقام من مجلسه[1].

وقدم أسامة على سليمان بما اجتمع عنده من الخراج وقال: يا أمير المؤمنين إني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت، فإن رأيت أن ترفق بها وترفه عليها، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادنا فافعل، فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل. فقال له سليمان: هبلتك أمك، احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم[2].

وغضب سليمان على أعظم قائد فتح الفتوحات العظيمة في بلاد المغرب وهو موسى بن نصير، وكان من رجالات الكوفة العسكريين، وزهادها المؤمنين! ممن عرف بولائه لأهل البيت واستقامته، ولعل من هذا كان سخط سليمان عليه بعد تلك الأعمال الجليلة والفتوحات العظيمة كما هو مشهور.

وقد أهمل كثير من المؤرخين عظيم بلائه وجهاده في نشر الإسلام، واتساع رقعته، وأشادوا بذكر مولاه طارق بن زياد الذي كان تحت إمرته ويسير على مخططاته العسكرية.

كانت لموسى هذا مواقف مشهورة، ففتح بلاد المغرب، وغنم أموالاً طائلة وكان يوجه ولده عبد العزيز، ومولاه طارق بن زياد لافتتاح المدن، ولكن سليمان وجد على موسى فقتل ولده عبد العزيز الذي افتتح في إمارته مدائن كثيرة، وكان عبد العزيز متصفاً بالزهد والصلاح ولكن بعض المؤرخين حاكوا حوله تهمة لا تتفق مع ما يتصف به من الاستقامة وحسن السيرة، وكان قتله سنة ٩٨هـ. قال ابن الأثير: ويعدون ذلك من زلات سليمان.

---

(١) النجوم الزاهرة ج١ ص٢٣٢.

(٢) الجهشياري ص٣٢.

وكان والده موسى قد سخط عليه سليمان وعذبه أنواع العذاب، وضمنه أربعة آلاف دينار وثلاثين ألف درهم.

ولما قتل ولده عرض رأسه عليه فتجلد للمصيبة وقال: هنيئاً له بالشهادة وقد قتلتموه والله صواماً قواماً.

وكان موسى ممن عرف هو وأبوه نصير بولائه لآل محمد ولقد غضب معاوية عليه إذ لم يخرج معه لصفين.

عمر بن عبد العزيز:

أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

ولي بعهد من سليمان بن عبد الملك، يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩هـ، وبقي والياً إلى أن مات يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١هـ. ومدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام.

وكان أبوه عبد العزيز المتوفى سنة ٨٦هـ ولي عهد مروان بعد أخيه عبد الملك، ولكنه مات قبله.

وقد وجد الناس في عهد عمر بن عبد العزيز عدلاً فقدوه زماناً، واستراحوا في أيامه القليلة مما كانوا يتحملونه من ظلم وتعسف، وجور في الحكم، واستبداد في الأمر من حكام سبقوه، وهم لا يتقيدون بقانون سماوي أو وضعي ولا ينظرون إلا لأنفسهم وأنصارهم، فيستأثرون بما يجبونه من الأموال، وينفقونه في مصالحهم الخاصة.

وكان الخراج في عهده من أسوء مظاهير السياسة التي تواجهها الأمة لسوء تصرف العمال، وجشع الولاة، وكانت جبايته غير محدودة ولا مقررة، بل يعود أمرها إلى العمال أنفسهم، فظلموا العباد وخربوا البلاد.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز عالج هذه المشكلة، ويعطينا كتابه لعامله في العراق صورة واضحة عن سوء الحالة وتردي الأوضاع.

سيرته في الخراج:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل الكوفة: أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة في أحكام الله، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء، وإن قوام الدين العدل والإحسان، فلا يكن شيء أهم إليك من نفسك، فلا تحملها قليلاً من الإثم، ولا تحمل خراباً على عامر، وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذن من الغامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذن أجور الضرابين، ولا هدية النوروز والمهرجان، ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفتوح، ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمري فإني قد وليتك ما ولاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا حلب حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة ليحج بها والسلام(١).

وقد عامل العلويين معاملة حسنة وفرق فيهم أموالاً وكتب إلى عامله بالمدينة: أن أقسم في ولد علي بن أبي طالب عشرة آلاف دينار. فكتب إليه العامل: ان علياً قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أي ولده؟ فكتب إليه عمر: إذا أتاك كتابي هذا فأقسم في ولد علي من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم والسلام(٢).

ودخلت عليه فاطمة بنت علي عليه السلام فقال لها يا بنت علي والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إليّ منكم، ولا أنتم أحب إلي من أهل بيتي(٣).

وقال ابن الأثير: وكان سبب محبته علياً أنه قال: كنت بالمدينة أتعلم العلم، وكنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فبلغه عني شيء من ذلك، فأتيته يوماً وهو يصلي، فقال لي: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟ قلت: لم أسمع ذلك.

قال: ما الذي بلغني عنك في علي عليه السلام؟ قلت: معذرة إلى الله وإليك وتركت ما كنت عليه.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٥ ص٢٩ والطبري ج٨ ص١٣٩.
(٢) مروج الذهب ج٣ ص١٩٤.
(٣) طبقات ابن سعد ج٥ ص٣٣٣.

وكان أبي إذا خطب فنال من علي رضي الله عنه تلجلج، فقلت: يا أبت إنك تمضي في خطبتك، فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيراً؟!

قال: أو فطنت لذلك؟ قلت نعم. فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده.

فلما ولي الخلافة لم يكن عنده من الدنيا هم مثل ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجله، فترك ذلك وكتب بتركه وقرأ عوضه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الآية [النحل: ٩٠] فحل هذا الفعل عند الناس محلاً حسناً وأكثروا مدحه بسببه[١].

وصعب على الأمويين ترك هذه البدعة، وحاولوا إعادتها بعد عمر بن عبد العزيز.

حج هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦هـ فقال له سعيد بن الوليد بن عثمان: يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين، وينصر خليفته المظلوم ولا يزالوا يلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب، فأمير المؤمنين ينبغي أن يلعنه في هذه المواطن الصالحة، فشق على هشام ذلك وقطع كلامه وقال: ما قدمنا لشتم أحد[٢].

وعلى أي حال فإن عمر بن عبد العزيز قام بأمور مشكورة ووجد الكثيرون في عهده ما لم يجدوه في عهد غيره من الأمويين.

ولقد ثقل على الأمويين ما قام به عمر بن عبد العزيز من الأعمال الصالحة ومعالجة مشاكل المجتمع، ولذا قيل: إنه مات بالسم من بني أمية علماً منهم أنه إن امتدت أيامه أخرج الأمر عنهم، وأنه لا يعهد بعهد إلا لمن يصلح للأمر فعاجلوه[٣].

أخطاء تاريخية:

ذكر بعض المؤرخين: أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر ذات يوم بمكة فقال:

---

(١) ابن الأثير ج٥ ص٢٠.
(٢) الطبري ج٨ ص٨٦.
(٣) الانافة في مآثر الخلافة ج١ ص١٤٢.

أيها الناس من كانت له ظلامة فليتقدم. فتقدم علي بن الحسين بن علي عليه السلام فقال: إن لي ظلامة عندك. فقال: وما ظلامتك؟.

فقال علي بن الحسين: مقامك هذا الذي أنت فيه. فقال عمر: إني لا أعلم ذلك، ولكن لو علمت أن الناس يتركونه لك والله لتركته[1].

ونحن لا ننكر اعتراف عمر بن عبد العزيز بأحقية أهل البيت للأمر، ولا ننكر مطالبة أهل البيت في حقهم عند سنوح الفرص، وانهم مظلومون، وأيديهم من حقهم صفرات.

ولكننا ننكر اتخاذ أمثال هذه الوسائل من إمام عصره، وسيد أهل البيت زين العابدين، فهو أعرف الناس بالأوضاع السائدة، وأعلمهم بالظروف ومناسباتها.

هذا من جهة ومن جهة أخرى أن التاريخ لا يقر ذلك، فإن وفاة الإمام زين العابدين عليه السلام كانت في سنة ٩٥هـ وولاية عمر بن عبد العزيز في سنة ٩٩هـ فكيف يصح ذلك؟

ومثل هذه ما ذكره بعضهم: أن علي بن الحسين عليه السلام اقترض من مروان بن الحكم أربعة آلاف دينار، فلم يتعرض له أحد من بني مروان حتى استخلف هشام، فقال لعلي بن الحسين: ما فعل حقنا قبلك؟ فقال عليه السلام؛ موفور ومشكور. فقال هشام: هو لك.

وهذا لا يصح من جهات أهمها التاريخ فإن خلافة هشام كانت سنة ١٠٥هـ كما سيأتي، ووفاة علي بن الحسين كانت سنة ٩٥هـ أي قبل أن يلي الأمر هشام بعشر سنوات[2].

يزيد بن عبد الملك:

يزيد بن عبد الملك بن مروان أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية.

تولى الحكم بعد عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١هـ وبقي إلى أن مات ليلة الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة ١٠٥هـ فكانت ولايته أربعة أعوام وشهراً واحداً ويومين.

(١) سمط النجوم العوالي للمكي ج٣ ص٢٠٤.

(٢) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٢٥٢.

أراد عندما ولي الخلافة أن يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز، فشق ذلك على قرناء السوء، وأعوان الظلم ودعاة الباطل، فأتوا إليه بأربعين شيخاً، فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب(١).

فخدعوه بذلك فانخدع بهم، وكان كلامهم موافقاً لهواه، فانهمك في اللذات واللهو الطرب، ولم يراقب الله ولم يخشه(٢).

فعادت الأمور إلى وضعها قبل عمر بن عبد العزيز، وعادت مشكلة الخراج وعزل جميع عمال عمر، وكتب إلى عماله: أما بعد فإن عمر بن عبد العزيز كان مغروراً، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا(٣).

وقال ابن الأثير: وعمد يزيد بن الوليد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده، ولم يخف شناعة عاجلة، ولا إثماً عاجلاً، فمن ذلك: أن محمد بن يوسف أخا الحجاج كان على اليمن، فجعل عليهم خراجاً مجدداً، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بالاقتصار على العشر، وترك ما جدده محمد بن يوسف، وقال: لأن يأتيني من اليمن حصة ذرة أحب إلي من تقرير هذه الوضعية، فلما ولي يزيد بعد عمر أمر بردها، وقال لعامله: خذها منهم ولو صاروا حرضاً والسلام(٤).

وكان يزيد صاحب لهو ولذة، وهو صاحب حبابة وسلامة وهما جاريتان وكان مشغوفاً بهما، وماتت حبابة فمات بعدها بيسير أسفاً عليها، وكان قد تركها أياماً لم يدفنها، لعدم استطاعته فراقها، فعوتب على ذلك، فدفنها، ويقال إنه نبشها بعد الدفن حتى شاهدها(٥).

---

(١) ابن كثير ج٩ ص٢٣٢.
(٢) سمط النجوم العوالي ج٣ ص٢٠٩.
(٣) العقد الفريد ج٣ ص١٨٠.
(٤) الكامل ج٥ ص٢٢.
(٥) الانافة في مآثر الخلافة ج١ ص١٤٦ والبدء والتاريخ ج٣ ص٤٨.

هشام بن عبد الملك:

هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ولي الأمر بعهد من أخيه يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ لخمس بقين من شعبان وبقي إلى سنة ١٢٥هـ وهي سنة وفاته، وكانت مدة ملكه تسع عشرة سنة وسبعة أشهر غير أيام، وأمه بنت هشام بن إسماعيل المخزومي.

كان هشام يعد من دهاة بني أمية، وقرنوه بمعاوية، وعبد الملك، وقد عرف بالغلظة، وخشونة الطبع، وشدة البخل، وسوء المجالسة، وكان أحول، وهو الرابع من أولاد عبد الملك الذين تولوا الحكم.

وكان شديد البغض للعلويين، حاول الانتقام منهم، وانتقاصهم كلما أمكنته الفرصة.

حج هشام قبل أن يلي الخلافة فطاف في البيت ولم يتمكن من استلام الحجر من شدة الزحام، فنصب له منبر وجلس عليه، وأهل الشام حوله.

وبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام فانفرج الناس له وصاروا سماطين، إجلالاً وهيبة واحتراماً، فعظم على هشام وغاضه ذلك. وقال: من هذا؟ استنقاصاً له. وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه.

فقال هشام: من هو؟ فأنشأ الفرزدق قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

إلى آخر القصيدة، فغضب هشام، وأمر بسجن الفرزدق.

وحج هشام بن عبد الملك في أيام خلافته سنة ١٠٦هـ وكان الإمام محمد الباقر عليه السلام في المسجد، وقد أحاط به طلاب العلم، وهو في تلك الحلقة يلقي عليهم تعاليم الدين الإسلامي، ويعلمهم الأحكام والفرائض، فصعب ذلك على هشام، فقال لرجل من جماعته: اذهب إليه واسأله وقل له يقول لك أمير المؤمنين: ما الذي يأكله الناس ويشربونه في المحشر إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فلما سأله

الرجل قال عليه السلام: قل له يحشر الناس على مثل قرص النقي[1] فيها أشجار وأنهار يأكلون ويشربون منها حتى يفرغوا من الحساب.

وكان هشام يقصد من وراء هذا السؤال أن يظفر بشيء يستطيع به أن يضع من منزلة الإمام في ذلك المجتمع ولو من باب المغالطة، لأنه حانق عليه، فلما رجع الرسول إليه بما أجابه الإمام ظن هشام أنه ظفر بما أراد ونجح بما دبر.

فقال: الله أكبر، اذهب إليه فقل له يقول لك: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟

فقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: هم في النار أشغل، ولم يشغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. فسكت هشام وعرف فضله.

وهو الذي سير الإمام الباقر عليه السلام وولده الصادق عليه السلام من المدينة إلى الشام، يقصد بذلك إهانتهما والتشفي منهما لما رآه وسمعه عندما حج في تلك السنة، وحج فيها الإمام محمد الباقر وولده الصادق عليهما السلام فقال الإمام الصادق في ذلك الملأ: الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبيناً وأكرمنا به، فنحن صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده وخلفائه، فالسعيد من تبعنا، والشقي من عادانا.

فبلغ هشام ذلك، وعظم عليه فلم يتعرض لهما بشيء، حتى انصرف إلى دمشق، وأمر بإشخاص الإمام وولده الصادق عليهما السلام إلى دمشق. قال الإمام الصادق عليه السلام فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثاً، ثم أذن لنا في اليوم الرابع إلى آخر ما هو معروف من هذه القصة.

هشام وزيد بن علي:

ودخل عليه زيد بن علي عليه السلام فسلم عليه بالإمرة فلم يرد السلام إهانة له، وأغلظ في الكلام ولم يفسح له في المجلس.

فقال زيد: السلام عليك يا أحول، فإنك ترى نفسك أهلاً لهذا الاسم. فغضب

---

(١) النقي كغني، قال في النهاية: الحديث: يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقي يعني الخبز الحواري.

هشام، وجرت بينها محاورة كان نصيب هشام فيها الفشل، وخرج زيد وهو يقول: ما كره قوم حر السيوف إلا ذلوا.

وأمر هشام برده وقال له: اذكر حوائجك. فقال زيد: أما وأنت ناظر على أمور المسلمين فلا. وخرج من عنده وقال: من أحب الحياة ذل[١].

ومضى زيد إلى الكوفة وبها استشهد في الثالث من صفر سنة ١٢١هـ بعد ثورة آزرته فيها مختلف الطاقات، وجرت حوادث لا يتسع المجال لذكرها.

وبعد شهادته رضي الله عنه صلب جسده عرياناً منكوساً بأمر من هشام وبقي الجسد مصلوباً أربع سنين، ونسجت العنكبوت على عورته[٢] وأرسل يوسف بن عمر أمير الكوفة رأس زيد إلى هشام، فصلبه على باب دمشق ثم أرسله إلى المدينة، فنصب عند قبر الرسول يوماً وليلة، ثم نصب في مؤخر المسجد على رمح، وأمر الوالي باجتماع الناس، فقام خطباء الأمويين بشتم أهل البيت، وهكذا بقي الرأس سبعة أيام[٣]

ثم أمر هشام بإرسال الرأس إلى حنضلة بن صفوان عامله على مصر سنة ١٢٢هـ فأمر حنضلة بتعليقه، وأن يطاف به[٤].

* * *

أما الجسد الشريف فقد بقي مصلوباً إلى أيام الوليد بن يزيد وقد أقام عليه يوسف بن عمر حراساً خوفاً من أن ينزل الجسد فيغسل ويكفن، وكان الموكل بحراسة الجسد زهير بن معاوية، أحد رجال الصحاح وحملة الحديث.

وكان زهير يحدث الناس: بأنه رأى رسول الله ﷺ في النوم، وقد وقف على الخشبة وقال: هكذا تصنعون بولدي من بعدي؟!! يا بني يا زيد قتلوك قتلهم الله صلبوك صلبهم الله[٥].

---

(١) تاريخ الطبري ج٨ حوادث سنة ١٢١ وابن عساكر ج٦ ص٢٢ ـ ٢٣.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٣٢٠.

(٣) زيد الشهيد للعلامة السيد عبد الرزاق المقرم ص١٦٢ ـ ١٦٤.

(٤) النجوم الزاهرة ج١ ص٢٨١.

(٥) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٣٢٣.

مقتل زيد بن علي وملابساته:

ونود أن نوضح هنا ـ بإيجاز ـ نقطة ذات أهمية في الموضوع وهي:

ان المشهور بأن الشيعة اجتمعوا إلى زيد فسألوه عن أبي بكر وعمر وما هو رأيه فيهما؟ أو انهم سألوه البراءة منهما، فأجابهم بخلاف ما أرادوه من الطعن في الشيخين. فتفرقوا عنه فسماهم الرافضة.

وعلى هذا فقد وسم الشيعة باسم الرافضة، وانهم الذين رفضوا الشيخين أو رفضوا زيداً إلى غير ذلك مما هو مشهور في هذه القضية.

وعندما نرجع إلى الواقع وندرس الحوادث على ضوء العلم وعدم التحيز ونتثبت ـ قدر الإمكان ـ من صحة القول فبدون شك يبدو لنا عدم صحته، ورب مشهور لا أصل له.

وحقيقة الأمر أن الشيعة لم يسألوا زيداً عن الشيخين ورأيه فيهما بذلك الموقف الحرج، وإنما كان ذلك من قبل المندسين في صفوف جيشه، وانها كانت حيلة من قبل الوالي يوسف بن عمر ليوقع الفرقة، ويثير غبار الخلاف لأن جيش زيد كان يتألف من عناصر مختلفة الآراء والعقائد، ففيهم الخوارج وفيهم الناقمون على الأمويين، وفيهم الجواسيس وغير هؤلاء.

قال ابن عساكر: فخرج زيد في أربعة آلاف بالكوفة، فاحتال عليه بعض من كان يهوى هشاماً، فدخلوا عليه وقالوا: ما تقول في أبي بكر وعمر؟.

فقال زيد: رحم الله أبا بكر وعمر صاحبي رسول الله ﷺ ثم قال: أين كنتم قبل اليوم؟!![1].

وكان الغرض من إلقاء هذا السؤال في ذلك الموقف الحرج في ساعة حرب وتجمع، وهياج وتحزب، هو أحد أمرين وفي كليهما نجاح تلك الخدعة، وتحقيق هدف تلك المؤامرة، فإما أن يتبرأ زيد من الشيخين ويسيء القول فيهما، فيكون حينئذ أقوى سبب لقتل زيد، لأنه يسيء القول في الشيخين وتلك وسيلة اتخذها الأمويون ومن بعدهم للقضاء على خصومهم.

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٢٣.

وإما أن لا يتبرأ فيقولون كيف لا يتبرأ ممن ظلمهم حقهم، وبالفعل قالوا ونجحت هذه المؤامرة، وتفرق أهل الغدر وذوو الأطماع، وكانت هذه الحيلة من الوالي يوسف بن عمر أقوى سلاح لجأ إليه.

يقول الأستاذ الخربوطلي: ولجأ يوسف بن عمر إلى الحلية فدس لزيد بين أنصاره من يسأله عن رأيه في أبي بكر وعمر. . الخ[١].

كما أنه أعطى لبعض جواسيسه الأموال ليتعرف على أصحاب زيد[٢] وإن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من إقامة الشواهد على اهتمام الأمويين في اتخاذ الوسائل لإفشال ثورة زيد، وأن نفسيات الأكثرية التي انضمت إليه قد طبعت على الغدر ونقض العهود.

وان قول زيد لمن سائله: أين كنتم قبل هذه؟ ليدل بصراحة على ما في الأمر من هدف معين وأمر مبيت.

إن الشيعة هم محور تلك الثورة، وليس من الصحيح أن ينسب إليهم إثارة موضوع هم في غنى عنه، وهم لا يجهلون رأي أهل البيت في ذلك الأمر فما معنى هذا السؤال في ذلك الموقف الحرج؟ كما انهم يعرفون الجيش واختلاطه من عناصر مختلفة، فكيف يهبط بهم الشذوذ في التفكير إلى هذا المستوى الذي لا يتفق مع عقائدهم ولا يسير مع خططهم الثورية؟ والواقع أن الشيعة لم يثيروا هذا الموضوع لأنهم لا يجهلون خطره في ذلك الموقف الحرج، وإنما كانت إثارته من الخدع السياسية، والحيل الأموية.

ولقد نجحت تلك المؤامرة وتسربت الفرقة بين صفوف الجيش، وتفرق عن زيد من لم يأت لنصرته عن عقيدة ثابتة، ولم يبق معه إلا الخلص من الشيعة، فدافعوا عنه دفاع الأبطال، وثبتوا معه إلى أن قتل رحمة الله عليه، وقد قتل بين يديه جماعة منهم، وآخرون صحبوا ولده يحيى وقاتلوا معه، ولم ترفض الشيعة زيداً بل إنما رفض المعاونة معه أنصار الأمويين وأعوان الظلمة.

وليس باستطاعتنا التفصيل لهذه القضية الآن والإحاطة بها من جميع الوجوه،

---

(١) الدولة العربية الإسلامية ص٣٠٥.

(٢) الطبري ج٨ ص٢٧٧.

ليتضح الأمر كما يجب وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان في دراسة هذا الموضوع والوقوف على الحوادث التي أدت إلى فشل ثورة زيد بن علي عليه السلام.

الوليد بن يزيد:

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج الثقفي.

ولي الأمر بعد هشام بعهد من يزيد بن عبد الملك، وتربع على دست الحكم يوم الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥هـ. وقيل لعشر خلون من ربيع.

بقي في الحكم إلى أن قتل يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ. فكانت ولايته سنة واحدة وشهرين.

قال ابن حزم: وكان الوليد فاسقاً خليعاً ماجناً(١).

وقال ابن فضل الله في المسالك: الوليد بن يزيد فرعون ذلك العصر الذاهب، يأتي يوم القيامة فيورد قومه النار، ويرديهم العار، وبئس الورد المورود، رشق المصحف بالسهام، ولم يخش الآثام.

وقال القلقشندي: وكان مصروف الهمة إلى اللهو، والأكل، والشرب وسماع الغناء...(٢).

وقال ابن كثير: كان هذا الرجل مجاهراً بالفواحش، مصراً عليها، منتهكاً محارم الله عز وجل لا يتحاشى من معصية، وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال.

ولما ولي هشام أكرم ابن أخيه الوليد، حتى ظهر عليه أمر الشراب، وخلطاء السوء، ومجالس اللهو...

وقال هشام للوليد: ويحك والله ما أدري أعلى دين الإسلام أنت أم لا؟ فإنك لم تدع شيئاً من المنكرات إلا أتيته غير متحاش ولا متستر. فكتب إليه الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا ... ديني على دين أبي شاكر

---

(١) السيرة ص٣٦٣.

(٢) الانافة في مآثر الخلافة ج١ ص١٥٦.

فشربها صرفاً وممزوجة   بالسخن أحياناً وبالفاتر[1]

وأبو شاكر هو مسلمة بن هشام بن عبد الملك.

وعلى أي حال فإن للوليد أعمالاً منكرة، وجرائم لا توصف، وقبائح تشمئز منها النفس، ويقف القلم عند بيانها خجلاً.

وكانت له جرأة عظيمة على انتهاك حرمة الإسلام، فمن ذلك أنه كان يستهدف بالمصحف ويقول:

تهدد كل جبار عنيد   فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يا رب خرّقني الوليد[2]

وهو الذي كتب إلى عامله على الكوفة يوسف بن عمر: خذ عجل أهل العراق فأنزله جذعة (يعني زيد بن علي عليه السلام) وأحرقه بالنار ثم انسفه باليم. فأمر يوسف به فأحرقه ثم رضه وحمله في سفينة، ثم ذراه في الفرات[3].

* * *

وقد وردت في الوليد أحاديث بأنه فرعون هذه الأمة منها: ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه ولد لأخي أم سلمة غلاماً فسموه الوليد فقال النبي ﷺ: «سميتموه باسم فراعينكم، ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشد فساداً لهذه الأمة من فرعون لقومه» وفي لفظ لهو أضر على أمتي.

وأخرج البيهقي عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت: دخل النبي ﷺ وعندي غلام من آل المغيرة اسمه الوليد، فقال ﷺ: من هذا يا أم سلمة؟ قالت: هذا الوليد. فقال ﷺ: «قد اتخذتم الوليد حناناً؛ غيروا اسمه فإنه سيكون في هذه الأمة فرعون يقال له الوليد»[4].

وعندما ولي كان يكتب إلى الناس:

---

(١) ابن الأثير ج٥ ص١٢٤ وتاريخ ابن كثير ج١٠ ص٢ ـ ٦.
(٢) البدء والتأريخ للمقدسي ج٣ ص٥٣، وتاريخ الخميس ج٢ ص٣٢٠، وابن الأثير ج٥ ص١٣٧ والحور العين لابن نشوان ص١٩٠ وغيرها.
(٣) الطبري ج٨ ص١٢٢ وابن الأثير ج٥ ص١٢٧.
(٤) ابن كثير ج١٠ ص٦ وتأريخ الإسلام للذهبي ج٥ ص١٧٣.

ضمنت لكم إن لم تعقني منيتي   بأن سماء الضر عنكم ستقلع[1]

ولما عم ظلمه وجوره وفسقه واستهتاره، قال فيه الشاعر العربي حمزة بن بيض:

وصلت سماء الضر بالضر بعدما   زعمت سماء الضر عنا ستقلع

فليت هشاماً كان حياً يسومنا   وكنا كما كنا نرجي ونطمع

وقال أيضاً:

يا وليد الخنا تركت الطريقا   واضحاً وارتكبت فجاً عميقاً

وتماديت واعتديت وأسرفـ   ـت وأغويت وانبعثت فسوقاً

أنت سكران ما تفيق فما تر   تق فتقاً وقد فتقت الفتوقا[2]

وكتب إليه عامله على خراسان: بتردي الأوضاع، وحدوث ثورات فأجابه: إني مشغول بالعريض ومعبد وابن أبي عائشة. وهم المغنون الذين أحضرهم عنده[3].

واشتدت النقمة على الوليد، وثار الناس عليه بقيادة ابن عمه يزيد بن الوليد، وقال له يزيد بن عنبسة: ما ننقم عليك في أنفسنا، لكن ننقم عليك انتهاك حرم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله[4].

وقتل يوم الخميس لليلتين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ وحمل رأسه إلى يزيد بن الوليد، فأمر أن يطاف به في البلد.

مقتل يحيى بن زيد:

وفي أيامه قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام وذلك أنه خرج من الكوفة بعد مقتل أبيه زيد وتوجه إلى خراسان، فسار إلى الري، ومنها أتى سرخس، ثم خرج ونزل في بلخ على الحريش بن عبد الرحمن الشيباني، ولم يزل عنده حتى هلك هشام وولي الوليد بن يزيد.

---

(١) البدء والتأريخ ج٣ ص٥١.

(٢) ابن الأثير ج٥ ص١٣٣.

(٣) البدء والتأريخ ج٣ ص٥٣.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ج٥ ص١٧٨.

وكتب يوسف بن عمرو إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى، وأنه في منزل الحريش، فطالبه نصر بيحيى فقال له الحريش: لا علم لي به، فأمر به فضرب ستمائة سوط.

فقال الحريش: والله لو أنه تحت قدمي ما رفعتهما عنه[١] ثم وقعت بعد ذلك حوادث يطول ذكرها، وقامت الحرب بين يحيى وبين نصر، وأرسل نصر ليحيى جيشاً عدده عشرة آلاف فارس، وكان يحيى في سبعين رجل فهزمهم يحيى وقتل قائد الجيش عمر بن زرارة.

فأرسل نصر جيشاً آخر في طلب يحيى، فأدركوه بالجوزجان، ووقع القتال بينهم وبين يحيى وأصاب يحيى سهم في جبهته فقتل وقتل أصحابه عن آخرهم، وأخذوا رأس يحيى وسلبوه قميصه[٢].

كانت شهادة يحيى يوم الجمعة وقت العصر سنة ١٢٥هـ وبعث برأسه إلى الوليد بن يزيد، فبعثه إلى المدينة؛ وجيء به إلى أمه ريطة بنت أبي هاشم بن محمد بن الحنفية فقالت: شردتموه عني طويلاً، وأهديتموه إليّ قتيلاً، صلوات الله عليه، وعلى آبائه بكرة وأصيلا[٣].

أما جسده الشريف فصلب بالجوزجان، ولم يزل مصلوباً حتى ظهر أبو مسلم الخراساني، واستولى على خراسان، فأنزله وصلى عليه ودفنه، وأمر بالنياحة عليه[٤].

يزيد الناقص:

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه شاهفريد بنت فيروز بن يزدجرد ملك الفرس.

ولي الأمر بعد قتل الوليد سنة ١٢٦هـ، وبقي إلى أن مات يوم الأحد في ذي الحجة من السنة المذكورة، ومدة حكمه خمسة أشهر وليلتين.

---

(١) ابن الأثير ج٥ ص١٢٧.
(٢) الكامل لابن الأثير ج٥ ص١٢٧.
(٣) زيد الشهيد للمقرم ص١٨١.
(٤) الكامل لابن الأثير ج٥ ص١٢٧.

وإنما سمي بالناقص لأنه نقص الزيادة التي كان الوليد زادها في أعطيات الناس وهي عشرة عشرة، ورد العطاء إلى ما كان أيام هشام.

وفي أيامه اضطرب حبل الدولة أشد مما كان عليه من قبل، ووقع خلاف بين ولاة الأمصار، وثار أهل حمص، ووثب أهل فلسطين، ووقعت الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم إلى غير ذلك من الأمور، ومات يزيد ولم يعهد لأحد من بعده.

وكان مولاه قطن وهو الموكل بخاتم الخلافة قد افتعل عهداً على لسان يزيد بن الوليد لإبراهيم بن الوليد، ودعا أناساً فشهدوا عليه زوراً(١).

إبراهيم بن الوليد:

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وأمه أم ولد اسمها نعمة.

ولي الأمر بعد أخيه يزيد بعهد منه زوره الموكل بالخاتم وهو مولاهم قطن كما تقدم. وذلك في ذي الحجة سنة ١٢٦هـ ولم يتم له الأمر لكثرة الثورات واختلاف الكلمة، وسقوط هيبة الدولة، وكان اتباعه يسلمون عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة، وكانت مدة ولايته ثلاثة أشهر، وقيل شهرين وأيام. وقد خلع نفسه وسلم الأمر لمروان الآتي ذكره، وذلك في صفر سنة ١٢٧هـ. وقيل أن مروان قتله بعد أن ظفر به وصلبه وقتل جميع أصحابه، وقيل غرق في الزاب أو أنه قتل فيه(٢).

مروان بن محمد:

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد من الأكراد اسمها لبابة، ولي الحكم في صفر سنة ١٢٧هـ إلى أن قتل ببوصير من أرض مصر لثلاث عشر ليلة خلت من ربيع سنة ١٣٢هـ. وبه انتهى الحكم الأموي وانتقل الأمر إلى بني العباس.

وتفرق الأمويون في البلاد، وكانوا طعمة للسيف وزالت دولتهم بعد أن حكمت البلاد إحدى وتسعين سنة، وتسعة أشهر.

وقامت على أنقاضها الدولة العباسية، بعد حروب طاحنة دامت مدة من الزمن، وكانت دعوة بني العباس إلى أهل البيت.

---

(١) العقد الفريد ٣ ـ ١٩٤.

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٢٣٩ وجوامع السيرة ص٣٦٤ والانافة ج١ ص١٦١.

وأول من ولي الحكم منهم هو: أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، بويع في ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ ومات في ذي الحجة سنة ١٣٦هـ.

وقام من بعده أخوه أبو جعفر المنصور واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

بويع إذ مات أخوه السفاح، وبقي والياً إلى أن مات سنة ١٥٨هـ في ذي الحجة، وفي عهده استشهد الإمام الصادق عليه السلام بالسم دسه إليه المنصور سنة ١٤٨هـ في الخامس والعشرين من شهر شوال ودفن بالبقيع مع أبيه وجده والحسن السبط صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد تجرع من المنصور كؤوس الأذى والمحن، وتحمل في سبيل أداء رسالته أنواع الآلام كما تقدم.

ولاة المدينة في العهد الأموي:

أما ولاة المدينة المنورة فنحن نتعرض لمن وليها في العهدين الأموي والعباسي في حياة الإمام الصادق عليه السلام بإيجاز، لتقف على بعض الحوادث التي شاهدها الإمام الصادق عليه السلام، وتجرع مرارة ذلك الظلم الذي لقيته الأمة وتحمله رجالها الأبرار.

وقد تعاقب على المدينة ولاة جاروا في الحكم، واستهانوا بحرمة هذا البلد، ومنهم الحجاج بن يوسف فقد ولي المدينة بعد قتل ابن الزبير سنة ٧٤ وأقام فيها ثلاثة أشهر وتغيب عنه أهلها، وقد استهان بصحابة الرسول ﷺ وختم أيديهم وأعناقهم بالرصاص ليذلهم، ثم عزله عبد الملك سنة ٧٥ وولاه العراق، وأمر على المدينة أبان بن عثمان بن عفان، ثم عزله عبد الملك سنة ٨٢ وولى هشام بن إسماعيل المخزومي.

ونحن لا نريد أن نتعرض بالحديث عن الولاة الذي سبقوا عهد الإمام الصادق عليه السلام وأيام حياته، بل يختص بحثنا بمن ولي المدينة في أيامه عليه السلام وهم:

هشام بن إسماعيل:

هشام بن إسماعيل بن الوليد المخزومي المتوفى سنة ٨٨هـ ولاه عبد الملك بن مروان إمرة المدينة المنورة سنة ٨٢هـ، وكان ظالماً في حكمه مبغضاً لآل محمد ﷺ وكان يؤذي علي بن الحسين عليه السلام وأهل بيته، ويخطب على المنبر وينال من علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولما أراد عبد الملك أن يبايع لولده الوليد ثم من بعده لسليمان بن عبد الملك امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع، فأمر به هشام فضربه ستين سوطاً وألبسه ثياباً من شعر، وأركبه جملاً، وطاف به في المدينة، وذلك في سنة ٨٥.

ولما بلغ عبد الملك ذلك لام هشاماً وكتب له: إنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق. وقال: ما ينبغي له إلا أن يبايع، وإن لم يبايع ضربت عنقه أو خليت سبيله[١].

وكانت ولاية هشام على المدينة أربع سنوات وقد أساء فيها لأهل المدينة وجار في حكمه.

وفي سنة ٨٧هـ عزله الوليد بن عبد الملك وولى مكانه عمر بن عبد العزيز وأمره بأن يوقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان، لأنه أساء إلى أهل المدينة مدة ولايته[٢].

ولما أوقفوه للناس قال: ما أخاف إلا من علي بن الحسين، لأنه أساء معه أكثر من غيره، ولكن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أمر مواليه وخاصته بأن لا يتعرضوا له بكلمة واحدة، ولما مر به علي بن الحسين عليه السلام ناداه هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالته[٣].

عمر بن عبد العزيز:

تقدمت ترجمته وطرف من سيرته وكان محباً لأهل البيت، وهو الذي رد عليهم

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٣١٠ وتاريخ ابن كثير ج٩ ص٦٠.
(٢) ابن كثير ج٩ ص٧١.
(٣) الطبري ج٨ ص٦١ وتاريخ الإسلام ج٣ ص٣١٠.

فدكاً ومنع سب علي عليه السلام بعد أن اتخذته الدولة الأموية شعاراً لها وقد تقدم بيان ذلك.

وكان الإمام الباقر عليه السلام يوصي عمر بن عبد العزيز بالعدل فمن وصيته له:

«أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أخاً، وأكبرهم أباً، فارحم ولدك وصل أخاك، وبر والدك، فإذا صنعت معروفاً فربه» بمعنى أدمه ولا تقطعه. وقد روي عن الإمام الصادق أنه قال: كان العبد الصالح أبو حفص يهدي إلينا الدراهم والدنانير في رقاق من العسل خوفاً من أهل بيته.

ولي إمرة المدينة في سنة ٨٧هـ وبقي والياً إلى سنة ٩٣هـ وفيها عزله الوليد عن المدينة لأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد بعسف الحجاج وظلمه، واستبداده وجوره في حكمه، واعتدائه على الناس بغير حق ولا جناية.

فبلغ الحجاج ذلك وكتب إلى الوليد: إن من قبلي من مراق العراق وأهل الشقاق لجأوا إلى المدينة ومكة وإن ذلك وهن.

فاستشاره الوليد عمن يوليه المدينة فأشار الحجاج عليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبد الله القسري، فولى خالداً مكة وعثمان المدينة، وعزل عمر بن عبد العزيز.

وفي سنة ٨٨هـ شرع عمر بن عبد العزيز ببناء مسجد النبي صلى الله عليه وآله وتوسعته بأمر الوليد.

سبب عمارته لمسجد النبي:

وكان السبب الذي من أجله قام الوليد بعمارة المساجد، وتوسعة مسجد الرسول صلى الله عليه وآله هو: أنه خرج حاجاً فمر بمسجد النبي صلى الله عليه وآله فدخله، فرأى بيتاً طاعناً في المسجد، شارعاً بابه، فقال: ما بال هذا البيت؟ فقيل: هذا بيت علي بن أبي طالب عليه السلام، أقره رسول الله صلى الله عليه وآله وردم سائر أبواب أصحابه.

فقال الوليد: إن رجلاً نلعنه على منابرنا في كل جمعة، ثم نقر بابه طاعناً في مسجد رسول الله عليه السلام اهدم يا غلام.

فقيل له: لا تفعل يا أمير المؤمنين، حتى تقدم الشام، ثم تخرج أمرك بتوسيع

مساجد الأمصار، مثل مكة والمدينة وبيت المقدس، وتبني بدمشق مسجداً، فيدخل بيت علي عليه السلام فيما يوسع من مسجد المدينة فقبل ذلك(١).

ولم يهدم الوليد دار عثمان بن عفان فلما تولى بنو العباس أراد الحسن بن زيد أن يوسع المسجد ليهدم دار عثمان كما هدم الوليد دار علي عليه السلام فكتب إلى أبي جعفر المنصور: يصف له ناحية موضع الجنائز. ويقول: إن زيد في المسجد من الناحية الشرقية توسط قبر النبي ﷺ في المسجد.

فكتب إليه أبو جعفر: إني قد عرفت الذي أردت، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان(٢).

وكان اهتمام الوليد في توسعة المسجد شديداً، وأمر عامله عمر بن عبد العزيز بشراء ما حوله من الدور، ومن أبى هدمت عليه داره(٣).

وشق على أهل المدينة ذلك وأرادوا ترك حجر النبي ﷺ على حالها لينظر إليها الحجاج والزوار، والمسافرون، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة. فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة من عدم الرضا بالهدم. فأرسل إليه الوليد يأمره بالخراب وبناء المسجد، ولما شرعوا في الهدم صاح الأشراف ووجوه الناس من بني هاشم وغيرهم، وبكوا مثل يوم مات فيه النبي ﷺ(٤).

ويظهر أنه لم يجسر أحد من عمال المدينة على الهدم، ولذلك اضطر الوليد إلى جلب عمال من بلاد الروم، وكانوا أربعين من الروم وأربعين من القبط(٥).

عثمان بن حيان:

عثمان بن حيان المري مولى أم الدرداء أو مولى عتبة بن أبي سفيان.

(١) مختصر تاريخ البلدان لأبي بكر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الفقيه ص١٠٧.

(٢) الدرة الثمينة لابن النجار ص٨٥.

(٣) الدرة الثمينة ص٨١.

(٤) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٧٤ ـ ٧٦.

(٥) الدرة الثمينة ص٨١ والطبري ج٨ ص٦٥.

كان ظالماً متعسفاً، وأول عمل أجراه في المدينة أنه أرسل على جماعة من العلماء كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، منهم محمد بن المنكدر أحد العلماء الثقات ومن تلامذة الإمام الباقر عليه السلام فضربهم، ونكل بهم لما كان من كلامهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. كما حدث بذلك مالك بن أنس(١).

ونفى العراقيين من المدينة، وحذر كل من آواهم، لأنهم كانوا يستجيرون بالحرم النبوي من الحجاج وجوره، فكان يتتبعهم ويرجعهم إلى الحجاج مقيدين بالحديد، ولم يترك أحداً لا تاجراً ولا غير تاجر.

وخطب على المنبر فقال: أيها الناس إنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه.

ثم ذكر العراقيين ووصفهم بالشقاق والغدر. ثم قال: والله ما جربت عراقياً قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول وما هم لهم بشيعة... والله إني لا أوتى بأحد آوى أحداً منهم أو أكراه منزلاً، إلا هدمت منزله وأنزلت به ما هو أهله(٢).

أبو بكر بن محمد:

أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم المتوفى سنة ١٢١هـ كان من العلماء ومن رجال الصحاح، وتولى قضاء المدينة، ثم ولي إمرتها بعد عثمان بن حيان المري.

وكان عثمان قد عزم على التنكيل بأبي بكر وأن يحلق رأسه ولحيته، ولكن عاجله أمر سليمان بتولية أبي بكر وعزله، وتقييده بالحديث وذلك في سنة ٩٦.

أقام أبو بكر بولاية المدينة من سنة ٩٦هـ إلى سنة ١٠١هـ فعزله يزيد وولى مكانه عبد الرحمن بن الضحاك الفهري، واشتد على أبي بكر وعذبه بما يطول ذكره.

عبد الرحمن بن الضحاك:

عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري.

---

(١) السخاوي في التحفة ج٣ ص٣٨١.

(٢) الطبري ج٨ ص٩٢.

تولى إمرة المدينة سنة ١٠١هـ ولاه يزيد بن عبد الملك بعد أبي بكر بن حزم، ثم عزله سنة ١٠٤هـ وولى مكانه عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري وأمره أن يعذب عبد الرحمن، وأن يضربه بالسياط، وأن يغرمه ألف دينار، ففعل به عبد الواحد ما أمره يزيد، وسلب ماله حتى أصبح لا يملك إلا جبة صوف، وهو يسأل الناس، لسوء حاله وشدة حاجته.

وكان عبد الرحمن هذا سيء السيرة، عامل الناس بالظلم والتعسف وعادى الأنصار، وضرب أبا بكر بن حزم ظلماً وعدواناً، فكرهه الناس وهجاه الشعراء.

عبد الواحد النضري:

عبد الواحد بن عبد الله بن بسر النضري، نسبة لجده النضر بن معاوية.

ولي إمرة المدينة ومكة والطائف في سنة ١٠٤هـ من قبل يزيد بن عبد الملك إلى أن عزله هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦هـ وولى مكانه إبراهيم المخزومي، وكان مرضي السيرة عند أهل المدينة، ولا يفعل أمراً إلا بعد استشارة القاسم بن محمد بن أبي بكر.

إبراهيم بن هشام:

إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي هو خال هشام بن عبد الملك ولي المدينة سنة ١٠٦هـ وضم إليه الطائف ومكة، وبقي والياً إلى سنة ١١٤هـ.

وحج بالناس سنة ١٠٠هـ وخطب بمنى يوم النحر بعد الظهر فقال: سلوني أنا ابن الوحيد، لا تسألون أحداً أعلم مني، فقام إليه رجل من أهل العراق فسأله عن الأضحية أواجبة هي أم لا؟ فما درى أي شيء يقول.

خالد بن عبد الملك:

خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص.

ولي إمرة المدينة سنة ١١٤هـ بعد عزل إبراهيم بن هشام، وبقي والياً عليها إلى سنة ١١٨هـ وولي مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل أخو إبراهيم الوالي السابق.

وكان خالد يحمل على علي عليه السلام ويتكلم على منبر رسول الله ﷺ

بانتقاصه، فقام إليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه وقال له: كذبت كذبت حتى خفضه الناس[1].

محمد بن هشام:

محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن الحكم ولي سنة ١١٨هـ وبقي والياً عليها إلى سنة ١٢٥هـ وعزله الوليد الفاسق، وولى مكانه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي، وهو خال الوليد. وأضاف إليه مكة والطائف.

وغضب الوليد على إبراهيم ومحمد ابني إسماعيل المخزومي، وهما من أمراء المدينة السالفين، فسجنهما ودفعهما إلى يوسف بن محمد موثقين في عباءتين فقدم بهما المدينة في شهر شعبان ١٢٥هـ وأقامهما للناس ثم بعث بهما إلى يوسف بن عمر عامل العراق، فعذبهما عذاباً شديداً حتى ماتا تحت العذاب[2].

يوسف الثقفي:

يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ابن أخي الحجاج وخال الوليد.

ولي المدينة سنة ١٢٥هـ ولاّه ابن أخته الوليد الفاسق، وضم إليه جميع الحجاز، وأقره يزيد بن الوليد، وبقي والياً إلى سنة ١٢٦هـ وعزله وولى مكانه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وبقي والياً إلى سنة ١٢٩هـ ثم عزله مروان الحمار، وولى مكانه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، وهوآخر ولاة الأمويين على المدينة والحجاز.

وفي عهده دخل المدينة أبو حمزة الخارجي في صفر سنة ١٣٠هـ بعد وقعة قديد وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير. وقامت النياحة في بيوت أهل المدينة.

ودخل أبو حمزة الخارجي مدينة الرسول ﷺ وهرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشام وأقام أبو حمزة الخارجي في المدينة ثلاثة أشهر، ثم خرج لقتال مروان الحمار، فلقيهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي في جيش فأوقعوا بأصحاب أبي حمزة، وانهزم جيشه، وعادوا إلى المدينة منهزمين، فلقيهم أهل المدينة فقتلوهم

---

(١) ابن عساكر ج٥ ص٨٢.

(٢) ابن كثير ج١٠ ص٤ والطبري ج٨ ص٢٩٩.

ودخل المدينة عبد الملك بن محمد بن عطية منتصراً وأقام شهراً ثم مضى إلى مكة واستخلف على المدينة ابن أخيه الوليد بن عروة بن محمد بن عطية.

ولاة المدينة في العهد العباسي:

أما أمراء المدينة في العهد العباسي فعندما ولي أبو العباس السفاح عزل عن المدينة يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي أمير المدينة من قبل الأمويين، وولى عمه داود بن علي بن عبد الله بن العباس، وذلك في سنة ١٣٢هـ وضم إليه مكة، واليمن، واليمامة.

ولما دخل المدينة هدد الناس وتوعدهم وقال في خطبته:

أيها الناس أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال، هيهات منكم وكيف بكم، والسوط كفى، والسيف مشهر.

حتى يبيد قبيلة فقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
ويقمن ربات الخدور حواسراً يمسحن عرض ذوائب الأيتام

ولكن الله لم يمهله وعجل عليه فلم تطل أيامه ومات في شهر ربيع الأول سنة ١٣٣هـ وكانت مدة ولايته أقل من ثلاثة أشهر.

ولما دنت وفاته استخلف ولده موسى، وولى السفاح مكانه زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثي، وهو خال السفاح وبقي إلى أيام المنصور وعزله في سنة ١٤١هـ وغضب عليه وحمله إلى الكوفة مكبلاً بالحديد.

وولى مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسري ثم عزله في سنة ١٤٤هـ.

وولى مكانه رياح بن عثمان بن حبان المري وبقي إلى سنة ١٤٥هـ وفي عهده ثار محمد بن عبد الله بن الحسن في المدينة، وقبض على رياح وأخيه إبراهيم وأودعهما السجن، ودخل رجل من ولد مصعب بن الزبير عليهما في السجن عندما اشتد القتال بين محمد بن عبد الله وبين جيش المنصور فذبحهما، ورجع إلى محمد وقاتل معه حتى قتل.

ثم ولي إمرة المدينة ـ بعد قتل محمد ـ عبد الله بن الربيع الحارثي وذلك في سنة ١٤٥هـ وبقي والياً إلى سنة ١٤٧هـ ثم عزله المنصور.

وولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وبقي والياً من قبل المنصور إلى سنة ١٤٩هـ.

وفي أيامه مات أبو عبد الله الصادق عليه السلام وذلك في سنة ١٤٨هـ مسموماً.

* * *

هذا موجز من البيان عن ولاة إمرة المدينة في العهد العباسي، وقد شهدت المدينة المنورة في عهد رياح بن عثمان المري ـ الذي ولاه المنصور إمرة المدينة ـ أولئك الجند القساة يهجمون على منازل آل الرسول صلى الله عليه وآله، ويخرجون الرجال منها فيزج بهم في السجون، ويعذبون فيها بدون رحمة، ولا خشية من عقاب.

ولعل من أعظم تلك المشاهد وقعاً، وأشدها ألماً، مرور موكب آل الرسول صلى الله عليه وآله من شيوخ وشبان في شوارع المدينة، وهم مكبلون في الحديد، وقد غير ألم العذاب نضارة تلك الوجوه يحوط بهم جند المنصور وهم يسيرون إلى الكوفة حتى أودعوا في سجنه المظلم فكان به خاتمة مطافهم، وهو بيت ضيق لا يتمكن أحدهم من مقعده، يبول بعضُهم على بعض ويتغوط، لا يدخل عليهم رَوْح الهواء ولا يخرج عنهم رائحة القذر حتى ماتوا عن آخرهم(١).

وفي خضم هذه الأحداث كان الإمام الصادق يعيش معتركاً حاداً تختلط فيه المشاعر بالمسؤوليات الجسام وليس أشق على نفسه الكريمة الطاهرة من ذاك المنظر وهو يرى برباطة جأش ماذا سينجم عن هذه الجولة التي كان وقوعها أمراً مقدراً لم يدخل في دائرة الاحتمالات على المدى الذي كان يلوح في الأفق. يروي الحسين بن زيد: اني لواقف بين القبر والمنبر، إذ رأيت بني الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبي الأزهر يراد بهم الربذة، فأرسل إلي جعفر بن محمد فقال: ما وراءك؟ قلت: رأيت بني الحسن يخرج بهم في محافل، فقال: اجلس، فجلست، قال: فدعا غلاماً له، ثم دعا ربه كثيراً، ثم قال لغلامه: اذهب، فإذا حُملوا فأتِ فأخبرني. قال: فأتاه الرسول فقال: قد أقبل بهم. فقام جعفر فوقف وراء ستر شعر أبيض من ورائه. فطلع بعبد الله بن الحسن وإبراهيم بن الحسن وجميع أهلهم، كل واحد منهم معادله مسوّد، فلما نظر إليهم جعفر بن محمد هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته،

---

(١) البدء والتاريخ ج٦ ص٨٥.

ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا عبد الله، والله لا تحفظ لله حرمة بعد هذا، والله ما وفت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله ﷺ بما أعطوه من البيعة على العقبة(١).

* * *

وبعد أن عرفنا أهم الحوادث التي جرت في عهد الإمام الصادق عليه السلام سواء أكانت في عهد جده زين العابدين عليه السلام أم في عهد أبيه الإمام الباقر عليه السلام أو في عهده بالذات فإنه يتضح لنا مدى تحمله للمتاعب ومواجهته للآلام التي ماجت بها تلك الفترات.

كما تتضح لنا الظروف التي أحاطت به والمشاكل التي كان يواجهها وقد عايش تلك الأحداث التي عَمّت العالم الإسلامي وتخطى معه تلك المراحل العصيبة يوم أصبح الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه.

وكانت الأهواء هي الحاكمة، والأحقاد هي المسيطرة، وقد رضخ المسلمون لحكم أناس ابتعدوا عن القرآن وتركوا العمل بسنة الرسول فأصبحت الأمة الإسلامية يثقل كاهلها أطماع أولئك الحكام ويرهقها جورهم.

وفي عهد الإمام الصادق كانت البلاد الإسلامية مشحونة بالخلافات والمشاحنات وحدثت ثورات دموية وحروب طاحنة، أدت إلى استغلال الوضع من قبل أناس لا يهمهم إراقة الدماء في سبيل تحقيق مآربهم الشخصية.

١٧ وقد تولى الإمام الصادق عليه السلام أعباء الإمامة ومسؤولية أداء رسالة الإسلام وهداية الأمة بعد أبيه الإمام الباقر عليه السلام وقد لمعت شخصيته. وظهرت قابلياته. فتوالت عليه الطلبات لقيادة تلك الثورات التي قامت بوجه الطغيان، واتجهت إليه الأنظار للاحتجاج على ذلك الحكم الظالم، وكانت الدعوة باسم أهل البيت عليهم السلام، لأنهم زعماء هذه الأمة وأملها المنشود.

وكان الإمام الصادق عليه السلام قد اختط لنفسه طريق الدعوة الصامتة والثورة الإصلاحية، بعد أن عرف بثاقب بصره وخبرته ـ وهو ينظر إلى تلك الحوادث ـ أن هذه الثورات لا تؤدي إلى الغاية التي ينشدها، ولا تحقق الهدف، بل في ذلك مزيد

---

(١) مقاتل الطالبيين ص٢١٩ ـ ٢٢٠. وتاريخ الطبري ج٩ ص١٩٤.

من التضحيات التي لا يتورع بنو أمية في مقابلتها عن سفك الدماء، وكفى أمة محمد ما أريق من دماء، وكفى أهل البيت وشيعتهم ما أزهق من أرواح.

وكان يعلم عواقب تلك الخلافات، ويتحسس حاجة المجتمع الإسلامي إلى التوجيه الصحيح، والدعوة إلى الالتزام بمبادىء الإسلام وتعاليمه، ليحقق بذلك التكافل الاجتماعي، والتآزر العام، فقد بذر الحكام بين الصفوف بذور الفرقة وجعلوا جسم المجتمع مغرساً للأهواء والأباطيل، وللسلطة مفعولها في شد النفوس إليها، وإحاطة أهل البيت بستار من الريبة والخوف ليمنعوهم من التأثير في الأمة.

فقام عليه السلام بمهمة التوجيه، ليخلق الوعي بين الصفوف، وليحقق التكاتف والتآخي، وليقضي على بقايا رواسب جاهلية عملت على إحيائها طغمة حاكمة، لتحقق لنفسها مغانم تسند بها سلطانها الجائر، وحكمها الظالم، وقد شهد طغيان المؤثرات القبلية والسياسية وغيرها.

إن الدعوة التي قام بها الإمام الصادق عليه السلام إنما هي ثورة إصلاحية وحملة توجيه عامة، ليوجد من تلك الجموع الثائرة أمة ذات وعي تحسب للظروف حسابها، وتنظر الوقت المناسب لقيام الثورة المتكفلة لتحقيق غايتها وتحقيق هدفها في إعادة الخلافة الإسلامية وتطبيق نظام الإسلام الذي يكفل للبشر سعادتهم.

والإمام الصادق عليه السلام وسط ذلك المعترك هو الموجه القائد الذي اجتمعت في شخصيته جميع مؤهلات القيادة العامة، وقد واجه تلك الحوادث بحزم وثبات.

وقد رد عليه السلام طلب من ألح عليه في تزعم الحركة الثورية التي نشبت في أيامه بين أنصار العلويين وبين الأمويين، وكانت الدعوة باسم أهل البيت عليهم السلام وهو زعيمهم وسيدهم في عصره.

ولكنه كان يرى أن إصلاح الوضع بالتوجيه الصحيح وتفهيم الناس ضرورة الوقوف تجاه الخصوم موقف تحسس بما تؤول إليه الحالة من التسرع في إثارة الحرب، وأن ذلك لا يجدي نفعاً لوجود ذوي الأطماع الذين لا يقل ضررهم على الأمة الإسلامية من ضرر الأمويين، وبهذا يكون حل المشكلة بمشكلة أعظم منها.

واتخاذ مثل هذا الموقف الذي اتخذه الإمام لنفسه ومن ورائه ذوو البصيرة من أعيان الأمة لَيَدُلُّ على عمق التفكير وحصافة الرأي من ناحية عملية، ومن الناحية

العقيدية، فهو صاحب ولاية وعهد تضمنتهما الإمامة التي آلت إليه بعد وفاة أبيه الإمام الباقر عليه السلام وهي في سياق الدعوة متصلة بمصادر الرسالة متعلقة بمصير الدين. فإن الأمة شهدت على يد الملوك الذين تلبّسوا بالدين انحرافاً في مسيرة السياسة وارتداداً في الغايات والأهداف، ولا يحظى تطبيق نظام الإسلام في ظل خلافة الملوك بمعشار ما تحظى به مصالح الحكام ومآربهم الشخصية وهم لا يتورعون بحال عن استثارة ما منع من الإسلام أو إحياء ما عمل على هدمه النبي ﷺ.

وقد أصبح لسلاطين الزمان قوة وصولة حتى انعدمت حالات التكافؤ، ومع ما هم عليه من الشوكة والنفوذ لم يتمكنوا من إخماد صوت الحق أو منع المؤمنين من العمل بالعقيدة الحقة، وقد تصدّى أهل البيت للحفاظ على روح التحدي في نفوس المؤمنين بشجاعة وبطولة إذ نذروا أنفسهم لدعوة الحق وقيادة تيار الالتزام والاتجاه الديني.

فعمل الإمام الصادق بعد وفاة أبيه على جمع شيعته ومريديه على قواعد المنهج والسلوك المعروفين منذ عهد جده الإمام زين العابدين عليه السلام.

لقد وقف الإمام الصادق عليه السلام موقف المصلح الذي يحاول أن يعيد للأمة مجدها في تعميق مبادىء الإسلام الصحيحة، ونشر الوعي الإسلامي بما يجب على كل مسلم أن يقوم به في إصلاح الوضع، في عصر انتشر به الفساد ومني المجتمع فيه بضروب المحن والابتلاء، وهو عليه السلام بدون شك يحمل من الأذى أضعاف ما تتحمله أفراد الأمة، لأنه المصلح الذي يريد للمجتمع السعادة المفقودة في عهد ولاة لا تحترم حقوق الأمة المشروعة، وتتحدى نظامها المقدس، إذ استبدوا بالأمر وظلموا الأمة، واستأثروا بالمغانم، وخالفوا الكتاب والسُنّة في سبيل غاياتهم، وخلقوا مشكلات الخلاف والتعصب ليفرقوا الكلمة، ويشتتوا الشمل ويشغلوا الأفكار، مما أثر على سير المسلمين وتقدمهم من الجهة الروحية التي هي قوام دينهم، وذلك خلاف ما قرره الإسلام، لأنه يدعو إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

والإمام يرى أن واجبه يحتم عليه نشر دعوة الإصلاح، وتوجيه المجتمع وبث تعاليم الدين، وأن يعلن غضبه على ذلك النظام الجائر بصفته إمام زمانه، ولكنه ماذا يصنع وهو الرجل المغلوب على أمره، والمغصوب منه حقه، ومع ذلك فإنه لم يأل جهداً في معارضتهم، ونهى الناس عن مخالطتهم والتولي لأعمالهم، وقد أوجب على

الأفراد عدم التعاون مع ولاة الأمر، وحرم عليهم العمل لهم، وحذر وأوعد من عاونهم بالعذاب لأنه كبيرة من الكبائر، إذ الوالي الجائر يشتد عزمه وتتسع دائرة استبداده عندما يكثر مناصروه.

كان الإمام عليه السلام يرى أن انفصال الأمة عن الظالمين وعدم الركون إليهم يضيق دائرة الاستبداد ويرغم الولاة على العدل، ويأمل من وراء ذلك لهم السعادة، والغرض أن ولاة ذلك العصر أو خلفاء الدولة المروانية قد انهمكوا في الدنيا وسفكوا الدماء، وانتهكوا المحرمات وتجاهروا في عداء آل محمد ﷺ، وتتبعوا من عرف بحبهم، والميل إليهم، وتقريب من عرف ببغضهم، وهم يحاولون بذلك تحويل أنظار الأمة عن أهل البيت أهل العلم والورع والعبادة. والناس وإن تمكن من نفوسهم حب الدنيا والطموح إلى المال فهم يخضعون لسيطرة العلم والدين بدافع العقيدة، وحب الناس، لآل محمد ﷺ لا للدنيا ولكنه للدين وحده، فحبهم من الدين، لذلك كان يثقل على بني أمية ذكر أهل البيت بخير، لأن سياستهم ترتكز على بغضهم ونصب العداء لهم، وإقصاء من عرف بحبهم، وقتل من اتضح منه ذلك. تارة باسم الزندقة وأخرى باسم الخروج على طاعة السلطان.

ويعطينا الشاعر العبلي[1] صورة عن تلك السياسة بقوله:

شردوا بي عند امتداحي علياً ... ورأوا ذاك فيَّ داءً دويا
فوربي ما أبرح الدهر حتى ... تختلي مهجتي بحبي عليا
وبنيه لحب أحمد أني ... كنت أحببتهم بحبي النبيا
حب دين لا حب دنيا وشر ... الحب حب يكون لي دنيويا
صاغني الله في الذوابة منهم ... لا ذميماً ولا سنيداً دعيا

وكان هذا الشاعر في عداد الأمويين، فهو من عبد العزى بن عبد شمس ولكن يكره ما يجري عليه بنو أمية من ذكر علي وسبه على المنابر، ويظهر الإنكار، فنهوه عن ذلك ونفوه من مكة إلى المدينة، وعاش مجفواً من الأمويين مع مدحه لهم وشعره فيهم.

---

(١) هو عبد الله بن عامر بن عبد الله بن ربيعة بن عبد العزى.

ثم خلفتها الدولة العباسية فزادت على أعمال الدولة الأموية، حتى قال أحد مخضرمي الدولتين:

يا ليت جور بني مروان دام لنا ... وليت عدل بني العباس في النار

لأنهم تتبعوا الذراري العلوية فقتلوهم تحت كل حجر ومدر، وخربوا ديارهم وهدموا آثارهم حتى قال الشعراء في عصر المتوكل:

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتته بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميماً

وكابد أهل البيت من المحن ما لا يمكن حصره، فقد امتلأت منهم السجون واهتزت بأجسامهم المشانق، وسالت بدمائهم الأرض.

وكانت السلطة الحاكمة تشجع خصومهم وتدعو الناس للابتعاد عنهم. فيصدر مرسوم من بغداد إلى مصر، بأن لا يقبل علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، وإن كانت بين علوي وبين أحد من سائر الناس خصومة فلا يقبل قول العلوي ويقبل قول خصمه بدون بينة[1] وكانوا بين آونة وأخرى، يصدر مرسوم بأن يسفروا من الأطراف إلى عاصمة الملك ليكونوا تحت الرقابة، وينالوا العقاب هناك، وأمر الرشيد عامله على المدينة أن يضمن العلويون بعضهم بعضاً وكانوا يعرضون على السلطان كل يوم فمن غاب عوقب.

أما عاصمة ملكهم بغداد، أو مقر حكمهم العراق فأمر العباسيين مع العلويين أشهر من أن يذكر بإشارة، فلو نطقت أجزاء الأرض ما بين البصرة وفخ وكوفان ومقابر قريش وأفصحت عما احتوت وما شهدت لضج ما بين المشرق والمغرب لهول المشاهد والأحداث من أناس لولا اسم أهل البيت لكانوا أبعد عن السلطان والحكم، ولكنهم أخفوا نواياهم واستظلوا بمكانة أهل البيت ومحبة الناس لهم وتفجعهم لما حل بهم.

---

(١) الولاة والقضاة للكندي ص١٩٨.

ولم يقف العلويون تجاه هذه السياسة موقف الذلة والخضوع، وأبت نفوسهم التسليم لتلك النظم والأحكام القاسية، وقد استطاعوا الإفلات من تلك السيطرة، فثاروا في وجه الظلم لرفع راية العدل، فكانت هناك ثورات دموية كان النجاح مع أكثرهم فأسسوا دولاً وحكومات أقلقت العباسيين ودفعتهم إلى الانتقام من العلويين، وتطبيق مادة الفناء والإبادة بحق من عُرِفَ بالميل لهم أو اتهم بذلك، فحاكوا لهم التهم، ولصقوا بهم العيوب، فلقيت شيعة أهل البيت من ذلك أشد الأذى، ولكنهم ذللوا تلك المصاعب بسلاح العقيدة والإيمان الصحيح، ووقف معسكرهم من البداية إلى النهاية مرابطاً على خط الدفاع عن حقوق آل محمد والانتصار لهم.

على أن الأكثرية الساحقة دعاهم الطمع وحب الدفاع عن النفس، ـ وهو من الغرائز الملائمة لطبيعة الإنسان ـ للتظاهر مع السلطة على هضم حقوق العترة وبث تلك الدعايات الكاذبة ضد شيعتهم لفزعهم من الأحكام القاسية التي تطبق على الشيعة، إذ شاهدوا أن أقرب الناس من ساحات الأمن وأبعدهم عن الخطر من ألف كتاباً في ذمهم أو أبدى رأياً في مؤاخذتهم أو الطعن في معتقداتهم أو قال شعراً يهجوهم به، أو عرف بالعداء لآل محمد، وهم أئمة الشيعة ولا يرون طاعة أحد غيرهم، فتجد الكتّاب والعلماء والشعراء يتقربون إلى ولاة الأمر بما يحط من كرامتهم، لينالوا شهادة الانتساب إلى مؤيدي السلطة ويتنعموا بالسحت الحرام الذي تدرّه عليهم ألسنتهم الخبيثة وأقلامهم الدنيئة.

هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة والإلحاد يقف أمام الخليفة العباسي فينشد:

أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام

فيجيزه المهدي بسبعين ألف درهم، فما حال الرعاع وذوي الحاجة والضمائر الرخيصة الذين يبيعون ضمائرهم بأبخس الأثمان عند مشاهدة هذا التشجيع. ويدخل مروان بن حفص على المهدي فينشده قصيدة يتعرض بها لآل علي عليه السلام.

هل تطمعون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة عن ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتم إبطالها

يعني بذلك بني علي وبني العباس[1]. فترى المهدي يتزاحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع وتقديراً لموهبة هذا الشاعر . .

ثم قال له كم بيتاً هي؟ قال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم.

وناهيك بما في هذا العمل والتشجيع من الخليفة وأثره في نفوس العامة، ولا شيء أملك للنفس من عطف الأمراء وتوددهم للأفراد بما تميل طباعهم إليه إلاّ من أحبّه الله ووقاه.

دخل رجل على الرشيد فقال: لقد هجوت الرافضة، قال: هات فأنشد:

رغماً وشمساً وزيتوناً ومظلمة   من أن تنالوا من الشيخين طغياناً

قال الرشيد: فسره لي. قال: لا، ولكن أنت وجيشك أجهد من أن تدري ما أقول. قال: والله ما أدري ما هو. وأجازه.

ويقف مروان بن أبي الجنوب فينشد المتوكل شعراً ينال فيه من آل علي ويذم شيعتهم، فيأمر المتوكل بأن ينثر على رأسه ثلاثة آلاف دينار، ويأمر ولده سعد ألا يتأنى بالتقاطها له، ويعقد له على إمارة البحرين واليمامة ويخلع عليه أربع خلع[2].

هذا بعض ما أبدته السلطة في مقاومتهم وتشجيع خصومهم، ولكنه عمل لم يثمر أي شيء. فآل محمد لا تستطيع أي قوة إخفاء ذكرهم أو محو آثارهم، فهم في كل زمن أعلام هدى، ودعاة صلاح وذكرهم يتجدد كلما تحرر الفكر وازدهر العلم. والمنصف إذا نظر إلى انتشار مذهب أهل البيت في الأقطار الإسلامية، كالعراق، والحجاز، ومصر والشام والأندلس والهند وإيران، والبحرين والقطيف وغيرها، يرى أن ذلك الانتشار إنما كان بحسب ذاته ولياقته وقيمه الروحية، مع شدة مقاومة السلطات فكلها تتصف بالعداء له ووقفوا دون انتشاره مواقفاً خانهم النجاح فيها، وسيتضح كل ذلك عند دراساتنا لنشأة المذاهب الإسلامية وعوامل انتشارها، وها نحن ننتقل بالقارىء الكريم إلى البحث عن نشأة المذاهب والله ولي التوفيق.

---

(١) الخطيب ص١٣ ص١٤٤.

(٢) ابن الأثير ص٧ ص٣٨.

المذاهب الأربعة
نشأتها وشهرتها وانتشارها

تمهيد:

وقبل البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة يلزمنا ذكر أسباب نشأتها وكيف تكيف الالتزام بها دون غيرها من المذاهب، حتى أصبح الوقوف عند قول إمام معين لازم، ولا يمكن استنباط حكم شرعي لأي أحد دون أولئك القوم الذين وقفت قافلة التشريع الإسلامي عندهم، فأصبحوا المصدر للتشريع والمرجع الأعلى في الدين، حتى ادعي استحالة الاجتهاد لمن بعدهم، فأغلق بابه في وجوه المسلمين.

وغلق باب الاجتهاد جمود للتشريع ووقف لتطور حياة الأمة، فتلك أمور يلزمنا النظر فيها ولا نستطيع فهمها إلا بعد أن ندرس الظروف التي تكونت فيها فكرة التمذهب بمذهب إمام معين، ونبحث عن أسباب نشأتها وعوامل انتشارها، فهل كانت دواعي الانتشار بسبب القيم الروحية؟ أم أنها استندت إلى السلطة التنفيذية؟ وهل كانت مستقلة عن تأثير السلطة أم أنها عرضة لذلك؟ وهل أخضعتها لمتابعتها أم أنها خضعت لأغراض الولاة؟ وسيتضح لنا ذلك عندما نبحث عن نشأة المذاهب.

نشأة المذاهب:

على اثر النجاح الذي أحرزته الجمعيات السرية المنعقدة ضد النظام الأموي طلع نجم بني العباس، وكان لهم نشاط سياسي في المجتمع، فهم في طليعة رجال حركة الانقلاب الذي أحدثته الأمة لتحويل الحكم من البيت الأموي إلى البيت العلوي، وكان العباسيون أشد الناس حماساً في إيقاد نار الثورة انتقاماً من الأمويين لأبناء علي عليه السلام وكانت هتافات الثورة هي الدعوة إلى الرضا من آل محمد. وكانوا بذلك يتغلغلون في أوساط الناس، وبواسطة هذا الشعار أوجدوا لأنفسهم مكاناً في

قيادة تيار النقمة وتوجيه الثورة، وهم في قرارات أنفسهم يستغلون شمولهم بتسمية أهل البيت وقد أخفوا نواياهم حتى حين، إذ ليس من السهل أن يكاشفوا شيعة أهل البيت أو يصرحوا بعزمهم على العمل لأنفسهم كبيت عباسي مستقل، ولو فعلوا ذلك قبل نجاح الثورة فمن المؤكد أن جماعات الثوار ستلفظهم أو تتخذ ما يناسب ذلك، لأن الأمر في أذهان الناس لا يعدو آل محمد ولا يتجاوز البيت العلوي الذي كان قطب الرحى في المسيرة، وأي عمل يكشف عن نوايا العباسيين المبيتة سيؤدي بهم بعيداً عن الثورة.

على هذا ثارت الأمة وانتظمت صفوفها التي نالت الانتصار في تلك الحروب الدامية، ومحيت أمية من صفحة الوجود، ثم نال العباسيون ثمرة ذلك الغرس بمسايرة الركب ومجاراة المشاعر، فتاقت نفوسهم إلى انتحال هذا الاسم عسى أن يوفقوا لإقناع الأمة بانطباقه عليهم فتكون لهم حكومة وراثية، وتمنحهم الأمة ثقتها التامة.

وبالطبع ان هذه الفكرة لا تلاقي كثير قبول عند العرب وفي المدينة ومكة في الخصوص، لذلك وجهوا عنايتهم إلى الموالي. فأهل المدينة أعرف بآل محمد وأدرى بنزول الآيات فيهم، وأحاديث النبي ووصاياه في آله، ولأنهم شاهدوا تلك الأعمال التي عامل الأمويون بها آل محمد ﷺ وتألموا لها، فكان كل ينكر ذلك ويتمنى مناصرتهم فلا يمكنهم أن يجعلوا العباسيين هم آل محمد.

وحذراً من إنكار العرب وانضمامهم لجانب العلويين اقتضت سياستهم توجيه العناية إلى الموالي، وهم يأملون من وراء ذلك تثبيت قواعد المملكة اليوم والنقمة من العرب يوماً آخر.

المدينة والحركة العلمية:

كانت المدينة المنورة مصدراً للفتيا ترجع إليهم الأمة في مهمات التشريع الإسلامي لأنها مركز العلم وفيها أصحاب الرسول وأهل بيته والتابعين لهم بإحسان، وقد لاحظت الدولة الأموية من قبل هذه المهمة التي يجب أن تلاحظها، وهي اتجاه الأنظار إلى المدينة لأنها الجامعة الإسلامية ويخشى على الدولة خطرها، فكانت تحذرهم أشد الحذر، فاستمالت أكثر الفقهاء بالعطاء والرجوع إليهم في المهمات، لتسد بذلك ثغرة الخطر عى الدولة.

وفي العهد العباسي نشطت الحركة العلمية وكان طبيعياً أن تنتعش العلوم في ظل سلطانهم لأنهم كانوا يجعلون حقهم في الإمامة قائماً على أنهم سلالة النبي، وكانوا يقولون إنهم سيشيدون ـ على اطلال الحكومة الموسومة بالزندقة عند أهل التقى ـ نظاماً على سنة النبي وأحكام الدين الإلهي.

فنهض أهل البيت وبقية العلماء لنشر العلم إذ وجد المسلمون حرية الرأي، والتفوا حول آل البيت لانتهال العلوم من موردهم العذب، وكان الإمام الصادق عليه السلام هو الشخصية التي يتطلع إليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية فحملوا عنه إلى سائر الأقطار، وقصده طلاب العلم من الأنحاء القاصية، وفتحت مدرسته بتلك الفترة فكان المنتمون إليها أربعة آلاف كما مر ذكره.

وهذا النشاط العلمي لا يروق للدولة الفتية التي قامت على اطلال الدولة الأموية بدون حق شرعي، وإنما في صالح العلويين وانضمام العباسيين إليهم يطلبون الانتقام من أمية التي جرعتهم كأس الغصص فهم كسائر البيوتات التي انضمت لهذه الدعوة، ولكنهم نشطوا بالحيلة، وتغلبوا باصطناع المعروف لآل البيت فكانوا في حذر متواصل من العرب عامة ومن المدينة خاصة، لأن الأمر في المدينة غيره في الكوفة، فأهل المدينة قد وقفوا على حقيقة البيعة وانها لآل علي عليه السلام دون بني العباس، كما أنهم كانوا في طليعة من بايع محمد بن عبد الله بن الحسن وفي رقبة السفاح والمنصور بيعته فكيف يستقلان بالأمر وينقضان تلك البيعة؟

ولكن السفاح استطاع بمهارته استجلاب قلوب الناس إليه وتثبيت قواعد ملكه على أيدي الفرس، لأنه لا يأمن وثبة العرب لجانب العلويين، فهم في نظر العباسيين أنصار بني علي لا أنصار بني العباس، كذلك كان من سياستهم في بدء الدعوة قتل كل من يتكلم بالعربية في بلاد فارس.

ومضى السفاح وجاء المنصور للحكم وهو ذلك الرجل الحديدي الذي يقتحم مواقع الخطر، ولا يتهيب من إراقة الدماء، ولا يقف أمامه حاجز ولا يردعه وازع ديني في سبيل تركيز دعائم ملكه، إذ كان الخطر محيطاً به من كل الجهات وأمام غايته حواجز لا يتخطاها إلا بالتجرد عن العاطفة ففتك بأهل البيت وبكثير من العباسيين أنفسهم، وأبعد علماء المدينة ونصر الموالي وأوجد تلك المعركة القوية وهي معركة أهل الحديث وأهل الرأي.

فقرب لفقهاء العراق القائلين بالقياس، وأحاطهم بعنايته ليحول أنظار الناس إليهم، وبذلك تقل قيمة علماء أهل المدينة الذين هم أهل الفتيا إلى حد كبير، وما زالت الأقطار الإسلامية عيالاً عليهم، إذ هم حملة الحديث وأوثق الناس فيه.

أهل الحديث وأهل الرأي:

وكان الحديث في العراق قليلاً ولكن انفتح فيه باب الرأي والقياس، وقد أخذه حماد بن إبراهيم النخعي المتوفى سنة ٩٥هـ ٧١٣م، وأخذه أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠هجـ عن حماد، وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنهم يتركون الأحاديث لأقيستهم، والدين لا يقاس بالرأي، وإنما سموا أهل الرأي لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار؛ وطريقتهم أن للشريعة مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شرعت، فجعلوا هذه المصالح أصلاً من أصول الأدلة إذ لم يجدوا نصاً في الكتاب والسنة الصحيحة عندهم، وقد كانت قليلة العدد لبعد العراق عن موطن الحديث.

وأما أهل الحديث فلم يجعلوا للقياس والرأي في استنباط الأحكام هذا المحل، واتسعت شقة الخلاف واحتدم النزاع وافترق أهل الفتيا إلى فرقتين.

وأنت ترى أن هذا النزاع بعد أن كان علمياً محضاً أصبح مزيجاً بالسياسة أو التعصب، وتعددت فيه عوامل التفرقة لتستند السلطة إلى أقوى الفريقين، واتسع نطاق الخلاف فترى مالك بن أنس يحط من كرامة العراقيين ويتحامل عليهم ويعلن بقوله: أنزلوهم منزلة أهل الكتاب؛ لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وإليكم وإلهنا وإلهكم واحد(١).

ودخل عليه محمد بن الحسن الشيباني فسمعه يقول هذه المقالة ثم رفع رأسه فكأنه استحيى فقال: يا أبا عبد الله أكره أن تكون غيبة كذلك أدركت أصحابنا يقولون، وكان يقرأ إذا نظر إلى العراقيين (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر)(٢).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ـ ٢ ـ ١٥٧.

(٢) ضحى الإسلام ٣ ـ ١٥٢.

وكان يسمي الكوفة دار الضرب يعني أنها تضع الأحاديث وتضعها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير. وقال عطاء لأبي حنيفة: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً[(1)].

ومهما يكن من الأمر فقد تعصب كل فريق إلى بلده وتنابزوا، وعيّر أهل المدينة بسماع الغناء، وأهل مكة بالمتعة، وأهل الكوفة بالنبيذ، واشتدت عصبية كل قوم لبلادهم، وحملتهم على وضع الأخبار في مدح كل منهم قومه وبلده وذم مقابله، وعظم الانشقاق بين الطائفتين، وبالطبع ان الكوفة تضعف عن مقابلة الحجاز، ولكن السياسة الزمنية اقتضت أن تكون إلى جانب أهل الرأي لا حباً لهم ولكن بغضاً لأهل المدينة، وأصبح لكل جانب أنصار ومتعصبون فكان مالك بن أنس في طليعة أهل الحديث وأنصاره من الحجاز سفيان الثوري وأصحابه، وزعيم أهل الرأي أبو حنيفة وأصحابه وكثير من فقهاء العراق.

فالشافعي أخذ عن مالك وأصحابه، وأحمد المتوفى سنة ٢٤١هـ ٨٢٠م أخذ عن الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ ٨٢٠م وأصحابه.

وإنما سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ولا يرجعون إلى القياس.

يقول الشافعي: إذا ما وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا أن مذهبي ذلك الخبر، وتبعه أصحابه، وهم: إسماعيل بن يحيى المزني، والربيع بن سليمان الجيزي، وحرملة بن يحيى، وأبو يعقوب البويطي، وابن الصباح، وابن عبد الحكم المصري، وأبو ثور، وغيرهم.

وأما أصحاب الرأي، فهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وأصحابه: محمد بن الحسن الشيباني، وأبو يوسف القاضي، وزفر بن الهذيل، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وأبو مطيع البلخي، وبشر المريسي، فهؤلاء عرفوا بأهل الرأي وقالوا إن الشريعة معقولة المعنى ولها أصول يرجع إليها، ولاقتناعهم بمعقولية الشريعة وابتنائها على أصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة كانوا لا يحجمون عن الفتوى برأيهم كما كان يفعل الفريق الأول فإنهم يقفون ولا يتعدون حدود النص، وكانوا يحبون معرفة العلل

(١) تاريخ بغداد ١٣ ـ ٢٢٠.

والغايات التي من أجلها شرعت الأحكام، وربما ردوا بعض الأحاديث لمخالفتها لأصول الشريعة، ولاسيما إذا عارضها حديث آخر.

وبهذا افترقت الأمة على فرقتين أهل حديث وأهل رأي، أو أهل المدينة وأهل الكوفة، مع العلم بأن أهل العراق لا يقاسون بأهل المدينة في الحديث، فكان القياس عندهم أكثر وعليه يبنون غالب فتاواهم، ونشط سير الحركة العلمية في ذلك العصر.

نشوء المذاهب:

أصبح النشاط العلمي واسع النطاق، فكان في كل بلد إمام له مذهب ينسب إليه، وكثر عدد المذاهب المنتمون إليها، إلا أنه لم يكتب البقاء لأكثرها واعتراها الانقراض، وكان لمؤسسيها الذين كثر اتباعهم تأريخ مجيد ومكانة سامية، ربما فاقوا في نظر معاصريهم وذوي العلم منهم رؤساء المذاهب الذين وقفت قافلة الفقه عندهم، واقتصر استنباط الأحكام عليهم، ولكن عوامل انتشار مذاهبهم عجزت عن مسايرة الظروف فلم يكتب لها البقاء، ومحيت من صفحة الوجود ولم يبق لأبناء السنة منها إلا الأربعة:

المالكي. والحنفي. والشافعي. والحنبلي. أما المذاهب التي انقرضت فهي كثيرة ونذكر منها:

١ ـ مذهب عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١هـ ٧٢٠م.

٢ ـ مذهب الشعبي المتوفى سنة ١٠٥هـ ٧٢٣م.

٣ ـ مذهب الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هـ.

٤ ـ مذهب الأعمش المتوفى سنة ١٤٨هـ ٧٦٤م.

٥ ـ مذهب الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ ٧٧٣م.

٦ ـ مذهب سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١هـ ٧٧٧م.

٧ ـ مذهب الليث المتوفى سنة ١٧٥هـ.

٨ ـ مذهب سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ ٨١٤م.

٩ ـ مذهب إسحٰق المتوفى سنة ٢٣٨هـ.

١٠ ـ مذهب أبي ثور المتوفى سنة ٢٤٠هـ ٨٥٤م.

١١ ـ مذهب داود الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠هـ ٨٣٣م.

١٢ ـ مذهب محمد بن جرير المتوفى سنة ٣١٠هـ ٩٢٣م.

ومذهب عبد الله بن اباض[1] وغيرها من مذاهب المسلمين التي تتفق أحياناً وتفترق أحياناً في كثير من المسائل الشرعية، ومنهم من جعل في تعداد هذه المذاهب، مذهب عائشة، مذهب ابن عمر، مذهب ابن مسعود، مذهب إبراهيم النخعي. ولزيادة البيان نذكر طرفاً من حياة بعض أولئك العلماء ورؤساء المذاهب.

سفيان الثوري:

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي المتولد سنة ٦٥هـ وتوفي بالبصرة سنة ١٦١هـ متوارياً عن السلطان وعده ابن قتيبة في عداد الشيعة وهو أحد الأئمة المجتهدين. وله مذهب لم يطل العمل به لقلة أتباعه وعدم مؤازرة السلطة له، إذ كان طريداً يخشى سطوتهم وهم يطلبونه حتى مات مختفياً منهم، وهو أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام وخريج مدرسته، وكان إماماً من أئمة المسلمين، قيل روى عنه عشرون ألفاً، وكان والده سعيد بن مسروق من محدثي الكوفة وثقه ابن معين وأبو حاتم والعجلي.

نشأ الثوري في مسقط رأسه الكوفة نشأة صالحة وكان بيته معروفاً وله مكانة في محيطه، فهو من فقهاء العراق الذين تشد إليهم الرحال في طلب العلم، وأراد المنصور قتله فلم يتمكن، ودعي إلى القضاء فهرب، كان يتحرى مواقف الصدق في مواجهة العباسيين ويعمل على الاستمساك بتعاليم الدين فلما عزم المنصور على ابن أبي ذؤيب أن يقول رأيه فيه واستعفاه ابن أبي ذؤيب وأصر المنصور، قال ابن أبي ذؤيب: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله وأشهد أن الظلم ببابك فاشٍ. فلما انصرف لقيه سفيان الثوري فقال له: يا أبا الحارث لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار، ولكن ساءني قولك له: ابنك المهدي. فقال: يغفر الله لك، يا أبا عبد الله، كلنا مهدي. كلنا كنا في المهد. وبقي مذهبه معمولاً به إلى القرن الرابع.

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص١٠٦.

سفيان بن عيينة:

أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، مولاهم الكوفي المتوفى سنة ١٩٨هـ كان إماماً عالماً ثبتاً أخذ العلم عن الصادق عليه السلام والزهري وابن دينار وأبي إسحق وغيرهم، وروى عنه الشافعي وشعبة بن الحجاج وخلق كثير، قال الشافعي: ما رأيت أحداً فيه آلة الفتيا ما في سفيان، وما رأيت أكف منه عن الفتيا، وثقه العجلي والشافعي وغيرهم، وقال الشافعي لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، وله مذهب يعمل به ولم يطل عمره وانقرض في القرن الرابع، لقلة أتباعه وأنصاره وعدم ملاءمته لسلطان عصره، ودفن بمكة.

الحسن البصري:

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري المتوفى سنة ١١٠هـ، كان من التابعين وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ.

نشأ بوادي القرى، وكان من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما شوّه خلقته، كان مؤازراً لبني مروان يشد أزرهم وله علاقة وثيقة مع الولاة والأمراء ويلاقي منهم الإكرام، وكان لهم في ثغر البصرة بقوة الدفاع أعظم من الجيوش المدربة في ساحات الحرب، حتى قالوا: لولا لسان الحسن وسيف الحجاج لَوُئِدَتْ الدولة المروانية في لحدها وأخذت من وكرها، وكان مدلساً في حديثه كما نص عليه الحفاظ ولم يطل العمل بمذهبه.

كان الحسن البصري يتفق مع سياسة الدولة الأموية ويروي عن علي عليه السلام فإذا حدث عنه قال: قال أبو زينب (يعني علياً) مجاراة للدولة التي اقتضت سياستها أن لا يظهر اسم علي عليه السلام ونقل عنه أنه تكلم في علي فقال له إبان بن عياش: ما هذا الذي يقال عنك أنك قلته في علي؟ فقال: يا ابن أخي أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة ولولا ذلك لسالت بي أعشب.

ولا شك أن هذا من أظهر موارد التقية وكان له مجلس علم حاشد بالعلماء لعظيم منزلته من الدولة، وفي مجلسه نشأت فكرة الاسم والحكم التي كانت أساساً لمذهب الاعتزال.

الأوزاعي:

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشاميين المتوفى سنة ١٥٧هـ.

انتشر مذهبه بالشام كما انتشر مذهب مالك في الحجاز وأبو حنيفة في العراق وعمل أهل الشام بمذهبه مدة من الزمن، وانتشر بالأندلس ثم اندرس مذهبه وحل محله مذهب الشافعي، وعندما عين محمد بن عثمان الشافعي قاضياً على دمشق حكم بمذهب الشافعي، وهو أول من نشره هناك وبقي مذهب الأوزاعي إلى سنة ٣٠٢هـ.

وكانت للأوزاعي شخصية مرموقة في عصره، ولن يعدم العناية من السلطة، فقد كان في العهد الأموي محترماً مبجلاً لأنه على شاكلتهم، ومن المؤيدين لدولتهم، والمناصرين لهم، واتخذته السياسة رمزاً دينياً لأغراضها الخاصة، وفي العهد العباسي قربوه لمكانته عند أهل الشام، فكانوا يستميلونه ويقربون محله، وكان المنصور يعظمه ويراسله لأنه عرف عنه الانحراف عن آل محمد ﷺ كما يتضح لنا ذلك من تتبع آرائه وأقواله، يروي الأوزاعي قال: بعث إلي أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد علي واستجلسني ثم قال لي: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قال قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم. وأما منزلته العلمية فلا تنكر في عصره وبعد عصره، روى ابن القطان عن مالك بن أنس أنه قال اجتمع عندي أبو حنيفة والثوري والأوزاعي فقلت: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعي. ومات في خلوة في الحمام، وذلك أن زوجته أوقدت له كانون فحم وأغلقت الباب عليه فمات.

ابن جرير الطبري:

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن غالب الطبري، المتولد سنة ٢٢٤هـ بآمد الطبرستان وتوفي ببغداد في ٢٦ شوال سنة ٣١٠هـ.

هو من المجتهدين لم يقلد أحداً وله مذهب عمل به مدة، واعتنقه جماعة منهم أبو فرج المعافى بن زكريا النهرواني المعروف بابن طراز. قال محمد بن إسحق بن خزيمة: ما أعلم تحت أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، وقال الخطيب البغدادي. كان حافظاً لكتاب الله تعالى عارفاً بالقرآن بصيراً بالمعاني فقيهاً بأحكام

القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين فمن بعدهم.

داود بن علي الظاهري:

أبو سليمان داود بن علي بن خلف المعروف بالظاهري ولد بالكوفة سنة ٢٠٢هـ ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة ٢٧٠هـ وكان له لون خاص في التشريع لعمله في الظاهر.

استمر العمل بمذهب داود إلى القرن السابع الهجري، وكان من أتباعه وأئمته: عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي المتوفى سنة ٦١٠هـ، ومحمد بن الحسين المشهور بالميورقي المتوفى منتصف القرن السادس، ومجد الدين عمرو بن حسن بن علي بن محمد بن فرج المتوفى سنة ٦٢٣هـ وكان من المحدثين. ومن أئمة هذا المذهب محمد بن حزم[١] صاحب الفصل في الملل والنحل وصاحب المحلى على قواعد المذهب الظاهري.

قطع هذا المذهب شوطاً من الزمن بخطى ثقيلة، ولكنا نراه يسرع في خطاه وينتشر بنطاق واسع عندما تولى المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وأعلن تمسكه به، وأعرض عن مذهب مالك الذي غمر المغرب بانتشاره، فعظم المذهب الظاهري وكثر اتباعه، وانقطع علم الفروع وخاف الفقهاء سطوة السلطان عندما فرض اعتناق هذا المذهب، وأمر بإحراق كتب مذهب مالك، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد والتهذيب للبردعي.

قال في المعجب: ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع وتطلق النار عليها. واستمر المذهب وقد عده المقدسي في «أحسن التقاسيم» خامساً للمذاهب.

---

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتولد سنة ٣٨١هـ والمتوفى سنة ٤٥٦هـ وكان عظيم الحفظ كثير التصانيف وكان جريء اللسان متسرع إلى النقل بمجرد ظنه كبير الوقوع بالعلماء وله كتاب الفصل يعرف به تحامله على المسلمين فإنه يطلق لسانه حتى قيل إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان. كان شافعي المذهب. قال ابن العربي: ثم إنه انتسب إلى داود ثم خلع الكل واستقل وزعم أنه إمام الأئمة يضع ويرفع ويحكم ويشرع وينسب إلى دين الله ما ليس فيه. تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٢٤.

الليث بن سعد:

أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن المتولد سنة ٩٢هـ والمتوفى يوم الخميس أو الجمعة منتصف شعبان سنة ١٧٥ بمصر، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره أحد المزارات هناك وله مكانة علمية، ومذهب يعمل به، وكان يقرن بمالك بن أنس، يقول الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، وكان ابن وهب يقرأ على الشافعي مسائل الليث فمرت به مسألة فقال رجل: أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أفقه من الليث.

وكان أهل مصر ينتقصون عثمان فنشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائل عثمان فكفوا، ولم يسعده الحظ بأنصار ينشرون مذهبه فيكتب له الخلود، وقد انقرض لمدة قليلة، يقول الأستاذ أحمد أمين: «لو تعصب المصريون لمن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه، ولكانوا أتباعه، ولكن زامر الحي لا يطرب وأزهد في عالم أهله».

وفي الواقع ان عدم اشتهار مذهبه وانتشاره من عدم امتزاجه بسلطان عصره، فقد طلبه المنصور للقضاء فأبى وقال: إني أضعف عن ذلك، ولم يكن من أصحابه من يتولاه. فالقضاء هو عامل قوي لنموّ المذاهب وبقائها كما يأتي بيانه.

ومما يؤثر عنه أنه لقي الرشيد فسأله الرشيد: ما صلاح بلادكم؟ قال: يا أمير المؤمنين صلاح بلادنا إجراء النيل وصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت العين.

وقال في النجوم الزاهرة: كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره، بحيث إن القاضي والنائب من تحت إمرته ومشورته، وكان الشافعي يتأسف على فوات لقياه؛ وقد كتب بعض من غاظه ذلك إلى المنصور:

أمير المؤمنين تلاف مصراً ... فإن أميرها ليث بن سعد

عمر بن عبد العزيز:

عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان تابعياً جليلاً روى عن أنس بن مالك وغيره، وكان أعدل ملوك الأمويين، مر بيان ترجمته عند ذكرنا لملوك عصر الإمام الصادق عليه السلام وأمراء بلده، ولا نعلم بالضبط الآخذين بمذهبه والعاملين به

ولا نعلم مدة بقائه، وربما كانت له آراء خاصة أخذها الناس عنه فعدّ في عداد المذاهب. ولا يخفى أن لمنزلته الدينية وفقهه أثرهما في الناس بعد أن استلم الحكم، والناس لا ترى من حكام بني أمية إلا ثلاثة أوجه: كره العلويين وظلم الناس واقتراف الموبقات. ونقل عنه قول: ما يسرّني أن أصحاب محمد (ص) لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة.

الأعمش:

أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش مولى بني كاهل من ولد أسد المعروف بالأعمش الكوفي المتوفى سنة ١٤٨هـ، كان ثقة عالماً وكان أبوه من دنباوند وهي ناحية من رستاق الري في الجبال، وكان يقارن بالزهري في الحجاز، ورأى أنس بن مالك لكنه لم يسمع منه، ويروي عن أنس إرسالاً أخذه عن أصحاب أنس، وروى عنه سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وكان لطيف الخلق مزاحاً.

دخل أبو حنيفة يوماً لعيادته فطول القعود عنده فلما عزم على القيام قال أبو حنيفة: ما كأني إلا ثقلت عليك. فقال: والله إنك الثقيل علي وأنت في بيتك. وعاده أيضاً جماعة وأطالوا الجلوس عنده فضجر منهم فأخذ وسادته وقام وقال: شفى الله مريضكم بالعافية، ولد الأعمش سنة ٦٠هـ وقيل إنه ولد يوم مقتل الحسين عليه السلام وعده ابن قتيبة في كتاب المعارف من جملة من حملت به أمه سبعة أشهر وتوفي سنة ١٤٨هـ أي في السنة التي توفي بها الإمام الصادق عليه السلام ولم يكن لمذهبه ظهور وانتشار في المجتمع وانقرض بمدة قليلة.

الشعبي:

عامر بن شراحيل الشعبي أبو عمر الكوفي المتوفى سنة ١٠٥هـ سمع من جماعة من الصحابة وقال: أدركت خمسمائة منهم، وكان قاضياً لعمر بن عبد العزيز، وكان محدث الكوفة يفتي على ما صح عنده من الأثر، وينقبض عن الفتوى إن لم يجد نصاً ولا يقول برأيه، ونسبة المذهب إليه لما صدر عنه من الفتوى، وإلا فلم يشتهر عنه ذلك والعمل به قليل.

* * *

هؤلاء بعض رؤساء المذاهب البائدة، وهي كثيرة تزيد على الخمسين ونقصر

الخطى على هؤلاء، فالاستقصاء يقصينا عن الغاية التي نطلب من ورائها كشف الحقيقة.

وليس لنا غرض في التعرف عليهم، ولكن الغرض أن نعرف الأسباب التي دعت إلى محو هذه المذاهب من صفحة الوجود وإثبات المذاهب الأربعة، مع العلم أن رؤساء المذاهب البائدة لهم منزلة علمية، ونستطيع القول بأن أكثرهم كانوا أعلم من رؤساء المذاهب الأربعة: فسفيان الثوري لقبوه بأمير المؤمنين في الحديث وسيد الحفاظ وغير ذلك، كما قاله شعبة وأبو عاصم وابن معين وغيرهم، وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ كان سفيان أفضلهم. وقال القطان: الثوري أحب إليّ من مالك؛ إلى غير ذلك من أقوال علماء الرجال مما لم نعثر على مثلها لأبي حنيفة وغيره، نعم من طرق أتباعهم تتعدى حد الحصر، واعطف عليه سفيان بن عيينة وابن جريج والليث وغيرهم فإنهم بمكانة من العلم، وقد رجع الناس إليهم في الفتيا مدة من الزمن، واستمر العمل بمذاهبهم ثم انقرضت ولم يبق لأهل السنة إلا المذاهب الأربعة الحنفي والمالكي والشافعي، والحنبلي.

أما أتباع آل البيت فقد بقيت آراؤهم ومعتقداتهم في الأصول والفروع وغيرهما أقوى من أن تلين للسياسة وتدخلات الولاة والأمراء... وإذا شوهدوا في بعض الأحيان يميلون إلى التقية وإلى تحاشي ضغائن الملوك فإن ذلك كان من عزم الأمور ودرء المهالك عن أنفسهم حين يرون أن دماءهم أحفظ للدين من إراقتها دون طائل. فالحكام في العهدين الأموي والعباسي لا يتورعون عن سفك الدماء الطاهرة ولا يتوقفون في ظلمهم لآل البيت عند حد، ولهذا كان الإمام الصادق يرى في تعرض أهله من آل الحسن إلى تلك المحنة والعذاب أمراً يجرّىء الظالمين أكثر على انتهاك حرمات أهل البيت ويصبح انتهاك حرمات الناس أبسط بكثير فقال عليه السلام وهو يرى موكب آل الرسول ﷺ: «والله لا تحفظ لله حرمة بعد هذا».

ولا يندرج المذهب الجعفري في سياق نشأة المذاهب لأمور عدة منها:

١ ـ استقلال فقه أهل البيت عن السلطة الجائرة وتعلقه بالإمامة والسلطة الروحية.

٢ ـ في العهد الأموي حيث لم تأخذ المذاهب صفتها الرسمية ولم ترسُ على

عدد معين كان الشيعة هم الخطر الحقيقي الذي يهدد بقاء الأمويين في كل حين فكان الاعتقاد بمذهب الشيعة استعداداً للموت والتضحية.

٣ ـ في العهد العباسي حيث أرست الدولة عدد المذاهب لم يكن الشيعة من أجزاء السلطة بل ظلوا على العمل بقاعدة مقاطعة الظالمين فيما كان وجودهم الفقهي والعلمي يتسع وينتشر برغم إرادة العباسيين وقد شيدوا بناءهم الفكري بعيداً عن مؤثرات السلطة وعلى الضد من رغبات الحكام.

وهنا يلزمنا البحث عن عوامل انتشار المذاهب الأربعة.

المذهب الحنفي:

ينسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي، من أهل كابل أو من أهل نسا، وكان اسمه عتيك بن زوطره، وكان أبوه عبداً مملوكاً لرجل من ربيعة من بني تيم الله بن ثعلبة من فخذ يقال لهم بني قفل، ولد سنة ٨٠هـ في نسا، وتوفي سنة ١٥٠هـ في بغداد.

كانت دعوة العباسيين قائمة على أساس الانتماء إلى النبي ﷺ، وأنهم سلالة البيت النبوي، فهم أحق بالأمر من أمية خصوم الإسلام وأعداء محمد ﷺ، وبالطبع انهم يقيمون على اطلال تلك الدولة المتهمة بمخالفة الدين، دولة ذات صبغة دينية، يحاولون أن يظهروا الاتصال الوثيق بين الدين والدولة، ليكوّنوا من أحكام الشريعة الإسلامية دستوراً ونظاماً تسير الدولة عليه سيراً صورياً، فقربوا العلماء، واتصلوا بهم اتصالاً وثيقاً وآثروا نشر العلم، وجعلوا القضاء بيد أهل الرأي من أهل العراق، حتى ولي أبو يوسف القضاء، وهو أقوى عوامل انتشار المذهب الحنفي لمكانة أبي يوسف وسلطته التنفيذية يومذاك، فكانت للمذهب الحنفي خطوة واسعة في قطع مسافة الشهرة بما لم يسعد به غيره. فأبو يوسف[1] هو تلميذ أبي حنيفة وقد تربى في نعمه،

(١) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد الأنصاري المتوفى سنة ١٨٢هـ ببغداد والمدفون في مقابر قريش وهو أول من دعي بقاضي القضاة، تولى القضاء لثلاث من الخلفاء المهدي وابنه الهادي والرشيد. قال محمد بن جرير الطبري: نحا ما قوم من أهل الحديث حديثه لغلبة الرأي عليه وتفريع الفروع والأحكام مع صحبة السلطان. وقال عمار بن أبي مالك ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى =

وبتوليته منصب القضاء استطاع نشر المذهب، وولي منصب رئاسة القضاء العامة في عهد الرشيد سنة ١٧٠هـ فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضي أبو يوسف[١]، وذلك لمكانته في الدولة ومنزلته عند الرشيد حتى قال له الرشيد يا يعقوب لو جاز لي إدخالك في نسبي ومشاركتك في الخلافة المفضية إليّ لكنت حقيقاً به، ألست القائل لأخي وقت كذا وكذا؟ وفي وقت كذا وكذا؟ يشير بذلك إلى ما عزم عليه الهادي من خلع الرشيد واستشارة أبي يوسف في ذلك، وجوابه له برد عزمه، فكان الرشيد يشكر لأبي يوسف هذه اليد، حتى قيل لم يتمكن أحد كتمكن أبي يوسف من الرشيد، وقال بشر المريسي ما اشتهيت من مراتب السلطان إلا مرتبة رأيت أبا يوسف بلغها عشية من العشايا. وقال أحمد بن يوسف الكاتب: وبلغ أبو يوسف مع الرشيد مبلغاً لم يبلغه عالم بعلمه ولا محبوب بمرتبته[٢].

وقال ابن عبد البر: كان أبو يوسف قاضي القضاة قضى لثلاثة من الخلفاء، ولي القضاء في بعض أيام المهدي ثم للهادي ثم للرشيد، وكان الرشيد يكرمه ويجله، وكان عنده حظياً مكيناً، لذلك كانت له اليد الطولى في نشر ذكر أبي حنيفة وإعلاء شأنه، لما أوتي من قوة السلطان وسلطان القوة[٣].

وإذا نظرنا إلى مقومات المذهب في نفسه نجد ذلك يرجع لجهود أربعة من أصحاب أبي حنيفة فإنهم ألفوا فيه وهذبوا مسائله، وليس لأبي حنيفة إلا المشاركة في الرأي أحياناً، وخالفوه في أكثر المسائل، كما انهم وسعوا دائرة المذهب في الحيل الشرعية، وأول أولئك النفر هو أبو يوسف القاضي، فقد خدم المذهب بقوة سلطانه وفي تصنيف الكتب وتوبيب المسائل، وقد أدخل الحديث في فقه أبي حنيفة، وألف كتاب الخراج لهٰرون الرشيد مستنبطاً من الحديث على مذهب مالك وغلبت على آرائه العناية بمصالح السلطان الزمنية.

= وهو الذي نشر قولهما. وعن ابن المبارك أنه وهاه وعن يزيد بن هارون أنه قال لا تحل الرواية عنه كان يعطي أموال اليتامى ويجعل الربح لنفسه. وأبو يوسف هو الذي عناه الشاعر بقوله:

يا قاتل المسلم بالكافر ... جرت وما العادل بالجائر

وستأتي ترجمته ببيان ووضوح في موكب القضاة.

(١) خطط المقريزي ج٤ ص١٤٤.

(٢) المكافاة لابن الداية ص٦٢ ـ ٦٣ ـ ٦٤ ـ ١١٦ ـ ١٧٣.

(٣) الانتقاء ص٦.

والثاني محمد بن الحسن الشيباني مولاهم المتولد[1] سنة ١٣٢هـ والمتوفى سنة ١٨٩هـ نشأ بالكوفة وعاش تحت ظل الدولة العباسية، أدرك أبا حنيفة ولم ينتفع منه لحداثة سنة، فأتم دراسة المذهب على أبي يوسف، وكان ذا فطنة وذكاء، وأصبح المرجع لأهل الرأي في نبوغه وتقدمه، وألف في المذهب كتباً هي في الحقيقة المرجع الأول فيه، فإن الحنفية ليس بأيديهم إلا كتبه، وخرج إلى المدينة ولقي مالكاً وقرأ الموطأ عليه، ثم رجع إلى بلده فطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة[2] ونظم الفقه الحنفي وخالف أبا حنيفة في أكثر مسائله.

والثالث زفر بن الهذيل المتولد سنة ١١٠هـ كان من أهل الرأي وكان أقيس أصحاب أبي حنيفة.

والرابع الحسن بن زياد[3] اللؤلؤي مولى الأنصار درس على أبي حنيفة ثم على أبي يوسف وعلى محمد بعده، وصنف الكتب في مذهب أبي حنيفة، ولم تكن كتبه بتلك الدرجة من الاعتبار عند الحنفية كما كانت لكتب محمد بن الحسن.

فهؤلاء الأربعة هم دعامة رقي المذهب وسعة دائرته، ولم ينقل لنا التاريخ عن أبي حنيفة كتاباً يتضمن مسائله وفقهه، وإنما دون علم المذهب أصحابه.

نعم ينسب لأبي حنيفة كتاب يسمى الفقه الأكبر هو وريقات قليلة لا يتضمن إلا شيئاً من العقائد، وقد شرح ووسع وأضيفت إليه آراء أخر مع أن الأكثرية يذهبون إلى نسبة هذا الكتاب إلى أبي حنيفة البخاري، وليس هو أبو حنيفة رئيس المذهب. وبهذا يصبح لا أثر له في تدوين أي شيء، كما أن أبا حنيفة لا يفارق فتوى إبراهيم

---

(١) محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ قال فيه أحمد بن حنبل أنه مرجيء ورد شريك شهادته لذلك وقد وقعت بينه وبين أبي يوسف مناكرة فكان يقول محمد بن الحسن جهمياً وقال محمد بن سعد الصوفي سمعت يحيى بن معين يرميه بالكذب وقال مرة إنه جهمي كذاب، وعن منصور بن خالد سمعت محمداً يقول لا ينظر في كلامنا من يريد الله، لسان الميزان ج٥ ص١٣١ والوفيات ج ص٣٢٤.

(٢) رسالة الإنصاف ص٨.

(٣) الحسن بن زياد اللؤلؤي كذبه يحيى بن معين وأبو داود ومحمد بن عبد الله بن نمير، قال ابن المديني لا يكتب حديثه، وقال أبو حاتم ليس بثقة. وقال الدارقطني: ضعيف متروك، وقال محمد بن حميد الرازي: ما رأيت أسوء صلاة منه، وقال الخطيب: إن الحسن ولي القضاء ولم يوفق فكان إذا جلس لا يفهم شيئاً وعن إسحاق بن إسماعيل كنا عند وكيع فقلنا له: السنة مجدبة قال: وكيف لا تجدب وحسن اللؤلؤي قاض وحماد بن أبي حنيفة قاض.

وعبد الرزاق إلا في مواضع يسيرة. والغرض ان المذهب إنما انتشر وكثرت مسائله بأعمال هؤلاء الأربعة ومساعيهم. ثم جاء من بعدهم علماء نسبوا لهذا المذهب، فكانت لهم آراء مستقلة وتكونت مجموعة من الأقوال والآراء الفقهية وكلها تنسب لأبي حنيفة، وإن لم يُفْتِ بها ولم يعرفها، ولكنهم قالوا: إن أبا حنيفة أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتجه لهم من الدليل عليه حتى صار ما قالوه قولاً له لابتنائه على قواعده التي أسسها لهم، وسيأتي الكلام حول هذا الموضوع إن شاء الله تعالى.

المذهب المالكي:

ينسب إلى الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي ولد سنة ٩٣ بالمدينة، ويُدّعى أن أمه حملت به سنتين وقيل أكثر وتوفي سنة ١٧٩ والله أعلم.

وكان من نتائج النزاع الذي حدث بين أهل العراق وأهل المدينة، أو أهل الحديث وأهل الرأي، ظهور شخصية أبي حنيفة في العراق ومالك في الحجاز، وكانت السلطة تؤيد جانب أصحاب أبي حنيفة وتشد أزرهم، وتقدم الموالي لتحط من قيمة العرب، لأنهم في نظر السلطة أعداء يتكتمون فلا يأمنون جانبهم من وثبة يوماً ما لميلهم للعلويين، وإنهم ليترقبونها في غالب الأحيان فهم دائماً في حذر، وكان مالك ممن انضم لجانب العلويين، وأخذ العلم عن الإمام الصادق عليه السلام، وأظهر القول بجواز الخروج مع محمد النفس الزكية، فأهين لذلك وناله الأذى وتعصب له قوم وناصروه وأصبحت له مكانة في المجتمع، ولحظت السلطة أهمية مكانته، فرأت من اللازم أن تجعله تحت عنايتها لتوجد منه شخصية علمية توجه إليه المجتمع طوعاً أو كرهاً، فأصبح محترماً إلى أبعد حدود الاحترام.

ويعطينا الإمام الشافعي صورة عن عظيم منزلته، عندما دخل المدينة يحمل إلى واليها كتاباً من والي مكة توصية منه بالشافعي، ويطلب منه إيصاله إلى مالك، قال الشافعي: فأبلغت الكتاب إلى الوالي فلما أن قرأه قال: يا فتى إن المشي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه، قال الشافعي: فقلت أصلح الله الأمير إن رأى يوجه إليه ليحضر، قال هيهات ليت اني إذا ركبت أنا ومن معي، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا. قال: فواعدته العصر وركبنا جميعاً فوالله لكان كما قال،

فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير قولي لمولاك إني بالباب قال: فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرؤك السلام ويقول إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس؛ فانصرفت؛ فقال: قولي له معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة، قال: فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة فرفع إليه الوالي الكتاب[1].

ونحن إذ نقيس منزلة مالك بين العهدين نجد الفرق بيناً فنراه في عهد أحد الولاة مغضوباً عليه يسحب ويجرد من ثيابه ويضرب خمسين سوطاً ويهان، ونراه في العهد الثاني يتهيب الوالي أن يكلمه. فمالك في حاليه يعطينا درساً في معرفة أغراض السياسة مع رجال الأمة، وان لها ألواناً من المعاملة مع الأشخاص الذين تريد أن تستخدمهم بالمغريات.

والغرض أن نجم مالك بزغ بذلك الأفق فأصبحت له شخصية مرموقة دون غيره من شيوخه الذين هم أعلم وأفقه كربيعة الرأي[2] وغيره، فامتاز بتلك المنزلة واكْتَسَتْ شخصيته بأبراد العظمة، وحاول العباسيون أن يجعلوا منه مرجعاً عاماً للأمة في الفتوى، ولكنها محاولة لم تنجح، وقد أمره المنصور بوضع كتاب يحمل الناس عليه بالقهر، فكلمه مالك في ذلك وامتنع فقال المنصور: ضعه فما أحد اليوم أعلم منك[3] فوضع الموطأ.

---

(١) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٧٥.

(٢) ربيعة بن أبي عبد الرحمن بن فروخ التيمي أبو عثمان المدني الفقيه المعروف بربيعة الرأي روى عن أنس والسائب بن يزيد وابن المسيب وعنه سليمان التيمي ويحيى بن سعيد القطان وسعيد والليث وخلق كثير. وكان أبوه فروخ خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية وربيعة حمل في بطن أمه فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة وقال يا عدو الله اتهجم على منزلي، فقال فروخ: يا عدو الله أنت دخلت على حرمي فتواثبا حتى اجتمع الجيران وكثر الضجيج فبلغ مالك بن أنس فقال مالك: أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار فقال الشيخ هي داري وأما فروخ فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت هذا زوجي وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به فاعتنقا جميعاً. قال سوار بن عبد الله: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي قيل ولا الحسن وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن وابن سيرين، وقال مالك ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي وكانت وفاته في سنة ١٣٦هـ بالهاشمية ودفن هناك وقيل سنة ١٣٣هـ.

(٣) شرح الموطأ للزرقاني ج١ ص٨.

وهذه الكلمة لها مكانتها في نظر الاعتبار، فالمنصور حينما يعلن بأن مالكاً أعلم الناس، ويلزمه بوضع كتاب تصادق عليه الدولة فيكون نظامها المتبع وتطلب الالتحاق بقافلة الدين ـ وما أبعدها عن ذلك ـ فمن يستطيع أن يتخلف عن الاعتراف بمنزلة مالك وأنه أعلم الأمة؟

والرشيد يأمر عامله على المدينة بأن لا يقطع أمراً دون مالك، وكان الرشيد يجلس على الأرض أمامه لاستماع حديثه.

كيف لا يكون لمالك ظهور وسمعة ومنادي السلطان يهتف أيام الحج: أن لا يفتي إلا مالك. فأصبحت له مكانة في المجتمع وهيبة في النفوس، وتقرب الناس إليه بشتى الوسائل، والتفوا حوله، وتزاحموا على مجلسه الذي عين له وقتاً خاصاً في يوم معين يزدحم الناس فيه لاستماع الحديث، وأخذ الفتيا، وله كاتب بين يديه يقرأ للناس وليس لأحد أن يدنو منه ولا ينظر في كتابه ولا يستفهمه في شيء، وبذلك لا يستطيع أحد مناقشته، وكان على رأسه سودان يأتمرون بأمره.

قال إسماعيل الفزاري: دخلت على مالك وسألته أن يحدثني فحدثني اثنى عشر حديثاً ثم أمسك، فقلت: زدني أكرمك الله وكان له سودان قيام على رأسه فأشار إليهم فأخرجوني من داره[١].

ولا ريب أن هذه المعاملة من مالك تبعثنا على التساؤل من أسباب امتناع مالك وبخله على الناس بما ينفعهم من أحاديث نبوية وإرشادات تربوية؟ وهذا الوضع منه لا شك أنه مستغرب لأن السنة الشريفة أمرت بنشر العلم وتوعدت من يكتمونه.

ويحدثنا أبو بكر بن عبد الله الصنعاني قال: أتينا مالك بن أنس فحدثنا عن ربيعة الرأي فكنا نستزيده فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في ذلك الطاق؟ فأتينا ربيعة فقلنا: كيف يحظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟ فقال: أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حمل علم[٢].

ولا بد من التنويه برضا مالك بما أقبل عليه السلاطين وترك أيديهم تلعب

---

(١) الانتقاء ج٢ ص٤٢.

(٢) طبقات الفقهاء لابن إسحاق ص٤٣.

بأحواله الخاصة فأصابه من جبرية الحاكم شيء سنأتي على تفاصيله حسب البحث إنشاء الله.

ومهما يكن من أمر فقد أسعده الحظ فكان له شأن ولمذهبه قبول ولكتابه منزلة حتى قالوا: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك. وفي لفظ آخر ما على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك.

وكان انتشار مذهبه على أيدي القضاة والملوك، وقد انتشر بالأندلس بسبب حمل ملك الأندلس الناس عليه بالقهر، لما بلغه كلام من مالك في مدحه عندما سأل عن سيرة الملك في الأندلس فذكر له عنها ما أعجبه فقال: نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم. فلما بلغ قوله إلى الملك حمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي وهذا من أقوى عوامل الانتشار ودواعي الظهور والسمعة، وإقبال الناس عليه اتباعاً للسلطان وخضوعاً للسلطة بدون تمييز لما هو الأرجح والأولى.

وقد نشر مذهب مالك في أفريقيا القاضي سحنون، ويقول المقريزي: ولما ولي المعز باديس حمل جميع أهل أفريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه فرجع أهل أفريقيا وأهل الأندلس كلهم إلى مذهبه، رغبة فيما عند السلطان، وحرصاً على طلب الدنيا إذ كان القضاء والإفتاء في جميع تلك المدن لا يكون إلا لمن تسمى بمذهب مالك، فاضطرت العامة إلى أحكامهم وفتاواهم ففشى هذا المذهب هناك وحظي بالقبول لا بحسب مؤهلاته ومقوماته الروحية، وإنما سار على حسب نظام القوة التي خضع الناس لها بدون تبصر، كما أن انتشاره بالمغرب الأقصى هو كذلك رغبة لما عند السلطان، وخضوعاً لما افترضوه على الناس، ولم يكن ثبوته مستقلاً بروحانيته عن تأثر السلطة التنفيذية، فإن دولة بني تاشفين قامت في الأندلس في القرن الخامس، وتولى ثانيهم علي بن يوسف بن تاشفين فعظم أمر الفقهاء، ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من علم مذهب مالك، فنفقت في زمنه كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث الرسول ﷺ، فلم يكن أحد يعتني بهما كما يعتني بكتب المذهب المالكي.

وما ذلك إلا من اختراع السياسة لأمور كان الأصلح للأمة أن تتخلى السياسة عن التدخل بمثلها، إذ من الصعب على الرعية أن تعرف صلاح أمرها ما دام مفروضاً عليها أمراً معيناً من قبل السلطان وهي تجهل ذلك، وبهذه المؤثرات انتشر مذهب مالك

بصورة هائلة كزميله المذهب الحنفي، فله أسوة به، وإذا ما قصرت خطاه في بعض الأماكن فبمجرد تولي القضاء المالكي من قبل رجال المذهب يزداد نشاطه ويشتد إقبال الناس عليه وتمسكهم به، لذلك أنه لما خمل ذكره في المدينة مدة من الزمن فبمجرد أن تولى قضاءها ابن فرحون أظهره بعد خموله، فيظهر لنا أن الزمن سار في انتشار هذه المذاهب لا على سبيل الاعتقاد والواقع بل أن في الأمة ضعفاء قلدوا الأقوياء بأهم أمر وكان الأجدر استقلالهم بمعرفته، وأخذهم له من أهله، وأنى لهم ذلك وكل سلطة تحاول أن تجعل أمورها ذات صبغة دينية، وأمر التشريع بيد قضاة صارعتهم الدنيا فصرعتهم إلا من عصم الله وقليل ما هم.

قال ابن حزم: مذهبان انتشرا في مبدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولي أبو يوسف القضاء كان لا يولي قاضياً إلا من أصحابه والمنتسبين إليه وإلى مذهبه.

والثاني مذهب مالك عندنا في الأندلس فإن يحيى بن يحيى[1] كان مكيناً عند السلطان مقبولاً في القضاء، فكان لا يولي قاضياً في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يسبر إلا بأصحابه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم[2].

وقال شاه ولي الدهلوي: وأي مذهب كان أصحابه مشهورين وأسند إليهم القضاء والإفتاء واشتهرت تصانيفهم في الناس، ودرسوا درساً ظاهراً انتشر في أقطار الأرض، وأي مذهب كان أصحابه خاملين ولم يولوا القضاء والإفتاء، ولم يرغب فيهم الناس اندرس مذهبهم بعدحين.

وهذا التعليل قد أجمعت عليه آراء المؤرخين والعلماء حتى لقد شاع بين الناس

---

(١) هو أبو محمد يحيى بن يحيى الأندلسي ويعرف بابن عيسى سمع مالك بن أنس وجمع مسائله وكتب سماع بن القاسم عن مالك ثم انصرف إلى المدينة ليسمعه من مالك فوجده عليلاً فأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك. وقدم إلى الأندلس وخالف مالكاً في كثير من المسائل قال أحمد بن خالد لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى توفي سنة ٢٣٣هـ.

(٢) ابن خلكان ج٢ ص١١٦.

قولهم (إن الناس على دين ملوكهم) وقد مر في مطاوي هذا البحث تنويه به وإشارة إليه.

المذهب الشافعي:

وينسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وقيل إن شافعاً كان مولى لأبي لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش، فامتنع فطلب من عثمان ذلك ففعل، ولد سنة ١٥٠هـ وتوفي سنة ١٩٨هـ.

كان ظهوره أولاً بمصر وكثر أصحابه هناك فغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان، ودخل شيء منه إلى أفريقيا والأندلس بعد سنة ٣٠٠هـ، وقويت شوكته، وعظمت شهرته في عهد الدولة الأيوبية التي كانت تتسم بسمة شافعية، وبذلوا جهدهم في نصرته، ببناء المدارس لفقهاء الشافعية واختصاص القضاء بهم، وكان الغالب على أهل مصر الشيعة في عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، وكان المذهب يدرس في الجامع الأزهر وغيره، فأبطل صلاح الدين درسه فيها وأحيا مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك، وبنى لهم كثيراً من المدارس، ورغب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب.

وكان انتشار مذهب الشافعي بعد صلاح الدين أكثر من غيره لاعتناق الملوك الذين تولوا من بعده مذهب الشافعي، وقد نجح الشافعي في بدء أمره عندما قدم مصر وزاحم مذهب مالك، حتى تعصب عليه المالكية، لأنه كاد أن ينسي الناس مذهب مالك إلى أن آل الأمر بهم فقتلوه بسبب التعصب كما يأتي بيانه. وكان سبب نجاحه مؤازرة بني عبد الحكم له فإن لهم مكاناً رفيعاً بمصر، ومنزلة سامية وجاهاً عظيماً، وقد آزره أبو محمد عبد الله بن الحكم بن أعين بن الليث، وكان عالماً عاقلاً متحققاً بمذهب مالك وإليه أفضت الرياسة بعد أشهب، فلما نزل الشافعي عليه أكرم مثواه وبلغ الغاية في بره، ومات الشافعي في بيته فاعتنق مذهب الشافعي وكتب كتبه لنفسه، مع أن الشافعي لن يعدم رعاية السلطان هناك، فإنه دخل مصر وهو يحمل من الرشيد كتاباً لواليه على مصر يوصيه به ويلزمه بعنايته، ووقعت بينه وبين المالكية مناوشات كان النجاح له في نهاية الأمر. وكان قدوم الشافعي إلى مصر في سنة ١٩٨هـ ويقال إنه

جاء مع أميرها عبد الله بن العباس بن موسى العباسي، فصحبه جماعة من أعيان أهل مصر كبني عبد الحكم والربيع بن سليمان، وأبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، والبويطي وكتبوا عنه ونشروا مذهبه.

المذهب الحنبلي:

ينسب إلى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن ذهل بن شيبان ولد سنة ١٦٤هـ في بغداد وتوفي سنة ٢٤١هـ فيها.

ظهر مذهب أحمد بن حنبل ببغداد وهو آخر المذاهب لتأخره زمنياً في الحدوث، وكانت خطوة انتشاره خارج بغداد قصيرة جداً ولم ينل شهرة غيره من المذاهب، وظهر في مصر في القرن السابع بين أفراد معدودين ولكن انتشر بعد فترة قصيرة عندما تولى القضاء عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الملك الحجازي، فزاد انتشاره هناك وذلك في سنة ٧٣٨هـ.

قال ابن خلدون: فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث.

وعداد أحمد بن حنبل عند القدماء أنه من أهل الحديث لا الفقهاء ولذا لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان ابن جرير يقول: إنه رجل حديث لا رجل فقه، وعده المقدسي كذلك من أهل الحديث لا من الفقهاء، ولم يذكره ابن قتيبة في معارفه في عداد الفقهاء، واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء على ذكر مالك والشافعي وأبي حنيفة.

والحاصل أن المذهب الحنبلي أقل المذاهب انتشاراً وقد عدّ متبعوه هذه القلة فخراً، نعم ظهرت عظمته ببغداد إذ كان متبعوه يحتفظون فيما بينهم باتحاد وثيق حيث تكون المصلحة هناك، وقد أصبحوا في زمن ما ولهم قوة استطاعوا بها أن يقلقوا بال الحكومة، وتظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت صولتهم عظيمة وأوقعوا في سائر المذاهب التي تخالفهم ما تشتهيه أنفسهم من التنكيل والأذى، وقضت الحكومة على تلك الحركات غير المنظمة، وضيقوا دائرة اتساع دعوتهم.

ولم ينل المذهب الحنبلي قوة أنصار ورجال دعوة إلا في البلاد النجدية، فقد ساعده الزمن وكتب له البقاء على يد محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي، وإن كان مذهب أحمد وشهرته اندكت إلى جانب شهرة الوهابي ومذهبه، ولا ينكر ما لابن تيمية وتلميذه ابن قيّم الجوزية من الفضل في انتشار المذهب ونشاطه، وهما في الحقيقة أبطال دعوته وعنهم أخذ ابن الوهاب تعاليم مذهبه الجديد، ومع ذلك فإن معتنقي هذا المذهب هم اليوم أقل عدداً بالنسبة إلى معتنقي المذاهب الأخرى في العالم الإسلامي.

السلطة وانتشار المذاهب:

وبهذه الأسباب وعوامل الترغيب التي اتخذها أولئك الأمراء وذوو النفوذ والسلطة أخذت هذه المذاهب بين العامة في الصيت والشهرة، ما جعلهم متزاحمين على اعتناقها بدون تمييز وحرية في الرأي، وظلت حقيقتها غامضة إذ لا يمكن استكشافها. فالخضوع للسلطان أمر لا مفر منه، وكان عدم تدخل الحكومة في مثل هذه الأمور أعود على الأمة، وأصلح لدينها ودنياها فتدخلها فيه قد جر الأمة إلى منافسات وعصبية أعقبتها فتن ذهبت ضحيتها نفوس بريئة تدين لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالنبوة، وقد أدت الخلافات إلى فرقة وتباعد مما كدر صفو الأمة ورماها بالشتات بعد الألفة، وبالعداء بعد الأخوة.

وعلى هذا المنوال أستطيع أن أسير في التدليل على ما في هذا الالتزام من النقص وقد سارت عليه جماهير من المسلمين بدون دليل ولا برهان، فوقوف التشريع الإسلامي وانحصاره بأقوال الأربعة إنما هو تحجير للفكر، وجمود للتشريع لأغراض تعود بالنفع على الطبقة الحاكمة، الذين يريدون أن يطبعوا أعمالهم بطابع الدين وما هم من الدين في شيء إذ لا هم لهم إلا حفظ ملكهم وقضاء مآربهم، على أن الأئمة الأربعة أنفسهم لا يعرفون هذا ويفتون بضده، فأقوالهم تدل على عدم الالتزام بقول أحد، هذا مالك بن أنس يقول: «إنما أنا بشر أصيب وأخطىء فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة» ويقول أبو حنيفة: «هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي خلافه قبلناه». ويقول الشافعي: «إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط» ويقول أحمد: «من ضيق علم الرجل أن يقلد دينه الرجال» وقال: «لا تقلد

دينك الرجال فإنهم لم يسلموا من أن يغلطوا» كما سنبين ذلك قريباً.

وعلى أي حال فإن الاستسلام والتقليد اللذين أديا إلى التعصب والانغلاق أثرا في سير الحركة الفكرية والعلمية لأن التقليد يقوم على الاتباع وبذلك ترك النظر والتعرّف على الدليل.

وكيف كان فقد استطاعت المذاهب الأربعة أن تصعد سلّم الرقي وتكتسب قيمتها المعنوية، لأنها موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين بالرغم مما رافقها من خلافات ومنافرات، وإن عناية السلطة تكسب الشيء لوناً من الاعتبار والعظمة حسب نظام السياسة لا النظام الطبيعي، فعوامل الترغيب وأداة القوة جعلتها تأخذ بالتوسع شيئاً فشيئاً، ولولا ذلك لما استطاعت البقاء حتى تصبح قادرة على مزاحمة غيرها.

ثم كان بعد هذا ما هو أدهى وأمر فإنه في سنة ٦٤٥هـ أحضر مدرسو المدرسة المستنصرية إلى دار الوزير، فطلب منهم ألا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكروا كلام المشايخ السابقين تأدباً معهم، وتبركاً بهم، فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي بالسمع والطاعة. وقال سراج الدين عبد الله الشرمساحي المالكي: ليس لأصحابنا تعليقة، أما النقط من مسائل الخلاف فمما ارتبه(١).

وقال شهاب الدين الزنجاني الشافعي وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني الحنفي: إن المشايخ كانوا رجالاً. ونحن رجال. فأوصل الوزير ما أجابوا به إلى المستعصم، وكان قد تولى الملك بعد أبيه المستنصر فأحضرهم أمامه، وطلب منهم جميعاً أن يلتزموا ذكر كلام المشايخ ويحترموهم، فأجابوه جميعاً بالسمع والطاعة، ورجع مدرسا الشافعية والحنفية عن اعتدادهما بأنفسهما.

وقال المقريزي: فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ولّى بمصر أربعة قضاة وهم شافعي، ومالكي، وحنفي، وحنبلي، فاستمر ذلك من سنة ٦٦٥هـ حتى لم يبقَ في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة، وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام، وعودي من تمذهب بغيرها، وأنكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت

---

(١) ابن الغوطي الحوادث الجامعة ص٢١٦.

شهادة أحد ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاء الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها.

يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدي أحد علماء الأزهر في كتابه «ميدان الاجتهاد»:

«فلما رأى بنو العباس أن وسائلهم في القهر لا تجديهم، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم، فيتولوا أمره بأنفسهم، ليربوا العلماء على الخضوع لهم. ويملكوهم بالمال من أول أمرهم، وكانت الأمة هي التي تتولى أمر التعليم بعيداً عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية في أوروبا وأمريكا، فيقوم في المساجد حراً لا يخضع لحكم ملك أو أمير، ويتربى العلماء بين جدرانها أحراراً لا يراقبون إلا الله في عملهم، ولا يتأثرون بهوى حاكم، ولا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم، فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم، ويتولوا بأنفسهم أمر التعليم بين المسلمين، فأخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد، ويحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها، ويجعل لهم سلطاناً عليهم، وأخذت الممالك التابعة لهم تأخذ بهذا في سنتهم، حتى صار التعليم خاضعاً للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية، وكان لهذا أثره في نفوس العلماء، فنزلوا على إرادة الملوك ولم تقو نفوسهم على مخالفتهم في رأيهم، أو توجيه شيء من النصح إليهم، وكانت المدرسة البيهقية أول ما أنشئت من تلك المدارس، وهي منسوبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠هـ ثم أنشئت بعدها المدرسة السعيدية بنيسابور، أنشأها الأمير نصر بن سبكتكين، ثم أنشئت بعدها النظامية ببغداد أنشأها الوزير نظام الملك سنة ٤٥٩هـ وقد احتفل بافتتاحها احتفالاً عظيماً...».

إلى أن يقول: «ثم جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر، فقام بإنشاء المدارس فيها للتعليم، وأنشأ المدرسة الناصرية لتعليم مذهب الشافعي سنة ٥٦٦هـ ثم أنشأ المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢هـ بجوار الإمام الشافعي وجعل لناظرها أربعين ديناراً في كل شهر، ورتب له في كل يوم ستين رطلاً من الخبز وراويتين من ماء النيل، ثم أنشأ مدرسة أخرى بجوار المشهد الحسيني، وجعل دار العباس العبيدي مدرسة للحنفيين».

وكان صلاح الدين يقصد من هذه المدارس كلها إلى إحياء مذهب أهل السنّة

والقضاء على مذهب الشيعة الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، ورغب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها، فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب.

وقد جاء المستنصر العباسي[1] بعد هذا فأنشأ في بغداد المدرسة المستنصرية سنة ٦٢٥هـ، وأنفق في بنائها أموالاً لا تُحصى حتى تم بناؤها سنة ٦٣١هـ، فاحتفل بافتتاحها احتفالاً عظيماً حضره بنفسه وحضر معه نائب الوزارة، وكذلك الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء، وشيوخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، وجماعة من أعيان التجار الغرباء، واختير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً، ورتب لها مدرسين ونائبي تدريس، وكان المدرسان محيي الدين محمد بن يحيى بن فضلان الشافعي، ورشيد الدين عمر بن محمد الفرغاني الحنفي، وكان نائبا التدريس جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي، وأبا الحسن علياً المغربي، وجعل لها ستة عشر معيداً، أربعة لكل مذهب، وجعل ربع القبلة الأيمن للشافعي، وجعل ربع القبلة الأيسر للحنفية، وجعل الربع الذي على يمين الداخل للحنابلة، وجعل الربع الذي على يساره للمالكية، وقد شرط المستنصر في وقفه عليها أن يكون عدد فقهائها مائتين وثمانية وأربعين، من كل طائفة اثنان وستون بالمشاهرة الوافرة، والجراية الدارة، واللحم الراتب إلى غير هذا من وسائل الترغيب في هذه المذاهب.

فأقبل الناس على دراستها وأهملوا غيرها من المذاهب التي لم يقدر لها مثل هذه الأوقاف المغرية».

وهكذا أخذ الشباب والكهول يواصلون الدراسة على المذاهب الأربعة في مثل هذه المدارس، ويسمعون في خلال دراستهم طعوناً على أي مذهب آخر، فيمتلئون حقداً على من لم يترك مذهبه لينتسب إلى أحد هذه المذاهب الأربعة. فكان ذلك من النتائج الأولى لتسلّم صلاح الدين دست الحكم في ظروف سياسية مرت بها دولة الفاطميين الذين تربّى صلاح الدين وذووه في ظل عزهم، ولولا خدمتهم للفاطميين ما كانوا. وقد تحوّل صلاح الدين بشدة ومارس القسوة وهو يتربع على العرش الذي

---

(١) هو أبو جعفر منصور بن الظاهر ولد سنة ٥٨٨هـ وبويع له سنة ٦٢٣هـ وتوفي سنة ٦٤٠هـ.

اوئتمن عليه، واتجه إلى سنّة السلاطين الآخرين الذين حكموا الأمة فقسم المجتمع على طريقتهم وأقام الدراسة في قاهرة المعز على الطريقة المذهبية التي اتبع إشاعتها الحكام.

خلاصة البحث:

ظهر لنا مما سبق أن العامل الأساسي لتكوين الالتزام بمذهب معين، وعدم الترخص في استنباط الأحكام الشرعية إنما هو السلطة، وأن بقاء هذه المذاهب إنما يكون بتلك الوسائل المشجعة، حتى كثر أنصارها. ولو قدرت عوامل الانتشار لغير المذاهب الأربعة لبقي لها جمهور يقلدها أيضاً، ولكانت مقبولة عند من ينكرها، ولكنها عدمت رعاية السلطة فمحيت من الوجود إذ لا قابلية لها في ذاتها على البقاء بقوة بنائها أو قدرات أصحابها العلمية.

وقد فاز المذهب الحنفي بتشجيع أكثر من غيره، فهو في العصر العباسي المذهب الذي ترجع الدولة إليه في مهمات التشريع، ورئاسة القضاء بيد أهل الرأي، لم يشاركهم إلا القليل من سائر المذاهب، وبعد انقراض الدولة العباسية اعتنق المذهب سلاطين الأتراك عندما أرادوا انطباق اسم الخلافة الإسلامية عليهم؛ لأن من شروطها: أن يكون الخليفة قرشياً طبقاً للحديث «الخلافة في قريش» والحنفية لا يشترطون هذا الشرط، وأول من تولى الخلافة الإسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح وصحح الحنفية هذه الخلافة وحجتهم أن الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق:

١ ـ حق السيف.

٢ ـ حق الانتخاب.

٣ ـ حق الوصاية.

٤ ـ حماية الحرمين.

٥ ـ الاحتفاظ بالأمانات.

وهي المخلفات النبوية المحفوظة في الاستانة وهم يقولون: إن الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد فحملها الخليفة العباسي إلى القاهرة حتى نقلها السلطان سليم إلى القسطنطينية في صندوق من الفضة وهي البردة النبوية، وسن من

أسنان النبي ﷺ وشعرات من شعره ونعاله، وبقية من العلم النبوي، وإناء من حديد، وجبة الإمام أبي حنيفة[1].

وبهذا الشكل سارت عوامل انتشار المذاهب مع السياسة جنباً لجنب، إذ الرغبة فيها منوطة بالقضاة ورغبة السلطة، حتى كثر التحول من مذهب إلى مذهب تقرباً للسلطان وطلباً لرفده، وتحول كثير من الشافعية إلى الحنفية لأجل الدنيا، وذلك أن الأمير بلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري الأمير الكبير صاحب النفوذ والصولة كان يتعصب لمذهب أبي حنيفة، ويعطي لمن تحول إليه العطاء الجزيل، ورتب الجامكيات الزائدة، وحاول في آخر عمره أن يجلس الحنفي فوق الشافعي[2].

ولما انتقل أبو البركات الحنفي إلى مذهب الحنبلي فآذاه الحنفية فانتقل إلى مذهب الشافعي فقال المؤيد التكريتي في هجائه:

ألا مبلغ عني الوزير رسالة ... وإن كان لا تجدي إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تديناً ... ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر ... إلى مالك فافهم لما أنا قائل[3]

وهذا أبو بكر البغدادي الحنبلي تحول شافعياً لأجل الدنيا، وولي القضاء، وكان أبو المظفر يوسف بن قرغلي سبط ابن الجوزي حنبلياً نقله الملك المعظم إلى مذهب أبي حنيفة[4] وكثير غيرهم.

وخلاصة القول أن تلك الوسائل المشجعة للمذاهب الأربعة دعت الناس إلى الرغبة فيها والإعراض عما سواها، ودعت أكثر الفقهاء الذين لهم أهلية الاستنباط أن يجمدوا على تقليد السلف وتعطيل موهبة الاجتهاد.

قال الشيخ أبو زرعة: قلت مرة لشيخنا البلقيني ما يقصر بالشيخ تقي الدين بن السبكي عن رتبة الاجتهاد وقد استكمل الآلة وكيف يقلد؟ ولم أذكره هو استحياء منه ولما أريد أن أرتب على ذلك.

---

(١) التمدن الإسلامي ج١ ص١٠٩.
(٢) شذرات الذهب ج٦ ص٢١٣.
(٣) مرآة الجنان ج٤ ص٣٤.
(٤) شذرات الذهب ج٥ ص٢٦٧.

فسكت عني، ثم قلت: ما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة وإن من خرج عن ذلك لم ينله شيء وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس من استفتائه ونسب إلى البدعة؛ فتبسم ووافقني.

ومن هنا قوبل مذهب أهل البيت بتلك الهجمات العنيفة والحملات الظالمة، وأصبح الشيعة المتمسكون بمذهب أهل البيت عرضة لكل خطر، وغرضاً للتهم، وأصبح الشيعي في نظر أتباع السلطة خارجاً عن الإسلام، مفارقاً جماعتهم، ولكن الشيعة ثبتوا على أخذ تعاليم الرسول ﷺ في أحكام الإسلام من طريق أهل البيت، لأنهم عدل القرآن والتمسك بهم من دعائم الإسلام ففي اتباعهم الهدى وهم كسفينة نوح وباب حطة.

وبذلك تحملوا ما تحملوا في سبيل المحافظة على وصاية النبي في آله وساروا على نهجهم وبقي باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه، ومدرستهم مستقلة عن سياسة السلطة وآراء الحكام. فإذا ما عدنا إلى بدايات ضعف الحكم الأموي نرى الإمام الباقر عليه السلام يتعرض للأذى والمضايقات فيحمل إلى مقر الجائرين في الشام وكان يصحبه ولده جعفر الصادق عليه السلام، ولأن منهج الدعوة وأساليب العمل قد أخذت بالتطبيق على يد الإمام الباقر عليه السلام في ظل مقتضيات الظروف ومستجدات السياسة فإنه عليه السلام قرن بين السلوك الديني وبين الجانب الذي أراد الحكّام التحكم فيه وإخضاع أهل البيت وأنصارهم وهوالذي يتعلق بالإمامة بصيغة الخلافة ومسميات السياسة فقال: من عَبَد الله عبادة اهتمام ولم يعتقد بإمام عادل وأنه منصوب من الله فلا يقبل الله منه سعياً.

أما الإمام الصادق عليه السلام حيث ماج عصره بالتيارات الفكرية واشتدت فيه النزعات المختلفة فقد اتجه إلى الأفكار ومخاطبة العقول لشدها إلى أركان العلم وأصول الفقه بطريقة منهجية رائدة تتيح للعقول الإفلات من مخطط السلطة الزمنية حتى عرف عنه عليه السلام أنه كان يجيب كل من يتوجه إليه بالسؤال مراعياً اهتمامات السائل ومقاصده ثم يقيم الإجابة على نحو من أغراض منهجه هو عليه السلام فظن من بهم جهالة أنه عليه السلام يقول بأقوال مختلفة وحاشاه عليه السلام.

يقول الدكتور محمد كامل حسين: عرف عن الصادق الاعتدال في الرأي والعقيدة بحيث يقبل أراءه كل مسلم السني منهم والشيعي[1].

ونرى من الخير أن نتعرض لذكر الآراء حول الاجتهاد والتقليد في نقل أقوال السلف وبعض المعاصرين بإيجاز وللتفصيل محل آخر.

آراء حول الاجتهاد والتقليد:

«إنما أنا بشر أصيب وأخطىء فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة».

مالك بن انس

«إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط».

الشافعي

«هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي غير هذا قبلناه. حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي».

أبو حنيفة

«من ضيق علم الرجال أن يقلدوا الرجال، لا تقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا، وقيل له لم لا تضع لأصحابك كتاباً في الفقه قال ألأحد كلام مع كلام الله ورسوله؟».

احمد بن حنبل

«لا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً وخرج عن دين الله».

محيي الدين بن العربي

«لم يبلغنا أن أحداً من السلف أمر أحداً أن يقيد بمذهب معين، ولو وقع ذلك منهم لوقعوا في الإثم، لتفويتهم العمل بكل حديث لم يأخذبه ذلك المجتهد الذي أمر الخلق باتباعه وحده، والشريعة حقيقة إنما هي مجموع ما بأيدي المجتهدين كلهم لا بيد مجتهد واحد، ومن أين جاء الوجوب والأئمة كلهم قد تبرأوا من الأمر باتباعهم، وقالوا: إذا بلغكم حديث فاعملوا به واضربوا بكلامنا الحائط».

الشعراني

---

(١) طائفة الإسماعيلية: ص ١٠.

سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب، وتبصر فيه، واشتغل بعده بالحديث فوجد أحاديث صحيحة، لا يعلم لها ناسخاً ولا مخصصاً ولا معارضاً، وذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الأحاديث، فهل له العمل بالمذهب، أو يجب عليه الرجوع إلى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه؟ فأجاب بما هذا نصه:

الحمد لله رب العالمين قد ثبت في الكتاب والسنة والإجماع أن الله افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله ﷺ، ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه في كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى كان صدّيق الأمة وأفضلها بعد نبيها عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنه يقول: أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم. واتفق كلهم على أنه ليس أحد معصوماً في كل ما أمر الله به ونهى عنه إلا رسول الله، ولهذا قال غير واحد من الأئمة: كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام. وهؤلاء الأئمة الأربع رحمهم الله تعالى أجمعين قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولون، وذلك هو الواجب، قال الإمام أبو حنيفة: هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي خير منه قبلناه، ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بإمام دار الهجرة مالك بن أنس وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضراوات، ومسألة الاجناس؟ فأخبر مالك بما دلت عليه السنة في ذلك. فقال أبو يوسف: رجعت لقولك يا أبا عبد الله ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت. ومالك رحمه الله كان يقول: إنما أنا بشر أصيب وأخطىء فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة، أو كلام هذا معناه، والشافعي رحمه الله كان يقول: إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط، وإذا رأيت الحجة موضوعة على طريق قولي[1].

«من حصر فضل الله على بعض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره، فقد تجرأ على الله عز وجل، ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده الذين تعبدهم بالكتاب والسنة، فإذا كان التعبد بهما مختصاً بأهل العصور السابقة ولم يبق لهؤلاء المتأخرين إلا التقليد لمن تقدمهم ولا يتمكنون من معرفة كتاب الله وسنة

(١) جلاء العينين للألوسي ص١٠٧.

رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة، والمقالة الزائفة، وهل النسخ إلا هذا؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم»[1].

حسن خان

«ليس على الإنسان التزام مذهب معين، وانه لا يجوز له العمل بما يخالف ما عمله على مذهبه مقلداً فيه غير إمامه مستجمعاً شروطه، ويعمل بأمرين متضادين في حادثتين لا تعلق لواحدة منهما بالأخرى وليس له إبطال عين ما فعله بتقليد إمام آخر لأن إمضاء القاضي لا ينقض».

ابن عابدين

«اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتدبر، وقبيح بمن أُعطيَ شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة، واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال، وهذا عين الضلال، لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل»[2].

جمال الدين بن الجوزي

«اعلم أنه لم يكلف الله أحداً من عباده بأن يكون حنفياً أو مالكياً أو شافعياً، أو حنبلياً، بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث به محمداً ﷺ والعمل بشريعته»[3].

عبد العظيم المكي

«ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف قول إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك مقلد فيه، ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم، جموداً على تقليد إمامه، بل يتحيل لظاهر الكتاب والسّنة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة، نضالاً عن مقلده، ولم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة، مقلداً فيما قال كأنه نبي أرسل، وهذا نأي عن

---

(١) جلاء العينين للآلوسي ص١٠٧.

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٨١.

(٣) رسالة القول السديد ص٣.

الحق، ويبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب»[1].

عز الدين بن عبد السلام

رأى بعض المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم، حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد وتكلم في المسائل ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير، وفوّقوا إليه سهام النقد، وعدوه من الخارجين عن الجادة والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتبار العامي، ولقد لقي بقيّ بن مخلّد حين دخل الأندلس آتياً من المشرق من هذا الصنف الأمرّين حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب. إلى أن يقول: وكان هؤلاء المقلّدة قد صمموا على مذهب مالك بحيث أنكروا ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الرجال والغلو في محبة المذاهب»[2].

الشاطبي

«ينبغي لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على إمام، ويعتقد في كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة وذلك سهل عليه، وليتجنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف، فإنها مضيعة للزمان، ولصفوه مكدرة، فقد صح عن الشافعي أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره»[3].

الشيخ ابو شامة

«إن قفل باب الاجتهاد معناه الضربة القاضية على حرية الفكر، بل على الإسلام الذي قلنا أنه جاء للناس كافة، ليساير مختلف العصور والشعوب والآن بعد سير ألف سنة سار خلالها المسلمون جامدين».

محمد علي
مؤلف كتاب الدين الإسلامي

«وإني أستطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، وبوسائل القهر والإغراء بالمال، ولا شك أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب

(١) رسالة الإنصاف ص٣٧.
(٢) الاعتصام ج٣ ص٢٥٩.
(٣) انظر دائرة المعارف لفريد وجدي ج٣ ص٢٤٨.

الأربعة التي نقلدها الآن لبقي لها جمهور يقلدها أيضاً، ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها، فنحن إذاً في حل من التقيد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة، وفي حل من العود إلى الاجتهاد في أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلا بطرق القهر، والإسلام لا يرضى إلا بما يحصل بطريق الرضى والشورى بين المسلمين كما قال تعالى في الآية ٢٨ من سورة الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[١].

عبد المتعال الصعيدي

احد علماء الأزهر

«بأي نص سد باب الاجتهاد، أو أي إمام قال: لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهدوا ليتفقهوا في الدين، أو أن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث، أو أن يجد ويجتهد بتوسيع مفهومه، والاستنتاج على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه، ولا ينافي جوهر النص أن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه العربي ليعلمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم.

ولا ارتياب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وعاشوا إلى اليوم لداموا مجتهدين مجدين يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم زادوا فهماً وتدقيقاً، نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا فجزاهم الله خير الجزاء، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن وتمكنوا من تدوينها في كتبهم»[٢].

جمال الدين الافغاني

«منع الاجتهاد هو سر تأخر المسلمين، وهذا هو الباب المرن الذي عندما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير ويبدل لأنه لاعتبارات سياسية منع الولاة والسلاطين الاجتهاد حتى يحفظوا ملكهم، ويطمئنوا إلى أنه لن يعارضهم معارض، وإذا ما عارضهم أحد ـ لأنه لا تخلو أمة من الأمم إلا وفيها المصلح النزيه، والزعيم الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ـ فلن يسمع قوله لأن باب الاجتهاد قد أغلق. لهذا جمد التشريع الإسلامي الآن، وما التشريع إلا روح الجماعة وحياة الأمة، وإني أرجع الفتنة الشعواء، التي حصلت في

(١) ميدان الاجتهاد ص١٤.

(٢) خاطرات جمال الدين ص١٧٧.

عهد الخليفة عثمان والتي كانت سبباً في وقف الفتح الإسلامي حيث تحولت في عهده الحرب الخارجية إلى حرب داخلية، أرجع ذلك إلى أن عثمان كان من المحافظين، وقد شرط ذلك على نفسه، عندما وافق عبد الرحمن بن عوف على «لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعني دون اجتهاد» عند انتخابه خليفة ولم يوافق الإمام علي على ذلك حينئذ قائلاً: إن الزمن قد تغير، فكان سبب تولي عثمان الخلافة هو سبب سقوطه»[1].

الدكتور عبد الدائم البقري الانصاري

«كم بين دفتي التاريخ من أحزاب سياسة استحالت إلى مذاهب دينية، رب مغفل أرعن يحقد على أخيه لاختلاف مذهبيهما اختلافاً في الفروع منشؤه الاجتهاد، ولا يذكر أن كلمة التوحيد التي تجمعه وأخاه على خطر عظيم، وأن حقده هذا يزيده خطراً.

الاجتهاد مجلبة اليسر، واليسر من أكبر مقاصد الشارع وأبدع حكم التشريع، بالاجتهاد يتلاطم موج الرأي فينفذ جوهر الحقيقة على الساحل، الحوادث لا تتناهى والعصور محدثات، فإذا جمدنا على ما قيل فما حيلتنا فيما يعرض من ذاك القبيل؟ سد باب الاجتهاد اجتهاد فقل للقائل به إنك قائل غير ما تفعل»[2].

العلامة العبيدي

* * *

هذه بعض الشواهد على عدم شرعية غلق باب الاجتهاد الذي حدث في ظروف خاصة ولمآرب سياسية، ولم تخضع الشيعة لحكم تلك الظروف بل ساروا على طريقة أهل البيت، وأخذوا أحكام الإسلام عنهم وبقي الاجتهاد مفتوحاً عندهم.

ولقد ألفت في هذا الباب رسائل عدة لكبار العلماء، وكلهم ينددون بجمود التشريع على المذاهب الأربعة ويطلبون حل تلك العقدة التي عقدها ولاة أمر لا يطلبون بذلك إلا مصالح الدولة، وقد أوضح العلماء أسباب هذا الجمود كالغزالي، والعز بن عبد السلام وغيرهما من الأئمة الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم، فمنها

---

(١) الفلسفة السياسية للإسلام ص٢١.

(٢) النواة في حقل الحياة ص١٣٦.

بالنسبة إلى بعضهم كالمباراة والمماراة، وحب الظهور، وما يتعلق بذلك، ومنها المنافع، والمرافق في القضاء، والإفتاء، والأوقاف بالنسبة إلى آخرين.

ومنها الثقة والاطمئنان بالتربية العلمية على المذهب والاقتصار عليه في التعليم والإفتاء، ومن طبع الإنسان أن ما يعتاده زمناً طويلاً يملك عليه أمره ويؤثر في نفسه تأثيراً يصرفها عن كل ما عداه، إلا أصحاب العقول الكبيرة والنفوس العالية الذين تكون الحقيقة ضالتهم والصواب وجهتهم[1].

كلمات حول التقليد:

أما الذين يحاولون الجمود ويلتزمون بالتقليد فإنهم عجزوا عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد واقتنعوا بعناية السلطان على ما هم فيه من النقص، فلا يروق لهم بلوغ أحد رتبة الاجتهاد، ونسبوا مدعيه إلى الجنون كما ذهب إليه الشيخ داود النقشبندي في كتابه «أشد الجهاد» حيث يرى أن مدعي الاجتهاد ضال مبتدع.

ويقول الشيخ أحمد بن عبد الرحيم في تقسيم طبقات المجتهدين: «الطبقة الثالثة من نشأ من المسلمين من رأس المائة الرابعة ويجب على العامي تقليد المجتهد المنتسب لا غير، «أي لأحد المذاهب الأربعة» لامتناع وجود المستقل من هذا التأريخ حتى اليوم، ثم أورد على نفسه وأجاب، وأهم شيء يعتمد عليه في أدلته، قوله: إنه اجتمعت الأمة على أن يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة فلا بد لنا من الرجوع إليهم، ولا يرجع إلا إلى المروي عن السلف بسند صحيح مدون في الكتب المشهورة، مع بيان الأرجح من دلالتها، وتخصيص عمومها أو تقييدها والجمع بين مختلفاتها، ولا توجد هذه الخصوصيات إلا في المذاهب الأربعة، وليس مذهب بهذه الصفة إلا الإمامية، والزيدية وهم أهل البدعة[2] لا يجوز الاعتماد على أقاويلهم فتعين الأخذ بأحد المذاهب الأربعة».

هذا أهم ما عندهم من الأدلة. وذهب بعضهم إلى القول بعصمة الأربعة مستدلاً بعصمة النبي، وهم ورثته فهم معصومون من الخطأ، وإذا كانوا كذلك فيجب الرجوع إليهم فحسب.

---

(١) الوحدة الإسلامية للسيد محمد رشيد رضا ص١١٢.

(٢) رسالة الإنصاف للدهلوي ص٧.

ولا حاجة بنا إلى إطالة نقل أقوال المانعين لملكة الاجتهاد لعلماء الأمة بعد المذاهب الأربعة، لأنها حجج لقضية تبتنى على عدم لياقة أي أحد بعدهم لهذه الرتبة، وأن مدعيها ضال مضل بل ممن يريد في الأرض الفساد، ويجب إقامة الحد عليه، ومن ادعى من الأمة تلك المنزلة أو كانت له لياقة استنباط الأحكام الشرعية شنعوا عليه، ورموه بالنكير. فهذا العلامة جلال الدين السيوطي ادعى رتبة الاجتهاد المطلق قام عليه علماء عصره فرموه بالنكير، ووقعوا فيه، وكذلك أنكروا على كل من ادعى ذلك.

والواقع أن في القرون المتأخرة رجالاً برهنوا بمؤلفاتهم على تلك الملكة التي ادعي استحالتها عليهم، حتى فضلوا بعضهم على رؤساء المذاهب. فهذا أبو حامد أحمد بن محمد الاسفراييني فضلوه على الشافعي، وكثير منهم كانوا بمنزلة من العلم لا يستبعد اتصافهم بتلك الملكة.

كالشيخ عبد العزيز بن سلام المتوفى سنة ٥٧٨هـ.

والشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزويني المتوفى سنة ٦٢٣هـ، وإسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩هـ، ومحمد بن إسحق صدر الدين القوني المتوفى سنة ٦٧٣هـ وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الاسفراييني المتوفى سنة ٤١٨هـ.

وناهيك ما للقفال، وإمام الحرمين الجويني، والصيدلاني، والسبخي والسرخسي، والجصاص، من منزلة في العلم وموهبة في استنباط الأحكام، ولكنهم ألجموا من قبل العامة الذين رأوا ادعاء الاجتهاد ضلالة، بل يتلبس مدعيها بتهمة التشيع لأنهم يقولون بذلك[1].

وكان أبو الحسن الداركي أحد المجتهدين في عصره إذا سئل عن فتوى يجيب بعد تفكر، فربما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعي وأبي حنيفة فينكرون عليه ذلك، فيقول: ويلكم روى فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ كذا وكذا، فالأخذ به أولى من الأخذ بمذهب الشافعي ومخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث.

---

(١) أشد الجهاد لمدعي الاجتهاد ص٢٥.

ولقد لقي بقي بن مخلد من الأذى وشدة الإنكار لدعوى الاجتهاد ما جعله مهجور الفناء، مهتضم الجانب، وكثير من أمثاله، أما ابن تيمية وابن قيم الجوزية فإنهما بلغا في آرائهما حدوداً كان ينبغي الامتناع عن تجاوزها فمهما أحسن المرء الظن فإنها اجتراء على مقام الرسول محمد ونيل من آل بيته الأطهار رويت للفرقة ومؤداها الجمود، فما لقياه كان عملاً اقتضته طريقة خوضهما في الاجتهاد، ولو أحسنا الفهم والاختيار لكانا في قافلة المنافحين عن الحق والداعين إلى حرية الرأي.

ولست أدري ما هذه الاستحالة وعدم الإمكان من حصول درجة الاجتهاد والحكم على الرجال بالقصور والنقص وحصر الكمال في عدد معين بدون دليل؟ ولا بد من تعريف الاجتهاد والتقليد عندهم إجمالاً لنرى مدى تحجير الأفكار ووقوف العقل عن إدراك ذلك.

الاجتهاد:

الاجتهاد لغة: هو بذل الوسع في ما فيه كلفة، مأخوذ ـ كما نقل ابن أبي زرعة عن الماوردي ـ من جهاد النفس وكدها في طلب المراد، وفي الاصطلاح على ما في جمع الجوامع: استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم، والفقيه والمجتهد لفظان مترادفان وهو البالغ العاقل، أي ذو ملكة يدرك بها العلوم وهذه الملكة العقل.

كما عرّفوا الاجتهاد أيضاً بأنه استنفاذ الجهد بالنظر في المآخذ الشرعية، لتحصيل علم أو ظن بحكم شرعي.

قال أبو إسحق: ومن كان موصوفاً بالبلادة والعجز عن التصرف فليس من أهل الاجتهاد، وفي إنكاره للقياس خلاف، وأن يكون عارفاً بالدليل العقلي وهو البراءة الأصلية، وأن يكون عارفاً بلغة العرب وبالعربية وعلم النحو إعراباً وتصريفاً، وبأصول الفقه ليقوى على معرفة الأدلة وكيفية الاستنباط وبالبلاغة ليتمكن من الاستنباط بحيث يميز العبارة الصحيحة من الفاسدة وأن يكون عارفاً بالكتاب والسنة ولا يعتبر العلم بجميعها ولا حفظها.

قال العلامة السبكي: المجتهد من هذه العلوم من له ملكة وإحاطة بمعظم قواعد الشرع، ومارسها بحيث اكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع، ويعتبر على ما قيل كونه خبيراً بمواقع الاجتماع كيلا يخرقه، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وشرط

المتواتر والآحاد، والصحيح والضعيف، وحال المرويات وسير الصحابة، ولا يشترط فيه الكلام، وتفاريع الفقه، والذكورة والحرية، وكذا العدالة على الأصح.

هذه هي شروط المجتهد عندهم، وأنت لو نظرت إلى الواقع لم تجد سبباً لمنعه من أجل قصور عن إدراكه لمن أراده، وكم من العلماء من عرفنا عنه تمام المعرفة لهذه العلوم وزيادة ولكن المانع شيء آخر.

التقليد:

والتقليد: هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله، قال ابن أبي زرعة في شرح الجوامع: وقد اختلف العلماء في تقليد المفضول من المجتهدين مع التمكن من تقليد الفاضل على مذاهب، أحدها وهو المشهور: جوازه، وقد كانوا يسألون الصحابة مع وجود أفاضلهم، والثاني: منعه، وبه قال الإمام أحمد وابن سريح، واختاره القاضي حسين وغيره، والثالث: يجوز لمن يعتقده فاضلاً، أو مساوياً لغيره فإن اعتقده دون غيره امتنع استفتاؤه. وكذا اختلفوا في تجويز تقليد الميت على أقوال: أحدها: جوازه، وبه قال الجمهور، وعبر عنه الشافعي بقوله: المذاهب لا تموت بموت أربابها. والثاني: منعه، أي منع تقليد الميت مطلقاً، وعزاه الإمام الغزالي لإجماع الأصوليين واختاره الإمام فخر الدين. والثالث: يجوز مع فقد حي ولا يجوز مع وجوده. انتهى ملخصاً.

وقال الشيخ محيي الدين بن عربي في الباب الثامن والثمانين من الفتوحات المكية: والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حي ولا ميت، انتهى. فتدبر. وقال ابن عابدين الشامي: إنه يجوز تقليد المفضول مع وجود الأفضل وبه قالت الحنفية والمالكية والشافعية وأكثر الحنابلة، وعن أحمد وطائفة كثيرة من الفقهاء: لا يجوز.

حركة التنازع بين المذاهب

كلمات حول تنازع المذاهب:

كان النزاع بين طوائف المسلمين إنما هو نزاع علمي، واختلاف لا يتعدى حدود القول في النقض لبعض ما ينهجه الآخر، وسارت الأمور على هذا المنوال ولكن حركة الانشقاق تتسع وروح الاختلاف تسري في المجتمع بسرعة، لقوة الدافع السياسي الذي يحاول أن لا تتفق الأمة على رأي واحد فهو يعمل على إحياء العصبية «إذ لا حياة للنظام الملكي إلا بها»[1].

ومضى عصر أئمة المذاهب وجاء دور أتباعهم فشغل كل بمذهبه الذي يرتضيه، وتأصلت روح الخصومة وانحاز كل إلى جهة بدون التفات إلى ما وراء هذا التحيز من خطر على العلم، في ضياع حقيقته، وسلب منافعه التي أراد الإسلام أن تسير الأمة على ضوء تعاليمه القيمة لاكتساب السعادة. ولم يصل الأمر إلى تحديد الأخذ بمذهب معين لا غير وإلزام الناس بالأخذ عن المذاهب الأربعة فحسب إلا بعد مدة من الزمن.

يقول الشاه ولي الدهلوي[2]: اعلم أن الناس كانوا في المائة الأولى والثانية غير مجتمعين على التقليد في مذهب واحد بعينه، بل كان الناس على درجتين: العلماء والعامة، وكانوا في المسائل الاجتماعية التي لا خلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل وأحكام الصلاة والزكاة ونحوه، من آبائهم أو معلمي بلادهم فيمشون على

---

(١) فلسفة السياسة للإسلام ص٢١ نقلاً عن ابن خلدون.

(٢) رسالة الإنصاف ص٨.

ذلك، وإذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أي مضت وجدوا من غير تعيين مذهب.

وأما العلماء فكانوا على مرتبتين: منهم من أمعن في تتبع الكتاب والسنة والآثار حتى حصل له بالقوة القريبة من الفعل ملكة تؤهله لفتيا الناس يجيبهم في الوقائع غالباً بحيث يكون جوابه أكثر مما يتوقف فيه ويخص باسم المجتهد، وهذا الاستعداد يحصل تارة باستفراغ الجهد في جميع الروايات، فإنه ورد كثير من الأحكام في الأحاديث وكثير منها في آثار الصحابة والتابعين.

ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون، ذهبوا يميناً وشمالاً، وحدث فيهم أمور منها: الجدل والخلاف في علم الفقه وتفصيله، على ما ذكره الغزالي(١).

ولما انقرض عهد الخلفاء الراشدين أفضت الخلافة إلى قوم تولوها بغير استحقاق، ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام، فاضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم، وكان بقي من العلماء من الطراز الأول، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا، فرأى أهل تلك الأعصار - غير العلماء - إقبال الأئمة عليهم مع إعراضهم، فاشتروا طلب العلم توصلاً إلى نيل العز، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله، وقد كان من قبلهم قد صنف ناس في علم الكلام، وأكثروا القال والقيل والإيراد والجواب وتمهيد طرق الجدال، وقع ذلك منهم بموقع من قبل أن كان الصدور والملوك من مالت نفسه إلى المناظرة في الفقه من مذهب الشافعي وأبي حنيفة، فترك الناس الكلام وفنون العلم، وأقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد بن حنبل وغيرهم وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب، وتمهيد أصول الفتاوى، وأكثروا فيها التصانيف وهم مستمرون عليه إلى الآن. ولسنا ندري ما الذي قدره الله تعالى فيما بعده من الأعصار؟ اهـ.

---

(١) هو محمد بن محمد الغزالي نسبة إلى غزالة قرية من قرى طوس، الملقب حجة الإسلام صاحب كتاب إحياء العلوم الذي نال شهرة عظيمة إلا أنه أورد فيه خمسمائة حديث مرسل ليس لها طريق ولم يروها أحد ولم يخرجها الحفاظ وله مؤلفات كثيرة ومنزلته العلمية أشهر من أن تذكر ولد في سنة ٤٥٠هـ وتوفي سنة ٥٠٥هـ ودفن بالطابران في طوس وكان في عداد الشافعية إلا أنه مجتهد.

ويعطينا الخطابي[1] في كتابه معالم السنن صورة عن الخلاف الذي حصل بعد المائة الثالثة بين فقهاء المسلمين ومتبعي المذاهب إذ يقول:

رأيت أهل زماننا انقسموا إلى فرقتين: أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر، ووجدت هاتين الفرقتين إخواناً متهاجرين.

أما أهل الحديث والأثر فإن الأكثر منهم إنما كدهم الروايات وجمع الطرق، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب لا يراعون ولا يفهمون المعاني، وربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن وادعوا عليهم مخالفة السنن.

وأما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر، فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه، إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها ووافق آراءهم التي يعتقدونها، وقد اصطلحوا على مواضعة بينهم في قبول الخبر الضعيف والحديث المنقطع إذا كان قد اشتهر عندهم، وتعاورته الألسن فيما بينهم من غير تثبت فيه، أو يقين علم به، ولو حكي لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم وزعماء نحلهم قول يقوله باجتهاده من قبل نفسه طلبوا فيه الثقة واستبرأوا له العدة، فتجد أصحاب مالك لا يعتمدون في مذهبه إلا على ما كان من رواية ابن القاسم وأشهب، فإذا جاءت رواية عبد الله بن الحكم وأضرابه لم يكن عندهم طائلاً، وترى أصحاب أبي حنيفة لا يقبلون من الرواية عنه إلا ما حكاه أبو يوسف ومحمد بن الحسن، فإن جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤي وذوي روايته قول بخلاف لم يقبلوه ولم يعتمدوه.

وكذلك تجد أصحاب الشافعي، إنما يعولون في مذهبه على رواية انمزني والربيع بن سليمان المرادي، فإذا جاءت رواية خزيمة والجرمي وأمثالهما لم يلتفتوا إليها، ولم يعتدوا بها في أقاويله. وعلى هذا عادة كل فرقة من العلماء في أحكام مذاهب أئمتهم وأساتذتهم. فإذا كان هذا دأبهم وكانوا لا يقتنعون في أمر هذه الفروع

---

(١) هو الشيخ حمد (بفتح الحاء وسكون الميم) بن محمد بن الخطاب الخطابي البستي قال السمعاني: كان الخطابي حجة صدوقاً رحل إلى العراق والحجاز وجال في خراسان وخرج إلى ما وراء النهر وقال السبكي في طبقات الشافعية: كان إماماً في الفقه والحديث واللغة، وقال الذهبي: كان ثقة من أوعية العلم، وقال البهنسي: إنه من الأعلام المجتهدين في قواعد الأحكام توفي سنة ٣٨٨هـ.

والرواية عن هؤلاء الشيوخ إلا بالوثيقة والتثبت فكيف يجوز لهم أن يتساهلوا في الأمر الأهم، والخطب الأعظم، وأن يتواكلوا الرواية والنقل عن إمام الأئمة ورسول رب العزة ﷺ الواجب حكمه، اللازمة طاعته، الذي يجب علينا التسليم لحكمه والانقياد لأمره، من حيث لا نجد في أنفسنا حرجاً مما قضاه، ولا في صدورنا غلاً من شيء أبرمه وأمضاه، ولكن أقواماً عساهم استوعروا طريق الحق، واستطابوا الدعة في ذلك الخط، وأحبوا عجالة النيل، فاختصروا طريق العلم، واقتصروا على نتف وحروف منتزعة من معاني أصول الفقه سموها عللاً وجعلوهم شعاراً لأنفسهم في الترسم برسم العلم، وأخذوا جنة عند لقاء خصومهم ونصبوها ذريعة للخوض والجدال يتناظرون بها ويتلاطمون عليها، وعند التصادر عنها قد حكم الغالب بالحذق والتبرير، فهو الفقيه المذكور في عصره والرئيس المعظم في بلده ومصره. انتهى باختصار(١).

التعصب بين المذاهب:

هذه بعض كلمات علماء ذلك العصر أوردناها ليتضح للقارىء سير العلم في تلك الأدوار، والخلاف الذي أدى إلى الارتباكات التي أحاطت بمفهومه ويبلغ الحال إلى تطور مؤلم أدى إلى الطعن في المعتقدات، ونتج من وراء ذلك ثورات دموية ذهبت بكثير من النفوس والأموال بشكل يبعث على الأسف الشديد لما حل من التطاحن بين المذاهب، فأصبحوا أعداء متخاصمين في المعتقدات وقد عامل بعضهم بعضاً معاملة الخارجين عن الدين حتى قال محمد بن موسى الحنفي قاضي دمشق المتوفى سنة ٥٠٦هـ: «لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الشافعية الجزية» ويقول أبو حامد الطوسي المتوفى سنة ٥٦٧هـ: «لو كان لي أمر لوضعت على الحنابلة الجزية».

إن أسباب تلك الفتن التي حلت بالمسلمين كلها تعود لمسايرة بعض العلماء للدولة، يشايعها ويؤيد وجهة نظرها، فأغدقت عليه العطاء وبذلك أصبح العلم مسايراً للدولة.

---

(١) رسالة الانصاف للدهلوي ص١٧.

ولو استقل العلم عن مؤثرات السياسة في تلك العصور، لأرغمت الدولة على الخضوع له ولسارت في ركابه، وفي ذلك سعادة الأمة، ولكن بعض حملة العلم بمسايرتهم لولاة الأمر الذين انحرفوا عن الدين أصبحوا دعامة تستند عليها سلطتهم الجائرة في أهم الأمور، مما جعل الناس ينظرون إلى الإسلام وهو مسلوب القوة العادلة عن تنظيم شؤون العالم. والدين أجل وأسمى من أن يكون مهباً للأهواء، أو مثاراً لاختلاف الآراء أو مجالاً لتحزب العلماء.

وعلى أي حال فقد اصطدمت الطوائف اصطداماً عنيفاً، وخلقت كثيراً من المشاكل التي هي في نهاية التعقيد ولا يمكن حلها ما دام علماء الدولة هم المحور لتلك الأمور، ومنهم تنبعث تلك الأفكار التي تتحرك بها شعور العامة فيقع من وراء ذلك حوادث مؤلمة.

* * *

وإذا نظرنا إلى الحوادث المؤلمة التي حصل فيها التشاجر والتطاحن بين معتنقي المذاهب الأربعة، فإن ذلك يبعث في نفوسنا الألم، مما وصلت إليه الحالة السيئة بين جماعات الأمة، ويدلنا ذلك بكل وضوح على إبطال من يدعي لهم الاتفاق وعدم الخلاف، وهو بذلك يستدل على أحقية مذاهبهم، وصدق معتقداتهم، كما ذهب إليه صاحب كتاب التبصير وغيره ممن يطلقون الأقوال بدون تدبر، ويحكمون بدون تثبت.

ليت شعري أخفيت عليهم تلك الحوادث التي وقعت بين الحنفية والحنابلة، وبين الحنابلة والشافعية، يوم قام خطباء الحنفية يلعنون الحنابلة والشوافع على المنابر، والحنابلة يحرقون مسجداً للشافعية بمرو.

وتقع هناك فتنة ذهب تحت هياجها خلق كثير، ويعظم الأمر والخلاف بين الحنفية والشافعية في نيسابور، وتقع فتنة مبعثها التعصب المذهبي، فتحرق الأسواق والمدارس، ويكثر القتل في الشافعية فينتصرون بعد ذلك على الحنفية، ويسرفون في أخذ الثأر منهم وذلك في سنة ٥٥٤هـ ومثلها تقع بين الشافعية والحنابلة، وتضطر السلطة إلى التدخل في حسم النزاع بالقوة، وذلك في سنة ٧١٦هـ[1] وكثر القتل

(١) البداية والنهاية ج١٤ ص٧٦.

وحرق المساكن والأسواق في أصبهان وكان منشؤه التعصب[١].

ولشدة وقوع الفتن ببغداد فقد نادى منادي السلطان بمنع الفتن وعدم ذكر المذاهب والخصومة فيها[٢].

وكان الحنابلة يخلون في أعمالهم بالأمن، ويرهجون بغداد، ويستظهرون بالعميان على الشافعية الذين كانوا يأوون للمساجد، فإذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه[٣] وكان رئيس الحنابلة وزعيمهم الديني الشيخ البربهاري يتولى إثارة الفتنة وذلك في سنة ٣٢٣هـ.

ولما تولى القشيري الوعظ بالمدرسة النظامية عظم ذلك على الحنابلة فحطوا منه، وكان ينال منهم فوقعت بينهم فتنة ذهبت بكثير من النفوس[٤] واشتد تعصب محب الدين بن محمد الهندي الحنفي المتوفى سنة ٧٨٩هـ على الشافعية وكان يظهر التدين والنسك، ويرى تعصبه عليهم تديناً والدين بريء من ذلك[٥] وتجتمع بقية المذاهب على الحنابلة غضباً على أعمال ابن تيمية ونودي في دمشق وغيرها: من كان على دين ابن تيمية حل ماله ودمه بمعنى أنهم كفرة يعاملون معاملة الكافرين، على أن الشيخ ابن حاتم الحنبلي يقول: «من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم»[٦] فهو يكفر جميع المسلمين، وعكسه الشيخ أبو بكر المقري الواعظ في جوامع بغداد ذهب إلى تكفير الحنابلة أجمع[٧].

ولقد لقي الشيخ عبد الغني المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠هـ من التحامل عليه والتكفير له وللحنابلة بدمشق ما يطول ذكره حتى هجر دمشق.

وتكفير الفرق بعضها بعضاً أمر شائع يحز في صدر الحق، ويؤلم التأريخ وقعه، ويتبرأ الإسلام منه.

---

(١) مرآة الجنان ج٣ ص٣٤٣.
(٢) المنتظم ج١٠ ص١١١.
(٣) ابن الأثير ج٨ ص٢٢٩.
(٤) مرآة الجنان ج٣ ص٩٧.
(٥) شذرات الذهب ج٦ ص٢٦٠.
(٦) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٧٥.
(٧) شذرات الذهب ج٣ ص٢٥٣.

هذا أبو سهل بن زياد القطان وكان من الحفاظ والثقات عندهم يذهب إلى تكفير المعتزلة مستدلاً بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٥٦] الآية. وثارت فتن عمياء ووقعت حوادث مؤلمة مبعثها التعصب الأعمى.

فهذا الشيخ أبو إسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي المتوفى سنة ٤٧٩هـ وكان شيخ الشافعية وعالمهم المبرز تعصب الحنابلة عليه فتكلموا فيه وبالغوا في الأذى بألسنتهم فثارت فتنة عظيمة أدت إلى ذهاب نفوس من الطرفين، وانتصر السلطان لأبي إسحق فسجن شيخ الشافعية(١). وهذا الفقيه أبو منصور المتوفى سنة ٥٦٧هـ قتله الحنابلة بالسم تعصباً عليه، قال ابن الجوزي إن الحنابلة دسوا إليه امرأة جاءت إليه بصحن حلوى وقالت: هذا يا سيدي من غزلي، فأكل هو وامرأته وولد له صغير فأصبحوا موتى وكان من علماء الشافعية المبرزين(٢)، وكذلك أبو الحسن بن فورك قتل مسموماً بسبب التعصب وأبو علي خادم المستنصر كان من أئمة الشافعية في مصر، وكان يجلس في حلقة ابن عبد الحكم ويناظرهم فسعوا به إلى السلطان وقالوا: هذا جاسوس فحبسه سبع سنين، واجتمع مشايخ المذاهب في هراة عند الملك الب ارسلان يستغيثون به من الشيخ محمد بن عبد الله الأنصاري الحنبلي بعد أن جعلوا صنماً تحت سجادته ويقولون للملك إنه مجسم وإنه يترك في محرابه صنماً يزعم أن الله على صورته فتفحص الملك ووجد الأمر كذلك(٣).

التحول من مذهب إلى مذهب:

ويحدثنا ابن خلكان(٤) عن الشيخ الآمدي المتوفى سنة ٦٣١هـ كان أول اشتغاله حنبلي المذهب وانحدر إلى بغداد وبقي مدة ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وعاد إلى الديار المصرية وتولى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، فحسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصبوا عليه، ونسبوا إليه فساد العقيدة وانحلال الطوية،

---

(١) طبقات الشافعية ج٣ ص١٠٩.
(٢) طبقات الشافعية ج٤ ص١٨٤.
(٣) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٥٨.
(٤) وفيات الأعيان ج١ ص٣٠١.

ومذهب الفلاسفة والحكماء، وكتبوا محضراً يتضمن ذلك ووضعوا خطوطهم بما يستباح به دمه.

وفي مصر يأمر القاضي المالكي وهو الحارث بن مسكين بإخراج الحنفية والشافعية من المسجد وأمر بنزع حصرهم.

وفي سنة ٥٣٨هـ قدم بغداد الحسن بن أبي بكر النيسابوري الحنفي وتحامل على الأشعري وعلى الشافعية وفيها أخرج أبو الفتوح الاسفراييني من بغداد لما حصل فيها من الفتن بين الأشعرية والشافعية[١].

ولعل أعظم صورة تتجلى بها روح العصبية والخلاف بين الطوائف هي قضية القفال عند السلطان محمود بن ناصر، وذلك أنه كان حنفياً وتحول شافعياً فأحضر علماء الفريقين وطلب من القفال المروزي أن يصلي ركعتين طبق المذهب الحنفي، فصلى القفال على مذهب الشافعي، وكان شافعي المذهب بوضوء وشرائط معتبرة، ثم صلى على مذهب أبي حنيفة وما يجوزه في الصلاة فصلى ركعتين بتلك الصورة القبيحة التي ذكروها ونحن نعرض عن ذكرها[٢].

وهذا الشيخ علي بن الحسن الملقب بسيف الدين المتوفى سنة ٦٣١هـ كان حنبلياً ثم صار شافعياً وتعصب عليه فقهاء البلاد وحكموا عليه بالكفر والزندقة[٣].

وكثير من أمثاله من العلماء الذين قتلوا بسيف التصعب بشهادة رجال ذلك العصر، ولا يستبعد أن ذلك كله افتراء محض، وأن أكثر هؤلاء هم بريؤن مما نسب إليهم، وقد استساغ أعداؤهم شهادة الزور على من يخالفهم تديناً.

استفتى بعضهم في شهادة على شافعي زوراً فأجابه المفتي ألست تعتقد أن دمه وماله حلال؟ قال: نعم. قال: فما دون ذلك، فاشهد وادفع فساده عن المسلمين. وهذه الأمور التي ابتلي بها الإسلام إنما هي من جنايات علماء السوء الذين تزلفوا للدولة، وتأثروا بسياستها لفتح باب الشحناء والنزاع والتخاصم والبغضاء بين طوائف المسلمين، فتجد الحنابلة يتعصبون على الحنفية والحنفية على الحنابلة، ولو أنعمنا

---

(١) المنتظم ج١٠ ص١٠٦ ـ ١٠٨.
(٢) وفيات الأعيان ج٢ ص٨٦ والطبقات ج٤ ص١٤.
(٣) مرآة الجنان ج٤ ص٢٤.

النظر في طيات التاريخ، واستعرضنا حوادث الفتن بين المنتسبين إلى السنة بعضهم مع بعض فإننا نجد من الوقائع ما يؤلم قلب كل مسلم.

يقول الأستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار: ومن أغرب ما تجد أن العدوان بين الشافعية كان من أسباب حملة التتار على المسلمين، تلك الحملة التي كانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعاً لم يلتئم من بعده. أدر طرفك في بلادهم اليوم وانظر حال هذه المذاهب، على ضعف الدين في نفوس الجماهير تجد بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، كما قال الله تعالى في وصف من لا ايمان لهم ولا ايمان[1].

التعصب لأئمة المذاهب:

تعددت عوامل التفرقة، وكثرت طرق الخلاف بين الطوائف، وتعصب كل إلى جهة، فأهل الجرح والتعديل أدى بهم التعصب إلى الحط مما يخالف مذهبهم فاستهان بعضهم ببعض، واختلق بعضهم مكارم لبعض، فكم من مجروح عدلوه، وعادل جرحوه، وأعطف عليهم المؤرخون فإنهم ربما وضعوا أناساً ورفعوا أناساً، إما لتعصب، أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به أو غير ذلك.

يقول السبكي: «والجهل في المؤرخين أكثر منه في الجرح والتعديل وكذلك التعصب، قل أن رأيت تاريخاً خالياً من ذلك، وأما تأريخ شيخنا الذهبي غفر الله له فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب، فإنه أكثر الوقيعة في أهل الدين الذين هم صفوة الخلق، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعية والحنفية ومال فافرط ومدح فزاد في المجسمة.

ويقول الحافظ صلاح الدين: إن الحافظ شمس الدين الذهبي لا شك في دينه وورعه، ولكن غلب عليه مذهب الاثبات ومنافرة التأويل، والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً[2].

وعلى أي حال فقد مالت الأهواء وأثرت النزعات فنفروا من الحقائق ولم

---

(١) الوحدة الإسلامية ص٢.

(٢) طبقات الشافعية ج١ ص١٩٠.

يتقبلوها، فكتبوا بما توحيه إليهم أهواؤهم وأغراضهم، لا بما تقتضيه الحقيقة من حيث هي حقيقة لا تقبل الدجل والتدليس.

وتأصلت روح العداء، وتحيز كل إلى مذهبه، وغلوا في أئمتهم غلواً أخرجهم عن حدود الاتزان، ووضعوا في مدحهم ما شاءت رغباتهم بدون قيد وشرط، وتوسعوا في وضع الأحاديث عن النبي ﷺ بالبشائر بأئمة المذاهب كما أورد الحنفية مرسلاً: أن آدم افتخر بي وأنا أفتخر برجل من أمتي اسمه النعمان، وبصورة أخرى: الأنبياء يفتخرون بي وأنا أفتخر بأبي حنيفة، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني[1].

وتوسعوا في الادعاءات لتصحيح مذهبه ووجوب اتباعه وأن عيسى يحكم بمذهبه وأن الله غفر له ولأهل مذهبه إلى يوم القيامة[2] وأنه أعظم معجزة للنبي بعد القرآن.

ومن ذلك قولهم إن الله خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة ومن كرامته أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين، فلما توفي أبو حنيفة دعا الخضر ربه فقال: يا رب إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلمني من القبر على عادته حتى أعلم الناس شرع محمد على الكمال ليحصل لي الطريق، فأجابه ربه إلى ذلك. وأتم الخضر دراسته على أبي حنيفة وهو في قبره في مدة خمس وعشرين سنة إلى آخر ما في هذه الأسطورة التي تتلى في مجالس الحنفية في الهند ومساجدهم[3] وقد صنعت في عصور التعصب. ولو بعث أبو حنيفة لأقام الحد على هؤلاء المتجرئين بالكذب والافتراء على مقام الأنبياء، ولخر صعقاً إلى الأرض وعفر خده فهو يعرف نفسه، ولكنهم أرادوا أن يحسنوا فأساءوا ويقول شاعرهم لتأييد صحة مذهبه وترجيحه على غيره.

غدا مذهب النعمان خير المذاهب ... كذا القمر الوضاح خير الكواكب
مذاهب أهل الفقه عندي تقلصت ... وأين عن الروسي نسج العناكب

---

(١) الدر المختار في شرح تنوير الأبصار ج١ ص٥٣ و٥٤.
(٢) الدر المختار في شرح تنوير الأبصار ج١ ص٥٢ و٥٤.
(٣) كتاب الياقوت في الوعظ لأبي الفرج علي بن الجوزي ص٤٨.

ويقول الشاعر الشافعي:

مثل الشافعي في العلماء | مثل البدر في نجوم السماء
قل لمن قاسه بنعمان جهلاً | أيقاس الضياء بالظلماء

والمالكية يدعون لإمامهم أموراً، منها أنه مكتوب على فخذه بقلم القدرة مالك حجة الله في أرضه، وأنه يحضر الأموات من أصحابه في قبورهم وينحي الملكين عن الميت ولا يدعهما يحاسبانه على أعماله(١)، ومنها أنه ألقى كتابه الموطأ في الماء فلم يبتل ويقول شاعرهم:

إذا ذكروا كتب العلوم فحي هل | بكتب الموطأ من تصانيف مالك
فشد به كف الصيانة تهتدي | فمن حاد عنه هالك في الهوالك

ويقول الحنبلي:

سبرت شرائع العلماء طراً | فلم أر كاعتقاد الحنبلي
فكن من أهله سراً وجهراً | تكن أبداً على النهج السوي

ويقول آخر:

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت | فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

والحنابلة يقولون: أحمد بن حنبل إمامنا فمن لم يرض فهو مبتدع، فما أكثر المبتدعين في نظرهم على هذه القاعدة.

وتقولوا على الشافعي قوله: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر، فقيل له: أتطلق عليه اسم الكفر؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد عاند السنة، ومن عاند السنة قصد الصحابة ومن قصد الصحابة أبغض النبي ﷺ ومن أبغض النبي ﷺ كفر بالله العظيم(٢).

وإني أستبعد صدور هذا القول من الشافعي وهو في مكانته ولكن الغلو لا يقف عند حد ولا يتقيد بشرط، وإلا فلماذا لا يسمى من أبغض علياً كافراً؟ مع انا نراهم

---

(١) مشارق الأنوار للعدوي ص٢٨٨.

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص١٣.

يعظمون المتوكل العباسي ويسمونه بناصر السنة ويحوكون له المناقب والفضائل[1] وهو هو في تحامله على علي عليه السلام وبغضه له، وتقريبه من عرف بالنصب والعداء له: كعمر بن فروخ، وأبي السمط، وعبد الله بن محمد بن داود، وعلي بن الجهم وغيرهم من حزبه وأعوانه، حتى أنه كان لا يأنس إلا بنقص علي عليه السلام والحط من كرامته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى علياً وأهل بيته فيأخذ ماله ويهدر دمه. ولكنهم لم يلتفتوا إلى هذا الخطأ فوسموه بأنه ناصر السنة، وأنه من أهل الجنة، ومن أولياء الله ومجاوريه في حظيرة القدس، وجعلوه في عداد أبي بكر وعمر بن عبد العزيز[2].

وكذلك حزبه النواصب وسموهم بالسنة. وقال ابن الجوزي في مناقب أحمد: وكان علي بن الجهم من أهل السنة حسن الرأي في أحمد.

فعلى هذا ان كل من كان حسن الرأي في أحمد هو من أهل السنة وإن أساء الرأي في جميع المسلمين ونال منهم.؟! قاتل الله الغلو كيف يحيد بصاحبه عن طريق الحق.

وكذلك يقولون: إنه ما قام بأمر الإسلام أحد بعد رسول الله ما قام به أحمد بن حنبل ولا أبو بكر الصديق مثله، وإن الله جل وعلا كان يزور قبره إلى آخر ما هنالك من مناقب مبعثها الجهل والتعصب.

ويحدثنا الشيخ عبد الله بن محمد الهروي إذ يقول: قصدت أبا حاتم بن جاموس بالري، وكان مقدم أهل السنة، وقد أمر السلطان محمود أن على كل من دخل الري أن يعرض اعتقاده على الشيخ أبي حاتم، قال: فلما قربت من الري كان معي رجل في الطريق، فسألني عن مذهبي؟ فقلت: حنبلي، فقال: مذهب ما سمعت به، وهذه بدعة وأخذ بثوبي وقال: لا أفارقك حتى تذهب إلى الشيخ أبي حاتم، فذهب بي إلى داره فأخبره بذلك، فقال الشيخ: دعه فكل من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم[3].

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٢) النجوم الزاهرة ٢: ٣٢٥.

(٣) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٧٥.

فسائر أهل المذاهب الإسلامية أجمع في نظر هذا الشيخ كفار وما أعظمها من قسوة في الحكم، وما أبعد هذا الشيخ عن الانتساب لمنزلة العلم، ولكن حكم العاطفة العمياء يسلب الرجل رشده، وللعصبية وقعها وطابعها إذا ما كانت بدافع السياسة وبتأثير الحكام وهي النوع الأغلب الذي بفعله حدثت المآسي. ولولا انجرار ضعاف النفوس وضيقي العقول لما تحولت صفحات الإخاء الناصع إلى سطور دموية.

حركات التعصب بين المذاهب:

وكان القضاء للحنفية لإيثار الخلفاء لهم بذلك، ولما أراد القادر بالله نقله إلى الشافعية، عين أبا العباس أحمد بن محمد البارزي الشافعي بدلاً من الأكفاني الحنفي قاضي بغداد بإشارة أبي حامد الاسفراييني، وكتب أبو حامد بذلك إلى السلطان محمود، وأهل خراسان: أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية فاشتهر ذلك وصار أهل بغداد حزبين ثارت بينهما الفتن، فاضطر الخليفة إلى جمع الأشراف والقضاة وأخرج إليهم رسالة تتضمن أن الاسفراييني أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والأمانة وكانت على أصول الدخل والخيانة، فلما تبين له أمره ووضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزي الحكم والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه، من إيثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم، صرف البارزي وأعاد الأمر إلى حقه، وأجراه على قديم رسمه، وحمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والكرامة، والحرمة والإعزاز، وتقدم إليهم أن لا يلقوا أبا حامد ولا يقضوا له حقاً ولا يردوا عليه سلاماً، وخلع على أبي محمد الأكفاني، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة وظهر التسخط عليه والانحراف عنه[1].

يظهر لنا من هذه القصة عظيم اهتمام الحنفية في منصب القضاء. ويعود الأمر لمنزلة القضاة إذ هم همزة الوصل بين البلاط وأهل ذلك المذهب، وتكون لهم تلك الحظوة ونيل الكرامة والعناية والحرمة، والإعزاز ما حمل الحنفية على إثارة تلك الفتنة عندما أراد الشافعية سلبها منهم، والاختصاص بهذه المنزلة دونهم، وانتهت تلك المشكلة بتنازل الخليفة عن رأيه، وعاد الأمر إلى نصابه.

---

(١) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص٨٧.

والتزاحم بالمناكب على القضاء هو أقوى عامل لإثارة تلك الفتن وبث روح الشغب والفرقة، وتغليب مذهب على مذهب بقوة السلطة القائمة ونشر القضاة المناصرين لمذهب على مذهب.

وكان القضاة في أغلب الأوقات يثيرون الفتن ويوقدون نار الحرب بين الطوائف. فأحمد بن صاعد الحنفي رئيس نيسابور وقاضيها وكان يلقب بشيخ الإسلام قد بالغ في تعصبه على بقية المذاهب فأغرى بعضهم ببعض حتى لعنت الخطباء أكثر الطوائف على المنابر(١).

وأراد القاضي بكار أن يعمل في جامع بني أمية إماماً حنفياً، وكان لا يؤم فيه إلا شافعي، ولا صعد منبره غير شافعي فأراد هذا القاضي أن يشاركهم بإمام على مذهبه فثارت الشافعية وأغلقوا الجامع وعزل القاضي(٢).

ولعل من أعظم تلك الفتن التي وقعت بين المذاهب هي فتنة ابن القشيري عندما ورد بغداد سنة ٤٦٩هـ وجلس في النظامية وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، وكتب إلى الوزير يشكو الحنابلة ويسأله المعونة، وهجم أصحاب القشيري على زعيم الحنابلة عبد الخالق بن عيسى، ووقع قتال بين الطرفين وأغلق اتباع ابن القشيري وهم الشافعية أبواب سوق مدرسة النظام، وغضب أبو إسحق الشيرازي وكاتب فقهاء الشافعية نظام الملك غضباً لتسلط الحنابلة، واتسعت الفتنة وفكر الخليفة في حل هذه المشكلة واهتدى إلى سعيه في الصلح، فجمع القشيري وأصحابه وأبا جعفر الشريف زعيم الحنابلة وأصحابه بمحضر الوزير، فقام القشيري رئيس الشافعية والتفت إلى الوزير عندما طلب منه الصلح وقال: أي صلح يكون بيننا؟ إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو ديناً أو تنازع في ملك. فأما هؤلاء القوم فإنهم يزعمون أنا كفار، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كان كافراً، فأي صلح يكون بيننا(٣)؟

وقد واجه كثير من العلماء الأذى وتحملوا بلاء عظيماً عندما يتحولون من

(١) شذرات الذهب ج٣ ص٢٦١.
(٢) طبقات الشافعية ج١ ص١٧٤.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج١ ص٢٢ باختصار.

مذهب إلى مذهب حتى قالوا: «إن من يصير حنفياً يخلع عليه، ومن يصير شافعياً يعزر»[1].

فهذا أبو سعيد المتوفى سنة ٥٦٢هـ كان حنفي المذهب وتحول شافعياً، ولقي عناء وامتحن لذلك، وهذا السمعاني لما انتقل من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي لقي محناً وتعصباً وقامت الحروب على ساق، واضطرمت نيران الفتنة بين الفريقين، فكانت تملأ ما بين خراسان والعراق واضطرب أهل مرو لذلك اضطراباً فظيعاً، وفتحت باب المشاقة، وتعلق أهل الرأي بأهل الحديث وساروا إلى باب السلطان إلى آخر ما وصفه السبكي[2] في الطبقات.

والشيخ عبد العزيز بن الخزاعي كان من أكابر المالكية، فلما قدم الإمام الشافعي بغداد تبعه وقرأ عليه كتبه ونشر علمه، والشيخ محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٢٦٨هـ كان على مذهب الإمام مالك فلما قدم الشافعي إلى مصر انتقل إلى مذهبه ثم رجع، وأبو جعفر بن نصر الترمذي سنة ٢٩٥هـ رأس الشافعية بالعراق كان حنفياً فلما حج انتقل إلى مذهب الشافعي، وأبو جعفر الطحاوي كان شافعياً وتفقه على خاله المزني ثم تحول حنفياً بعد ذلك، والخطيب البغدادي الحافظ المتوفى سنة ٤٩٣هـ كان حنبلياً ثم صار شافعياً، وابن فارس صاحب كتاب المجمل في اللغة، كان شافعياً تبعاً لوالده ثم انتقل إلى مذهب مالك، والسيف الأمدي الأصولي المشهور المتوفى سنة ٦٣١هـ كان حنبلياً ثم تحول إلى مذهب الشافعي، والشيخ محمد بن الدهان النحوي المتوفى سنة ٥٩٠هـ كان حنبلياً ثم انتقل إلى مذهب الشافعي ثم تحول حنفياً حينما طلب الخليفة نحوياً يعلم ولده النحو ثم تحول شافعياً، والشيخ تقي الدين محمد بن علي بن دقيق العيد كان أولاً مالكياً ثم تحول إلى مذهب الشافعي وكل هؤلاء امتحنوا وعذبوا من قبل أنصار المذهب الذي يتحولون منه وأمثالهم كثيرون.

وقد طغت موجة التعصب حتى أصبح التكتم بالمذهب لازماً. يقول أبو بكر محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ٥٣٥هـ وكان حنبلياً:

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة ... سن ومال ما استطعت ومذهب

---

(١) انظر الدين الخالص ج٣ ص٣٥٥.

(٢) طبقات الشافعية ج٣ ص٢٢.

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بمكفر وبحاسد ومكذب

ويعطينا الزمخشري صورة واضحة من صور الخلاف وشدة التطاحن بين المذاهب وطعن البعض على البعض بقوله:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به وأكتمه كتمانه لي أسلم
فإن حنفياً قلت قالوا بأنني أبيح الطلى وهو الشراب المحرم
وإن شافعياً قلت قالوا بأنني أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن مالكياً قلت قالوا بأنني أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه يقولون تيس ليس يدري ويفهم[(١)]

محنة خلق القرآن:

هذا عرض موجز لحركات التعصب الطائفي الذي تسترت به السلطة الحاكمة من وراء تلك الحوادث، لتوقع الفرقة في صفوف المسلمين، فتصل إلى غاياتها، ويشق علينا ذكر أمثال هذه الحوادث المؤلمة، وقد ذكرنا بعضها استطراداً في البحث لإظهار حقيقة يلزمنا إظهارها نصرة للحق، ورداً للباطل وتكذيباً لما يدعيه البعض كالاسفراييني وغيره من اتفاق المذاهب وعدم حصول أي خلاف بينهم ولم يحصل بينهم شقاق وتطاحن، ولم يكفر بعضهم بعضاً، مستدلين بذلك على صحة مبادئهم وبطلان مذهب الشيعة وفساد عقائدهم بحصول الخلاف فيما بينهم، وتكفير بعضهم بعضاً، ونحن لا نستغرب من الاسفراييني هذه الدعوة الباطلة فكم له في كتابه من غرائب وافتعالات على سائر فرق المسلمين بدون دليل، بل هو تقول بالباطل ورجم بالغيب، وإليك قوله:

الفصل الثاني من هذا الباب في طريق تحقيق النجاة لأهل السنة، والجماعة في العاقبة.

منها ان أهل السنة مجتمعون فيما بينهم لا يكفر بعضهم بعضاً وليس بينهم خلاف يوجب التبري والتكفير فهم إذاً أهل الجماعة. قائمون بالحق والله تعالى يحفظ الحق وأهله كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] قال

(١) الكشاف ج٢ ص٤٩٨.

المفسرون: أراد به الحفظ عن التناقض، وما من فريق من فرق المخالفين إلا وفيما بينهم تكفر وتبري، يكفر بعضهم بعضاً. كما ذكرنا من الخوارج والروافض والقدرية، حتى اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضاً، وكانوا بمنزلة اليهود والنصارى حين كفر بعضهم بعضاً حتى قالت اليهود: «ليست النصارى على شيء»، وقالت النصارى: «ليست اليهود على الشيء». هذا ما يقوله بل يتقوله الاسفرائيني وكم له من تقول وافتعال، ولا أدري أخفي على الاسفرائيني أمر تلك الحوادث التي مر ذكرها فيذهب إلى هذا الرأي؟ أم نسي محنة القول بخلق القرآن، وما حدث من ورائها من تكفير البعض للبعض؟ فقد ذهب أحمد بن حنبل إلى تكفير من يقول بخلق القرآن، ويقول أبو عبد الله محمد بن يحيى الذهلي المتوفى سنة ٢٥٥هـ: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، وبانت منه امرأته، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ومن وقف وقال لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ولا يدفن في مقابر المسلمين، على أن أحمد بن حنبل لم يقبل توبة التائب، وكان لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن، ولم يصل على أحد منهم، وكان يرتب عليهم أحكام الكفار، وشاع التكفير حتى عند النساء، يحدثنا الخطيب: أن امرأة تقدمت إلى قاضي الشرقية عبد الله بن محمد الحنفي، فقالت: إن زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين في القرآن، ففرق بيني وبينه[(١)].

واتسع الخلاف بين المسلمين، من تكفير البعض للبعض، فطائفة تقول: إن من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر، وعليه ابن أبي دؤاد وجماعته، حتى أن الواثق استفك من الروم أربعة آلاف من الأسارى، ولكنه اشترط أن من قال القرآن مخلوق يخلى من الأسر، ويعطى دينارين[(٢)] ومن امتنع عن ذلك فيترك في الأسر ولا يفك، بمعنى أنه رتب آثار الكفر على من لم يقل بخلق القرآن.

ولما قدم أحمد بن نصر إليه قال له الواثق: ما تقول في القرآن؟ وكان أحمد ممن يذهب إلى أن القرآن غير مخلوق فقال: كلام الله، وأصر على رأيه غير متلعثم فقال بعض الحاضرين: هو حلال الدم، وقال ابن أبي دؤاد: هو شيخ مختل لعل به

---

(١) تاريخ بغداد ج١٠ ص٧٤.

(٢) طبقات الشافعية ج٣ ص٢٢ وتاريخ اليعقوبي ج٣ ص١٩٤.

عاهة أو تغير عقله، يؤخر أمره ويستتاب، فقال الواثق ما أراه إلا داعياً للكفرة، ثم دعى بالصمصامة فقال: إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعرفه، ثم أمر بالنطع فأجلس عليه وهو مقيد، وأمر أن يشد رأسه بحبل، وأمرهم أن يمدوه، ومشى إليه برجله وضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد(١).

هذا بعض ما حل بالمسلمين من عوامل الفرقة، وحوادث الشغب بين معتنقي المذاهب الأربعة، مما يبعث على الأسف الشديد، لما حل بالأمة من التفكك والتحيز، الأمر الذي جعل المتدخلين في صفوف المسلمين ينفذون خططهم، ويحققون أهدافهم في تفريق كلمة المسلمين وصدع وحدتهم.

ولم نقصد بهذا العرض إلا إعطاء صورة عن الحوادث التي لا يزال أثرها في تاريخ الأمة الإسلامية من أكبر عوامل التأخر والانحطاط.

بين السنة والشيعة:

وإذا أردنا أن نولي وجوهنا شطر الحوادث التي حدثت بين المسلمين: السنة والشيعة. فإن ذلك أدهى وأمر، وأشد وقعاً، وأعظم خطراً.

لقد وقعت بين السنة والشيعة حوادث مؤلمة أدت إلى إثارة نيران الفتن، وإراقة الدماء، وحرق المساكن.

وليس بودنا أن نذكر هنا كل ما حدث من خلاف بين هاتين الطائفتين في أمور لو طرحت على بساط البحث والمناقشة العلمية لزال كل شيء، وكان الحكم للحق وحده، والحق أحق أن يتبع.

لأن الخلاف كان لا يتعدى حدود النزاع في مسألة الإمامة وغيرها من المسائل التي حدث الخلاف بين الطائفتين فيها، ثم تطور الوضع إلى تحزب ضد الشيعة، واتجاه معاكس، فحاكوا لهم التهم وحملوا عليهم بكل ما هو شائن من دون التفات إلى حق العلم، أو خضوع للحق.

ويطول بنا الحديث حول ذلك هنا، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد، والشيء

---

(١) شذرات الذهب ج٢ ص٦٧ وتاريخ الخطيب ج٥ ص١٧٧.

الذي نود أن نشير إليه هو: أن الأمر بلغ أشده حتى أدى إلى ثورات دموية مؤسفة، وفتن ذهب تحت هياجها خلق كثير، ولعل من أعظم ذلك يوم كان الشيعة يقومون بإقامة شعائرهم الدينية كيوم عاشوراء، ويوم الغدير، فإن ذلك يدعو إلى الإنكار من إخوانهم السنيين، بدعوى أن النياحة وإقامة الزينة يوم الغدير بدعة.

وكان يصحب هذا الإنكار اعتداء أدى إلى إراقة الدماء بين الفريقين وقتل خلق كثير(١).

ومع هذا فإن السنة قاموا بما قامت به الشيعة من النياحة على مصعب بن الزبير مقابلة للحسين، وأقاموا الزينة يوم الغار مقابل يوم الغدير وقد مرت الإشارة لذلك(٢).

كما انهم أقاموا النياحة على كثير من الناس، وقد رأوا أن ذلك من الأمور المستحسنة، حتى قال محمد بن يحيى النيسابوري ـ حين بلغه موت أحمد بن حنبل ـ: ينبغي لأهل كل دار في بغداد أن يقيموا على أحمد بن حنبل النياحة في دورهم(٣).

وأقيمت النياحة على أحمد بن حنبل وعظم الحزن عليه، ولازموا قبره مدة من الزمن، إظهاراً للتفجع، وأقيمت مجالس العزاء عليه، كما أقيمت النياحة على غيره من الرجال وللمثال نذكر بعضاً من ذلك:

يموت أبو الفتح إسماعيل بن السلطان محمود سنة ٥٦٧هـ فتقام عليه المآتم ويناح عليه نوح الثكلى، ويكثر البكاء في الطريق، وتفرش بالرماد إظهاراً للحزن، وتعظيماً للمصاب(٤).

ويموت ابن تيمية سنة ٧٢٨هـ فتحضر جنازته خمسون ألف امرأة ينحن عليه، ومائتا ألف رجل يرفعون أصواتهم بالتكبير مزيجاً بالبكاء والعويل، ولما غسل جمع ماء غسله فشربوه تبركاً به، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به تبركاً، ودفع بالطاقية التي على رأسه خمس مائة درهم، والخيط الذي في رقبته فيه الزئبق لدفع القمل دفع فيه مائة وخمسون ديناراً، وسارت جنازته بين الضجيج والبكاء، والمنادي

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١١ ـ ٢٣٥.

(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ـ انظر فصل: عناية الشيعة بيوم الغدير ص٩٤.

(٣) طبقات الحنابلة ٢ ـ ٥١.

(٤) شذرات الذهب ج٦ ص١١٢.

أمامه ينادي هكذا تكون جنائز أهل السنة، ولما وضع على المغتسل دخل الرجال عليه يقبلونه وينوحون عليه، ثم أذن للنساء ففعلن مثل ذلك[١] وأقيمت عليه المآتم ودامت النياحة ورثاه خلق كثير منهم شمس الدين الذهبي وغيره[٢].

ويموت أحمد بن السلطان ملك شاه سنة ٤٨١هـ فيمكث الناس ينوحون عليه سبعة أيام ولم يركب أحد فرساً والنساء ينحن عليه في الأسواق، وسوّد أهل البلاد أبوابهم.

ويموت شيخ الحرمين فتطوف تلامذته في الشوارع ينوحون عليه نوح النساء وكسروا المحابر وأقاموا النياحة عليه سنة كاملة[٣].

وأبو عمر الحنبلي المتوفى سنة ٦٠٧هـ يعظم عليه البكاء والعويل ويتناوحون عليه رجالاً ونساء، وغسل في المسجد، ونشف ماء غسله بخمر النساء، وعمائم الرجال ـ للتبرك طبعاً ـ ويتسابقون إلى تمزيق كفنه يتبركون به، وكادت تبدو عورته، لولا محافظة الدولة على كرامته. فدفعت الناس عنه بالسيف. قال ابن العماد: ولولا الدولة لما وصل من كفنه إلى قبره شيء[٤].

وتخرج النساء يوم وفاة المسترشد العباسي سنة ٥٢٩هـ ينحن عليه ويلطمن وهن منشرات الشعور ينشدن المراثي في الطرقات، أما الرجال فشاركوهن بالنياحة وزادوا بأن شقوا الثياب عليه[٥].

وغير هؤلاء ممن يطول بنا الحديث عنهم وما حدث من مظاهر الحزن والأسى يوم وفاتهم وبعده. والعزاء أو البكاء من الحالات الإنسانية التي تظهر العطف وتبين ما في دواخل المرء من مشاعر وهي تتناسب عكسياً مع القسوة والغلظة، وإنما تناولنا مظاهرها في خلال الفترة التاريخية التي أصبح فيها القضاء والفتوى تبعاً لأهواء الحكّام الذين يسمحون بذلك لأن المتوفين لا يمثلون في شخصياتهم رموزاً تهدد أركان

---

(١) تاريخ ابن كثير ج١٤ ص١٣٨.
(٢) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية ص٣٩٩.
(٣) طبقات الشافعية ج٣ ص٢٥٩.
(٤) شذرات الذهب ج٣ ص٣٠.
(٥) تاريخ دول الإسلام للذهبي ج١ ص١٨٢.

نظامهم كالإمام الحسين أو الإمام الصادق أو الإمام الكاظم الذي ترك جثمانه الطاهر على رأس الجسر ومنادي السلطة ينادي بذاك النداء المعروف؟ ولا مانع أن تقابل البدع ببدع أخرى ـ كما يرى الحكّام ـ لأن أساس الاتهام واهٍ، فلو كان قطيعاً أو حتى ظنياً لكان على هؤلاء أن يتوقفوا عند المنع.

ويكفي ما تضمّنه الروايات من صور لعاطفة النبي محمد ﷺ وهو يبكي عمه حمزة، منها: ما رواه الواقدي عندما جاءته صفية فجلست عنده فجعلت إذا بكت يبكي ﷺ وفاطمة الزهراء عليها السلام تبكي، فلما بكت بكى رسول الله ﷺ.

أو ما رواه البخاري أنه ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم اتبعها بأخرى فقال ﷺ: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

وأيضاً عن أنس بن مالك قال: شهدنا بنتاً لرسول الله ﷺ تدفن ورسول الله ﷺ جالس عند القبر، قال: فرأيت عينيه تدمعان.

ولما استشهد جعفر بن أبي طالب، أتى رسول الله ﷺ أسماء فقال: أخرجي لي ولد جعفر، فخرجوا إليه فضمهم إليه وشمهم ودمعت عيناه.

وروي عن الإمام الصادق قوله: «إن زين العابدين عليه السلام بكى على أبيه أربعين سنة، صائماً نهاره، وقائماً ليله فإذا حضره الإفطار جاءه غلامه بطعامه وشرابه، فيضعه بين يديه، ويقول: كل يا مولاي، فيقول: قتل ابن رسول الله جائعاً، قتل ابن رسول الله عطشاناً، ولا يزال يكرر ذلك ويبكي، حتى يبل طعامه من دموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل».

ونحن إذا نظرنا إلى أسباب تلك المؤاخذات التي تؤاخذ بها الشيعة واستوجبت حدوث تلك الحوادث، نجد الأسباب تعود إلى متابعة أغراض السلطة، حتى تحكم العداء للشيعة وأصبح الابتعاد عن تهمة التشيع، أمر لازم حتى حرّموا التشبه بهم.

ذكر الزرقاني في المواهب اللدنية في صفة عمة النبي ﷺ على رواية علي عليه السلام في إسدالها على منكبه حين عممه رسول الله ﷺ ثم ذكر قول الحافظ العراقي ان ذلك أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية فينبغي تجنبه لترك التشبه بهم.

فهذا الشيخ يفتي بترك التشبه بالشيعة في اتخاذ العمة التي كان رسول الله يلبسها، وهذا شاهد من آلاف الشواهد التي عامل بها رجال أولئك العصر شيعة آل محمد.

وعبروا أن من المصلحة أن يمنع المصلي عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه من أرض وغيرها، لأن ذلك الاختصاص من شعار الشيعة.

ولا غرابة فإن تهمة التشيع تدعو لسخط الدولة، وهل وراء ذلك إلا إزهاق الأرواح، ونهب الأموال أو السجن أو التبعيد؟ لذلك التجأ الأكثر إلى التظاهر في الوقيعة بهم فأدى الأمر إلى التباعد عنهم والحذر من تهمة التشيع حتى في الرؤيا.

يحدثنا الخطيب البغدادي: أن رجلاً رأى علياً عليه السلام في المنام فلم يجسر على الدنو منه فسأله صاحبه فقال: أخشى إن قربت إليه أسأله أن أتهم بالتشيع.

هكذا أرادت السلطة الجائرة، تفريق كلمة المسلمين، وإيقاد نار العداء فيما بينهم، لغايات تعود لمصالحهم الخاصة، ورغبات في نفوسهم، لا تنال مع الوحدة والاتحاد، وتبادل الثقة والاخاء.

وكان في الأمة رجال يدعون إلى الحق، وينبهونهم على هذه الأخطاء ولكن جهودهم لم تثمر كثير فائدة، لأن الفوضى تحكمت في المجتمع، ودبت روح الاختلاف في النفوس، وطغت موجة التعصب، حتى كانت عاقبة ذلك الجهل أن سلط عليهم أعداء لا يعرفون الرحمة، فألبسوهم الذل، وحكموا فيهم السيف، وسقوا من دمائهم الأرض، وأقاموا من رؤوسهم تلالاً، فتمكن من قلوب المسلمين الرعب، وسلبت منهم تلك القوة والشجاعة، والتفاني في سبيل نشر كلمة التوحيد، يوم ساروا تحت راية الإسلام، وهم يستهينون بالحياة، ويستقبلون الموت، ويتمنون الشهادة، حتى أخضعوا جبابرة الأرض ودانت لهم البلاد.

وإذا بهم بعد تلك العزة، يستولي عليهم الذل، ويدخل في قلوبهم الرعب، ولا يدافعون عن أنفسهم، فكان الرجل الواحد من التتر يقتل جماعة من المسلمين الواحد بعد الآخر.

ودخلت امرأة داراً وقتلت جماعة من أهلها، ولم يدفعوها عن أنفسهم، ودخل واحد منهم درباً فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم، ولم تمد إليه يد بسوء.

وأخذ رجل من التتر رجلاً من المسلمين ولم يجد ما يقتله فيه، فقال له: ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح، فوضع رأسه وبقي نائماً حتى جاء التتري وقتله[1].

وهذا ما يذهب بنفس المسلم حسرات ويميت قلبه أسفاً وحزناً، وها نحن اليوم أمام تيار المبادىء الفاسدة، والآراء الهدامة، والعقائد السخيفة، وإن خطرها على المسلمين لأعظم خطر يخاف عاقبته، وتخشى مغبته إن لم ينهج المسلمون لمكافحتها منهج فهم التعاليم الإسلامية والقيام بتطبيقها عملياً، وأن يتحدوا لإبعاد المتدخلين بين صفوف المسلمين، لهدم المجتمع الإسلامي، وتشويه تعاليمه الدينية والأخلاقية، واستبدالها بتعاليم إباحية، ولا يدفع ذلك الخطر إلا باتحاد الكلمة وفهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأن تُستقى تعاليمه من ينبوعه الذي أراد الله أن نأخذ منه ونتبع قول الحق، وأئمة الصدق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

انتشار المذاهب الأربعة في الأقطار الإسلامية:

اشتهر الأخذ بالمذاهب الأربعة وانتشر العمل بها في الأقطار الإسلامية، فهي في القرن الرابع الهجري قد تغلبت على ما سواها من المذاهب المعمول بها في القرن الثاني والثالث، ما عدا المذهب الشيعي فإنه سار بقوته الروحية رغم العقبات التي وقفت في طريقه، ويحدثنا المقدسي عن انتشار المذاهب في القرن الرابع بما يلي:

سواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وجهر وصعده شيعة. والغالب على صنعاء أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم، وفي نواحي نجد واليمن مذهب سفيان. وفي العراق الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة، وبه مالكية وأشعرية، وبالكوفة الشيعة إلا الكناسة فإنها سنة، وأكثر أهل البصرة قدرية و(شيعة) وثم حنابلة، وببغداد غالية يفرطون بحب معاوية. وهنا يحدثنا المقدسي عن دخوله جامع واسط واستماعه لقصاص يقص على الناس حديثاً عن النبي ﷺ: ان الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ثم يجلوه على الخلائق كالعروس، قال المقدسي فقلت له: بماذا؟ بمحاربته علياً رضي الله عنه؟ كذبت يا

(١) المد والجزر لأبي الحسن المناوي ص٣٧.

ضال، فصاح: خذوا هذا الرافضي، فاقبل الناس عليّ، فعرفني بعض الكتبة فكركرهم عني.

إقليم اقور وهو اليوم شمال العراق ـ أي الموصل ونواحيها ـ مذهبهم سنة وجماعة، إلا عانه فإنها كثيرة المعتزلة ولا ترى في الرأي غير مذهب أبي حنيفة والشافعي، وفيها حنابلة وجلبة للشيعة، وإقليم الشام مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة ولا ترى فيه مالكياً، والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث.

إقليم مصر على مذهب أهل الشام، غير أن أكثر فقهائهم مالكيون ألا ترى أنهم يصلون قدام الإمام ويربون الكلاب؟ وأعلى القصبة شيعة وسائر المذاهب في الفسطاط موجودة ظاهرية.

وإقليم المغرب: فالمذاهب على ثلاثة أقسام، وأما في الأندلس فمذهب مالك، وقراءة نافع، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك، فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه، وبسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي إلا مذهب أبي حنيفة ومالك، وأصحاب مالك يكرهون الشافعي، يقولون أخذ العلم عن مالك ثم خالفه.

إقليم جانب خراسان للشيعة والمعتزلة والغلبة لأصحاب أبي حنيفة إلا في كورة الشاش فإنهم شوافع، وفيهم قوم على مذهب عبد الله السرخسي.

وإقليم الرحاب مذاهبهم مستقيمة، إلا أن أهل الحديث حنابلة، والغالب بدبيل مذهب أبي حنيفة.

وإقليم الجبال اما بالري فمذاهبهم مختلفة، فالغلبة للحنفية وهم نجارية، وبالري حنابلة كثيرة، وأهل قم شيعة، وفي الدينور جلبة لمذهب سفيان الثوري.

إقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة، أكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة، ونصف الأهواز شيعة، وبه من أصحاب أبي حنيفة كثير ولهم فقهاء وبالأهواز مالكيون.

إقليم فارس، العمل فيه على أصحاب الحديث، وأصحاب أبي حنيفة، وللداودية دروس ومجالس وغلبة، ويتقلدون القضاء والأعمال.

إقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي.

إقليم السند: مذاهبهم أكثرها أصحاب حديث. ورأيت القاضي أبا محمد المنصور داودياً إماماً في مذهبه. وأهل الملتان «شيعة يحيعلون في الأذان ويثنون في الإقامة» ولا تخلوا القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة وليس بهم مالكية، ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة(١).

انتشارها في الوقت الحاضر:

أما إحصائيات المذاهب الأربعة في الوقت الحاضر، وانتشارها في البلاد الإسلامية فيحدثنا عن ذلك العلامة أحمد تيمور(٢) بما يلي:

المغرب الأقصى يغلب عليه الآن المذهب المالكي. وعلى الجزائر وتونس أيضاً.

«طرابلس» المذهب المالكي بكثرة، والحنفي بقلة. وهم من بقايا الأسر التركية، وأكثرهم في تونس، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها، ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركاً للقضاء المالكي، وأما سائر أعمالها: فقضاتها مالكية، وفي الحاضرة كبير المفتين الحنفي ويلقب بشيخ الإسلام وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع، والمالكي وله المقام الثاني، وقد تساهلوا الآن في تلقيبه بشيخ الإسلام أيضاً. ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفي فإن من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسي جامع الزيتونة حنفية، والنصف الآخر مالكية. وإنما امتاز الحنفي بذلك لكونه مذهب الأسرة المالكة.

«مصر»: الشافعي والمالكي ويغلب الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان، ويكثر الحنفي وهو مذهب الدولة، والمتبع في الفتوى والقضاء، والحنبلي قليل بل نادر.

«الشام»: الحنفي يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية، والربع الآخر حنابلة.

---

(١) أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشاري طبع سنة ١٩٠٩م بمطبعة بريل.
(٢) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص٤٢.

«فلسطين»: يغلب على مذاهب أهل السنة فيه الشافعي، ويليه الحنبلي فالحنفي، فالمالكي.

«العراق»: يغلب الحنفي فيه على مذاهب أهل السنة، ويليه الشافعي وبه مالكية وحنابلة.

«الترك»: العثمانيون والألبان وسكان بلاد البلقان المذهب الحنفي.

«الأكراد»: المذهب الشافعي وهو الغالب على بلاد أرمينية لأن مسلميها من أصل تركماني أو كردي، والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية.

«الأفغان»: المذهب الحنفي والشافعي، والحنبلي بقلة.

«تركستان الغربية»: التي منها بخارى المذهب الحنفي، وأما تركستان الشرقية فكان الغالب عليها الشافعي، ثم تغلب الحنفي بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى القفقاز وما والاها الحنفي وفيهم شافعية.

«الهند»: الحنفي والشافعي بقلة، وفيها مذاهب أخرى.

«الهند الصينية»: شافعية وكذلك مسلمو استرالية، وفي البرازيل من أمريكا نحو ٢٥ ألف مسلم حنفية.

«أمريكا»: فيها من المسلمين عدد ينوف على ١٤٠ ألفاً وهم مختلفو المذاهب.

«الحجاز»: الشافعي والحنبلي وفيه حنفية ومالكية في المدن وأهل عسير شافعية.

«اليمن»: السنيون فيها وفي عدن، وحضرموت شافعية، وقد يوجد بنواحي عدن حنفية والغالب على عمان الاباضية، ولكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية.

«قطر والبحرين»: المالكي وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد.

«الاحساء»: الغالب على أهل السنة فيها الحنبلي والمالكي.

«الكويت»: المالكي.

هذا ما ذكره العلامة أحمد تيمور باشا عن المذاهب الأربعة وانتشارها، ولم يتعرض لانتشار المذهب الشيعي في الأقطار الإسلامية في العصر الحاضر، وسنشير لانتشار المذهب الشيعي في الأقطار الإسلامية بعد عرضنا لتاريخ المذهب ونشأته.

ولا بد من ملاحظة عامل الزمن والتغيرات السياسية. كما لا يعني أن تقسيمات تيمور وإحصاءاته هي من الدقة بحيث لا تقبل الإذ افة في الأسماء أو الزيادة في العدد، لأن تيمور لم يذكر الشعية ونرجو أن يكون ذلك لا يخفي غرضاً ينافي العلم ويمجّه الذوق، كما أن من السهولة الانتباه إلى نقص في تسمية المذاهب الغالبة الموجودة كما هو الأمر في الجزيرة والخليج.

وكما قلنا سابقاً إن هذه المذاهب قد لقيت تشجيعاً من السلطة وتعددت عوامل انتشارها، وكان من أهمها إنشاء المدارس لها مما يدعو إلى الإقبال عليها ولنشر هنا إلى بعض تلك المعاهد التي أنشأت لدراسة فقه المذاهب الأربعة خاصة.

مدارسها في الأقطار الإسلامية:

كانت بغداد في العهد العباسي ربوعاً عامرة أنشئت فيها دور للعلم، وبنيت مدارس لتعلم الفقه الإسلامي على المذاهب الأربعة، وأجريت على طلاب العلم منهم نفقات طائلة، وقد أنفق نظام الملك عليهم في كل سنة ما يبلغ ستمائة ألف دينار، وكان أبو الحسن علي بن محمد وزير المقتدر العباسي يقوم بنفقات خمسة آلاف طالب منهم، وبذلك أصبحت بغداد دار هجرة يؤمها طلاب العلم من كل ناحية وصوب، وأهم تلك المدارس هي:

١ ـ النظامية: التي أنشأها نظام الملك الطوسي على شاطىء دجلة سنة ٤٥٧هـ وبنى حولها أسواقاً وجعلها وقفاً عليها، مع كثير من الضياع والخانات والحمامات.

٢ ـ التاجية: وقد بنيت سنة ٤٨٢هـ بناها تاج الدين أبو الغنائم المتولي لتدبير دولة ملك شاه بعد نظام الملك.

٣ ـ التتوشية: التي بناها خمارتكين خادم تتش بن ألب ارسلان بن داود بن سلجوق، وهي خاصة لأصحاب أبي حنيفة فقط.

٤ ـ باب الازج: بنيت لثقة الدولة أبي الحسن علي بن محمد القزويني.

٥ ـ مدرسة ابن دينار: بنيت لأبي حكيم إبراهيم بن دينار البغدادي الفقيه الشافعي.

٦ ـ مدرسة زيرك أو مدرسة سوق العميد: خاصة للحنفية.

٧ ـ المدرسة الشرابية: أنشأها شرف الدين اقبال الشرابي سنة ٦٢٨ على عهد المستنصر بسوق العجم.

٨ ـ المدرسة البشيرية: أنشئت بالجانب الغربي من بغداد وقد أمرت ببنائها حظية المستعصم وجعلتها وقفاً على المذاهب الأربعة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة.

ولكن أهم تلك المدارس هي المستنصرية التي مرت الإشارة إليها في الأبحاث السابقة وقد وصفها السيوطي[1] وابن بطوطة في رحلته وابن الفوطي[2] وغيرهم. وكانت تعد هذه المدرسة كالجامعة لتخريج العلماء على المذاهب الأربعة في ذلك العصر.

أما في مصر فكان مجموع المدارس التي أنشئت للمذاهب الأربعة لا يقل عددها عن تسعين مدرسة، وإليك ذكر البعض منها:

١ ـ المدرسة الفائزية: أنشأها شرف الدين بن صاعد سنة ٦٣٦هـ وهي خاصة للشافعية.

٢ ـ المدرسة القطبية: أنشئت سنة ٥٧٠هـ انشأها الأمير قطب الدين خسرو وهي للشافعية.

٣ ـ المدرسة السيوفية: أنشئت سنة ٥٧٢هـ وهي للحنفية أنشأها الملك الناصر صلاح الدين أيوب وأوقف على مستحقيها ٣٢ حانوتاً.

٤ ـ المدرسة الفاضلية: أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم سنة ٥٨٠هـ وجعلها لفقهاء الشافعية والمالكية.

٥ ـ مدرسة المحلى: أنشأها برهان الدين إبراهيم بن علي المحلى.

٦ ـ المدرسة الفارقانية: أنشئت سنة ٦٧٦هـ وهي للشافعية والحنفية.

٧ ـ المدرسة الشريفية: أنشأها أحد أمراء مصر في الدولة الأيوبية سنة ٦١٢هـ وهي للشافعية.

---

(١) تاريخ الخلفاء ص١٨٥ ط بولاق.

(٢) الحوادث الجامعة ص٥٣.

٨ ـ المدرسة الصالحية: أنشأها الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ للفقهاء الأربعة.

٩ ـ المدرسة الكاملية: أنشأها السلطان ناصر الدين محمد بن الملك العادل للشافعية.

١٠ ـ المدرسة الظاهرية: للشافعية والحنفية.

١١ ـ المدرسة القطبية: أنشئت في القرن السابع بوصية من الست عصمة مونسة خاتون[١].

ولا يسعنا ذكر بقية المدارس التي أنشئت في سائر الأقطار الإسلامية للمذاهب الأربعة، ونكتفي بهذه الإشارة إلى عظيم تشجيع الدولة والأمراء في تلك العصور لنشر العلم طبقاً للمذاهب الأربعة فقط، ليلتزم الناس التمسك بها دون غيرها.

أما مذهب أهل البيت وهو المذهب الجعفري فلم يلق تشجيعاً من دولة أو تأييداً من سلطة، بل كان عرضة لمقاومة السلطة، وهدفاً لسهام الاتهام بكل ما لا يليق به، وقد صمد المذهب أمام تلك الحوادث متمسكاً بمبادىء أهل البيت ممتثلاً وصايا رسول الله ﷺ في آله حتى انتشر على وجه البسيطة بقوته الروحية والآن نتحدث عنه باختصار.

(١) الخطط للمقريزي ج٤ من ص١٩١ إلى ٢٦٢.

المذهب الجعفري
نشأته وعوامل انتشاره

مذهب أهل البيت:

هو مذهب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وهو أقدم المذاهب نشأة وأقواها عاملاً، يستمد تعاليمه من الينبوع الإسلامي الفياض: القرآن الكريم وسنة نبيه، وقد غرس النبي ﷺ بذرته ووجه الناس إليه بتعاليمه وإرشاداته، وعمل به في زمن الصحابة، وقام بنشره جماعة منهم كأبي ذر الغفاري، وسلمان والمقداد، وعمار بن ياسر وغيرهم كما يأتي بيانه.

واختصاصه بالإمام الصادق للأسباب التي مر ذكرها عند حصول تلك الفترة بين شيخوخة الدولة الأموية، وطفولة الدولة العباسية، وفيها اتسع المجال للإمام الصادق عليه السلام لنشر العلم وبث الأحكام الإلهية، ونشر التعاليم النبوية التي استقاها عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ، عند رفع تلك الرقابة التي جعلها الأمويون للحيلولة بين الأمة وبين أهل البيت، فاشتهر في ذلك العصر ذكر جعفر بن محمد واتسعت أمامه حرية القول، وحرية النقض والإبرام في شأن الحقائق الدينية من جهة، والمشتبهات والموضوعات على غير أساس صحيح من الأحاديث والسنة من جهة أخرى، وازدحم طلاب العلم على أبواب مدرسته، وكثرت الهجرة إليها، فنسب المذهب إليه في عهد ازدهار العلم، لأن كل ما ذهب الإمام الصادق إلى تصويبه والوثوق بصحته من الأحكام أصبح بجملته يسمى (مذهب جعفر الصادق عليه السلام).

ولم يكن المذهب الجعفري كسائر المذاهب الإسلامية في تطور نشأته وعوامل انتشاره، بل امتاز باستقلاله عن مقومات المادة ومؤازرة السلطة، واستطاع بمؤهلاته الذاتية إخضاع الزمن، واجتياز العقبات التي تقف في طريق نشره.

ولولا فيض من القدسية في مبادئه، وقوة روحية في تعاليمه، وعناية قبل كل شيء من الخالق الحكيم رحمة بهذا الخلق المتعوس، لقضت عليه السلطات بمحاولتها القضاء عليه ولكن ذهبت تلك المحاولات ضد المذهب دون جدوى، فكان نصيبها الفشل ونصيبه النجاح.

وقد اتضح لنا بالبحث عن المذاهب الإسلامية ودراساتنا للظروف التي تكونت فيها، والعوامل الرئيسية لنشر البعض وخمول البعض الآخر، إنما هو لتدخل السلطة التنفيذية، فقد أخذت على عاتقها نشر ما ترتضيه منها، ومعارضة المذهب الذي لا يروق لها نشره، وكانت الأسباب التي أدت إلى محو تلك المذاهب البائدة بعد شهرتها بين المسلمين هي عدم المؤازرة والترغيب من قبل الدولة، كما مرت الإشارة إليه.

العداء لأهل البيت:

أما مذهب أهل البيت فقد بذلت السلطات كل إمكانياتها لعرقلة نشره واتساع دائرة أتباعه، وكان لكل دولة غايات تعمل على تحقيقها في مقابلة أهل البيت، والوقوف في طريق انتشار مذهبهم في البلاد الإسلامية، أما الدولة الأموية فكانت مدفوعة للمعارضة بأمور ثلاثة:

١ ـ العداء للبيت النبوي عداء ذاتياً متأصلاً، توارثه الأبناء عن الآباء ولم يغير الإسلام من وجهة نظرهم هذه أي شيء، بل يزداد حقدهم كلما زاد انتشار الإسلام بالصورة التي أرغمتهم على الدخول فيه استسلاماً لقوته.

٢ ـ إن مذهب أهل البيت بانتشاره في عهدهم وعدم معارضتهم له، معناه الضربة القاضية على الدولة، للتفاوت العظيم بين سياسة أهل البيت وسياسة الأمويين في إشاعة العدل والمساواة بين الطبقات، ونشر التعاليم الإسلامية.

٣ ـ إنهم بدون شك لا يجهلون أنفسهم ومؤهلاتها للخلافة الإسلامية ويعرفون الأمة واتجاه أنظارها لآل محمد ﷺ ولا توجد أي نسبة بين الأمويين وبين أهل البيت، فإذا تركوا الأمور تسير بمجراها الطبيعي يوشك أن يتأخر فوز الأمويين بالخلافة (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وهم يعلمون هذا فاتخذوا تلك التدابير لنجاح أمرهم وإن كان في ذلك تأخر المسلمين عن التقدم السريع حيناً من الدهر.

معارضة معاوية

وعلى أي حال فقد واجه محبو علي عليه السلام وأنصاره في عهد معاوية أنواع الأذى وضروب المحن، وقد استعمل شتى الوسائل في معاقبتهم ومنع الناس من الرواية عن علي عليه السلام فكان المحدثون يكنون عنه بأبي زينب خشية العقوبة من التصريح باسمه عليه السلام.

ويصور لنا اهتمام معاوية في محو ذكر علي عليه السلام ولاية زياد على الكوفة، وتتبعه لشيعة علي عليه السلام تحت كل حجرومدر، حتى حملهم على البراءة من علي عليه السلام، ولنا في قتل حجر بن عدي وأصحابه رحمهم الله أكبر دليل على ذلك كما سنبينه قريباً.

ولا نطيل الحديث حول الجهود التي بذلها معاوية في الوصول لتلك الغاية ولكنها أتعاب لم تثمر الفائدة التي كان يسعى لتحصيلها.

فقد انتشر مذهب أهل البيت في عاصمة الأمويين على عهده وازداد انتشاره على ممر العصور، وإن أول من نشر المذهب في الديار الشامية هو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري، فقد قام بدوره في نشر تعاليم الإسلام، وإظهار الإنكار على معاوية لسوء سيرته، وتصرفه بأمور الأمة بما لا يتفق ونظم الإسلام، فاستغاث معاوية بالخليفة عثمان لإخراج أبي ذر من الشام ليصفو له الجو، فكان نصيب أبي ذر التبعيد عن دار الهجرة، وموته وحيداً بالربذة.

ولم يقض معاوية على تلك الحركة الإصلاحية التي قام بها أبو ذر، بل توسعت بصورة أرغمته على إثارة العصبية بين القبائل، وبث روح التفرقة بين الناس، وبذل كل ما في وسعه في مقابلة علي وأنصاره كما تقدم.

وتقف الكوفة ـ التي هي أهم مراكز الإسلام ويعترف الأمويون بخطرها على الدولة ـ موقف المعارضة والإنكار للأوضاع الشاذة التي ارتكبها ولاة الأمر ويترأس المعارضة الصحابي الجليل حجر بن عدي وخلصاء أصحابه، فقاموا يطالبون بالحق، وينتصرون للعدل، ويتألمون لهجر تعاليم الإسلام والخروج على نظامه المقدس، وينبهون الأمويين على تلك الأخطاء التي ارتكبوها، والمخالفة لأحكام الإسلام بصورة واضحة بما لا مجال للدفاع عنهم.

فكان موقف أمراء الأمويين في الكوفة كالمغيرة بن شعبة موقف تريث وتأنيب واستعمال طرق الإقناع لزعماء هذه الحركة عسى أن يتحولوا عن هذا الرأي، ويسالموا معاوية ويكونوا في جملة المؤيدين لسياسته، ولكن الأمر يزداد شدة يوماً بعد يوم، ويكثر الناقمون وبالأخص عندما أعلن الوالي زياد بن سمية على المنبر إلزام الناس بالبراءة من علي عليه السلام وشتمه، وهم يرون أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو بطل الإسلام وناشر دعوته، وأنه أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأشدهم تمسكاً بسيرته وإحياء سنته.

ولما ولي زياد الكوفة استقر رأيه ورأي معاوية على الوقيعة بهم، فزوروا شهوداً ـ وما أكثرهم في ذلك العهد ـ من الذين استخدمهم معاوية بصلاته فشهدوا على حجر[1] وأصحابه بما يستطيعون أن يردوا بعض الإنكار عنهم، فكانت خاتمة مطاف حياتهم في مرج عذراء بتلك الصورة المؤلمة.

* * *

لقيت الأمة في سبيل الانتصار للحق والانضمام لجانب أهل البيت وهم أهله، أنواع العذاب.

أما أهل البيت أنفسهم فكانوا في الدور الأموي ـ دور الإرهاب والظلم ـ يلاقون المصائب على أيدي تلك الفئة التي تضمر العداء لآل محمد وتحاول القضاء عليهم بكل وسيلة.

وتزلف الناس إليهم، بالعداء لآل محمد ﷺ، وتطوع آخرون بضرب الأحاديث المكذوبة على صاحب الرسالة، استجابة لاقتراح معاوية، واتباعاً لأوامره التي أصدرها بلاطه الجائر، فكانت هناك مجموعة أحاديث كلفت بيت المال مئات الآلاف من الدنانير، وقليلاً ما يبذلون، فإن أولئك الدجالين يبيعونهم دينهم، وإنهم يريدون أن يجعلوا من الفأرة جملاً، ويحاولون إدخال الأسد في البيضة.

---

(١) حجر بن عدي بن معاوية بن جبلة بن الأدبر كان من فضلاء الصحابة ومن شيعة علي (ع) وحضر معه حروبه وكان على كنده يوم صفين، وعلى الميسرة يوم النهروان ـ حمله زياد بأمر معاوية في اثنى عشر رجلاً موثقين في الحديد فقتل معاوية ستة منهم حجر واستحيا ستة وأوصى حجر من حضر من أهله أن لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً فإني ملاق معاوية غداً على الجادة، وكان قتله في مرج عذراء سنة إحدى وخمسين للهجرة.

يريدون أن يجعلوا ممن حارب الإسلام هو وأبوه من قبل شخصية تعترف الأمة الإسلامية بأنها شخصية روحانية طاهرة مطهرة، تمنحه الأمة ثقتها، وتنقاد له بدافع العقيدة وهذا أمر لا يكون.

إنهم يريدون أن يجعلوا لمعاوية حق وراثة النبي ﷺ وتولي سلطانه وهو عدوه الألد، إنهم يريدون أن يجعلوا من أبي سفيان شخصية إسلامية تتفانى في نصرة الدين، وهو لا يجهل أحد حاله.

ومن هذا وذاك فإن قبول مثل هذه الأمور يحتاج إلى قوة تسيطر على العقل، وتطفيء شعلته، ولا يستبعد ما للمال من عوامل مؤثرة، فهي في الواقع أقوى من السيف، ولذلك أصبحت لتلك المفتريات أثرها، وطابعها الخاص، وإذا بمعاوية تحاك له أحاديث المدح، فيصبح (أمين هذه الأمة) وخصماً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حتى عد علي عليه السلام ذلك من أعظم مصائبه فقال: (أنزلني الدهر حتى قيل علي ومعاوية)، وأصبح أبو سفيان بمقتضى تلك الأوضاع المقلوبة مسلماً صحابياً له مكانته ومناقبه.

وأبو طالب مؤمن قريش وناصر الإسلام الأول، وحامي دعوته ومن بذل جهده لنصرة دعوة الحق، وتفانى بالدفاع عن محمد ﷺ بدافع العقيدة والعاطفة وموجات الحق، تردد أناشيده وترسمها على لوحة الخلود:

ولقد علمت بأن دين محمد　　　من خير أديان البرية دينا

وساند النبي ﷺ في دعوته وبذل أقصى جهده في حمايته، وأعز الله جانبه فيه، وألجم أعداءه عن مقابلته، يسمى كافراً ولا ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله، وتذهب أتعابه سدى وتسند إليه كلمة الكفر؟! وما ذلك إلا رغبة لنوال من لا رغبة له إلا أن ينال من علي عليه السلام، ويحاول أن يخمل ذكره، ولا ترضى نفس ابن أبي سفيان أن تكون لعلي تلك السلسلة الطاهرة التي لم تنجسها الجاهلية بأرجاسها، وهو والرسول الأعظم ركيضا رحم ورضيعا لبن.

ومعاوية أعلم بنفسه من هو وابن من، ولكنه تمكن بمكره وخداعه، وجلب ما استطاع بخيله ورجله، في تركيز هذه الفكرة.

وما ذنب أبي طالب ولم يبق في كنانته سهماً إلا رماه في نصرة الدين، ولكن علياً هو سبب تلك المؤاخذات المفتعلة على أبي طالب، وما ذنب علي عليه السلام إلا أنه

على الحق ومعاوية على الباطل، فعداء معاوية لعلي (عداوة جوهرية يستحيل تحويلها. هي عداوة الشر للخير والخبيث للطيب والباطل للحق والكفر للإيمان). وإلا فأبو طالب في الخصال والخلق مثال للحنيفية وتجسيد لقيم إبراهيم الخليل. وأبو سفيان في الخصال مجمع للنقائص التي جاء الإسلام ليحاربها وفي الخلق انعكاس لمجتمع الجاهلية الذي يرتكس في الضلال والغواية.

ولذا أقام معاوية سياسته على النيل من مكانة الإمام علي، واستخدم الوسائل الدينية التي يتبعها والتي ينفذ من خلالها إلى أذهان العامة فعَبّر عن عداء دنيء وأخذ بجعل سمة ملكه وعنوان دينه لعن الإمام العادل وقد وضع لها مكاناً في التاريخ الذي ينوي إقامته لبني أمية في الشام، فصرح أن ستكون هذه السياسة العدائية يشب عليها الصغير ويهرم عليها الكبير، وقد تمكن من نفوس أهل الشام خلال حكمه وحكم أخيه من قبل «وبلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها... ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنة، ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير»[1] وكتب إلى عماله بهذه السياسة. وكان همه أن يجري اللعن من على المنبر النبوي الشريف وكتبت أم سلمة زوج النبي ﷺ إلى معاوية: إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبه، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله[2] ويروي ابن عبد ربه أن بعض العلماء قال لولده: يا بني إن الدنيا لم تبنِ شيئاً إلا هدمه الدين وإن الدين لم يبن شيئاً فهدمته الدنيا ألا ترى أن قوماً لعنوا علياً ليخفضوا منه، فكأنما أخذوا بناصيته جراً إلى السماء.

بذرة التشيع ونموها:

ومهما يكن من أمر فقد نشأ مذهب أهل البيت وتكون في عهد صاحب الرسالة ﷺ فهو أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام، يوم غرس دوحة شريعته الغراء جنباً إلى جنب وسواء بسواء، ولم يزل غارسها ﷺ يتعاهدها بالسقي والعناية حتى ثبتت ونمت في حياته، ثم أثمرت بعد وفاته، حيث كان يتعاهدها أهل

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) العقد الفريد ج٣ ص١٣١ ـ ١٣٢.

بيته وخلص أصحابه، وقد قام كل بما يجب عليه من رعايتها، وتحمل من نكبات واضطهاد في سبيل حفظها من تلك السلطات التي كانت تحاول القضاء عليها لمحو ذكر آل محمد ﷺ.

وقد وقفوا أمام تلك التيارات وقفة إخلاص وإيمان وثبات على مبدأ الحق، ولم يأبهوا يوماً ما إلى سلطة أو سياسة، ومرت تلك الأدوار العصيبة المظلمة، ولم يزل ذلك الغرس ثابت الجذور نامي الفروع يسقى من ماء غير آسن، حتى أفرعت دوحته وامتدت أغصانه وأينع ثمره بحفيد النبي الكريم ووارث علمه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

كان الإمام الصادق عليه السلام مهتماً في تلك الفترة المارة الذكر ببث العلوم ونشر المعارف الإسلامية بين طبقات المجتمع، فأقبل الناس على مدرسته وازدحموا على أبوابها ينتهلون من علومه، ويقتبسون من أنوار معارفه، وأقبلت وفود طلاب العلم من الأقطار الإسلامية، حتى أصبح عدد تلاميذه والمنتمون إلى مدرسته أربعة آلاف، منهم أئمة مذاهب كأبي حنيفة، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وابن عيينة، والأعمش، وغيرهم وكذلك منهم رؤساء طوائف وأعلام الحديث والفقه.

وكثر التأليف في عصره، ودون فقه أهل البيت وحديثهم بصورة واسعة، حتى أحصي ما دونوه في عصره فكان أربعمائة مؤلف لأربعمائة مؤلف ممن سمعوا الحديث منه، فدونوه وعرفت بالأصول الأربعمائة وستأتي الإشارة لذلك عند ذكر تدوين الفقه الجعفري.

وبالجملة فإن مذهب أهل البيت عليهم السلام هو أقدم المذاهب، وقد تخطى في العصر الأموي تلك العقبات التي حاول الأمويون بها أن يعرقلوا سيره، ويقفوا في طريق انتشاره، وسيأتي بيان مقاومة العباسيين له، ومعارضتهم لانتشاره.

أخطاء تاريخية لابن خلدون:

وأود هنا أن أعود للإشارة عما تجناه ابن خلدون على الحقائق التاريخية إذ يصف هذا المذهب بالبدعة حيث يقول في مقدمته: وشذ أهل البيت في مذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به[١].

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢٧٤.

وليس من الغريب صدور مثل هذا القول من رجل كان يحقد على العرب ويضمر لهم كل سوء، وليس ببعيد تحامله على سادة أهل البيت وأئمة المسلمين فهو يتعصب عليهم، ويتجاهل مكانتهم، هذا مع جهله بمذهبهم فإنه لم يقرأ كتب المذهب وإنما قرأ كتب الخصم، ولم يتصل بزعمائه، وإنما اتصل بأعدائه، فراق له ما سمع من قالة السوء، واستعذب ما قرأ في كتب المناوئين لآل محمد ﷺ وشيعتهم.

ولعل هالة الأكبار والتقدير لابن خلدون التي أحاطت بشخصيته من قبل بعض الكتاب أبعدتهم عن الوقوف على شخصية هذا الرجل بواقعها، والتعرف على ما تضمنته من أخطاء ومخالفات للحقيقة.

ولقد رأينا دوماً أن ابن خلدون موضع إجلال أكثر الباحثين والكتّاب، سيراً على طريقة السلف، وبرغم ما تضمنته مقدمته من علوم في الاجتماع والعمران. إلا أن ذلك لا يبيح لنا أن نتغاضى عن مواقف وقفها تجاه العرب وحضارتهم، فيجردهم من ذلك ويسلبهم فضائلهم فيصفهم بأنهم أمة متوحشة، وهم أهل نهب وعبث، بل هم أداة خراب للأوطان التي يتغلبون عليها إلى غير ذلك مما يدلنا بكل وضوح على تعصبه أو تجاهله كما يصفه لنا الأستاذ موسى سلامة بقوله:

والخطأ البارز في ابن خلدون: هو تنقصه حضارة العرب، فإنه هنا أعمى كامل العمى، لا يرى بصيصاً من نور...، هذا مع أني أحتفظ له بخيانات شخصية وثقافية، فإنه مثلاً خان معظم الأمراء والملوك الذين خدمهم ثم إنه سرق كل ما كتبه إخوان الصفا وعزاه إلى نفسه... اهـ.

ولا أدل على تجاهله أو تحامله من كلمته هذه في مذهب أهل البيت ووصفه لهم بالشذوذ.

ولو كان له قليلاً من التأمل لما قال هذا القول الذي لم يتوصل إليه بالنتائج العلمية، وهذه الكلمة هي التي بعثتنا على خوض غمرات البحث والتعرف على المذاهب، وعوامل انتشارها، وأسرار نجاح المذاهب الأربعة وأسباب خلودها دون غيرها من مذاهب المسلمين، فاتضح لنا أن ذلك مستند إلى دواعي السلطة، وإغراء المادة، التي من أجلها نسي ابن خلدون نفسه، فجرى قلمه بظلم الحق والحقيقة.

ولا يستبعد ذلك من إنسان تربع على دست قضاء دولة لا ترغب في إظهار فضل

آل محمد ﷺ أسوة بأخواتها اللواتي سرنَ على ذلك من قبل، فهو عبد لسلطانه، وأسير لشيطانه.

ومهما كانت مكانته التي احتلها من علم الاجتماع المعاصر أو غيره من العلوم فإن رأي ابن خلدون هذا لا ينبعث إلا عن جهل، أو عقل أعمى لا يبصر الحقائق، وأسوأ ألوان الجهل جهل مواقف آل محمد في الدفاع عن الإسلام، وتفانيهم في نشر تعاليمه وتعليم الناس أحكام الإسلام وفرائضه، ومحاربة ذوي العقائد الفاسدة، وقيامهم بتعليم الأمة مستمدين من الرسول الأعظم ﷺ بما لا مجال للشك في ذلك، ولكن ابن خلدون لتحامله نقل كثيراً من الأشياء مبتعداً عن طريق الواقع، وقد صبها في قالب رغباته، وتساهل في إبداء الحقيقة، وجعلها في طيات الخفاء والكتمان.

وابن خلدون إذا كان أسير عقدة تتحكم فيه وتقض مضجعه ساع إلى السلطة وباحث عن المجد لا يهدأ عن سعيه في سبيل الحكم والانضمام إلى السلاطين، فكيف له أن يحتل موقعاً لدى الملوك وسلاطين الزمن إذا ترك لعقله الحرية ولنفسه الخيار في قول الحق «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي». وكيف يمكن أن يخالف مذهب الحكام ويعمل على استخلاص الحقيقة ويحث دوافع العداء لأهل البيت عليهم السلام؟ فهو في نظر علم الاجتماع نتاج بيئة ومحيط فبقي كما نشأ؟ ولكن العالم من ينتزع نفسه ويخلصها مما يراه قاهر التأثير وجبري النتيجة ليستطيع أن يقدم للناس مادة علمه بتجرد وتكون نظرته بالغة الوضوح تحمل شواهد صحتها. ذلك في مقابل النظرة العصرية لابن خلدون ومكانته في علم الاجتماع اليوم. أما النظر إلى ابن خلدون من خلال الواقع والحكم عليه من حقائق سيرته ووقائع تأريخه فهو من رجال العصور الذين أذعنوا للحكام وشاركوهم وساندوهم في محاربة أهل البيت أو الغض من مكانتهم والنيل منهم ولقد كان ذلك سبيل من طمع في متاع الدنيا وعطاء الحكام فحسب، فكيف والحال مع ابن خلدون وهو يجوب الأقطار من أجل رغبته في الحكم نفسه؟!

المذهب الجعفري والدولة العباسية:

كانت سيطرة الطبقة الحاكمة تلجيء المفكرين إلى كبت الشعور، وتلجم الألسن عن قول الحق، ومن التجأ إلى المعارضة فقد عرض نفسه إلى السخط وجعلها هدفاً

للنقمة، وبذلك ضاعت أكثر الحقائق، وأثرت تلك السيطرة على سير المسلمين وتقدمهم لعدم الحرية في الرأي والعقيدة، ولولا ذلك لما حدثت تلك الحوادث التي أخرت المسلمين.

لقد كان أولئك الحكام يعمدون دائماً إلى خلق مشكلات يفرقون بها كلمة الأمة، ويثيرون الشحناء ويشغلون الأفكار، لاستخدام الأكثر لمصالحهم الذاتية، وقد أجهدوا أنفسهم في ربط العقائد في دستورهم الذي يتمشى مع رغباتهم، وإن أهم مشكلة في تاريخ الإسلام هي مشكلة الخلافة أو الاعتقاد بالإمامة بأنه منصب إلهي كالنبوة. فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه، فالنبي ﷺ مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي ﷺ.

والشيعة تعتقد أن تلك المنزلة لم تحصل إلا لعلي وولده والإمامة متسلسلة في اثني عشر إماماً كما نص النبي ﷺ على ذلك. ولا ترى تلك الخلافة الإلهية لغير علي وبنيه عليهم السلام، ولا يسعنا التعرض لبحث الإمامة ولكننا نريد الإشارة بهذه العجالة إلى الأدوار التاريخية التي سار فيها شيعة آل محمد ﷺ في المحافظة على وصايا النبي ﷺ من التمسك بالكتاب والعترة.

وقد قام أصحاب محمد ﷺ في نشر تلك الدعوة في الصدر الأول وتحملوا ما تحملوا في سبيل ذلك، ومر ذكر الدور الأموي وما لقي فيه آل محمد ﷺ وشيعتهم من الاضطهاد والمحنة فلا نتعرض للبيان بأكثر من ذلك.

وكان من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة النطاق والنهضة العلمية التي ازدهرت في عصر الإمام الصادق عليه السلام هو انتشار مذهب أهل البيت في الأقطار الإسلامية.

وكانت الدولة العباسية في طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب من وراء الستار، إذ ليس في إمكانها التظاهر في المعارضة، لأنهم في حاجة ملحة لاستمالة أعيان أهل البيت والاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركان الدولة.

ولم يكن هناك شهرة لأحد سوى الإمام الصادق عليه السلام والتاريخ يدلنا بوضوح على ذلك.

أما مالك بن أنس فقد كان في حياة الإمام الصادق عليه السلام كأحد رجال المدينة، ولم ينتشر ذكره إلا بعد سنة ١٤٨هـ وهي سنة وفاة الإمام الصادق، وكان ضربه بالسياط وإهانته في سنة ١٤٦هـ أي قبل وفاة الإمام الصادق بأقل من سنتين، وبعد سنة ١٤٨هـ وجه المنصور نظره نحو مالك وأمره أن يضع كتاباً يحمل الناس عليه ويوزع منه نسخاً في الأمصار ولا يكون غيره.

وكان غرض المنصور من ذلك هو معارضة انتشار مذهب أهل البيت، لأنه يثقل عليه تخليد ذكر جعفر بن محمد عليه السلام وقيام ولده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بعده والتفاف الناس حوله حتى لقبوه بالعالم وهو هو في زهده وورعه وعلمه.

لم يغب عن مالك مغزى هذا التكليف فأجابه: يا أمير المؤمنين لا تفعل؛ أما هذا الصقع فقد كفيتكه، وأما الشام ففيه الرجل الذي علمته - يعني الأوزاعي، وأما أهل العراق فهم أهل العراق.

فكان المنصور يشد أزر الأوزاعي ويراسله ويلحظ مالكاً ويواصله حتى ازدحم الناس على باب داره التي أصبحت كأبواب دور الملوك.

وبذل جهده بالانتصار إلى أهل الرأي وهو يأمل من وراء ذلك كله تغليب مذهبه على مبادىء أهل البيت، ولما اشتد جانب الدولة وقوي ساعدها، أظهر المنصور ما كان يضمره، فأعلن مقاومة أهل البيت ومعارضة انتشار مذهبهم، وشدد النكير على أهله.

معارضة المنصور والرشيد للمذهب:

وكان المنصور يأمل بالإمام أبي حنيفة عندما رعاه بعنايته ونصره وقدمه على كثير من الفقهاء أن يوجد منه شخصية علمية تقف أمام انتشار مذهب جعفر بن محمد عليه السلام ولكنه قد خاب أمله، فهذا الإمام أبو حنيفة يصرح للملأ بأنه ما رأى أعلم من جعفر بن محمد عليه السلام وأنه أعلم الأمة[١].

وسأله رجل يوماً عن رجل وقف ماله للإمام فمن يكون المستحق؟ فأجاب أبو حنيفة: المستحق هو جعفر الصادق لأنه هو الإمام الحق[٢].

---

(١) جامع مسانيد ابن حنيفة ج١ ص٢٢٢.

(٢) تاريخ العلويين محمد أمين غالب ص١٤٠.

وذهبت تلك المحاولات فاشلة، ولم يزل المذهب الجعفري يتسع في الأقطار وينتشر في العواصم، وكثر أتباعه رغم تلك المحاولات والخطط التي خطها المنصور ومن بعده المهدي والهادي والرشيد.

وقد بذل الرشيد كل ما في وسعه لتحويل أنظار الناس عن آل محمد، وأظهر تعظيم مالك بن أنس، فكان يجلس بين يديه تأدباً يتعلم منه العلم، ويأمر أولاده وخواصه باحترامه.

وكان يقرب الفقهاء وينظر إلى الشافعي نظر عطف وحنان لأنه قرشي، وأرسله إلى مصر صحبة الوالي، وأمره باحترامه وإكرامه، وتقريب أصحابه وأعطاه سهم ذي القربى.

فيما عامل أهل البيت بالشدة والقسوة، من تتبع أنصارهم، والقضاء على من اتهمه في موالاتهم، حتى ثقل عليه أن يكون علي بن أبي طالب عليه السلام رابع الخلفاء، فحاول أن ينفي ذلك ويعاقب من يثبته.

قال أبو معاوية: دخلت على هٰرون الرشيد فقال لي: يا أبا معاوية هممت بمن أثبت خلافة عليّ فعلت به وفعلت. قال أبو معاوية: فسكت فقال لي: تكلم. قلت: إن أذنت لي تكلمت. قال: تكلم.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قالت تيم: منا خليفة رسول الله. وقالت عدي: منا خليفة رسول الله. وقالت بنو أمية: منا خليفة الخلفاء، فأين حظكم يا بني هاشم من الخلافة؟ والله ما حظكم إلا ابن أبي طالب[1] وبهذا استطاع أبو معاوية أن يصرف الرشيد عن رأيه.

واستعمل في معاملة أهل البيت ما لا يستعمله أحد وفيه صبابة من الرحمة، لقد سجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وهو عالم عصره، ومن له السلطة الروحية وضيق عليه حتى قتله بالسم، وبذلك أنزل بالمسلمين خسارة فادحة إذ لم يتهيأ لهم الاتصال بالإمام والأخذ من علومه وآرائه إلا في مدة قليلة، وتتبع بقية أهل البيت وشيعتهم، وطلبهم تحت كل حجر ومدر، وكان بحكم السياسة العمياء التي لا تعرف إلا غايتها، ولا تفرق بين الحق والباطل، ولا ترى سوى السيطرة على الناس بأي

---

(١) تاريخ بغداد ج٥ ص٢٤٤.

طريق وبأي نوع كان، فإنه قد حمل الناس على العداء لآل محمد، وحاول قلع بذرة حبهم التي غرسها الرسول، وسقاها بماء غديره العذب، تلك البذرة الطيبة التي أينعت فأثمرت وجنى ثمرها رجال العلم، وصلحاء الأمة، رغم تلك المحاولات والجهود الجبارة التي بذلها العباسيون، وهم يطلبون من وراء ذلك استقرار ملكهم بالوراثة الشرعية، بادعائهم الخلافة دون آل علي بن أبي طالب عليه السلام.

دخل شريك القاضي على المهدي. فقال له المهدي: ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين، قال: ولم؟

قال: لخلافك على الجماعة. وقولك بالإمامة.

فقال شريك: أما قولك بخلافك على الجماعة، فعن الجماعة أخذت ديني فكيف أخالفهم وهم أصلي في ديني؟ وأما قولك بالإمامة، ما أعرف إلا كتاب الله وسنة رسوله. وأما قولك: مثلك ما يقلد في الحكم فهذا شيء أنتم فعلتموه، فإن كان خطأ فاستغفروا الله منه. وإن كان صواباً فامسكوا عليه.

قال الرشيد: ما تقول في علي بن أبي طالب؟

قال: ما قال فيه جدك العباس وعبد الله، قال: وما قالا فيه؟

قال: فأما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة، وكان يرى كبراء المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل، وما احتاج هو عليه السلام إلى أحد حتى لحق بالله. وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين. وكان في حروبه سيفاً منيعاً وقائداً مطاعاً، فلو كانت إمامته على جور، كان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه وفقهه في أحكام الله، فسكت المهدي ولم يمض بعد هذا المجلس إلا قليلاً حتى عزل شريكاً[1].

تغلب المذهب الجعفري:

وعلى أي حال فقد تغلب المذهب الجعفري على سائر الأقطار الإسلامية فكانت له في بغداد من القوة والنشاط ما استطاع أن يقاوم الدولة التي ما برحت تطارد الشيعة وتناصر خصومهم، ولكنهم ثبتوا في وجه الطغيان بكل ثبات، وأقاموا شعائرهم الدينية بدون خفاء وتكتم، وكانت الدولة تعد هذا التظاهر تهديداً وخطراً عليها.

وفي أيام المأمون كانت الغلبة للمذهب الجعفري في جميع الأقطار بل امتدت

---

(١) تاريخ بغداد ج٩ ص ٢٩٢.

دعوة التشيع إلى رجال الدولة أنفسهم، فكان منهم الوزراء والأمراء وقواد الجيش والكتّاب، ورؤساء الدواوين، الأمر الذي دعا المأمون إلى التظاهر بالتشيع، والميل إلى العلويين، لأنه خشي على زوال ملكه فدعا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى البيعة، والتنازل عن العرش، ولكن الإمام رد هذه الدعوة علماً منه بأنها مفتعلة، ولكنه تفادى إيقاع نفسه في التهلكة بقبول ولاية العهد قبولاً شكلياً لا أكثر ولا أقل.

وقبل ولاية العهد بعد أخذ ورد وأكثر المأمون عقد المجالس للمناظرة في الإمامة، وقد نجح بما دبره في سياسته ودهائه، إذ استمال قلوب الشيعة وأمن ثورة العلويين المتوقعة، وفاخر علماء الأديان الأخرى بالرضا وعلوم الرضا عليه السلام.

وفي أيام المعتصم التجأ الشيعة إلى التكتم نوعاً ما، ولكنا نراهم يخرجون على الدولة بعدة كاملة، وقوة لم تستطع الدولة معارضتها، وذلك عندما استخرجوا جنازة الإمام الجواد عليه السلام في سنة ٢٢٠هـ عندما حاول دفنه سراً، ولم يسمح لأحد في تشييعه، ولكن الشيعة خرجوا بذلك الموكب المهيب الذي يربو عدده على اثني عشر ألف والسيوف على عواتقهم، فشيعوا جنازة الإمام رغم معارضة السلطة.

قوة المعارضة أيام المتوكل:

واشتد الأمر وعظمت المحنة في أيام المتوكل العباسي، فكان بغض الإمام علي عليه السلام وشيعته يأكل قلبه كما تأكل النار يابس الحطب، وكان لا يذوق طعم الراحة ولعلي عليه السلام ذكر في الوجود، ولشيعته مجتمع زاهر بالعلم محتفظ بكرامته، مستقل بمواهبه، منفصل عن الدولة. وقد تتبع العلويين وحط من كرامة أهل البيت. ولم يسمح لأي أحد أن يذكرهم بخير.

ويدلنا على شدة بغضه وتحامله أن نصر بن علي الجهضمي حدث بحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه أخذ بيد الحسن والحسين وقال: **(من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة)**، فأمر المتوكل بضربه ألف سوط إلى أن كلمه جعفر بن عبد الواحد بأن نصراً لم يكن شيعياً وإنما هو من أهل السنة، فضرب خمسمائة سوط وعفى عن الباقي[1].

---

(١) الخطيب ج٢ ص٢٨١.

ويحدثنا المقريزي: أن يزيد بن عبد الله أمير مصر، أمر بضرب جندي تأديباً لشيء صدر منه، وعندما أحس الجندي بألم الضرب، أقسم على الأمير بحق الحسن والحسين أن يعفو عنه، فأمر الأمير بضربه ثلاثين سوطاً جزاء لهذا القسم، وكتب إلى المتوكل في بغداد يخبره بخبر الجندي، فورد الكتاب على يزيد يأمره بضربه مائة سوط وحمله إلى بغداد[1]. ولعل النطع والسيف كانت خاتمة المطاف لذلك الجندي، وأمر بضرب أحمد بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ألف سوط، لاتهامه بسب الشيخين حتى مات، قال في الحضارة الإسلامية نقلاً عن المنتظم: وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم علي، بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر.

وما أكثر من عوقب بهذه الوسيلة. ولكن أنصار المتوكل وحزبه الذين يرون البغض لعلي وشيعته يقربهم إليه زلفاً. نالوا بذلك إربهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة.

وخلاصة القول أن المتوكل اشتد في العداء لأهل البيت والنيل منهم، حتى دفعه حقده إلى هدم قبر الإمام الحسين وهدم المشهد الشريف. واستقدم أبا الحسن الهادي عليه السلام من المدينة إلى سامراء في سنة ٢٣٦ وعامله بالشدة والأذى، وتوصل المنحرفون عن آل علي إلى إساءة الإمام الهادي عليه السلام فسعوا به إلى المتوكل وأخبروه أن في منزله سلاحاً وكتباً من شيعته، فهجموا على داره ليلاً ولم يعثروا على أي شيء من ذلك، وما زال الإمام الهادي عليه السلام مقيماً في سامراء إلى أن مات مسموماً سنة ٢٥٤هـ، وكانت مدة إقامته فيها ١٨ سنة.

الشيعة ونصرة أهل البيت:

ومرت الأدوار، وتعاقبت الأيام، والشيعة يلاقون الأذى ويخوضون غمار الحروب ويواجهون المصاعب، ويتجرعون من ولاة الأمر ضروب المحن، كل ذلك في سبيل نصرة آل محمد ﷺ ونشر مذهبهم على وجه البسيطة، وما دفعهم إلى تحمل ذلك إلا حبهم لآل محمد ﷺ وامتثالهم لأوامر النبي ﷺ في المحافظة عليهم ووصاياه المتكررة باتباعهم.

---

(١) الخطيب ج٤ ص١٥٣.

ولقد بذل الشيعة كل ما في وسعهم لنصرة أهل البيت الذين عنهم يأخذون تعاليم دينهم، وكانوا في هذه الأدوار يتصلون بمدرسة أهل البيت مهما كلفهم الأمر، فلا يقعد بهم خوف ظالم، ولا تحول دونهم ودون الاتصال بهم تلك الإرهابات التي اتخذها أعداء آل محمد ﷺ وسيلة لفصل الأمة عنهم، فهم من زمان علي عليه السلام إلى زمان الإمام الحسن العسكري يأخذون عنهم معالم الدين حتى وقعت الغيبة الصغرى. وسيأتي بيان ذلك عند ذكرنا للنهضة العلمية عند الشيعة بعد عصر الأئمة عليهم السلام.

وكان الإمام العسكري قد جلبه المتوكل مع أبيه علي الهادي عليه السلام إلى سامراء، وما زال مع أبيه إلى أن التحق أبوه بالرفيق الأعلى وبقي العسكري مدة إمامته القصيرة في سامراء (ست سنين) في نكد وأذى، وانفرد بعد أبيه بما يقصده به العباسيون من الإساءة والغض من مقامه، والتضييق عليه والسجن إلى أن اغتاله المعتمد العباسي بالسم في سامراء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ٢٦٠هـ ودفن مع أبيه في دارهما حيث قبرهما الآن، وكان عمره الشريف ثمان وعشرين سنة.

وفي ذلك العهد كان مذهب أهل البيت ينتشر في البلاد الإسلامية، وأصبحت قم من عواصم العلم للشيعة وفيها من رواة حديث أهل البيت عدد كثير، ومن المؤلفين في الحديث والفقه وفنون العلم جم غفير، وكذلك الكوفة وبغداد والمدائن وسامراء والشام عاصمة الأمويين كما سيأتي بيانه.

وإن تمسك الشيعة بمذهب أهل البيت، لا لتحزب أو تعصب، ولا لطعن في مذاهب المسلمين أو حط من كرامة أحد من أئمة المذاهب، ولكن الأدلة الشرعية أخذت بأعناقهم، لوجوب الأخذ بمذهب أهل البيت لحكم الأدلة القاطعة وتعبداً بسنة سيد النبيين ﷺ. ولو وجدوا طريقاً للأخذ عن غيرهم لاتبعوه، ولم يتحملوا المحن في سبيل اتباعهم، ولكن لا طريق إلى ذلك بل وجدوا الحق معهم والحق أحق أن يتبع، ولأنهم عليهم السلام كانوا يمثلون الرسول ﷺ في خلقه وهديه وورعه وزهده، فهم عدل القرآن متكاتفين معه يمتثلون أوامره ويسارعون إلى تنفيذه، واطلعوا على أسرار أحكامه، ودقائق أطواره والقرآن قد أشاد بفضلهم كثيراً.

ولقد بذلوا جهدهم في هداية الناس، كما بذلوا لهم النصح ليرشدوهم إلى طرق السعادة، وقد نشروا العلم والعدل، وقاوموا الجهل والظلم، وليس هذا مجرد فرض وإنما هو أمر واقع وحقيقة ظاهرة لا يمكن إنكارها، ووجد الناس فيهم أئمة هدى:

«لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثيرة ورعاته قليل».

وهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومهبط الوحي، ولم تسمح الأدلة بمخالفتهم والأخذ عن غيرهم. وهم عدل القرآن وسفينة نوح باتباع علم الهداية والرشاد.

أحاديث النبي في أهل البيت:

وقد صرح النبي ﷺ بوجوب اتباعهم والتمسك بهم في مواطن عديدة، واشتهر حديث الثقلين كالشمس في رائعة النهار وحديث: **«مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها غرق وهوى»** من الأحاديث الثابتة التي أيدها الرواة وتناقلتها كتب التاريخ.

أخرج أحمد في مسنده والطبراني في مسنده بالإسناد إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليتول علياً من بعدي وليوال وليه، وليقتد بأهل بيتي من بعدي، فإنهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين صلتي لا أنالهم الله شفاعتي».

وأخرج ابن حجر في صواعقه قال: قال ﷺ: «في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين. وتأويل الجاهلين، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله فانظروا من توفدون».

وأخرج جماعة من الحفاظ عن أبي ذر الغفاري قال: قال ﷺ: **«فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم»**.

وقال ﷺ: **«اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ومكان العينين من الرأس ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين»**.

وقال ﷺ: «أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله، ومن أحبه فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله».

وقال ﷺ: «**اللهم من آمن بي وصدقني فليتول علي بن أبي طالب فإن ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله**».

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ما أنزل الله آية وفيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلا وعليّ رأسها وأميرها.

وأخرج عن حذيفة قال: قالوا: يا رسول الله ألا تستخلف علياً؟ قال: إن تولوا علياً تجدوه هادياً مهدياً يسلك بكم الطريق المستقيم[1].

وأخرج بطريق آخر عنه ﷺ: إن تستخلفوا علياً وما أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً يحملكم على المحجة البيضاء.

وأخرج النسائي في الخصائص من طريق عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: ما تريدون من علي؟ إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن من بعدي[2].

وأخرج أيضاً من طريق أم سلمة قالت: سمعت رسول الله يقول: من سب علياً فقد سبني[3].

وأخرج عن حبشي بن جنادة السلولي قال: قال رسول الله ﷺ: علي مني وأنا منه فلا يؤدي عني إلا أنا أو علي.

وأخرج الحاكم من طريق أبي ذر عن النبي أنه قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني**».

وأخرج أيضاً من طريق أبي ثابت مولى أبي ذر عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «**علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض**»[4].

وعن ابن عباس قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب.

وعن أبي هريرة قال: قال عمر بن الخطاب: لقد أعطي علي بن أبي طالب

---

(١) الحلية ج١ ص٦٤.
(٢) الخصائص ص٣٢.
(٣) نفس المصدر ص٢٤.
(٤) انظر المستدرك ج٢ ص١٢٢.

ثلاث خصال لئن تكون لي خصلة منها أحب إليّ من أن أعطى حمر النعم. قيل: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وسكناه المسجد مع رسول الله ﷺ يحل فيه ما يحل له.

وأخرج الحاكم أيضاً قال: كنا مع رسول الله فانقطعت نعله فتخلف علي يخصفها فمشى قليلاً ثم قال: إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر.

قال أبو بكر: أنا هو؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: لا ولكن خاصف النعل. يعني علياً فأتيناه وبشرناه فلم يرفع رأسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: فأين تذهبون وأنى تؤفكون والاعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون؟ وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق، وأعلام الدين وألسنة الصدق، فأنزلوهم منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاشى.

أيها الناس خذوها من خاتم النبين انه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون فإن أكثر الحق فيما تنكرون، واعذروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو، ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر، وركزت فيكم راية الإيمان؟

وقال عليه السلام: انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا.

وأخرج الحاكم عن الكناني قال: سمعت أبا ذر يقول وهو آخذ بباب الكعبة: من عرفني فقد عرفني ومن أنكرني فأنا أبو ذر. سمعت رسول الله يقول: «**مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تأخر عنها غرق**».

وأخرج البخاري عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من رسول الله ﷺ فقلت بلى، فأهدها، قال: سألنا

---

(١) انظر المستدرك ولهذه الأحاديث طرق كثيرة ذكرها الحفاظ يمكن مراجعتها.

رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال قولوا: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وعن ابن عباس ـ أخرجه الترمذي ـ قال: قال رسول الله: أحبوا الله لما يغذوكم به وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي. وعنه أيضاً قال رسول الله ﷺ: لو أن رجلاً صفّ بين الركن والمقام، فصلى وصام، ثم لقي الله مبغضاً لأهل بيت محمد دخل النار(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال قال ﷺ: من أبغضنا أهل البيت فهو منافق.

وعن أبي سعيد أيضاً قال: قال ﷺ: والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله النار(٢).

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمار بن ياسر قال: وقف على عليّ سائل وهو راكع في تطوع فأعطاه خاتمه فنزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [المائدة: ٥٥]. وأخرج السيوطي عن ابن عباس أنها نزلت في علي، وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مثله، وأخرج أيضاً عن علي عليه السلام، وأخرج ابن جرير مثله، ولهذا شواهد كثيرة لا يمكن إنكارها. وسيأتي مزيد بيان حول هذه الآية وغيرها في الأجزاء الآتية.

وعلى كل حال فالأخذ عن أهل البيت بموجب هذه النصوص وغيرها التي لا يسعنا حصرها لازم شرعاً، والرجوع لغيرهم لا يحصل معه صحة العمل.

ونحن مع احترامنا للمذاهب الأربعة، لا نستطيع أن نتخطى أوامر الرسول في اتباع آله ووجوب الأخذ عنهم، ولنا بحديث الثقلين وحديث الغدير وآية التطهير، وآية الموالاة كفاية لبراءة الذمة وصحة العمل بمذهبهم عليهم السلام، ولو سمحت لنا الأدلة بمخالفة الأئمة من أهل البيت، أو تهيأ لنا إيثار غيرهم عليهم أو تمكنا من تحصيل نية القربة في مقام العمل على مذهب غيرهم لاتبعناه، على أنه لا دليل للجمهور في

(١) انظر ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري.

(٢) إحياء الميت للسيوطي.

رجحان شيء من مذاهبهم فضلاً عن وجوبها، وكيف لا وأئمة المذاهب أنفسهم قد أخذوا عن أهل البيت، وجعلوا ذلك فخراً لهم وسبباً لنجاحهم، فهذا الإمام أبو حنيفة كان يأخذ بأقوال علي عليه السلام حتى جعلوا ذلك من مرجحات مذهبه على غيره من المذاهب لقول النبي ﷺ : «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[1] ذكر ذلك المقدسي في أحسن التقاسيم.

وكان أبو حنيفة يفتخر بالأخذ عن الصادق عليه السلام ويقول: «لولا السنتان لهلك النعمان».

ونرى مالك بن أنس وهو أحد تلاميذ الصادق، وعنه أخذ الشافعي وأخذ أحمد بن حنبل عنه، وكان الشافعي لايروي إلا عن علي عليه السلام ولذلك اتهموه بالتشيع فافتخر بذلك قائلاً:

أنا الشيعي في ديني وأصلي ... بمكة ثم داري عسقلية
بأطيب مولد وأعز فخر ... وأحسن مذهب يسمو البرية[2]

ورماه يحيى بن معين بالرفض وقال: طالعت كتابه في السير فوجدته لم يذكر إلا علي بن أبي طالب وقد أظهر الشافعي ذلك في قوله:

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وكذلك الإمام أحمد كان يفضل علياً على الصحابة، وسئل يوماً عن أفضل أصحاب رسول الله ﷺ فقال: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، قيل فعلي؟ قال: سألتموني عن أصحابه وعلي نفس محمد.

إلى غير ذلك مما يطول ذكره، على أنا نجد أهل المذاهب متفرقين كل يذهب إلى رجحان مذهبه وبطلان غيره، ويقيم كل فريق أدلة للغلبة والظهور على الآخر، ولسنا بصدد البحث عن ذلك، ولكن الغرض ان أخذ الشيعة عن أهل البيت إنما هو لدلالة الكتاب والسنة، ويرون ضرورة الأخذ بأصول الدين وفروعه عنهم، فهم سفن

---

(١) لهذا الحديث طرق كثيرة يتجاوز عددها المائة.

(٢) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص٥١.

النجاة وأمان الأمة، وباب حطة من دخله كان من الآمنين، والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وأحد الثقلين لا يضل من تمسك بهما ولا يهتدي من ضل عن أحدهما.

وقد أشرنا للأسباب التي دعت لمقاومة مذهبهم من قبل ذوي النفوذ والسلطة بأوهام حاولوا تركيزها بدون إقامة دليل شرعي، ولا برهان عقلي.

وقد سرت تلك الأمور المرتجلة يتلقفها السذج فماً عن فم، ويتوارثونها جيلاً عن جيل كقضية مسلمة، والحق أنها شبه وأوهام تناقلتها الألسن، وساعدتها الظروف والأحوال فصعب هجرها.

ومع هذا كله فإن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح فقد انتشر المذهب بصورة واسعة النطاق متجاوزاً أوامر الحكام ومتخطياً حدود قوتهم إذ لم تنفع قسوتهم في دفع الناس عن آل محمد ﷺ ولم تثمر سياساتهم الجائرة في تحويل الأمة عن الأصول الكبرى والمنابع الأولى.

وهنا أمر آخر لا بد من توضيحه: هو ان تلك المعارضات التي أجهد الساسة أنفهسم في تركيزها، وآزرهم على ذلك مرتزقة باعوا ضمائرهم بأبخس الثمن، إنما كانت بعيدة كل البعد عن الواقع، ولا تجد من أولئك المتشدقين بذم الشيعة والحط من كرامة أهل البيت من أقام دليلاً منطقياً يستطيع أن يغطي به باطله ويستر به أكاذيبه، وإنما هم يتحمسون للظلم ويهرجون لدعاته، والحقيقة بعيدة عنهم، والدين يتبرأ مما قالوه.

ونسبوا إلى الشيعة أموراً كثيرة، لا يسعنا عرضها الآن، حتى أنهم نسبوا إليهم القول بألوهية الأئمة، وهذا نهاية الحمق وغاية الجنون، وإن الاعتدال في القول خير من التهور، ومن اعتدل فكره اعتدل قوله.

من أين أخذوا ذلك عن الشيعة وبأي دليل يثبتونه؟ نعم حملهم بغض الشيعة والتحامل على أهل البيت على إضافة طوائف الغلاة إلى الشيعة المخلصين وحاولوا ربط عقائدهم بعقائد الشيعة، مع الفرق البين وعدم إمكان ذلك إلا أن يظلموا الحقيقة، بتجرئهم على أهل البيت بنسبة الغلاة إلى أتباعهم، وهنا يلزمنا التعرض لذكر موقف الأئمة من التبرؤ من هذه النسبة ومعاملة الشيعة لتلك الفرق.

الــغــلاة

موقف أهل البيت من الغلاة

إن أعظم شيء على الشيعة هو حمل فرق الغلاة عليهم وإضافتها إليهم؛ ولقد كان الحكام وزبانيتهم وراء نشاط تلك الفرق الضالة ومؤازرتهم بالسياسة، وسهلت لهم الطرق ليصلوا إلى غايات في نفوسهم من الوقيعة في الشيعة، والحط من كرامة أهل البيت، إذ كانوا لا يستطيعون أن ينالوا من عقائدهم أو ينتقصوهم بشيء، والأمر واضح كل الوضوح؛ فإن مذهب أهل البيت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتعاليمهم هي المحور الذي يدور عليها نظام الإسلام فكان دخول الغلاة في صفوف الشيعة عبارة عن حركة سياسية أوجدتها عوامل من جهة، والفتك بالإسلام من جهة أخرى، لأن دخول الغلاة في الإسلام كان انتصاراً لمبادئهم، إذ لم يجدوا طريقاً للانتقام من الإسلام إلا باختراع المغالات في بعض العقائد الإسلامية عندما عجزوا عن مقابلته بالقوة وجهاً لوجه، وانهزموا أمام قوم وطأوا أرضهم بأقدام لا تتأخر خطوة إلى الوراء إما الموت أو الفتح، فأذلوا عزيزهم، وأسروا ذراريهم، وأخذوا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

وقد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطرة، وعرفوا الدوافع التي دعت هؤلاء الكفرة إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، واتضح لهم غايات خصومهم الذين يريدون أن يوقعوا بهم، فكان أهل البيت عليهم السلام يعلنون للملأ البراءة من الغلاة وجاهروا بلعنهم، وأمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم والابتعاد عنهم، وتلقى الشيعة تلك الأوامر الشريفة بالقبول والامتثال، فاعلنوا البراءة وملأوا كتبهم من التبريء منهم، وأفتوا بحرمة مخالطتهم، وأجمعوا على نجاستهم وعدم جواز غسل ودفن موتاهم وتحريم إعطائهم الزكاة، ولم يجوزوا للغالي أن يتزوج المسلمة، ولا المسلم أن يتزوج الغالية، ولم يورثوهم من المسلمين وهم لا يرثون منهم.

وكان الإمام الصادق عليه السلام يلعن المغيرة بن سعيد ويصرح بكذبه وكفره، ولعن أبا الخطاب وأصحابه وجميع الدعاة إلى المبادىء الفاسدة، وكان هذا الإعلان من الإمام الصادق عليه السلام قد أوقف سريان دائها القاتل، ولم يبق من تلك الفرق إلا الاسم في التاريخ وبادت بمدة قصيرة.

وقال عليه السلام لمرازم: قل للغالية توبوا إلى الله فإنكم فساق كفار مشركون، وقال عليه السلام له: إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيري وقل له يقول لك جعفر بن محمد: يا كافر يا فاسق أنا بريء منك.

قال مرازم: فلما قدمت الكوفة قلت له يقول لك جعفر بن محمد: يا كافر يا فاسق يا مشرك أنا بريء منك، قال بشار: وقد ذكرني سيدي. قلت: نعم ذكرك بهذا، قال: جزاك الله خيراً.

ولما دخل بشار الشعيري على أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال له: أخرج عني لعنك الله، والله لا يظلني وإياك سقف أبداً، فلما خرج قال عليه السلام: ويله ما صغر الله أحداً تصغير هذا الفاجر، إنه شيطان ابن شيطان خرج ليغوي أصحابي وشيعتي فاحذروه، وليبلغ الشاهد الغائب أني عبد الله وابن أمته ضمتني الأصلاب والأرحام، وإني لميت ومبعوث ثم مسؤول.

وكتب الإمام الحسن العسكري عليه السلام ابتداء منه إلى أحد مواليه: إني أبرأ إلى الله من ابن نصير الفهري وابن بابه القمي فابرأ منهما، وإني محذرك وجميع موالي، ومخبرك أني ألعنهما عليهما لعنة الله، يزعم ابن بابا أني بعثته نبياً وأنه باب، ويله لعنه الله سخر منه الشيطان فأغواه فلعن الله من قبل منه، يا محمد إن قدرت أن تشدخ رأسه فافعل.

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام يوماً لأصحابه: لعن الله المغيرة بن سعيد لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها الشعر والشعبذة والمخاريق، إن المغيرة كذب على أبي، وإن قوماً كذبوا على ما لهم! أذاقهم الله حر الحديد، فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا الله واصطفانا ما نقدر على ضر ولا نفع إلا بقدرته، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، ولعن الله من قال فينا ما لا نقول في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا.

وقال عليه السلام: إن أبا منصور كان رسول إبليس: لعن الله أبا منصور، قالها ثلاثاً.

وقال عليه السلام: إنا أهل بيت صادقون لا نعدم من كذاب يكذب علينا عند الناس يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا، ثم ذكر المغيرة وبزيغ والسري وأبا الخطاب، ومعمر وبشار الشعيري وحمزة اليزدي وصائد النهدي، فقال: لعنهم الله أجمع وكفانا مؤنة كل كذاب.

وعن حمدويه قال: كنت جالساً عند أبي عبد الله وميسرة عنده فقال له ميسرة: جعلت فداك عجبت لقوم كانوا يأتون إلى هذا الموضع فانقطعت أخبارهم وآثارهم وفنيت آجالهم.

قال عليه السلام: ومن هم؟ قلت: أبو الخطاب وأصحابه، فقال عليه السلام ـ وكان متكئاً ورفع بنظره إلى السماء ـ: على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فأشهد بالله أنه كافر فاسق مشرك، وأنه يحشر مع فرعون في أشد العذاب.

وذكر عنده أصحاب أبي الخطاب والغلاة فقال عليه السلام: لا تقاعدوهم، ولا تواكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم[١].

وقال عليه السلام: إن من الغلاة من يكذب حتى ان الشيطان يحتاج إلى كذبه.

وقال عليه السلام: إن قوماً يزعمون أني لهم إمام، والله ما أنا لهم بإمام ما لهم لعنهم الله! أقول كذا ويقولون كذا، إنما أنا إمام من أطاعني، ومن قال بأننا أنبياء فعليه لعنة الله، ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله[٢].

* * *

هذا بعض ما ورد في الغلاة الذين حاول خصوم آل محمد إلحاقهم بالشيعة لغاية الحط من كرامة المبدأ، وليظهروهم للملأ بأبشع المظاهر وأشنعها، ويعلنوا للعالم أن الشيعة يعتقدون في الأئمة الألوهية، فلا يصلح عدهم من المسلمين فتراق بذلك دماؤهم وتنهب أموالهم، وكم حدثنا التاريخ عن تلك الفظايع السود؛ ومن أراد أن يعرف موقف الشيعة من طوائف الغلاة فليرجع إلى كتاب «روض الجنان» للشهيد الثاني المتوفى سنة ٩٩٦هـ، و«نهج المقال» للمرزا محمد الاسترابادي المتوفى سنة ١٠٢٦هـ و«الانتصار» للسيد المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ، و«التهذيب» للشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ، و«السرائر» لابن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨هـ و«المنتهى» و«نهاية الأحكام» و«التذكرة» و«القواعد» و«التبصرة» للعلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦هـ، و«البحار» للشيخ المجلسي المتوفى سنة ١١١٠هـ،

---

(١) رجال الكشي ص١٩٠.

(٢) الشيعة في التاريخ لمحمد حسين الزين ص١٧٨ نقلاً عن منهج المقال.

و«الدروس» للشهيد الأول المتوفى سنة ٧٨٦هـ، و«جامع المقاصد» للشيخ علي الكركي المتوفى سنة ٩٤٠هـ و«الشرايع» و«المعتبر» و«المختصر النافع» للمحقق أبي القاسم الحلي المتوفى سنة ٦٧٦هـ و«الجواهر» للشيخ محمد حسن المتوفى سنة ١٢٦٦هـ. وغيرها من الكتب الفقهية التي تنص بإجماع على كفر الغلاة ونجاستهم وبعدهم عن الدين وأن لا رابطة بينهم وبين الشيعة.

كما أن كتب الرجال طافحة بذمهم والتبرؤ منهم ومن معتقداتهم، ويلعنونهم بلغة واحدة.

فأملنا بأبناء المستقبل أن لا يركنوا إلى الأوهام والأباطيل وأن يطلبوا الحقيقة، فالعلم يطلب منهم أداء رسالته، والحق يدعوهم إلى مؤازرته، فقد آن أن تماط عن العيون غشاوات التعصب التي منعتها من رؤية الحق وأبرزت الواقع معكوساً إذ هي كعدسة المصور فليعتدل الكتّاب عن هذه السيرة الملتوية، وليغيروا خططهم ولغتهم في ذكر الشيعة، ولا يلتفتوا لأوضاع تلك العصور المظلمة التي جنت على الإسلام جناية لا تغفر، وملأوا القلوب بالأحقاد والضغائن، ونسبوا مبدأ التشيع إلى عبد الله بن سبأ اليهودي، وطعنوا بذلك على أصحاب محمد ﷺ الذين عرفوا بتشيعهم لعلي، ويتجاوز عددهم المئات وغيرهم ممن تكتم جرياً مع الظروف ومتابعة الأحوال، على أن كلمات اللغويين والمفسرين قد أجمعت على أن معنى الشيعة هي الموالاة لعلي إذ أصبح علماً في ذلك.

عبد الله بن سبأ:

أما عبد الله بن سبأ، ذلك الشخص الوهمي الذي وصفوه بصفات البطولة والإقدام، وجعلوه صاحب السلطة المطلقة في المجتمع الإسلامي، وقالوا عنه انه استطاع أن يسيطر على أهل مصر ويقود منهم جيشاً لقتل الخليفة عثمان، وان أبا ذر تعلم منه، وعماراً أخذ بآرائه، وحرب الجمل من دسائسه، ووقعة صفين من تصلبه، ومبادىء التشيع من تفكيره... وقد ورد ذكره في كثير من الكتب حتى أصبحت قصته وكأنها حقيقة ملموسة وقضية واقعية وهؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الإساءة المتحققة من وراء هذه الأكذوبة لا تقتصر على الشيعة والطعن في أصولها وإنما تشمل صميم حركة الإسلام ورجالاته حيث جعلوا لهذا اليهودي قدرات سحرية تمكنه من قيادة جموع

المسلمين كيف شاء وتوجيه رجالات الدين كيف أراد يتلاعب بسلوكها وأفكارها بشكل لا يليق إلا بمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً.

والذي يلفت النظر هو أن بعض الشيعة ترجموا له، وذكروه للتبرؤ منه، وأخف عبارة يقولونها في ترجمته: عبد الله بن سبأ ألعن من أن يذكر.

وإذا أردنا أن نرجع لواقع هذه الشخصية، وما لها من صلة في الواقع وذلك على ضوء البحث الدقيق، فإن النتائج العلمية تثبت لنا عدم ثبوت هذه الشخصية، وأنها أسطورة وحديثها حديث خرافة، وهي من مبتكرات التعصب الطائفي، ودسائس السياسة، للحط من قيمة مذهب أهل البيت، والوقيعة في شيعتهم.

ولو أن هؤلاء الذين ذكروا عبد الله بن سبأ بتلك الصورة المدهشة، لينالوا من مقام الشيعة، وقفوا قليلاً أمام مصادر هذه الأسطورة، ومنحوا لها بعض الوقت من التأمل، لانكشف لهم الواقع وظهر أن المصدر الوحيد هو الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ولم يسبقه أحد في ذكرها، والكل رواها عنه وهو يرويها عن سيف بن عمر بسلسلة مظلمة مجهولة، وسيف قد أجمع علماء الرجال على أنه كذاب، وسيأتي الحديث عن قصة ابن سبأ في الجزء السادس من هذا الكتاب.

ولنصغي الآن إلى حديث الأستاذ كرد علي حول مذهب التشيع وعلقة ابن سبأ به. يقول الأستاذ كرد علي في خطط الشام:

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله ﷺ مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام لعلي بن أبي طالب والموالاة له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس فعلوا بأربع وتركوا واحدة ولما سئل عن الأربع، قال: الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج، قيل فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب.

قيل له: وإنها لمفروضة معهن، قال: نعم هي مفروضة معهن.

ومثل أبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد بن العاص، وقيس بن سعد بن عبادة.

وأما ما ذهب إليه بعض الكتّاب من أن مذهب التشيع من ابتداع عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة معرفة بحقيقة مذهبهم، ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة، وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله، وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم فيه، علم مبلغ هذا القول من الصواب، ولا ريب في أن أول ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيع له. انتهى[1].

* * *

ويقول الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء رحمه الله حول الغلاة ونسبتهم للشيعة:

أما الشيعة الإمامية فيبرأون من تلك الفرق براءة التحريم، على أن تلك الفرق لا تقول بمقالة النصارى بل خلاصة مقالتهم بل ضلالتهم: أن الإمام هو الله سبحانه ظهوراً واتحاداً أو نحو ذلك مما يقول به كثير من متصوفة الإسلام ومشاهير مشائخ الطرق، وقد ينقل عن الحلاج والكيلاني، والرفاعي، والبدوي وأمثالهم من الكلمات ـ وإن شئت فسمها كما يقولون شطحات ـ ما يدل بظاهره على أن لهم منزلة فوق الربوبية، وأن لهم مقاماً زائداً عن الألوهية (لو كان ثمة موضع لمزيد) وقريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود أو الموجود.

أما الشيعة الإمامية وأعني به جمهرة العراق وإيران، وملايين المسلمين في الهند ومئات الألوف في سوريا والأفغان فإن جميع تلك الطائفة من حيث كونها شيعة يبرؤون من تلك المقالات، ويعدونها من أبشع الكفر والضلالات وليس دينهم إلا التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق، أو ملابسة لهم في صفة من صفات النقص والإمكان والتغيير والحدوث، وما ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية، إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم في الحكمة والكلام من مختصرة أو مطولة.

* * *

---

(١) خطط الشام ج٦ ص٢٥١ ـ ٢٥٦.

وعلى أي حال فإن الشيعة براء مما نسب إليها من الغلو، وأما أهل المقالات في الغلو كالبيانية والمنصورية وغيرهم فإن نسبتهم إلى الشيعة ظلم ـ وما أكثر الظلم للشيعة ـ وتهجم على أمة تدين لله بالوحدانية، ولمحمد بالرسالة، ولآله بالمودة.

وأستطيع الجزم بأن هذه الأمور لم تخف على أولئك القوم الذين أصبحوا يتهجمون على الشيعة بالطعن في عقائدهم، إذ نسبوا إليهم هذه المقالات الفاسدة التي يقول بها الغلاة. نعم إنهم يعرفون الأمر ولكن الحق مر لا يمكن أن تتقبله أذواقهم، ولقد أعجزهم الأمر عن مؤاخذة الشيعة والطعن في عقائدهم، عندما وجدوا طرق المؤاخذات أمامهم مغلقة فلا يستطيعون منها النفوذ إلى مقاصدهم، فالتجأوا إلى هذه الخرافات والأباطيل التي لا تثبت أمام التدقيق والتحقيق.

كيف يستطيعون مؤاخذة الشيعة ومنهم صحابة الرسول والتابعين لهم بإحسان: كأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وجارية بن قدامة، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وحذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي، وصعصعة بن صوحان، والمقداد الكندي وغيرهم؟!!

ومن الغريب أن أكثر الكتّاب قد نسبوا لأصحاب محمد ﷺ تأثرهم بآراء ابن سبأ، وأي طعن على الإسلام وعلى رسوله ﷺ أعظم من هذا بأن يسيطر يهودي على عقول أصحاب النبي ومن تأدبوا بآدابه؛ وإليك ما كتبه بعض كتّاب العصر الحاضر عند ذكره لعبد الله بن سبأ ونسبة ظهور التشيع إليه، إذ يقول:

إن هذا الشيطان هو عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء، وكان يبث دعوته بخبث وتدرج ودهاء، واستكثر أتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشددين في الدين المتنطعين في العبادة إلى أن يقول: وعني بالتأثير في أبناء الزعماء من قادة القبائل وأعيان المدن الذين اشترك آباؤهم في الجهاد والفتح، فاستجاب له من بلهاء الصالحين وأهل الغلو من المتنطعين جماعات كان على رأسهم في الفسطاط الغافقي بن حرب العتكي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر بن عتاب، وعبد الله بن زيد بن ورقاء الخزاعي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعروة بن النباع الليثي، وقتير السكوني. وكان على رأس من استغواهم ابن سبأ في الكوفة عمرو بن الأصم، وزيد بن صوحان العبدي، والأشتر بن مالك بن الحارث النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم.

ومن البصرة حرقوص بن زهير السعدي، وحكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد العبدي، وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرش.

أما المدينة فلم يندفع في هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة نفر. محمد بن أبي بكر، ومحمد بن حذيفة، وعمار بن ياسر(١).

هكذا يقول، ونبرأ إلى الله مما يقول، ليت شعري أي جرأة أعظم من هذه الجرأة على أصحاب محمد ﷺ ووصفهم بهذه الصفة بأنهم مخدوعون بدعوة ذلك الشيطان، واستجابوا لما جاء به هذا اليهودي المزعوم، وهم خريجو مدرسة محمد ﷺ ودعاة الحق وأتباعه، ولكن الشيطان خدع هذا الكاتب فجاء بهذا الافتراء وهو (يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

ونحن نأمل من كتّابنا الذين يكتبون لذات الحق ولا يميل بهم الهوى، ولا تستولي عليهم النزعات الطائفية، أن يوجهوا عنايتهم لإظهار الحقيقة عند دراستهم لقضية ابن سبأ بأن يدرسوها دراسة مؤرخ لا يتحيز ولا يتعصب، ولا يقصد إلا خدمة العلم وإظهار الحق، ويقف موقف المدقق على مصادرها ورواتها والظروف التي أوجدتها، ليتضح له الأمر، ويتميز الحق من الباطل.

وأعود فأقول مؤكداً: إن قضية ابن سبأ أسطورة خرافية أوجدتها عدّة عوامل للحط من تعاليم الإسلام والنيل من رجاله، بأنهم قد تأثروا بآراء رجل يهودي فأوردهم موارد الهلكة، من دون تميز وتفكير، إلى غير ذلك مما يؤدي إليه إيجاد هذه الخرافة من مناقضات.

هذا مع أن سندها باطل، وراويها وهو سيف بن عمرو كذاب، وسيأتي التحقيق حول ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب.

---

(١) حملة رسالة الإسلام لمحب الدين الخطيب ص٢٣.

انتشار المذهب الجعفري

انتشاره في الأقطار الإسلامية:

وخلاصة القول أن المذهب الجعفري انتشر بقوته ومقوماته من دون استناد إلى سلطة أو عوامل الترغيب في اعتناقه، وأن أول ظهور الشيعة كان في بلد الحجاز، وهو أول أرض بذرت فيه بذرة التشيع. وفي المدينة المنورة في القرن الرابع انتشر بصورة ظاهرة، وقد عظم ذلك على من يسوؤهم انتشار مذهب أهل البيت كابن حزم فقد وصف المدينة المنورة بما لا يليق بها لوجود الشيعة فيها[١].

كما انتشر التشيع في الشام وكان أبو ذر الغفاري هو الذي نشر المذهب هناك، ولا يزال في قرية الصرفند بين صيدا وصور مقام معروف باسم أبي ذر اتخذ مسجداً معموراً.

وهم اليوم عدد كثير اشتركوا في إدارة البلاد وشغلوا مناصب مهمة في حكومة سوريا، ومنهم التجار والأطباء، ولهم مركز مهم هناك، وتقام عندهم مآتم عزاء الحسين عليه السلام علناً في عاصمة الأمويين، ويحضرها كثير من أهل السنة، والخطيب يفصح بمخازي معاوية ويزيد وبني أمية مستنبطاً ذلك من التاريخ الصحيح.

ويقول ابن جبير في رحلته في وصف المذاهب المتغلبة على الشام في القرن السادس: إن الشيعة أكثر من السنيين وقد عموا البلاد بمذهبهم.

ويقول كرد علي: وفي دمشق يرجع عهدهم (أي الشيعة) إلى القرن الأول للهجرة، وفي أكناف حوران وهم مهاجرة جبل عامل، وفي شمال لبنان والمتن والبترون وهم مهاجرة بعلبك، ولا يقل عدد الشيعة في الشام من الإمامية عن مائتي ألف نسمة[٢].

أما جبل عامل وهو البلد الواقع بين صفد جنوباً ونهر الأولي شمالاً، وغور الحولة وما والاها إلى أرض البقاع شرقاً، والبحر المتوسط غرباً فقد كان بدء التشيع في جبل عامل بفضل الجهود التي بذلها المجاهد في الله أبو ذر الغفاري رضي الله عنه

---

(١) النبذ في أصول الفقه الظاهري لابن حزم.

(٢) خطط الشام لكرد علي ج٦ ص٢٥٢.

وانتشر بسبب دعوته، وكانت حركة العلم واسعة حتى اليوم، فالتشيع في لبنان منتشر بكثرة ويسير بكل نظام وهدوء، محفوظ الحقوق، مرعي الجانب، ولهم في جامعة النجف الأشرف جماعة، وتخرج منها عدد كثير من أبطال العلم، وحملة دعوة الإصلاح، ومنهم المجتهدون المجاهدون في نصرة الدين وجمع كلمة المسلمين.

ويقول الأستاذ كرد علي أيضاً: إن في حمص قرى للشيعة خاصة، وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة، وفي أعمال ادلب قرى الفوعة ونبل وغيرهما، وكلها شيعة وفيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف في مدينة حلب، وكل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم.

يشير بذلك إلى الكارثة التي أصابت الشيعة عندما أفتى الشيخ نوح الحنفي بكفر الشيعة واستباحة دمائهم تابوا أو لم يتوبوا، فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون ألفاً من الشيعة، وانتهبت أموالهم وأخرج الباقون إلى القرى.

وغلب مذهب التشيع في حلب بصورة ظاهرة ولهم قوة استطاعوا أن يمنعوا سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عن بناء المدرسة الزجاجية وذلك في سنة ٥١٧هـ. وسرى التشيع في أفريقيا بانتشار عظيم، إلى أن قاومته السلطة، يوم كان أمير أفريقيا المعز بن باديس، فإنه فتك بالشيعة فتكاً ذريعاً وذلك في عام ٤٠٧هـ فقد أوقع بهم وقيعة عظيمة، ونسبوا ذلك إلى سب الشيخين وهي المادة التي يطبقها الولاة على من يريدون الفتك به من أي الفرق كان.

وذلك أن المعز بن باديس مر على جماعة من الشيعة في القيروان وقد سأل عنهم، فلما أحس الناس من المعز الميل عنهم انصرفت العامة من فورها إلى مجتمعات الشيعة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وتوجه العسكر للنهب، وشجعهم عامل القيروان فقتل منهم خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت دورهم، وتتبعوهم في جميع أفريقيا، واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قرب القيروان فتحصنوا به، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم، ولجأ منهم بالمدينة إلى الجامع فقتلوا كلهم[1].

وهذه إحدى النكبات الفظيعة التي لاقاها التشيع وما أكثرها، ومع ذلك فإن

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٩ ص١٢٣ ط١.

التشيع اليوم منتشر في أفريقيا الوسطى والجنوبية زهاء عشرة ملايين نسمة.

وفي أندونيسيا عدد كثير من الشيعة يقدر بثمانية ملايين نسمة، وللعلويين هناك اليد الطولى في نشر المذهب، وكان منهم العلامة السيد محمد السيد عقيل صاحب المؤلفات القيمة «كالنصائح الكافية» و«العتب الجميل» و«تقوية الإيمان» و«القول الفصل». وكان يقيم في سنغافورا، وكانت لهم أندية أدبية تربط أواصر بعضهم مع بعض.

* * *

أما في مصر فقد انتشر التشيع عند انتشار الإسلام هناك بواسطة أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا فتح مصر، وهم المقداد بن الأسود الكندي وأبو ذر الغفاري، وأبو رافع، وأبو أيوب الأنصاري، فهؤلاء هم دعاة التشيع وأنصاره.

ولما دخلها عمار بن ياسر أيام عثمان دعا إلى التشيع ونمت روحه حتى أصبحت البلاد كلها إلى جانب علي وأجمعوا على مقاومة عثمان.

ثم دخلها بعد ذلك قيس بن سعد والياً فركز دعائم التشيع هناك، وخفق لواؤه وكثرت جنوده، لكن بدخول عمرو بن العاص تأخر سير تلك الحركة إلى أن زال ملك الأمويين، فأظهر المصريون ما انطوت عليه قلوبهم من الولاء لعلي عليه السلام، ولا زال التشيع يظهر في مصر ويخفى حسب العوامل التي تدعو إلى خفائه وظهوره، وهو اليوم منتشر هناك وفيه فئات كثيرة.

* * *

وفي الهند ظهر التشيع هناك وانتشر بسبب الروابط المتصلة بين العرب والهنود، وقد اعتنق مذهب التشيع جماعة كبيرة من الوثنيين بمساعي المرشدين الذين دخلوا بلاد الهند من الشيعة، ومنهم جماعة كثيرة باقون إلى اليوم ولهم امارات في جميع الأقطار الهندية، ولا يخلو بلد منهم، وهناك بلد تختص بهم وأخرى يكونون الأكثرية بها وهي لكنهور وهي المركز الوحيد للشيعة في الهند وعاصمة مملكة اودة الفانية ومنبع علمائها قديماً وتعد اليوم من أكبر البلاد العلمية، وفيها مدارس عربية أهمها الجامعة السلطانية، ومنها مدرسة الواعظين وهي تختص بالتبليغ، والمدرسة الناظمية وقد أسسها العلامة السيد أبو الحسن كما أسس الجامعة السلطانية، وفي لكنهور الشيء

الكثير من آثار الشيعة كالمساجد والحسينيات. ومن البلدان جانبور، بتن آباد، مظفر آباد، لاهور، بنجاب[1].

وبعد استقلال الباكستان وانفصالها عن الهند لعب الشيعة دوراً كبيراً في بناء باكستان الحديثة وحافظوا على مواقعهم في المجتمع الجديد ومنهم العلماء ورجال الدين وكبار التجار والأدباء وحملة الشهادات.

وتنتشر في عموم الباكستان المساجد والحسينيات وأصبح وجودهم متميزاً وفي انتشار وتوسع. وقد أذنت للعلامة السيد حيدر جوادي كراروي بترجمة كتابنا «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» إلى اللغة الأردية لكثرة الطلبات وإقبال الشباب على قراءته وقامت بنشرة مكتبة تعمير أدب في لاهور عام ١٣٨٨ وأهدانا السيد أبرار حسين شيرازي نسخة عن مكتبة تعمير أدب نحتفظ بها الآن وقد بلغتني أخبار تبهج النفس وتسر المؤمن لذلك الإقبال على مبادىء أهل البيت والتقيد بمنهجهم في الحياة والالتزام بأقوالهم وتعاليمهم وتزايد أعداد الشباب وارتباطهم بالمجامع الشيعية والمراكز الدينية في مختلف أنحاء الباكستان.

أما في تركيا فقد انشتر المذهب بصورة محسوسة وكثر اتباعه ولكن السلطان سليم المتوفى سنة ٩٢٦هـ قاوم الشيعة وقتل منهم مقتلة عظيمة.

يقول إبراهيم الطبيب الأول للجيش التركي: وكان السلطان سليم شديد التعصب على أهل الشيعة، ولاسيما أنه كان في تلك الأيام قد انتشرت بين رعاياه تعاليم شيعية تنافي مذهب أهل السنة، وكان قد تمسك بها جماعة من الأهالي، فأمر السلطان سليم بقتل كل من يدخل في هذه الشيعة، فقتلوا نحو أربعين ألف رجل، وأخرج فتوى شيخ الإسلام بأنه يوجر على قتل الشيعة وإشهار الحرب ضدهم[2].

ومع هذا فهم اليوم في تركيا عدد كثير منتشرون في أطراف البلاد.

وفي السعودية فالقطيف وقراها شيعة خالصة. وأما الإحساء وقاعدتها هفوف فالشيعة فيها يشاطرون غيرهم، كما أن في قطر يوجد كثير من الشيعة، ولا يزال من الإحساء والقطيف في النجف الأشرف مهاجرون لتحصيل علم أهل البيت، ومنهم

---

(١) تاريخ الشيعة ص٢٥٨.

(٢) مصباح الساري ونزهة القاري ص١٢٣ ـ ١٢٤.

علماء مبرزون وأدباء لهم مكانتهم الأدبية والعلمية، وفي البحرين للتشيع مكانة، ولأهله قوة، وقد برز منه علماء خدموا الأمة الإسلامية، بمؤلفاتهم القيمة وآثارهم الجليلة، التي تعد في الواقع من أعظم التراث الشيعي، ولهم في النجف الأشرف الآن بعثات تتلقى العلوم الدينية، ومنهم علماء مبرزون وأدباء مشهورون.

وفي الأفغان انتشر التشيع من زمن بعيد، ويقدر عددهم اليوم بعشرة ملايين، ويوجد منهم في النجف زهاء ثلاثة آلاف نسمة منهم من يدرس الفقه الجعفري، ومنهم من يلتمس الرزق، وقد برز منهم علماء لهم مكانتهم العلمية.

* * *

وهاجر كثير من الشيعة إلى أميركا من السوريين وجبل عامل للتجارة والزراعة من قبل نصف قرن، وينوف عددهم اليوم على خمسين ألفاً، وهم ذوو شأن وعزة هناك يقيمون شعائر الإسلام علناً، وقد بنوا مسجداً فخماً في الولايات المتحدة وفي أميركا من الشيعة قوم من الفرس والهنود وقليل من العراقيين.

كما دخل مذهب التشيع إلى الصين منذ القرن الرابع ولهم عدد كثير هناك حتى اليوم.

وفي روسيا كان للشيعة في البلاد الروسية حرية واسعة في إقامة الشعائر الدينية كبلاد بخارى والقوقاس، وكانوا قبل الحرب العالمية عام ١٣٣٢هـ يتواردون بكثرة لزيارة المشاهد المقدسة، ويفدون مهاجرين لطلب العلم، وإلى اليوم منهم جماعة في النجف حالت دون وصولهم لأوطانهم ودون الصلات اتصالهم ببلادهم هذه السلطة الحاضرة.

أما العراق فقد انتشر فيه مذهب أهل البيت في الصدر الأول، وقام بذلك أصحاب الرسول ﷺ في الكوفة، والمدائن والبصرة، وعرفت الكوفة بأنها علوية النزعة وقام رجال الدعوة في الدفاع عن أهل البيت، وتحملوا في عهد معاوية ما تحملوا كما مر بيان ذلك.

وفي المدائن كان سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان قد نشرا دعوة التشيع هناك، وكذلك البصرة وغيرها من مدن العراق من الشمال إلى الجنوب، وانتشر التشيع فيها بصورة ظاهرة، والعراق اليوم معروف بتشيعه لأهل البيت وولائهم للعترة الطاهرة. والشيعة هم الأكثرية في العراق وقد قاوموا ظلم الأتراك بثورات سجلها

التاريخ بكل فخر لهم في محاربة الاستبداد، وقاوموا الاستعمار الإنكليزي، وأعلنوا ثورة العشرين التي شيدت صرح الاستقلال الوطني.

أما في إيران، فقد كانت بلاد فارس مسرحاً للجيوش الإسلامية وكان اهتمام الحكام منصباً على استدرار الأموال وتعيين العمال الذين ينفذون سياسة النظام القائم ويلبون رغبات السلطان، ونزحت قبائل عربية كثيرة ورغم عداء الأمويين وعملهم على إبعاد العناصر المعروفة من الشيعة وإرسالهم مع الجيوش فإن الكثير من القبائل عرف بالتشيع ولم تتخلّ عن هويتها.

وكانت قم وحدها في القرن الأول شيعية، وكان سير التشيع في إيران ثقيل الخطا وهم شيعة بني العباس، وفيهم من يذهب إلى تقديس الأمويين ومناصرتهم، كما أن في خراسان نواصب وغلاة في معاوية يدعون نبوته، ولكن مذهب أهل البيت انتشر في بلاد إيران بصورة تدريجية على ممر الأدوار، حتى أصبحت إيران اليوم كلها شيعة حكومة وشعباً، وقامت بخدمة المذهب ونشر مآثر أهل البيت وعمارة مراقدهم.

أما عدد الشيعة في اليمن فكثير جداً حسبما بلغنا ممن زاروا بلادهم هناك، وقد انتشر التشيع في بقاع اليمن منذ صدر الإسلام.

ولكن المذاهب الزيدية بمرور الزمن أخذ بعض علمائها يتأثرون بنزعات السلفية ويخشون اتهامات الابتداع التي شهرت بوجه الشيعة منذ مئات السنين لتنفير الناس منهم وإبعاد المسلمين عنهم وإخراجهم بمظهر الابتعاد عن الجماعة. وشاع اتجاه الأخذ ببعض مقولات المتخلفين والسلفية من أهل التعصب والجمود، وانتشرت بين الصفوف في اليمن. ولكن مذهب أهل البيت له وجود في اليمن ـ وكما علمت ـ فإن من مهمات رجال المذهب جلاء أصول الزيدية والعودة إلى جوهر تعاليم الشهيد زيد بن الإمام زين العابدين، ورفض التباعد عن الشيعة المفروض لأغراض أخرى تجهد في رسم ملامح بعيدة عن الأصول الزيدية، فالشهرستاني يفضل تأكيد صفة الاعتزال على حقيقة التشيع، فيدعي أنهم يعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت عليهم السلام[1] مما يدحضه تراث علمائهم ومراجعهم ومصنفيهم الزاخر بعبقات الولاء لأهل البيت، وأشعارهم المشحونة بالإخلاص وصادق الحب، كنظم

---

(١) الملل والنحل ج١ ص٨٤.

العلّامة مصنف الهداية اللؤلؤية وهو من رجالهم ومراجعهم في القرن التاسع الهجري:

وإنـي وحـبـي لـلـنـبـي وآلـه ... وما اشتملت مني عليه ضلوع
وإن أَفَلَت منهم شموس طوالع ... يكون لها بعد الأفول طلوع

* * *

ومنها:

أبالله لي غير التشيع مذهباً ... ومن لامني فيه فلست أطيع
بني المصطفى لي أسرة وجماعة ... ومذهبهم لي روضة وربيع
أصم إذا حدثت عن قول غيرهم ... وإن حدثوني عنهم فسميع
وبالله إني في التشيع واحد ... وإن كثرت لدي جموع[1]

أما الشوكاني الذي تعرض لعدوى السلفية وأصابته حمى التيمية، فَبَعُدَ عن أصول الزيدية، وتمكن من الادعاء فراح يشمل الزيدية بالتهم الباطلة التي وجهت إلى الشيعة الإمامية والتي يبرأ منها كل مسلم، فيقول في رسالته (القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد) واصفاً أبناء بلده من الزيدية بالتشيع، وإن العوام (طبائعهم مجبولة على التشيع إلى حد يقصر عنه الوصف، حتى لو أن أحدهم سمع النقص بالجناب الإلهي والجناب النبوي لم يغضب له عشر معشار ما يغضبه إذا سمع التنقص بالجناب العلوي بمجرد الوهم والاتهام الذي لا حقيقة له)... اهـ. وآخر عبارته مصداق ما وقع فيه هو وما شاب معتقده.

هذه أهم الأصقاع التي تنبسط فيها منابت الشيعة ولهم في جميع أصقاع العالم جاليات منتشرة. وسنتحدث عن بعض مآثر الشيعة وتراثهم القيم وخدماتهم الإسلامية، ومواقفهم في وجوه الظلمة بصراحة لا أثر فيها للخداع والغش، ولا يشوهها الحرص على الصلات والجوائز وطلب المناصب.

كما سنتكلم عن آدابهم التي تأثرت بآداب الإسلام وثقافته، وأن ذهنيتهم صقلتها التجارب، فكانت أكثر ما تعنى بالأفكار العميقة، والمعاني الدقيقة، وأنهم يمتازون بالعواطف الثورية الهائجة لاستنهاض الأمة من كبوتها، وإيقاضها من غفلتها.

---

(١) انظر البدر الطالع.

والشيء الذي يجب الالتفات إليه هو أن تاريخ الشيعة لم يدرس الدراسة الكافية التي ترفع الغموض الذي يكتنف مبادئهم وتطورهم، إذ المصادر التي يستمد منها المعلومات عن الشيعة مضطربة لا توضح الطريق الموصل إلى الحقيقة، لأنها مصادر لم تسلم من سيطرة التعصب الأعمى وغلبة الأهواء المردية والتحيز الممقوت.

كما أن كتّاب الفرق قد سلكوا طريق الافتراء والتحامل، ولم يكتبوا للعلم بل كانت كتاباتهم مجردة عن كل ما له صلة بالحقيقة، وسنوضح ذلك إن شاء الله عسى أن نكشف جانباً مهماً له تمام الصلة بحياتنا الاجتماعية، لأن ليس من اللائق أن يتعايش الشيعي مع أخيه السني في إطار العلاقات الاجتماعية فيجد أحدهما من الآخر ما يوثق العلاقات ويمتن المودة وإذا ما جاءت مناسبة يبدي بها الشيعي فرحه لذكرى تتعلق بآل البيت، أو يظهر فيها حزنه لحادثة الطف أو غيرها من الفواجع، وجد من أخيه امتعاضاً أو اتهاماً، وعند التحقق يجد الشيعي أن أخاه السني متأثر بأقوال زرعتها أقلام لا ترقب الله، أو ألسنة لا ترعى حرمة الدين. ولقد عشنا في العراق مواسم لا تفرق فيها بين السنة والشيعة، لأن الشيعة باعتبارهم الأغلبية عملوا على جعل المواسم مناسبات تلهب المشاعر الوطنية وتخدم قضايا الأمة الإسلامية في مواجهة القوى الأجنبية المستعمرة أو الحكام الظلمة. وقد عشت أيضاً تعاطف إخواننا السنة في المواسم والمواقف، كما رأيت ماذا صنعت السلفية في النفوس حتى أثمرت نصباً كريهاً وحقداً بغيضاً وأنا أقيم خارج العراق.

ونسير على ما دأبنا عليه من سلوك التجرد لكشف الحقيقة والله الموفق للسداد.

* * *

تصفيـة الحسـاب

أسباب الخلاف وعوامل التفرقة:

يطالعنا التاريخ بحوادث مؤلمة، ونزاع بين طوائف المسلمين عامة وبين الشيعة والسنة بصورة خاصة، فإذا أردنا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى حدوث تلك المنازعات نجدها سياسية قبل أن تكون دينية، وقد اتضح لنا في الأبحاث السابقة أن تدخل أولي النفوذ والسلطة هو الذي جر الأمة إلى تلك المنازعات، وأوقعهم في ورطة الاختلاف، ونشوء تلك المعارك التي اضطرمت نارها، وتنوعت أسبابها بصورة ظاهرة، ويعود ذلك إلى سبب رئيسي هو عامل السياسة.

فذهبت آلاف من النفوس، واتسعت بذلك شقة الخلاف، وفتحت باب الظنون والاتهامات، ونحن لا يتعلق لنا غرض بذكر الخلاف بين جميع طوائف المسلمين لأنا نعلم أن هذا الخلاف قديم عميق، ومن المؤسف أن كثيراً من قادة المسلمين لم يلتفتوا إلى ما وراء ذلك من خطر يهدد كيان الأمة، ويقضي على وحدتها التي هي أقوى عامل تستطيع به الانتصار على خصومهم، الذين وقفوا لهم يتحينون الفرص للوثبة عليهم والتشفي منهم، وقد مرت الإشارة إلى ذلك.

وحيث كان بحثنا عن المذهب الجعفري وعوامل انتشاره، فنحن لا نتعرض إلا بالإشارة لأسباب الخلاف المتكون بين السنة والشيعة، وقد مرت عليه قرون وقرون، ولم تسعد الأمة يوماً ما برفع سوء التفاهم وإزالة تلك الحواجز التي تقف بينها وبين وحدتها التي أمر الله سبحانه وتعالى جميع المسلمين بالمحافظة عليها، وعالج الدين الإسلامي مشاكل الخلاف وبيّنها بأدق صورة.

فنحن نرى أن هذا الخلاف القائم بين الطائفتين مبني على سببين رئيسيين هما:

١ ـ الخلاف في الخلافة الإسلامية ومن هو المتأهل أهلية صالحة للولاية العامة والرئاسة الشاملة، وهي لا تحصل إلا لمن خصه الله بالكمال، وخلصه من شوائب النقص في الأقوال والأفعال، ونزهه عن الظلم للرعية، حتى يقيم الحدود و(الله أعلم حيث يجعل رسالته) والشيعة لا يرون تحقق تلك الشروط وحصول هاتيك الصفات إلا في من اختاره الله وأمر نبيه بالنص عليه.

٢ ـ عوامل السلطة فإن الطبقة التي سيطرت على نظام الحكم رأت من نفسها عدم انطباق تلك الشروط عليها، والشيعة لا يرون قيمة لسلطان لا يتمسك حق التمسك بالشرع، ولا يتنزه عن الظلم ولا يتورع عن المحارم، وليس له قابلية تحمل أعباء الخلافة الإسلامية، وإن من هؤلاء الذين تربعوا على دست الحكم يريدون أن يكسبوا ثقة الأمة ويركزوا أنفسهم بالسلطتين الروحية والزمنية فينالوا الثقة التامة، ويصبحوا أمراء المسلمين بحق مع عدم انطباق ما يؤهلهم لذلك، فهم إذاً يرون الشيعة حزباً معارضاً، وعقيدتهم لا تتمشى مع أغراضهم، فكانوا لا يعارضون العقائد، ما دامت لا تعارض سياستهم وأغراضهم الخاصة، والناس في أذهانهم ذلك العصر الذي كانوا يسيرون به في حرية العقيدة، وحرية العبادة بأمن تحت ظلال السلطة وأمام القانون.

أما إذا كانت العقيدة مخالفة لرأيهم أو أن لها دخلاً في سياسة الدولة، فلا يسمح القانون بإظهارها، ولا تقعد السلطة عن مقاومتها، ومن الواضح أن عقائد الشيعة تخالف دستور الحكومة في أغلب الأشياء التي تخرج عن مقاييس حرية الرأي أو سلامة النية والقصد الحكيم والعقائد الصحيحة، ومن هذا التجأ القانون إلى عدم المساواة في العقائد من جهة، وإلى مساواتها من جهة أخرى، فترى مواقف الحكومة مختلفة اختلافاً كلياً، وتقف في أكثر حالاتها موقف الحيرة خوفاً من انتشار العقائد التي لها أثرها عند المفكرين فتصبح الأقلية أكثرية، ولا يمكنها الوقوف أمام جارف الإنكار، فهي تلتجيء أبداً إلى خلق مشكلات تفرق بها كلمة الأمة لتثير الشحناء، وتشغل الأفكار، وذلك هو قانون الظلمة وأصحاب المصالح الشاذة يهديهم إليه طبعهم وبقاء الحالة عبر العصور بين معسكرين معسكر الظلم ومعسكر العدل.

الاتهام بالتشيع:

وعلى هذا الأساس حاولوا إبراز الشيعة في ذلك المجتمع بصورة تدعو إلى

مقاومتهم من كل الجهات، وفصلهم عن المجتمع الإسلامي بالطعن في عقائدهم مرة، وبالخروج على الجماعة مرة أخرى.

فوجهوا إليهم التهم، وتقولوا الأقاويل التي لا نصيب لها من الصحة، ولا حظ لها من الحقيقة، وإنما هي اتهامات كاذبة وافتراءات محضة تمكنت من قلوب السذج فأصبحت كالأمر الواقع، لكثرة العوامل التي دعت إلى تركيز تلك المفتريات في أذهان الناس، وتجنيد السلطة لإشاعتها أقوى الطاقات.

وأنت إذا نظرت بعين البصيرة تجد تلك المؤاخذات والاتهامات التي رميت بها الشيعة غير محدودة بحد، بل تتسع باتساع غرض السلطة الحاكمة التي لعبت دورها في مقاومة الشيعة على ممر أدوار التاريخ، فيبرز في فترة ضرب معين وفي أخرى بشكل مغاير.

وسارت الأمور على ذلك الشكل الذي قضى على حرية التفكير في فهم الأمور، وأن لا يكون إلا ما تراه السلطة وما تتمسك به.

يدخل الإمام مالك بن أنس على أبي جعفر المنصور، فيوجه إليه سؤالاً: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟

وهنا يقف مالك موقف الحيرة عندما يريد أن يعبر عن رأيه الصحيح، فربما يخالف رأي المنصور فيكون عرضة للنقمة، كما نقم منه من قبل لمخالفته في فتوى طلاق المكره.

ولكنه درس نفسية المنصور وعرف أغراضه المكنونة، فأجابه: أبو بكر، وعمر، فقال المنصور: أصبت وذلك رأي أمير المؤمنين.

وبالطبع ان رأيه محترم والرعية تابعة له فلا يمكن لأحد مخالفته، ومن ذهب إلى غير هذا فإنما يعرض نفسه للسخط ويصبح في قائمة المتهمين لمعارضة الدولة، وناهيك بما وراء ذلك من بلاء ومحن، ويمكننا أن نعتبر مسألة التفضيل بين الخلفاء بدعة سياسية، ودعاية من دعايات التفرقة منذ أول نشوئها في البيئات الأموية في الشام، وفي غير الشام، ومن المعلوم عند الراسخين في دراسة التاريخ أن مسألة التفضيل بين الخلفاء إنما كانت بهذا الشكل الحتمي لا من حيث الواقع، وإلا لو ترك الأمر بدون تدخل السلطة فيه لما كانت المسألة من المسائل المشكلة التي ابتليت بها

الأمة حتى أصبح القائل بأفضلية عليّ على الشيخين مبتدعاً زائغاً عن الحق سيء المذهب، رافضياً خبيثاً، زنديقاً مارقاً، إلى ما هنالك من التعابير التي اتخذها المتزلفون لرضا السلطة.

وإذا رجعنا للواقع من حيث الواقع بدون مغالطة ولا تعصب في ضوء التفكير الحر، والدراسات الصحيحة الخالية من نزعة الأهواء، نجد أن ترتيب الخلفاء حسب أزمنة خلافتهم ليست حجة على فضل بعضهم على بعض وجدارتهم بالحكم، وإنما هي تقليد أعمى، وجمود على اتباع السلف، الذين عرفت نزعاتهم وأهواؤهم وميلهم للسلطة التي أصبحت ترغم الناس على ربط العقائد بدستور الدولة، فترى المأمون يخلق مشكلة القول بخلق القرآن ويحمل الناس عليه بالقهر، ولا يجعل للتفكير في الأمر مجالاً، فيقع ما يقع من قتل وتكفير إلى غير ذلك، ويأتي من بعده المتوكل فيخالف رأيه، ويقضي على ما أمر به المأمون، ويحمل الناس على القول بقدم القرآن بالقهر والقوة.

ويأتي القادر العباسي سنة ٤٢٢هـ فيحمل الناس على الاعتقاد بما يراه في فضل الصحابة، وتكفير المعتزلة القائلين بخلق القرآن، ويؤلف بذلك كتاباً يتلى على الناس في كل جمعة، كما أنه حملهم بالقهر على الاعتقاد بالسنة، واستتابة من خالفه من المعتزلة والشيعة، وأخذ خطوطهم بالتوبة، ويبعث إلى السلطان محمود، يأمره ببث السنة في خراسان، ففعل ذلك، وبالغ وقتل جماعة ونفى جماعة آخرين من المعتزلة والشيعة وغيرهم، وأمر بلعنهم على المنابر، وذلك في سنة ٤٠٨هـ[1].

وفي سنة ٤٠٣هـ يصدر مرسوم من البلاط العباسي يتضمن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر وأنهم ليسوا من أبناء علي[2]، ونشر هذا المرسوم ووزعت نسخه، والزم علماء بغداد بتوقيعه، إلى غير ذلك مما يطول شرحه من الأمور التي تدخلت بها الدولة لغاياتها الخاصة، ولا يريدون بذلك إلا فتح باب المناقشات، لا بصورتها الواقعية ولكن بالصورة التي يريدون من ورائها الشغب والاختلاف بين الأمة للنفوذ إلى مصالحهم الخاصة، وإلا فيلزمهم إعطاء الحرية الكاملة في المناقشات

---

(١) شذرات الذهب ج٣ ص١٨٦.

(٢) تاريخ أبي الفداء ج٢ ص١٥٠.

العلمية التي تختلف فيها الأمة ولا يؤدي اختلافها إلى فرقة بل إلى غناء في الأفكار وتقدم في المواهب والمقدرات وهو ما يهدد ملكهم وسلطويتهم، لذلك حصروا الخلاف فيما يسيء إلى وحدة الأمة واختلقوا أسباب تفرّق المجتمع الإسلامي، وتركوهم يخوضون غمرات المعارك المذهبية والعقائد الدينية، وتدخلوا بقسوة في حياة الفكر وعاملوا المفكرين الذين يأبون الانصياع لمخطط الحكام بكل صنوف الأذى والكبت.

ضحايا المبدأ:

والغرض ان نظر الدولة لموقف الشيعة إلى جنب آل محمد يعتبرونه موقفاً معارضاً لسياستهم، ومحاولة ظاهرة للقضاء على كيان الملك الذي تربعوا على دسته بدون أهلية، وهو من حق آل محمد ﷺ، فهم يحذرونهم أشد الحذر، ويدفعون الناس إلى التبرؤ منهم بشتى الوسائل، حتى أصبحت تهمة التشيع طريقاً إلى الهلاك يفرون منها ويرون أنها أعظم من تهمة الزندقة.

قال الزمخشري في كيفية الصلاة على محمد ﷺ: وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد، فمكروه لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنه يؤدي إلى الاتهام بالرفض، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم. وأمثال هذه الفتاوى كثيرة جداً. وقد تركوا القول بأشياء رغم صحتها وثبوت تشريعها، وليس لهم في تركها إلا لأن الشيعة تقول بها، ومتابعتهم تؤدي إلى الرفض كما مر بنا شيء منه وكما سيأتي ذكره.

ومن هذا نعرف عظيم حراجة الموقف، وإلى أي حد انتهى الأمر في الابتعاد عن شيعة أهل البيت، في عصر تأصلت فيه روح العداء في قلوب الناس الذين ساروا مع الدولة جنباً لجنب، وهل الرفض إلا حب أهل البيت كما يوضح لنا الشافعي بقوله:

إذا في مجلس ذكروا علياً ... وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزوا يا قوم هذا ... فهذا من حديث الرافضية
برئت إلى المهيمن من أناس ... يرون الرفض حب الفاطمية

ويقول:

قالوا ترفضت قلت كلا ... ما الرفض ديني ولا اعتقادي

لكن توليت من غير شك — خير إمام وخير هادي
إن كان حب الوصي رفضاً — فإنني أرفض العباد

وأظرف شيء ما يحدثنا به الخطيب عن الفتح بن شخرف قال: حملتني عيني فنمت، فبينما أنا نائم إذا أنا بشخصين فقلت للذي يقرب مني: من أنت يا هذا؟ فقال: من ولد آدم، قلت: كلنا من ولد آدم، فما الذي وراك؟ قال لي: علي بن أبي طالب، قلت له: أنت قريب منه ولا تسأله، قال: أخشى أن يقول الناس إني رافضي(١).

وكان الفضل بن دكين يتشيع فجاءه ولده يوماً يبكي فقال له: ما لك فقال: إن الناس يقولون إنك تتشيع فأنشأ يقول:

وما زال بي حبيك حتى كأنني — برجع جواب السائلي عنك أعجم
ولا سلم من قول الوشاة وتسلمي — سلمت وهل حي على الناس يسلم(٢)

وإن أمراً يدعو الولد إلى هذا الحذر، ويحمله على البكاء لعظيم جداً، ولا غرابة من ذلك فإنه يخشى على أبيه القتل، وعلى داره الهدم، وماله النهب، طبقاً لقانون الدولة المقرر تنفيذه في حق الشيعة، لأنهم كانوا ينفذون هذا القانون في حق من اتهم بالميل للعلويين.

كان إبراهيم بن هرثمة شاعراً مجيداً مدح آل البيت بأبيات منها:

ومهما (أُلام) على حبهم — فإني أحب بني فاطمه
بني بنت من جاء بالمحكما — ت وبالدين والسنة القائمه
فلست أبالي بحبي لهم — سواهم من النعم السائمه

ولما دخل على المنصور قال: لا مرحباً ولا أهلاً، يا إبراهيم قد بلغني عنك أشياء لولا ذلك لفضلتك على نظرائك فأقر لي بذنوبك فاستعفاه فعفى عنه حفظاً لدمه، وقال: لئن بلغني عنك أمر أكرهه لأقتلنك.

ولما دخل إبراهيم المدينة أتاه رجل من العلويين فسلم عليه فقال له إبراهيم تنح عني لا تشط بدمي(٣).

---

(١) الخطيب ج١٢ ص٣٨٦.
(٢) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٥١.
(٣) تاريخ بغداد ج٦ ص١٢٧.

وهذا منصور النميري أنشأ أبياتاً منها:

آل النبي ومن يحبهم يتطامنون مخافة القتل
امن النصارى واليهود ومن في أمة التوحيد في أزل
إلاّ مَصَالت ينصرونهم بظبا الصوارم والقَنا الذُبل

فغضب الرشيد وأرسل إليه من يقتله فوجده ميتاً فقال: لقد هممت أن أخرج لسانه من قفاه. وأراد أن ينبش عظامه فيحرقها ولكنه لم يفعل(١).

وقطعوا لسان ابن قرايا لأنه كان يمدح آل محمد ﷺ وينشد الأشعار فيهم، فثارت العامة في بغداد، وقدم للقاضي، فحكم عليه بقطع لسانه ويده استناداً إلى مادة الحط من كرامة الصحابة، بمدحه علياً عليه السلام وتفضيله عليهم.

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، ولكنهم تبعوه عندما أخذ للمارستان، ورموه بالحجارة، فألقى نفسه في دجلة فغرق وأخرجوه ميتاً وأحرقوا جسده، ووقعت بذلك معركة بين السنة والشيعة وذلك في سنة ٥٧٤(٢).

وقامت البينة على الحسن بن محمد بن أبي بكر الشيعي، بأنه سب الصحابة عند القاضي شرف الدين المالكي، فحكم عليه بضرب عنقه بسوق الخيل بدمشق في جمادى الأولى سنة ٧٤٤هـ(٣).

وأمثال هذه الفظائع كثيرة لا يسعنا عرضها، ولكنا أوردنا طرفاً منها لنأخذ صورة عن أعمال الدولة وسياستها مع الشيعة، يروي ابن عبد ربه عن الرياشي: سمعت محمد بن عبد الحميد يقول: قلت لابن أبي حفصة: ما أغراك ببني علي؟ قال: ما أحد أحب إلي منهم، ولكني لم أجد شيئاً أنفع عند القوم منه. وهنا أمر مهم يلزمنا أن نتساءل عنه:

وهو ان الإقدام على سفك دم المسلم باسم الشريعة هو جرأة عظيمة، وان دولة تدعي السير على نظام الشرع كان يلزمها أن تتخذ طريقاً للخلاص من الإنكار والمؤاخذة، كما اتخذت ذلك في كثير من القضايا المخالفة لنظام الإسلام.

---

(١) زهر الآداب ج٢ ص٦٥٠.
(٢) شذرات الذهب ج٤ ص٢٤٦.
(٣) شذرات الذهب ج٦ ص١٤٠.

إذاً ماذا اتخذوا تجاه هذه الفظائع وهذه المنكرات في معاملة الشيعة؟ أليس في الأمة علماء ينبهون الحكومة والعامة على هذا الخطأ عند مخالفتهم نصوص الكتاب والسنة بإراقة الدماء في عمل لا يستوجب ذلك؟ وكيف سكت العلماء عن هذا الفعل الشنيع؟ ولم تقتصر سياستهم على إراقة الدماء وإنزال الأذى بالشيعة بل قاموا بحملة مضادة يسعون بها إلى مواجهة اعتقادات الشيعة.

نعم انهم لم يغفلوا عن ذلك واتخذوا التدابير اللازمة في رد المنكرين بأمور منها:

١ ـ إنهم رفعوا مقام الصحابة على الإطلاق، ومنعوا الناس عن الخوض في أحاديثهم وحوادثهم، وجعلوا لهم منزلة العصمة الادعائية، وقرنوهم بالرسول الأعظم ﷺ وجعلوا مؤاخذتهم بشيء إنما هو مؤاخذة للرسول ﷺ. وأن الطعن في حديثهم هو طعن في حديث الرسول ﷺ.

ذكر عند الرشيد حديث أبي هريرة: أن موسى لقي آدم فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة، فقال القرشي أين لقي آدم موسى، فغضب الرشيد، وقال: النطع والسيف زنديق يطعن في حديث رسول الله[1].

وبهذا ألجمت الأمة ليحرموها حرية التفكير، وألزموها بالنزول لإرادتهم، فمن خرج عن ذلك عد زنديقاً والزنديق يقتل، وبالطبع فإن الشيعة لا تقيم لهذا الحكم وزناً فهم في نظر القانون يحل قتلهم من هذه الجهة، ومع ذلك فقد وضعت أحاديث كاذبة على صاحب الرسالة في تكريم الصحابة مطلقاً، وبمقتضى ذلك لا يشملهم نظام الإسلام وأحكامه. وسيأتي بيان رأي الشيعة في الصحابة وأنه أعدل الآراء.

٢ ـ إن مبادىء الشيعة وعقائدهم مستقاة من ينبوع أهل البيت عليهم السلام، ويرونهم نصب أعينهم يقيمون الصلاة، ويحتفظون بشعائر الدين فكيف يحكم عليهم بالكفر؟ فلا بد إذاً من سلوك طريقٍ لاتهام الشيعة بما يخالف الإسلام، وبالفعل سلك خصوم الشيعة طريقاً نجحوا فيه، وذلك في تركيز فكرة الغلو عند الشيعة في أذهان العامة، وأن الشيعة يدعون لآل البيت الربوبية، وقام بنشر هذه الفكرة بين العامة أولئك الدجالون الذين يفترون على الله الكذب، من قصاص ووعاظ وزهاد، يتصفون بالتدين وهم جزارون لا يتورعون عن المحارم.

(١) تاريخ بغداد ج١٤ ص٧.

٣ ـ إن الشيعة لما عرفوا بموالاة أهل البيت ومحبتهم لهم، وأخذ الأحكام عنهم، أصبح ولاة الأمر يحذرون الإنكار عليهم من رجال الفكر الذين لا يخدعون بأقوال الدجالين من وعاظ وقصاص، لكيلا تتسع عليهم دائرة المؤاخذة، وربما يطالبون بشيء أوضح مما مر في تكفير الشيعة والطعن في عقائدهم. ولذا لجأوا إلى الطعن في الأمور التي من شأنها أن يحكم على معتقدها بالكفر وهم يعلمون أن الشيعة قبل غيرهم يكفّرون من ينحرف على هذا النحو الذي صورته أبواق الخلفاء.

احاديث النبي في حب علي وشيعته:

وإن هناك أحاديث صحيحة وردت في أهل البيت وشيعته لا مجال لإنكارها، إذاً كيف يصنعون وليس في إمكانهم إنكار تلك الأحاديث في مدح الشيعة ولزوم اتباع آل محمد ﷺ وقد أخذت تلك الأحاديث مكانتها في المجتمع الإسلامي؟ ولم تستطع الإرهابات محوها من الأذهان، وليس في قدرة السلطة أن تفرض طاعتها على الشيعة قهراً.

فَلْنَرَ إذاً كيف استطاعوا أن يفهموا الناس انحراف الشيعة عن الدين؟ مع وجود تلك الأحاديث الصحيحة. أيكفي أن يستندوا إلى المادتين الأوليتين، أم إن الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك؟

نعم الأمر أهم من أن يتهاون فيه، ويلزمهم أن يتخذوا شيئاً يستطيعون فيه تغيير تلك الأحاديث، أو وضع زيادة يصلون من ورائها لغايتهم المقصودة، فكانت النتيجة أن توضع زيادة تلحق ببعض الأحاديث ليبطل الاستدلال بها، وإليك بعض الأحاديث الواردة في محبة أهل البيت.

كقوله ﷺ: يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق(١).

وقوله ﷺ: يا علي إنك ستقدم على الله وشيعتك راضين مرضيين ويقدم عدوك غضاباً مقمحين(٢).

وقوله ﷺ وقد أخذ بيد حسن وحسين فقال: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة(٣).

---

(١) صحيح مسلم ج١، والترمذي ج٢ ص٢٩٨، وأحمد في مسنده ج٢ ص١٠٢ ط٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الصواعق المحرقة لابن حجر ص٩٣.

(٣) أخرجه الحاكم ج٢ ص١٤٩، وأحمد في مسنده ج٢ ص٢٥ ط٢.

وقوله ﷺ: حب علي براءة من النار، حب علي براءة من النفاق شيعة علي هم الفائزون[1].

وقوله ﷺ: من يريد أن يحيى حياتي ويموت موتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن أبي طالب، فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة[2].

وقوله ﷺ: علي وشيعته هم الفائزن يوم القيامة[3].

ولما نزلت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال ﷺ: علي وفاطمة وابناهما[4].

وقوله ﷺ: يا علي أنت وشيعتك في الجنة.

وقوله ﷺ: يا أبا الحسن أنت وشيعتك في الجنة.

وقوله ﷺ: يا علي أنت وشيعتك تردون على الحوض رواء.

ولما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] قال: هو أنت يا علي هو أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين[5].

هذا نزر من تلك الأحاديث الصحيحة الواردة عن صاحب الرسالة ﷺ في فضل علي وأهل بيته عليهم السلام وإلزام الناس باتباعهم، وكثير غيرها كحديث الثقلين الذي مرت الإشارة إليه وحديث مثل أهل بيتي، وباب حطة وغيرها.

تحريف الأحاديث:

وهنا تأتي يد الوضع فتعمل عملها بالتحريف أو بإلحاق زيادة لهذه الأحاديث، ولكنها زيادة تدل بنفسها على نفسها، وإليك أنموذجاً من تلك الموضوعات على صاحب الرسالة. فالنبي ﷺ يقول: يا علي أنت وأصحابك في الجنة، أنت وشيعتك في الجنة، فيأتي الفضل بن غانم بوضع زيادة وإلحاقها بهذا الحديث، وهي ألا إن

(١) أخرجه الديلمي في كنوز الحقائق.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ج٢ ص١٢٦.
(٣) كنوز الحقائق.
(٤) أخرجه الطبري في ذخائر العقبى ص٥٢.
(٥) أخرجه الخطيب من طريق أم سلمة ج١٢ ص٣٥٨.

ممن يحبك قوماً يضفزون الإسلام بألستهم يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، لهم نبز يسمون الرافضة فإذا لقيتهم فجاهدهم فإنهم مشركون[1].

ويأتي أبو يحيى الحماني بزيادة عن علي عليه السلام أنه قال: قلت: يا رسول الله ما العلامة فيهم؟ قال: يقرضونك بما ليس فيك ويطعنون على أصحابي ويشتمونهم.

وبلفظ آخر: يا علي ينتحلون حبك يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم وعلامتهم أنهم يسبون أبا بكر وعمر.

وبصورة أخرى: وسيأتي قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون[2].

ورواية أخرى: قالوا يا رسول الله، ما العلامة فيهم؟ قال: لا يشهدون جمعة ولا جماعة ويطعنون في السلف[3]. وكتحريف حديث الثقلين بوضع سنتي مكان عترتي.

وهكذا تجرأ أولئك المتقربون لأسيادهم بالكذب على الله ورسوله بوضع تلك الزيادة في الأحاديث الواردة عن صاحب الرسالة بمدح شيعة أهل البيت، فأصبحت تلك الأكذوبة مقررة بصورة رسمية كقانون تسير عليه السلطة التنفيذية، وتلقاها السذج بكل قبول، وأخذت مكانتها من ذوي العقول القاصرة. لأن السلطة اشترت ذمم الكذبة ومن ليس له من الدين إلا اسمه وزيّه فباعوا دينهم بدنياهم وتجرأوا على مقام رسول الله دون وازع وهم يعلمون إنما هم بذلك يتبوأون مقعدهم من النار، وتلقوا ما أمروا به من الجائرين وأضافوه إلى الأحاديث الصحاح التي لا يشك بها لأنها تصدر عن حق وتنطق بحقيقة وتتعلق بواقع رسول الله وتتصل برسالته. وبأمر الحكام الظالمين يتحول أنصار العترة الطاهرة وشيعة ابن عم المصطفى ووصيه إلى مشركين على لسان صاحب الرسالة (ص) لأن السلطة تسعى إلى هدم الوجود الشيعي الذي يهدد سلطانهم.

وبوحي من السلطة يصبح قتل الموحدين سنة وعلى لسان محمد وهو الذي كان

---

(١) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٥٨.

(٢) الإشاعة في اشتراط الساعة ص١١٢.

(٣) شرح الهمزية للهَيْتمي ص٢٢٤.

يدعو إلى عدم قتل الكفار عند ترديد الشهادة ويغني عن بيان ذلك قصة قتل زيد لكافر ردد الشهادة.

ثم يشمل الوضع الجمعة والجماعة وإنما جاءت هذه الزيادة لأن الشيعة لا يعترفون إلا بإمامة السلطان العادل فلا يجيزون الصلاة خلف أولئك المتسلطين الجائرين وجعلوا أول شروطها الخمسة وأحكامها: السلطان العادل. وأما صلاة الجماعة فهي لدى الشيعة مجال اقتداء ولا يقتدون إلا بشروط معروفة لا ينطبق أي منها على زبانية الحكام أو المتصدين للائتمام إذا دخل وقت الصلاة وهم على سماط الشرب أو مائدة اللهو فترى أن كل زيادة تتم استجابة لغرض وتمر على الناس بواسطة أعضاء لجان الوضع التي كثر تشكيلها وأصبحت من دعائم الحكم.

أما العلماء فقابلوها بالإنكار، وقالوا بوضعها بكل صراحة، وان رواتها كذابون.

كالفضل بن غانم المروزي القاضي، الذي كان مشهوراً بفساد الأخلاق ومتهماً في دين، وكان غير مقبول الرواية، وقد ترك الحفاظ أحاديثه وطعنوا فيه.

قال الدارقطني: الفضل بن غانم ليس بالقوي، وقال يحيى بن معين: ضعيف ليس بشيء.

وغير ذلك من أقوال رجال العلم، وكيف يؤتمن على حديث رسول الله ﷺ من عرف عنه حب الغلمان وفساد الأخلاق كما جاء ذلك في ترجمته(١).

ومنهم سوار بن مصعب الهمداني الكوفي الأعمى، قال فيه يحيى بن معين: سوار بن مصعب ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي وغيره: متروك، وقال أبو داود: ليس بثقة، وقال أحمد وأبو حاتم: متروك الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، ولا يكتب حديثه، وقال الحاكم: روى عن الأعمش وابن خالد المناكير(٢).

ولا نطيل الكلام بذكر الآخرين من رجال هذه الزيادة كأبي جناب الكلبي، وسويد بن سعيد، فقد نص الحفاظ على كذبهم وعدم قبول روايتهم، كما أنهم نصوا

---

(١) لسان الميزان ج٤ ص٤٤٥ وتاريخ بغداد ج١٢ ص٣٥٧.

(٢) لسان الميزان ج٣ ص١٢٨.

على هذه الزيادة بالوضع، وصرح بذلك علي بن محمد الشوكاني وابن حجر وابن تيمية والخطيب البغدادي والسيوطي وغيرهم.

والغريب أن هذه الحقيقة يقررها الكثير من العلماء وينصون على كذب هذه الزيادة، ولكن هناك حثالة من المتعصبين الذين لا يروق لهم إلا إيقاع الفرقة بين صفوف المسلمين، جعلوا هذه الأكذوبة وسيلة للوقيعة بشيعة أهل البيت، وتقربوا إلى ولاة الجور بنشرها وإدخالها في قالب الاعتبار، ولكنها محاولة فاشلة «فجولة الباطل ساعة، وجولة الحق إلى قيام الساعة».

أحكام جائرة:

والغرض أن ولاة الجور اتخذوا هذه الأمور كقانون يحكمون به على المعارضين لأحكامهم، فكان من الخطر البالغ أن يجهر الإنسان بأي رأي حر، أو يذهب إلى خلاف ما تراه السلطة الحاكمة، ومن سوء حظ الرجل أن يكون له خصوم يسعون به عند السلطان، فتنطبق بحقه هذه المادة فيكون نصيبه القتل أو السجن.

لذلك نرى أن الكثير من غير الشيعة حكم عليهم بهذه المادة وليس لهم ذنب إلا التحرر من الجمود الفكري، والصراحة بشيء يخالف غرض الدولة.

فهذا المولى ظهير الدين الأردبيلي، حكم عليه بالإعدام واتهم بالتشيع، وذلك لأنه ذهب إلى عدم وجوب مدح الصحابة على المنبر وأنه ليس بفرض، فقبض عليه وقدم للمحاكمة وحكم عليه القاضي بالإعدام، ونفذ الحكم في حقه فقطعوا رأسه، وعلقوه على باب زويلة بالقاهرة(١).

وامتنع أحد القضاة من المبايعة للخليفة المقتدر، وقال: هو صبي لا تصح مبايعته، فحكموا عليه بالقتل وذبح أمام الملأ بدمشق.

وهذا سليمان بن عبد القوي المعروف بأبي العباس الحنبلي المتولد سنة ٦٥٧هـ والمتوفى سنة ٧١٦هـ، كان من علماء الحنابلة، ومن المبرزين في عصره، ودرس في أكثر مدارس الحنابلة في مصر، فقد نسب إلى الرفض، وقامت عليه الشهود في ذلك حتى تعجب هو من هذه النسبة واستغربها فقال:

---

(١) شذرات الذهب ج٧ ص١٧٣.

حنبلي رافضي ظاهري أشعري إنها إحدى الكبر

وقد عزر في القاهرة لمدحه علياً بأبيات منها:

كم بين من شك في خلافته وبين من قيل إنه الله

ونسب إلى هجاء الشيخين، والحط من مقام عمر بن الخطاب لقوله في شرح الأربعين: إن أسباب الخلاف الواقع بين العلماء تعارض الروايات والنصوص، وبعض الناس يزعم أن السبب في ذلك هو عمر بن الخطاب، لأن الصحابة استأذنوه في تدوين السنة فمنعهم مع علمه بقول النبي ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه» وقوله ﷺ: «قيدوا العلم بالكتابة» فلو ترك الصحابة يدون كل واحد منهم ما سمع من النبي ﷺ لانضبطت السنة، فلم يبق بين آخر الأمة وبين النبي ﷺ إلا الصحابي الذي دونت روايته، لأن تلك الدواوين كانت تتواتر عنهم كما تواتر البخاري ومسلم. انتهى.

وبهذه الصراحة نسب هذا الحنبلي إلى الرفض، وناله الضرب والسجن والتبعيد عن وطنه، وفصل عن وظيفة التدريس(١).

ومن أغرب الأشياء ما يحدثنا المقدسي عند دخوله إلى أصفهان بقوله: وفيهم بله وغلو في معاوية، ووصف لي رجل بالزهد والتعبد، فقصدته وتركت القافلة خلفي، فبت عنده تلك الليلة، وجعلت أسأله إلى أن قلت: ما قولك في الصاحب؟ فجعل يلعنه.

قلت: ولم؟ قال: إنه أتى بمذهب لا نعرفه، قلت: وما هو؟ قال: إنه يقول إن معاوية لم يكن مرسلاً.

قلت: وما تقول أنت؟ قال أقول كما قال الله عز وجل: ولا نفرق بين أحد من رسله، أبو بكر كان مرسلاً، وعمر كان مرسلاً، ثم عد الأربعة ثم قال: ومعاوية كان مرسلاً.

قلت لا تفعل، أما الأربعة فكانوا خلفاء، ومعاوية كان ملكاً، وقال النبي ﷺ: «الخلافة بعدي إلى ثلاثين سنة ثم تكون ملكاً» فجعل يشنع علي، وأصبح يقول للناس: هذا رجل رافضي.

---

(١) تاريخ علماء بغداد للسلامي ص٥٩.

قال المقدسي: فلو لم أهرب وأدركت القافلة لبطشوا بي[1].

وعلى هذا سار الناس على غير هدى يزدحمون في دائرة ضيقة، وقد سلبوا حرية الرأي وحرية التفكير. فلذلك تراهم لا يعرفون معنى الطعن، ولا يهتدون لطرق المؤاخذة، ولا يتورعون في أمر، ولا يقفون عند حد وإنما هي فوضى الاتهام والتقول، فكان كل من يورد حديثاً في فضل علي عليه السلام يتهم بالتشيع أو الزندقة على حد تعبيرهم.

وكذلك كل من يناقش أعمال السلف طبقاً للموازين العلمية والحوادث التاريخية يتهم بالتشيع.

لذلك نراهم يحكمون على أناس بشيء وهم لا يتصفون به.

فقد حكموا على الحاكم أبي عبد الله النيسابوري صاحب المستدرك بأنه شيعي، لذكره في كتابه حديث الطائر المشوي، وحديث من كنت مولاه فعلي مولاه، وبالطبع ان ثبوت هذين الحديثين الصحيحين يخالفان سياسة الدولة، وهل يستطيع أحد أن يتفوه بشيء منها؟ وقد عقدت الألسن وكمت الأفواه، فمن يستطيع الخروج على نظام الدولة إذ لا قيمة لمعايير الحق ومقاييس العقل. ومن أغرب الأشياء ما ذهب إليه ابن كثير في تاريخه ج١٠ ص٢١ وهو أن شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه مؤلف العقد الفريد كان من الشيعة، بل أن فيه تشيع شنيع، وذلك لأنه روى أخبار خالد القسري وما هو عليه من سوء الحال.

يقول ابن كثير: وقد نسب إليه (أي لخالد) أشياء لا تصح، لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيع ومغالاة في أهل البيت، وربما لا يفهم أحد كلامه ما فيه من التشيع، وقد اغتر به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره، ونحن نكل أمر هذه التهمة إلى قراء العقد الفريد وذوقهم السليم، لأن خالد بن عبد الله القسري في واقع الحال بعيد عن الإسلام بُعد ابن عبد ربه عن الشيعة، ولكن السياسة جعلت خالداً وهو المتهم في دينه ـ كما يذكر ابن خلكان ـ قائماً في إطفاء البدع والضلال.

ومهما يكن من أمر فالشيء المهم الذي نريد التنبيه عليه هو أن تلك الخلافات التي وقعت بين المسلمين إنما هي من الأمور التي اتخذتها السلطة لأغراضها الخاصة.

---

(١) أحسن التقاسيم ج٢ ص٢٩٩.

وإن تلك الاتهامات التي اتهم بها رجال الأمة فأريقت بها دماؤهم، إنما كان بسبب حرية الرأي وقوة التفكير المخالف للسياسة في ذلك العصر، فإنهم يريدون أن يجعلوا رجال الفكر وحملة العلم من الأمة كقطيع غنم يوجهونهم إلى أي جهة أرادوا بدون تفكير منهم أو اختيار. ولذلك فقد اجتاز المسلمون دوراً عصيباً من أدوار القهر والقمع السياسيين والضغط الاجتماعي السافر.

* * *

ومما تقدم نستنتج ما لتلك النظم الموضوعة من رغبة ورهبة ومن التأثير العميق في روح الجماعات، واستخدامها كل الوسائل لحملها على العداء للشيعة، فلا نستغرب إذاً تعبيرهم عن التشيع بكونه بدعة كما هو في كثير من عبارات أهل الحديث، فالبدعة هنا في مقابلة سنة السياسة لا سنة الشريعة المقدسة.

وإذا أردنا إجراء الحساب معهم عما ارتكبوه في حق الشيعة فلا يستطيعون الجواب بشيء، لأنهم ساروا مع التقاليد السياسية التي أجمع عليها الحكام واتفق عليها الظلمة عبر العهود الطويلة التي ذاق فيها الشيعة الأمرّين. ومن الغريب بل المستهجن أن تتلقى العقول حتى اليوم ما سنّه الأمويون والعباسيون وابتدعوه من طرق مخالفة لروح الإسلام وأعمال منافيه لأحكام الشريعة، وإلا فما هي بدعة التشيع وهم مجمعون على أن الشيعة هم الذين شايعوا علياً وتابعوه، ومن الغريب جداً أن تكون متابعة علي والأخذ عنه ومحبة أهل بيته بدعة؟ «ما جاءنا بهذا من سلطان».

أليس في ذلك مخالفة صريحة لأقوال النبي ﷺ في علي الدالة بوضوح على وجوب حبه ولزوم اتباعه، كقوله ﷺ: **«يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»**.

ولما سئل الإمام أحمد بن حنبل عما يروى أن علياً عليه السلام قسيم الجنة والنار فقال أحمد: وما تنكرون من ذا؟ أليس قد روينا أن النبي ﷺ قد قال: **«لا يحبك إلا مؤمن ولا يغبضك إلا منافق»** قالوا بلى. قال: فأين المؤمن؟ قالوا: في الجنة. قال: فأين المنافق؟ قالوا: في النار، قال أحمد: فعلي قسيم الجنة والنار.

وعلى أي حال فإن خصوم الشيعة لم يظفروا يوماً ما بالذي حاولوا تحقيقه من وراء اتخاذ تلك الوسائل في مقابلة الشيعة، وقد أحاط الفشل بتلك العوامل، ولم

سنجح النجاح المأمول في عرقلة سير انتشار مذهب أهل البيت ولم تؤثر تلك الدعايات لأنها أسباب بعيدة عن الواقع، لذلك وقف تيارها وأخذ المذهب في الانتشار، فأصبح في أقطار العالم عدد من الإمامية لا يقل عن تسعين مليوناً. وبذلك يصبح لنا أن نحاسب الكتّاب الذين تولعوا بذم الشيعة، والتهجم عليهم خضوعاً لمؤثرات العاطفة، واستجابة لدواعي الفرقة بين طوائف المسلمين، ولا أدري بماذا استساغوا هذا النقد وتولعوا بالذم.

وإذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح، فإن الأرقام تقف عن مسايرتنا، وربما تقصر عن الإحصاء، ولا نريد منهم إلا الاعتدال في الحكم وترك المغالطات والتقولات، فإن ذلك نقص بمن يدعي العلم والثقافة، فقد مرت العصور وانتهت الأوضاع التي تقتضي إثارة الفتن، وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين، فما لهم يضربون على وتر الطائفية بين آونة وأخرى، ولحساب من يكون هذا ومن هو الرابح في تلك المعركة؟ نعم إنما الربح في جانب أعداء الإسلام.

إن من يفسح لفكره المجال في البحث النزيه والتحقيق العادل عما اتهم به الشيعة من أمور تخالف الإسلام فسيقف على خلاف ما قيل عنهم.

فكل ما أحيط بالتشيع من أمور تبتعد به عن دائرة الواقع إنما هي أمور مصطنعة لا تمتّ إلى الحقيقة بشيء، ولا يفوتنا أن ننبه عن أعمال الكذابين الذين اتخذتهم السياسة الجائرة لدعم كيانها.

إن هؤلاء باعوا ضمائرهم، واشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق.

ومن المستحسن أن نشير لبعضهم وقد عبرنا عنهم بلجان الوضع كما تقدم، وهي من جملة بدع معاوية ومن معالم سنّته وسياسته التي تلقفها بأمانة بنو العباس. لقد سعى معاوية إلى إرساء حقده الأموي وكرهه الجاهلي لشخصية الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام على أساس له طابع ديني والظرف مهيأ له بعد انقياد أهل الشام لإرادته فقرن سنته السيئة في لعن الإمام بحملة مسعورة لوضع الأحاديث في عثمان لمقابلة الأحاديث الصحيحة والمشهورة عن الإمام فقام بإغداق الأموال ويزيدها حسب رغبة من يرضى لنفسه بالكذب والدنية، فتهافت كثيرون ممن لهم شأن في علم الحديث على السحت الحرام غير آبهين بلظى النار التي أوعدهم النبي ﷺ بها.

الوضع... والحديث النبوي

حركة الوضع:

اتسع نطاق الكذب على الله وعلى رسوله، وتلاطمت أمواج الافتراء وتصدر قوم لا أمانة لهم، ولا دين يردعهم، ولا عهد لم بالصدق، فحدثوا الناس بالأكاذيب، ونمقوا وزوروا، ووضعوا من الأحاديث كيفما شاءت رغباتهم، إرضاء لسلطان لا يرعى للصدق حرمة، ولا يرى للدين قيمة، فدرج الناس على ذلك وتلقنوا تلك الأحاديث بلا تمحيص ولا تتبع.

ولا أريد أن أتعرض لعهد الصحابة وما حدث فيه من أحاديث، فإن يد الوضاعين انتحلت سلسلة تتصل بهم في الحديث، لأن أصحاب محمد ﷺ أجل قدراً وأعلى منزلة من تعمد الكذب عليه، إلا من صارعته الدنيا فصرعته وباع آخرته بدنياه فكان نصيبه الخسران، وما هو من مصداق الصحبة في شيء كسمرة بن جندب وغيره، الذي كان يساومه معاوية في وضع الأحاديث أو تحريف ما أنزل الله بمئات من الآلاف من الدنانير كما هو مشهور عنه.

ولكن نريد أن نتعرض لعصر اشتداد الفوضى والخروج على حدود الأمانة في النقل، يوم دار الزمان دورته، ودب داء الحسد والتنافس على حب الرئاسة والتقرب إلى السلطان، عندما اشتدت حاجته إلى مرتزقة يجعلهم قنطرة إلى غايته، ليبرر مواقفه المخالفة لأحكام الدين، فكان ما كان من تشجيع للكذابين والوضاعين، فكانت هناك سلسلة أحاديث موضوعة رغبة في نواله، وطلباً لاستصفاء وده، وقد فتحت باب التقرب إلى السلطان بمفاتيح الأكاذيب، فدخل الكثير منهم.

فهذا غياث بن إبراهيم يدخل على المهدي، وكان المهدي يحب الحمام، فطلب منه المهدي أن يحدثه، فيأتي بحديث عن أبي هريرة لا سبق إلا في حافر أو نصل، وأضاف إليه أو جناح، فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم، فلما قام غياث قال المهدي: أشهد أنه قفا كذاب على رسول الله ﷺ ما قال رسول الله ﷺ جناح ولكنه أراد أن يتقرب إليّ[1].

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص١٩٣.

ويدخل أبو البختري وهب بن وهب قاضي بغداد على هرون الرشيد، وهرون يطير في الحمام فقال هل تحفظ في هذا شيء؟

فقال: نعم، حدثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يطير الحمام، فنرى القاضي هنا سريع الارتجال بوضع الأحاديث رغبة لنوال السلطان وتحبباً إليه، بدون التفات إلى مؤاخذة أو خوف من الله تعالى.

وكان شاه بن بشر بن ماميان معروفاً بالوضع في الدولة العباسية. ومن أحاديثه عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: أتاني جبرئيل وعليه قباء أسود ومنطقة وخنجر، فقلت ما هذا؟ فقال: يأتي زمان يكون لباسهم كهذا قلت: يا جبرئيل من يكون رئيسهم؟ قال: من ولد العباس.

واستجلب الرشيد إسحق المعروف بأبي حذيفة المتوفى سنة ٢٠٠هـ، وهو معروف بالكذب ومشهور بالوضع، فأمره الرشيد أن يجلس في مسجد ابن رغبان ويحدث الناس، فأخذ إسحق يحدث بالأكاذيب، ويروي عن خلق من الثقات أكثرهم ماتوا قبل أن يولد(١).

واستقدم المهدي أبا معشر السندي، وأشخصه إلى بغداد، وقال: تكون بحضرتنا تفقه من حولنا، وكان أبو معشر ماهراً بوضع الأحاديث والقصص. قال ابن جزرة: أبو معشر أكذب من تحت السماء(٢) وصنف كتاب المغازي. وروى عنه الواقدي وابن سعد، وقد نعم في بغداد برضا كثير من رجال البلاط العباسي، وقد استمد منه الطبري معلومات عن التاريخ الإنجيلي ومن تاريخ النبي ﷺ، كما استمد منه بنوع خاص معلومات تاريخية تنتهي إلى عام وفاته.

السلطة ووضع الحديث:

وناهيك ما ابتدعه هؤلاء من الأحاديث حباً للدنيا بما يقربهم عند السلطان زلفى، لمخالفتهم الشرع وخروجهم عن سلطان العقل.

---

(١) تاريخ بغداد ج٦ ص٣٤٦.
(٢) تاريخ بغداد ج٤ ص٤٣١.

وهناك عناصر في الوضع من طراز آخر، وهم الذين قاموا بنصر مبادئهم في وضع الأحاديث على لسان صاحب الرسالة بدون مبالاة.

فهذا نعيم بن حماد بن معاوية المتوفى سنة ٢٢٧هـ كان ماهراً في وضع الحديث، متجرئاً على مقام صاحب الرسالة. قال الذهبي: وكان يضع الحديث في تقوية السنة، وحكايات في ثلب أبي حنيفة وكان صلباً في السنة.

ومنهم أحمد بن عمرو بن مصعب بن بشر، كان من الوضاعين ومن أهل السنة المجودين، ووضع بذلك كتباً في تقوية السنة كلها موضوعة منتشرة عند الخراسانيين في عصره، وكان معروفاً في نصرة السنة بوضع الأحاديث الكاذبة عن الثقات(١).

ومنهم علي بن أحمد بن محمد بن عمر وكان شديد العصبية في السنة يضع الأحاديث في نصرتها(١).

ومنهم أحمد بن عبد الله الأنصاري كان من الوضاعين لنصرة السنة، وهو واضع الحديث عن ابن عمر مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال: فأما الذين ابيضت وجوههم: أهل السنة وأما الذين اسودت وجوههم: أهل البدعة وغيرهم(٢) وسيأتي الحديث عنهم في الأجزاء الآتية.

لقد كان خطر أولئك الدجالين عظيماً جداً، فإنهم تقربوا لولاة الأمر بوضع الأحاديث، فاتخذوا منهم أعواناً على حل مشاكل يعجزهم حلها بالقوة، ولكنهم جعلوا ما يضعونه وسيلة لتعزيز مركزهم أولاً، ومقابلة خصومهم ثانياً، وإشغال الرأي العام ثالثاً، وكان الأمر الذي يهمهم قبل كل شيء هو أمر الشيعة الذين آثروا تضحية النفس على الإذعان للخصم، ولم تربطهم معهم رابطة، ولم يعترفوا بصحة تلك الولاية الجائرة، فلا يصح لهم السكوت عن معارضتها وهم غاصبون للخلافة ظالمون لنظام الحكم الإسلامي الذي جعلوا منه ملوكية مستبدة ومؤسسة ظالمة لاتمت إلى قيم العدل الإسلامي إلا بالاسم، لذلك سلكت السلطة طرق المكر والخداع والتمويه على الناس، حتى بلغ بهم الأمر إلى وضع الأحاديث بخروج الشيعة عن الإسلام كما مر بيانه، وهي تدل بمنطوقها على تحليل دمائهم ومعاملتهم معاملة الكفرة، وهيهات أن

---

(١) تاريخ بغداد ج٥ ص٧٣.

(٢) شذرات الذهب ج٣ ص٢٢٦.

ينطبق ذلك على الواقع، ورجال الأمة لم يكونوا بتلك الدرجة من الجهل وعدم المعرفة بحيث يجهلون الشيعة وما لهم من الأثر في المجمع الإسلامي، فقبول مثل تلك المنكرات أمر شاق يصعب تحقيقه ويبعد نجاحه، ولكن السلطة بذرت تلك البذرة في أذهان السواد وجعلت تتعهدها وتحسن رعايتها بيد علماء السوء، الذين اتخذوهم أعواناً في ساعة هم أحوج إليهم فيها من السيف والجند، فقوة فتكهم أثمرت الشحناء بين أفراد المجتمع الإسلامي، وتركوا له قرحة دامية في جسم الأمة أعجز رجال الإصلاح علاجها حتى أيامنا هذه.

وقد كان أولئك الدجالون على أنواع في الوضع، واختلاف في الغاية. فمنهم من يضع الحديث طمعاً في الدنيا وتزلفاً لولاة الأمر وهم الذين نعبر عنهم بلجنة الوضع، وأول من اتخذ ذلك معاوية بن أبي سفيان(١) كما تقدم معنا.

ومنهم من كان يتعصب لمبدئه فيضع الحديث تقوية له، ومخالفة لخصمه ويعدون ذلك تديناً، وسيالون الجزاء عليه يوم الجزاء.

ومنهم من يضع الحديث في نصرة مذهبه، وهؤلاء يرون الانتصار لمذهبهم انتصاراً للحق ومقاومة للباطل، وزين لهم الشيطان أعمالهم فراحوا يضربون الأحاديث بمهارة، ويخلقون الحكايات والقصص.

ويطول بنا الحديث إذا أردنا التوسع في البحث عن الوضاعين والكذابين، ولعل لنا في الوقت متسعاً فننشر أسماءهم، وقد أحصى شيخنا الأميني منهم عدداً بلغ ستمائة وعشرين، ومجموع ما وضعوه من الأحاديث وما قلبوا أسانيده على اختلاف الأهواء والنزعات فكان ٤٠٨٣٢٤ حديثاً(٢).

وقد أخرجنا من تلك الموضوعات ما يقارب الأربعمائة في الفضائل والمناقب وفي بعضها أساطير لا أحاديث، وحكايات يصنعها القصاصون بمهارة ويبثونها بين الناس.

ومن أعظم تلك الافتعالات هي أسطورة ابن سبأ التي لا زالت تحتل مكانتها فوق صفحات التاريخ وتأخذ وقتاً من كتّاب عصرنا الحاضر.

---

(١) انظر شرح النهج ج١ ص٢٥٨.

(٢) الغدير ج٥ ص٢٤٥.

ولعمري إنها محنة ولكن كيف المخرج؟ وهل يتسنى لنا تصفية الحساب لنعالج هذه المشاكل؟ كيف وقد سرى داؤها في المجتمع، وأخذها المهرجون مأخذ القبول وجعلوها بمحل الاعتبار، وراحوا يؤيدون تلك الموضوعات إذ وافقت أغراضهم، وجعلوها في منهاج الاحتجاج، ولم يتلفتوا لحالها وحال رواتها ممن أعماه التعصب، فضعفت مواهب إدراكه، ولم يستطع تمييز الحق من الباطل، وقد خانه الاتزان والتعقل، فهوس وهرج وموّه وافترى، وحاول إخفاء حقيقة لا يمكن إخفاءها.

القصاصون وأثرهم في المجتمع:

ولا بد لنا من الإشارة إلى بعض أعمال القصاص وما لهم من الأثر في توجيه الرأي العام لقبول تلك المنكرات عند العامة. فإنهم قاموا في المساجد والجوامع والطرقات والأندية يبثون تلك المنكرات نصرة للسلطة، وتأييداً للمبادىء المبتدعة، ولقد اتخذت السياسة منهم سلاحاً فاتكاً. فكانوا ينشرون القصاصين في ساحات الحرب يشجعون الجند على التضحية حتى تطورت الحالة إلى اختراع الأحاديث والقصص لإيقاع الفتن بين طوائف المسلمين. ولقد خضعت العامة لتصديقهم وقبول مفتعلاتهم، حتى أصبح من العسير الإنكار عليهم.

يحدثنا الشعبي: أنه أنكر على قاص حدث عن النبي ﷺ أن الله خلق صورين، له في كل صور نفختان.

فقال الشعبي: اتق الله يا شيخ ولا تحدث بالخطأ إن الله لم يخلق إلا صوراً واحداً. فقال القصاص: يا فاجر إنما حدثني فلان عن فلان وترد عليّ؟ ثم رفع نعله فضربه، وتتابع القوم عليه بالضرب فما خلص نفسه حتى حلف ان الله خلق ثلاثين صوراً في كل صور نفخة[1].

وحدث أحدهم بحديث عن النبي ﷺ أن من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار. فلم يبق أحد منهم إلا وأخرج لسانه يومىء به إلى أرنبة أنفه[2].

---

(١) تحذير الخواص للسيوطي.

(٢) الأغاني ج١٢ ص٥.

وأنكر الطبري على قاص ببغداد مّا يحدث به من الأكاذيب فرمى العامة باب دار الطبري بالحجارة حتى سدوه، وصعب الخروج منه.

ونزل القصاص إلى غمار العامة يقصون لهم القصص الدينية، والأساطير والنوادر في المساجد والطرق، وينالون بها مالاً كثيراً، وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء.

قال ابن الجوزي في المنتظم: وكان القصاص في أواخر القرن الرابع أكبر مثيري الفتن بين السنة والشيعة.

وعلى أي حال فلو حاولت أن أصف هنا عظيم الأثر الذي تركته تلك الأوهام والأكاذيب التي وضعها الدجالون والقصاصون الذين يلقنون العوام إياها وبالأخص بغض الشيعة وعداء أهل البيت لطال بنا الحديث، وعظمت قائمة الحساب، ولكنا نقتصر على هذا القدر ولا نلم بجميع العوامل التي دفعت الناس إلى التهجم على الشيعة، فذلك يحتاج إلى وقت طويل، وصفحات تزيد على صفحات هذا الكتاب.

ولهذا نقتصر على نتيجة واحدة في تصفية الحساب، وهي لفت نظر أبناء العصر الحاضر إلى رعاية حقوق الأمة، وأن يستعرضوا تاريخ الشيعة بدون تعصب وتحيز، وأن يلحظوا تطور المذهب الجعفري وسيره في طريق التقدم بما لديه من القوى الحيوية، والقدرة على مقاومة الطوارىء، وتخطي تلك الحواجز التي وقفت في طريقه، ما لو وقف بعضها في طريق غيره من المذاهب لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة، لأنها عوامل جبارة تجعله أقوى من كل ظرف ومعترك يختلقه الظلمة والجبارون وسيبقى على هذه القوة محتفظاً بعوامل البقاء والدوام حتى تظهر دولة الحق وتقوم الساعة.

على أن المذهب الجعفري ليس باستطاعة أي أحد مؤاخذته بشيء في ذاته، فهو موافق للشعور المتطور والوجدان، ولكتاب الله العزيز، والسنة المستقيمة، وقد وجد العقل السليم فيه بغيته، كما أن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه وقد برهن بغزارة مادته، ومرونة أحكامه، ودقة بحوثه، وسلامة قواعده، ونقاوة أصوله وفروعه على أنه أقوى مصدر للتشريع الإسلامي، ويتطور مع الزمن ومع كثرة الحوادث.

ولكن المؤسف أن نرى الكثير ممن كتبوا عن التشريع الإسلامي قد اقتصروا

على ذكر المذاهب الأربعة فحسب، وإذا انجر الحديث إلى ذكر اختلاف الآراء وتعدد الأقوال في مسألة فقهية ذكروا آراء رؤساء المذاهب البائدة ولم يذكروا أقوال أهل البيت وآراءهم.

عذرنا أولئك القوم الذين دونوا الفقه في العصور الغابرة لأن الخشية من ذكر مذهب أهل البيت قد أرغمتهم على الإعراض عن ذكره، فإن التعرض لذلك إنما هو تعرض للخطر، ولكنا نعجب من المتأخرين الذين ساروا تلك السيرة الملتوية، ولم يعطوا مذهب أهل البيت حقه من العناية في البحث.

ولا يستبعد أن التقليد من حيث هو قد دعاهم لمخالفة الواقع، وإلا فما المانع من التعرض لذكر مذهب أهل البيت عندما يكتبون عن التشريع الإسلامي؟ وقد انتشر في أقطار الأرض، وعبر إلى ما وراء البحار، وأصبح مؤيدوه يتجاوز عددهم التسعين مليوناً، ولكن هناك عوامل حالت بينهم وبين الاحتكاك بمذهب أهل البيت، وليس عليهم كلفة في معرفته إلا أن يقرأوا الكتب المدونة في ذلك ليقفوا على الحقيقة وعليهم أن يتقبلوا الحق وإن كان مرّاً، أو يرفضوه إن وجدوا لديهم أدلة عقلية.

ولعل تلك الدعايات المارة الذكر قد خامرت الأدمغة، وتوارثتها الأجيال وهي التي أدت إلى ابتعادهم عن الحقيقة. ولذلك عجز المصلحون عن مسألة التوفيق بين المسلمين، ورفع سوء التفاهم، مع ما بذلوه من النصح وأجهدوا أنفسهم لتحقيق هذه الغاية، وهذا أمر غريب جداً فإنه لم يكن هناك شيء من الأمور المتضادة التي لا يمكن بحثها، والوقوف على حقيقتها، حتى أصبح من الصعب التوفيق بين المسلمين، ونبذ تلك الخلافات، فالشيعة لم يكن لهم مذهب يخالف بأحكامه كتاب الله وسنة رسوله.

وأرى من الخير أن أتعرض هنا لما ذكره المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» عن عدول الناس عن مذهب الشيعة ـ بالأخص ـ في أربع مسائل، ونجيب عن ذلك باختصار من القول، وموجز من البيان.

عدول الناس عن المذاهب:

إعلم أن الناس قد عدلوا عن مذهب أبي حنيفة في أربع: صلاة العيدين إلا بزبيد، وصدقة النخيل، وتوجيه الميت عند الموت، والتزام الأضحية.

وعدلوا عن مذهب مالك في أربع: الصلاة قدام الإمام إلا بالمغرب ويوم

الجمعة بمصر، وفي أكل لحوم الكلاب[1] إلا بمدينتين بالمغرب تباع جهراً، وتطرح في عرائس مصر ويشرب سراً، وفي الخروج من الصلاة بتسليمة واحدة.

وعدلوا عن مذهب الشافعي في أربع: الجهر بالبسملة إلا بالمشرق في مساجد أصحابه، وكذلك القنوت بالفجر، وفي اختصار النية في تكبيرة الافتتاح، وفي ترك القنوت في الوتر.

وعدلوا عن مذهب داود في أربع: تزويج ما فوق الأربع، وإعطاء الانثيين النصف، ولا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد، وفي مسألة العول.

وعدلوا عن أصحاب الحديث في أربع: المتعة في الحج، والمسح على العمامة، وترك التيمم في الرمل، وانتفاء الوضوء في القهقهة.

وعدلوا عن مذهب الشيعة في أربع: المتعة، ووقوع طلاق الثلاث واحدة، والمسح على الرجلين، والحيعلة في الأذان.

وتلك المسائل التي عدلوا فيها عن المذاهب موجودة في كتب الفقه، ولا حاجة بنا إلى التعرض لذكرها لأنا قد أفردنا بحثاً خاصاً بالفقه وسيأتي، نعم الشيء المهم هو النظر في هذه المسائل التي يقول فيها المقدسي بعدول الناس عنها في المذهب الجعفري، فهل هي بدعة فتركها الناس أم انها من المسائل المقررة في الشريعة الإسلامية؟ فلا بد لنا من البحث ـ بإيجاز ـ عن هذه المسائل لنرى ما هو الحق:

المتعة وتشريعها:

أما عدولهم عن متعة النساء فإنما هو عدول عما شرعه الله ورسوله للمسلمين وقد عمل به أصحابه من بعده مدة خلافة أبي بكر، وشطراً من خلافة عمر، واستمروا على العمل بها حتى نهى عنها عمر بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء» فإباحة المتعة مقطوع به على عهد النبي ﷺ وادعاء النسخ لذلك الحكم لا يثبت.

وكان ابن عباس حبر الأمة يأمر الناس بالمتعة، وكان ابن الزبير ينهى عنها فذكر ذلك لجابر فقال: على يدي دار الحديث تمتعنا مع رسول الله ﷺ فلما قام عمر

(١) سيأتي الكلام في الجزء الثاني حول جواز أكل الكلاب في مذهب مالك.

قال: إن الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء، فأتموا الحج والعمرة وأبقوا نكاح هذه النساء، فلن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة.

وأخرج مسلم في باب نكاح المتعة من صحيحه عن أبي نضرة قال: كنت عند جابر بن عبد الله فأتاه آت فقال: إن ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين فقال جابر: فعلناهما مع رسول الله، ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما.

وقد ذهب إلى القول بها جماعة من أصحاب النبي ﷺ كأمير المؤمنين علي عليه السلام كما روي عنه أنه قال: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي.

ومنهم عبد الله بن عباس وكان يقول: ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها أمة محمد ﷺ لولا نهيه (يعني عمر) عنها ما احتاج إلى الزنى إلا شقي.

ومنهم عبد الله بن عمر، أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمر قال: سأل رجل ابن عمر عن متعة النساء فقال: والله ما كنا على عهد رسول الله ﷺ زانين ولا مسافحين.

ومنهم عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل. ثم قرأ عبد الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(1) [المائدة: ٧٨].

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله وَسَلَمَةَ بن الأكوع أنه قال: كنا في جيش فأتانا رسول الله ﷺ فقال: إنه قد أذن لكم أن تستمعتوا فاستمتعوا(2).

وأخرج مسلم عن عمران بن الحصين أنه قال: تمتعنا مع رسول الله ولم ينزل فيه القرآن، قال رجل برأيه ما شاء(3).

وعلى أي حال فإن تشريع زواج المتعة في الإسلام بشروطه المعتبرة فيه قد اتفق عليه السنة والشيعة، ودل عليه القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤].

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص١٢٩.
(٢) نيل الأوطار للشوكاني ج٦ ص١٢٤.
(٣) صحيح مسلم ج٢ ص٤٨.

وعلى هذا الاتفاق ساروا على القول بها في عهد النبي ﷺ وأيام أبي بكر وشطراً من عهد عمر إلى أن نهى عنها كما مر، فافترقوا عند هذا الحد، فالشيعة أخذوا بحليتها ولم يتركوا قول رسول الله لقول عمر.

ولم يحل ذلك من أن يقول فيها جماعة من الصحابة، منهم جابر بن عبد الله وابن مسعود، ومعاوية، وعمرو بن حريث، وأسماء بنت أبي بكر، وأبو سعيد وسلمة ابنا أمية بن خلف وغيرهم.

وقال بها جماعة من التابعين منهم طاووس، وعطاء، وسعيد بن جبير وسائر فقهاء مكة(١).

وسيأتي تفصيل البحث في الأجزاء القادمة إن شاء الله.

الطلاق الثلاث واحدة:

اتفقت الإمامية على أن طلاق الثلاث واحدة، فلو طلقها ثلاثاً بدون مراجعة لم تحرم عليه، ويجوز له مراجعتها ولا تحتاج إلى محلل.

نعم الطلاق المحرم الذي لا تحل المطلقة بعده لمطلقها إلا بالمحلل الشرعي، إنما هو لو طلقها ثم راجعها وهكذا ثلاثاً حرمت عليه في الطلاق الثالث، وهو المسبوق برجعتين مسبوقتين بطلاقين، وحينئذ لا تحل المطلقة بعد لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، وبه جاء التنزيل ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩] إلى قوله عز وجل: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وقد خالف الأكثر من علماء السنة، فجعلوا قول الزوج لزوجته: أنت طالق ثلاثاً يوجب تحريمها ولا تحل إلا بالمحلل، وقد كان على عهد رسول الله ﷺ يعد طلاق الثلاث واحدة، كذلك في أيام أبي بكر وشطراً من عهد عمر بن الخطاب.

أخرج مسلم في صحيحه بسند عن ابن عباس أنه كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وسنتين من عهد عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن

(١) صحيح مسلم ج٤ ص١٨٣.

الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة: فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه[1] وجعل البتة واحدة[2].

وأخرج عن أبي الصهباء أنه قال لابن عباس: أتعلم أنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وثلاث من إمارة عمر فقال ابن عباس: نعم[3].

وأخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام ﷺ غضبان ثم قال: أيلعب في كتاب الله وأنا بين أظهركم[4].

وعن ابن عباس أن ركانة طلق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً فسأله رسول الله ﷺ: كيف طلقتها؟ قال: ثلاثاً. قال ﷺ: في مجلس واحد؟ قال: نعم. قال ﷺ: إنما تلك واحدة فارجعها إن شئت[4].

وأخرج الترمذي بلفظه عن عبد الله بن يزيد بن ركانة عن أبيه عن جده قال: أتيت النبي (ص) فقلت: يا رسول الله إني طلقت امرأتي البتة؟ فقال: ما أردت بها؟ قلت: واحدة. قال: والله، قلت: والله. قال: فهو ما أردت[5].

قال الآلوسي في تفسيره: وفي وقوع الثلاث بلفظ واحد وكذا في وقوع الطلاق مطلقاً في الحيض خلاف، فعندالإمامية لا يقع الطلاق بلفظ الثلاث ولا في حالة الحيض، لأنه بدعة محرمة وقد قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ونقله غير واحد عن ابن المسيب وجماعة من التابعين.

قال الشوكاني: وقع الخلاف في الثلاث إذا وقعت في وقت واحد، هل يقع جميعها ويتبع الطلاق أم لا؟ ثم ذكر القائلين بالوقوع: وهم أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم ثم قال: وذهب بعض من أهل العلم: لا يتبع بل يقع واحدة فقط، وحكى ذلك عن أبي موسى، ورواية عن علي عليه السلام، وابن عباس، وطاووس، وعطاء، ورجاء، والهادي والقاسم، والباقر، إلى آخره.

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص١٨٣.
(٢) صحيح الترمذي ج٥ ص١٣٣.
(٣) صحيح مسلم ج٤ ص١٨٣.
(٤) نيل الأوطار للشوكاني ج٤ ص٢٢٦.
(٥) صحيح الترمذي ج٥ ص١٣١.

والحاصل أنه لا خلاف عند المسلمين بوقوع الطلاق الثلاث واحدة، في عهد النبي وأبي بكر وشطراً من إمارة عمر، وبعد ذلك ألزم عمر الناس بوقوع مثل هذا الطلاق اجتهاداً منه، وعند هذه النقطة تفترق الشيعة عن السنة، فالشيعة يأخذون بقول النبي ويتبعون ما شرعه ولا يلتزمون بتنفيذ اجتهاد عمر وترك تلك النصوص الدينية المقدسة من الكتاب والسنة، فقد دعته مصلحة رآها ولكن المصلحة عندنا هي اتباع الرسول امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

يقول الأستاذ الغزالي: وجمهور الفقهاء الأقدمين جعلوه بدعياً ويقع الطلاق به وهم في هذا يتبعون اجتهاد عمر رضي الله عنه إلى أن يقول: وبدلاً من أن يلتزموا منهج السنة آثروا البدعة المحرمة، ونطقوا بالطلقات الثلاث دفعة واحدة، وكان ذلك إذا حدث في عهد النبي ﷺ غضب منه أشد الغضب ولم يجعله إلا واحدة(١).

المسح على الرجلين:

المسح على الرجلين مشروع على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كما رواه الجمهور عن معلى بن عطاء عن أبيه عن إدريس بن أبي أويس الثقفي: أنه رأى رسول الله ﷺ توضأ ومسح على قدميه. وأخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر أنه قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ فأدركنا وقد حضرت الصلاة، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى: «ويل للأعقاب من النار».

قال القرطبي: وهذا الأثر وإن كانت العادة قد جرت بالاحتجاج به في منع المسح فهو أدل على جوازه منه في منعه، لأن الوعيد إنما تعلق فيه بترك التعميم لا بنوع الطهارة بل سكت عن نوعها، وذلك دليل على جوازه ووجوب المسح هو أيضاً مروي عن بعض الصحابة والتابعين.

والغرض أن أهل السنة اختلفوا في فرض الرجلين، فقال قوم: فرضهما المسح.

وقال آخرون: فرضهما الغسل وذهب بعضهم إلى التخيير بين المسح والغسل، كما هو مذهب ابن جرير وداود الظاهري وغيرهما.

---

(١) حقوق الإنسان للأستاذ محمد الغزالي ١٧٢.

أما الشيعة فاتفقوا على وجوب المسح لدلالة الآية الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] بالنصب عطفاً على موضع برؤوسكم كما هو المعروف باللغة العربية وهو كالعطف على المحل، وقرأ غيرهم بالخفض على المجاورة، وهو شاذ في اللغة ورد في مواضع لا يلحق بها غيرها ولا يقاس عليها سواها، ولا يجوز حمل كتاب الله على الشذوذ الذي ليس بمعهود ولا مألوف، والإعراب بالمجاورة إنما يكون عند من أجازه، عند فقدان حرف العطف.

وقد صح في صفة وضوء النبي ﷺ من طريق أهل البيت أنه غسل وجهه وذراعيه ثم مسح رأسه وقدميه، وصح عن ابن عباس أنه قال: ما أجد في كتاب الله إلا غسلتين ومسحتين. وسنقف على بيان ذلك في الجزء الخامس من هذا الكتاب إن شاء الله.

الأذان وحيّ على خير العمل

إن كلمة «حي على خير العمل» كانت على عهد النبي ﷺ جزءاً من الأذان ومن الإقامة، ولكنهم ادعوا نسخها بعد ذلك، والصحيح أنها كانت على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وشطراً من عهد عمر، ولكنه نهى عنها كما نهى عن متعة النساء[1] ولقد أبدلوا مكانها كلمة الصلاة خير من النوم، كما يروي مالك بن أنس في موطأه: أن المؤذن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح فوجده نائماً فقال: الصلاة خير من النوم، فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح، قال الزرقاني في شرح الموطأ: هذا البلاغ أخرجه الدارقطني في السنن من طريق وكيع في مصنفه عن العمري عن نافع عن ابن عمر عن عمر أنه قال لمؤذنه: إذا بلغت حي على الفلاح في الفجر فقل: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم.

ولا وزن لما جاء عن محمد بن خالد بن عبد الله الواسطي أن النبي ﷺ استشار الناس لما ينبههم إلى الصلاة، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى، فأري النداء تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب فطرق الأنصاري رسول الله ليلاً، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن به.

أما رجل هذه الرواية وهو محمد بن خالد بن عبد الله الواسطي كذاب لا يصح

---

(١) الفصول المهمة للحجة شرف الدين.

أخذ الأحاديث عنه، وقد نص على ذلك يحيى بن معين، وضعفه أبو زرعة، وأنكر عليه ابن عدي أحاديثه، وقال يحيى: هو رجل سوء فلا يلتفت إلى ما يرويه في تشريع الأذان على الرؤيا، وقد ذكر الناس رؤيا عبد الله بن زيد في تشريع الأذان فلما سمع الحسين بن علي عليه السلام غضب وقال: الوحي ينزل على الرسول ويزعمون أنه أخذ الأذان عن عبد الله بن زيد والأذان وجه دينكم، ولقد سمعت أبي علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: أهبط الله ملكاً عرج برسول الله ﷺ إلى السماء إلى أن قال: ويعث الله ملكاً لم ير في السماء قبل ذلك الوقت فأذن وأقام وذكر كيفية الأذان، ثم قال جبرئيل للنبي ﷺ: يا محمد هكذا أذن للصلاة.

وقد أجمعت الإمامية على كون الأذان من الأحكام التي نزل بها الوحي من الله لا يرجع ذلك إلى رؤيا كما يقولون، وكلمة «حي على خير العمل» جزء من الأذان، وقول: «الصلاة خير من النوم»، إنما هو من اجتهادات الخليفة عمر، وقد صح عن ابنه عبد الله أنه كان يقول في أذانه: «حي على خير العمل» وكذلك امامة بن سهل بن حنيف كما ذكره ابن حزم في المحلى وكان أهل البيت يأتون بها لثبوتها وعدم دليل على نسخها، وأذّن بها الحسين بن علي صاحب فخ[1] وعلى ذلك استمرت الشيعة في اتباع أهل البيت عليهم السلام وعدم الرجوع لغيرهم وكان ذلك شعارهم في جميع الأدوار.

والغرض أن هذه الأمور التي يقول عنها المقدسي بعدول الناس فيها عن مذهب أهل البيت لم تكن من الأمور المبتدعة بل هي مقررة في الإسلام.

وسيأتي في مباحث الفقه مزيد بيان حول هذه المسائل وغيرها.

أما المسائل التي عدل عنها الناس ـ كما يقول المقدسي ـ عن المذاهب الأخرى فلا يسع المجال للبحث عنها هنا.

---

(١) ظهر الحسين بن علي بن الحسن السبط بالمدينة المنورة، وكان معه جماعة من الطالبيين وحاربه عامل العباسيين فهزمه الحسين وبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله للمرتضى من آل محمد (ص) وأرسل له العباسيون جيشاً فقتل يوم التروية بفخ ومما هو جدير بالذكر أن موسى بن عيسى العباسي أرسل رجلاً إلى عسكر الحسين حتى يراه ويخبره عنه، فمضى الرجل ورجع وقال له: ما أظن القوم إلا منصورون فقال: وكيف ذاك يابن الفاعلة؟ قال الرجل لأني ما رأيت فيهم إلا مصلياً أو مبتهلاً أو ناظراً في مصحف أو معداً للسلاح، فضرب موسى يداً على يد وبكى ثم قال: هم والله أكرم خلق الله، وأحق بما في أيدينا منا، ولكن الملك عقيم لو أن صاحب هذا القبر يعني النبي (ص) نازعنا الملك ضربنا خيشومه بالسيف.

وكيف كان فإن مذهب أهل البيت يرتبط بكتاب الله وسنة رسوله ارتباطاً وثيقاً ولا دخل فيه للرأي ولا للقياس، كما أنه بعيد كل البعد عما أحيط به من تهم رماه بها خصومه كما أوضحنا ذلك في الأبحاث السابقة.

* * *

وهنا نقف عن مواصلة البحث عما حل بالمسلمين من عوامل الفرقة من جراء الخلافات التي أوهنت الكثير من روابطهم وكدرت صفو مودتهم.

وكان التعصب هو العامل القوي في قطع تلك الروابط والمعول الهدام لصرح الأخوة الإسلامية.

والآن نتحول للبحث عن حياة أئمة المذاهب بعد أن تعرضنا لبيان نشأة المذاهب وعوامل انتشارها.

وفي هذا الجزء سنعرض لحياة الإمام أبي حنيفة من حيث نشأته ومقومات شخصيته، وفي الجزء الثاني لحياة الإمام مالك بن أنس، وفي الجزء الثالث لحياة الإمام الشافعي، وفي الجزء الرابع لحياة الإمام أحمد بن حنبل.

أما البحث عن الإمام الصادق فلم نقتصر عليه في جزء واحد، بل التزمنا أن نذكر طرفاً من أخباره في كل جزء ابتداء من الجزء الأول.

ولا أقول بأني قد استوفيت البحث في هذه الموسوعة عن حياة الإمام الصادق وما له من آثار ومآثر، ومناقب ومفاخر فلدراسة حياته لا تستوفى بسهولة، وإن ذلك أمر يشق على الباحث مهما أنفق من جهد في هذا السبيل وفي أي ناحية يسلك في دراسة حياته عليه السلام ليفرغ منها فراغاً تاماً ويحيط بها إحاطة تامة فإنه يجد نفسه في البداية لا في النهاية.

وليس ذلك لغموض يكتنف جوانب عظمته، أو وجود زوائد في دراسة حياته، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته وعلو مقامه، فهو أرفع من ذلك.

وإنما اتساع دائرة معارفه، وتعدد نواحي شخصيته، وعظيم أثره في بعث الفكر الإسلامي، وجهاده المتواصل في سبيل إسعاد الأمة، ورفع مستوى المجتمع الإسلامي، هو سبب في قصور الباحث عن إدراك الغاية المطلوبة في الدراسة عن شخصيته عليه السلام والنفوذ إلى معرفة كنهها. وإن العلم والحق لكفيلان بإظهار مآثر الإمام، وللعلم حكمه، وللحق اتباعه، ونسأل الله التسديد وهو ولي التوفيق.

الإمام أبو حنيفة

تمهيد:

ذكرنا في الأبحاث السابقة أسباب نشأة المذاهب الإسلامية وانتشارها بكثرة، وتعرضنا لذكر المذاهب التي أصابها الخمول والتأخر فكان نصيبها الفناء والإبادة بعد مدة، ولم يبق منها لإخواننا أبناء السنة إلا المذاهب الأربعة: الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي.

وقد سارت هذه المذاهب في طريق الانتشار والشهرة، ولم يعرض لها أي عارض، ولم يواجهها أي خطر يعرقل حركة السير، فكتب لها الخلود وأصبح المعول عليها اليوم.

والآن وقد انتهى بنا السير في البحث عن أئمة المذاهب الأربعة لنأخذ صورة عن كل واحد منهم بدون تعصب لهم أو عليهم، فإن الباحث إذا أطل من زاوية التعصب الضيقة لا يهتدي إلى الواقع ولا يعرف الأشياء بحقيقتها، وليكن ابتداء التعرف على الإمام أبي حنيفة أولاً وذلك من حيث الرتبة الزمنية لا رتبة الأفضلية والأولوية فذاك أمر يعود لغيرنا.

وإن ما اتصل بنا من أخبار أبي حنيفة من طريق المغالين فيه أو المتحاملين عليه لا يوضح لنا نهج الوصول إلى الغاية. فإذا أردنا أن نتعرف على شخصية أبي حنيفة لنعرف مكانته في ذلك العصر وأهميته في مجتمعه، يلزمنا مناشدة الرجال الذين عاصروه، ولا ننظر إليه من زاويتي الغلو أو التعصب، لأنا نطلب الحقيقة ونتبع الحق بلا تعصب له وعليه، فإن رجلاً قد أصبح مرجعاً للفتيا لكثير من المسلمين يقتدون بأقواله، ويتمذهبون بمذهبه، فهو من الأهمية بمكان فلنبحث عن شخصيته لنأخذ عنها صورة عن طريق البحث المتجرد عن التحيز والتعصب.

الإمام أبو حنيفة:

هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ولد سنة ٨٠هـ وتوفي ببغداد سنة ١٥٠هـ ـ ٧٦٧م.

وكان جده زوطى (بضم الزاء وسكون الواو وفتح الطاء) من أهل كابل وقيل من مدينة نسا، أو من أهل بابل، وقد أسر عند فتح العرب لتلك البلاد واسترق لبعض بني تيم بن ثعلبة، ثم أعتق، فكان ولاؤه لهذه القبيلة.

وقد وقع الاختلاف في نسب أبي حنيفة، فالمتعصبون له ينفون عنه الرق، ويدعون له نسباً عربياً مرة وفارسياً لم يقع عليه الرق أخرى، والصحيح أن أبا حنيفة فارسي النسب، تيمي الولاء، كوفي النشأة.

وكذلك وقع الخلاف في محل ولادته، من جهة مقام أبيه فقيل: ترمذ. وقيل نسا. وقيل الأنبار أو الكوفة، كما أننا لم نقف على تاريخ حياة أبيه ثابت، وسنة وفاته ومدة معاشرة أبي حنيفة له.

نعم يروى عن أبي حنيفة أنه قال: حججت سنة ٩٦هـ، أو ٩٩هـ مع والدي وأنا ابن تسع عشرة سنة، فلما دخلت المسجد الحرام رأيت حلقة فقلت لأبي: حلقة من هذه؟ فقال: حلقة عبد الله بن الحارث الخ.

وهذا شيء بعيد عن الصحة: لأن وفاة عبد الله بن الحارث كانت في سنة ٨٥هـ بمصر كما سنوضح ذلك في بحثنا حول سماع أبي حنيفة من الصحابة.

ومهما يكن من أمر فإنا لم نقف على أخبار والده، وتاريخ حياته، وهل ولد على الإسلام، أم أنه أسلم بعد فتح العرب لبلاده، واسترقاق أبيه؟

ويقولون إن زوطي جده أهدى للإمام علي عليه السلام فالوذجاً يوم النوروز، وكان ثابت صغيراً فدعى له الإمام علي عليه السلام بالبركة. أما أمه فلم يتعرض التاريخ لذكرها بالتفصيل، وقدذكر لها أخباراً معه من حيث طاعته ومعاشرته لها.

مع الأستاذ عفيفي في روايته:

وقد وافانا الأستاذ السيد عفيفي المحامي الشرعي بمصر، ومحرر مجلة المحاماة الشرعية، بقصة من دون سند وهي تتكفل تعيين أم الإمام وشخصيتها وإليك نصها:

يقول الأستاذ السيد عفيفي عند ذكره لوالد أبي حنيفة: هو ثابت بن النعمان بن المرزبان، وكان ثابت هذا يرجع إلى دين وعقل ومروءة، تصدر عن جد، فقد روي أنه كان في شبابه ورعاً زاهداً، وكان يوماً يتوضأ من جدول فجاءت تفاحة في الماء فأمسكها وأكلها بعد الفراغ من الوضوء، ثم بصق فرأى بصاقه دماً فقال في نفسه: لعل ما أكلته حرام، وإلا لما تغير بصاقي فتبع رأس الجدول، فوجد شجرة تفاحها مثل ما أكل، فطلب صاحبها وقص عليه القصة وأعطاه درهماً وقال: اجعلها في حل، فلما رأى صاحب التفاحة ورعه وصلابته في دينه أحبه، وقال لا أرضى بدرهم ولا بألف درهم ولا بأكثر.

فقال ثابت: فيم ترضى؟ قال إن لي ابنة لا ترى ولا تنطق، ولا تسمع ولا تمشي، فإن تزوجتها أجعلها في حل، وإلا أخاصمك يوم السؤال والحساب. فلبث ثابت في التفكر ساعة، ثم قال في نفسه: عذاب الدنيا أسهل وينقضي، وعذاب الآخرة أشد وأبقى، وتزوج بها فلما دخل عليها تقبلته بقبول حسن، فاشتبه على ثابت الأمر، لأنه وجدها حسناء سميعة بصيرة ناطقة، فقالت له: أنا زوجتك بنت فلان. قال: وجدتك على خلاف ما وصفك أبوك، قالت: نعم فإني كنت من سنين لم أطأ خارج البيت، ولم أنظر الأجانب ولم أسمع كلامهم ولم يسمعوا كلامي، فعرف ثابت الحال وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

يقص علينا الأستاذ المحامي هذه القصة غير ملتفت إلى المؤاخذات التي يؤاخذ بها بصفته مثقفاً من أبناء القرن العشرين ويتولى مهنة المحاماة الشرعية.

فيعلق عليها بقوله: هيهات لا يأتي الزمان بمثل ثابت، ولا بمثل صاحبته فلا عجب أن يتولد منهما ولد في صورة الإنسان وسيرة الملك، ويحيي الله به دينه القويم، ويشيع مذهبه في الأقطار، وعلمه في الأمصار ويقول:

من هذا الوالد الورع الزاهد، وهذه الأم الطاهرة، ولد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان في مدينة الكوفة في سنة ٨٠ من الهجرة النبوية في عصر الدولة الأموية في خلافة عبد الملك بن مروان.

ويقول بعد ذلك إن اسمه النعمان وهو منقول من اسم جنس وقيل إنه الدم وقيل إنه الروح، فيكون اتفاقاً حسناً لأن أبا حنيفة روح الفقه وقوامه ومنه منشأه ونظامه.

ونحن نسائل الأستاذ المحامي عن الأسباب التي دعته لنقل هذه الأسطورة في مقدمة كتابه «حياة الإمام أبي حنيفة» أكان انتصاراً للإمام ليعلن بفضله وفضل أبيه وأمه؟ وهل ضاقت عليه المسالك في مناقب أبي حنيفة فالتجأ إلى أساطير العجائز في ليالي الشتاء؟ وليته ترك هذه الأسطورة، وهو المثقف الذي يحمل شهادة المحاماة، والمفروض بالمحامي أن يحمل عقلية قوية وفكراً واسعاً يستطيع به أن يتوغل إلى أعماق معقولات القوانين.

ونسائله أيضاً لو قدر للشيخ عفيفي حضور تشاجر الفلاح مع ثابت وطلب كل منهما حكمه في الأمر، أكان يحكم على ثابت بأنه مذنب ويلزمه بإرضاء الفلاح بكل صورة؟ وهل في وسع الشيخ أن يحكم بصحة ما ذهب إليه ثابت من أن التفاحة كانت حراماً لذلك تحولت إلى دم؟ وكيف يكون ذلك من الوجهة الطبية والبيولوجية.

أنا لا أدري ولعل الأستاذ محب الدين الخطيب يدري، لأنه قدم الكتاب وعرفه للقراء.

المناقب:

لعل من أهم المشاكل التي تقف أمامنا ونحن في طريق البحث عن حياة أبي حنيفة هي مشكلة المناقب، فإنها متضخمة إلى أبعد حد، ولا نستطيع أن ندرس حياة أبي حنيفة دراسة صحيحة إلا بعد الفراغ من مشكلة المناقب لأنها أهم شيء في الباب.

وإن كتب المناقب تعرقل سير الباحث بينه وبين الوصول إلى الهدف لأن فيها الإغراق في المدح، والمبالغة في الوصف، ونقل أخبار وحكايات بعيدة عن مقاييس الصحة، ولا نريد التعرض لكل ما قيل بل نقتصر على مناقشة ما يدعى وروده على سبيل البشارة وطريقة التعيين لأهلية الاتباع.

وكيف كان فقد قال أصحاب المناقب ينبغي لكل مقلد إمام أن يعرف حال إمامه الذي قلده، ولا يحصل ذلك إلا بمعرفة مناقبه وشمائله وفضائله، وسيرته في أحواله وصحة أقواله، ثم لا بد من معرفة اسمه وكنيته ونسبه وعصره وبلده، ثم معرفة أصحابه وتلامذته.

وقد ألف كل من علماء المذاهب كتباً في مناقب إمامهم فألف الحنفية كتباً في

مناقب أبي حنيفة. منها «عقود المرجان في مناقب أبي حنيفة النعمان»، ومختصره «قلائد عقود الدرر والعقيان» لأبي جعفر الطحاوي و«مناقب أبي حنيفة» لموفق الدين بن أحمد المكي الخوارزمي المتوفى سنة ٥٦٧هـ رتبه على أربعين باباً، و«البستان في مناقب النعمان» للشيخ محيي الدين عبد القادر بن أبي الوفاء، و«شقائق النعمان في مناقب النعمان» للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ و«مناقب أبي حنيفة» لمحمد بن الكردري المعروف بالبزاز المتوفى سنة ٧٨٢هـ وقد ترجم إلى اللغة التركية وغيرها.

وتوجد مناقب كثيرة في بطون الكتب على اختلاف نزعات المؤلفين وأهوائهم.

يقول الدكتور أحمد أمين: كما أن العصبية المذهبية حملت بعض الأتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لإعلاء شأن إمامهم، ومن هذا الباب ما رووا من الأحاديث بتبشير النبي ﷺ لكل إمام من مثل ما روي أن النبي ﷺ قال في أهل العراق: «إن الله وضع خزائن علمه فيهم» ومثل: «يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت، ويكنى بأبي حنيفة يحيي الله على يديه سنتي في الإسلام» الخ؛ حتى لقد زعموا أن أبا حنيفة بشرت به التوراة.

وكذلك فعل بعض الشافعية في الشافعي، والمالكية في مالك، وما كان أغناهم عن ذلك. ومن أجل ذلك صعب على الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل إمام، فكلما أتى جيل زاد في فضائل إمامه.

وقد وضع أحمد بن الصلب بن المفلس أخباراً في مناقب أبي حنيفة وكان يحكي ذلك عن بشر بن الحارث ويحيى بن معين وابن المديني[1].

لذلك نرى من اللازم البحث عن بعض المناقب التي أصبح التسليم بصحتها أمراً مفروغاً منه عند بعضهم، وترسل في معرض المدح والثناء إرسال المسلمات.

وها نحن نضع بين يدي القراء أهم المناقب في أبي حنيفة ونعطيه عنها صورة صادقة من حيث الصحة والبطلان، فالعلم هو الكاشف لذلك، والتحقيق في البحث يحل تلك المشاكل، ولا غرض لنا بهذا إلا تجريد شخصية أبي حنيفة من أبراد الغلو فنتعرف على واقع أمره ونتخلص إلى سيرة وترجمة حقيقيتين.

---

(١) انظر المنتظم ٥ ـ ١٥٦.

البشائر في أبي حنيفة:

أورد الحنفية في كتبهم أحاديث عن صاحب الرسالة ﷺ تنص على البشارة بأبي حنيفة وتصرح باسمه، وكنيته، منها:

١ ـ يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي.

٢ ـ يكون في أمتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة.

٣ ـ يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت يكنى بأبي حنيفة يحيي الله به سنتي.

بهذا اللسان والتعبير أوردوا هذه الأحاديث عن صاحب الرسالة ونحن نقف هنا موقف الحيرة. أنترك هذه الأحاديث بدون فحص ونسدل عليها ستار الإعراض، فالعقل السليم أجل من أن يحتاج إلى إيضاح مثل هذه الأمور التي تدل بنفسها على بعدها عن الواقع، أن نبحث عنها فنصرف زمناً في البحث لطلب الحقيقة فقط؟

نعم، البحث عنها أولى، لأنا وجدناها في كتب الحنفية المعتبرة عندهم، ويستدل بها أكثر علمائهم في صحة اتباع مذهب أبي حنيفة دون غيره، على أن المبرزين منهم يكذبون ذلك وينصون على كذبها كما سيأتي بيانه، إذاً لا بد لنا من البحث بإيجاز عن مصدر هذه الأحاديث والنظر في سلسلة الرواة.

حديث السراج وإحياء الدين:

وهذا الحديث استشهد به كثير من الحنفية في تفضيل أبي حنيفة على غيره ذاهبين إلى صحته، فلننظر إلى سلسلة الحديث، ونكتفي بالبعض منها ولا نتتبع حلقاتها جمعاء فسلسلة الحديث تبتدىء من محمد بن سعيد البورقي، وتنتهي إلى أبي هريرة، أما محمد بن سعيد فإليك حاله ومنزلته في الرواية لتعرف أهليته لحمل الحديث.

قال ابن حجر: محمد بن سعيد البورقي أحد الوضاعين قد وضع المناكير على الثقات، وأوحشها روايته عن بعض مشايخه عن الفضل بن موسى عن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً: يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي، وزاد رواية أخرى، وسيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس (يعني

الشافعي) فتنته على أمتي أضر من فتنة إبليس[1].

وقال حمزة السهمي: محمد بن سعيد كذاب حدث ببلاد خراسان (سيكون في أمتي رجل يقال له النعمان هو سراج أمتي) ثم حدث في العراق بإسناده وزاد (سيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس فتنته على أمتي أضر من فتنة إبليس) وقال الحاكم: (محمد بن سعيد حديثه ليس بشيء).

ويقول ملا علي القاري وهو أكبر علماء الحنفية وله كتاب في مناقب أبي حنيفة: وقد أورد بعضهم في مدح أبي حنيفة وذكر حديث السراج وهو حديث موضوع.

هذا وحديث محيي الدين بهذا اللفظ أوردوه مرفوعاً (سيكون رجل يقال له النعمان بن ثابت ويكنى بأبي حنيفة يحيي دين الله وسنتي).

وقد أجهد الموفق المكي نفسه في تصحيح هذا الحديث ولم يوفق، وراوي هذا الحديث يحيى بن سليمان عن إبراهيم بن أحمد الخزاعي عن أبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس بن مالك مرفوعاً، ولا حاجة بالتعرض لرجالها أجمع ونكتفي بذكر من رواها عن أنس وهو إبراهيم بن هدبة.

قال الخطيب في تاريخه: إبراهيم بن هدبة حدث عن أنس بالأباطيل. وقال أبو حاتم وغيره: إنه كذاب خبيث وقال ابن حبان إنه من الدجاجلة كان لا يعرف بالحديث[2].

وقال بشر بن عمر كان في جوارنا عرس، فدعي له أبو هدبة فأكل وشرب، وسكر فجعل يغني:

أخذ القمل ثيابي فرقصت لهنّه

وقال علي بن ثابت: أبو هدبة أكذب من حماري، إلى آخر الأقوال فيه وفي فسقه، وانه كان يسأل الناس في الأسواق مع العلم أنه كان من أهل القرن الثالث، فكيف سمع من أنس؟ فلا شك في كذبه، إذاً فالحديث موضوع على صاحب الرسالة وقد اختلفت ألفاظ هذه الموضوعات لاختلاف الغرض في وضعها، وذلك أنها إشارة

(١) لسان الميزان ج ٥ ص ١٧٩.

(٢) لسان الميزان ج١ ص١٢٠.

في أول الأمر إلى الكنية فقط، وبهذا وقعوا في حذر عظيم، لأن الذي يكنى بأبي حنيفة من العلماء كثير، فذهبوا إلى الصراحة بالاسم، فقالوا: اسمه النعمان بن ثابت ويكنى بأبي حنيفة، ليخرجوا بذلك جملة من العلماء الذين اشتهروا بهذه الكنية في عصره وبعد عصره.

قال السيوطي عند ذكر هذه الأحاديث: إن الذي وضع حديث (أبو حنيفة سراج أمتي) هو مأمون بن أحمد السلمي، وأحمد بن محمد الجويباري وكلاهما من الوضاعين(١).

وأنهم أوردوا هذه الأحاديث من طرق متعددة، ولكن المحور الذي تدور عليه، هو سعيد البورقي، ومأمون بن أحمد الهروي، وأحمد بن محمد الجويباري، ومحمد بن يزيد الطرسوسي، وأبان بن عياش، وهو الراوي عن أنس، وإبراهيم بن هدبة راوي حديث محيي السنة وكل هؤلاء عرفوا بالكذب والوضع.

أما مأمون بن أحمد السلمي الهروي، وهو راوي حديث يكون في أمتي رجل يقال له النعمان إلى آخره. قال أبو نعيم في مقدمة المستخرج على صحيح مسلم: مأمون السلمي من أهل هراة خبيث وضاع يأتي عن الثقات، مثل هشام بن عمار، ودحيم بالموضوعات، وفيما حدث عن أحمد الجويباري الكذاب عن عبد الله بن معدان الأزدي عن أنس مرفوعاً: سيكون في أمتي رجل يقال له النعمان. الحديث قال أبو نعيم: مثله يستحق من الله تعالى ومن الرسول ومن المسلمين اللعنة. وقال الحاكم بعد ذكر الحديث من طريق مأمون: ومثل هذه الأحاديث يشهد من رزقه الله أدنى معرفة بأنها موضوعة على رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأما محمد بن يزيد فقد كان من الوضاعين، وقد روى هذا الحديث عن سليمان بن قيس عن أبي المعلى بن مهاجر عن أبان عن أنس قال ابن حجر: وسليمان بن قيس والمعلى مجهولان لا يعرفان(٢).

وأما أبان بن أبي عياش البصري مولى عبد القيس وهو الراوي عن أنس فقد كان يحيى بن معين، وعبد الرحمن بن المهدي لا يحدثان عنه. وقال الفلاس: هو متروك

---

(١) اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج١ ص٢٣٧.

(٢) لسان الميزان ج٥ ص٧.

الحديث، وقال أحمد بن حنبل: لا يكتب عنه ترك الناس حديثه. وقال أبو عوانة: لا أستحل أن أروي عنه شيئاً، إلى آخر ما هنالك من الأقوال في ذمه، وقد نص بعضهم على كذبه، قال ابن حبان: إن أبان سمع من أنس أحاديث وجالس الحسن فكان يسمع من كلامه: فإذا حدث جعل كلام الحسن البصري عن أنس أحاديث عن النبي ﷺ ولعله حدث عن أنس بأكثر من ١٥٠٠ حديث. قال الجوزجاني: أبان ساقط، وقال شعبة: لئن أشرب من بول حماري أحب إليّ من أن أقول: حدثني أبان وقال مرة: لئن يزني الزاني خير من أن يروي عن أبان. وقال أيضاً لا يحل الكف عن أبان إنه يكذب على رسول الله[1] وقد مر ذكر إبراهيم والبورقي.

وأما الجويباري فقد نص على كذبه الذهبي في الميزان، وابن حجر في لسانه والسيوطي والخطيب البغدادي وغيرهم.

ونحن لا نتعرض لجميع هذه الأقوال الادعائية في البشائر النبوية التي التجأ إليها المعجبون بأبي حنيفة، والمغالون بشخصيته، ونكتفي بهذا القدر من التوهين لها، ولم يكن من قصدنا بالبحث عن هذه الأمور إلا إظهار الحقيقة وخدمة العلم، لأن أغلب من كتب عن أبي حنيفة جعلها من أقوى مؤيدات اتباعه ولزوم الأخذ عنه دون غيره، وإن أكثر من كتب من المتعدلين في مناقب أبي حنيفة لم يذكروا هذه الأحاديث لعدم الاعتماد عليها كالسيوطي في تبييض الصحيفة، وابن حجر في الخيرات الحسان[2] وملا علي القاري، والذهبي في مناقب أبي حنيفة.

وقد سلك السيوطي طريقاً آخر لإثبات تبشير النبي ﷺ بأبي حنيفة. قال: وقد بشر النبي ﷺ بأبي حنيفة في الحديث الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبي هريرة: لو كان العلم بالثريا لتناولته رجال من أبناء فارس. وهذا لا يمكن وفي أبناء فارس من حملة العلم من الصدر الأول إلى اليوم من العلماء ما ينطبق هذا العموم عليهم فكيف يخصص بأبي حنيفة وحده! هذا من التخمين والظنون وهو من باب أريه السهى ويريني القمر.

(١) تهذيب التهذيب ج١ ص٩٨.

(٢) قال ابن حجر في الخيرات الحسان ص٥ عند ذكر الحديث: قد أطبق المحدثون على وضعه.

وعلى أي حال فإن هذه الموضوعات كانت من نتائج عصور التعصب وعهود التطاحن بين المذاهب.

حديث غياث لكل مهموم:

روى الموفق بسنده عن محمد الحارثي بإسناده إلى أبي البختري قال: دخل أبو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فلما نظر إليه قال: كأني أنظر إليك وأنت تحيي سنة جدي بعدما اندرست، وتكون مفزعاً لكل ملهوف، وغياثاً لكل مهموم.

هكذا نقل الموفق بهذا السند يوصله إلى أبي البختري، ونحن في سعة عن مناقشة رجال السند أجمع، بل يلزمنا أن نتعرف على شخصية أبي البختري الذي يدعي سماع هذه الكلمات من الإمام الصادق عليه السلام فإذا كان محله الصدق والثقة فنحن نأخذ هذه الرواية بعين الاعتبار، إذ ليس لنا عداء مع الحق.

أبو البختري:

هو وهب بن وهب بن وهب القرشي أبو البختري قاضي بغداد، الذي يقول فيه المعافى:

ويل وعول لأبي البختري ... إذا ثوى للناس في المحشر

من قوله الزور وإعلانه ... بالكذب في الناس على جعفر

وقال ابن العماد الحنبلي في الشذرات في حوادث ٢٠٠هـ: وفيها مات وهب بن وهب أبو البختري... إلى أن قال: روى عن هشام بن عروة وطائفة واتهم بالكذب.

وقال ابن قتيبة في المعارف: كان ضعيفاً في الحديث كذبه في المغني، وقال يحيى بن معين: أبو البختري كان يأخذ فلساً فيذكر عامة ليله يضع الحديث وقال أيضاً: أبو البختري القاضي كان يكذب على رسول الله ﷺ وقال أيضاً: أبو البختري كذاب عدو الله خبيث.

وقال عثمان بن أبي شيبة: وهب بن وهب ذاك دجال أرى أنه يبعث يوم القيامة دجالاً، ولما بلغ عبد الرحمن بن مهدي موته قال: الحمد لله الذي أراح المسلمين

منه، وقال ابن خلكان: أبو البختري كان متروك الحديث، مشهوراً بوضعه، ونص أحمد على كذبه.

وروى الخطيب أن أبا البختري دخل على الرشيد وهو قاض يوم ذاك وهرون يطير الحمام فقال: هل تحفظ في هذا شيئاً؟ فقال: حدثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي كان يطير الحمام(١).

وساق ابن عدي لأبي البختري أحاديث موضوعة قال: وأبو البختري من الكذابين الوضاعين، وكان يجمع في كل حديث يرويه بأسانيد من جسارته على الكذب ووضعه على الثقات(٢).

هذا هو أبو البختري راوي هذه المنقبة التي ذكرها الخوارزمي في مناقب أبي حنيفة.

فتوى أبي البختري:

ونسوق إليك قضية من قضايا قاضي القضاة أبي البختري لتعرف أهليته لهذه المنزلة: كان الرشيد قد أعطى ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كتاب الأمان، ثم أراد إبطاله فسأل محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة. . فقال: هذا أمان صحيح ودمه حرام، فدفع الكتاب إلى الحسن بن زياد فقال بصوت ضعيف: أمان، فدخل أبو البختري وهب بن وهب القاضي، وأخرج من خفه سكيناً فقطع الكتاب من غير أن يسأل عنه، وقال: هذا أمان مفسوخ، وكتاب فاسد ودمه في عنقي(٣).

وبارتكابه لهذه الجريمة وإراقته دماً طاهراً لحفيد من أحفاد رسول الله ﷺ نال درجة الرقي في مناصب الدولة، وخطا خطوات واسعة إذ قال له الرشيد عند صدور هذه الفتيا: أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك. وأجازه الرشيد بألف ألف وستمائة ألف درهم، فها هو قد أصبح بعد أن كان واحداً من القضاة رئيسهم الأول، ومرجعهم

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٥٣ ووفيات الأعيان ج٢ ص١٨٢ و١٨١.

(٢) لسان الميزان ج٦ ص٢٣١.

(٣) مفتاح السعادة لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ج٢ ص١١٠ ولسان الميزان ج٢ ص٢٣٤.

الأعلى تناط به أمورهم، ومن سوء حظ الأمة أن تكون سلطتها القضائية بيد قضاة لا يخافون الله ولا يرجون معاداً، هذا هو أبو البختري وهذه حاله فكيف يوثق بنقله ويعتمد على قوله.

يقول سويد بن عمرو بن الزبير في أبيات له:

إنا وجدنا ابن وهب حين حدثنا — عن النبي أضاع الدين والورعا
يروي أحاديث من إفك مجمعة — أف لوهب وما يروي وما جمعا[1]

بين المد والجزر:

لقد غالى بعض كتّاب المناقب غلواً أخرجهم من الاعتدال في القول والتثبت في النقل، فتقولوا وافتعلوا، وذهبوا إلى أبعد حد من المدح والثناء، وجاءوا بأمور متنوعة في مناقبه وفضائله حتى وضع بعضهم كتاباً موضوعاً في مناقبه. وللبيان نعطي صورة مختصرة عن تلك الادعاءات الكاذبة وللتفصيل محل آخر.

فمن أظرف ما ينقل من كرامات أبي حنيفة قضية الدهري الذي ورد بغداد ليناظر علماء الإسلام أيام الدولة العباسية، وأنهم عجزوا عن جوابه ولم يبق إلا حماد بن أبي سليمان، ومعه تلميذه أبو حنيفة، ولهذه الأسطورة صور في النقل:

منها: أن دهرياً من الروم ناظر علماء الإسلام فأفحمهم إلا حماداً. ولم يأت أحد بما فيه مقنع، والإمام إذ ذاك كان صبياً فخاف حماد لأنه لو ألزمه يهون أمر الإسلام. فرأى رؤيا لا حاجة لنا بنقلها[2].

فذهب أبو حنيفة مع أستاذه إلى الجامع. وصعد الدهري المنبر. وطلب الخصم، فحضر أبو حنيفة وهو صبي، فاستحقره، فقال أبو حنيفة: دع هذا وهات كلامك، فتعجب الدهري من جرأته فسأله الدهري بأسئلة فأجاب عنها فقال أبو حنيفة: هذه الأسئلة وأنت على المنبر وأنا أجبت عنها والآن انزل إلى الأرض وأنا أصعد المنبر، فنزل وصعد أبو حنيفة وقال: إذا كان على المنبر مشبه مثلك أنزله، وإذا كان على الأرض موحد مثلي رفعه، «كل يوم هو في شأن» فبهت الدهري وقتلوه.

---

(١) ترجمة قاضي القضاة أبو البختري في لسان الميزان ج٦ ص٣٣٢، وميزان الاعتدال ج٣ ص٢٧٨ وتاريخ بغداد ج١٣ ص٤٥٤ وغيرها.

(٢) مفتاح السعادة ج٢ ص٢٠١.

هكذا دون بعض أصحاب المناقب هذه الأسطورة ولم يلتفتوا إلى المؤاخذات فإنهم ذكروا أن هذه القصة قد وقعت في بغداد، ولا يتأتى ذلك، فإن بغداد مصرت في زمن المنصور سنة ١٤٥هـ فيكون عمر أبي حنيفة في هذه القصة ٦٥ سنة فكيف كان عمره سبع سنين؟ وإن وفاة أستاذه حماد بن أبي سليمان سنة ١٢٠هـ بالاتفاق، أي قبل تمصير بغداد بخمس وعشرين سنة. مع أن أبا حنيفة تتلمذ على يد حماد، بعد أن قضى شطراً من عمره في بيع الخز، واشتغل مدة بعلم الكلام، وبعد ذلك التحق بحلقة حماد.

وقد ذكرت هذه الأسطورة في عدة كتب وعلق بعضهم عليها بقوله: هذا حال الإمام في صغره فكيف في كبره[١].

أما الصورة التي ينقلها الخوارزمي فهي:

إن ملك الروم بعث مالاً عظيماً بيد أمين إلى بغداد، وقال: سلهم عن ثلاث مسائل، فإن هم أجابوا فادفع إليهم المال، وإلا فارجع به، فلما قدم بغداد جمع العلماء وصعد الرومي المنبر وقال: إن أجبتم عن أسئلتي أعطيتكم المال، وإلا رجعت به، فسألهم وسكت القوم وفيهم أبو حنيفة، وهو يومئذ صبي، فقال لأبيه: يا أبتا أنا أجيبه، فأسكته أبوه، وقام أبو حنيفة واستأذن الخليفة في الجواب وصعد أبو حنيفة المنبر. الخ. هكذا أوردوا هذه الأسطورة واختلفوا بطرق نقلها.

ومن أظرف ما نقلوه ما يرويه صاحب مفتاح السعادة أن ثابتاً توفي وتزوج الإمام الصادق عليه السلام أم الإمام أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة رحمه الله صغيراً وتربى في حجر الإمام جعفر الصادق وأخذ علومه منه. قال مؤلفه: وهذه إن ثبتت فهي منقبة لأبي حنيفة، وقد أيد ذلك قاضي زاده شريف مخدوم فقال: وبعد وفاة الثابت، أي والد أبي حنيفة، تزوج أم الإمام رحمه الله الإمام جعفر الصادق وربى أبو حنيفة في حجره[٢].

وكيف يتأتى ذلك ويستقيم وإن أبا حنيفة كان صغيراً وتربى في حجر الإمام الصادق وقد كانت ولادة أبي حنيفة سنة ٨٠هـ وولادة الصادق سنة ٨٣هـ؟ فلا يصح

---

(١) مفتاح السعادة ج٢ ص٢٠١، وشرح وصية أبي حنيفة المخطوط بمكتبة الإمام كاشف الغطاء.

(٢) جامع الرموز ج١ ص٢.

هذا وإن أبوا إلا تصحيح هذه المناقب فالله قادر على كل شيء، ولا يستبعد أن يكون المد والجزر في الأعمار كما هو في البحار.

ولنكتف بما ذكرناه، ولا نتعرض لتلك الادعاءات الكاذبة فقد ادعوا أن التوراة بشرت به، وأن صفته مكتوبة فيها، وأن الله ناداه: يا أبا حنيفة إني قدغفرت لك ولمن هو على مذهبك إلى يوم القيامة، وأن النبي غبط داود لأن في أمته لقمان فبشره جبرائيل بأبي حنيفة، وأن حكمته أعظم من حكمة لقمان، وأن الخضر درس عليه خمس سنين في حياته وأكمل دراسته عليه وهو في قبره، إلى كثير من تلك السفاسف وهي من الأمور التي لا تحتاج إلى مناقشة، وإنما هي وليدة عصر احتدام التعصب للمذاهب، فذهب كل إلى تكوين شخصية إمامه طبقاً لأهدافه، وقد ألفوا كتباً طافحة بالثناء الأجوف والمدح الكاذب.

وقد كان جماعة يضعون الأحاديث والمناقب لنصرة مذهب أبي حنيفة أمثال أحمد الحماني المتوفى سنة ٣٠٢هـ وأسد بن عمر البجلي القاضي المتوفى سنة ١٩٠هـ، وإباء بن جعفر الكذاب المعروف، وقد حرفه بعضهم عند نقله عنه بابان ليخفي حاله، وقد خرجوا في أبي حنيفة أحاديث لا أصل لها[1] وقد وضع أباء عليه أكثر من ثلاثمائة حديث، وذكر أكثرها الحارثي في مسند أبي حنيفة؛ وغير هؤلاء كثير لا يسع الوقت لذكرهم ممن دعتهم عصبيتهم إلى تكوين شخصية أبي حنيفة طبقاً لرغباتهم، ومعاكسة للوجدان ومخالفة للحق، وبذلك صعب الوصول إلى معرفة شخصية أبي حنيفة.

فلنترك مناقشة تلك المناقب فإنا لا نتعرض إلا لما له أهمية في الموضوع. فمن ذلك قولهم: إن أبا حنيفة سمع جماعة من الصحابة ودونوا له أحاديث ذكرت في مسانيده فلننظر لصحة هذه الدعوى.

سماعه من الصحابة:

حاول البعض أن يجعل أبا حنيفة من التابعين بل قال بعضهم إنه سيدهم، والتابعي هو الذي عاصر الصحابة وسمع منهم، وقالوا: إن أبا حنيفة عاصر جماعة من الصحابة وروى عنهم ومجموع ما رواه خمسون حديثاً.

---

(١) تهذيب التهذيب ج١ ص٤٤٩.

وهذه الدعوى يختص بها الحنفية، وقد نفاها علماء الحديث والتاريخ، كما أن أصحابه الذين دونوا مذهبه لم يثبتوا ذلك، ولم يعرفوا من روايته عن الصحابة معرفة قطيعة لا تقبل الشك. وإنما هو من إيحاءات العصبية ونزعة الغلو، وللبيان نذكر أولئك الصحابة رضي الله عنهم وتاريخ وفاتهم، فيتضح بطلان هذه الدعوى، وإليك البيان:

١ ـ عبد الله بن أنيس أبو يحيى الجهني حليف الأنصار، شهد العقبة الثانية وأحد، ورحل إلى مصر وتوفي في الشام سنة ٨٠هـ أي سنة ولادة أبي حنيفة، وقال بعضهم: توفي في خلافة معاوية سنة ٥٤هـ فما يروى عن أبي حنيفة أنه قال: ولدت سنة ثمانين، وقدم عبد الله بن أنيس الجهني صاحب رسول الله ﷺ سنة ٩٤هـ ورأيته وسمعت منه عن رسول الله ﷺ «حبك الشيء يعمي ويصم» لا أصل له.

ويقول ملا علي القاري ـ بعد ذكره لهذا الحديث ـ: في ملاقاة عبد الله بن أنيس به (أي بأبي حنيفة) إشكال لأن أهل السير والتواريخ مجمعون على أنه مات بالمدينة سنة ٥٤هـ[١].

٢ ـ عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي أبو الحرث شهد فتح مصر واختط بها داراً ومات سنة ٨٦هـ وهو آخر من مات بها من الصحابة، فما روي عن أبي حنيفة أنه قال: حججت مع أبي سنة ٩٦هـ، ورأيت عبد الله بن الحرث يدرس في المسجد الحرام، وسمعت منه أنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: من تفقه في دين الله كفاه الله ما أهمه، ورزقه من حيث لا يحتسب؛ فهذا لا يصح، لأن وفاة هذا الصحابي كانت في سنة ٨٦هـ وولادة أبي حنيفة في سنة ٨٠هـ وأول حج حجه أبو حنيفة سنة ٩٦ هجرية فكيف يصح ملاقاته وسماعه منه؟.

قال الشيخ قاسم الحنفي وهو من مشايخ الحنفية: إن سند ذلك الحديث فيه قلب وتحريف، وفيه كذاب اتفاقاً، وبأن عبد الله مات بمصر ولأبي حنيفة ست سنين وعبد الله لم يدخل الكوفة في تلك المدة.

٣ ـ جابر بن عبد الله الأنصاري صحابي جليل شهد العقبة، وغزا تسع عشرة

---

(١) شرح مسند أبي حنيفة ٢٨٦.

غزوة مات بالمدينة ٧٨هـ أي قبل ولادة أبي حنيفة بسنتين، فما يروى عن أبي حنيفة عن جابر عن النبي ﷺ أنه أمر من لم يرزق ولداً بكثرة الاستغفار والصدقة، فولد لجابر تسعة ذكور، فهذا حديث موضوع لا أصل له(١).

٤ ـ عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي، صحابي ابن صحابي شهد بيعة الرضوان، مات سنة ٨٥هـ وسماع أبي حنيفة منه حديث رسول الله ﷺ «من بنى لله مسجداً كمفحص قطاة بني الله له بيتاً في الجنة» فسماعه غير صحيح لأنه طفل صغير ليس له أهلية السماع، مع أن أبا حنيفة لم يشتغل بطلب العلم إلا بعد مدة من الزمن.

٥ ـ معقل بن يسار المزني بايع بيعة الشجرة، وتوفي في خلافة معاوية سنة ٦٠هـ فرواية أبي حنيفة عنه حيث يقول: سمعت معقلاً يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علامات المنافق ثلاث إذا قال كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، غير صحيح لتقدم وفاة معقل على ولادة أبي حنيفة بعشرين سنة.

٦ ـ واثلة بن الأسقف بن كعب بن عامر من بني ليث بن عبد مناف، ويكنى أبا الأسقع أسلم قبل تبوك، وشهدها مع النبي ﷺ نزل الشام ومات في خلافة عبد الملك سنة ٨٣هـ وكان آخر من مات بدمشق من الصحابة، روى عنه أبو حنيفة حديثين: (الأول): «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك». (والثاني): «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». والحديثان رواهما الترمذي من وجه آخر عن جمع من الصحابة، ورواية أبي حنيفة لهما عن واثلة لا تصح لأنه مات بالشام وعمر أبي حنيفة ثلاث سنين.

٧ ـ عائشة بنت عجرد مجهولة لا تكاد تعرف، قال الذهبي وابن حجر: إن عائشة لا صحبة لها وأنها لا تكاد تعرف، وبذلك رد ما روي أن أبا حنيفة روى هذا الحديث الصحيح «أكثر جند الله الجراد لا آكله ولا أحرمه».

٨ ـ سهل بن سعد الساعدي كان اسمه حزن فسماه رسول الله سهلاً توفي سنة ٨٨هـ وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة ولم يخرج منها إلى الكوفة فلا يصح سماع أبي حنيفة منه وروايته عنه لأن أبا حنيفة لم يحج إلا في سنة ٩٦هـ أي بعد وفاة سهل بثمان سنوات. ذكر ذلك البزاز في مناقب أبي حنيفة.

---

(١) انظر الخيرات الحسان ص٢٤.

٩ ـ أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري شهد بدراً مات سنة ٩٠هـ وقد جاوز المائة وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة[١].

وعلى كل حال فإن رواية أبي حنيفة عن الصحابة قد نفاها جماعة من المحدثين وعلماء الرجال: كالولي العراقي، وابن حجر، والسخاوي وغيرهم[٢].

قال محمد بن شهاب البزاز: إن جماعة من المحدثين أنكروا ملاقاة أبي حنيفة للصحابة، وأصحابه أثبتوها.

وقبل أن نتحول عن موضوع المناقب نحب أن نشير إلى منزلة أبي حنيفة في الحديث، وهل خرج له أصحاب الصحاح أم لا؟

ولا نحب أن نطيل الحديث ونكتفي ببعض الموضوع، لنأخذ صورة عن ذلك في مجال المقارنة والموازنة فيما بعد.

حديثه وعنايته بالرواية:

قالوا: إن أبا حنيفة لم يكن صاحب حديث ولكن كان قياساً سلك في القياس مسلكاً استوجب شدة الإنكار عليه وعلى أصحابه.

قال مالك بن مغول: قال لي الشعبي ـ ونظر إلى أصحاب الرأي ـ: ما حدثك هؤلاء عن أصحاب محمد ﷺ فاقبله، وما خبروك به عن رأيهم فارم به في الحش. وقال: إياكم والقياس فإنكم إن أخذتم به حرمتم الحلال وأحللتم الحرام[٣].

يقول ابن خلدون: بلغت رواية أبي حنيفة إلى سبعة عشر حديثاً. ويعلل ذلك بقوله: إنما قلت رواية أبي حنيفة لما شدد في شروط الرواية والتحمل، وضعف رواية الحديث اليقين إذا عارضها الفعل النفسي[٤].

قال الدكتور أحمد أمين ـ بعد نقل هذه العبارة ـ: وهي وإن كانت موجزة،

---

(١) الخيرات الحسان وخلاصة تهذيب الكمال.

(٢) شرح مسند أبي حنيفة للقاري ٢٨٤.

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٧٠.

(٤) المقدمة ص٣٧٢.

وغامضة بعض الغموض إلا أنها تدلنا على هذا الاتجاه، وهو عدم الاكتفاء بالرواية، بل عرضها على الطباع النفسية والبيئة الاجتماعية[١].

ونحن نستبعد صحة هذا القول وإن أبا حنيفة لم يرو إلا سبعة عشر حديثاً أو لم يصح عنده إلا ذلك العدد.

فإن الرجل حضر عند علماء الأمة، وسمع من الثقات وسافر إلى مكة والمدينة، وسمع من أئمة أهل البيت عليهم السلام الإمام الباقر عليه السلام، وولده الإمام الصادق عليه السلام، وزيد بن علي عليه السلام، وعبد الله بن الحسن.

ونحن لا ننكر أنه كان قياساً وكان يتشدد في الرواية، ولا يقبل الخبر إلا إذا رواه جماعة عن جماعة أو كما يقول أصحابه: إذا كان خبر عام عن عامة، أو اتفق علماء الأمصار على العمل به، ومهما كان تشدده واشتراطه فلا يصح أن يقال إنه لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً.

أما أصحابه فلم يتشددوا في قبول الرواية، فقد أدخل أبو يوسف في فقه أبي حنيفة أحاديث كثيرة، ومن بعده محمد بن الحسن الشيباني، فإنه لقي مالكاً، وقرأ الموطأ عليه، ثم رجع إلى بلده، وطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة[٢].

وكيف كان فقد اختلف المحدثون في قبول رواية أبي حنيفة فمنهم من قبله، ومنهم من لينه لكثرة غلطه في الحديث ليس إلا، قال علي بن المديني ليحيى بن سعيد: كيف كان حديث أبي حنيفة؟ قال: لم يكن صاحب حديث[٣].

وقال ابن عدي في ترجمة إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: ثلاثتهم ضعفاء. وقد عده البخاري من الضعفاء والمتروكين.

أما أصحاب الصحاح فلم يخرجوا له حديثاً، نعم في رواية أبي علي الأسيوطي والمغاربة عن النسائي قال: حدثنا علي بن حجر، حدثنا عيسى هو ابن يونس، عن النعمان عن عاصم عن ابن عباس: من أتى بهيمة لا حد عليه.

وهو لم ينسب النعمان فهل هو أبو حنيفة أم غيره.

---

(١) ضحى الإسلام ج٢ ص١٣١.
(٢) رسالة الإنصاف ص٨.
(٣) الذهبي في مناقب أبي حنيفة ص٢٨.

وخرج له الترمذي من رواية عبد الحميد الحماني أنه قال: ما رأيت أكذب من جابر الجعفي، ولا أفضل من عطاء.

وهذا ليس بحديث وإنما هو قول لأبي حنيفة وإذا رجعنا إلى الواقع ففي إمكاننا تكذيب هذا القول ولا يصح نسبته لأبي حنيفة لأن جابر من كبار التابعين ووثقه سفيان الثوري، وزهير، وشعبة، ووكيع وغيرهم.

جاء في جامع أسانيد أبي حنيفة عن زهير أنه قال: إذا قال جابر بن يزيد: حدثني أو سمعت فهو من أصدق الناس[1].

وروى عن جابر كبار العلماء وأعيان الأمة وهو من شيوخ أبي حنيفة، وقد روى عنه عدة أحاديث أوردها أصحابه في كتبهم، وهي منتشرة في أسانيد أبي حنيفة.

وكان أبو حنيفة يمدح جابر بالحفظ ويقول: ما سألت جابر الجعفي عن مسألة قط إلا أورد فيها حديثاً، ولقد سألته عن ورد رسول الله ﷺ فقال حدثني نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يجعل وتره آخر صلاته[1].

ولا يستبعد أن هذا القول وضع أيام نشاط الخلافات وتحامل الموالي على العرب، فإن جابر عربي وعطاء من الموالي.

وستأتي ترجمة جابر في الأجزاء القادمة إن شاء الله.

أبو حنيفة بين انصاره وخصومه.

ليس للباحث عن حياة أبي حنيفة بد من الوقوف على أخباره العامة، وأن يستعرض الأقوال فيه وآراء الناس حوله، وبهذا لا يجد سهولة في الوصول إلى الغاية، إذ الطريق غير معبد لوجود ركام من الأخبار المختلفة، والآراء المتناقضة، والأقوال التي لا يمكن تصديقها.

فهناك تعصب وغلو في شخصيته، وإعجاب مفرط في مواهبه، وهناك نقد مر لأعماله، وتحامل شديد عليه، ووصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب وإمام طائفة.

---

(١) جامع أسانيد أبي حنيفة ج١ ص٣٠٥.

والكاتب هنا يقف بين طائفتين: متعصبون له ومغالون فيه وهم أنصاره، وناقدون له ومتحاملون عليه وهم خصومه.

أما الطائفة الأولى فقد رفعوه إلى منازل النبيين، وزعموا أن التوراة بشرت باسمه، وأن النبي أخبر به قبل ولادته، وأنه سراج الأمة ومحيي السنة، وأنه معجزة النبي بعد القرآن، ولولاه لما اهتدى الناس.

والشيء الغريب أنهم رفعوه فوق منزلة الأنبياء، لأن عيسى إذا رجع يقلده ويحكم بمذهبه، وأن الخضر تعلم أحكام الشريعة منه.

يقول قاضي زادة: اعلم أن المذهب لا يقلده من الصحابة والتابعين إلا أبو حنيفة فإن عيسى لما ينزل يحكم بمذهبه[(١)]!!

وقالوا: إن الله خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة.

ومن كراماته: أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح، ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين.

فلما مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربه وقال: إلهي إن كان لي عندك منزلة فائذن لأبي حنيفة حتى يعلمني من القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد ﷺ على الكمال، فأحياه الله وتعلم منه العلم إلى خمس وعشرين سنة.

وبعد أن أكمل الخضر دراسته، أمره الله أن يذهب إلى القشيري، ويعلمه ما تعلم من أبي حنيفة، وصنف القشيري ألف كتاب، وهي لا تزال وديعة في نهر جيحون، إلى رجوع المسيح، فيحكم بتلك الكتب، لأنه يأتي في زمان ليس فيه من كتب شرع محمد ﷺ فيتسلم المسيح أمانة نهر جيحون. وهي كتب القشيري[(٢)].

هذا ما قالوه حول انتساب المسيح لمذهب أبي حنيفة ولعمري إنهم أساؤوا لإمامهم بهذه السفاسف وخرجوا عن حدود التبجيل والإكرام له.

كما وصفوه بصفات فوق الطبيعة البشرية، كقراءة القرآن سبعين ألف مرة، في محل واحد، وصلاته في كل ليلة ركعتين يختم القرآن في كل ركعة، وصلاته الفجر

---

(١) جامع الرموز ج١ ص٢.

(٢) الإشاعة في أشراط الساعة ص١٢٠ والياقوتة لابن الجوزي ص٤٥.

بوضوء العشاء أربعين سنة، وامتناعه من أكل اللحم عشر سنين لأن شاة ضاعت فسأل كم تعيش فقيل عشر سنين، إلى غير ذلك من الأمور التي أساء المغالون لأبي حنيفة فيها.

هذا هو أبو حنيفة في نظر المعجبين به وأنصاره المغالين في تكوين شخصيته.

أما الطرف الآخر من معاصريه وغيرهم، فقد رموه بالزندقة، والخروج عن الجادة، ووصفوه بفساد العقيدة، والخروج على نظام الدين، ومخالفة الكتاب والسنة، وطعنوا في دينه وجردوه من الإيمان[١].

وقالوا اجتمع سفيان الثوري وشريك وحسن بن صالح وابن أبي ليلى، فبعثوا إلى أبي حنيفة، فقالوا: ما تقول في رجل قتل أباه ونكح أمه وشرب الخمر في رأس أبيه؟ فقال: مؤمن. فقال ابن أبي ليلى: لاقبلت لك شهادة أبداً. وقال له سفيان الثوري: لا كلمتك أبداً[٢].

وحكي عن أبي يوسف قيل له: أكان أبو حنيفة مرجئاً؟ قال: نعم. قيل: كان جهمياً؟ قال: نعم[٣] قيل: أين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرساً، فما كان من قوله حسناً قبلناه، وما كان قبيحاً تركناه عليه[٤].

وحدث إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما رأيت أحداً أجرأ على الله من أبي حنيفة، وعنه أيضاً: كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول الله الأمثال فيبرره بعلمه[٥].

وعن الوليد بن مسلم قال: قال لي مالك بن أنس: أيذكر أبو حنيفة في بلادكم؟ قلت: نعم قال: لا ينبغي لبلادكم أن تسكن[٦].

وعن الأوزاعي يقول: إننا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، ولكنا

---

(١) انظر أبو حنيفة محمد أبو زهرة ص٥.
(٢) الخطيب ج١٣ ص٣٧٤.
(٣) نفس المصدر.
(٤) الخطيب ج٣ ص٣٧٤.
(٥) الانتقاء ص١٤٨.
(٦) ميزان الشعراني ج١ ص٥٩.

نقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي ﷺ فيخالفه إلى غيره[1].

قال ابن عبد البر: وممن طعن عليه وجرحه محمد بن إسماعيل البخاري، فقال في كتابه «الضعفاء والمتروكين»: أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، قال نعيم بن حماد: حدثنا يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ سمعنا سفيان الثوري يقول: استتيب أبو حنيفة من الكفر مرتين. وقال نعيم الفزاري: كنت عند سفيان بن عيينة، فجاء نعي أبي حنيفة، فقال: . . . كان يهدم الإسلام عروة عروة، وما ولد في الإسلام مولود أشر منه. هذا ما ذكره البخاري[2].

وقال ابن الجارود في كتابه «الضعفاء والمتروكين»: النعمان بن ثابت جل حديثه وهم.

وقد روي عن مالك رحمه الله أنه قال في أبي حنيفة نحو ما ذكره سفيان: أنه شر مولود ولد في الإسلام، وأنه لو خرج على هذه الأمة بالسيف كان أهون. وروي عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب: بالعراق الداء العضال فقال مالك: أبو حنيفة، وروى ذلك كله أهل الحديث.

وعن وكيع بن الجراح أنه قال: وجدت أبا حنيفة خالف مائتي حديث عن رسول الله ﷺ. وقيل لابن المبارك: كان الناس يقولون إنك تذهب إلى قول أبي حنيفة، قال: ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه، كنا نأتيه زماناً، ونحن لا نعرفه، فلما عرفناه تركناه[3].

وأورد ابن عبد البر في الانتقاء بعضاً من أقوال المادحين له والطاعنين عليه[4].

يقول الدكتور علي حسن عبد القادر: ويدعي خصوم أبي حنيفة أنه لم يكن يعطي للحديث أهمية كبيرة، وأنه يجعل للرأي الطليق مكانه الأول بالنسبة للاستنتاج الفقهي، وأنه رد كثيراً من الأحاديث في سبيل الرأي.

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٦٣.

(٢) الانتقاء لابن عبد البر ص١٥٠.

(٣) الانتقاء لابن عبد البر ص١٥٠ ـ ١٥١. والخيرات الحسان ص٧٦.

(٤) الانتقاء ص١٢٤ ـ ١٥٢.

حدث أبو صالح الفراء قال: سمعت يوسف بن أسباط يقول: رد أبو حنيفة على رسول الله ﷺ أربعمائة حديث أو أكثر.

قلت له: يا أبا محمد تعرفها؟ قال: نعم. قلت: أخبرني بشيء منها قال: قال رسول الله ﷺ: (للفرس سهمان وللرجل سهم) قال أبو حنيفة: أنا لا أجعل سهم بهيمة أكثر من سهم المؤمن. وأشعر رسول الله ﷺ وأصحابه البدن. وقال أبو حنيفة: الاشعار مثله. وقال ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا». وقال أبو حنيفة: إذا وجب البيع فلا خيار. وكان النبي ﷺ يقرع بين نسائه إذا أراد أن يخرج في سفر، وأقرع أصحابه. قال أبو حنيفة: القرعة قمار. وقالوا: إنه كان في عصره أربعة من الصحابة، ولكن لم يهتم للقائهم. وقد ذكر ابن أبي شيبة في مصنفه في باب خاص الأحاديث التي خالفها أبو حنيفة وأبلغها ١٥٠ حديثاً... الخ[1].

وقد استعرض الخطيب البغدادي أخبار أبي حنيفة، وذكر أقوالاً عن الفريقين من معدلين ومضعفين، ومادحين وطاعنين ونسب لأبي حنيفة أشياء لا نحب التعرض لها[2].

وقد طعن علماء الحنفية في الخطيب ونسبوه إلى التعصب الأعمى، وأجابوا عن الطعون التي أوردها الخطيب على أبي حنيفة.

وصفوة القول أن دراسة حياة أئمة المذاهب تلفت نظر الكاتب إلى دقة البحث وصعوبته، لوجود الأقوال المختلفة التي تدل على اندفاع الأتباع لإعلاء تلك الشخصيات فوق منزلتهم الواقعية، وسنوضح ذلك فيما بعد.

وان دراسة حياة أبي حنيفة تتصف ـ بصورة خاصة ـ بصعوبة تقف أمام الباحث.

يقول الأستاذ أبو زهرة: لقد تعصب له (أي لأبي حنيفة) ناس حتى قاربوا به منازل النبيين المرسلين، فزعموا أن التوراة بشرت به، وأن محمداً ﷺ ذكره باسمه، وبين أنه سراج أمته، ونحلوه من الصفات والمناقب ما عدوا به رتبته، وتجاوزوا معه درجته، وتعصب ناس عليه فرموه بالزندقة، والخروج عن الجادة وإفساد الدين، وهجر السنة، بل مناقضتها ثم الفتوى في الدين بغير حجة ولا سلطان مبين.

---

(١) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور على حسن عبد القادر ص٢٢٥.

(٢) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٣١ ـ ٤٢٣.

ويقول: إن كتب المناقب كثيرة وكثرتها لا تهدي السبيل، ولا تنير الطريق إذ أنها طوائف من الأخبار يسودها المبالغة، ولا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق، فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة، فأخبارها لا ترفض جملة ولا تؤخذ جملة، إذ هي بلا شك فيها الحق والباطل وأخذ الحق من بينها يحتاج إلى نظر فاحص(١).

ونحن هنا لا يمكن أخذ صورة واقعية عن شخصية أبي حنيفة، فإن هذه الأقوال المتراكمة أمامنا لا نستطيع أن نتميز بواسطتها تلك الشخصية ولا نبدي رأينا في الموضوع إلا بعد أن نطل من زاوية التاريخ.

نشأته ونبوغه:

ولد أبو حنيفة سنة ٨٠هـ في خلافة عبد الملك بن مروان الأموي، وعاش إلى سنة ١٥٠هـ وقيل سنة ١٥١هـ وقيل سنة ١٥٣هـ فقد أدرك من العصر الأموي اثنتين وخمسين سنة، ومن العصر العباسي ثماني عشرة سنة.

وقد نشأ في الكوفة في عهد الحجاج بن يوسف، فرأى قسوة الحجاج واستبداده وسيرته السيئة، وحكمه القاسي، ومعاملته للناس بما لا يمكن تحمله، ومات الحجاج وعمره خمسة عشر عاماً، وشاهد ولاة الأمويين يسيرون بالأمة، وقد جاروا في الحكم، وخالفوا نظم الإسلام، اتباعاً لملوكهم، وطبقاً لرغباتهم، من غير رادع من دين، ولا مراعاة لحرمة، ولم تمنعهم حواجز عن إيقاع الأذى برجال المسلمين وأعيانهم، ومع هذا يرى العصبية العنصرية فيهم تتجلى بدون خفاء وتكتم، ومن المعلوم أن ذلك يثير في نفسه نزعة البغض والكراهة لتلك السلطة، فلا غرابة حين نراه يساهم في حركة الانقلاب، وينضم لجانب العباسيين في دعوتهم، ويناصر أهل البيت عليهم السلام.

وكان أبو حنيفة منصرفاً للعمل فهو يتعاطى بيع الخز، وله محل لصنعه وصناع تحت يده، وبهذا كان يعيش برفاهية، ويصل إخوانه وأصحابه، ولا نعرف بالضبط مدة بقائه تحت رعاية أبيه فالتأريخ لم يتعرض لذلك.

---

(١) أبو حنيفة لأبي زهرة ص ٥ ـ ٧.

ولقد كان عصر أبي حنيفة الذي أظله، والبيئة الفكرية التي عاش فيها، وترعرعت مواهبه تحت سلطانها أكبر عامل على نبوغه وتوجيهه، إذ كانت الكوفة إحدى مدن العراق العظيمة التي نشأت بها حلقات العلم، وكانت الأهواء المتضادة والآراء المتضاربة في السياسة والعلم وأصول العقائد تدعو يومئذ إلى الدهشة والإمعان. فقد صارت الكوفة ملتقى الأفكار وصعيداً لتلاقحها فكان مستوى ثقافات الشعوب التي أظلها الإسلام يؤثر في مناهج العلم وطرق الثقافة، ويقبل رجال الإسلام على تلك المناهج والطرق للتعرف على قواعدها وخصائصها لتكون وعاءً للفكر الإسلامي ليعاد تغذية المسلمين وإنشاء أبنائهم بعقيدة الإسلام وأحكامه، ولعمق العقيدة تتجرد الأوعية التي قصد أن يكون لونها كذلك مجرداً عن كل لون آخر، ويصبح ما في الوعاء من فكر إسلامي عنواناً متميزاً مستقلاً لا يدانيه ولا يشابهه ما سبق.

ويقال إنه نبغ في علم الكلام والجدل وناظر فيه، واتسعت دائرة تفكيره. وإذا رجعنا إلى حديثه عن ذلك فتكون ملازمته لحلقة المتكلمين أكثر من حلقة الفقه التي انتقل إليها بعد هجر علم الكلام، فاختص بالفقه وحده، فإن ذهابه للبصرة، ومناظرته الفرق هناك أكثر من عشرين مرة ـ كما يقولون ـ وفي كل مرة يمكث سنة أو أكثر أو أقل، يدل على أنه قضى الشطر الأكبر من عمره[1] في ذلك، وإن كانت تلك الرواية لا تخلو من مبالغة ولم تسلم من الخدشة في السند، فإنها من وضع يد الغلو ووحي العاطفة.

ومهما يكن فإنه نشأ في أول أمره رجلاً يتعاطى التجارة وصنعة الخز وبيعه في الأسواق، وقضى شطراً من حياته في ذلك حتى أرشده الشعبي لطلب العلم فاتجه للكلام ثم اتصل بحلقة حماد بن أبي سليمان المتوفى سنة ١٢٠هـ وكان هو المبرز من بعده، وقد ساعدته الظروف على هدم الحواجز التي تقف أمامه، كما أن العصر الذي هو فيه هيأ له أسباب الرقي، ومهد له طرق التقدم، فقد حدثت تطورات وسنحت فرص استغلها أبو حنيفة، لما كان يتصف به من ذكاء وفطنة وطموح في نفسه.

---

(١) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص٥٩.

الموالي وأوضاع عصره:

ومن حسن طالعه أن يقع في عصره الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي، أو بين العرب والموالي وتشتد الخصومة، ويكثر بينهم التهاجي، وهو يترأس حلقة أستاذه حماد وهي إحدى حلقات العلم بالكوفة، وبالطبع ان الملتفين حوله والمجتمعين إليه أكثرهم من الموالي وأكثرهم يحقد على العرب الذين نظروا إليهم نظر السيد إلى المسود والشريف إلى الوضيع، حتى بعثوا فيهم روح النعرة وتلك نزعة غذاها بنو أمية فعاملوا الموالي معاملة سيئة، ولم يعدلوا معهم في الحكم، وكانت تبعث في نفوس المفكرين من الموالي كرهاً لما آلت إليه أحوالهم، وينعكس حقداً في نفوس الأغلبية ممن اعتنقوا الإسلام لسبب أو لآخر فذاقوا المهانة. وواقع حضارتهم وأمجاد دولهم ما زالت ماثلة لم يمر عليها دهر لتمحىٰ أو تزول من الأذهان. ولقد أوجد الأمويون بسياسة التعصب واحدة من آفات سياستهم التي أودت بدولتهم وأقدموا على مخالفة مباديء المساواة والعدل في الإسلام.

وتطورت الحركة الفكرية واتجه الناس في آخر الدولة الأموية إلى أمور لم يكن في وسعهم الاتجاه إليها في إبان عظمة الدولة وكانت في الكوفة حلقات العلم يجلس طلابه إلى شيوخ عرفوا بذلك، فكانت حلقات للمتكلمين بجانب حلقات الفقه وحلقات الشعر والأدب يتكلمون فيها بالقضاء والقدر، والكفر والإيمان، ويستعرضون أعمال الصحابة في الحرب وغيرها، وقد اختار أبو حنيفة حلقة المتكلمين(١).

كما زخرت الكوفة برجال العلم، واتسع نطاق الحركة الفكرية واتجه الناس للبحث ووقع الخلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث، وأخذت السلطة في تشجيع أهل الرأي واندفع الموالي(٢) إلى التزاحم على طلب الشهرة والنبوغ في المجتمع، عندما أصبحوا ولهم قوة على إيجاد كتلة متماسكة الأجزاء، فكثر عددهم في الكوفة وقوي جمعهم، وأصبح منهم رجال تبوأوا مناصب الدولة، فمنهم قواد جيش وأمراء بلدان، وعلماء يشار إليهم بالأصابع، ومنهم الأدباء ورواة حديث، وقد اجتازوا مراحل العنف والشدة، وانتقلوا من عهد الاستبداد والقسوة وعدم المساواة في الحكم بينهم وبين

---

(١) ضحى الإسلام ج٢ ص١٧٨.

(٢) شرح النهج.

العرب، وقد كان الأمويون يتعصبون لأنصارهم وعشيرتهم ويحتقرون الموالي مهما كانت ميزاتهم وكفاءتهم، وتابعهم بعض المتعصبين من العرب ونهجوا هذا المنهج، خلافاً لما شرعه الله وسار عليه الرسول الأعظم فكانوا يضعون من قيمة الموالي ويحتقرونهم.

يقول الأصفهاني: كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية، إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع.

وتزوج رجل من الموالي بنتاً من أعراب بني سليم، فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة، وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكا إليه فأرسل الوالي إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته، وضربه مائتي سوط، وحلق رأسه، وحاجبه ولحيته، فقال محمد بن بشير:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ولم ترث الحكومة من بعيد

وقد نفذ الأمويون هذه السياسة بشدة، وغذوا هذه النزعة بأعمالهم التي عاملوا بها الموالي، وقد شرعها لهم معاوية بن أبي سفيان، لأنه عرف عدل الإمام علي بن أبي طالب ومساواته في الرعية، الأمر الذي أدى إلى تقاعد من تحكمت به هذه النزعة الشريرة عن نصرته، فأراد معاوية استمالتهم وتحويلهم إليه.

روى المدائني أن طائفة من أصحاب علي عليه السلام مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من الناس ـ وإنما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع في المال ـ فقال لهم: أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور؟![1].

وحوادث التاريخ مملوءة بالشواهد على ذلك من الأمور التي بعثت المفكرين من الموالي إلى الحقد على العرب.

اتجاهه العلمي:

وبين هذه الأمور وفي ذلك العصر كانت نشأة أبي حنيفة، وهو من أولئك القوم الذين نالهم الأذى في تلك المدة، وكان يشعر بما يشعر به أبناء جنسه، ويعظم عليه

(١) شرح النهج.

إهانتهم وتعذيبهم، وقد شاهد في الكوفة وغيرها تلك الأوضاع الشاذة، والسيرة المخالفة للإسلام، وبالطبع ان نفسه كانت تتأثر.

وبعد أن تحول الحكم من الأمويين إلى العباسيين، والموالي هم الذين شاطروا في هذا الانقلاب، بل كان العباسيون يعدونهم من خلص أنصارهم، ورجال دعوتهم فاتجهوا إليهم ونصروهم، فكان النشاط الذي أحرزه الموالي يسترعي الأنظار، ويبعث على العجب، خصوصاً حينما نراهم يلتفون حول الإمام أبي حنيفة ويعتزون بشخصيته بعدما أصبح يترأس حلقة علمية خلفها له أستاذه حماد، وهو من الموالي.

وأبو حنيفة هو ذلك الرجل الذي عرف بقوة النفس، وعلو الهمة وكان ذا فطنة ولباقة، وله سيرة خاصة في معالجة مشاكل الحياة، فتراه يقتحم مواقع الخطر ويزج نفسه فيها، فتحدث الناس عنه واشتهر اسمه وكان مع ذلك على جانب عظيم من المداراة لخصومه، فقد كانوا يسمعونه السب ويقرعون سمعه بالنقد المر، وكان حسن المعاشرة لأصحابه يصلهم برفده، ويساعدهم بمعروفه، وله ثروة تساعده على ذلك وتمهد له الطريق. ولما هجاه مساور بقوله:

كنا من الدين قبل اليوم في سعة ... حتى بلينا بأصحاب المقاييس
قاموا من السوق إذا قامت مكاسبهم ... فاستعملوا الرأي بعد الجهد والبؤس

فلقيه أبو حنيفة فقال: هجوتنا يا مساور، نحن نرضيك فوصله بدراهم فقال مساور:

إذا ما الناس يوماً قايسونا ... بآبدة من الفتيا طريفه
أتيناهم بمقياس صحيح ... تلاد من طراز أبي حنيفه
إذا سمع الفقيه بها وعاها ... وأثبتها بحبر من صحيفه

فأجابه أصحاب الحديث:

إذا ذو الرأي خاصم عن قياس ... وجاء ببدعة هنة سخيفه
أتيناهم بقول الله فيها ... وآثار مبرزة شريفه

إلى آخر الأبيات التي ذكرها ابن قتيبة[1] وابن عبد ربه[2] ولا يسع المجال لذكر

(١) المعارف ص٢١٦.

(٢) العقد الفريد ج٣ ص٤٠٨.

ما نتج من وراء ذلك الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي من هجاء ومناوشات، وكانت السلطة تشجع تلك الحركة، وتضاعف أسباب الخلاف من وراء الستار لغاية في نفوس أصحابها.

وعلى أي حال فقد اتجه أبو حنيفة إلى الفقه بعد أن قضى مدة من حياته في التجارة ثم قرأ الكلام، ودرس على مشايخ عصره، وحضر على عطاء بن أبي رباح في مكة وهو من الموالي، وعلى نافع مولى ابن عمر في المدينة، وأخذ عن عاصم بن أبي النجود وعطية العوفي، وعبد الرحمن بن هرمز مولى ربيعة بن الحارث، وزياد بن علاقة، وهشام بن عروة وآخرين، ولكنه لزم واحداً منهم ملازمة تامة وتخرج عليه وهو حماد بن أبي سليمان الأشعري، وهو الذي اختص به أبو حنيفة وحضر درسه وتخرج عليه إلى أن مات سنة ١٢٠هـ وعمر أبي حنيفة أربعون سنة وقد أكثر أبو حنيفة الرواية عنه.

ويحدث أبو حنيفة عن صلته بشيخه حماد بقوله: قدمت البصرة فظننت أني لا أسأل عن شيء إلا أجبت عنه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب، فجعلت على نفسي أن لا أفارق حماداً حتى يموت، فصحبته ثماني عشرة سنة.

ولم تكن ملازمته لحماد بحيث لم ينقطع عنه ولم يأخذ عن غيره لأنه كان كثير الرحلة إلى بيت الله الحرام حاجاً، والتقى هناك بكثير من التابعين وسمع منهم واجتمع بأئمة أهل البيت، وروى عنهم كزيد بن علي والإمام محمد الباقر وابنه الإمام الصادق وعبد الله بن حسن بن حسن.

فقهه وتلامذته:

لم يعرف فقه أبي حنيفة إلا من طريق أصحابه الذين اختصوا به، فهو لم يكتب فقهه بنفسه ولم يدون شيئاً من آرائه، ولكن التدوين إنما أخذ من قبل أصحابه؛ وكان لأبي حنيفة تلاميذ، منهم من كان يرحل إليه ويستمع منه، ومنهم من لازمه ملازمة تامة، وفيهم يقول: هؤلاء ستة وثلاثون رجلاً منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء، وستة يصلحون للفتوى، واثنان أبو يوسف وزفر يصلحون لتأديب القضاة وأرباب الفتوى! ولكن الذين خدموا مذهب أبي حنيفة ونشروه هم أبو يوسف، وزفر، ومحمد بن الحسن الشيباني، والحسن بن زياد اللؤلؤي.

أبو يوسف:

١ ـ أما أبو يوسف وهو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري نسباً والكوفي منشأ، فهو عربي وليس من الموالي ولد سنة ١١٣هـ وقد نشأ فقيراً واتصل بأبي حنيفة بعد أن جلس إلى ابن أبي ليلى، ثم انقطع لأبي حنيفة واتصل به، وقد قام أبو حنيفة بنفقته ونفقة عياله عشر سنين، وبعد وفاة أبي حنيفة وزفر بن الهذيل استقل أبو يوسف برئاسة أصحاب أبي حنيفة، وساعدته الظروف السياسية، وأقبلت الدنيا عليه، ووقع موقع القبول عند خلفاء بني العباس، وولي القضاء لثلاثة منهم للمهدي والهادي والرشيد، وقد نال عند الرشيد حظاً مكيناً وقربه، وهو الذي نشر مذهب أبي حنيفة في الأقطار على أيدي القضاة الذين كان يعينهم أبو يوسف من أصحابه، فكان نفوذ المذهب يستمد من نفوذ سلطته، ولأبي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وآراء شيخه، ذكرها ابن النديم منها:

كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الخراج، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب اختلاف الأنصار، كتاب الرد على مالك، وغيرها؛ وله إملاء رواه بشر بن الوليد القاضي يحتوي على ستة وثلاثين كتاباً، وأبو يوسف هو أول فقهاء أهل الرأي الذي دعموا آراءهم بالحديث، وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأي وأهل الحديث.

محمد بن الحسن الشيباني:

٢ ـ محمد بن الحسن، مولى بني شيبان، ولد سنة ١٣٢هـ وتوفي سنة ١٨٩هـ، حضر على أبي حنيفة، ولم يتم دراسته عليه، لأن أبا حنيفة مات وعمر محمد نحو الثامنة عشرة، ولكنه أتم دراسته على أبي يوسف، وأخذ عن الثوري والأوزاعي ورحل إلى مالك، وتلقى عنه فقه الحديث والرواية، ومكث عنده ثلاث سنين، وهو الذي أدخل الحديث في فقه أهل الرأي، وألف كتباً في ذلك أصبحت هي المرجع الأول لفقه أبي حنيفة، وكان يخالفه في أكثر مسائله.

الحسن بن زياد:

٣ ـ الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي المتوفى سنة ٢٠٤هـ، وهو من فقهاء المذهب ورواة آراء أبي حنيفة، وقد طعن المحدثون عليه، ورفضوا روايته، قال ابن

معين: إنه كذاب غير ثقة، وقال النضر بن شميل لرجل كتب كتب الحسن بن زياد: لقد جلبت إلى بلدك شراً. وقال أبو ثور: ما رأيت أكذب من اللؤلؤي، وكان ابن أبي شيبة يقول: كان أسامة يسميه الخبيث ووثقه ابن قاسم[1] وأخرج له أبو عوانة في مستخرجه والحاكم في مستدركه.

زفر بن الهذيل:

٤ ـ زفر بن الهذيل، وهو أقدم صحبة لأبي حنيفة من أبي يوسف ومحمد توفي سنة ١٥٨هـ، وكان أبوه عربياً وأمه فارسية، أخذ عن أبي حنيفة فقه الرأي، حتى غلب عليه على ما سواه، وكان أشد أصحاب أبي حنيفة قياساً، وهو الذي خلف أبا حنيفة في حلقته، ثم من بعده أبو يوسف، ولم تعرف له رواية لشيخه ويعود ذلك إلى قصر حياته من بعده، إذ لم يتسع الزمن للتدوين ولكن نشره لمذهب أبي حنيفة كان بلسانه وتولى القضاء في زمن أبي حنيفة في البصرة وهجاه أحمد بن المعدل المالكي بقوله:

(إن كنت كاذبة بما حدثتني) فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر
المائلين إلى القياس تعمداً والراغبين عن التمسك بالخبر[2]

وقد ترك المحدثون الرواية عنه قال أبو موسى محمد بن المثني: ما سمعت عبد الرحمن بن مهدي يحدث عن زفر شيئاً. وعن معاذ بن معاذ قال: كنت عند سوار القاضي فجاء الغلام فقال زفر بالباب فقال سوار: زفر الرأي لا تأذن له فإنه مبتدع، وعدّه العقيلي في الضعفاء، وعن بشر بن السري قال: ترحمت يوماً على زفر وأنا مع سفيان الثوري فأعرض بوجهه عني. وقال الأزدي: زفر غير مرضي المذهب والرأي، وقال أحمد بن أبي العوام قاضي مصر في مناقب أبي حنيفة: قال لي أبو جعفر الطحاوي: سمعت أبا حازم سمعت الضبي يقول: قدم زفر بن الهذيل البصرة فكان يأتي حلقة عثمان البتي فيناظرهم ويتبع أصولهم، فإذا رأى شيئاً خرجوا فيه عن الأصل تكلم فيه مع عثمان حتى يتبين له خروجه عن الأصل، ثم يقول في هذا جواب أحسن من هذا فإذا استحسنوه قال: هذا قول أبي حنيفة، فلم يلبث أن تحولت الحلقة إليه وبقي عثمان البتي وحده.

---

(١) لسان الميزان ج٢ ص٢٠٨.

(٢) تأنيب الخطيب للكوثري ص٩٥.

هؤلاء تلامذة أبي حنيفة الذين نشروا فقهه ونقلوا آراءه، وأول من دون منهم، هو القاضي أبو يوسف، ومن بعده محمد بن الحسن مولى بني شيبان، وكتبه تعد المرجع الأول لفقه أبي حنيفة، وقد أخذه عن أبي يوسف، لأنه أدرك أبا حنيفة وعمره لم يسمح له بنقل فقهه، ولكنه روى ذلك عن أبي يوسف، فتراه يذكر في كتابه «الجامع الصغير» في أول كل فصل روايته عنه، ولم يذكره في «الجامع الكبير»، وقد ذكر ابن نجيم في البحر في باب التشهد أن كل تأليف لمحمد بن الحسن موصوف بالصغير فهو باتفاق الشيخين أبي يوسف ومحمد، بخلاف الكبير فإنه لم يعرض على أبي يوسف.

ولقد كان أبو يوسف ومحمد وغيرهم من تلامذة أبي حنيفة مستقلين في تفكيرهم كل الاستقلال، غير مقلدين لشيخهم، بأي نواحي من نواحي التفكير، وكونهم درسوا آراءه أو تلقوه عليه وتثقفوا في أول دراستهم عليه لا يمنع استقلال تفكيرهم، وحرية اجتهادهم، وإلا كان كل من يتلقن على شخص لا بد أن يكون مقلداً له، وتنتهي القضية لا محالة إلى أن تنزل درجة أبي حنيفة عن الاجتهاد، ويكون مقلداً لشيخه حماد بن أبي سليمان لأنه درس عنده، وكان كثير التخريج عليه، وخالفه أحياناً ووافقه أحياناً.

وكذلك كان أصحاب أبي حنيفة. فقد درسوا فقهه. وتلقوا عليه فوافقوه في بعضها وخالفوه في كثير من الآراء والأقوال، وما كانت الموافقة عن تقليد بل عن اقتناع واستدلال وتصديق للدليل. وليس ذلك من شأن المقلد فإن لهم آراؤهم الخاصة ولكنهم الطريق إلى نقل أقوال أبي حنيفة.

وتجد كتب الحنفية تورد أقوال الأربعة، وربما يكون لمسألة واحدة أربعة أقوال لأبي حنيفة قول، ولأبي يوسف قول، ولمحمد قول، ولزفر قول، حسب ما يظهر لهم من الآثار والمعاني(١).

يقول العلامة الخضري: وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالاً للإمام رجع عنها، ولكن هذه غفلة شديدة عن تاريخ هؤلاء الأئمة، بل عما ذكر في كتبهم، فإن أبا يوسف يحكي في «كتاب الخراج» رأي أبي حنيفة، ثم يذكر رأيه

---

(١) ضحى الإسلام ج٢ ص٢٠٠.

مصرحاً بأنه يخالفه، ويبين سبب الخلاف وكذلك يفعل في كتاب أبي حنيفة، وابن أبي ليلى، فإنه أحياناً يقول برأي ابن أبي ليلى بعد ذكر الرأيين، ومحمد رحمه الله يحكي في كتبه أقوال الإمام، وأقوال أبي يوسف وأقواله مصرحاً بالخلاف على أنه لو كان كما قالوا لم يكن ما رجع عنه من الآراء مذهباً.

ومن الثابت أن أبا يوسف ومحمد رجعا عن آراء رآها الإمام لما اطلعا على ما عند أهل الحجاز من الحديث، فالمحقق تاريخياً أن أئمة الحنفية الذين ذكرناهم بعد أبي حنيفة رحمه الله ليسوا مقلدين له، لأن التقليد لم يكن نشأ في المسلمين في ذلك التاريخ، بل كان المفتون مستقلين في الفتوى، بناء على ما يظهر من الأدلة، سواء أخالفوا معلميهم أم وافقوهم، ولم تكن نسبة أبي يوسف ومحمد إلى أبي حنيفة إلا كنسبة الشافعي إلى مالك(١).

وسيأتي إنشاء الله في مباحث الفقه ذكر أقوالهم التي خالفوا بها أبا حنيفة وآرائهم التي انفردوا بها.

علماء الحنفية ونشر المذهب:

وقد نقل كتبهم تلاميذهم المبرزون، منهم:

١ ـ إبراهيم بن رستم المروزي المتوفى سنة ٢١١هـ، تفقه على محمد بن الحسن وسمع مالك بن أنس، وقدم بغداد، له كتاب النوادر عن محمد أستاذه، وهو ينسب إلى مرو بفتح الميم وسكون الراء المهملة في آخرها واو، بلدة يقال لها مرو، وإلحاق الزاء المعجمة بعد الواو في النسبة، للفرق بينه وبين المروي، وهي ثياب مشهورة بالعراق منسوبة إلى قرية بالكوفة(٢).

٢ ـ أحمد بن حفص الكبير البخاري، أخذ الفقه عن محمد بن الحسن، وروى عنه كتبه، وكتب المبسوط بيده، وله اختيارات يخالف بها جمهور أصحابه(٣).

٣ ـ بشر بن غياث المويسي المتوفى سنة ٢١٨هـ ابن أبي كريمة مولى زيد بن الخطاب أدرك مجلس أبي حنيفة وأخذ نبذاً منه، ثم لازم أبا يوسف، وأخذ الفقه عنه

(١) الخضري تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٢٥.
(٢) الفوائد البهية ص٩.
(٣) نفس المصدر ص١٨.

حتى صار من أخص أصحابه، وله تصانيف وروايات كثيرة عن أبي يوسف، وله في المذهب أقوال غريبة، وكان أبو يوسف يذمه ويعرض عنه، وكان غير مرض عند أهل الحديث قال الذهبي: بشر بن غياث لا ينبغي أن يروى عنه(١).

٤ ـ بشر بن الوليد بن خالد الكندي القاضي المتوفى سنة ٢٣٨هـ أحد أصحاب أبي يوسف، روى عنه كتبه وأماليه، ولي قضاء بغداد في زمان المعتصم، وكان متحاملاً على محمد بن الحسن الشيباني، وكان الحسن بن مالك ينهاه، وثقه الدارقطني، وقال صالح بن محمد هو صدوق ولكنه لا يعقل.

٥ ـ محمد بن شجاع الثلجي المتوفى سنة ٢٦٧هـ، تفقه على الحسن بن زياد والحسن بن أبي مالك، له كتاب تصحيح الآثار، وكتاب النوادر، وكتاب المضاربة، وكتاب الرد على المشبهة. وهو ضعيف الرواية عند أهل الحديث(٢).

٦ ـ أبو سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني المتوفى بعد المائتين، أخذ العلم عن محمد وكتب مسائل الأصول والأمالي، عرض عليه المأمون القضاء فلم يقبل، وله كتاب السير الصغير، والنوادر، وغير ذلك.

٧ ـ محمد بن سماعة التميمي، حدث عن الليث، وأبي يوسف، ومحمد، وأخذ الفقه عنهما، وعن الحسن بن زياد، وكتب النوادر عن أبي يوسف، ومحمد ولد سنة ١٣٠هـ ومات سنة ٢٣٣هـ، وولي القضاء بعد موت يوسف ابن الإمام أبي يوسف سنة ١٩٢هـ، له كتاب أدب القاضي، وكتاب المحاضرات، والسجلات، والنوادر.

٨ ـ هلال بن يحيى بن مسلم، تفقه على أبي يوسف وزفر، وله مصنف في الشروط وأحكام الوقف، توفي سنة ٢٤٥هـ.

٩ ـ أحمد بن عمر بن مهير الخصاف المتوفى سنة ٢٦١هـ أخذ عن أبيه عن الحسن بن زياد عن أبي حنيفة، كان عارفاً بالمذهب، صنف للمهتدي كتاب الخراج، وله كتاب الوصايا، وكتاب الشروط الكبير والصغير، وكتاب الرضاع، وكتاب أدب القاضي، وكتاب الحيل الشرعية(٣).

---

(١) لسان الميزان ج٢ ص٢٩.

(٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص١٧١.

(٣) للحنفية كتابان في استعمال الحيل الشرعية، أحدهما لمحمد بن الحسن الشيباني، والثاني =

١٠ ـ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١هـ.

قال المولى عبد العزيز الدهلوي: إنه كان مجتهداً ولم يكن مقلداً للمذهب تقليداً محضاً، فإنه اختار فيه أشياء تخالف مذهب أبي حنيفة. لما لاح له من الأدلة القوية، وقال محمد بن عبد الحي: هو في طبقة أبي يوسف ومحمد، لا ينحط عن درجتهما، وإن له درجة عالية ورتبة شامخة قد خالف بها صاحب المذهب كثيراً. وإنه من المجتهدين المنتسبين إلى إمام معين من المجتهدين، لكن لا يقلدونه لا في الفروع ولا في الأصول، لكونهم متصفين بالاجتهاد وإنما انتسبوا إليه لسلوكهم طريقه في الاجتهاد(١).

وبهذه الصورة انتشر مذهب أبي حنيفة. فهو في عصره لم يدون آراءه وأقواله وإنما دونه أصحابه، ولم يكتفوا بأخذهم عنه، فأبو يوسف لزم أهل الحديث وأخذ عنهم أحاديث كثيرة لعل أبا حنيفة لم يطلع على كثير منها.

ومحمد لم يلازم أبا حنيفة إلا مدة قليلة في صدر حياته، ثم اتصل بمالك وروى عنه وروايته له تعد من أصح الروايات إسناداً. إذا فعدهم من المجتهدين في المذهب كما ذهب إليه ابن عابدين خطأ بين، يقول ابن عابدين:

إن الإمام لما أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتجه لهم من الدليل عليه صار ما قالوه قولاً له، لابتنائه على قواعده التي أسسها لهم؛ ونظير هذا ما نقله العلامة البيري في أول شرحه على الاشباه على شرح الهداية لابن الشحنة الكبير وهذا نصه: «إذا صح الحديث وكان على خلاف المذهب عمل بالحديث ويكون ذلك مذهبه ـ أي مذهب أبي حنيفة ـ فقد صح عن أبي حنيفة أنه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي. . . فإذا نظر أهل المذهب في الدليل وعملوا به صحت نسبته إلى المذهب لكونه صادراً

= للخصاف، ويقال إن لأبي حنيفة كتاباً في الحيل، وكان يفتي به الناس للتحلل من الأحكام الشرعية والقيود الفقهية، روي أن عبد الله بن المبارك قال: من كان عنده كتاب الحيل لأبي حنيفة يستعمله أو يفتي به، فقد بطل حجه، وبانت منه امرأته. انظر كتاب أبو حنيفة، محمدأبو زهرة ص٤١٧ وكتاب تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٨٠ وسيأتي ذكر ذلك وتحقيقه.

(١) الفوائد البهية ص٣١.

بإذن صاحب المذهب. إذ لا شك أنه لو علم بضعف دليله لرجع عنه واتبع الدليل الأقوى»[1].

وهذا قول لا محل له، فلو كان الأمر كذلك فإن كل فتوى تصدر عن صحة الحديث من أي عالم كان ومن أي مذهب هو. يلزم نسبتها إلى مذهب أبي حنيفة. ولعلهم يرون ذلك فجعلوه أعلم الأمة على الإطلاق، بل أفضل التابعين وأعلمهم من هذا الباب، والغرض أن الوصول إلى معرفة قول أبي حنيفة ومذهبه الخاص متعسر جداً. والذي بين أيدينا إنما هو مجموع الأقوال منه ومن أصحابه وتلامذتهم الذين أخذوا عنهم، فلا يمكن استخلاص أقواله منفردة لتكون منها وحدة فكرية خالصة له من كل الوجوه من غير اقتران أقوال أصحابه بأقواله؛ فإن محمد بن الحسن جمع أقوال فقهاء العراق ولم يجمع أقوال أبي حنيفة وحده، ولم يفصل آراءه عن آراء غيره من أصحابه ومعاصريه، بل ألقي بالفروع والحلول ما بين متفق عليه ومختلف فيه، فجاءت الأجيال وتوارثت تلك المجموعة الفقهية التي تجمع أقوال فقهاء العراق في الجملة، وأقوال أبي حنيفة وأصحابه وتلاميذه خاصة. وقد نهج منها ذلك المنهج غير محمد ممن روى فقه أبي حنيفة وهكذا نجد الرواية لآراء أبي حنيفة تذكر مخلوطة بالرواية عن غيره وممزوجة بها. وعلى ذلك النهج تدارس من العلماء تلك الآراء وسموها المذهب الحنفي، واختاروا للنسبة اسم كبير أولئك الأئمة وشيخهم ـ وهو أبو حنيفة ـ ومن التهجم على الحقائق سلبهم شخصيتهم لتفنى في شخصية الإمام[2].

والخلاصة أن المذهب الحنفي اتسع بجهود أصحابه ونشرهم له إذ وسعوا دائرته بالبحث والتأليف، وأن علم أبي حنيفة لا يكاد يعرف لعدم انفراده عن أصحابه، فالموازنة بينه وبين غيره لا تحصل إلا إذا اتجهنا إلى الموازنة بين علماء المذاهب وبين مجموع مؤسسي المذهب الحنفي، الذين كونوا مجموعة فقهية مزيجة بأقوال فقهاء العراق وأقوالهم، وهذا أمر لا يمكن، ومحاولة الحنفية بإرجاع الجميع إليه أمر غير وجيه، وسيتضح الأمر عند البحث عن آراء أبي حنيفة وأقواله، وما ذهب إليه أصحابه في خلافه.

---

(١) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص٤٤١ ـ ٤٥١.

(٢) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص٤٣٥.

مناظرته للإمام الصادق:

إن عصر أبي حنيفة كان عصر مناظرات وجدل إلى أقصى حد، فمناظرات بين أهل الأهواء وبين الفرق المختلفة، وبين الفقهاء بعضهم بعضاً. وكان أبو حنيفة قوي المناظرة شديد الجدل، يتسلح بكل الوسائل التي تعينه على الوصول إلى الفوز بالنتيجة في غالب الأحيان، كما وصفه الإمام مالك بقوله: رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته. وفي رواية أنه قال: تالله لو قال: إن هذه الأسطوانة من ذهب لأقام الدليل القياسي على صحة قوله، وبالطبع ان مثله ينال في تلك المعارك نصيبه من الشهرة، على أن المنصور نظر إليه بعين التقدير والعناية تكريماً له ولأبناء قومه الذين طلع نجمهم في ذلك العصر.

ومما يدلنا على قوة مناظرته أن المنصور انتدبه إلى مهمة عجزت قوته عن دفعها، وخانته حيلته في التخلص منها، وهي مسألة انتشار ذكر جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ومن الصعب على المنصور أن تصبح في الكوفة ومكة والمدينة وقم حلقات علمية هي أشبه شيء بفروع لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق، وكانت تقرع سمعه أصوات شيوخ الكوفة، بكلمة يضطرب لها لبه، ويفقد عندها اتزانه، وهي قولهم في مناظرتهم: حدثني جعفر بن محمد الصادق، لذلك اضطر إلى جلب الإمام من المدينة إلى الكوفة ليفتك به، وأراد من أبي حنيفة الذي عرف بقوة المناظرة وسرعة الجواب أن يهيىء من مهمات المسائل، فيسأل الإمام بها في مجلس عام، عساه أن يظفر بشيء ينال به غرض الحط من كرامة الإمام الصادق، ولم يغب عن المنصور ما للإمام الصادق من المكانة العلمية.

قال الحسن بن زياد اللؤلؤي سمعت أبا حنيفة ـ وقد سئل من أفقه من رأيت ـ؟ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيىء له من المسائل الشداد فهيأت له أربعين مسألة.

ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم

يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت عليه. وأومأ إليّ فجلست، ثم التفت إليه فقال:

يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة، فقال: نعم. ثم أتبعها قد أتانا كأنه كره ما يقول فيه قوم: إذا رأى الرجل عرفه.

قال: ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله مسائلك، فجعلت ألقي فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا. فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخل منها بمسألة.

ثم قال أبو حنيفة رحمه الله: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس[1].

مناظرته في القياس:

وكان عليه السلام ينهى أبا حنيفة عن القياس ويشدد الإنكار عليه ويقول: بلغني إنك تقيس الدين برأيك، لا تفعل فإن أول من قاس إبليس[2].

ويحدثنا أبو نعيم: أن أبا حنيفة وعبد الله بن أبي شبرمة وابن أبي ليلى دخلوا على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فقال لابن أبي ليلى: من هذا الذي معك؟ قال: هذا رجل له بصر ونفاذ في الدين. قال: لعله يقيس أمر الدين برأيه؟ قال: نعم! فقال جعفر لأبي حنيفة: ما اسمك؟ قال نعمان قال: ما أراك تحسن شيئاً، ثم جعل يوجه إليه أسئلة فكان جواب أبي حنيفة عدم الجواب عنها فأجابه الإمام عنها.

ثم قال: يا نعمان حدثني أبي عن جدي، أن رسول الله ﷺ قال: «أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس» قال الله تعالى له: اسجد لآدم فقال: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» فمن قاس الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١ ص٥٦.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ج١ ص٢٨، والحلية ج٣ ص١٩٣.

قال ابن شبرمة: ثم قال جعفر أيهما أعظم قتل النفس أو الزنى؟ قال أبو حنيفة: قتل النفس. قال الصادق: فإن الله عزّ وجلّ قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنى إلا أربعة. ثم قال: أيهما أعظم الصلاة أم الصوم؟ قال أبو حنيفة: الصلاة، قال الصادق: فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة. فكيف ويحك يقوم لك قياسك! اتق الله ولا تقس الدين برأيك(١).

وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تلك المواقف، التي كان فيها لأبي حنيفة موقف تسليم، لأنه أمام أمر واقع لا مجال فيه للجدل والمناقشة، وهو يعرف الإمام الصادق وخطته في مناظراته التي لا يريد بها إلا توجيه المسلمين توجيهاً صحيحاً، وكان بيته يختلط فيه أشتات الناس على اختلاف آرائهم ومبادئهم ونحلهم، وكان ميدان المعترك الفكري واسعاً في جميع الأنحاء، فكان عليه السلام في ذلك العصر مرجعاً لكل مشكلة ومهمة، يقصده طلاب الحقيقة من الأنحاء القاصية ويختلف إليه أهل الجدل والنظر فيكون جوابه هو القول الفصل والحكم العدل.

وكان عليه السلام إذا ورد الكوفة اختلف إليه علماؤها وأحاط به فقهاؤها يسألون عما يهمهم ويستقون من فيض علمه، كما كان من خطته عليه السلام أن يسأل بقصد التوجيه وسبرغور من يتحرى المناظرة ويتطرق إلى مذاهب الكلام ومناهي القياس، فتراه عليه السلام يسأل أبا حنيفة: ما على محرم كسر رباعية ظبي؟ قال أبو حنيفة: ما أعلم فيه. فقال عليه السلام: أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية وهو ثني أبداً(٢).

رواياته عن الإمام الصادق وميله لأهل البيت

وكان أبو حنيفة ممن يختلف إلى الإمام الصادق عليه السلام ويسأله عن كثير من المسائل مع أدب واحترام ولا يخاطبه إلا بقوله: جعلت فداك يابن رسول الله.

وقد روى أبو حنيفة عن الإمام الصادق عليه السلام وحدث عنه واتصل به في

---

(١) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٧.

(٢) المصايد والمطارد لكشاجم ص٢٠٢ ـ ٢٠٣. وفيات الأعيان ج١ ص٢١٢ مرآة الجنان ج١ ص٣٠٥ وشذرات الذهب ج١ ص٢٢٠.

المدينة مدة من الزمن، ورواياته عنه أثبتها رواة مسانيده وورد منها في كتاب الآثار لأبي يوسف.

وعلى أي حال فإن لأبي حنيفة صلة مع أهل البيت عليهم السلام وكان ينتصر لهم ويؤازرهم في جميع مواقفهم.

لقد ناصر زيد بن علي وساهم في الدعوة إلى الخروج معه وكان يقول: ضاهى خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر. فقيل له: لم تخلفت عنه؟

قال: حبسني عنه ودائع الناس عرضتها على ابن أبي ليلى فلم يقبل[1].

كما أنه آزر محمد بن عبد الله بن الحسن وأخاه إبراهيم، وكان يحث الناس ويأمرهم باتباعه، وجاءت إليه امرأة أيام إبراهيم فقالت: إن ابني يريد هذا الرجل وأنا أمنعه، فقال: لا تمنعيه[2].

وقال أبو إسحق الفزاري: جئت إلى أبي حنيفة فقلت له: أما اتقيت الله أفتيت أخي بالخروج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن حتى قتل.

فقال: قتل أخيك حيث قتل يعدل قتله لو قتل يوم بدر وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة[3] فكان إسحق يبغض أبا حنيفة بعد ذلك.

ووجه أبو حنيفة إلى إبراهيم كتاباً يشير عليه أن يقصد الكوفة سراً ليعينه الزيدية وقال: إن فيها من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به، وكانت المرجئة تنكر ذلك على أبي حنيفة وتعيبه به[4].

وكان أبو حنيفة عندما يذكر محمد بن عبد الله بن الحسن بعد قتله تذرف عيناه بالدموع[5].

وفي الجملة أن ميل أبي حنيفة لأهل البيت لا خفاء عليه حتى عد من الشيعة الزيدية.

---

(١) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص٧١ نقلاً عن مناقب أبي حنيفة للبزازي ج١ ص٥٥.

(٢) مناقب أبي حنيفة للمكي ج٢ ص٨٤.

(٣) مقاتل الطالبيين ص٣٦٤.

(٤) مقاتل الطالبيين ص٣٦٦.

(٥) المناقب للكردري ج٢ ص٧٢.

ويقول أبو زهرة ـ بعد البحث عن ميله وتشيعه ـ: ونتتهي من الكلام السابق أن أبا حنيفة شيعي في ميوله وآرائه في حكام عصره، أي أنه يرى الخلافة في أولاد علي من فاطمة، وأن الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر منهم، وكانوا لهم ظالمين[1].

وكان أبو حنيفة يرى أن علي بن أبي طالب على الحق في قتاله لأهل الجمل وغيرهم ويتضح ذلك من أقواله في عدة مواطن منها:

انه سئل عن يوم الجمل؟ فقال: سار علي فيه بالعدل وهو أعلم المسلمين في قتال أهل البغي.

وقوله: ما قاتل أحدعلياً إلا وعلي أولى بالحق منه... الخ.

وقوله: إن أمير المؤمنين علياً إنما قاتل طلحة والزبير بعد أن بايعاه وخالفا[2].

وقال يوماً لأصحابه: أتدرون لم يبغضنا أهل الشام؟ قالوا: لا.

قال: لأنا لو شهدنا عسكر علي بن أبي طالب ومعاوية لكنا مع علي رضي الله عنه.

أتدرون لم يبغضنا أهل الحديث؟ قالوا: لا.

قال: لأنا نحب أهل بيت رسول الله ﷺ ونقر بفضائلهم. وفي رواية أنه قال: أتدرون لم يبغضنا أصحاب الحديث؟ قالوا لا.

قال: لأنا نثبت خلافة علي رضي الله عنه وهم لا يثبتونها.

* * *

ولا نريد هنا أن نستقصي أخبار أبي حنيفة الدالة على صلته بأهل البيت عليهم السلام، كما لا نريد أن نقيم الأدلة على ميوله الشيعية أو نفيها فإن ذلك لا يعنينا في البحث.

---

(١) أبو حنيفة ص١٦٥.

(٢) مناقب المكي ج٢ ص٢٤.

أسباب مقتل أبي حنيفة:

وبقي شيء يجب الالتفات إليه وهو قتل المنصور لأبي حنيفة بالسم. فهل كان ذلك لمناصرته لأهل البيت عليهم السلام؟ أو كان لعدم قبوله القضاء فحسب؟

اختلفت أقوال المؤرخين في ذلك، فمنهم من أرجع الأسباب إلى عدم قبوله القضاء فقط، عندما أشخصه المنصور من الكوفة إلى بغداد وعرض عليه القضاء، ولكنه أبى فحبسه ومات في الحبس، والروايات في هذه الحادثة مختلفة، فبعضهم يرويها على هذا الوجه، وآخرون يروون أن المنصور هدده بالضرب، فقبل القضاء على كره(١) ثم مات بعد أيام، وآخرون يروون أن المنصور إنما استقدمه من الكوفة لأنه اتهم بالتشيع لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن، فإنه أعلن الانضمام لجانب دعوة محمد وإبراهيم، وأفتى بوجوب الخروج مع إبراهيم. يحدثنا أبو الفرج الأصفهاني عن عبد الله بن إدريس قال: سمعت أبا حنيفة وهو قائم على درجته، ورجلان يستفتيانه في الخروج مع إبراهيم، وهو يقول: اخرجا. وانه كتب إلى إبراهيم يشير عليه أن يقصد الكوفة ويدخلها سراً، فإن من ها هنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه، أو يأخذون برقبته، فيأتونك به، وكتب له كتاباً آخر فظفر أبو جعفر بكتابه، فسيره وبعث إليه، فأشخصه وسقاه شربة فمات منها(٢).

والتسليم لهذه الرواية غير ممكن لأن قتل إبراهيم كان في سنة ١٤٥هـ ووفاة أبي حنيفة في سنة ١٥٠هـ وليس في إمكان المنصور التريث في أمر أبي حنيفة مدة خمس سنوات عندما تحقق منه ذلك؛ وكان لا يقف في ظلمه عند حد لتركيز دعائم ملكه، ولا يتورع في سفك الدماء، وإن له من القوة ما يخول له قتل أبي حنيفة بسرعة، فإن بقاءه خطر على الدولة ولا يمكن للمنصور أن يغض عن ذلك؛ وقد فتك بأبي مسلم مع قوته وكثرة جنده، وفتك بزعماء أهل البيت، مع علمه بحراجة الموقف، كما فتك بكثير من الزعماء وذوي الوجاهة، والنفوذ.

اللهم إلا أن يكون عثور المنصور على رسالة أبي حنيفة لإبراهيم بعد مدة من قتله.

---

(١) مناقب المكي ج٢ ص٢٧.

(٢) مقاتل الطالبيين ص٣٦٦.

وكان أبو حنيفة من جملة الفقهاء المتصرين لمحمد وإبراهيم كمالك بن أنس والأعمش ومسعر بن كدام وعبادة بن العوام وعمران بن داود القطان وشعبة بن الحجاج وغيرهم، وكان بعضهم حضر حربه(١) وكانوا يعدون شهداء وقعته كشهداء بدر ويسمونها بدر الصغرى، وقد رأينا المنصور يغض عن مؤاخذة أولئك الفقهاء لأنه بحاجة ماسة لبقائهم والمعاونة معهم، وبذلك يقصد إيجاد مجموعة منهم لتخفيف خطر انتشار ذكر جعفر بن محمد في الأقطار فقد كان هو الشجى المعترض في حلقه.

ومن الحق والإنصاف أن نقول: إن موقف أبي حنيفة ليس كموقف مالك بن أنس، فإن مالكاً لما عوقب لأجل فتواه بالخروج مع محمد أخلص بعد ذلك للمنصور، وتغير موقفه حتى كان يظهر أن لا فضل لعلي عليه السلام على غيره من الصحابة، بل هو كسائر الناس أما أبو حنيفة فلم يتغير موقفه، وكان يفضل علياً عليه السلام إما على عثمان فقط أو على جميع الصحابة، كما لم تتغير وجهة نظره في الدولة وإنها ظالمة لا تصح مؤازرتها.

والحاصل أن غضب المنصور على أبي حنيفة قد اختلفت الأقوال فيه، ومهما تعددت الأسباب فيه فالمرجع كله يعود إلى مخالفة أبي حنيفة لرأي السلطة التي تريد تجريد العلماء من مواهب الإدراك والتفكير، ومنعهم من حرية الرأي والصراحة بالحق، وعلى كل فقد مضى أبو حنيفة ضحية فتك المنصور وسطوته.

ولا بد لنا قبل نهاية البحث أن نشير إلى اتصال أبي حنيفة برجال مدرسة الشيعة وروايته عنهم وسماعه منهم.

ربما يظن أن أبا حنيفة لم يرو عن رجال الشيعة، ولم يكونوا من شيوخه، وذلك

---

(١) كان خروج محمد بن عبد الله النفس الزكية في المدينة سنة ١٤٤هـ وبايعه أهل الحجاز، قال ابن العماد: وأحبه الناس حباً عظيماً لما كان فيه من الكمال وخصال الفضل، ويشبه النبي في الخلق والخلق، واسمه واسم أبيه. وبايعه المنصور والسفاح، وكانا من دعاته أيام بني أمية، وقتل في المدينة قتله المنصور الدوانيقي، وخرج أخوه إبراهيم في العراق بعد قتله، وكاد أن يظفر بالمنصور لكثرة جيشه ومحبة الناس له وتأييد الفقهاء لنهضته، ودعوه لدخول الكوفة ليلاً فقال أخاف أن يستباح الصغير والكبير. وإن حادثة إبراهيم ومحمد لمن أهم الحوادث التاريخية ولم تنل نصيبها من التحقيق والبحث.

لأنهم نقلوا عنه أن أبا عصمة حدث عن أبي حنيفة عندما سأله ممن تأمرني أن أسمع الآثار؟

فقال أبو حنيفة: من كل عدل في هواه إلا الشيعة فإن أصل عقيدتهم تضليل أصحاب محمد ﷺ.

والصحيح أن هذا القول لم يصح عن أبي حنيفة.

أولاً انه انفرد به أبو عصمة وهو نوح بن مريم المروزي المتوفى سنة ١٧٣هـ وهذا الرجل مشهور بوضع الحديث حسبة.

قال الحافظ زين الدين العراقي في مبحث الوضاعين: ومثال من كان يضع الحديث حسبة ما رويناه عن أبي عصمة نوح بن مريم المروزي، قاضي مرو، فيما رواه الحاكم بسنده إلى أبي عمار المروزي، أنه قيل لأبي عصمة: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟

فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن إسحق، فوضعت هذا الحديث حسبة.

وكان يقال لأبي عصمة هذا: نوح الجامع فقال ابن حبان: جمع كل شيء إلا الصدق.

وقال البخاري: قال ابن المبارك لوكيع: عندنا شيخ يقال له أبو عصمة كان يضع كما يضع المعلى بن هلال[١].

وقال ابن حجر في ترجمته: قد أجمعوا على تكذيبه[٢] وقال العباس بن مصعب: كان نوح بن أبي مريم أبوه مجوسياً اسمه «مابنه» استقضى نوح على مرو وأبو حنيفة حي، فكتب إليه أبو حنيفة يعظه[٣].

---

(١) شرح ألفية العراقي ج١ ص١٦٨ والفوائد البهية في تراجم الحنفية ص٢٢١.

(٢) لسان الميزان ج٦ ص١٦٨.

(٣) ميزان الاعتدال ج٣ ص٢٤٥.

ولا حاجة بنا إلى مزيد من البيان عن أبي عصمة وشهرته بالوضع، وهو بهذه الكلمة أراد أن يضلل الناس في عقيدة الشيعة بالصحابة رضوان الله عليهم.

ومن المؤسف أن هذه الكلمة الموضوعة قد أخذت مكانتها من أدمغة كثيرين من كتاب الأصول والحديث في السابق والحاضر، وبنوا عليها تأييد ما يدعى على الشيعة من الطعن على جميع الصحابة.

وإن أبى أولئك إلا أن يصححوا ما أورده أبو عصمة، وأن هذه الكلمة صادرة عن أبي حنيفة وأنها شهادة منه على الشيعة، فنحن نسائلهم كيف يصح لأبي حنيفة أن ينهى عن شيء وهو يفعله؟.

لأننا نرى بالوجدان أن أبا حنيفة قد حضر عند علماء الشيعة، وسمع منهم، وروى عنهم، وهذه مسانيده وكتب أصحابه مليئة بتلك الروايات أمثال كتاب الآثار، وكتاب الخراج وكتاب الرد على الأوزاعي وغيرها.

ولا يعني ذلك أن أبا حنيفة قد تخلص من مؤثرات ذلك العصر وقلد الشيعة واتبعهم فهو في الفقه ـ كما رأينا ـ، وهو في اتصاله بالحكام لا يتجاوز الحد الذي يغضب الخليفة رغم أنه من ركائز ثورة الإمام زيد، ومع ذلك امتدت إليه يد المنصور فأذاقته المنية. وكان يخشى أن يتهم بالرفض أو الاعتزال فيحذر في أقواله ويتحرز في إجابته[1] ومع كل هذا اتهم في إيمانه واعتقاده.

ولمزيد من الإيضاح نذكر ـ بإيجاز ـ أسماء بعض شيوخ أبي حنيفة من الشيعة وقد وردت رواياته عنهم في جامع مسانيده وكتب أصحابه.

شيوخ أبي حنيفة من الشيعة:

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي المتوفى سنة ١٢٨هـ.

حبيب بن أبي ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفي المتوفى سنة ١١٩هـ.

مخول بن راشد أبو راشد النهدي المتوفى سنة ١٤١هـ.

---

(١) انظر المناقب للموفق ج١ ص١٧١ والكردري ج١ ص١٧٣.

عطية بن سعد العوفي المتوفى سنة ١١١هـ.

سلمة بن كهيل الحضرمي المتوفى سنة ١١٣هـ.

أجلح الكندي وقيل اسمه يحيى بن عبد الله ولقبه الأجلح المتوفى سنة ١٤٥هـ

إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الكوفي المتوفى سنة ١٢٧هـ.

المنهال بن عمر الكوفي التابعي.

عديّ بن ثابت الأنصاري الكوفي المتوفى سنة ١١٦هـ.

✓ زبيد بن الحارث اليامي، ويقال الأيامي الكوفي المتوفى سنة ١٢٢هـ.

* * *

وغير هؤلاء من شيوخ أبي حنيفة الذين عرفوا بتشيعهم لأهل البيت ولا يسعنا ذكر الباقين منهم بهذه العجالة.

وسيأتي في الجزء السادس من هذا الكتاب تراجم هؤلاء العلماء الذين تحامل رجال الجرح والتعديل عليهم لتشيعهم فحسب مع أن رجال الصحاح خرجوا أحاديثهم في صحاحهم.

وعلى أي حال فإن أبا حنيفة أخذ عن رجال الشيعة كما أخذ عن أئمتهم عليهم السلام ونفي ذلك تكذبه أحداث حياة أبي حنيفة وأفكاره.

* * *

إلى هنا ينتهي البحث عن حياة أبي حنيفة من الوجهة التاريخية وقد اختصرت البحث عنه وآثرنا المهم من سيرته ومراحل حياته لإعطاء صورة عن اختلاف الناس فيه، من قادح ومادح، ومغال ومتعصب، وذكرنا طرفاً من أقوال خصومه بدون تعرض لإثباتها أو نفيها، وبقيت أقوال المعتدلين فيه ضاق المجال عن ذكرها والتعليق عليها، وسنعطي رأينا فيه وبيان منزلته العلمية ومن الله التسديد.

* * *

خلاصـــة البحث

١ ـ إظهار الحقيقة من حيث هو أمر يشق على بعض النفوس التي خضعت لسلطان الهوى وفهمت الأشياء من طريق التقليد، لا من طريق التثبت والواقع، إنما يلائم أمزجة نقية وطباعاً متنورة.

وإن البحث عن المذاهب هو من أهم الأبحاث التي توقع الكاتب في حيرة وارتباك، لأن مسالك الوصول إلى الحقيقة ملتوية، والحواجز متكاثرة، كما أني لا أجهل أهمية الموضوع وخطره، فهو من أهم أسباب العداء والبغضاء بين طوائف المسلمين، وهو منبع التباعد والتضارب، مما أدى بالمسلمين إلى الانحطاط، واتساع نفوذ أعداء الدين الإسلامي، في بث روح الفرقة وإيقاد نار الخصومة بينهم، لانصراف المسلمين بكل قوتهم إلى الوقيعة بعضهم ببعض لتأييد كل مذهبه الذي يرتضيه، فنشأ من وراء ذلك فتن ونزاع وتخاصم واتهام بالسوء، وفرقة وتباعد، وتركوا ورائهم الأخذ بما أمرهم الله من الاعتصام بحبل الله وأن لا يتفرقوا فتذهب ريحهم، ويتسلط عليهم عدوهم.

ولم يسعد المسلمون بالتفاهم حول أسباب النزاع، وعوامل التفرقة ومعالجة مشكلة العصبيات، لأن الخلاف أصبح في الجملة طبيعة ارتكازية، وقد عد إزالته من المستحيل، وليس كذلك إن تركز البحث على ضوء الأدلة العقلية، والتجرد عن الهوس والعصبيات، وترك المغالطات واتحاد الهدف، وهو إظهار الحقيقة وتقبل الحق وإن كان مراً.

وقد مضى زمن رجال وسعوا دائرة الخلاف ليتسع نفوذهم، ويتم لهم ما أرادوا في تفريق كلمة المسلمين، لتركيز دعائم الملك، وامتداد سلطان الاستبداد إذ اتحاد كلمة الأمة يضيق عليهم الدائرة، ويرغمهم على إعطاء المجتمع حرية التفكير، وبذلك تعتدل طرق سيرتهم ويقل ضرر استبدادهم.

وهذا الخلاف خلاف غرض أئمة المذاهب، كيف وقد أصبح اتباعهم في أخذ الأحكام سبباً لانفجار براكين الحقد والكراهية، واتساع شقة الخلاف، وتكفير البعض للبعض كما مر بيانه، فحدث من ذلك فساد عظيم وخلقت مشاكل.

٢ ـ اتضح لنا من سير الحوادث اهتمام ولاة الأمر في تلك العصور بتحويل

أنظار الناس عن اتباع أهل البيت، والأخذ من تعاليمهم، ووجهوا الناس بكل حول وقوة لمعاداة من اتبعهم في الأحكام الشرعية.

ولما كانت الشيعة متظافرة على الدعوة لآل محمد، وتقديم مذهبهم على جميع المذاهب فالشيعة يرون أحقية أهل البيت بالأمر، وأنهم حملة رسالة الإسلام، ودعاة نشره، وأولياء أمر الأمة، يقودونهم إلى السعادة، وينفذون أحكام الله، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، وهم المثل الأعلى في طهارة النفس، وهم ينبوع فياض تتدفق منه أنواع المثل والقيم التي تغذي العقول وتبني السلوك وتضمن توجيه الحياة الإنسانية، فاتباعهم لازم بدليل العقل والشرع.

ولن تتخل الشيعة أبداً عن الاعتصام بآل محمد، والتمسك بهم مهما كلفهم الأمر، ومهما اتخذ أعداؤهم من أساليب ووجهوا إليهم من تهم.

لذلك نظرت إليهم السلطة نظر خصم لا تلين قناته، ولا تعمل الإرهابات عملها المطلوب، وقد عجزوا عن تحويل عقيدتهم الراسخة رسوخ الطود، فراحوا يلصقون بهم التهم ويتقولون عليهم، وهم يعلمون عن الشيعة خلاف ذلك، ولكنهم عرفوا أن تقويم ملكهم وبقاء عزهم لا يتم إلا بإلجام الألسن وكم الأفواه عن المؤاخذات التي توجه إليهم بصفتهم ساسة الأمة وحكام الإسلام، وقد حاولوا إفهام الناس أنهم على الحق وخصومهم على الباطل، فطبعوا في القلوب بغض المعارضين لهم، حتى أخرجوهم عن الإسلام ادعاء، ووجهوا إليهم كل مكروه، واتبعوهم بالأذى، وعاملوهم بالقسوة والشدة حتى توصلوا إلى مخالفة الأحكام، وهجر السنن الصحيحة عن صاحب الرسالة، لأن الشيعة قاموا بالعمل بها، ولنضع صوراً بين يدي القارىء من تلك المخالفات:

يقول ابن تيمية[1] في منهاجه عند بيان التشبه بالشيعة: ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات، إذ صارت شعاراً لهم، فإنه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميز السني من الرافضي، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة ذلك المستحب.

---

(١) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المتولد سنة ٦٦١هـ والمتوفى سنة ٧٢٨هـ.

وقال مصنف الهداية من الحنفية: إن المشروع التختم باليمين، ولكن لما اتخذته الرافضة جعلناه في اليسار.

وقال الغزالي: إن تسطيح القبور هو المشروع، ولكن لما جعلته الرافضة شعاراً لها، عدلنا عنه إلى التسنيم[1].

وقال الشيخ محمد بن عبد الرحمن في كتاب «رحمة الأمة في اختلاف الأئمة» المطبوع في هامش ميزان الشعراني ج١ ص٨٨: السنة في القبر التسطيح وهو أولى على الراجح، من مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة وأحمد: التسنيم أولى، لأن التسطيح صار شعاراً للشيعة.

٣ ـ ومهما يكن من أمر فإن امتحانات الشيعة وما نالهم من الأذى، إنما هو في سبيل الانتصار لآل محمد ﷺ والانضمام إلى جانبهم ونشر مبدئهم، ولو انهم استجابوا لداعي السلطة، ورغبوا في لذة الحياة، فليس بينهم وبينها إلا النزول على رغبات أولئك القوم الذين لا يرغبون إلا في القضاء على مبادىء آل محمد ﷺ، ومحو ذكرهم فيجنبوا أنفسهم الويلات وتصبح حصتهم من الدولة المراكز والمنافع ويبعدوا أهليهم وذويهم عن مستقبل ينفتح على السجون وقطع الرقاب. ويبدو أن إلحاق الأذى بالشيعة صار قانون الملوك الطغاة والأمراء الذين استولوا على مقاليد الأمور فلو تجاوزنا بني أمية وبني العباس فإننا نرى ملوك بني أيوب في مصر الذين كالوا لهم كل مدح وأطروهم بثناء جميل. اتخذوا يوم عاشوراء يوم سرور، يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم ويصنعون الحلاوات، ويتخذون الأواني الجديدة، ويكتحلون ويدخلون الحمام، جرياً على عادة أهل الشام، التي سنها لهم الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان ليزعجوا شيعة علي بن أبي طالب الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي عليهما السلام لأنه قتل فيه. يقول: المقريزي وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور.

ويكفي خصوم الشيعة أنهم يسيرون على ما سنه الحجاج من ذلك الفعل القبيح، فهل يا ترى أنهم ذهلوا عن قبح هذا العمل؟ أم ترى أنهم لا يعلمون أن هذا الفعل يسيء رسول الله ﷺ؟ كيف وهم يظهرون الفرح في يوم بكى رسول الله ﷺ له قبل

---

(١) الغدير ج١٠ ص٢٠١.

وقوعه، وكان يتألم منه، وهل جهلوا منزلة الحسين عليه السلام؟ فعمدوا إلى هذا الفعل المنكر؟!![1].

٤ ـ اندفع ولاة الجور للدفاع عن مراكزهم، والمحافظة عن كيان ملكهم، ببث روح الفرقة بين أفراد الأمة، لاستحصال غاياتهم التي رأوا استحالة حصولها مع اتفاق المسلمين وصفاء ودهم وصبغوا تلك الأعمال التي حاولوا بها تمزيق وحدة الصف صبغة دينية، ولكنها في الواقع بعيدة كل البعد عن روح الدين.

وقد أفصح لنا التاريخ عن نياتهم السيئة وما يقصدون من وراء ذلك، وقد آزرهم رجال ابتعدوا عن الحق، وتهجموا على أصول المحاسنة والمداراة الاجتماعية، ودعاهم جشعهم إلى الابتعاد عن حدود الإنسانية، وخلعوا ابراد الحشمة، وأطفأت الأطماع شعلة عقولهم «فهم في غيهم يعمهون». وعلى أي حال فقد تفرقت الأمة كما شاءت السياسة، أو كما شاء ولاة الجور، بمقتضى العوامل التي وجهوها لهدم كيان المجتمع الإسلامي، فاتسع الخلاف وعظم الارتباك، ووقعت الخصومة، وبين هذا وذاك رفع الاستبداد رأسه وافترس كل ما وجده صالحاً للأمة.

وأصبحت المسألة سيئة الوضع نشأ من جرائها عداء متأصل، توارثته الأجيال حتى عجز المصلحون عن معالجة مشاكل الأمة، وقد اتخذه المستبدون أسهل وسيلة لتفريق المجتمع الإسلامي، تقوية لسلطانهم، وقوة لنفوذهم على ممر العصور، وهم يتظاهرون بمحاربة هذه النعرة، ولكنهم يبذلون جهودهم في نصرتها من وراء الستار، باستخدامهم مرتزقة سلبوا مواهب الإدراك، وفقدوا شعورهم عند حصول تلك الأجرة الزهيدة، واشتروا الضلالة بالهدى، يكتبون بأقلامهم المسمومة، ما يثير الضغائن والأحقاد، فكانت لهجتهم جائرة، يختلقون ويفتعلون بدون قيد وشرط تقرباً لأسيادهم.

بين يدي عشرات من تلكم الكتب التي حررتها تلك الأقلام المأجورة، ألفها مهرجون لا يعرفون من الحق موضع أقدامهم، يكيلون الذم لأمة عرفوا بإخلاصهم وولائهم لأهل البيت، واعتناق مذهبهم الذي تركزت دعائمه على تعاليم صاحب

---

(١) انظر كتابنا: مع الحسين في نهضته.

الرسالة، وانتشر بجهود أصحابه، وقد رأت السلطة مخالفة ذلك لمصالحهم فجعلوا اتباع النبي ﷺ وأخذ تعاليمه عن أهل بيته بدعة نظراً لعدم تشريع السياسة لذلك.

ولم يجدوا طريقاً لمؤاخذة الشيعة بحكمة ونزاهة، ولكنهم حاكوا لهم التهم، تقولاً بالباطل وابتعاداً عن الحق، بل هو تهريج وهوس، وتعابير لا شعورية، ومن أعظم تلك التهم التي ألصقوها بالشيعة هو قولهم بتكفير الشيعة للصحابة، وحكموا عليهم في ذلك بالخروج عن الدين! ما أقسى هذا الحكم، وما أعظم هذه التهمة «عفوك اللهم عفوك».

اللهم إننا نبرأ إليك مما يقوله الحاقدون ونوالي أصحاب رسولك ﷺ الذين رضيت عنهم وأخلصوا في الدعوة والجهاد في سبيلك.

٥ ـ لقد أخذت هذه التهمة نصيبها من التهويل، وحظها من الشيوع، في عصر اتخذ خصوم الشيعة من سلطانه قوة الانتصار، وازداد نشاطهم بتلك المفتريات، والاتهامات التي سلكوا بها طرق الخداع والتمويه على السذج وعوام الأمة، فتركزت في أدمغتهم تلك الفكرة السيئة، وبحكم مؤثرات الدعاية التي بثتها الطبقة الحاكمة ضد الشيعة، ليثيروا البغضاء، ويبذروا الحقد، ويبرزوا للشيعة صورة تشمئز منها النفوس، فكانت دماؤهم مهدورة وأموالهم مباحة.

ولم تقف الشيعة تجاه هذه المنكرات مكتوفة اليد، بل دافعت عن مبدئها وعقيدتها بساطع البرهان وقوة المنطق وحد السيف، فكانت هناك ثورات يتبع بعضها بعضاً، وحروب طاحنة دفاعاً عن المبدأ وحفظاً لكرامة الدين.

ما أقسى هذا الحكم وما أعظم هذه التهم، ولا تستطيع الشيعة السكوت عليه، ولكن ماذا تصنع وزاوية التعصب مفتوحة يطل منها أولئك الحول القلب الذين يفترون الكذب.

ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ربنا إنا آمنا بك واتبعنا نبيك، ووالينا أصحابه الذين نهجوا نهجه، واهتدوا بهديه وسمعوا دعوة الحق فلاقتها نفوسهم بكل قبول وصدق، وإخلاص بالقول والعمل، ونظروا لمصلحة المسلمين قبل مصالح أنفسهم أولئك هم أصحاب محمد ﷺ «أشداء على الكفار رحماء بينهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً» سبقوا إلى الإسلام، وهاجروا وجاهدوا

بأموالهم وأنفسهم، ونشروا الدين وأظهروا شعائر الإسلام، وأقاموا الفرائض، وأحيوا السنن، آمنوا بمحمد ﷺ ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه فأيدت نبيك فيهم، وألفت بين قلوبهم فاتحدوا وآزروا ونصروا وصدقوا ما عاهدوا عليه الله؛ ربنا إنا آمنا بنبيك، وتبرأنا من المنافقين الذين مردوا على النفاق، ونصبوا لنبيك الغوائل، ولم يؤمنوا إيمان القلب والجنان، بل إيمان الشفة واللسان فأخبرت نبيك عنهم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۞ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١ و٢].

الذين ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢ و١٤٣].

ونتبرأ من الذين شاقوا رسولك ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

حقاً إنها مؤاخذة عظيمة، لو كان لها من الصحة نصيب، ولكنها فرية وبهتان، بعثتها الأغراض، وأوحتها الأوهام والخيالات، فتوارثتها الأجيال ولو تناولتها أقلام غير مأجورة لقبرتها في مقرها الأخير.

أتكون الشيعة بميلها عن معاوية وحزبه، ومناقشتهم نقاشاً علمياً يتركز على حرية الرأي مجرمة في نظر العدالة، ويحكم عليهم بعدم الاستقامة فتطرح رواياتهم؟

نصفاً يا حكام الجرح والتعديل، فهل ألقيت أقوال من تجرأ على سب علي ويغضه والحط من كرامته؟ لا لا إنه مقبول ثقة في الرواية، ويقال إنه حسن الاعتقاد، ناصر للسنة.

ولا يسعنا التوسع أكثر بالبحث في هذا الموضوع فهو واسع، لا يحاط به ولو صنفت مجلدات وسيأتيك مزيد بيان أسباب توجيه تلك التهمة إلى الشيعة، ونوقفك على الافتراء فيها في الأجزاء الآتية إن شاء الله.

وكنا نظن أن تلك المفتريات ذهبت مع تلك العصور التي اقتضت اختراعها وافتعالها لتفريق صفوف الأمة، وكنا نتخيل أنها قبرت مع أصحابها ومرت عليها عجلة

الزمن، فابتعدنا عنها ونحن بعصر انطلاق حرية العقل، ورفع حواجز السلطة وإزالة ستار التمويه، وبمزيد الأسف إنا نجد من يريد أحياء تلك النعرات ويعيد تلك العصور الغابرة ويضرب على وتر العصبية.

وليس من أصل موضوعي التعرض لأقوال المهرجين فإن سلة المهملات لا تضيق عنهم.

وسنشير لبعض الأقوال التي أطلقها أصحابها ـ من كتّاب ومؤرخين ـ حول الشيعة والصحابة من دون قيد وشرط، وبدون معرفة لعقيدة الشيعة في الصحابة رضوان الله عليهم.

ولو أن أولئك الكتّاب ساروا بأبحاثهم حول هذا الموضوع بدقة وتمحيص، ونزاهة، وتجرد عن العاطفة، خدمة للحق من حيث هو لحكموا على أنفسهم بالخطأ فيما يذهبون إليه من القول بأن الشيعة يكفرون جميع أصحاب النبي ﷺ والعياذ بالله.

وهذا الموضوع من أهم ما يجب أن نتكلم به، وأن نلم بجميع أطرافه، وحيث لم يتسع له هذا الجزء وقد ضاق نطاقه عن ذلك، فقد أرجأنا الحديث عنه إلى الجزء الثاني إن شاء الله فإلى اللقاء هناك. ومن الله نستمد العون ونسأله التسديد والإخلاص في العمل، وهو ولي التوفيق.

* * *

ختام الجزء الأول من هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين، والصلاة على رسوله الذي أرسله ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

* * *

الإمـام الصـادق
و
المذاهب الأربعة

المجلد الأول / الجزء الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٥].

الإمام الصادق

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

كنا نتحدث عن نشأة المذاهب الإسلامية وعوامل انتشارها وما يتعلق بذلك من تطورات وأحداث.

كما تحدثنا عن بعض ما يتعلق بحياة الإمام الصادق عليه السلام ومشاكل عصره، والإشارة إلى مدرسته، وذكر عدد قليل من تلامذته ورواة حديثه.

وفي هذه الجزء نعود ـ بعون الله ـ للبحث عن حياة الإمام الصادق ومدرسته، وبعض رواة حديثه، بعد أن نشير لحوادث عصره، يوم ساد الاضطراب والقلق جميع البلاد الإسلامية، وعم الخوف جميع الأرجاء فلم يأمنه الطفل الراقد في مهده، ولا الشيخ القابع في داره عندما اتسعت دائرة المؤاخذات على ولاة الأمر، وسوء تصرف العمال وجورهم على الرعية، بشكل لا مجال معه إلا إلى انفجار ثورة دموية، وانقلاب يؤدي إلى انهيار الدولة.

وكان أهم عوامل الثورة على الأمويين هو الانتصار لآل محمد ﷺ والطلب بثأرهم، لأن الأمويين أراقوا دماءهم من غير أن تراعى حرمة لرسول الله فيهم، فكانت هتافات الثوار إلى الرضا من آل محمد ﷺ.

وكان الإمام الصادق عليه السلام هو سيد أهل البيت وزعيم الهاشميين في عصره، وهو محط آمال الأمة ومعقد أمانيها، وهو الشخصية التي بلغت بمواهبها وسمو معناها إلى أرفع درجة من الكمال، وأعلى ذروة من الفضل، ولم تكن منزلته في المجتمع يعلوها الخفاء أو يحوطها شيء من الغموض.

وهنا لا بد لنا أن نتساءل: هل ان الإمام الصادق عليه السلام كان بمعزل عن ذلك المعترك السياسي؟ وانه لم يشارك في ذلك النشاط الذي كانت دعامته هو الدعوة لآل محمد؟ وأنه دعى عبد الله بن الحسن ليمد يده فيبايعه لأنه أكبر سناً من ولده محمد ذي النفس الزكية يوم اجتمع الهاشميون في الأبواء للمداولة في الأمر، ومبايعة رجل من آل البيت تناط به مسؤولية الدعوة كما ذكره ذلك بعض الكتّاب بدون سند.

والإجابة على هذه الأسئلة تحصل عندما ندرس عوامل الثورة، ونعرف نفسيات الثوار ونزعاتهم، واختلاف مشاربهم وآرائهم.

ويتضح لنا ذلك عندما نقف على الخطة التي اختطها الإمام لنفسه في ذلك الجو الهائج بالفتن، والمائج بالأهواء، إذ لم يستجب لدعوة زعماء الثورة لبيعته، لأنه لا يعدهم من رجاله ولا الزمان زمانه، ولم يغامر في نفسه وأهل بيته مغامرة عقيمة الإنتاج، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة، وعلى أهل بيته بسوء العاقبة، لأنه يعلم النتائج وما يؤول إليه الأمر وينظر إلى الحوادث عن كثب، نظر الحكيم البصير، والسياسي الخبير بعواقب الأمور، وكثيراً ما أعلن حقائق تلك الأوضاع وكشف نوايا أولئك القادة وما يهدفون إليه من وراء الدعوة لآل محمد ﷺ .

كما أنه نهى أبناء عمه عن التسرع في الأمر وعدم القيام بأي نشاط ثوري إلى أن يأتي الوقت المناسب لأن القيام بشيء قبل أن يستحكم ويستكمل أمره مفسدة له.

وسنتحدث في هذا الجزء وغيره ـ إن شاء الله ـ عن خطته الحكيمة وأساليب دعوته القوية، ومنهجه السياسي الرصين بصفته إمام عصره وزعيم أهل بيته، بعد أن نستعرض بعضاً من مشاكل عصره وأسباب قيام الثورة التي أطاحت بالحكم الأموي.

عصره ومشاكله:

يمتد عصر الإمام الصادق من آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة المنصور الدوانيقي، أي من سنة ٨٣هـ إلى سنة ١٤٨هـ فقد أدرك طرفاً كبيراً من العصر الأموي، وعاصر كثيراً من ملوكهم، وشاهد من حكمهم أعنف أشكاله، وقضى حياته الأولى حتى الحادية عشرة من عمره مع جده زين العابدين، وحتى الثانية والثلاثين مع أبيه الباقر، ونشأ في ظلهما يتغذى تعاليمه، وتنمو مواهبه، وتربى تربيته الدينية، وتخرّج من تلك المدرسة الجامعة، فاختص بعد وفاة أبيه بالزعامة سنة ١١٤هـ

واتسعت مدرسته بنشاط الحركة العلمية في المدينة ومكة والكوفة، وغيرها من الأقطار الإسلامية، وهذا هو الدور الخاص الذي يهمنا العرض له وتلزمنا دراسته.

كان العصر الذي اختص به الإمام الصادق عليه السلام عصر فتن واضطراب في جميع البلاد الإسلامية، وحروب طاحنة ونزاع بين رجال الدولة، وقد اصطدمت بتحركات تهدد كيانها، وتجاوبت البلاد بلغة الإنكار على الأمويين، والمؤامرات السرية قد قاربت النجاح في تدبيرها الخفي، وهم في غفلة من معالجة تلك المشاكل التي حلت بالأمة، ولم ينظروا إلى المصالح التي تحتاجها سلامة البلاد كاهتمامهم بمصالح أنفسهم.

وقد عم الاستياء جميع الطبقات لسوء المعاملة الاقتصادية والسياسية، وكان وضع الدولة يستوجب العمل على إيجاد طرق لحل تلك المشاكل التي فتحت عليهم باب المؤاخذات من جميع الطبقات فقد كانت سيرة الحكام تخالف نظم الإسلام بصورة لا مجال إلى السكوت عنها.

وتتابعت الحوادث واشتدت الأمور، وكلما ولي الحكم واحد منهم تزداد قائمة المؤاخذات، وتظهر في عهده أمور تبعث في النفوس الكراهة لعهدهم والاستياء منهم.

وكان الوضع الاقتصادي عاملاً مهماً في بث النقمة ومضاعفة المقاومة لذلك الحكم، فقد عملوا على زيادة الخراج واتباع الطرق السيئة في الجباية، وأجحفوا في تقديره كما فعلوا في فارس. إذ كان عمال بني أمية يخرصون الثمار على أهلها، ثم يقوّمونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون فيه، فيأخذونها على قيمتهم التي قدروها[١] وأخذوا الجزية ممن لم تجب عليهم كما فعلوا بمصر، فإن عبد العزيز بن مروان أمر بإحصاء الرهبان فأحصوا، وأُخذت منهم الجزية، وهي أول جزية أخذت من الرهبان.

وفرض الأمويون ضرائب أضافية، كالرسوم على الصناعات والحرف وعلى من يتزوج أو يكتب عرضاً.

---

(١) العصر العباسي الأول. الأستاذ عبد العزيز الدوري.

وأرجعوا الضرائب الساسانية التي تسمى هدايا النوروز، وأول من طالب بها معاوية، وأمر أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان، ففعلوا ذلك، وبلغ ثلاثة عشر ألف ألف درهم[١].

وقدم دهقان هرات واسمه خراسان، إلى أسد بن عبد الله القسري عامل هشام سنة ١١٩هـ بهدايا المهرجان بما قيمته ألف ألف[٢].

ويقول الطبري: قدم والي هرات، ومعه دهقان سنة ١٢٠هـ بهدايا كان بها قصران: قصر من فضة وقصر من ذهب، وأباريق من ذهب وأباريق من فضة، وصحاف من ذهب وصحاف من فضة، والديباج الهروي والقوهي والمروي[٣]

وبعث عبد الملك بن مروان إلى عامله في الجزيرة يأمره أن يحصي الجماجم ويعتبر الناس كلهم عمالاً بأيديهم، ويحسب ما يكسبه العامل سنته كلها، ثم يطرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته، وطرح أيام الأعياد كلها، ففعل العامل، ووجد الذي يحصل من ذلك في السنة لكل فرد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً[٤].

وكان عامل اليمن: محمد بن يوسف أخو الحجاج قد ارتكب أنواع العسف والجور، فكان يصادر أملاك الأهالي وأموالهم، وضرب عليهم ضريبة معينة عدا الخراج الذي ضربه الإسلام[٥].

وقدم أسامة بن زيد على سليمان بن عبد الملك بما اجتمع عنده من الخراج ـ وكان والياً عليه في مصر ـ وقال له: يا أمير المؤمنين إني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت، فإن رأيت أن ترفق بها وترفه عليها، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها، فافعل، فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل. فقال له سليمان: هبلتك أمك، احلب الدر، فإذا انقطع فاحلب الدم، فالنجا[٦].

(١) الجهشياري ص١٥.
(٢) الكامل ج ص١٠١.
(٣) الطبري ج٥ ص٤٦٥ سنة ١٢٠هـ.
(٤) الخراج ص٢٧.
(٥) السيادة العربية ص٢٨.
(٦) الجهشياري ص٣٢.

وبهذا جهدت الرعية، وفقدت الرفاهة، فكان الكل متأثراً من تأدية تلك الضرائب الثقيلة التي تتمتع بها أقلية مستهترة، ولا يهم ولاة الأمر بما ينجم من وراء ذلك من خراب البلاد، واغتنم العمال رغبة ولاة الأمر في تحصيل المال وجبايته، فكانوا يعبثون في جبايتها للحصول على الثروة من وراء ذلك. وربما كان الخلفاء من الأمويين يخولون عمالهم ما يحصل تحت أيديهم من جباية الضرائب.

فقد خول والي خراسان ما حصل له، وهو عشرون ألف ألف درهم من تلك الضرائب.

وسوغ يزيد بن معاوية لعبد الرحمن بن زياد والي خراسان بما اعترف له من المال، وهو عشرون ألف درهم، وكان عنده من العروض أكثر منها، فقال عبد الرحمن يوماً لكاتبه: إني لأعجب كيف يجيئني النوم وهذا المال عندي! فقال له: وكم مبلغه! قال: إني قدرت ما عندي لمائة سنة، في كل يوم ألف درهم لا أحتاج منه إلى شراء رقيق ولا كراع ولا عرض من العروض، فقال له كاتبه: أنام الله عينك أيها الأمير، لا تعجب من نومك وهذا المال عندك، ولكن اعجب من نومك إذا ذهب ثم نمت!

فذهب ذلك المال كله، أودع بعضه فذهب، وجحد بعضه، وسرق بعضه.

فآل أمره إلى أن باع فضة مصحفه، وكان يركب حماراً صغيراً تنال رجله الأرض، فلقيه مالك بن دينار، فقال له: ما فعل المال الذي قلت فيه ما قلت؟ قال: كل شيء هالك إلا وجهه![1].

مشكلة الخراج:

ولما ولي عمر بن عبد العزيز، عالج مشكلة الخراج والجزية والضرائب الإضافية التي هي أعظم من الخراج، إذا لم تكن محدودة أو مقررة، بل يعود أمرها إلى العمال أنفسهم. فكتب إلى عامل الكوفة:

أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة في أحكام الله، وسنة خبيثة سنها

(١) الجهشياري ص١٨.

عليهم عمال السوء، وإن قوام الدين العدل والإحسان، فلا يكن شيء أهم إليك من نفسك، فلا تحملها قليلاً من الإثم، ولا تحمل خراباً على عامر، وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر. ولا يؤخذن من الغامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذن أجور الضرابين، ولا هدية النوروز والمهرجان، ولا ثمن المصحف، ولا أجور الفتوح، ولا أجور البيوت، ولا درهم النكاح. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله. ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد من الذرية أن يحج، فعجل له مائة ليحج بها والسلام[1].

وانتهى ذلك الإصلاح الذي سار فيه عمر بوفاته، لأن يزيد بن عبد الملك ـ عندما ولي الخلافة ـ أمر بإعادة تلك الضرائب التي أمر عمر بإبطالها، فكتب إلى عماله:

أما بعد فإن عمر كان مغروراً، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده. وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا[2].

فزاد الضغط وعظمت المحنة، وأصبحت هذه الضرائب عبئاً ثقيلاً على كاهل الأمة، وبالأخص البلاد المغلوبة التي وقعت تحت «إسراف العمال في تحصيل الأموال وجبايتها، وعبثهم بما تحت أيديهم منها، وإنفاقها في مصالحهم الشخصية، وقد كانت تتخذ أمرة إحدى الولايات وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال»[3]

ومما يدلنا على عظيم الاهتمام بتحصيل الولاية للحصول على الثروة؛ قضية بلال بن أبي بردة عندما وفد على عمر بن عبد العزيز فلزم المسجد يصلي ويديم الصلاة، فأعجب به عمر. فقال عمر لعلاء بن أبي بندار: إن يكن سر هذا كعلانيته، فهو رجل العراق غير مدافع. فقال العلاء: أنا آتيك بخبره، فجاء إليه وهو في المسجد وقال له: قد عرفت حالي من أمير المؤمنين، فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي؟ قال: لك عمالتي سنة، وهي عشرين ألف ألف، قال: فاكتب بذلك،

(١) الكامل لابن الأثير ج٥ ص٢٩ والطبري ج٨ ص١٣٩.
(٢) الطبري والكامل لابن الأثير.
(٣) السيادة العربية ص٣٠.

فكتب له ورجع العلاء إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى عامله بالكوفة: إن بلالاً غرّنا بالله، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله والسلام[1].

فنرى بلالاً يبذل عشرين ألف ألف للحصول على إمرة العراق، فلا بد أن يتعوض بأضعافها في أقل من سنة، كما تقتضيه سيرة الولاة وجشع الجباة في ذلك الدور.

سيرة الجباة:

وكانت جباية العراق قد أسندت إلى الدهاقين - رؤساء القبائل - فساروا فيهم سيرة غير مرضية.

وفي خراسان كانت الضرائب توزع على رؤوس الأهلين لا على مساحة الأرض، إذ لو فرض على مساحة الأرض، لوقع أكثره على الدهاقين.

وقد فرض الأمويون الضريبة على من أسلم، وكان ذلك سبباً في تأخر خطى انتشار الإسلام، لأن الضريبة تؤخذ من غير المسلم، وهي الجزية والخراج، وعند إسلام الذمي يعفى من الاثنين. فلما دخل كثير من الذميين في الإسلام عن عقيدة، أو عن رغبة في الخلاص من الضرائب، عرف النقص في ميزانية الدولة، ففرض الأمويون الجزية والخراج على من أسلم، فوقف انتشار الإسلام، لمعارضته لمصالح الدولة المادية وقد لمس أهل الكتاب والملل والديانات روح التسامح فمن تحركت في نفسه دوافع الإيمان الحق وجد في الأحكام الإسلامية روحاً جديدة وفي الشريعة المحمدية توحيداً حقاً، ومن راح يتقي دفع الحق المالي الذي ترتب على الفتح الإسلامي فصار إلى طريقة إشهار الإسلام ولكنه بمرور الوقت يجد أن ما اتخذه ستاراً ينفذ إلى الأعماق بنوره ويرى في سلوك المخلصين وأفعال جنود الدعوة حوافز على الإيمان الحق.

ثم انقلب المسؤولون في الحكم إلى جباة وكاد سلوك الدعاة الأول ينحصر في مجالات ضيقة لأن الملوك أقبلوا على الدنيا بكل وجوهها ولم يكن لهم من الإسلام إلا الاسم. ومن الدواهي أن يتابعهم على ذلك الذين اتخذوا الدين زياً وبنيت مكانتهم في المجتمع على أساس صلتهم بالدين وتفرغهم لأمور الشريعة. ولم يكن إسقاط

---

(١) الكامل للمبرد ج١ ص١٥٨ ط١.

تلك الضرائب في الواقع مضراً في مصلحتها أو مخلاً في ميزانيتها، بل كان معارضاً لجشع الولاة، وطمع الجباة ومصلحة الدهاقين، فكانت تلك الأعمال القاسية التي سار عليها العمال تفسح للناقمين مجالاً واسعاً، وتملأ القلوب على الأمويين غيظاً، لأن سيرة العمال مستمدة من سلطان لا يهمه تذمر الرعية، ولا يصغي لشكاية مظلوم، ويعظم على المسلمين أن تسودهم أمة تتجاهر بالظلم وتخالف الأحكام. وقد هجرت السنن ونبذت تعاليم الكتاب وراء الظهور، حتى أصبح ذلك من شعار الدولة، فكان رجال الأمة يتألمون من تلك الأوضاع السيئة، وما حل بالأمة الإسلامية من الجور والعسف بالحكم، وإراقة الدماء وغصب الأموال وهتك الحرمات، فقام دعاة الإصلاح وصلحاء الصحابة بالمعارضة منذ عهد الدولة الأول، وأنكر المسلمون أشد الإنكار معاملة الأمويين الجائرة.

وكلما امتد عمر الدولة ازداد السخط وعظم الإنكار من جميع الطبقات ولهذا رافقت الثورات حكم الأمويين منذ البداية.

وكانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي بداية الانطلاق لنشر الوعي الإسلامي ضد الأمويين، وصرخة مدوية هزت عروش الظالمين، وأول طلائع تلك الثورات الإسلامية هي ثورة المدينة المنورة في واقعة الحرة سنة ٦٣هـ استنكاراً لأعمال يزيد وإجرامه.

فكانت ثورة دموية انتهت بالغلبة للجيش الأموي، وأقدم جيش يزيد الذي أعدّه لهذا الغرض على ارتكاب فظائع ومذابح وجرائم أجمع المؤرخون على استنكارها، فقد أباح مسلم المدينة ثلاثاً لجنده يقتلون أهلها، ويسلبونهم أموالهم، وقتل ثمانون من أصحاب الرسول والباقون منهم أخذت عليهم البيعة ليزيد، بيعة عبودية واسترقاق.

كما قتل سبعمائة رجل من حملة القرآن، وألف وسبعمائة من بقايا المهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من أوساط الناس سوى النساء والصبيان(١)، وافتض الأمويون ألف عذراء(٢). إضافة إلى أعمال النهب والسبي، وكان الرجل من أهل

(١) انظر البداية والنهاية ج١٠ ص٢٢ والدولة الإسلامية للخربوطلي ص٢٠٥.

(٢) النجوم الزاهرة ج١ ص١٦١.

المدينة بعد ذلك إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ويقول لعلها قد افتضت في وقعة الحرة[1].

ثم تتابعت الثورات في البلاد العربية، وتفاقمت حركة الإنكار على سوء السيرة، والظلم للرعية والاستهانة بمقدرات الأمة فكانت ثورات في العراق وفي الحجاز وفي الأردن ومصر وغيرها.

الموالي والثورة:

وبعد هذا العرض يمكننا تفنيد مزاعم القائلين: بأن الموالي هم العامل الوحيد لانهيار الدولة الأموية لأسباب ذكروا منها:

ان الدولة الأموية عربية بحتة وليس في مناصب الدولة للموالي نصيب.

وان الموالي كانوا يحقدون بذلك على المجتمع العربي الممثل في الدولة الأموية.

وان الموالي قد حاولوا إعادة المجد الساساني، وان الصراع بين الكتلتين إنما هو صراع عنصري بحت، وكانت مؤازرتهم للدعوة الهاشمية إنما هو طمع في استرداد المجد القديم. إلى غير ذلك مما ذكره كثير من الكتّاب من مستشرقين وغيرهم.

ونحن لا ننكر أثر الموالي في الثورة على الدولة الأموية، كيف وقد تكاملت القوى في خراسان، وظهرت الدعوة وعظم أمر أبي مسلم الخراساني.

ولكننا لا نذهب إلى ما ذهبوا إليه من إسناد العوامل إلى الموالي فحسب، ومعنى هذا سلب الأمة الإسلامية من كل وعي وشعور بما لمسوه من أمور كان اللازم إنكارها، وعدم الخضوع لها وقد أشرنا لبعض الحوادث من قبل.

هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الثورة في بلاد فارس كان أكثر زعمائها من رؤساء العرب كسليمان بن كثير الخزاعي، وقحطبة بن شبيب الطائي وأبو داود الشيباني وغيرهم من رؤساء قبائل العرب في خراسان وهم من المقاتلة أيام الفتوح الأولى من النزارية واليمانية.

---

(١) ابن الطقطقي ص١٠٧.

وكان رجال الدعوة من العرب لا من الفرس كنصر بن صبيح التميمي وعبد الرحمن بن سلم والجهم بن عطية وغيرهم.

وكان النقباء جلهم من العرب والمنتسبين إلى أشهر القبائل: فمنهم خمسة من خزاعة، وثلاثة من تميم وبعضهم من ربيعة وغيرها من القبائل العربية.

الموالي ووظائف الدولة:

وأما القول بأن الأمويين قد أبعدوا الموالي عن وظائف الدولة مما بعث الحقد في قلوبهم والكيد للأمويين فهو غير صحيح؛ لأنا نرى أن الموالي قد استغلوا أهم وظائف الدولة في العصر الأموي كرئاسة الديوان وجباية الخراج وأمانة السر، وقيادة الجيوش وإمارة بعض البلدان، وإليك أنموذجاً من ذلك:

سرجون بن منصور مولى معاوية كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل والخراج لمعاوية وابنه يزيد ولمعاوية بن يزيد ولمروان بن الحكم.

عبد الرحمن بن دراج تولى الرسائل لمعاوية، وكان أخوه على خراج العراق في أيامه.

مرداس مولى زياد بن أبيه كان على رئاسة ديوان الرسائل لزياد، وكان على الخراج في العراق مولاه زاذا نفروخ.

أبو الزعيزعة مولى عبد الملك كان يتولى ديوان الرسائل في عهده وكان أمين سره عمر بن الحارث مولى بني عامر.

جناح مولى عبد الملك: يترأس ديوان الخاتم.

أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم مولى ثقيف: يتقلد للحجاج رسائله ويقتل الناس بأمره، وولي خراج العراق بعد موت الحجاج.

سعيد الصابي: على ديوان الخاتم للوليد بن عبد الملك، وكاتبه شعيب العماني مولاه.

الليث بن أبي فروة: مولى أم الحكم كان يكتب لعمر بن عبد العزيز، وجعل خراج العراق بيد عبد الله بن ذكوان مولى رملة بنت شيبة.

محمد بن يزيد مولى الأنصاري: كان والياً على مصر من قبل عمر بن عبد

العزيز، وبعد وفاة عمر عزله يزيد بن عبد الملك وولى مكانه يزيد بن مسلم مولى ثقيف.

سالم مولى سعيد بن عبد الملك كان على ديوان الرسائل للوليد بن يزيد. عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء: كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل لمروان الحمار وكذلك عثمان بن قيس مولى خالد القسري.

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير: كان من القواد العسكريين.

نيزك بن صالح مولى عمر بن عبد العزيز: كان على إمارة الشاش.

أسامة مولى معاوية على إمارة مصر.

طارق بن عمر مولى عثمان بن عفان ولي المدينة وكان من ولاة الجور.

وكان الكثير منهم يتولى السلطة التشريعية كعطاء بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين المتوفى سنة ١٠٢هـ.

وعلى قضاء مصر سمنان مولى عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى سنة ١٢٧هـ.

وكان مفتي مصر وشيخها أبو رجاء بن حبيب المتوفى سنة ١٢٨هـ وغير هؤلاء.

وكان الأمويون يكرمون علماء الموالي ويشيدون بذكرهم. فقد نادى منادي الدولة أن لا يفتي إلا عطاء بن أبي رباح، وأرسلوا نافع الديلمي مولى ابن عمر المتوفى سنة ١١٧هـ إلى مصر يعلم الناس السنن.

وكانت الفتيا بدمشق لسليمان بن أبي موسى المتوفى سنة ١١٧هـ مولى الأمويين.

ولزيد بن أسلم العدوي المتوفى سنة ١٣٦هـ حلقة في المسجد النبوي.

ويطول بنا الحديث ويتسع البحث إن أردنا استقصاء ذكر من أشغل وظائف الدولة الهامة من الموالي، من ولاة وقواد وقضاة وأمناء سر وأمراء خراج وجباة أموال.

أسباب انهيار الدولة:

ومهما تكن محاولة جعل انهيار الدولة لحقد الموالي فحسب، فهو أمر بعيد كل البعد عن الصحة وان الباعث له تبرئة الأمويين من كل ما ارتكبوه، وان المسلمين قد أقروا ذلك الحكم ولم يعارضوا، وان انهيار الدولة كان لأسباب عنصرية.

وليس ببعيد أن تكون هذه المحاولة من أناس حملهم حب الأمويين عليها كما حمل غيرهم على وضع الأحاديث التي يستطيعون بواسطتها التمويه على السذج من الناس في تبرير تلك الأعمال المنكرة منها.

يحدثنا ابن الأثير أن معاوية بن أبي سفيان قال لولده يزيد: اطلب مني فلست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه، فقال: حاجتي أن تعتقني من النار لأن من ولي أمر أمة محمد ثلاثة أيام أعتقه الله من النار، فتعقد لي البيعة بعدك[١].

وساروا على هذا يفهمون الناس ويركزون عقيدة ولايتهم أمر الأمة والدين ويتحلون بالقداسة مع عظيم تلك المنكرات حتى سرت هذه الفكرة إلى عمالهم وقواد الجيوش.

هذا مسلم بن عقبة لما فعل بالمدينة ما فعل وانصرف ثم نزل به الموت في الطريق فقال: إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أحب إليّ من قتل أهل المدينة، ولا أرجى عندي منه في الآخرة[٢].

وأشهد عند الوليد أربعون شيخاً منهم أن الخليفة لا يعاقب، وأن من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام أعتق من النار.

وهم يحاولون بذلك رد تلك الأحاديث الواردة عن الرسول الأعظم في التشديد على الولاة، وإلزامهم بالعدل وهم لا يستطيعون ذلك ويخشون الإنكار. فقد صح عنه ﷺ أنه قال لجابر بن عبد الله: أعاذك الله من إمارة السفهاء، قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردوا حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم، وسيردوا عليّ حوضي[٣].

---

(١) الكامل ج٤ ص٦٢.
(٢) الكامل ج٤ ص٦١.
(٣) مسند أحمد ج٣ ص٣٢١.

وقال ﷺ: إن هلاك أمتي أو فساد أمتي رؤوس أمراء أغيلمة سفهاء من قريش[1].

وعن كعب بن عجرة مرفوعاً: سيكون أمراء يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم ومن أعانهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه، ولا يرد عليّ الحوض يوم القيامة، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، ويرد عليّ الحوض يوم القيامة[2]:

وقال ﷺ: «سيكون عليكم أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة حتى يؤخروها فصلوها لوقتها»[3].

وعن عوف بن مالك عنه ﷺ أنه قال: إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي: أولها ملامة وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة، إلا من عدل وكيف يعدل مع قريبه[4].

وعن بشر بن عاصم عنه ﷺ: «من ولي شيئاً من أمر المسلمين أُتي به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسناً نجا، وإن كان مسيئاً انخرق به الجسر فهوى به سبعين خريفاً»، رواه الطبراني.

وعن أبي ذر مثله، وعن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رفيق، وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق[5]. أخرجه الترمذي والطبراني في الأوسط.

وعن أنس عنه ﷺ «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلحوا عليه فيقال له: سد ركناً من أركان جهنم»، رواه البزار.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل». رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح، ومثله عن سعد بن عبادة. وعن أبي هريرة بزيادة (وإن كان مسيئاً زيد غِلاً إلى غِلّه) رواه البزار والطبراني.

---

(١) مسند أحمد ج٢ ص٢٥٥.
(٢) تأريخ الخطيب ص٣٦٢ وجامع بيان العلم، وتيسير الوصول.
(٣) مسند أحمد ج٥ ص٣١٥.
(٤) الترغيب والترهيب ج٣ ص١٣٢.
(٥) الخرق بالضم: الجهل والحمق، ومنه الحديث: الرفق يمن والخرق شؤم.

وعن عمر بن الخطاب أن النبي (ص) قال: «ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم، خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم وتدعون لهم ويدعون لكم وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» أخرجه الترمذي.

وعن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: من ولي من أمور المسلمين شيئاً فغشهم فهو في النار.

وقد وضعوا الكثير في فضائل معاوية من الأحاديث المكذوبة والأقوال الشاذة التي يتبرأ منها الإسلام فأنكر المسلمون ذلك، ولكن أنى يجدي الإنكار في وقت ألجمت فيه الأفواه، وكبتت المشاعر، وحكم على أهل الصدق منهم بالتنكيل الشديد، والطرد والتبعيد، وقد حقق الحفاظ تلك الأكاذيب وأظهروا حقائقها، ونصوا على وضعها، وإليك بعضاً منها:

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة؛ فطلع معاوية، ثم قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية، ثم قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية[1].

وعن هشام بن عروة عن عائشة في حديث طويل فيه أن النبي دعا لمعاوية فقال: اللهم اهده بالهدى وجنبه الردى، واغفر له في الآخرة والأولى. إلى غير ذلك من الأكاذيب والموضوعات التي يتحرج القلم عن ذكرها، وقد وضع جزءاً من تلك الأكاذيب في فضل معاوية بعض المشهورين بالكذب، وهو محمد بن عبد الواحد وأمره مشهور في ذلك[2].

وألف الهيتمي كتاباً في فضل معاوية وما أبعده عن الفضائل، ولا يسع الوقت لمناقشته[3] بعد أن كفانا ذلك حفاظ الحديث ورجال العلم[4]. ولم يكتفوا بالأكاذيب على رسول الله بوضع الأحاديث حتى جرتهم أطماعهم وساقتهم جرأتهم على الله

---

(١) الحلية ج١٠ ص٢٩٣.

(٢) انظر الخطيب ج٢ ص٣٥٧.

(٣) انظر الغدير ج١٠ و١١ فهناك تعرف معاوية، فقد أبرز صورته البحاثة الأميني في اطار الواقع، وهنا تعرف تلك الأحاديث وقيمتها، فقد ناقشها من الطرق العلمية بما لا مجال إلى إنكاره.

(٤) في كتاب لسان الميزان، والفوائد المجموعة.

وعلى رسوله بوضع الأحاديث في مدح عاصمة ملكهم ومقر دولتهم. ولا نود إطالة الحديث في المحاولات الفاشلة في تبرير أعمال الأمويين وإسناد الثورة عليهم لا من جهة حكمهم بل من جهة العنصرية فحسب.

عظات وعبر:

وعلى أي حال فقد بيّنا أن الثورة بصورتها العامة إنما هي ضد الحكم الأموي، وقد كانت هذه الثورات عنيفة، تعبر بعمق وأصالة عن استنكار المسلمين تلك المعاملة القاسية التي عاملوا بها الأمة، واتخاذهم تلك الإجراءات ضد أهل البيت وهم يحسبون أنهم يحسنون لأنفسهم صنعاً، ويأملون من ورائها تخليد سلطانهم مع الزمن، ولم يلتفتوا إلى حراجة الموقف وسوء العاقبة حيث إن الخلافة الإسلامية تدور عليها سعادة الأمة وقوة الإسلام، وقد عظم على المسلمين أن تتحول من أوج العظمة إلى حضيض الاستهتار، وأصبحت الأوضاع مقلوبة فوليها بعد الخلافة الراشدة من لا عهد له بالدين، ولا معرفة له بالهدى، وهم أولي غلظة لا ينفذ إلى قلوبهم شعاع الرحمة، فلا يسمعون لمتظلم شكوى، ولا يدفعون عن الأمة ما يسوؤها من تلك المعاملات القاسية.

فكانت عاقبة أمرهم أن مزقوا كل ممزق، وخرج بقية السلف منهم من رجال ونساء هائمين على وجوههم خوفاً على أنفسهم وطلباً للنجاة، ولجأوا لبلاد النوبة، فأخرجهم عظيمها، فكانوا عرضة للخطر، حتى صاروا إلى بجاوة فقاتلهم عظيمها، وانصرفوا يريدون اليمن، ومروا في البلاد هائمين.

وكان عبيد الله وعبد الله ولدا مروان الحمار آخر ملوك الأمويين هما قادة تلك الفرقة الهائمة، فعرض لهما طريقان بينهما جبل، فأخذ كل واحد منهما في طريق، وهما يريان أنهما يلتقيان بعد ساعة، فسارا يومهما ذلك، ثم راما الرجوع فلم يقدرا وسارا أياماً، ثم لقي عبد الله منسراً من مناسر الحبشة فقاتلهم فزرقه رجل منهم بمزراق فقتل عبد الله واستأسر أصحابه، فأخذت الحبشة كل ما معهم وتركوهم، فمروا في البراري عراة حفاة حتى أهلكهم العطش، فكان الرجل يبول في يده ويشربه حتى لحقوا عبيد الله بن مروان وقد ناله من العري والشدة أكثر مما نالهم، ومعه عدة من حرمه عراة حفاة، قد تقطعت أقدامهم من المشي، وشربوا البول حتى تقطعت

شفاههم، ووافوا المندب فأقاموا بها شهراً، وجمع الناس لهم شيئاً ثم خرجوا يريدون مكة في زي الحمالين[1]. ولما سبيت نساء مروان ومررن على منازله رفعن أصواتهن بالبكاء. وهذا من أعظم العظات والعبر.

ويروى أن عامر بن صالح الخراساني صاحب مقدمة صالح بن علي عم السفاح لما قتل مروان الجعدي آخر ملوك بني أمية دخل دار مروان وجلس على سريره ودعا بعشائه، وجعل رأس مروان في حجر ابنته، وأقبل يوبخها فقالت له: يا عامر إن دهراً أنزل مروان وأقعدك على سريره حتى تعشيت عشاءه، لقد أبلغ في موعظتك، وعمل في إيقاظك وتنبيهك. إن عقلت وفكرت، ثم قالت: يا أبتاه ويا أمير المؤمنيناه، فأخذ عامر الرعب، ولما بلغ السفاح ذلك كتب إليه يوبخه[2].

وكان عبيد الله بن مروان ولي العهد قد ظفر به المنصور وأودع في السجن، وأخرجه المنصور يوماً من سجنه وكان مقيداً بقيد ثقيل، فقال له المنصور: بلغني أن لك قصة عجيبة مع ملك النوبة فما هي؟ فقال: يا أمير المؤمنين والذي أكرمك بالخلافة ما أقدر على النفس من ثقل الحديد، ولقد صدأ قيدي من رشاش البول، وأصب عليه الماء في أوقات الصلاة، ثم قص عليه القصة وأعاده إلى السجن، وأودع فيه إلى أيام الرشيد فهلك[3].

ولما دخل عبد الله بن علي دمشق أمر بنبش قبور بني أمية، فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد، وأخرج جسد هشام بن عبد الملك فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الهواء[4].

وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية وأمر بهم فجروا بأرجلهم وألقوا في الطريق فأكلتهم الكلاب، واختفى كثير منهم كعمر بن معاوية بن عمر بن سفيان بن عتبة فضاقت عليه الأرض، والتجأ إلى سليمان بن علي متخفياً، ووقف

---

(١) اليعقوبي ج٣ ص٨٤ ـ ٨٥ وابن عبد ربه ج٣ ص١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) الشذرات ج١ ص١٨٤.
(٣) الشذرات ج١ ص١٨٦.
(٤) الكامل ج٥ ص٢٠٥.

على رأسه، فقال: لفظتني البلاد إليك، ودلني فضلك عليك. فإما قتلتني فاسترحت، وإما رددتني سالماً فأمنت. فقال: ومن أنت؟ فعرفه نفسه. فقال: مرحباً بك ما حاجتك؟ فقال: إن الحرم اللواتي أنت أولى الناس بهن وأقربهم إليهن قد خفن لخوفنا، ومن أخاف خيف عليه، فقال: حقن الله دمك ووفر مالك، وكتب بذلك إلى السفاح فأمنه[1].

قيام الدولة العباسية:

وطويت صفحة الدولة الأموية بقتل مروان الجعدي[2]، وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، بويع له بالخلافة سنة ١٢٦هـ وقتل يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ. وفي هذه السنة قامت الدولة العباسية.

وتوقع الناس في العهد الجديد عهداً سعيداً وانتقالاً مباركاً، ونتيجة صالحة بعد خوض غمرات الحروب، ومشاهدة المحن والتضحية في سبيل تحقيق تلك الأمنية، وهي إقامة دولة عادلة تحكم بكتاب الله وسنة نبيه، التي لم يظفر بها المسلمون في العهد الأموي إلا ببعضها في أيام عمر بن عبد العزيز.

فتطلعوا فجر ذلك العهد الميمون، وشخصوا بأبصارهم إلى معرفة المتربع على دست الحكم، وهو (الرضا من آل محمد) وأصبح المجتمع يزخر بآمال عظيمة، لأنهم أعدل الناس في الحكم، وأعلمهم بالدين، فانكشف الأمر بظهور بني العباس واختصاصهم بمنصب الخلافة، بعد أن خابت آمال بعض زعماء الثورة وقواد الجيش بإسناد الحكم لآل علي، وفي طليعتهم جعفر بن محمد وقد رفض ذلك الطلب كما سيأتي بيانه.

ولم يكن العباسيون ليتجرأوا على الإفصاح عن نواياهم وأغراضهم وهم ينضمون إلى جموع الناقمين ومسيرة الثورة وأبقوا على ما في نفوسهم وهم يتمسكون في السر بشمول شعار (الرضا من آل محمد) لعائلتهم، ولم يخطر ذلك ببال الثوار وظل العباسيون يضمرون نواياهم.

---

(١) الكامل ج٥ ص٢٠٦.

(٢) نسبة إلى الجعد بن درهم وكان مؤدبه وهو من زنادقة أهل الشام.

والدعوة لم تكن للعباسيين، ولم تكن دولتهم هي المتوقعة، بل هي إلى الرضا من آل محمد فحسب، وهم دعاة هذه النهضة انتصاراً للعلويين وطلباً بدمائهم الزكية، وبذلك استطاعوا أن ينظموا حزبهم ويجمعوا أنصارهم، وهم ينضمون إلى جانب العلويين في جميع الدور الأموي، ويخفون ما أبدته الأيام وأظهره الزمن عندما حان الوقت لاقتطاف ثمار تلك الأتعاب، إذاً لا بد أن يستنكر الناس هذا الأمر، ويؤاخذونهم بهذا الاختصاص.

وشعر العباسيون بتحسس الناس، كما شعروا بعدم ثقة أكثر العرب بدولتهم فلا يستطيعون أن يشيدوا كيان دولتهم على أكتافهم، فرأوا من الضرورة تقوية الجيش والاعتماد على القوة بالأكثرية الساحقة، فاختصوا بالخراسانيين من بين عناصر الدولة، وأطلقوا عليهم اسم الشيعة والأنصار، لأنهم عرفوا نفسياتهم من قبل، فجعلوا بلادهم مهداً للدعوة، ومحلاً لبذر تلك الفكرة كما جاء في وصية إبراهيم الإمام، فأظهروا العطف على أبناء عمهم في دورهم الجديد واهتمامهم بتتبع قتلة الحسين، إظهاراً لنصرة آل محمد وإقناعاً للرأي العام.

ولما دخلت نساء مروان الحمار على صالح بن علي تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت: يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحب، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك، فليسعنا من عفوك ما وسعك من جورنا، قال: والله لا أستبقي منكن أحداً. . . إلى أن قال لها: ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين وأهل بيته؟ ألم يخرج إليه بحرم رسول الله سبايا فأوقفهن موقف السبي؟ ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه؟ فما الذي يحملني على الاستبقاء عليكن؟ قالت: فليسعنا عفوك[1].

ولما قتل مروان وجيء برأسه إلى السفاح، فلما رآه سجد ورفع رأسه فقال: الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرني بك، ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك أعداء الدين، وتمثل بقول الشاعر:

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ... ولا دماؤهم للغيظ ترويني[2]

حتى عرف الناس منهم ذلك، وأنشد الشعراء في تلك الغاية التي كانت تقوم بها

---

(١) الكامل ج٥ ص٢٠٤.

(٢) الكامل ج٥ ص٢٠٣.

الدولة في دورها الجديد عندما قتل السفاح بقية الأمويين، ثم أمر بإلقائهم في الصحراء في الأنبار فجروا بأرجلهم، وعليهم سراويلات الوشي فوقف عليهم سديف وأنشد:

طمعت أمية أن سيرضى هاشم عنها ويذهب زيدها وحسينها
كلا ورب محمد وإلهه حتى يبيد كفورها وخؤونها[1]

إلى غير ذلك من الأمور التي اتخذوها في تهدئة الرأي العام، وقام السفاح بالأمر وأظهر في خطبته الافتتاحية ما تميل إليه النفوس من المواعيد من إعادة العدل والمساواة والعمل بكتاب الله وسنة نبيه، بقوله:

أيها الناس لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله وذمة العباس علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ[2] ثم ذكر أعمال بني أمية وما ارتكبوه في الأمة.

فأخذ الناس بنود هذه الخطبة بعين الاعتبار، وتوقعوا تحقيق تلك الوعود، ولكنها كانت وهماً من الأوهام وأقوال حملتها الريح.

افتتحت صحيفة الدولة العباسية مصبوغة بالدم القاني، وورثوا سلطان الأمويين بعد ذلك الانقلاب، وكانت الأسباب التي أدت إلى فوزهم بالخلافة بعضها أمور غير متوقعة، وبعضها ساعدهم الحظ فيها، فكان نصيبهم النجاح. وأهم تلك الأسباب التي اعتمدوا عليها هي الانتصار لآل محمد من بني أمية، لأنهم اضطهدوا آل رسول الله فكانت هذه المشكلة من أعظم المشاكل التي تقف أمامهم في سبيل توطيد ملكهم وامتداد سلطانهم، لأنهم يعرفون العلويين ونفسياتهم ومنزلتهم في المجتمع الإسلامي، لذلك كان أهم شيء عندهم هو أمر العلويين، والوقوف أمام نفوذهم، فاتخذوا تلك الطرق في إقناع الناس وأظهروا لهم الحب المصطنع والعطف الذي ينطوي من ورائه غيض يحرق القلوب، فكانت أيام السفاح وشطراً من خلافة المنصور على تلك السياسة الهادئة ريثما يتم لهم النفوذ وتحكم أسس الدولة.

ولما آن وقت إظهار ما كانوا يكتمونه، نفذوا تلك الخطط الانتقامية من آل

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص٢٠٧.

(٢) الكامل ج٥ ص١٩٧.

علي، فلم يدخر المنصور ـ بعد أن عظمت شوكته وامتد سلطانه ـ وسعاً لسحق العلويين وحزبهم، لأنه يرى أن في بقائهم تحطيم نفوذه وتمزيق ملكه الذي ناله باسمهم بعد املاق وبؤس واضطهاد وعذاب، فهو يتوقع في كل آونة قيام ثورة دموية يترأسها علوي يحوط به عدد كثير من الأمة، فتوجه بكل ما في وسعه من جد وحزم، وأنالهم شر أنواع العذاب، وصب عليهم كؤوس غضبه وعاملهم بقسوة وشدة، حتى قال أحد مخضرمي الدولتين شعراً:

يا ليت جور بني مروان دام لنا ... وليت عدل بني العباس في النار

مواقف الإمام الصادق

مواقف الإمام في الحكم الأموي:

قضى الإمام الصادق عليه السلام خمسين عاماً من عمره في العهد الأموي، أي من سنة ٨٣هـ إلى سنة ١٣٣هـ وهي السنة التي زال فيها سلطان الأمويين وقام على أنقاضه سلطان بني العباس.

ولقد شاهد الأمويين في أيام عظمة سلطانهم، وقوة نفوذهم، ورأى تلك المعاملة القاسية التي عومل بها رجال الأمة، وعايش تلك الفجائع التي حلت بالمسلمين، من جراء التحكم والاستبداد من دون وازع ديني أو خوف عقاب أخروي.

فكان يطرق سمعه بين آونة وأخرى قتل جماعة ممن عرفوا بالولاء لآل محمد ﷺ ومطاردة آخرين، وتهبط عليه أنباء الفجيعة بزعماء أهل بيته، الذين أراق الأمويون دماءهم من غير أن تراعى فيهم حرمة لرسول الله ﷺ فقد قتل زيد بن عليّ بالكوفة سنة ١٢٢هـ وصلب جسده عارياً منكوساً وأجساد خواصه معه خمس سنوات، ثم أحرق ونُسف في اليم.

ثم أردفوه بولده يحيى بن زيد، كما شاهد نصب عينيه ما كابده جده الإمام زين العابدين من جور الأمويين حتى قضى بالسم على أيديهم، وكذلك أبوه الإمام الباقر.

وشاهد ولاة المدينة يجمعون العلويين قريباً من المنبر ليسمعوهم شتم عليّ وتنقيصه.

وكانت تؤلمه أنباء جور الولاة وعسفهم بالحكم، وما يوقعونه في الأمة الإسلامية. وإذا رجع إلى ذلك الماضي المحزن وما يبلغه من حديث تلك الحوادث المؤلمة كواقعة الطف التي هي نصب عينيه كأنه قد شاهدها، وكان يعقد المجالس

فينشده الشعراء رثاء جده الحسين فيها فيبكي، فهي تمثل له في كل آونة. فيتوجع لها قلبه، ولكنه يركن إلى الصبر.

وكذلك حديث يوم الحرة وحديثها شجون، فلا تزال آثار تلك الفاجعة باقية وإن طال العهد، وشاهد أولئك الحكام الذين يحكمون باسم الخلافة الإسلامية وما هم منها بشيء، فلا عدل في حكم، ولا مساواة في حق، ولا نظام يضم للناس حرياتهم، والأمور إلى الفوضى أقرب منها إلى النظام.

عاش الإمام عليه السلام وسط ذلك الجو المضطرب بالفوضى والعبث والفساد والتلاعب بمقدرات الأمة، وهو عليه السلام يحس بآلام الناس أكثر من غيره، فماذا يصنع وقد طوقه الأمويون برقابة شديدة، وضربوا حوله دائرة ضيقة ليحصروا نفوذه فيها.

ورغم ذلك كله راح عليه السلام يؤدي رسالته ليعالج إصلاح الوضع من طريق الهداية والإرشاد ونشر تعاليم الإسلام، وإفهام الناس تلك النظم التي أهملها حكام عصره وجعلوها وراء ظهورهم، وحكموا بلغة السيف وساسوا الأمة بالإرهاب والقسوة.

ولم يستجب عليه السلام للدعوات التي تتوالى عليه ـ عندما أعلنت الثورة على الأمويين ـ ليقود الثورة ويتقدم الركب، لأنه على علم من نتائج تلك الحركات وهو أعرف بنفسيات زعماء الثورة وقادة الجيوش، وهم إن ادعوا الولاء لآل محمد والانتصار لهم، وطلب البيعة إلى الرضا منهم، ولكن هناك غايات في نفوس القوم لا تتحقق إلا بهذه الادعاءات، فرفض عليه السلام تلك الطلبات الموجهة إليه لعلمه بما وراء الأكمة من الخطر.

ولقد ابتعد عليه السلام عن ذلك المعترك وبذل لأبناء عمه النصح بأن لا يزجوا أنفهسم في ذلك الصراع، وحذرهم عاقبة الأمر التي لا تعود عليهم إلا بالخيبة ولا يتحقق لهم هدف ما دام الوقت لم يأت، والدخول في أمر قبل أن يستحكم مفسدة له، وإن إعلان الثورة في ذلك الوقت لا يجدي نفعاً بل يؤدي إلى مزيد من التضحيات واتساع شقة الخلاف والفرقة، وهو يعرف نوايا العباسيين وما يطلبونه من وراء انضمامهم إلى جانب العلويين.

موقف الإمام في دعوة الخلال لبيعته:

ولما سبر أبو سلمة الخلال أحوال بني العباس وعرف نواياهم عزم على العدول عنهم إلى بني علي، فكاتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، وعبد الله المحض، وعمرو الأشرف، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له: اقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين وإن لم يجب فالق عبد الله المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو، وإن لم يجب فالق عمرو.

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً، ودفع إليه كتاب أبي سلمة فقال عليه السلام:

ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري، فقال له الرسول: اقرأ الكتاب فقال الصادق لخادمه: أدن السراج، فأدناه، فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول: ألا تجيبه؟ قال: قد رأيت الجواب.

ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض، ودفع إليه الكتاب، فقرأه وقبله وركب في الحال إلى الصادق عليه السلام وقال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة، قد وصل إليّ على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان.

فقال الصادق: ومتى صار أهل خراسان شيعتك؟ أأنت وجهت إليه أبا مسلم؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟!!

فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء.

فقال الصادق: قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أدخره عنك! فلا تمنّ نفسك، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء[1] ـ يعني بني العباس.

ودخل عليه سدير الصيرفي فقال: يا أبا عبد الله ما يسعك القعود.

فقال: ولِمَ يا سدير؟ قال: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك.

فقال: يا سدير وكم عسى أن يكونوا؟ قال: مائة ألف. قال: مائة ألف؟ قال:

---

(١) الآداب السلطانية ص١١١ لابن الطقطقي.

نعم، ومائتي ألف. فكان الجواب من الإمام بما حاصله عدم الركون لهذه الكثرة لقلة المخلصين منهم وعلمه بالعواقب(١).

إخباره بصيرورة الأمر لبني العباس:

ولما بايع الهاشميون محمد بن عبد الله بن الحسن قال لهم الإمام الصادق: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد، وضرب بيده على ظهر أبي العباس السفاح، ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن وقال: والله إنها ما هي إليك ـ أي الخلافة ـ ولا إلى ابنيك، ولكنها لهم ـ أي لبني العباس ـ وإن ولديك لمقتولان. ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال: أرأيت صاحب الرداء الأصفر؟ ـ يعني المنصور ـ قال: نعم. قال: فإنا والله نجده يقتله. فقال عبد العزيز: أيقتل محمداً؟. قال: نعم، قال: فقلت في نفسي حسده ورب الكعبة. قال عبد العزيز: فوالله ما خرجت من الدنيا حتى رأيت المنصور قتلهما(٢).

ولا زال الإمام الصادق يخبر بصيرورة الأمر لغير آل محمد، ولا زال يقول: إنه صائر لبني العباس.

روى علي بن عمرو عن ابن داحة أن جعفر بن محمد قال لعبد الله بن الحسن ـ وكان السفاح والمنصور معهما ـ: إن هذا الأمر والله ليس إليك ولا إلى ابنيك وإنما هو لهذا ـ يعني السفاح ـ ثم لهذا ـ يعني المنصور ـ ثم لولده من بعده لا يزال فيهم حتى يؤمّروا الصبيان ويشاوروا النساء، وإن هذا ـ يعني المنصور ـ يقتله على أحجار الزيت(٣) ثم يقتل أخاه بعده، ثم قام مغضباً يجر رداءه فتبعه المنصور.

فقال: أتدري ما قلت يا أبا عبد الله؟ قال: أي والله أدريه وإنه لكائن.

وعلى أي حال فإن الإمام الصادق عليه السلام قد مرت عليه أخطار هائلة وفجائع مؤلمة وقد تلقاها بقلب مؤمن بالله ملتجئاً إليه سبحانه وتعالى في جميع أموره مخلصاً

---

(١) أصول الكافي ج٢ ص٢٤٣.

(٢) انظر مقاتل الطالبيين ص١١٧، والطبري ج٩ ص٢٣٣ ط١.

(٣) أحجار الزيت موضع بالمدينة المشرفة وهو خارجها، استشهد به محمد بن عبد الله بن الحسن سنة ١٤٥هـ وقتل أخوه إبراهيم بالعراق لخمس ليال بقين من ذي العقدة منها وكان عمره ٤٨ سنة.

له في دعوته لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يقعد به عن أداء رسالته خوف ظالم، وقد خاض غمار تلك الأخطار بثبات قلب ورأي سديد وحكمة بالغة.

وقد اختط لنفسه طريقاً سار فيه إلى الدعوة وتأدية الرسالة، وأمر أصحابه بالثبات والعمل بما يدعون إليه من تطبيق نظام الإسلام، وأمرهم بالدعوة الصامتة وقد عرف حاجة المجتمع إلى الألفة، وإزالة رواسب الخلافات وحمل الناس على تطبيق مبادىء الإسلام ليوجد من المجمع الإسلامي قوة متكاتفة تصرخ في وجوه الظلمة، وتحملهم على الاعتدال في السيرة والعدل في الحكم، والمساواة في الرعية، وسيأتي مزيد بيان لهذا الموضوع كما تقدمت الإشارة إليه في الجزء الأول.

موقفه من الحركات الفكرية:

هذا من ناحية الموقف السياسي. أما ما يتصل بالحياة الاجتماعية والعقائد الدينية فكان الأمر أدهى وأمر، فقد صحبت تلك العاصفة السياسية تيارات فكرية جارفة، وهزات إلحادية قوية، وتطور غريب في النزعات والاتجاهات أقلق بال حماة الشريعة والذائدين عن حوضها، وحدثت عصبيات جاهلية ذميمة، وقد نهض الإمام الصادق لمقارعة أهل الباطل، وباحث الفلاسفة والدهريين، وأهل الكلام الجدليين، الذين تصدوا لإفساد معتقدات الناس فأبطل بنور حكمته مقالاتهم الفاسدة وسفسطتهم الفارغة[1]، فنبههم عن غفلتهم وأيقظهم من رقدتهم، وأوضح لهم اعوجاج مذاهبهم والتواء سبلهم، ودعاهم إلى كلمة الحق، وجادلهم بالتي هي أحسن، وناقشهم بالبرهان الساطع وقد احتفظ التاريخ بكثير من تلك المناظرات، كمناظرته في التوحيد مع الزنديق الذي قدم من مصر، واسمه عبد الملك ليناظر الإمام فناظره حتى آمن قلبه، واطمأنت نفسه بعد الزيغ والارتياب، وطلب من الإمام تعليمه وإرشاده وقال: اجعلني من تلاميذك، فقال الصادق لهشام: خذه إليك فعلمه[2].

وجاء إليه زنديق آخر وسأله عن أشياء منها أنه قال له: كيف يُعبد الله ولم يُر؟ فقال أبو عبد الله: رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان،

(١) الرسالة الأولى في الإمام الصادق للأستاذ توفيق الفكيكي المحامي.

(٢) الصادق للمظفر ج١ ص٢١٢.

وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف من عظمته دون رؤيته. إلى آخر المناظرة[1].

وكان الجعد بن درهم من الزنادقة يضل الناس ويغويهم وقد جعل في قارورة تراباً وماءً فاستحال دوداً وهواماً فقال: أنا خلقت هذا، لأني كنت سبب كونه.

فبلغ ذلك جعفر بن محمد عليه السلام فقال: ليقل كم هو ـ وكم الذكر والاناث إن كان خلقه وليأمر الذي يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره. قال ابن حجر: فبلغه ذلك فرجع[2].

وله مناظرات مع عبد الكريم بن أبي العوجاء[3] وأصحابه وغيرهم من الزنادقة، فكان جوابه الفصل والحكم العدل، وستأتي الإشارة إلى تلك المناظرات في باب احتجاجاته.

موقفه من حركة الغلاة:

وإن من أعظم المشاكل على الإمام الصادق وأهمها عنده هي حركة الغلاة الهدامة الذين تطلعت رؤوسهم في تلك العاصفة الهوجاء إلى بث روح التفرقة بين المسلمين، وترعرعت بنات أفكارهم في ذلك العصر ليقوموا بمهمة الانتصار لمبادئهم وأديانهم التي قضى عليها الإسلام، فقد اغتنموا الفرصة في بث تلك الآراء الفاسدة في المجتمع الإسلامي، فكانوا يبثون الأحاديث الكاذبة ويسندونها إلى حملة العلم من آل محمد ليلبسوا مبدأهم الصحيح ثوباً لا يليق به، ويسندوا إليه ما ليس منه، فكان المغيرة بن سعيد[4] يدعي الاتصال بأبي جعفر الباقر ويروي عنه الأحاديث المكذوبة، فأعلن الإمام الصادق كذبه والبراءة منه، وأعطى لأصحابه قاعدة في الأحاديث التي تروى عنه فقال: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون معه

---

(١) انظر احتجاج الطبرسي والبحار ج٤ والكافي في احتجاجات الصادق.

(٢) لسان الميزان ج٢ ص١٠٥.

(٣) عبد الكريم بن أبي العوجاء هو خال معن بن زائدة قتل على الزندقة سنة ١٦١هـ. ولما أخذ لتضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام.

(٤) المغيرة بن سعيد مولى بجيلة كذاب قال ابن عدي: لم يكن بالكوفة ألعن من المغيرة بن سعيد كان يكذب على أهل البيت. قتله خالد القسري سنة ١١٩هـ مع عدد من أصحابه.

شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وآله.

وقال عليه السلام: «لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن يهودية كان يختلف إليها... الخ».

فكان عليه السلام يهتم أشد الاهتمام بأمر الغلاة، لأن بعضهم ادعى أن جعفر بن محمد إله ـ تعالى الله عن قوله ـ فعظم ذلك على الإمام جعفر بن محمد وحاول أن يقدر عليه فلم يقدر، فأعلن لعنه والبراءة منه، وجمع أصحابه وأعلمهم بذلك وكتب إلى جميع البلدان بكفره ولعنه والبراءة منه[1].

وقد أعلن عليه السلام براءته من الغلاة ويقول لأصحابه: لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تصافحوهم، ولا توارثوهم. ولما قتلوا بالكوفة قال عليه السلام: لعن الله أبا الخطاب ولعن الله من قُتل معه ولعن الله من دخل قلبه رحمة لهم، وكان يقول: على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وقال لأبي بصير: يا أبا محمد ابرأ ممن يرى أننا أرباب. فقال أبو بصير: أنا بريء إلى الله منه، قال: ابرأ ممن يزعم أننا أنبياء. فقال: أنا بريء منه إلى الله.

وقال عليه السلام: من قال بأننا أنبياء فعليه لعنة الله، ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله.

وله كثير من هذه الأقوال التي أظهرها للملأ في محاربة تلك الفئة الزائغة وحث الناس على مقاومتهم، وكان يقول: ليس لهؤلاء شيء خير من القتل. ولم يكد يعلن عليه السلام على الملأ براءته حتى أحدث ذلك صدعاً في صفوفهم وفرق كلمتهم، وعرف الناس نواياهم وما يقصدون في إظهار تلك العقائد الفاسدة، فمزق الله شملهم وأباد جمعهم، ولم يُبق لهم أثراً في الوجود.

وعلى أي حال فإن عصر الإمام من أهم العصور ففيه من المشاكل ما لم تكن في غيره، ولا يسعنا التفصيل لجميع تلك المشاكل وسيأتي مزيد بيان لتلك الأوضاع

(١) دعائم الإسلام ص٦٢ ـ ٦٣.

كما ستتعرض إلى بعض مناظراته مع أهل الفرق وجميع أهل الأهواء والآراء الفاسدة، وهو يدعوهم بدعوة الحق لاتباعه فكان لكلامه أثر في تفنيد آرائهم وإبطال أقوالهم.

ومهما يكن من أمر فإن مشكلة الغلاة في عصر الإمام الصادق عليه السلام كانت من أهم المشاكل الدينية التي نجمت عنها آثار اجتماعية أصابت تماسك المجتمع وصفاء عقيدته بالاضطراب. وقد واجهها عليه السلام ونبه المسلمين على نوايا أولئك الأفراد الذين قاموا بنشاط معاد للإسلام في تلك الحركات الفكرية في عصر ازدهار العلم وانطلاق الفكر.

وقد أعلن ـ كما تقدم وسيأتي فيما بعد ـ الحرب عليهم وأمر أتباعه بمقاطعتهم والتبري منهم، مما أدى إلى كشف الستار عن نواياهم السيئة، وإظهار مقاصدهم الخبيثة إلى الرأي العام، فوئدت حركاتهم في مهدها، ولم يبق إلا نقل أقوالهم في بطون الكتب.

وسنرى في الأبحاث القادمة كيف ارتكب بعض الكتّاب جناية العمد لهضم الحقيقة، في الابتعاد عن نزاهة البحث بتعصبهم الأعمى عندما راحوا يربطون بين الحاضر والماضي، ويقيمون هياكل وهمية، ويبتدعون أسماء فرق بلا مسميات وينسبونها إلى الشيعة بما لا يتلاءم وواقع الحقيقة والعقل.

وليس من شك بأن تلك التهجمات إنما كانت لأغراض سياسية بحتة وليس للعلم فيها دخل، وهي من وحي التعصب ونسج الخيال، كما أشرنا إليه سابقاً ونتعرض له فيما بعد.

الإمــــام الصــــادق
تلامذته ورواة حديثه

توجيه الأمّة إلى الشعور بالمسؤولية:

كانت المدينة المنورة مأهولة بالصحابة والتابعين، زاخرة برجال الأمة، تنتظم فيها حلقات الفقه، وتكثر عليها الوفود من أطراف البلاد ومختلف الأقطار، ويتخرج منها حفاظ الحديث والفقهاء، لأنها دار هجرة الرسول وموطن الشرع ومبعث النور، وعاصمة الحكم الإسلامي الأول، وهي مهد السنن والمرجع للأمة ومعدن العلم والفقه، ولها المكانة السامية، وفيها أهل بيت النبي وعترته «الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فهم حملة العلم «وأعلام الأنام وحكام الإسلام»[1] «قوم بنور الخلافة يشرقون وبلسان النبوة ينطقون»[2].

وفي هذا البلد الطيب والبيت الطاهر ولد أبو عبد الله الصادق عليه السلام ونشأ في بيت النبوة، ودرج في ربوع الإيمان، ونهض عليه السلام لأداء رسالته في نشر تعاليم الإسلام من دار الهجرة ومهبط الوحي ومعدن الرسالة.

وكانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ثابتة المبدأ متصلة الكفاح، وجد الناس فيها ثروة علمية، وكانوا يحيون فيها حياة فكرية تهذب النفوس وتسمو بالعقول، وترتقي بهم إلى أوج المعرفة والكمال.

وكان غرضه المباشر هو توجيه الناس إلى أسمى درجة من التفكير، وإفهام الأمة نظم الإسلام على الوجه الصحيح، وتطبيقه بين أفراد الأمة من طريق العلم وحرية

(١) الكلمة لسعيد بن المسيب وهو أحد التابعين.

(٢) القول لمسلم بن هلال العبدي.

التفكير، ليعالج مشاكل ذلك المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة، ويدعو الناس من طريق الهداية والإرشاد إلى التمسك بتعاليم الدين، وتطبيق تلك النظم التي أهملها الحكام وجعلوها وراء ظهورهم.

وازدهرت المدينة المنورة في عصر الإمام الصادق، وزخرت بطلاب العلم ووفود الأقطار الإسلامية، وانتظمت فيها حلقات الدرس، وكان بيته كجامعة إسلامية يزدحم فيه رجال العلم وحملة الحديث من مختلف الطبقات، ينتهلون موارد علمه ويقتبسون من ضياء معرفته، وقد اغتنموا تلك الفرصة فازدحموا عليه يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم «فحمل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر ذكره في جميع البلدان»[1].

وازدحم على بابه العلماء واقتبس من مشكاة أنواره الأصفياء، وكان متجهاً إلى العمل بما يرضي الله لا يفتر عن ذكره ولا ينفك عن طاعته.

يحدثنا مالك بن أنس، وهو تلميذ الإمام تردد عليه زماناً طويلاً قبل أن تفصل بينهما عوامل الدولة، وتحول وجهة نظر مالك عن الإمام عندما رفعت من مقامه، وأعلت من شأنه، ووجهت الأنظار إليه طوعاً أو كرهاً رهبة أو رغبة يقول: ولقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير التبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه، وما رأيته يحدّث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة. ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم بما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله[2].

وفي رواية الحافظ النيسابوري: وكان كثير الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله اخضر مرة واصفر أخرى حتى ينكره من يعرفه. ولقد حججت معه فلما استوت به راحلته عند الإحرام انقطع الصوت في حلقه وكاد يخرّ من راحلته.

ولو اطلعنا على أخبار الإمام الصادق ومناظراته لعلمنا حقيقة وواقع ذلك العصر في جانبه الديني وحياته الفكرية فهو عصر شهد تلاقح الأفكار والتقاء الآراء في اطار

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص١٢٠.

(٢) التوسل والوسيلة لابن تيمية ص٥٢.

المجتمع الإسلامي الواسع الذي انضم إليه طوائف من أديان سابقة وشعوب من حضارات أخرى وقد استهوت مناهج هؤلاء وطرقهم عقول بعض المسلمين فتوغلوا في تقليدها وتوسعوا في مجاراتها فكان أن اختل ثبات الرأي وضوابطه المعروفة، وأقحموا أنفسهم في مغاليق ومبهمات عمد الإسلام إلى إيضاحها وبيانها في مسائل التوحيد والإيمان وعموم الأحكام غير أنهم مالوا إلى بهرج اللفظ والصياغة وظنوا أن تغيير وسائل القول وألوان الكلام سيكتب لهم المنزلة السامية والمكانة العليا فكيف وقد تعمدوا ما لا يؤمن نتيجته؟ واتخذوا من المناهج ما يقتضي تكلفاً يبعد عن وضوح المعهود وجلائه.

وهنا برز الإمام الصادق في خضم معترك فكري وديني ولولا خصائص الإمامة ونور النبوة الذي يفيض من منطقه لما تمكن بشر من القيام بتلك المهمات والمسؤوليات الجسام فكان عليه السلام يتصدى للأفكار التي تمس العقيدة وتؤثر في الدين، وكان يتحرى أقوال الآخرين ويناظر أصحاب الدعوات والآراء والكل يلجأ إليه لما اشتهر به من علم، وقد كان عليه السلام في موجات هذا الخضم لا ينسى كيف يصون نفسه من الحكام ويجنب شعيته الأذى وهو يعدّهم إعداداً متميزاً ويوجههم توجيهاً هادفاً.

وقد كان منهم نخبة يلازمونه ويختصون به وقد وكل إليهم الإمام الصادق كثيراً من المهام الاجتماعية وعهد إليهم بأدوار دينية ودفع بهم إلى واقع الأمة وكل منهم لديه ذخيرة من التعاليم والآداب الدينية.

وفي تلك الفترة كانت مدرسته عليه السلام تقوم على قاعدة علمية كبرى تتفرع منها بقية العلوم التي يتلقاها الطلاب، فربط عليه السلام ضروب النشاط العلمي في مجمع مدرسته ومنتداها بالتوحيد والإيمان، وجعل من وجوب المعرفة بالله أصلاً لذلك فكان يملي على أصحابه وطلابه قائلاً: وجدت علم الناس كلهم في أربع. أولها أن تعرف ربك والثاني أن تعرف ما صنع بك والثالث أن تعرف ما أراد منك والرابع أن تعرف ما يخرجك عن دينك.

ولا نريد أن نشير إلى أغلب جوانب الحركة الفكرية في مدرسة الإمام الصادق لأن ذلك سيتوزع على أجزاء الكتاب فنعاود ذكرها وبحثها لكننا نؤكد على بنائها والاهتمام العالي في منهجها وإشراف الإمام الصادق على نشاطها ومباشرة مهماتها

بنفسه وقد أصبح لمنهجها ورجالها شهرة في أرجاء العالم الإسلامي واختلف إليها طلاب العلم على تباين مقاصدهم وكان الإمام يجيب كل من يسأله مراعياً اهتمامات السائل ومقاصده.

عن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرايض وقد جئت لمناظرة أصحابك.

فقال له أبو عبد الله كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله ﷺ ومن عندي بعضه، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: فأنت إذن شريك رسول الله (ص)؟ قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن الله؟ قال لا، قال الصادق عليه السلام: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله ﷺ؟ قال: لا، فالتفت أبو عبد الله إليّ فقال: يا يونس بن يعقوب، هذا قد خصم نفسه. ثم أمر عليه السلام بعضاً من أصحابه ورجال مدرسته بأن يكلموا الرجل[1] فانعقدت مناظرة ستأتي تفاصيلها حسب البحث إن شاء الله.

حثه على التجارة وطلب الرزق:

كان الحلقات التي تعقد في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام هي الصعيد الذي تنطلق عليه تعاليم الإمام وإرشاداته، فكان يزرع الفضيلة في النفوس ويغرس الخير فيها.

وكان حديثه عليه السلام يشمل كل أمور الحياة وجوانبها، فهو يهدف إلى تصفية الغرائز ويرسم طريق الصلاح والهداية ويوضح للناس سبل الخير.

وجعل هدفه الأسمى في توجيه الناس إلى الورع عن محارم الله والخوف منه، والامتثال لأوامره، والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى وجعل يوم الحساب ماثلاً أمام أعينهم، للمحافظة على القيم الروحية، وليرفع من مستوى أخلاقهم. وكان عليه السلام يرمي إلى تشجيع روح العمل والقيام بواجبات المعاش لتكون شخصية المسلم تجمع بين زاد المعاد بالإيمان الخالص وزاد المعاش بالكسب الحلال. وكان يسمي التجارة

(١) الإرشاد ص٢٦٠. الاحتجاج ص١٢٢.

ودخول السوق بالعز، كما يحدثنا المعلى بن خنيس قال: رآني أبو عبد الله وقد تأخرت عن السوق فقال لي: اغدُ إلى عزك. وقال لآخر وقد ترك غدوه إلى السوق: ما لي أراك تركت غدوك إلى عزك؟ قال: جنازة أردت أحضرها. قال: فلا تدع الرواح إلى عزك. وقال لمعاذ بياع الأكسية عندما ترك التجارة: لا تتركها فإن تركها مذهبة للعقل، اسع على عيالك وإياك أن يكونوا هم السعاة عليك. وسأل عن رجل من أصحابه فقال: ما حبسه عن الحج؟ فقيل: ترك التجارة وقلّ شيئه، فاستوى الإمام جالساً وكان متكئاً ثم قال: لا تدعوا التجارة فتهونوا؛ اتجروا بارك الله لكم. وقال معاذ: قلت لأبي عبد الله: إني هممت أن أدع السوق، فقال: إذاً يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء.

فهو بهذه التعاليم القيمة يبعث في نفوس أصحابه إلى طلب المعاش ليوجد منهم ذوي نفوس لا تخضع لذي ثروة، ويصونوا كرامتهم عن الخضوع له والاستغناء عنه، وليكونوا ذوي قدرة على الإنفاق عن سعة لمساعدة ذوي العسرة وأهل الضنك من المؤمنين. ولما كان حب المال يؤدي إلى الانصراف عن قيم الحياة الرفيعة، ويدعو صاحبه إلى العناء والاستغراق في جمعه والانشغال به، نبه على ذلك بقوله: ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن إليها، انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف، وترفع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكسب ما لا بد منه للمؤمن. ثم يحدثهم عن النبي ﷺ بما يرويه عن آبائه في الإجمال بالطلب وعدم الاستغراق في حب المال.

ولما كان الاقتصاد في المعيشة أقوى عامل للتوفير وزيادة الثروة، فلم يهمل هذه الناحية بل نبه عليها بقوله:

«إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنى».

دعوته إلى العمل:

وكان يحث على العمل ويعمل بنفسه ولا يحتقر ذلك، لأن كرامة الإنسان في عمله، فهو عليه السلام قد حث على العمل قولاً وفعلاً. وقد تضافرت الأخبار بأنه كان يعمل بيده ويتجر بماله.

يحدثنا أبو عمر الشيباني، قال: رأيت أبا عبد الله الصادق وبيده مسحاة يعمل

في حائط له والعرق يتصبب، فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك، فقال لي: إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة.

ويقول إسماعيل بن جابر: أتيت أبا عبد الله وإذا هو في حائط له، وبيده مسحاة وهو يفتح بها الماء...

وعن الفضل بن أبي قرة قال: دخلنا على أبي عبد الله في حائط له، وبيده مسحاة يفتح بها الماء وعليه قميص... وكان يقول إني لأعمل في بعض ضياعي، وإن لي من يكفيني ليعلم الله عز وجل أني أطلب الرزق الحلال.

وكان عليه السلام يشجع على العمل ويحث عليه، لأنه يرى أن الكسالة تؤدي إلى الحط من كرامة المرء، وتقذف به في حضيض الهوان. فإن الإسلام يرشد بتعاليمه إلى الجد وطلب المعيشة في الدنيا، كما أرشد إلى العمل وطلب الجزاء في الآخرة.

ولقد وهب الله للإنسان في عقله وجسمه قدرة يطرق بها أبواب الخير في رزقه، فلا يصح له أن يذر اعمال تلك القوة ويسأل الرزق بلسان العاجز الكسلان:

وقد ورد في الحديث: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**».

فالعمل في الإسلام ضمن قواعده المهمة، ولم يرض للمسلم البطالة والكسل، حتى ورد في الحديث «**ملعون ملعون من ألقى كله على الناس، ملعون ملعون من ترك من يعول به**».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما غدوة أحدكم للجهاد في سبيل الله بأعظم من غدوة من يطلب لولده وعياله ما يصلحهم.

وقال عليه السلام: «**الشاخص في طلب الحلال كالمجاهد في سبيل الله**» إلى غير ذلك من أقوال تبيّن شدة الاهتمام بطلب الحلال. فكان الإمام الصادق كثيراً ما يلقي على تلامذته تلك الدروس القيمة ويحثهم على العمل والجد، وينهاهم عن البطالة التي تخمد جذوة الفكر، وتعوّد الجسم على العجز، وتميل به عن الاعتدال، وتسقطه في المجتمع من عين الاعتبار. ولقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا لا سقط من عيني**».

ولذلك قال الإمام الصادق لمعاذ عندما أراد ترك العمل والتجارة: إذاً يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء.

وبعد أن دعاهم عليه السلام إلى العمل قولاً وفعلاً بيّن لهم قواعد مشروعة لما يصح الاكتساب به وما لا يصح، وفصل لهم أهم ما يتعلق بنظام الحياة الاجتماعية من حيث الكسب للمال، وكيفية تملكه وإنفاقه، لأن المال وسيلة فعالة في حياة الإنسان، فلا بد من نظام يكفل بيان ذلك، ونقتصر على بعض ما رواه الحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول: أن سائلاً سأل الأمام عليه السلام كم جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات؟ فقال عليه السلام :

جميع المعايش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات ويكون منها حلال من جهة وحرام من جهة.

فأول هذه الجهات الأربعة: الولاية، ثم التجارة، ثم الصناعات، ثم الإجارة. والفرض من الله تعالى على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال، والعمل بذلك الحلال منها، واجتناب جهات الحرام.

فإحدى الجهتين من الولاية ولاة العدل الذين أمر الله بولايتهم على الناس. والجهة الأخرى ولاية ولاة الجور، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالي العادل: وولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان، فالولاية له والعمل معه، ومعونته وتقويته حلال محلل. وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالي الجائر. وولاية ولاته فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم حرام محرم معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير، لأن كل شيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر، وذلك أن في ولاية الوالي الجائر دروس الحق كله، فلذلك حرم العمل معهم ومعونتهم والكسب معهم إلا بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم والميتة. . . ثم بين عليه السلام بقية المعاملات والمكاسب بما لا يتسع المجال لذكره هنا.

وقول الإمام الصادق من أعظم الأدلة على منهج أهل البيت في اعتزال الجائرين وحث الأمة على الابتعاد عنهم حتى أن المكانة التي يحتلها العمل في حياة المرء وما قام به الإمام عليه السلام من دعوة إلى العمل قيّد حلّها وبيّن جهة الحرام منها إذا كانت مع

الاعتراف بولايتهم والإقرار بشرعيتهم فالعمل على مثل هذه الحال حرام والكسب في ظل الولاية لهم حرام فانظر إلى مثل هذا التوجيه الذي يرمي إلى الحفاظ على روح الشريعة في صورة المجتمع وهيكله ويجعل الجور طارئاً والظلم قصيراً لأن الأمور لا بد أن تعود إلى وضعها.

وكذلك فإن الإمام عليه السلام يعرض الحالات الاجتماعية التي تكثر صورها ويصور حكم الدين فيها لكي يزيح عن الناس غشاوة الجهل ويدفعهم إلى حال من التبصر والمعرفة فهو يقول للوليد بن صبيح عن الثلاثة الذين يُرَدّ دعاؤهم قال: أحدهم له مال فأنفقه في وجهه فيقول يا رب ارزقني فيقول الله عز وجل ألم أرزقك، ورجل يجلس في بيته ويسعى في طلب الرزق ويقول رب ارزقني فيقول الله عز وجل ألم أجعل لك سبيلاً إلى الرزق، ورجل له امرأة تؤذيه فيقول يا رب خلصني منها فيقول الله عز وجل ألم أجعل أمرها بيدك.

ولأصحاب النظريات الحديثة والمدافعين عن الطبقات الكادحة نقول: إن الإمام الصادق كان يصنف أبواب المعاملات بعرض المسائل وأحكامها على تلامذته فعن هشام بن الحكم في الحمّال والأجير أن الإمام الصادق قال لا يجف عرقه حتى تعطيه أجرته.

وعن شعيب قال: تكارينا للإمام الصادق عليه السلام قوماً يعملون له في بستان له وكان أجلهم إلى العصر فلما فرغوا قال عليه السلام يا شعيب اعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم.

دعوته للألفة والأخوة الإسلامية:

وكان يدعو إلى الاحتفاظ بالأخوة الإسلامية، ويدعو إلى الألفة والتقارب، وينهى عن التباغض والتباعد، ويحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق، لأن الحب أقوى عامل لسعادة بني الإنسان، وبالحب ينتظم العالم، وهو القانون الطبيعي لكيان الحياة، ولذلك نجد روح الإسلام مفعمة بالمودة والإخاء والإخلاص والنصيحة. فكتاب الله وسنة رسوله الكريم دعوة خالصة ونداء دائم للأخوة وجمع الكلمة ونبذ الفرقة والاعتصام بالدين. أما الكراهية فإنها تبعث الشقاء وتثير الشحناء، لأن عين الكراهة لا تبصر المحاسن بل تتطلع إلى العيوب، وإن لم تجد فتقلب الحسن قبيحاً،

فلذلك نهى الشارع المقدس عن الأمور التي تثير العداء بين المسلمين، وتخل بتماسكهم وتخلخل أوضاعهم وتخلق الاضطراب والنفرة، وتذهب إلى أبعد حدود القلق، فكان من أسس نظام الدين الإسلامي هي الأخوة، فلذا آخى النبي ﷺ بين أصحابه، وأمر المسلمين بالمؤاخاة. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وجعل النبي ﷺ عنوان الأخوة: أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، فإذا كنت تحب لأخيك الخير أحبه لك، فكانت راحة نفسك من عاملين قويين. وهكذا إذا كثرت الأسباب والدواعي، واتسع ميدان الإخاء، فإذا كان المسلم يحب نفع أخيه كما يحبه لنفسه، فبالطبع إنه لا يأتي منه ضرر، فإذا أمن الإنسان ضرر أبناء جنسه، فتلك هي السعادة، وهل ترى مظهراً للمدنية الصحيحة أجلى من هذا المظهر، فالله سبحانه وتعالى رحمة بعباده جعل الأخوة الإسلامية ليتم لهم نظام الحياة، ويتعاونوا على البر والتقوى، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان.

لذلك كان الإمام الصادق يدعو بتعاليمه إلى الأخوة الإسلامية. ويحث على مساعدة الإخوان وقضاء حوائجهم.

قال صفوان الجمال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أهل مكة يقال له ميمون فشكى إليه تعذر الكراء عليه، فقال لي عليه السلام: قم فأعن أخاك، فقمت معه فيسر الله كراه، فرجعت إلى مجلسي، فقال أبو عبد الله: ما صنعت في حاجة أخيك؟ فقلت: قضاها الله بأبي أنت وأمي، فقال: أما إنك إن تعن أخاك المسلم أحب إليَّ من طواف أسبوع في البيت.

وذلك لأن مساعدة الإخوان توجب المحبة والألفة، وبهما تحصل المنافع العامة. وقد عالج الإسلام مشكلة الحب والكراهة، وهما من أعظم المشاكل الاجتماعية، فإن الحب إذا حصل في المجتمع فلا تجد هناك مشكلة من مشاكل الحياة الاجتماعية. والمحبة تخمد جذوة الرذائل، ومعنى هذا أن رذائل الشخص قلما تصيب من أحبه، ومن ثم قيل: «العدالة خليفة المحبة». قال سقراطيس: لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة، وإن مالت إليه الدنيا، فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير، فالصغير من ظن ذلك.

* * *

ولنا في تعاليم الإمام الصادق وحكمياته ـ التي كان يلقيها على تلك المجموعة الوافرة من الناس في مدرسته ـ كفاية على إيضاح فوائد الحب في الله ومضار الكراهة، فكان ينصح المسلمين ويحذرهم عاقبة التباعد والبغضاء، ولم يقتصر على القول في هدم عوامل الفرقة، بل كان يسعى لذلك من طرق مختلفة، حتى أنه أقام بعض أصحابه وأمرهم أن يصلحوا المتخاصمين على شيء من حطام الدنيا من ماله الخاص.

يحدثنا أبو حنيفة سابق الحاج ـ واسمه سعيد بن بيان ـ قال: مر بنا المفضل بن عمر وأنا وختن لي نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه، فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كل واحد منا من صاحبه، قال: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبا عبد الله الصادق أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وافتديهما من ماله، فهذا مال أبي عبد الله[(١)].

سياسته تجاه الظلم والظالمين:

لقد تسالمت العقول واتفقت آراء العقلاء على قبح الظلم، فهو من أعظم الرذائل، كما أنهم لم يجمعوا على تقدير فضيلة كإجماعهم على تقدير فضيلة العدل الذي هو أصل كل خير، والقلب النابض لجميع الفضائل، ولا يخرج شيء من الفضائل عنه. فهو أسمى هدف يسعى الإسلام لتحقيقه، ويأبى أن تهدمه رذيلة حب السلطة والتغلب.

وكان الإمام الصادق عليه السلام ينهى عن الظلم ويحارب الظالمين، ويأمر بالابتعاد عنهم وعدم التعاون معهم، وأقواله في ذلك كثيرة، فأصبحت نوراً تهتدي به النفوس، ويتردد ذكرها على ألسنة العلماء من أقدم العصور، وجاء ذكرها في أمهات الكتب، فهي نور ساطع في أفق العقلية البشرية، وقد سن قواعد مشروعة لمقاومة الظالمين، وهي خير وسيلة لتقويض كيان الظلم ومحو دعائمه.

وكان أهل البيت يعظمون على الإنسان ارتكاب العدوان على الغير والظلم للناس، فقد جاء عن إمام أهل العدل أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لئن أبيت على

(١) الكافي ج٢ ص٢٠٩.

حسك السعدان مسهداً أو أجر في الأغلال مصفداً أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله ظالماً لبعض عباده، وغاصباً لشيء من الحطام».

ويقول: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة، ما فعلت» إلى غير ذلك من تعاليمه وأحكامه.

وقد قام كل من أهل البيت بما يجب عليه في نصرة العدل ومحاربة الظلم، وقد بذلوا أنفسهم لتحقيق ما دعا إليه الإسلام بما يكفل للأمة السعادة، لذلك كانوا طعمة لسيوف الظالمين؛ لأنهم كانوا حرباً على الظلم، وساروا في سياسة سلبية ازاء الحكام الظالمين، فلم يركنوا إليهم، ولم يتعاونوا معهم امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]؛ وبهذا تحفظ الأمة كرامتها، وتكسب قوة ورفعة، بينما تضع الحكام الظالمين في مأزق يجعلهم في معزل عن الناس وابتعاد عن الرعية، وبذلك تكون الأمة قادرة على إرغام الحكام الظالمين على الاعتدال في السيرة والحكم في العدل.

يحدثنا صفوان الجمال قال: دخلت على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقال لي: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل، خلا شيئاً واحداً.

قلت: جعلت فداك أي شيء؟

قال: كراك جمالك من هذا الرجل ـ يعني هرون ـ.

قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد، ولا للهو، ولكن أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكة ـ، ولا أتولاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

قال: يا صفوان أيقع كراك عليهم؟

قلت: نعم جعلت فداك.

قال: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك؟

قلت: نعم.

قال: فمن أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فهو كمن ورد النار. قال صفوان: فذهبت وبعت جمالي عن آخرها.

وقد قام الإمام الصادق بدوره في عصره فأعلن للملأ أضرار الظلم، لأن كل فساد في الأرض وشق لعصى الطاعة، واضطراب في نظام العمران إنما يعود إلى الجور بين الناس، بل إن كل قحط وجدب وضيق وضنك، وجوع وخوف وبلاء وانتقام إنما هو من ظلم العباد بعضهم بعضاً، لذلك أمر الإمام الصادق بالابتعاد عنهم، كما أبعد عنه المتقرب إليه منهم وحرم الولاية لهم، لأنه يرى: «أن في ولاية الجائر دروس الحق كله، وإحياء الباطل كله، وإظهار الظلم والجور»، كما ورد عنه ذلك، وكان يقول: العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء.

ودخل عليه عذافر فقال عليه السلام: بلغني أنك تعامل أبا أيوب والربيع، فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة؟ ونهى يونس بن يعقوب عن معاونتهم حتى على بناء المساجد.

وسأله رجل من أصحابه عن البناء لهم وكراية النهر، فأجابه عليه السلام: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة أو وكيت لهم وكاء ولا مدة بقلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد».

وجاءه مولى من موالي علي بن الحسين عليه السلام فقال له جعلت فداك لو كلمت داود بن علي أو بعض هؤلاء فأدخل في بعض هذه الولايات.

فقال له عليه السلام ما كنت لأفعل. فانصرف إلى منزله متفكراً، وقال ما أحسبه منعني إلا مخافة أن أظلم أو أجور، والله لآتينه ولأعطينه الطلاق والعتاق والايمان المغلظة أن لا أظلم أحداً ولأعدلن. قال فأتيته فقلت: جعلت فداك إني فكرت في إبائك عليّ، فظننت أنك إنما كرهت ذلك أن أجور أو أظلم، وإن كل امرأة لي طالق وكل مملوك لي حر وعليّ وعليّ.. إن ظلمت أحداً أو جرت عليه ولم أعدل.

فقال عليه السلام: كيف قلت؟ فأعدت عليه الايمان، فرفع رأسه إلى السماء فقال: تناول السماء أيسر عليك من ذلك(١).

وقد وردت عن أهل البيت أحاديث بجواز الولاية إذا كان فيها صيانة العدل وإقامة حدود الله، والإحسان إلى المؤمنين، والسعي في الإصلاح، ومناصرة

---

(١) الجواهر في باب التجارة ص٣٦.

المظلومين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فهناك أحاديث عن الأئمة عليهم السلام توضح النهج الذي ينبغي أن يجري عليه الولاة والموظفون، كما ورد في رسالة الإمام الصادق إلى النجاشي أمير الأهواز(١).

وقوله عليه السلام: «إن لله في أبواب الظلمة من نوّر الله به البرهان، ومكن له في البلاد، فيدفع به عن أوليائه، ويصلح به أمور المسلمين».

وقد أشرنا لنهجه الذي وضعه في سياسته التي سار عليها مدة حياته، وهي السياسة السلبية التي أرادها للأمة، وقد مر تقسيمه للولاية: ولاية عدل، وولاية جور، وسن تلك القاعدة المشروعة في معاملة ولاة الجور في عصره.

يقول أحد رجال القانون(٢) في بيان تلك القاعدة عند تعرضه لرأي الإمام السياسي في عدم المعاونة مع أمراء عصره:

إن الإمام عليه السلام قد سنّ قاعدة مشروعة للسياسة السلبية، وهي ما يسمونها اليوم باللغة السياسية (بالعصيان المدني) أو سياسة عدم التعاون مع حكومة أو دولة لا تحترم الحقوق، أو تسيء التصرف، فتعبث بحرمة قانونية المعاهدات والمواثيق، أو تتحدى قدسية الدساتير، وحقوق الأمة المشروعة، إلى غير ذلك من وسائل الظلم، وذرائع الباطل التي تتوسل بها الحكومات الغاشمة والدول القوية المستعمرة، وحكام الاستبداد والفساد في سبيل الغايات الخبيثة الدنيئة.

فالإمام الصادق عليه السلام قد أوجب على الأفراد عدم التعاون مع ولاتهم الجائرين على اختلاف درجاتهم ومناصبهم من أعلاهم إلى أدناهم، وحرم عليهم العمل لهم والكسب معهم، وحذر وأوعد الفاعل لذلك بالعذاب لارتكابه معصية كبيرة من الكبائر، لأن في بذل المعونة للوالي الجائر إماتة الحق كله وإحياء الباطل كله، وفي تقويته إظهار الظلم والجور والفساد وسحق السنن وطمس الشرائع ـ والعياذ بالله ـ ولا نريد أن نكثر القول في شرف هذه القاعدة للسياسة السلبية وفي فوائد حكمتها، وهذه القاعدة الوحيدة الناجعة لعلل السياسة الفاسدة وأوبائها المهلكة. وليس للأحرار

(١) الوسائل في كتاب التجارة وسننشرها في قسم الوصايا.
(٢) هو المحامي الشهير توفيق الفكيكي في الرسالة الأولى في حياة الصادق ص٢٧.

المصلحين في كل أمة قاعدة أخرى يلجأون إليها في إكراه المستبدين والمستعبدين والمستهترين بحقوق الأمة للخضوع إلى إجابة رغبات الشعب وتحقيقها وتطبيق القوانين وخدمة العدل واحترام الحق، إلا اتباع هذه القاعدة المثالية في السياسة السلبية. ولا يقوى على انتهاج هذه الخطة القويمة إلا أصحاب القلوب العامرة بقوة الإيمان، وأرباب النفوس الملتهبة بحرارة العقيدة الصحيحة الصلبة، وأهل الصبر على تقديم القرابين الغالية من أرواحهم الطاهرة في سبيل حريات الرعية وصيانة حقوقهم من جور الجائرين واعتسافهم. فهل بعد هذا العلاج الشافي من علاج يستعمله الإمام الصادق عليه السلام لمداواة السياسة الأموية والعباسية المريضة في روحها ودماغها؟ ـ اللهم لا ـ حتى إذا وجد المعين والنصير، فكيف إذا لم يكن هذا وذاك!

* * *

والظلم في جميع أنواعه قبيح عقلاً وشرعاً، ولم ينحصر الظلم في الولاية بل هو عام لجميع أنواع المعاملات التي تقع خلاف الحق، وفي ذلك أحاديث كثيرة.

روي عن أبي حمزة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «أما إنه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم، أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم» ثم قال: «من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به».

وقال: **«من أكل من مال أخيه ظلماً ولم يرده إليه، أكل جذوة من النار يوم القيامة»**.

وكان يوصي أصحابه بقوله: إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم فيدعو عليكم فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة وليعن بعضكم بعضاً، فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر، واعتكافه في المسجد الحرام، وقال: من أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً حتى ينزع عن معونته.. إلى غير ذلك من تعاليمه وإرشاداته.

عزة النفس:

هي إكرام المرء نفسه ووضعها في مرتبتها، ورفعة المنزلة من السعادة التي

يجدها الشخص في هذا العالم، وسبب رفعة المنزلة إنما هي الأعمال المختلفة التي يقوم بها المرء تبعاً لما توحيه إليه نفس عزيزة تنزع إلى الرفعة والسمو، فيضع نفسه في موضعها، ويباشر ما يليق بشأنه؛ والتعدي عن ذلك إذلال للنفس، وتعريض بكرامتها. وفي ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام:

لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قيل وكيف يذل نفسه؟ قال: يدخل في شيء يعتذر منه. وقد تقدم حثه لطلب المعاش خوفاً من ذلة النفس واستهانتها، وكان في كثير من تعاليمه التي ينهى بها عن ارتكاب الأمور الحقيرة التي تجعل الإنسان لا يشعر من نفسه بالفضيلة، فالرذائل كلها تذهب بعزة النفس، والفضائل هي الأساس المبتني لعزة النفس.

فالكذب والخيانة والرياء والغش والطمع والميل مع الهوى أمور تذهب بعزة النفس، وتبعد السعادة وتجلب الشقاء، كما أن العفة والقناعة والأمانة والصبر والصدق والوفاء تبعث في النفس عزة وسمواً، وقد أمر الله ورسوله بذلك.

ولسنا بحاجة إلى إقامة الدليل على مضار الجرائم، وأنها تجعل الإنسان ذليلاً، وتهوي به إلى حضيض الهوان، كما أن الفضائل ترفع من قدره ويشعر بعزة نفسه، وقد جاء في نظام الإسلام بيان الأمور التي توجب ذلك، فالسعادة كل السعادة في الامتثال.

فالله سبحانه وتعالى أراد لعباده العزة في جميع تلك الأوامر، والتعاليم الأخلاقية، لذلك كان خلفاء النبي وحملة علمه هم مثال الإنسانية الكاملة، وقد نشروا تلك التعاليم القيمة التي يجب أن يتصف بها المؤمن.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من بريء من الشر نال العز».

ويقول: «المؤمن له قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وحرص في فقه، ونشاط في هدى، وبر في استقامة، وعلم في حلم، وكيس في رفق، وسخاء في حق، وقصد في غنى، وتجمل في فاقة، وعفو في مقدرة، وطاعة في نصيحة، وانتهاء في شهوة، وورع في رغبة، وحرص في جهاد، وصلاة في شغل، وصبر في شدة، في الهزاهز وقور، وفي الرخاء شكور، لا يغتاب ولا يتكبر، ولا يقطع الرحم، وليس

براهن، ولافظ ولا غليظ، ولا يسبقه بصره، ولا يفضحه بطنه، ولا يغلبه فرجه، ولا يحسد الناس، ولا يسرق، ولا يظلم».

ويقول عليه السلام: «إن الله فوض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقين: ٨] فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، إن المؤمن أعز من الجبل، الجبل يُسْتَقل منه[١] بالمعاول، والمؤمن لا يُسْتَقل من دينه شيء».

وكثير من الأخبار والأحاديث الواردة في براءة المؤمن عن ذلة النفس التي هي من نتائج الجبن وخبائث الصفات، وتلزمه المهانة وعدم الاقتحام في معالي الأمور، والمسامحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف والاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا والمخاوف، وأن يتصف بقوة الإرادة في السيطرة على نزعاته وميوله.

قوة الإرادة:

٥ ـ إرادة الإنسان هي المحرك الأول لقوة العمل، وبقوة هذه الإرادة تكافح هذه الغرائز الشاذة، وتصادم الميول المتطرفة، وبقوة الإرادة تبتدىء الفضيلة ويتم التوازن، وقوي الإرادة هو الإنسان العظيم الذي يأتي بالعجائب إذا أحسن توجيه إرادته إلى أعمال الخير ومحاسن الصفات، أما إذا توجه بها إلى أعمال الشر، فإنه يجر على نفسه نقصاً آخر لا يقل خطراً عن ضعف الإرادة، وقد جمع الإمام الصادق قوة الإرادة في كلمته البليغة وهي قوله: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النية»

وقوة الإرادة عنصر سام يقوم عليه كيان الشخص، بل هي نتاج شخصية منظمة أحسن التنظيم، فالرجل ذو الإرادة القوية هو الذي يعرف طرق تحقيق ما يطلبه من الخير له ولأبناء جنسه، محكماً عقله موجهاً قوته بكل إقدام وثبات، وان له مثلاً أعلى ينظم طاقاته.

وقد ورد في تعاليم أهل البيت عليهم السلام ما يدل على مزيد من الاهتمام في تكوين هذه الشخصية القوية الارادة، وإن كلمة الإمام الصادق عليه السلام على قصرها فهي جامعة وافية لبيان قوة الإرادة.

---

(١) الجبل يستقل منه: من القلة، أي ينقص ويؤخذ منه.

وبهذا العرض الموجز نكتفي عن البحث هنا في بقية المواضيع الهامة التي كان الإمام الصادق عليه السلام يهتم بها ويبينها للمجتمع، فقد كان عليه السلام يجهد في توجيه الناس نحو الخير والسعادة واتباع الحق ليخلق مجتمعاً تتمثل فيه تعاليم الإسلام، وتتجسد في سلوك أفراده تلك الآداب والنظم القيمة، وسيأتي فيما بعد بعض جوامع الكلم من أقواله الحكمية التي كان يلقيها في مجالس وعظه وإرشاده ووصاياه لأصحابه.

وليس من الممكن استقصاء كل ما صدر عنه من حكم، وتلقى الناس عنه من مواعظ فإن له من التراث الفكري ما يملأ عدة مجلدات.

ومن المؤسف له أن تلك التعاليم القيمة متفرقة في بطون الكتب، ولو جمعت لكانت أكبر ثروة علمية للمسلمين، لأنه عليه السلام قضى حياته في نشر العلم، وبذل جهده في إرشاد الناس والنصح لجميع أفراد الأمة.

فتعاليمه هي القوانين الأخلاقية الصالحة لكل العصور والجماعات، والكفيلة لرقي الفرد والأسرة، على نحو يرضاه العقل ويطمئن إليه الوجدان لأنها مستقاة من ينبوع الوحي، ومستمدة من التعاليم النبوية.

وعلى أي حال فقد كان الإمام الصادق عليه السلام حريصاً على توجيه الأمة، يحاول تطهير النفوس من الرذيلة وتقويمها من اعوجاج الميول في الغرائز، ليتعاونوا ويصبحوا بنعمة الله إخواناً متحابين متراحمين، لينالوا بذلك السعادة كما قرأنا من تعاليمه وما نقرؤه بعد، فقد كان يؤدب أصحابه بآداب الإسلام، ويحرص على استقامتهم.

مراسلاته:

كانت للإمام الصادق عليه السلام مراسلات إلى مختلف الأقطار تتضمن نصائحه الثمينة يدعوهم إلى سبيل ربه، وكانت تهبط عليه أسئلة من البلدان النائية يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم، ونرى من الخير التعرض لبعضها وإثبات البعض منها بقدر ما يسع المجال ليقف القارىء على صور مختلفة تمثل نواحي العظمة وعظيم حبه للخير.

رسالة لعبد الله النجاشي:

قال عبد الله بن سليمان النوفلي[1]: كنت عند جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فإذا بمولى لعبد الله النجاشي[2] ورد عليه، فسلم وأوصل إليه كتاباً ففضه وقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: أطال الله بقاء سيدي وجعلني من كل سوء فداه، إني بليت بولاية الأهواز، فأرى سيدي أن يحد لي حداً أو يمثل لي مثلاً لأستدل على ما يقربني إلى الله عز وجل وإلى رسوله، إلى أن قال: فعسى أن يخلصني الله بهدايتك ودلالتك، فإنك حجة الله على خلقه، وأمينه في بلاده، ولا زالت نعمته عليك».
فأجابه أبو عبد الله عليه السلام:

«بسم الله الرحمن الرحيم: حاطك الله بصنعه، ولطف بك بمنه، وكلأك برعايته فإنه وليّ ذلك، إلى أن يقول: فإني ملخص لك جميع ما سألت عنه إن أنت عملت به ولم تجاوزه، رجوت أن تسلم إن شاء الله.

أخبرني أبي عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليهم السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبه.

واعلم أني سأشير عليك برأي إن أنت عملت به تخلصت مما أنت متخوفه، واعلم أن خلاصك ونجاتك من حقن الدم وكف الأذى من أولياء الله، والرفق بالرعية، والتأني وحسن المعاشرة، مع لين في غير ضعف وشدة في غير عنف. ومداراة صاحبك ومن يرد عليك من رسله، وارتق فتق رعيتك بأن توافقهم على ما وافق الحق والعدل إن شاء الله.

إياك والسعاة وأهل النمائم فلا يلتزقن منهم بك أحد، ولا يراك الله يوماً وليلة وأنت تقبل منهم صرفاً ولا عدلاً فيسخط الله عليك، ويهتك سترك.

---

(١) عبد الله بن سليمان النوفلي: روى عنه هشام بن يوسف وغيره وخرج له الترمذي في صحيحه.

(٢) عبد الله النجاشي أو ابن النجاشي هو أبو بجير عبد الله بن غنيم الأسدي ولي الأهواز من قبل المنصور وقد اتصل بالإمام الصادق وسأله عن كثير من المسائل وكان الإمام عليه السلام يجيبه، قال النجاشي: إن هذا ـ يعني الإمام الصادق ـ عالم آل محمد، وإن الذي كنت عليه باطل وإن هذا صاحب الأمر.

فأما من تأنس به وتستريح إليه وتلج أمورك إليه، فذلك الرجل الممتحن المستبصر الأمين الموافق لك على دينك.

وإياك أن تعطي درهماً أو تخلع ثوباً أو تحمل على دابة في غير ذات الله لشاعر أو ممزح إلا أعطيت مثله في ذات الله.

ولتكن جوائزك وعطاياك وخلعك للقوّاد والرسل، والأحفاد وأصحاب الرسائل، وأصحاب الشرط والأخماس، وما أردت أن تصرفه في وجوه البر والنجاح والفتوة والصدقة والحج والمشرب والكسوة التي تصلي بها وتصل بها، والهدية التي تهديها إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ من أطيب كسبك.

يا عبد الله أجهد أن لا تكنز ذهباً ولا فضة، فتكون من أهل هذه الآية التي قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

ولا تستصغر من حلوى وفضل طعام تصرفه في بطون خالية ليسكن بها غضب الله تعالى، واعلم أني سمعت من أبي يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام أنه سمع النبي ﷺ يقول يوماً: ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع، فقلنا: هلكنا يا رسول الله، فقال: من فضل طعامكم ومن فضل تمركم ورزقكم، وخلقكم وخرقكم تطفئون بها غضب الرب.

فخرج أمير المؤمنين عليه السلام من الدنيا وليس في عنقه تبعة لأحد حتى لقي الله محموداً غير ملوم ولا مذموم، ثم اقتدت به الأئمة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطخوا بشيء من بوائقها...

يا عبد الله إياك أن تخيف مؤمناً فإن أبي محمداً حدثني عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب عليهم السلام أنه كان يقول: «من نظر إلى مؤمن ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظل إلا ظله، وحشره في صورة الذر لحمه وجسده وجميع أعضائه حتى يورد مورده».

ثم ذكر له عليه السلام الأحاديث المتضمنة لمكارم الأخلاق وطيب الصفات التي يجب أن يسير عليها الوالي، والتي تضمن له النجاة إن عمل بها وسار على الجادة[1].

---

(١) البحار ج١٧ ص٢٦٣، والوسائل في باب الولاية من أبواب التجارة.

وجاء إليه رجل من الأهواز فقال: يا أبا عبد الله إن في ديوان النجاشي عليّ خراجاً فإن رأيت أن تكتب له كتاباً، فكتب إليه هذه الكلمة الموجزة: بسم الله الرحمن الرحيم: سرّ أخاك يسرك الله.

فلما ورد الكتاب على النجاشي امتثل ذلك وأجاز الرجل وأكرمه وأسقط الخراج وقال له: هل سررتك؟ قال: نعم.

رسالته في الصفات:

وكتب إليه عبد الملك بن أعين من العراق يخبره: أن قوماً بالعراق يصفون الله بالصورة وبالتخطيط، فإن رأيت جعلني الله فداك أن تكتب إليّ بالمذهب الصحيح من التوحيد.

فكتب إليه: سألت رحمك الله عن التوحيد وما ذهب إليه من قبلك فتعالى الله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون الله بخلقه المفترون على الله، فاعلم رحمك الله: أن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله جل وعز، فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه، فلا نفي ولا تشبيه، هو الله الثابت الموجود، تعالى الله عما يصفه الواصفون، ولا تعدوا القرآن فتضلوا بعد التبيان(١).

رسالته إلى جماعة من أصحابه:

وكتب إلى جماعة من أصحابه: اتقوا الله وكفوا ألسنتكم إلا من خير، إلى أن قال: وعليكم بالصمت إلا ما ينفعكم الله به في آخرتكم ويأجركم عليه، وأكثروا من التهليل والتقديس، والتسبيح والثناء على الله، والتضرع إليه والرغبة فيما عنده من الخير، الذي لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه أحد، فاشغلوا ألسنتكم بذلك عما نهى الله عنه من أقاويل الباطل التي تعقب أهلها خلوداً في النار من مات عليها ولم يتب إلى الله ولم ينزع عنها.

وكتب إلى جماعة منهم أيضاً نقتطف منها:

أما بعد فسلوا ربكم العافية، وعليكم بالدعة، والوقار والسكينة والتنزه كما تنزه

---

(١) الكافي ج١ ص١٠٠.

الصالحون منكم، إلى أن قال: وعليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم وتكبر عليهم فقد زل عن دين الله، واعلموا أن من حقر أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت، فاتقوا الله في إخوانكم فإن لهم عليكم حقاً أن تحبوهم فإن الله أمر نبيه بحبهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله، ومن عصى الله ورسوله ومات على ذلك مات من الغاوين.

إياكم أن يبغي بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه، وصارت نصرة الله لمن بغى عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله.

إياكم أن يحسد بعضكم بعضاً فإن الكفر أصله الحسد.

إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم يدعو الله عليكم ويستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله ﷺ قال: إن دعوة المظلوم مستجابة.

إياكم أن تشره نفوسكم إلى شيء مما حرم الله عليكم، فإن من انتهك ما حرم الله عليه حال الله بينه وبين الجنة.

وصاياه:

ليس من الغريب أن نرى كثيراً من علماء الأمة يغتنمون فرصة الاتصال بالإمام الصادق ويطلبون منه أن يزودهم بوصاياه التي هي أثمن شيء عندهم، لأنهم يجدون فيها إكمال نقص، وتوجيهاً للخير والسعادة، وقد وجدوا فيه شخصية إسلامية قد طبعت على الخير والبر، فهو يتوخى لهم السعادة ويقيم لهم الحجج الواضحة والبراهين اللائحة، فهو من أهل بيت لا تجهل منزلتهم، ولا تنكر مكانتهم، وهم أولى بتبليغ الأحكام وهداية الأنام، مهما كثرت عوامل المعارضة ووقفت الصعوبات في طريق الوصول إلى الغاية.

والإمام الصادق فريد عصره ووحيد زمانه لا يلحق أثره ولا يبلغ شأوه، فلذلك نرى التفاف الأمة حوله وانتهالهم من تعاليمه، وحرصهم على حصول تلك الوصايا الثمينة والتعاليم القيمة.

هذا سفيان الثوري وهو من علماء الأمة يتردد على الإمام ويطلب منه أن يوصيه بما ينفعه، ثم يستزيده مرة بعد أخرى.

وهذا أبو حنيفة يغتنم الحضور عنده ويصغي لوصاياه عندما قدم إلى المدينة، وكذلك في الكوفة يوم دخلها الإمام الصادق، كما تحدث بذلك كتب مناقب أبي حنيفة وغيرها.

وهذا الإمام مالك يلازم صحبته ويرافقه ويتزود منه وكثير من علماء الأمة كانوا يغتنمون فرصة الحضور عنده ليسمعوا منه وينتفعوا بوصاياه، لأنهم يطلبون الخير لأنفسهم وللأمة.

وقد أكثر سفيان الثوري لذكر تلك الوصايا ونشرها للملأ ولا يستبعد أن يكون ذلك هو السبب في مطاردته من قبل السلطان، بعد أن فشلت في محاولتها لاستمالته حتى مات مغضوباً عليه من قبل ولاة الجور.

وكان حفص بن غياث وهو أحد الأعلام يطلب من الإمام أن يوجهه ويزوده بوصاياه، وقد احتفظ التاريخ بكثير من ذلك. وعلى كل حال فإن وصايا الإمام الصادق كثيرة ونقتصر على القليل منها.

وصيته لحفص بن غياث:

وقد جاء في وصيته لحفص بن غياث[1] قوله: «إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا، وما عليك إن لم يثن الناس عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت عند الله محموداً» إلى أن قال: «إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب ولا تكذب ولا تحسد، ولا ترائي ولا تتصنع، ولا تداهن...»[2].

وصيته لسفيان الثوري:

الوقوف عند كل شبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وترك حديث لم تروه أفضل من روايتك حديثاً لم تحصه، إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فدعوه[3].

---

(1) حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي المتوفى سنة ١٩٤هـ أحد الأعلام روى عن الإمام الصادق خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

(2) الوسائل ج٢ باب الجهاد.

(3) تاريخ اليعقوبي ج٣ ص١١٥.

وقال نصر بن كثير[1]: دخلت أنا وسفيان الثوري على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: إني أريد البيت فعلمني شيئاً أدعو به، فقال: إذا بلغت البيت الحرام فضع يدك على الحائط ثم قل: يا سابق الفوت يا سامع الصوت يا كاسي العظام لحماً بعد الموت ثم ادع بما شئت. فقال له سفيان شيئاً لم أفهمه.

فقال: يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار.

ولقيه مرة فقال: يا ابن رسول الله أوصني. قال: يا سفيان لا مروة لكذوب، ولا أخ لملول، ولا راحة لحسود، ولا سؤدد لسيىء الخلق.

فقال: يا ابن رسول الله زدني، قال: يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، ولا تصحب الفاجر يعلمك من فجوره، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عز وجل.

فقال: يا ابن رسول الله زدني، فقال: يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة وغنىً بلا مال وهيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته.

وقال سفيان للصادق مرة: لا أقوم حتى تحدثني. قال له: أنا أحدثك وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان، إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها، فأكثر من الحمد والشكر عليها فإن الله عز وجل قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢] يا سفيان إذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره، فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة. فعقد سفيان بيده وقال: ثلاث وأي ثلاث[2].

وصيته لعبد الله بن جندب:

يا ابن جندب إنما المؤمنون الذين يخافون الله، ويشفقون أن يسلبوا ما أعطوا من الهدى، فإذا ذكروا الله ونعماءه وجلوا وأشفقوا، وإذا تليت عليهم آياته، زادتهم إيماناً

(١) سيأتي ذكره في رواة حديث الصادق.

(٢) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٣.

الهدى، فإذا ذكروا الله ونعماءه وجلوا وأشفقوا، وإذا تليت عليهم آياته، زادتهم إيماناً مما أظهره من نفاذ قدرته، وعلى ربهم يتوكلون.

يا ابن جندب يهلك المتكل على عمله، ولا ينجو المجترىء على الذنوب الواثق برحمة الله ـ قال عبد الله بن جندب: فمن ينجو؟ قال: الذين هم بين الخوف والرجاء كأن قلوبهم في مخلب طائر شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب.

ويل للساهين عن الصلاة، النائمين في الخلوات، المستهزئين بالله في الفترات، أولئك الذين لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولهم عذاب أليم.

يا ابن جندب أحبب في الله، وأبغض في الله، واستمسك بالعروة الوثقى، واعتصم بالهدى يقبل عملك..

وخذ حظك من آخرتك، ولا تكن بطراً في الغنى، ولا جزعاً في الفقر، ولا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قربك، ولا تكن واهياً يحقرك من عرفك، ولا تشار[1] من فوقك، ولا تسخر بمن هو دونك، ولا تنازع الأمر أهله، ولا تطع السفهاء.

يا ابن جندب صل من قطعك، واعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء إليك، وسلم على من سبك، وأنصف من خاصمك، واعف عمن ظلمك كما أنك تحب أن يعفى عنك.

يا ابن جندب لا تتصدقن على أعين الناس يزكوك، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك، ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك، فإن الذي تتصدق له سراً يجزيك علانية قد علم ما تريد[2].

وقال عليه السلام لأصحابه:

لا يتكلم أحدكم بما لا يعنيه، وليدع كثيراً فيما يعنيه حتى يجد له موضعاً، فرب متكلم في غير موضعه جنى على نفسه بكلامه ولا يمارين أحدكم سفيهاً ولا حليماً، فإنه من مارى حليماً أقصاه، ومن مارى سفيهاً أرداه، واذكروا أخاكم إذا غاب عنكم بأحسن ما تحبون أن تذكروا به إذا غبتم عنه، واعملوا عمل من يعلم أنه مجازى بالإحسان مؤاخذ بالإجرام.

---

(١) يقال شاره عابه وازدرى به.

(٢) تحف العقول ص٧٣ ـ ٧٥.

إلى غير ذلك من وصاياه الجليلة لخواصه وأصحابه وأهل بيته وغيرهم[1]. مما هو جدير بأن يجعل دستوراً لنظام الحياة، فقد كان يبذل جهده لتطهير النفوس من الأرجاس الطبيعية البشرية، ومكافحة الشهوات البهيمية، واتخاذ أنجع الوسائل لتحقيق غرضه السامي، فكان كلامه يسيل على سامعيه رقة وعذوبة تحكم على مستمعه الاستزادة لما يبدو من خلاله صورة من التعاليم الإسلامية الحقة، يلقيها مخلص قد توخى الخير للمتعلم، وإبداء النصيحة الخالصة التي لا تشوبها شائبة، فهو ينقشها على صفحات قلوب الخلص منهم، فلا تنمحي وإن كثرت عوامل المحو.

وها نحن ذا نقدم من نصائحه نبذاً قصيرة هي جوامع الكلم وآيات بينات في الأدب والبلاغة وفرقان حكيم جاء بالفلسفة الخلقية.

جوامع الكلم:

* اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين في الله، متواصلين، متراحمين، تزاوروا وتلاقوا.

* اتقوا الظلم فإن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء.

* من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم، إن رسول الله ﷺ قال: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم.

* صدقة يحبها الله: إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا.

* المؤمن من طاب مكسبه، وحسنت خليقته، وصحت سريرته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من كلامه، وكفى الناس شره، وأنصف الناس من نفسه.

* المؤمن حسن المعونة. خفيف المؤونة، جيد التدبير لمعاشه، ولا يلسع من جحر مرتين.

* اجعلوا أمركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فإنه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله.

---

(١) تجد الكثير منها في الوسائل والكافي وحلية الأولياء وتحف العقول وغيرها.

* إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون فإنه ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك.

* لاتمارينّ حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقليك، والسفيه يؤذيك.

* إياكم والخصومة، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق، ومن زرع العداوة حصد ما بذر، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله.

* كان أبي يقول: أي شيء أشد من الغضب؟ إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة.

* من كافأ السفيه بالسفه فقد رضي بما أوتي إليه حيث احتذى مثاله.

* من عذر ظالماً بظلمه، سلط الله عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له، ولم يؤجره الله على ظلامته.

* احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم، وحصائد ألسنتهم.

* من ساء خلقه عذب نفسه.

* العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلا بُعداً.

* من أكرمك فأكرمه، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه.

* إياكم والمزاح فإنه يذهب بماء الوجه.

* لا شيء أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من الجهل، ولا داء أدوى من الكذب.

* المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

* العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن.

* ما أوسع العدل وإن قل.

* من كف يده عن الناس، فإنما يكف يداً واحدة ويكفون عنه أيد كثيرة.

*من كان له عقل كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة.

* الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم.

* إذا بلغك عن أخيك شيء يسوءك فلا تغتم، فإن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.

* لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله، وتصغيره، وستره.

* بُني الإنسان على خصال، فمما بني عليه أنه لم يبن على الخيانة والكذب.

* ثلاثة تورث المحبة: الدين، والتواضع، والبذل.

* من برىء من ثلاث نال ثلاثة: من برىء من الشر نال العز، ومن برىء من الكبر نال الكرامة، ومن برىء من البخل نال الشرف.

* ثلاثة مكسبة للبغضاء: النفاق، والعجب، والظلم.

* آفة الدين الحسد، والعجب، والفخر.

* إن المؤمن يغبط ولا يحسد.

* اتقوا الله واعدلوا فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون.

* ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قويها بحقه.

* ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* ثلاثة يحجزن عن طلب المعالي: قصر الهمة، وقلة الحياء، وضعف الرأي.

* ثلاثة يجب على كل إنسان تجنبها: مقارنة الأشرار، ومحادثة النساء، ومجالسة أهل البدع.

* ثلاثة أشياء يحتاج إليها الناس طراً: الأمن، والعدل، والخصب.

* ثلاثة تكدر العيش: السلطان الجائر، والجار السوء، والمرأة البذية.

* الصلة وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار.

* ليس منا من لم يحسن مجاورة جاره.

* من رزق ثلاثاً نال الغنى الأكبر: القناعة بما أعطي، واليأس مما في أيدي الناس، وترك الفضول.

* ليس بحازم من لا ينظر في العواقب، والنظر في العواقب تلقيح القلوب.

* إذا رأيتم العبد متفقداً لذنوب الناس ناسياً لذنوبه، فاعلموا أنه قد مكر به.

* أقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك، واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك، فإن نفسك رهينة بعملك.

* تعوذوا بالله من سطوات الليل والنهار، قيل: وما هي؟ قال الأخذ على المعاصي.

* لا تشاور أحمقاً، ولا تستعن بكذاب، ولا تثق بمودة الملوك: فإن الكذاب يقرب لك البعيد، ويبعد لك القريب، والأحمق يجهد لك نفسه، ولا يبلغ ما تريد، والملوك أوثق ما كنت به خذلك، وأوصل ما كنت له قطعك.

* بطانة السلطان ثلاث طبقات: طبقة موافقة للخير، وهي بركة على السلطان، وطبقة غايتها المحاماة على ما في أيديها، فتلك لا محمودة ولا مذمومة، بل هي إلى الذم أقرب، وطبقة موافقة للشر وهي مشومة مذمومة عليها وعلى السلطان.

* لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاث، فإن عدموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة.

* الاخوان ثلاثة: مواس بنفسه، وآخر مواس بماله، وهما الصادقان في الاخاء، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة، فلا تعده من أهل الثقة.

* كفى بالحلم ناصراً.

* ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عزاً في الدنيا والآخرة.

* ما يقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع بخلقه.

* صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة.

* من زرع العداوة حصد ما بذر.

* من دخله العجب هلك.

* العجب كل العجب ممن يعجب بعمله، ولا يدري بما يختم له.

* ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه.

* إذا كان الزمان زمان جور وأهله أهل غدر، فالطمأنينة إلى كل أحد عجز.

* إذا أردت أن تعلم صحة ما عند أخيك، فأغضبه فإن ثبت لك على المودة فهو أخوك وإلا فلا.

* لا تثقن بأخيك كل الثقة، فإن سرعة الاسترسال لا تقال.

* المؤمن حسن المعونة خفيف المؤونة جميل التدبير لمعيشته، ولا يلسع من جحر مرتين.

* من صحة يقين المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره.

* خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك.

* أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق، والرفق لا يعجز عنه شيء، والتبذير لا يبقى معه شيء.

* اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم.

* إنما المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل.

* اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً.

* ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاتها بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم.

* ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله يوم القيامة: رجل لم تدعه قدرته في حال غضبه، أن يحيف على من تحت يديه. ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر، ورجل قال الحق فيما له وعليه.

* للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويقول ما لم يعلم، ويتعاطى ما لا ينال.

* اتقوا الله في الضعيفين: اليتيم، والنساء.

* وقال للمفضل بن زيد: أنهاك عن خصلتين فيهما هلك الرجال: أن تدين الله بالباطل، وتفتي الناس بما لا تعلم.

* لا يطمعن ذو الكبر في الثناء الحسن، ولا الخب في كثرة الصديق، ولا السيء الأدب في الشرف، ولا بالبخيل في صلة الرحم، ولا المستهزىء في صدق المودة، ولا القليل الفقه في القضاء، ولا المغتاب في السلامة، ولا الحسود في راحة القلب، ولا المعاقب على الذنب الصغير في السؤدد، ولا القليل التجربة المعجب برأيه في رياسة.

* إن السفه خلق لئيم يستطيل على من دونه ويخضع لمن فوقه، وإياك وما تعتذر منه.

* طبعت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.

* من غضب عليك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءاً اتخذه خلا، ومن أراد أن تصفو له مودة أخيه فلا يمارينه ولا يمازحنه ولا يعده ميعاداً فيخلفه.

* لا تخالطن من الناس خمسة: الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، والكذاب فإن كلامه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد منك القريب، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة، والبخيل فإنه يخذلك في وقت أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلمك.

* ثلاثة تجب لهم الرحمة: غني افتقر، وعزيز قوم ذل، وعالم تلاعب به الجهال.

* إذا أراد الله برعية خيراً، جعل لهم سلطاناً رحيماً ووزيراً عادلاً.

* إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم، وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخر.

* قال حفص بن أبي البختري: كنت عند أبي عبد الله الصادق ودخل عليه رجل، فقال لي: أتحبه؟ قلت: نعم، قال: ولم لا تحبه؟ وهو أخوك وشريكك في دينك، وعونك على عدوك، ورزقه على غيرك.

* الانتقاد عداوة، وقلة الصبر فضيحة وإفشاء السر سقوط.

* إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة. طوبى لمن جعل بصره في قلبه ولم يجعل بصره في عينه.

هذا قليل من كثير في هذا الباب فإن تراثه الفكري وتعاليمه القيمة لا يمكننا الإحاطة بها الآن. ومن الخير للعلم والإنسانية أن يضاعف العاملون منا جهودهم لجمع المتفرق من ذلك التراث الثقافي الفكري من مظانه، وهو كثير حافل. ولنا في تعاليمه كفاية على إيضاح ما كان يبذله من النصح لأفراد الأمة، ويجهد نفسه في معالجة النفوس من أمراض فواتن الدنيا، وغريزة الطمع التي تحول خير المجتمع إلى شر يسلب راحة الضمير، ويودع فيه القلق والنكد، ويفتح باب الظلم والتباغض.

هذا من الناحية الأخلاقية والتعاليم الإسلامية. أما ما يتصل بناحية العلوم من تفسير وفقه وحديث وحكمة وكلام وغيرها، فليس هذا محل التعرض لذلك، وستقف على البعض منه في مطاوي البحث، عند التعرض لآرائه وفقهه في الأجزاء القادمة إن شاء الله.

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان لبعض حكمه ومواعظه التي كان يلقيها على مسامع طلاب العلم، ووفود الأقطار الإسلامية.

فإنه عليه السلام لم يدخر نصحاً، ولم يألُ جهداً في توجيه النصح لكل أحد، فتجد له في كل مناسبة قولاً، وفي كل مجال حكمة، ولكل مشكلة حلاً. وقد تضمنت كتب الأخلاق، والحديث، والأدب الشيء الكثير من تلك النصائح والحكم والمواعظ التي كان يتلقاها منه كبار علماء عصره الذين قصدوه على اختلاف مراتبهم، فانتهلوا من معارفه، وكان ذلك فخراً واعتزازاً لهم.

الإمــــام الصــــادق
تلامذته ورواة حديثه

الأمويون وحديث أهل البيت:

لا بد لنا ونحن في معرض الحديث عن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام من أن نتعرف على بعض المنتمين إليها والمتخرجين منها، وهم من حملة العلم ورجال الفكر الذين تركوا للأجيال أهم ما يخلفه العقل الإنساني من إنتاج وإبداع.

وليس من شك في أن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كانت تمتاز بطابع الانفصال عن الدولة، في عدم الخضوع لتوجيهات الحكام، والسير في ركابهم، فلم تتعاون معهم، ولم تساند سلطاتهم، لأنها وجدتهم بعيدين كل البعد عن واقع الحكم الإسلامي، الذي يضمن تقدم الأمة في جميع مجالات الحياة، ويتكفل سعادة المجتمع في جميع الظروف.

وبهذا فقد قاومت السلطة انتشار ذكر آل محمد صلى الله عليه وآله ومنعت الناس عن الاتصال بهم والرواية عنهم.

ورغم ذلك كله فقد استطاعت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام أن تجتاز تلك العقبات، فكان لها السبق في نشر العلم، والفضل في تحرير الفكر الإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى الفرق بين تدخل الدولة الأموية في معارضتها لانتشار ذكر آل محمد صلى الله عليه وآله وبين تدخل الدولة العباسية في ذلك.

فلم يكن الأمويون يتخذون ألاعيب سياستهم من وراء الستر ويعارضون أهل البيت من طريق الخفاء والتكتم كما فعلته الدولة العباسية في أول عهدها، بل كان أمرهم ظاهراً لا خفاء عليه، وكان أبرز شيء عندهم هو العداء لأهل البيت وعقاب أنصارهم، فقد كانوا يصبون جام غضبهم على من يروي عن أهل البيت أو ينقل عنهم

فتوى، لأن ذلك يمس شؤون الدولة، فأبعدوا الفقهاء الذين يقفون لجانب الحق، ولا يراعون جانب أغراض الدولة ومصالحها الخاصة، وقربوا إليهم من جعلوه قنطرة للوصول إلى تلك الأغراض، كما أنهم اتخذوا مواليهم للفتيا ورفعوا من شأنهم:

كسليمان بن موسى الأشدق مولاهم الأموي المتوفى سنة ١١٩هـ كان مفتي دمشق وعالمها.

وعبد الله بن ذكوان المتوفى سنة ١٣٠هـ مولاهم الأموي أحد الرواة عن أبي هريرة. قال الليث: رأيت أبا الزناد وخلفه ثلاثمائة طالب، وقال الذهبي: ولي بعض أمور بني أمية.

وغيرهم من الموالي الذين شجعهم الأمويون، وجعلوا لهم منزلة في المجتمع ويداً في التشريع الإسلامي. منهم:

نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة ١١٧هـ. وكان ابن عمر يقول له: اتق الله ويحك يا نافع ولا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس[١].

وسليمان بن يسار أخو عطاء المتوفى سنة ١٠٧هـ جعلوه للفتيا في المدينة.

ومكحول مولى بني هذيل المتوفى سنة ١١٣هـ كان عالم دمشق ومرجع الفتيا.

وأبو حازم سلمة بن دينار الأعرج مولى بني مخزوم المتوفى سنة ١٤٠هـ، كان عالم المدينة ومفتيها.

وسليمان بن طرخان المتوفى سنة ١٤٣هـ.

وإسماعيل بن خالد البجلي مولاهم المتوفى سنة ١٤٥هـ.

وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة ١٠٥هـ. وناهيك ما لعكرمة من منزلة لأحاديثه وأفاعيله، وغيرهم مما يطول ذكرهم.

وعلى كل حال فقد كان الأمويون يقرّبون من يرون فيه أهلية لتنفيذ أغراضهم، ولذلك غضبوا على سعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٣هـ وضربوه وشهروه في المدينة، لأنه خالف غرض الدولة، ولقي غيره من العلماء تنكيلاً في سبيل ذلك.

وخلاصة القول أن الأمويين كان اتجاههم للسياسة وقد ابتعدوا عن شؤون

---

(١) تهذيب التهذيب ج٧ ص٢٦٧.

الدين، فكان من سياستهم أن يقبلوا قول كل أحد ولا يسمعون لأهل البيت قولاً، ويعاقبون من يذكرهم في ذلك.

كما يحدثنا الإمام أبو حنيفة عندما دعي ليسأل عن مسألة فقهية من قبل أحد الأمويين. قال أبو حنيفة: فاسترجعت في نفسي لأني أقول فيها بقول علي رضي الله عنه وأدين الله به، فكيف أصنع؟

قال ثم عزمت أن أصدقه وأفتيه بالدين الذي أدين الله به، وذلك أن بني أمية كانوا لا يفتون بقول علي، ولا يأخذون به، إلى أن يقول: وكان علي لا يذكر في ذلك العصر باسمه، وكانت العلامة بين المشايخ أن يقولوا: قال الشيخ. وكان الحسن البصري يقول فيه: أخبرنا أبو زينب[١].

ويعطينا الحسن البصري[٢] صورة جلية عن ذلك الاهتمام والجهد الذي بذله الأمويون في معارضة حديث أهل البيت، فقد كان الحسن مع قربه من الدولة وعظيم منزلته في المجتمع إذا أراد أن يحدث عن علي عليه السلام يقول: قال أبو زينب، ويظهر الابتعاد عن علي عليه السلام حتى ظهر منه ما يوجب الإنكار عليه فقال له أبان بن عياش: ما هذا الذي يقال عنك أنك قلته في عليّ عليه السلام؟!

فقال: يا ابن أخي أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة - يعني بني أمية - لولا ذلك لسال بي أعشب[٣].

ولسنا بحاجة إلى إقامة الدليل على عظيم اهتمام الأمويين في معارضة حديث أهل البيت وخصومتهم لهم ومعاقبة من يتقرب إليهم.

يقول الشعبي: ماذا لقينا من آل أبي طالب؟ إن أحببناهم قتلنا، وإن أبغضناهم دخلنا النار[٤]. وقد برهن الأمويون على ذلك بما احتفظ التاريخ بكثير منه.

وعلى أي حال فقد اشتدت المحنة على المسلمين، وأصبح الأكثر يجازف

---

(١) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص١٧١.

(٢) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري مولى أم سلمة المتوفى سنة ١١٠هـ كان مناصراً لبني مروان، ودولتهم مدينة له بقوة دفاعه كما هي مدينة للحجاج بقوة بطشه حتى قيل: (لولا لسان الحسن البصري وسيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية في مهدها وأخذت من وكرها).

(٣) الحسن البصري لأبي الفرج بن الجوزي ص٧. وابن أبي الحديد ج١ ص٣٩٦.

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص١١٢.

بحياته لاختراق تلك الخطوط، واجتياز تلك الحدود، مما أوجب سخط الدولة عليهم.

ولما فسح المجال بضعف الدولة الأموية ووجد المسلمون بعض الحرية، ازدحموا على أبواب بيت النبوة لأخذ التعاليم ورواية الحديث، فكانت للإمام الباقر عليه السلام حلقة في المدينة لا تعقد أي حلقة علمية إلا بعد انتهائه من الحديث وكذا في مكة.

وقد احتفظ الحجاز بولائه لأهل البيت والمدينة بصورة خاصة، وكان الناس بأشد ما يكونوا من الحاجة إلى الأخذ من أهل المدينة، لقرب عهدهم من الرسول وفيها علماء الصحابة، وهم أقوى الناس في الحديث، حتى أن أكثر الصحابة الذين كانوا في سائر الأقطار يشدون الرحال إلى المدينة ليتأكدوا من صحة ما يسمعون من الحديث.

وكثرت الهجرة إلى دار الهجرة، وتتابعت الوفود من أطراف البلاد ونشطت الحركة العلمية في عصر الإمام الصادق عليه السلام ورفعت الموانع، فكان بيته جامعة إسلامية يؤمها طلاب العلم ورواد الحقيقة، فكان عدد المنتمين لمدرسته أربعة آلاف رجل.

وقد أفرد الحافظ أبو العباس أحمد بن عقدة المتوفى سنة ٢٣٠هـ، فيهم كتاباً ذكر فيه أربعة آلاف رجل ممن روى الحديث عن الصادق وذكر منهم الشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ ما يزيد على ثلاثة آلاف.

وقال الشيخ نجم الدين في المعتبر: «روى عن الصادق أربعة آلاف رجل وبرز بتعليمه من الفقهاء الأفاضل جمّ غفير إلى أن يقول: حتى كتبت من أجوبة مسائله أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف، سموها بالأصول»[1].

* * *

وليس من الغريب أن يترأس الإمام الصادق تلك الحركة العلمية فهو من أهل بيت النبي ﷺ وكان يتصف بصفات الكمال التي بعثت الإعجاب في نفوس الأمة على

---

(١) انظر «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» الجزء الأول.

اختلافهم في الآراء والمعتقدات. وله القدم الراسخ والباع الطويل في كل علم، والنظر الثاقب في جميع العلوم، فاشتهر ذكره في الحديث وسائر العلوم والفنون، حتى وجد في الكوفة تسعمائة شيخ كلٌ يقول: حدثني جعفر بن محمد.

بعض المؤلفين من تلامذته:

وقد ألف تلامذته المختصون به كتباً في سائر العلوم والفنون. منهم:

١ ـ أبان بن تغلب الربعي أبو سعيد الكوفي المتوفى سنة ١٤١هـ. له كتاب (معاني القرآن) كتاب (القراءات) كتاب من الأصول على مذهب الشيعة(١).

٢ ـ علي بن يقطين المتوفى سنة ١٨٤هـ. له كتاب ما سئل عنه الإمام الصادق من أمور الملاحم(٢).

٣ ـ أبو حمزة ثابت بن أبي صفية الثمالي المتوفى سنة ١٥٠هـ. له كتاب في التفسير، وكان من تلامذة الباقر والصادق(٣).

٤ ـ أبو بصير يحيى بن القاسم المتوفى سنة ١٥٠هـ وهو من تلامذة الباقر والصادق عليه السلام له تفسير القرآن، ذكره ابن النديم.

٥ ـ علي بن حمزة: أبي الحسن الكوفي البطائني من تلامذة الإمام الصادق. له كتاب جامع أبواب الفقه، ذكره النجاشي.

٦ ـ إسماعيل بن أبي خالد محمد بن مهاجر له كتاب مبوب في القضاء، ذكره الشيخ الطوسي.

٧ ـ المفضل بن عمر الكوفي. له كتاب التوحيد الذي أملاه عليه الإمام الصادق عندما التقى المفضل بأحد الزنادقة وناظره، وطلب من الإمام أن يملي عليه بما يقوى به على مناظرة الزنادقة، فأملى عليه الإمام الصادق تلك الدروس القيمة التي تحتوي على دلائل التوحيد، ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم من بيان هيئة العالم، وتأليف أجزائه، وكيف خلق الإنسان وتكوينه، وكيفية ولادته وتغذيته، وغرائزه وطبائعه، وبيان الدماغ وعظمته، وما فيه وفي سائر الأعضاء من عجيب

(١) (٢) فهرست ابن النديم ص٣٠٨.
(٣) كشف الظنون ج٢ ص٤٤٤ وفهرست ابن النديم ص٥٠.

الصنع، وعظيم القدرة، وذكر الفؤاد والنخاع، والدم والأوردة والشرايين، وبيان قوى البدن من جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة، وبيان تركيب بدنه وتنسيق أعضائه وانتصاب القامة واعتدالها، وبيان الحواس وأعمالها وأسرارها والوسائط التي بينها من ضياء وهواء، وماهية الصوت وحقيقة الكلام، والمنطق والكتابة وما أُعطي الإنسان من علم، والأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان، وما يتوقف عليه نظام حياته، إلى غير ذلك.

وقد شرحه الأستاذ الطبيب الماهر محمد الخليلي شرحاً وافياً بالغرض، وطبقه على العلوم الحديثة في مجلدين، ولا يزال مخطوطاً نتمنى له الظهور لعالم النشر.

٨ ـ هشام بن الحكم المتوفى سنة ١٨٥هـ.

أبو محمد الشيباني الكوفي من تلامذة الإمام الصادق وابنه موسى الكاظم عليه السلام، له من الكتب: كتاب (الإمام) كتاب (حدوث الأشياء). كتاب (الرد على الزنادقة)، كتاب (الأكف)، وغيرها. وقد ذكر له ابن النديم خمسة وعشرين كتاباً[١].

٩ ـ محمد بن علي بن النعمان. أبو جعفر الأحول المعروف بـ (مؤمن الطاق) وتسميه خصومه (شيطان الطاق) من أصحاب أبي عبد الله الصادق، كان متكلماً حاذقاً، له من الكتب: كتاب (الإمامة)، كتاب (المعرفة)، كتاب (الرد على المعتزلة)، كتاب في أمر طلحة والزبير[٢].

وغير هؤلاء من تلامذة الإمام الصادق الذين ألفوا في عصره سائر العلوم والفنون، كما ستقف عليه في بحث تدوين الفقه والحديث وفي أبواب أخرى من الكتاب.

ونعود إلى الحديث عن بعض رواة حديث الإمام الصادق عليه السلام من كبار العلماء وحملة الحديث من رؤساء طوائف وأئمة مذاهب وغيرهم، مقتصرين على ذوي الشهرة منهم ومن خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، وقد سلكنا طريق الاختصار لضيق المجال.

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٢٥٠.

(٢) الفهرست.

تلامذته ورواة حديثه:

١ ـ إبراهيم بن سعد:

إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفى سنة ١٨٣هـ. أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، روى عنه يزيد بن هرٰون وأحمد بن حنبل وخلق كثير، وثقه ابن معين، وأبو حاتم، والعجلي، وأحمد بن حنبل، وروايته عن الصادق في التهذيب والكافي يرويها عنه ابنه يعقوب.

٢ ـ إبراهيم بن زياد:

إبراهيم بن زياد البغدادي المتوفى سنة ٢٢٨هـ. روى له مسلم وأبو داود والنسائي.

٣ ـ إبراهيم بن محمد:

إبراهيم بن محمد بن يحيى الأسلمي أبو إسحٰق المدني المتوفى سنة ١٩١هـ.

٤ ـ إبراهيم بن طهمان:

إبراهيم بن طهمان بن شعيب الهروي المتوفى سنة ١٦٨هـ. كان أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، قال أبو نعيم: حدث عن جعفر بن محمد الصادق: وثقه أحمد، وأبو داود، وأبو حاتم.

٥ ـ إبراهيم بن علي:

إبراهيم بن علي بن الحسن بن رافع المدني. روى عنه أحمد بن محمد، وإبراهيم بن المنذر، ويعقوب بن حميد. خرج حديثه ابن ماجه.

٦ ـ إبراهيم بن مهاجر الأزدي:

روى عن حفص بن راشد وغيره، وذكره الخطيب في المتفق.

٧ ـ إبراهيم بن محمد:

إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى المتوفى سنة ١٨٤هـ. أحد الأعلام روى عنه الشافعي ووثقه، والثوري، ويحيى بن آدم. قال أحمد بن حنبل: «كان قدرياً معتزلياً جهمياً كل بلاء فيه». وقال ابن عقدة: «ليس بمنكر الحديث» وقال ابن عدي: «هو كما قال ابن عقدة». ذكره الشيخ الطوسي في رجال الصادق، وأن له كتاباً مبوباً في

الحلال والحرام يرويه عن جعفر بن محمد. وقال بعض ثقات العامة: إن كتب الواقدي سائرها إنما هي منه.

٨ ـ بسام بن عبد الله:

بسام بن عبد اللّه الصيرفي أبو الحسن الكوفي، وثقه أحمد ويحيى بن معين. خرج له النسائي في صحيحه. قال ابن حجر: «صدوق من الخامسة».

٩ ـ بشار بن قيراط:

بشار بن قيراط النيسابوري أبو نعيم، روى عنه عبد اللّه بن الوليد بن مهران وعمر بن رافع ونوح بن أنس، قال ابن عدي كان ينتحل الرأي، وروى عنه عمار بن الحسن.

١٠ ـ بشار بن ميمون:

بشار بن ميمون الخراساني المتوفى سنة ١٨٠هـ. سكن مكة، وقدم بغداد وحدث بها عن جعفر بن محمد، فترك الناس حديثه، نظراً لظروف سياسة الدولة التي تريد أن تطبع الناس بطابعها الخاص.

١١ ـ تليد بن سليمان:

تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي الأعرج المتوفى سنة ١٩٠هـ، روى عنه أحمد بن حنبل وإسحٰق بن موسى، خرّج حديثه الترمذي. قال ابن عقدة: إن له كتاباً عن الصادق يرويه عنه جماعة.

١٢ ـ الجراح بن مليح:

الجراح بن مليح الرواسي الكوفي المتوفى سنة ١٧٥هـ. روى عنه ابنه وأبو قتيبة، وسفيان بن عقبة، وابن مهدي. قال ابن سعد: ولي بيت المال ببغداد في خلافة هٰرون، وكان ضعيفاً في الحديث. روى له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه، وأبو داود والترمذي وابن ماجة. قال أبو أحمد بن عدي: له أحاديث صالحة وروايات مستقيمة. وحديثه لا بأس به، وهو صدوق.

١٣ ـ جرير بن عبد الحميد:

جرير بن عبد الحميد بن قرط أبو عبد اللّه الرازي القاضي المتوفى سنة

١٨٨هـ. روى عنه ابن راهويه، وابنا أبي شيبة، ويحيى بن معين، وموسى القطان، ومحمد بن قدامة وغيرهم.

قال العجلي: كوفي ثقة نزل الري. وقال النسائي: ثقة. وقال أبو قاسم: مجمع على ثقته، وهو من رجال الصحاح الستة. عده الشيخ في رجاله من أصحاب الصادق. وقال ابن حجر في التقريب: ثقة صحيح.

١٤ ـ حبيب بن النعمان:

حبيب بن النعمان الأسدي أحد بني عمر بن أسد.

قال النجاشي: حبيب بن النعمان النجاشي رجل من بني أسد من أهل البادية، له كتاب يرويه عن الصادق عليه السلام. وقال ابن حجر: حبيب بن النعمان مقبول من السادسة. وذكره ابن حبان في الثقات. روى له أبو داود وابن ماجة.

١٥ ـ حبيب بن يسار:

حبيب بن يسار الكندي الكوفي. روى عنه زكريا بن يحيى الحميري، وأبو الجارود، ويوسف بن صهيب وغيرهم. وثقة ابن معين، وأبو زرعة، وأبو داود. وذكره ابن حبان في الثقات. قال ابن حجر: ثقة من الثالثة. ذكره الشيخ في رجال الصادق وأخرج حديثه الترمذي وأبو داود.

١٦ ـ الحسن بن عياش:

الحسن بن عياش بن سالم الأسدي أبو محمد الكوفي المتوفى سنة ١٧٢هـ. روى عنه ابن مهدي وأحمد بن يونس. وثقه ابن معين والنسائي وابن حبان. خرج له مسلم والترمذي والنسائي.

١٧ ـ الحكم بن عتبة:

الحكم بن عتبة أبو محمد الكندي مولاهم المتوفى سنة ١١٣ ـ ١١٤هـ. روى عنه الأعمش، ومنصور، وأبو إسحق السبيعي، والشيباني وغيرهم وهو من رجال الصحاح الستة.

ذكره النجاشي في رواة الصادق، روى له في الكافي والتهذيب والنهاية. قال ابن حجر: ثقة ثبت فقيه. وقال ابن عيينة: ما كان بالكوفة بعد إبراهيم والشعبي مثل

الحكم. وثقه أبو حاتم وابن معين. وقال العجلي: كان صاحب سنة واتباع، وكان فيه تشيع إلا أن ذلك لم يظهر منه.

وقد نص على تشيعه شعبة بن الحجاج وابن قتيبة.

١٨ ـ الحارث:

ابن عمران الجعفري المدني خرج حديثه ابن ماجة، وروى عنه عبد الله بن عمر بن محمد المعروف بمشكداته، وعلي بن محمد الموصلي، ومحمود بن غيلان.

١٩ ـ الحارث:

ابن عمير البصري نزيل مكة، روى عنه ابنه حمزة، وعبد الرحمن بن مهدي وجماعة، وكان حماد بن زيد يقدمه ويثني عليه وثقه ابن معين وخرج حديثه الأربعة.

٢٠ ـ حميد بن قيس:

حميد بن قيس الأعرج المتوفى سنة ١٣٠هـ. من رجال الصحاح الستة. روى عنه معمر والسفيانان ومالك بن أنس وغيرهم.

٢١ ـ حماد بن عيسى:

حماد بن عيسى الجهني المدني نزيل البصرة المتوفى سنة ٢٠٨هـ.

خرج حديثه الترمذي وابن ماجة. وروى عنه إسحق الجوزجاني ومحمد بن بكار البصري ومحمد بن المثنى وغيرهم.

٢٢ ـ الحارث بن عمران الأسدي:

الحارث بن عمران الأسدي. روى عنه أبو سعيد الأشج، وخرج حديثه ابن ماجة.

٢٣ ـ حاتم بن إسماعيل:

حاتم بن إسماعيل المدني أبو إسماعيل الحارث مولى بني عبد الدار المتوفى سنة ١٨٦ ـ ١٨٧هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح وروى عنه يحيى بن سعيد القطان، وإبراهيم بن حمزة، وهٰرون بن معروف، وعثمان بن أبي شيبة ومحمد بن مهران وغيرهم.

٢٤ ـ داود بن الزبرقان:

داود بن الزبرقان الرقاشي أبو عمر البصري ثم البغدادي المتوفى سنة ١٨٦هـ. روى عنه سعيد بن عروة، وبقية وعلي بن حجر وشعبة بن الحجاج وهو من شيوخه وأبو صالح المصري والحسن بن عرفة وغيرهم، ذكره في جامع الرواة وعده ابن حجر من الطبقة الثامنة. خرج حديثه الترمذي وابن ماجة.

٢٥ ـ الربيع بن حبيب:

الربيع بن حبيب العبسي مولاهم الكوفي، روى عنه وكيع وغيره. وثقه ابن معين. وقال البخاري: منكر الحديث، خرج حديثه ابن ماجة.

٢٦ ـ رحيل:

رحيل ـ بالمهملة مصغر ـ ابن معاوية بن حديج الجعفي، روى عنه أخوه زهير، وشجاع بن الوليد. وثقه ابن حبان. وخرج حديثه أبو داود والترمذي. قال ابن حجر: صدوق من السابعة.

٢٧ ـ رقبة:

رقبة بن مصقلة العبدي الكوفي أبو عبد الله المتوفى سنة ١٢٩هـ.

روى عنه سليمان التميمي، وأبو عوانة، وابن فضل. قال أحمد: ثقة مأمون وعده ابن حجر من السادسة. خرج حديثه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة في التفسير.

٢٨ ـ الركين بن الربيع:

الركين بن الربيع بن عميلة أبو الربيع الكوفي المتوفى سنة ١٣١هـ.

روى عنه شعبة، والثوري ومعتمر بن سليمان. وثقه النسائي، وخرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة. قال ابن حجر: ثقة من الرابعة.

٢٩ ـ زكريا بن إسحق:

زكريا بن إسحق المكي المتوفى سنة ١٤٨هـ. وثقه البخاري وأبو داود وابن معين. وهو من رجال الصحاح الستة. وكان يرمي بالقدر. ووثقه ابن معين وابن حجر.

٣٠ ـ زياد بن سعد:

زياد بن سعد الخراساني أبو عبد الرحمن المكي نزيل اليمن. روى عنه ابن جريج، وهمام ومالك بن أنس، وهو من رجال الصحاح الستة. قال النسائي: ثقة ثبت. ذكره ابن حجر في الطبقة السادسة.

٣١ ـ زيد بن عطاء:

زيد بن عطاء بن السائب الكوفي الثقفي. روى له الترمذي وأبو داود.

٣٢ ـ زهير بن محمد التميمي:

زهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة ١٦٢هـ. تقدم في الجزء الأول.

٣٣ ـ زيد بن الحسن:

زيد بن الحسن القرشي الأنماطي. روى عنه إسحق وابن المديني. وخرج حديثه الترمذي في صحيحه.

٣٤ ـ سعيد بن سالم:

سعيد بن سالم القداح أبو عثمان الكوفي. روى عنه الشافعي ويحيى بن آدم. قال أبو داود: صدوق يذهب إلى الارجاء. وقال ابن حجر: صدوق يتهم، رمي بالارجاء وكان فقيهاً من كبار التاسعة. خرج حديثه أبو داود والنسائي.

٣٥ ـ سعيد بن عبد الجبار:

سعيد بن عبد الجبار الزبيدي أبو عثمان (أو عثيم) الحمصي، خرج له ابن ماجة، روى عنه محمد المقدمي، وهشام بن عبيد الله، ويحيى بن المغيرة الرازي وغيرهم.

٣٦ ـ سعيد بن عبد الرحمن:

سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أبو عبد الله المدني المتوفى سنة ١٧٦هـ. وثقه ابن معين، وروى عنه ابن وهب، ومحمد بن سليمان، وعلي بن حجر. روى له مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة.

٣٧ ـ سلمة بن كهيل:

سلمة بن كهيل الحضرمي أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة ١٢١هـ. روى عنه ابنه يحيى وشعبة وحماد بن سلمة وغيرهم، وهو من رجال الصحاح الستة. قال ابن المديني: له نحو مائتين وخمسين حديثاً. وثقه أحمد. وقال ابن حجر: ثقة في الرابعة. كان من البترية. وكان من تلامذة الباقر والصادق، وقد ذمه الإمام الباقر مع جماعة بقوله: إنهم أضلوا كثيراً ممن ضل من هؤلاء، وإنهم ممن قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

٣٨ ـ سليمان بن مهران الأعمش:

سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي[١] أبو محمد الكوفي الأعمش المتوفى سنة ١٤٧ ـ ١٤٨هـ. أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة، ورؤساء المذاهب البائدة. روايته عن الصادق في كتاب من لا يحضره الفقيه في نكت الحج.

٣٩ ـ سليمان:

سليمان بن بلال التيمي القرشي مولاهم أبو محمد المتوفى سنة ١٧٢هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة. وروى عنه أبو عامر العقدي، وابن المبارك، ومعلى بن منصور، وعبد بن وهب وغيرهم.

وثقه ابن سعد، وابن عدي، وأحمد بن حنبل، ونص ابن داود على توثيقه وذكره في أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا، وأكثر علماء الرجال يعدونه من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام[٢] وقد أدرك عصر الإمام الرضا عليه السلام.

٤٠ ـ سفيان الثوري:

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري[٣] أبو عبد الله الكوفي المتوفى سنة ١٦١هـ. أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، ورؤساء المذاهب البائدة. كان كثير التردد على الإمام الصادق، وله أخبار كثيرة يرويها عنه ابن داود، والحلبي والكشي.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١.

(٢) تهذيب التهذيب ٤ ـ ١٧٥ وتاريخ الإسلام للذهبي ٦ ـ ٤٥.

(٣) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١.

٤١ ـ سفيان بن عيينة:

سفيان بن عيينة بن أبي عمران المتوفى سنة ١٩٨هـ. وهو أحد رؤساء المذاهب البائدة.

٤٢ ـ سعيد بن عبد الرحمن:

سعيد بن عبد الرحمن الجمحي المتوفى سنة ١٧٦هـ. أحد الأعلام. روى له أصحاب الصحاح ما عدا البخاري، وثقه أحمد وغيره. وذكره الشيخ الطوسي.

٤٣ ـ سنان بن هٰرون:

سنان بن هٰرون البرجمي أبو بسر الكوفي، روى عنه وكيع ومحمد بن سليمان. خرج له الترمذي في صحيحه.

٤٤ ـ سعيد بن طريف:

سعيد بن طريف الحنظلي الإسكافي الكوفي. روى عنه إسرائيل وابن علية. خرج حديثه الترمذي وابن ماجة. قال ابن حجر: كان رافضياً من السادسة. عدّه الشيخ من أصحاب الصادق ورواياته مطروحة وغير مستقيم.

٤٥ ـ سعيد بن أبي خثيم:

سعيد بن أبي خثيم بن رشد الهلالي أبو معمر الكوفي المتوفى سنة ١٨٠هـ روى عنه أحمد بن حنبل وعبد الله بن أبي شيبة. وثقه ابن معين وغيره قال في التقريب: أبو معمر الكوفي صدوق رمي بالتشيع، خرج له الترمذي والنسائي.

٤٦ ـ سعيد بن حسان:

سعيد بن حسان المخزومي المكي القاضي. روى عنه السفيانان، وأبو أحمد الزبيري، ووكيع، وأبو نعيم وغيرهم. وثقه ابن معين. وعدّه الشيخ من أصحاب الصادق. وقال ابن حجر صدوق له أوهام من السادسة. خرج حديثه مسلم والترمذي، والنسائي، وابن ماجة.

٤٧ ـ سعيد بن سالم:

سعيد بن سالم القداح بن عثمان المكي، أصله من خراسان أو الكوفة وقال ابن حجر: صدوق يرمي بالارجاء، وكان فقيهاً من كبار التاسعة.

روى عنه الشافعي ويحيى بن آدم، وأسد بن موسى، وأحمد بن يونس وغيرهم، قال ابن معين: ليس به بأس. وقال أبو داود وابن عدي: صدوق يذهب إلى الارجاء. خرج له أبو داود والنسائي.

٤٨ ـ سعيد بن مسلمة:

ابن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي ويقال مسلمة بن أمية بن هشام كان ينزل الجزيرة.

خرج حديثه الترمذي وابن ماجة وروى عنه محمد بن إدريس الشافعي، وعمر بن إسماعيل بن مجالد، وعلي بن ميمون العطار. وغيرهم.

ذكره الذهبي من رواة حديث الإمام الصادق عليه السلام وقال ابن داود: له كتاب وهو من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام.

٤٩ ـ سالم بن عبد الواحد:

سالم بن عبد الواحد المرادي أبو العلاء الكوفي. روى عنه الصباح بن محارب ووكيع. خرج له الترمذي. قال ابن حجر: مقبول. وقال الخزرجي: ضعفه ابن معين، ووثقه ابن حبان.

٥٠ ـ شعبة بن الحجاج:

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي[1]، مولاهم أبو بسطام المتوفى سنة ١٦٠هـ.

الحافظ أحد الأئمة الأعلام. قال ابن المديني: له نحو ألفي حديث. وقال أحمد: شعبة أمة وحده وهو من رجال الصحاح الستة. روى عن الإمام الصادق وحضر عنده. وروايته عنه في التهذيب. يروي عنه يحيى بن أبي بكر وخلق كثير.

٥١ ـ شعيب بن خالد:

شعيب بن خالد البجلي. عده ابن حجر في التقريب من الطبقة السابعة: قال النسائي: ليس به بأس. خرج حديثه أبو داود. وروى عنه يحيى بن العلاء الرازي، وعمر بن قيس، وحجاج بن دينار، وزهير بن معاوية وغيرهم.

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب.

٥٢ ـ الضحاك بن مخلد:

الضحاك بن مخلد الشيباني[1] أبو عاصم النبيل المتوفى سنة ٢١٢هـ. والمتولد سنة ١٢٢هـ. البصري الحافظ أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. من شيوخ البخاري وأحمد وابن المديني وغيرهم. قال النجاشي: روى عن جعفر بن محمد كتاباً، يرويه عنه هٰرون بن مسلم وعباس بن محمد بن حاتم. وذكر ذلك في الخلاصة أيضاً. وكان آخر تلامذة الإمام الصادق وفاة.

٥٣ ـ طلحة بن زيد:

طلحة بن زيد القرشي أبو مسكين الرقي، روى عنه شيبان بن فروخ، رماه أحمد وابن معين بالوضع، روى له ابن ماجة.

٥٤ ـ عاصم بن عمر:

عاصم بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب.

وثقه ابن حبان، وضعفه أحمد. روى عنه أبو داود الطيالسي، وإسماعيل بن أبي أويس، ومحمد بن فليح، وعبد الله بن نافع، وابن وهب وغيرهم. خرج حديثه الترمذي وابن ماجة.

٥٥ ـ عاصم بن حميد:

عاصم بن حميد الحناط الكوفي، وثقه أبو زرعة. وقال ابن حجر: صدوق من السابعة، وروى عنه محمد بن عبد الله بن نمير، ويحيى الحماني، وإسماعيل بن موسى الفزاري، وأبو نعيم الطحان.

٥٦ ـ عاصم بن سليمان:

عاصم بن سليمان البصري أبو عبد الرحمن المعروف بالكوزي المتوفى سنة ١٤١هـ. أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. وروى عنه قتادة، وسليمان التيمي، ومعمر بن راشد، وحماد بن زيد، وشعبة، وإسماعيل بن زكريا وغيرهم.

٥٧ ـ عامر بن السمط:

عامر بن السمط التميمي الكوفي أبو كنانة. وثقه ابن حجر وابن القطان، وخرج له النسائي في مسند عليّ.

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب.

٥٨ ـ عتبة بن عبد الله:

عتبة بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود أبو العميس الهذلي.

روى عنه شعبة، وأبو معاوية، وأبو أسامة، وثقه أحمد وابن معين. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، له نحو أربعين حديثاً.

٥٩ ـ عثمان بن فرقد:

عثمان بن فرقد العطار البصري[١]. روى له البخاري والترمذي.

٦٠ ـ عثمان بن عبد الرحمن:

عثمان بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري أبو عمر المدني الوقاص، ويقال له المالكي نسبة إلى جده الأعلى أبي وقاص مالك المتوفى في خلافة الرشيد.

كذبه ابن معين، قال ابن حجر متروك.

٦١ ـ عثمان بن مطر:

عثمان بن مطر البصري الشيباني. روى عنه مسلم بن إبراهيم. وخرج حديثه ابن ماجة.

٦٢ ـ عطاء بن مسلم:

عطاء بن مسلم الخفاف الحلبي أبو مخلد المتوفى سنة ١٩٠هـ.

روى عنه ابن المبارك، وأبو توبة، وعبد الرحمن بن يزيد، وهشام بن عمار. وثقه ابن معين، وخرج حديثه الترمذي في الشمائل، والنسائي في السنن.

٦٣ ـ علي بن حمزة:

علي بن حمزة أبو الحسن الأسدي المتوفى سنة ١٨٠ ـ ١٨٢هـ. المعروف بالكسائي العالم النحوي أحد الأئمة القراء من أهل الكوفة استوطن بغداد وكان قد تعلم النحو على كبر سنه، وقد روى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وجماعة من أعلام الحديث ذكره الذهبي.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٦ ـ ٤٥.

٦٤ ـ علي بن صالح:

علي بن صالح أبو الحسن الهمداني الكوفي المتوفى سنة ١٥١هـ.

خرج له مسلم والأربعة، وروى عنه ابن نمير ووكيع وأبو نعيم. وثقه أحمد، وابن معين. قال ابن المديني: له نحو ثمانين حديثاً، وقال ابن حجر: ثقة عابد من الطبقة التاسعة.

٦٥ ـ العوام بن حوشب:

العوام بن حوشب الشيباني الربعي أبو الحرث الواسطي المتوفى سنة ١٤٨هـ.

أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. قال العجلي ثقة روى عنه نحو مائتي حديث.

٦٦ ـ عيسى بن عمر:

عيسى بن عمر الأسدي الكوفي المتوفى سنة ١٥٦هـ. المعروف بالهمداني.

روى عنه ابن المبارك ووكيع. وثقه ابن معين والنسائي. خرج له الترمذي والنسائي.

٦٧ ـ عبد الجبار:

عبد الجبار بن العباس الهمداني الشامي. روى عنه مسلم بن قتيبة، وابن المبارك. قال أبو حاتم، وابن حجر: صدوق روى له البخاري في الأدب المفرد، والترمذي في صحيحه.

٦٨ ـ عبد العزيز:

عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون التميمي مولاهم المدني المتوفى سنة ١٦٦هـ. أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. روى عنه الليث وابن مهدي، وخلق كثير. وثقه ابن سعد، وابن حبان. وقال ابن معين: ثقة كان يرى القدر، ثم رجع. ذكره الشيخ والأردبيلي والاسترابادي في رواة حديث الصادق عليه السلام.

٦٩ ـ عبد العزيز:

عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي أبو محمد الجهني مولاهم المدني

المتوفى سنة ١٨٧هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح وروى عنه إسحق بن راهويه، ويعقوب الدورقي. وخلق كثير، وثقه ابن المديني وغيره.

٧٠ ـ عبد العزيز:

عبد العزيز بن عمران بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني المتوفى سنة ١٩٧هـ.

خرج حديثه الترمذي، وروى عنه ابنه سليمان، ويعقوب بن محمد الزهري، وعلي بن محمد المدائني، ومحمد بن عيسى الطباع، وأبو غسان الكناني، وإبراهيم بن المنذر وغيرهم.

٧١ ـ عبد العزيز:

عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي المدني المتوفى في خلافة المنصور، روى له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم والترمذي في الصحيح وابن ماجة في السنن.

٧٢ ـ عبد الوهاب:

عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى سنة ١٩٤هـ.

من شيوخ الشافعي، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وابن المديني وغيرهم.

٧٣ ـ عبد الملك بن جريح:

عبد الملك بن جريح[1] أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح توفي سنة ١٤٩هـ.

٧٤ ـ عبد الله بن رجاء:

عبد الله بن رجاء المكي أبو عمران المكي المتوفى سنة ١٨٠هـ.

روى عنه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وإسحق وخلق كثير. خرج حديثه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبخاري في جزء القراءة، وثقه ابن معين، وأبو حاتم، وابن سعد.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. الجزء الأول.

٧٥ ـ عبد الله بن جعفر:

عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدي مولاهم المدني المتوفى سنة ١٧٨هـ.

روى عنه قتيبة وعلي بن حجر. خرج حديثه الترمذي وابن ماجة.

٧٦ ـ عبد الله بن جعفر:

عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة أبو محمد المدني المتوفى سنة ١٧٠هـ. وثقه العجلي. وقال ابن معين: صدوق. خرج حديثه مسلم والأربعة.

٧٧ ـ عبد الله بن الزبير:

عبد الله بن الزبير بن عيسى الأسدي المكي المتوفى سنة ٢١٩هـ.

من شيوخ البخاري. خرج له في صحيحه، وروى له أبو داود الترمذي، وابن ماجة في التفسير، له كتاب عن الصادق يرويه عنه يعقوب الأسدي.

٧٨ ـ عبد الله بن دكين:

عبد الله بن دكين أبو عمر الكوفي نزيل بغداد. خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، روى عنه يزيد بن هرون، وأبو نعيم، وموسى بن إسماعيل، ومحمد بن بكار الريان وغيرهم، وثقه أحمد.

٧٩ ـ عبد الله بن ميمون:

عبد الله بن ميمون بن داود القداح المخزومي مولاهم المكي، روى عنه أبو الخطاب زياد بن يحيى، ومؤمل بن أهاب، ويعقوب بن حميد، وأبو الأزهر وغيرهم.

خرج حديثه الترمذي، ضعفه النسائي، وقال أبو حاتم: منكر الحديث. ووثقه ابن داود الحلي.

٨٠ ـ عبيد الله بن عمر:

عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو عثمان المدني المتوفى سنة ١٤٧هـ. أحد الفقهاء السبعة والعلماء الاثبات. ومن رجال الصحاح

الستة. روى عنه شعبة والسفيانان والليث ومعمر وخلق كثير. وذكر حديثه عن الصادق أبو نعيم في الحلية. وعده الشيخ وغيره من رجاله.

٨١ ـ علي بن هاشم:

علي بن هاشم بن البريد العابدي أبو الحسن الكوفي المتوفى سنة ١٨٠هـ. أحد الأعلام ومن شيوخ أحمد بن حنبل. وأحمد وابن معين، وابن منيع، وغيرهم. خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة.

٨٢ ـ علي بن عبد الأعلى:

أبو الحسن الكوفي الأحول خرج حديثه أبو داود، والنسائي والترمذي، وابن ماجة، وروى عنه إبراهيم بن طهمان، وهشيم، وزهير بن معاوية وغيرهم.

وثقه الترمذي، وقال أحمد والنسائي ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات.

٨٣ ـ عمرو بن خالد:

عمرو بن خالد القرشي. مولى بني هاشم. روى عنه إسماعيل بن يونس، وعباد بن كثير البصري، وجعفر بن زياد، وغيرهم. خرج حديثه ابن ماجة.

٨٤ ـ عمرو بن هرُون:

عمرو بن هرُون البلخي المتوفى سنة ١٩٤هـ. كان كثير الحديث، بصيراً بالقراءات. وكان من كبار الطبقة الرابعة. وخرج حديثه الترمذي وابن ماجة. وروى عنه الرازيون، وهشام بن عبيد الله وابن حميد وكان عنده من الصادق عليه السلام ستون حديثاً. وكتب عنه أحمد بن حنبل.

٨٥ ـ عمر بن قيس:

عمر بن قيس الملائي الكوفي المتوفى سنة ١٤٦هـ. روى عنه إسماعيل بن أبي خالد والثوري وإسماعيل بن زكريا، ومصعب بن سلام وغيرهم، وثقه أبو حاتم، وأحمد والنسائي، وروى له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة.

٨٦ ـ عمر بن دينار:

عمر بن دينار المكي أبو محمد الأثرم الجمحي مولاهم المتوفى سنة ١٢٦هـ.

روى عنه جماعة كمالك وشعبة وداود. أخذ عن الباقر والصادق عليهما السلام وحديثه في الصحاح الستة.

٨٧ ـ فضيل بن عياض:

فضيل بن عياض بن السعد بن بسر التميمي[١] المتوفى سنة ١٨٧هـ.

٨٨ ـ فضيل بن مرزوق الكوفي:

فضيل بن مرزوق الكوفي، روى عنه يحيى بن آدم وغيره، وثقه السفيانان وقال ابن معين: شديد التشيع. خرج حديثه مسلم والأربعة.

٨٩ ـ فليح بن سليمان:

فليح بن سليمان بن أبي المغيرة الخزاعي أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة ١٦٨هـ.

أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، روى عنه ابن وهب وأبو عامر وخلق كثير، ضعفه النسائي، وقال ابن حجر: صدوق كثير الخطأ.

٩٠ ـ القاسم بن معن:

القاسم بن معن ـ بفتح الميم وسكون العين ـ ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الهذلي المتوفى سنة ١٧٥هـ. أبو عبد الله الكوفي روى عنه ابن مهدي وأبو نعيم وغيره، وثقه أبو حاتم. خرج له أبو داود والنسائي.

٩١ ـ القاسم بن عبد الله:

القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عمر بن الخطاب العمري العدوي المتوفى سنة ١٥٠هـ. روى عنه محمد بن الحسن بن زبالة المدني وعبد الله بن وهيب وآخرون، رماه أحمد بن حنبل بالكذب. خرج له ابن ماجة.

٩٢ ـ محمد بن إسماعيل:

محمد بن إسماعيل بن جابر بن ربيعة أبو عبد الله الكوفي المتوفى سنة ١٦٧هـ. قال ابن حجر: صدوق يتشيع، خرج حديثه النسائي في الخصائص، وروى

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. الجزء الأول.

عنه يحيى بن آدم، وأبو نعيم، ويحيى الحماني، ومحمد بن الحسن بن المختار، ذكره ابن أبي حاتم من رواة حديث الصادق عليه السلام.

٩٣ ـ محمد بن إسحٰق:

محمد بن إسحٰق بن يسار المتوفى سنة ١٥١هـ. روى عنه يحيى الأنصاري وشعبة والحمادان وخلق كثير، خرج حديثه مسلم والأربعة.

٩٤ ـ محمد بن فليح:

محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة ١٩٧هـ. خرج له البخاري والنسائي وابن ماجة، روى عنه إبراهيم بن المنذر بن أبي علقمة الغروي، ومحمد بن يعقوب الزبيري، وأبو سعيد الأشج.

٩٥ ـ محمد بن الحسن:

محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني أبو الحسن الكوفي نزيل واسط. خرج حديثه الترمذي، وروى عنه إسماعيل بن إبراهيم الترجماني، والحسن بن حماد الحضرمي، وأحمد بن منيع وغيرهم.

٩٦ ـ محمد بن راشد:

أبو عبد الله محمد بن راشد المكحولي الدمشقي الخزاعي نزيل البصرة المتوفى سنة ١٧١هـ.

خرج حديثه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وروى عنه الثوري وشعبة ـ وهما من أقرانه ـ وابن المبارك وابن مهدي، وزيد بن أبي الزرقاء والوليد بن مسلم، ويزيد بن هٰرون وغيرهم. وثقه ابن معين، وقال عبد الرزاق ما رأيت رجلاً أورع منه في الحديث وقال أحمد بن حنبل: إنه ثقة ثقة. وسئل عنه أبو حاتم فقال: إنه كان رافضياً. وقال أبو زرعة: لم يكتب عنه أبو مسهر لأنه كان يرى الخروج على الأئمة (أي على حكام عصره).

قال الذهبي بعد نقله لقول أبي حاتم ونسبة ابن راشد للرفض: وفيه نظر فكيف يكون دمشقي نزيل البصرة رافضياً؟! والله أعلم.

وبعد قليل من مرافقة الذهبي في إشكاله وتأمله وتعجبه من رجل شامي ينسب

إلى الرفض وهي نسبة تحط بمقام الشخص، وتستوجب ترك حديثه وتعرضه لكل نقص وتهجم.

نعم بعد قليل يرتفع إشكال الذهبي ويتضح له الأمر فيقول: ثم تأملت فوجدته (أي محمد بن راشد الرافضي) خزاعياً وخزاعة يوالون أهل البيت[1].

ونحن هنا لا نود أن نخرج عن الموضوع فنعلق على هذا الكلام ولا نقول أكثر من قولنا: بأن موالاة أهل البيت وحبهم هو علامة الرفض عندهم والرفض كما أوضحته عبارات كثير من المحدثين موجب للرمي بالزندقة والخروج عن الإسلام، وموجب لترك الرواية، وهذه من جنايات سوء الفهم، والتحدي لنواميس الإسلام، والرد لوصايا النبي ﷺ بآله، ولزوم حبهم، ووجوب موالاتهم.

٩٧ ـ محمد بن مجيب:

محمد بن مجيب الثقفي الكوفي سكن بغداد وكان كثير الرواية عن جعفر بن محمد، وروى عنه عبد الرحمن بن عفان، وعبد الرحمن بن نافع، وعيسى بن محمد بن مسلم والفيض بن وثيق.

٩٨ ـ محمد بن ثابت:

محمد بن ثابت بن أسلم البناني البصري. روى عنه عبد الصمد بن عبدالوارث، وجعفر بن سليمان، وأبو داود الطيالسي، وأبو عبيدة وخلق كثير خرج حديثه الترمذي.

٩٩ ـ محمد بن جعفر:

محمد بن جعفر بن أبي كثير المدني، روى عنه خالد بن مخلد وسعيد بن أبي مريم وثقه ابن معين وقال ابن حجر في التقريب: ثقة من الطبقة السابعة خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

١٠٠ ـ معلى بن هلال:

معلى بن هلال الحضرمي أبو عبد الله الكوفي. روى عنه قتيبة كذبه أحمد وغيره، وخرج له ابن ماجة.

---

(١) ميزان الاعتدال ج٣ ص٥٥.

١٠١ ـ معمر بن راشد:

معمر بن راشد الصنعاني أبو عروة البصري المتوفى سنة ١٥٣هـ. قال ابن حجر: ثقة ثبت فاضل. روى عنه أيوب والثوري وخلق كثير، خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

١٠٢ ـ معمر بن يحيى:

معمر بن يحيى بن سام الضبي الكوفي، وثقه أبو زرعة، وخرج حديثه البخاري في صحيحه.

١٠٣ ـ منصور بن المعتمر:

منصور بن المعتمر السلمي أبو عتاب الكوفي المتوفى سنة ١٣٢هـ. روى عنه خلق كثير، وهو أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، وروى عن الباقر والصادق عليهما السلام، قال العجلي: ثقة ثبت له ألفي حديث.

١٠٤ ـ المنهال بن عمر:

المنهال بن عمر الأسدي مولاهم الكوفي، وثقه ابن معين والنسائي، وخرج له الحسين والباقر والصادق عليهم السلام.

١٠٥ ـ ميسرة بن حبيب:

ميسرة بن حبيب النهدي أبو حازم الكوفي، روى عنه شعبة وإسرائيل ووثقه ابن معين والعجلي والنسائي. خرج له البخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي والنسائي، قال ابن حجر: صدوق من السابعة.

١٠٦ ـ مالك بن أنس:

مالك بن أنس الأصبحي(١) المتوفى سنة ١٧٩هـ. أحد أئمة المذاهب الأربعة.

١٠٧ ـ مكي بن إبراهيم:

مكي بن إبراهيم الحنظلي أبو السكن البلخي المتوفى سنة ٢١٥هـ. أحد الحفاظ ومن شيوخ البخاري روايته في الصحاح الستة.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١.

١٠٨ ـ مسعود بن سعد:

مسعود بن سعد الكوفي أبو سعد الجعفي، روى عنه أبو خالد الأحمر وأبو غسان النهدي. قال ابن معين: ثقة من خيار عباد الله، وقال ابن حبان يكتب حديث. خرج له مسلم والنسائي.

١٠٩ ـ مسلم بن خالد:

مسلم بن خالد المخزومي مولاهم أبو خالد المكي المعروف بالزنجي المتوفى سنة ١٨٩هـ. روى عنه الشافعي وابن وهب وغيره وثقه ابن معين، خرج له أبو داود وابن ماجة.

١١٠ ـ مصعب بن سلام:

مصعب بن سلام التميمي الكوفي نزيل بغداد، روى عنه أحمد بن حنبل وأبو الأشج. قال ابن معين: ليس به بأس. وقال العجلي: ثقة. خرج له الترمذي في صحيحه.

١١١ ـ معاوية بن صالح:

معاوية بن صالح الحضرمي أبو عبد الرحمن الحمصي المتوفى سنة ١٥٨هـ. عالم الأندلس وقاضيها، روى عنه الثوري والليث وابن وهب، وثقه أحمد، وابن معين. روى له مسلم والأربعة.

١١٢ ـ معاوية بن عمار:

معاوية بن عمار البجلي الدهني المتوفى سنة ١٧٥هـ. روى عنه يحيى بن سعيد، ومعاذ بن معاذ وخلق كثير، وثقه ابن معين، وابن داود. روى له مسلم والترمذي والنسائي. قال في نهج المقال: له كتب يرويها عنه أصحابنا: كتاب الصلاة، كتاب يوم وليلة، كتاب الطلاق، كتاب الدعاء.

١١٣ ـ معروف بن خربوذ:

معروف بن خربوذ ـ بفتح الخاء والراء ـ مولى عثمان بن عفان المكي، روى عنه وكيع وغيره، خرج له البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة وهو من تلامذة الباقر والصادق عليه السلام. وهو غير معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠هـ والمدفون ببغداد وهو من علماء الشيعة وأصحاب الإمام الرضا عليه السلام وقبره ظاهر يزار.

١١٤ ـ مفضل:

أبو جميلة مفضل بن صالح الأسدي الكوفي النخاس. خرج حديثه الترمذي، وروى عنه محمد بن عبيد المحاربي، وأحمد بن بديل اليامي، ومحمد بن إسماعيل الأحمسي وغيرهم.

١١٥ ـ النعمان بن ثابت:

النعمان بن ثابت أبو حنيفة التيمي(١) مولاهم الكوفي المتوفى سنة ١٥٠هـ رئيس المذهب الحنفي.

١١٦ ـ نوح بن دراج:

نوح بن دراج النخعي مولاهم الكوفي القاضي المتوفى سنة ١٨٢هـ، روى عنه سعيد بن منصور، وخرج له ابن ماجة في التفسير.

١١٧ ـ هٰرون بن سعد العجلي:

هٰرون بن سعد العجلي، قال ابن معين: ليس به بأس. خرج له مسلم في صحيحه، وقال الكشي: هو زيدي. وقال ابن حجر: رمي بالرفض. ويقال رجع عنه.

١١٨ ـ هٰرون بن موسى:

هٰرون بن موسى الأزدي مولاهم أبو عبد الله القارىء. روى عنه بهز بن أسد، ومسلم بن إبراهيم، وخلق كثير، خرج له البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود، وثقه ابن معين. قال ابن حجر: ثقة مقرىء إلا أنه رمي بالقدر من السابعة.

١١٩ ـ هلال بن أبي حميد:

هلال بن أبي حميد أو ابن مقلاص أبو أيوب الصيرفي الكوفي. روى عنه مسعر وشعبة وخرج له البخاري وأبو داود، ومسلم والترمذي والنسائي.

١٢٠ ـ وهيب بن خالد:

وهيب بن خالد الباهلي البصري المتوفى سنة ١٦٥هـ. أحد الحفاظ الأعلام

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب.

ومن رجال الصحاح الستة. قال ابن سعد: حجة كثير الحديث. وقال في منهج المقال. وهيب بن خالد البصري ثقة، وقال النجاشي: إن له كتاباً يرويه عنه إسماعيل.

١٢١ ـ يحيى بن سعيد:

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان[١] المتوفى سنة ١٩٨هـ. أحد الأعلام ومن الحفاظ المشهورين. روى عنه أصحاب الصحاح الستة، وهو من شيوخ أحمد وابن معين.

١٢٢ ـ يحيى بن قيس:

يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري المدني أبو سعيد المدني القاضي المتوفى سنة ١٤٤هـ. روى عنه الأوزاعي والسفيانان وخلق كثير، قال ابن المديني: له ثلاثمائة حديث خرج له البخاري في الأدب المفرد. قال ابن سعد: ثقة حجة.

١٢٣ ـ يحيى بن سليم:

يحيى بن سليم الطائفي أبو محمد القرشي نزيل مكة المتوفى سنة ١٩٣هـ. روى عنه أحمد وإسحق وقتيبة. احتج به البخاري والجماعة. وثقه ابن معين والنسائي وابن سعد.

١٢٤ ـ يعلى بن الحرث:

يعلى بن الحرث المحاربي الكوفي المتوفى سنة ١٦٨هـ. روى عنه وكيع وابن مهدي وجماعة، وثقه ابن معين، وخرج له البخاري، ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجة.

* * *

وبهذه العجالة نكتفي عن التوسع في ذكر الرواة إذ لا يسع المجال هنا لأكثر من هؤلاء وقد ذكرنا عدداً وافراً منهم في كتابنا عن حياة الإمام الصادق، كما أننا سنتعرض لذكر حملة فقهه من الشيعة في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وسيأتي ذكر آخرين منهم في بحثنا عن رجال الحديث من الشيعة في الجزء

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ـ الجزء الأول.

السادس من الذين خرّج حديثهم أصحاب الصحاح الستة ويتجاوز عددهم ثلاثمائة رجل.

الرواة:

نظراً لاشتهار مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، إذ أصبحت جامعة إسلامية كبرى، تقصدها وفود الأمصار، فقد كثر المنتمون إليها من جميع الأطراف على اختلافهم في الآراء والمعتقدات، والميول والنزعات، ولهذا فلم يكونوا سواء في حسن الاستماع، وقوة الحفظ، وصدق اللهجة، وإخلاص النية.

وربما كان فيهم من ذوي الأغراض السيئة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، لغاية في نفوسهم، فتعمدوا الكذب، ونسبوا إليه عليه السلام ما لم يصدر عنه أمثال:

وهب بن وهب القاضي المعروف بأبي البختري، فقد اشتهر هذا الرجل في الكذب ذكره، وعرف أمره[1].

وسالم بن أبي حفصة العجلي[2] والمغيرة بن سعيد، وصائد النهدي ومحمد بن مقلاص.

وحيث كان لوضاع الأحاديث أخطر آفة على العلم، وأعظم خطر على الدين، فقد أعلن الإمام عليه السلام للملأ وجوب الحذر، ولزوم التحفظ من هؤلاء الذين انحرفوا عن طريق الاستقامة والصواب، فكان يقول: والله ما الناصب لنا حرباً بأشد علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره. ويقول: إن الناس قد أولعوا بالكذب علينا، وإني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير تأويله، وذلك انهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله وإنما يطلبون الدنيا، وكل يحب أن يدعى رأساً.

وقد كان بعضهم يغير ما ينقله عنه بزيادة أو نقيصة. قال له رجل من أصحابه: يا ابن رسول الله قد بلغنا عنك أنك قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم. فقال أبو عبد الله إني قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم، فإنه يقبل منكم. وكان يقول: إنا أهل بيت لا

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ـ ج١.

(٢) هو أبو يونس سالم بن أبي حفصة المتوفى سنة ١٤٠هـ خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد والترمذي في صحيحه، قال ابن داود: كان يكذب على أبي جعفر وقد لعنه الإمام الصادق عليه السلام.

يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منا، ولا أهل ديننا، فإذا رفعه ونظر الناس إليه، أمره الشيطان فيكذب علينا. إلى غير ذلك من أقواله في تحذير الأمة من قبول ما ينقل عنه بواسطة أولئك الدجالين كأبي البختري وأضرابه من الكذابين، وأبي الخطاب وأمثاله من الغلاة الذين اندسوا في صفوف المسلمين ليفرقوا الكلمة ويغيروا القلوب، وقد قضى الإمام الصادق عليه السلام على حركاتهم، وفرق شملهم، ولم يبق لهم ذكر إلا في بطون الكتب وعلى ألسنة دعاة الفرقة الذين تجندوا لخدمة خصوم الإسلام وهم كما يقول القائل:

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن علموا شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

وقد اهتم علماء الحديث من الشيعة وبذلوا جهدهم في عناية تامة بالبحث والتحقيق عن معرفة الحديث وترتيب طبقات رجاله والتثبت في أحوالهم وبيان عدالتهم فألفوا كتباً تكشف النقاب عن أحوال الرجال منها:

كتاب الرجال لشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ.

وكتاب الشيخ أحمد بن علي بن أحمد النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠هـ.

وكتاب الضعفاء المنسوب للشيخ أحمد بن عبيد الله الغضائري وكان معاصراً للشيخ الطوسي.

وكتاب تقي الدين الحسن بن علي بن داود وهو من تلامذة جمال الدين بن طاووس والمحقق الحلي.

وكتاب الخلاصة لأبي منصور جمال الدين العلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦هـ.

وغيرها من كتب الرجال، وقد تشدد الشيعة في قبول الرواية أكثر من غيرهم، ولهم شروط خاصة، والمسلمون بصورة عامة يشترطون شروطاً في الراوي حذراً من الكذابين الذين أخبر عنهم النبي ﷺ فقال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ولهذا كان الصحابة لا يأخذون بالرواية إلا ممن يصح الأخذ عنهم ويتأكدون في ذلك مع قرب عهدهم من النبي ﷺ.

مشاهير الثقات:

كان من المناسب ذكر مشاهير الثقات من أصحاب الإمام الصادق والمؤلفين منهم وبيان أحوالهم بترجمة وافية، ولكن نطاق هذا الجزء لا يتسع لذكرهم وسيأتي ذلك في الجزء الثالث إن شاء الله، ونرى هنا أن نشير إلى بعض المؤلفين من الرواة لحديثه عليه السلام ونترك ذكر الآخرين لمحل آخر، ونقتصر على ذكر أسمائهم حذراً من الإطالة.

إبراهيم بن خالد العطار العبدي، وإبراهيم بن نعيم العبدي المعروف بأبي الصباح، وإسحق بن بشر الكاهلي، وإسحق بن جندب، وأنس بن عياض الليثي المدني، وبرد الاسكاف الأزدي من تلامذة الباقر والصادق عليهما السلام، وأيوب بن عطية الحذاء، وثابت بن جرير، وثابت الضرير، وثعلبة بن ميمون القارىء الفقيه، وجحدر بن المغيرة الطائي الكوفي، وجفير بن الحكم أبي المنذر العبدي، وجميل بن دراج، وحارث بن المغيرة النضري، وحبيب بن النعمان الأعرابي الأسدي، وحذيفة بن زائدة الأسدي، وحريز بن عبد الله الأزدي السجستاني، وحسان بن مهران الكوفي، والحسن بن الحسين بن الحسن الجحدري الكندي، وخطاب بن مسلم الكوفي، وخلاد السندي البزاز الكوفي، وداود بن الحسن الأسدي الكوفي، وداود بن سرحان العطار الكوفي، ورافع بن سلمة بن زياد بن أبي الجعد الأشجعي، وزريق بن الزبير الخلقاني، وزكريا بن يحيى الواسطي، وزيد بن يونس أو ابن موسى أبي أسامة الشحام الكوفي، وسالم الحناط أبي الفضل الكوفي، وسالم بن مكرم بن عبد الله من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام، والسري بن عبد الله بن يعقوب السلمي الكوفي، وسعيد بن عبد الرحمن وعبد الله الأعرج السمان التميمي الكوفي، وسعيد بن غزوان الأسدي، وكتاب سلام بن أبي عمرة الخراساني وهو من الكتب الموجودة الباقية[1]، وسليم الفراء الكوفي، وسليمان بن داود المنقري أبو أيوب الشاذكوني، وسماعة بن مهران الحضرمي، وسويد بن مسلم، وسيف بن سليمان التمار الكوفي، وشعيب العقرقوفي، وشهاب بن عبد ربه بن أبي ميمون من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام والصباح الحذاء بن صبيح

---

(١) الذريعة ج٦ ص٣٣٦.

إمام مسجد دار اللؤلؤ بالكوفة، وصباح بن يحيى المزني الكوفي من تلامذة الباقر والصادق عليهما السلام، وصفوان بن مهران الكوفي، وطلاب بن حوشب الشيباني الكوفي، وعاصم بن سليمان البصري، وعامر بن جداعة الأزدي، وعبيد بن زرارة بن أعين الشيباني، وعبيد الله بن الوليد الرصافي يروي عن الباقر والصادق عليهما السلام، وعقبة بن خالد الأسدي الكوفي، وعلي بن عقبة بن خالد الأسدي الكوفي، وعمار بن مروان اليشكري، وعمار بن موسى الساباطي، وعمرو بن إبراهيم الأزدي، وعمرو بن الياس بن عمرو بن الياس البجلي، وعمرو بن حريث الصيرفي الأسدي الكوفي، وعمرو بن خالد الأفرق الخياط، وعمرو بن منهال بن مقلاص الصيرفي، وأبي محمد بن قتيبة بن محمد الأعشى المؤدب المغربي، وكعيب بن عبد اللّه مولى بني طرفة الكوفي، ومالك بن عطية الأحمسي الكوفي البجلي، ومحمد بن حمران النهدي، ومحمد بن عذافر بن عيسى الصيرفي المديني من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام، وعباد بن صهيب أبو بكر البصري، وعباس بن الوليد بن صبيح الكوفي، وعبد الحميد بن أبي العلاء بن عبد الملك الأزدي، وعبد الرحمن بن محمد بن عبيد اللّه الفزاري، وعبد الغفار بن حبيب الطائي، وعبد الغفار بن قيس بن فهد الأنصاري من تلامذة الباقر والصادق عليهما السلام، وعبد الكريم بن هلال الجعفي الكوفي يقال له الخلقاني، وعبد اللّه بن أبي يعفور وعبد اللّه بن بكير بن أعين الشيباني، وعبد اللّه بن زرارة بن أعين الشيباني، وعبد اللّه بن سعيد بن شبل، وعبد اللّه بن غالب الأسدي الشاعر الفقيه، وعبد اللّه بن الفضل بن عبد اللّه الهاشمي النوفلي، وعبد الملك بن حكيم الخثعمي الكوفي، وعبد الملك بن عتبة النخعي الصيرفي الكوفي.

إلى آخر ما هو مذكور في كتاب الفهرست للشيخ الطوسي، وكتاب النجاشي، وجامع الرواة. وقد ذكر شيخنا البحاثة حجة الإسلام الشيخ محمد المحسن الطهراني في كتابه الذريعة الجزء السادس عدداً وافراً منها في حرف الحاء، وذكر طرق الرواية لها، كما أنه ذكر في الجزء الأول في حرف الهمزة في باب الأصول عدداً كثيراً من رجال الأصول الذين دونوا أحاديثهم عن الإمام الصادق عليه السلام. وقد ذكرنا بعض من لهم كتب عن الإمام الصادق عليه السلام في تلك المجموعة المتقدمة ولم نعد ذكرهم كما أنا لم نذكر من هؤلاء هناك.

جابر بن حيان:

اشتهر جابر بن حيان بعلم الكيميا، وهو أول من عرف به، ونسب أخذه وتعلمه لذلك عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد اختلفت الآراء في ذلك، وها نحن ذا نذكره استطراداً في البحث، فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي ويقال الحراني الصوفي، فهو أول من اشتهر في علم الكيميا وتلميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو أول من تكلم في علم الكيميا، ووضع فيها الكتب وبين صنعة الاكسير والميزان، ونظر في كتب الفلاسفة في الإسلام، واكتشف جابر في امتحاناته أموراً كثيرة في علم الكيميا، وترجمت بعض مصنفاته إلى جميع اللغات، وطبعت واشتغل بها الناس فانتفعوا بها، ونسب إليه قوم اختراع الجبر، وألف خمسمائة رسالة في الكيميا في ألف ورقة، وهي تتضمن رسائل جعفر الصادق عليه السلام واختلف الناس في أمر جابر اختلافاً كثيراً.

فيذهب البعض إلى أنه شخصية موهومة، وأنه اسم موضوع. وضعه المصنفون في هذا الفن. ويؤيدون هذا الرأي بأن شخصية جابر تلك الشخصية العظيمة لم يكن لها ذكر في تاريخ العرب.

وأجاب ابن النديم عن هذا الإيراد بقوله: «إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ويتعب يده وجسمه بنسجه ثم ينحله لغيره، إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل وأن ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم، وأي فائدة في هذا وأي عائدة، والرجل له حقيقة، وأمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكثر، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة أنا أوردها في مواضعها، وكتب في معان شتى من العلوم قد ذكرتها في مواضعها من الكتاب. وقد قيل إن أصله من خراسان، والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان». ثم ذكر ابن النديم مؤلفاته(١).

وللقدماء والمتأخرين ومن المستشرقين كلام كثير في شأن جابر، وقد نشر رسائله المستشرق كراوس، وفيها دلالة على تشيعه وأخذه عن الإمام الصادق عليه السلام

(١) فهرست ابن النديم.

كإمام مفترض الطاعة متبع الرأي.

وقد كبر على المستشرقين أن يكون رجل عربي مسلم ومن أهل القرن الثاني للهجرة يمتاز بتلك الآراء السديدة، وتكون نظرياته الأسس العامة التي قام عليها علم الكيميا قديمة وحديثة، فصاروا يخبطون في تعرضهم لكتبه كحاطب ليل، فمرة يشكون في وجوده وتارة في زمانه، وأخرى فيما نسب إليه من تلك الكتب، ورابعة في نسبة ما يرويه البعض عن أستاذه الصادق عليه السلام، وخامساً في التبويب والوضع والأسلوب لأنه لم يكن يعرفه أهل ذلك العصر إلى غير ذلك.

وقد فند تلك الشكوك والمزاعم الكاتب إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور فيما نشره في المقتطف (٦٨، ٥٤٤، ٥٥١، ٦١٧، ٦٢٥) وجلى في هذه الحلبة الأستاذ أحمد زكي صالح فيما كتبه في مجلة الرسالة المصرية السنة الثامنة ص١٢٠٤ و١٢٠٦.

ولقد فند تلك الأوهام والمزاعم تنفيداً حكيماً علمياً وصرح مراراً بتشيعه وقال في مناقشة رأي الأستاذ كراوس: ومن الجلي الواضح لدى كل من درس علم الكلام أن فرق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة، وكانت أول من أسس المذاهب الدينية على أسس فلسفية حتى أن البعض ينسب فلسفة خاصة لعلي بن أبي طالب عليه السلام[1].

ومنهم من يقول إنه تلميذ خالد بن يزيد، واستدل ملا كتاب جلبي على ذلك بالبيتين المشهورين من قول بعض الشعراء:

حكمة أورثناها جابر عن إمام صادق القول وفي
لوصي طاب في تربته فهو كالمسك تراب النجف

وذلك لأن خالد بن يزيد وفي لعلي واعترف له بالخلافة، وترك الإمارة[2] وهذا الاستدلال بعيد عن إثبات الدعوى من كل وجه بما لا حاجة إلى إيضاحه، وعبارات جابر بن حيان في رسائله تؤيد ما يقوله الأكثر بأنه أخذ ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام فقد كرر في عباراته ما يشعر بذلك، ويعبر عنه بقوله: حدثني سيدي

(١) حياة الإمام الصادق للمظفر ص٢٠٢.

(٢) كشف الظنون ج٢ ص١٩٨.

عن آبائه واحداً بعد واحد وقال لي...[1]. ويقول: وكنت يوماً قاصداً دار سيدي جعفر «صلوات الله عليه»، ويكثر من قوله: وحق الله وحق سيدي صلوات الله عليه...[2].

وفي ص ٣١٦ في المقالة ٢٤: رضي الله عن سيدي فإنه كان إذا مر به مثل هذه الخواص شيء قال: يا جابر هذه حياة القلوب وما ينبغي إذا نظرت في كتبنا هذه إلا أن تجمعها وما ينضاف إليها من فنونها والسلام.

وقد نص أكثر المؤرخين والكتّاب على ذلك كابن خلكان في وفيات الأعيان، واليافعي في مرآة الجنان، وابن الوردي في تاريخه، والحاج خليفة في كشف الظنون، وبطرس البستاني في دائرة المعارف، و(ش) سامي في قاموس الاعلام باللغة التركية.

ويقول الأستاذ الدكتور محمد يحيى في كتابه الإمام الصادق ملهم الكيمياء:

من الأمور التي تلفت النظر في تاريخ العلوم مشكلة الإمام جعفر الصادق عليه السلام وعلاقته الكبرى مع جابر بن حيان، أبو الكيمياء في العصور الوسطى، ولقد تصدى إلى هذا الموضوع عدد من المستشرقين، والكيمائيين، فلم يوفوه حقه، لأنهم عالجوا المشكلة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في رسائل جابر نفسها، مما لها علاقة مع الإمام الصادق مبرزين ميزاتها، وإمكانية صدورها عن الإمام، وإننا في هذه الدراسة المقتضبة سوف نحاول أن نقوم في عمل هذا الاستقراء. مستعينين بما وصل إلى أيدينا من المصادر التي نعترف بأنها قليلة، ومن الضروري عمل دراسة عملية عن الإمام جعفر الصادق، ومكانته الأدبية، ودوره في التاريخ الفكري الإسلامي لتظهر لنا كثيراً من النقط الغامضة على ضوء النهار.

إلى أن يقول في ص٣٩: لدى مطالعتنا للتراث الضخم الذي خلفه لنا جابر عن الكيمياء نرى اعترافاً صريحاً بأن المعلم لهذه الصنعة هو الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وقد اطلع على هذه الحقيقة كثير من المستشرقين الغربيين فاعتقدوا في ذلك مبالغة عظيمة، وفي النقد الذي وجهوه ضد هذه المشكلة قالوا: إنه لمن

(١) رسائل جابر بن حيان التي نشرها المستشرق كراوس ص٣٣٥ في كتاب السر المكنون.
(٢) كتاب الخواص الكبير ص٢٠٥.

المستحيل على جعفر أن يلمّ هذا الإلمام العظيم بالعلوم والفنون التي ذكرها جابر في المخطوطات التي وصلت إلينا، والتي يوجد منها عدد كبير في القاهرة، والتي لم تدرس الدراسة الكافية بعد، ويعتقد (دروسكا) انه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيمائياً، فليس من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواء كان ذلك نظرياً أو عملياً وهو في المدينة، ولقد أعجب كل من (برتلو الافرنسي) و(هولميارد الإنكليزي) بالمعلومات التي تسند إلى جابر. إلى آخر ما ذكره في تصحيح نسبة اتصال جابر بالإمام جعفر عليه السلام ولا نتعرض لأكثر من هذا فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به جابر بن حيان، وإنما تعرضنا له على سبيل الإشارة والاستطراد.

وإذا تأملنا أغراض المستشرقين فلا نستغرب منهم هذه المحاولات للتشكيك وهي لا تنال من الحقيقة وإن من أول الشخصيات التي اشتغلت بالكيمياء في الإسلام هو جابر وقد أثر في الكيمياء الأوربية وكان انتسابه إلى جامعة الإمام الصادق هو الأساس في هذه المكانة.

الفرق:

لما كانت مدرسة الإمام جامعة للعلوم، ولم يكن هناك منهج خاص للمسائل التي يسأل فيها، بل كان تارة يسأل عن مختلف العلوم والمسائل المشكلة فيحلها، ويبتدىء تارة فيهدي قلوباً متنكبة عن جدد الطريق، وتارة يجتمعون حواليه فيحدثهم عن آبائه عن جده فيما يصلح لمعادهم ومعاشهم وربما يملي ويكتب الكتاب في أهم مسائل علم الكلام والحديث، لذلك كانت مدرسته موضع عناية المفكرين يقصدها زعماء الفرق، فكان الإمام يناظرهم، وقد اجتمع بكثير منهم في العراق ومكة، فكانوا يخضعون لعذوبة منطقه، وحسن بيانه وقوة حجته، وقدرته الفائقة في التوجيه، لاتساع علمه، وساطع برهانه. وقد حضر عنده كثير من أهل الآراء والمعتقدات المنحرفة فهدى الله به بعضاً منهم وتعنت آخرون. وسنشير إلى ذكر الفرق في عصره ومناظراته معهم واهتمامه العظيم في اعتدال اعوجاج طرقهم، وإن كان ذكرهم هنا أجدر، ولكن ضيق المجال أرغمنا على تأخيره، لذلك أشرنا إليه.

بقيت أمور كثيرة تتعلق بمدرسة الإمام الصادق عليه السلام، وتعاليمه وحديثه وتلامذته، والعلوم التي كان يتلقاها الناس عنه. وقد التزمنا في جميع الأجزاء أن يكون

بحثنا عن الإمام الصادق عليه السلام بدءاً وختاماً وإلى اللقاء في الأجزاء القادمة ومن الله التوفيق.

كما أننا لم نتعرض في بحثنا عن حياة الإمام الصادق عليه السلام، لسلسلة الآباء والأمهات، لأنا في غنى عن ذلك فنسبه أجلى من الشمس، والتعرض له يستدعي الخروج عن الموضوع، لما يتعلق بحياة آبائه الطاهرين، وبيان مآثرهم، ولم يكن هناك شيء من الغموض والخفاء، لنحاول إيضاحه وبيانه. على أن بقية من التزمنا بالبحث عنهم في هذا الكتاب من رؤساء المذاهب قد كثر الاختلاف في آبائهم وولادتهم بالزمان والمكان، والتاريخ لم يحتفظ لآبائهم إلا بالاسم فقط، وقد مرت الإشارة إلى الاختلاف في نسب أبي حنيفة، وسيأتي البيان عند ذكر الباقين.

وعلى أي حال فإنا لا نتعرض لذكر نسب الإمام الصادق عليه السلام هنا، ونعترف بالعجز عن إعطاء البحث عنهم حقه، لاتساع دائرته وأنه يستدعي الإطالة في هذا الكتاب(*) ولهذا فقد اقتصرنا على الإشارة والبيان الموجز عن حياة أبيه الإمام الباقر عليه السلام إذ البحث عن حياته من صميم الموضوع. لأنه قد تربى في ظله، وغذاه بعلومه، واختص بتربيته وتعليمه، فلننتقل إلى البحث عن حياة الإمام الباقر عليه السلام موجزين في القول مهما ساعدنا الإيجاز ورافقنا الاختصار.

(*) أفردنا ترجمة الإمام الصداق عليه السلام مع ذكر سلسلة الآباء والأبناء في كتاب منفرد يختص بحياته وهو مخطوط.

الإمام الصادق
في ظل أبيه الباقر

تمهيد:

ذكرنا فيما مضى أن الإمام الصادق قد تلقى علومه عن جده زين العابدين وأبيه الباقر عليهما السلام وقضى شطراً من حياته في ظلهما وتحت عنايتهما وهو وصي أبيه والقائم بأعباء الإمامة من بعده.

ولا نستطيع هنا أن نعطي موضوع البحث عن حياة الإمام الباقر عليه السلام حقه، بل نقتصر على الإشارة فيما يتعلق بمكانته، وقيامه بالإصلاح وتوجيه الأمة، وذكر بعض تلامذته ورواة حديثه من كبار التابعين وغيرهم.

فإن حياته حافلة بأعمال جليلة ومآثر عظيمة، فقد فتحت في عصره معاهد العلم، وعقدت فيه مجالس البحث عن العرفان والأدب وسائر العلوم، وكانت حلقة درسه في المدينة تضم كبار التابعين وأعيان الفقهاء، ولا تعقد أي حلقة هناك إلا بعد انتهاء حلقة درسه، وأقبلت الوفود تحج إلى مغناه وتهتدي بهديه، يستبقون إلى انتهال تعاليم جده، فهو ينطق بلسانه ويحكم بشريعته وينزه الدين الإسلامي عن فتاوى علماء السوء المتزلفين للسلطة، الناعمين بخيراتها والنافخين ببوقها.

وقد أوجد في عصره حركة ونشاطاً للعلم، ومركزاً للحياة الفكرية والاجتماعية، والتفّ حوله طلاب العلم ورواد الحقيقة، رغم تلك العقبات التي يواجهها المتصل بأهل البيت، وقد اجتازوا مراحل الخطر بقوة الإيمان ورسوخ العقيدة.

الإمام الباقر:

أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. ولد في

المدينة سنة ٥٧هـ وتوفي سنة ١١٤هـ فيكون عمره ٥٧ سنة على رواية الشيخ المفيد في الإرشاد[١] ووافقه ابن كثير في النهاية وابن الأثير في تاريخه، وقال المسعودي: إنه توفي في أيام الوليد.

وعلى أي حال فإن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أدرك جده الحسين وشاهد وقعة الطف المحزنة، وأقام معه ثلاث سنين أو أربع سنين، ومع أبيه زين العابدين أربعاً وثلاثين سنة، وبعد أبيه تسع عشرة سنة وقيل ثماني عشرة سنة، وعاشر من ملوك عصره معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة ٦٠هـ، ويزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك.

وتوفي سنة ١١٤هـ كما عليه الأكثر في خلافة هشام بن عبد الملك مسموماً.

كنيته ولقبه:

يكنى بأبي جعفر الأول، ويلقب بالباقر لأنه تبحر في العلم وأخرج غوامضه.

قال صاحب القاموس: والباقر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لتبحره في العلم[٢].

وقال محمد بن المكرم: التبقر التوسع في العلم والمال، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي: الباقر رضوان الله عليهم، لأنه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه[٣].

وقال الدميري: بقر مأخوذ من الشق، ومنه قيل لمحمد بن علي: الباقر لأنه بقر العلم أي شقه ودخل فيه مدخلاً عظيماً[٤].

وقال أبو الفداء: وقيل له الباقر لتبقره في العلم أي توسعه فيه وولد الباقر سنة ٥٧هـ[٥].

---

(١) الإرشاد ص٢٤١ وتاريخ ابن كثير ج٩ ص٨٤ وابن الأثير ج٥ ص٨٤.

(٢) القاموس المحيط ج١ ص٣٧٦.

(٣) لسان العرب ج٥ ص١٤٠ ط١.

(٤) حياة الحيوان ج١ ص١٤٧.

(٥) تاريخ أبو الفداء ج١ ص٢١٥.

وقال الذهبي في ترجمة الإمام الباقر: كان سيد بني هاشم، في زمانه، اشتهر بالباقر من قولهم بقر العلم يعني شقه فعلم أصله وخفيه[1] وان أول من لقبه بذلك هو جده رسول الله ﷺ.

كما ورد عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري المتوفى سنة ٧٨هـ: أن النبي ﷺ قال له: يوشك أن تبقى حتى تلقى ولداً لي من الحسين يقال له محمد يبقر العلم بقراً فإذا لقيته فاقرأه مني السلام[2].

وفي رواية اليعقوبي قال جابر بن عبد اللّه الأنصاري: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدي أشبه الناس بي اسمه اسمي إذا رأيته فاقرأه مني السلام». فلما كبر سن جابر وخاف الموت فجعل يقول يا باقر يا باقر!...[3].

وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: ذكر المدائني عن جابر بن عبد اللّه أنه قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ والحسين في حجره وهو يداعبه فقال يا جابر: يولد مولود اسمه علي إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيد العابدين، فيقوم ولده ثم يولد له ولد اسمه محمد فإن أدركته فاقرأه مني السلام[4].

وبهذا رواه الشبلنجي عن الزبير بن محمد بن مسلم[5].

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة: أن النبي ﷺ قال له: يا جابر إنك مستعمر بعدي حتى يولد مولود اسمه كاسمي يبقر العلم بقراً فإذا لقيته فاقرأه عني السلام[6].

وعلى كل حال فقد كان هو المتفرد في علوم الإسلام في عصره، كما اتضح ذلك من سيرته عند دراسة حياته، فإن له الأثر العظيم في توجيه الفكر رغم ما هنالك من عوارض وموانع تقف أمام أداء رسالته. وقد تكتم التاريخ عن إظهار أكثر الحقائق التي كان الأجدر إظهارها وحفظها للأجيال.

---

(١) تذكرة الحفاظ ج١ ص١١٧.
(٢) القاموس المحيط في هامش ٣٧٦ ج١، والفصول المهمة لابن الصباغ ص١٩٣.
(٣) تاريخ اليعقوبي ج٣ ص٦١.
(٤) تذكرة الخواص ص٣٤٧ وأحسن القصص للسيد علي فكري ج٤ ص٣٨٠.
(٥) نور الأبصار ص١٤٣.
(٦) عيون الأخبار ج١ ص٢١٢.

واستمرت سياسة التضييق على فكر أئمة أهل البيت عليهم السلام يتبعها الحكام الظلمة ويسيرون عليها، فإن بني أمية الذين ذاق الإمام الباقر عليه السلام على أيديهم المرارة وحاول ملوكهم الأشرار الذين عاصروه الإساءة إليه وتطويق دائرة تأثيره لم ينته نهجهم بانتهاء حكمهم وسقوط عرشهم بل استأنف من جاء بعدهم ذات السياسة لأن أئمة آل البيت أصحاب رسالة ما وهنوا في أدائها ولا استكانوا أمام ضغوط أصحاب السلطان الزمني الذين رأوا أيضاً في مواقف أهل البيت تهديداً لجورهم وخطراً عليهم.

أقوال العلماء فيه:

«ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفاً يقارنه في الفضل حتى رأيت ابنه محمد الباقر».

محمد بن المنكدر

«ما رأيت العلماء عند أحد من العلماء أصغر علماً منهم عند محمد بن علي الباقر»[1].

عبد الله بن عطاء

«محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه القرشي الهاشمي المدني أبو جعفر المعروف بالباقر، سمي بذلك لأنه بقر العلم أي شقه فعرف أصله وعرف خفيه. وأمه أم عبد الله بنت حسن بن علي بن أبي طالب وهو تابعي جليل، إمام بارع مجمع على جلالته، معدود في فقهاء المدينة وأئمتهم، سمع جابراً وأنساً وسمع جماعات من كبار التابعين كأبي المسيب وابن الحنفية وغيرهما، روى عنه أبو إسحق السبيعي وعطاء بن رباح وعمر بن دينار الأعرج وهو أسنّ منه والزهري وربيعة وخلائق آخرون من التابعين وكبار الأئمة، وروى له البخاري ومسلم»[2].

محيي الدين بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ

«أبو جعفر الباقر محمد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم، أحد الأئمة الاثنى عشر في اعتقاد الإمامية وهو والد جعفر

(١) حلية الأولياء.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات لشرف الدين النووي.

الصادق، لقب بالباقر لأنه بقر العلم أي شقه وتوسع فيه ويقول الشاعر:

يـا بـاقـر الـعـلـم لأهـل الـتـقـى وخـيـر مـن حـج عـلـى الأجـبـل

وقال عبد اللّه بن عطاء ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند محمد بن علي. عاش رضي الله عنه ستاً وخمسين سنة، ودفن في البقيع مع أبيه»[1].

عفيف الدين اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨هـ

«أبو جعفر محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولد سنة ٥٦هـ كان من فقهاء أهل المدينة، وقيل له الباقر، لأنه بقر العلم أي شقه وعرف أصله وتوسع فيه، وهو أحد الأئمة الاثنى عشر على اعتقاد الإمامية. قال عبد اللّه بن عطاء: ما رأيت العلماء أصغر منهم علماً عنده، وله كلام نافع في الحكم والمواعظ. مات رضي الله عنه سنة ١١٤هـ ودفن بالبقيع»[2].

ابو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ

«محمد بن علي الباقر عليه السلام، هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه ومتفوق دره وراضعه ومنمق درره وراصعه، صفا قلبه وزكا عمله وطهرت نفسه وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة الله أوقاته، ورسخت في مقام التقوى قدمه، وظهرت عليه سمات الازدلاف وطهارة الاجتباء، فالمناقب تسبق إليه، والصفات تشرف به، فأما ولادته فبالمدينة في ثالث صفر من سنة سبع وخمسين للهجرة، قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين، وله ألقاب ثلاث: باقر العلم والشاكر، والهادي، وأشهرها الباقر وسمي بذلك لتبقره في العلم وهو توسعه فيه»[3].

محمد بن طلحة القرشي العدوي الشافعي

«أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين الإمام الثبت الهاشمي العلوي روى عن أبيه وجابر بن عبد اللّه وأبي سعيد وابن عمر وعبد اللّه بن جعفر وعدة، وأرسل عن عائشة وأم سلمة وابن عباس. حدث عنه ابنه جعفر بن محمد وعمر بن دينار والأعمش والأوزاعي وابن جريج وقرة بن خالد وخلق، وكان سيد بني هاشم في

---

(١) مرآة الجنان ج١ ص٢٤٨.

(٢) الشذرات.

(٣) مطالب السؤول ج٢ ص٥٠.

زمانه اشتهر في زمانه بالباقر من قولهم بقر العلم شقه فعلم أصله وخفيه، وعدّه النسائي وغيره في فقهاء المدينة، مات سنة ١١٤هـ وقيل ١١٧هـ»[١].

شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ

«أبو جعفر الباقر هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبو جعفر الباقر، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي، وهو تابعي جليل، كبير القدر، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً... وسمي الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم، كان ذاكراً خاشعاً صابراً وكان من سلالة النبوة، رفيع النسب عالي الحسب، وكان عارفاً بالخطرات، وكثير البكاء والعبرات، معرضاً عن الجدال والخصومات»[٢].

عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

«محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو جعفر الباقر أمه بنت الحسن بن علي بن أبي طالب، روى عن أبيه وجديه الحسن والحسين وجد أبيه علي بن أبي طالب مرسلاً...

روى عنه ابنه جعفر وإسحق السبيعي والأعرج والزهري وعمر بن دينار، وأبو جهضم موسى بن سالم، والقاسم بن الفضل والأوزاعي، وابن جريج، وشيبة بن نصاح، وعبد الله بن أبي بكر بن عمر بن حزم، وعبد الله بن عطاء، وبسام الصيرفي، وحرب بن سريح، وحجاج بن أرطاة، ومحمد بن سوقة ومكحول بن راشد، ومعمر بن يحيى بن بسام وآخرون»[٣].

شهاب الدين بن حجر

«محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو والد جعفر الصادق ويقال له الباقر، سمي باقراً لتبحره في العلم وهو الشق والتوسعة، تابعي عدل ثقة، وإمام مشهور، توفي سنة ١١٤هـ على الأصح ودفن مع أبيه في البقيع»[٤].

التلمساني

«محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان

(١) تذكرة الحفاظ ج١ ص١١٧.
(٢) البداية والنهاية ج٩ ص٣٠٩.
(٣) تهذيب التهذيب ج٩ ص٢١٠.
(٤) شرح الشفا للخفاجي ج١ ص٣٩٢.

الله عنهم، ولد بالمدينة المنورة ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة النبوية قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين، وكني أبو جعفر ولقب بالباقر لبقره العلم، يقال بقر الشيء فجره، سارت بذكر علومه الأخبار وأنشد في مدائحه الأشعار، فمن ذلك قول مالك الجهني:

إذا طلب الناس علم القرآن كانت قريش عليه عيالا
وإن فاه فيه ابن بنت النبي تلقت يداه فروعاً طوالا
نجوم تهلل للمدلجين فتهدى بأنوائهن الرجالا

وتوفي الباقر في المدينة المنورة سنة ١١٧هـ وله من العمر ثمانية وخمسون سنة وقيل ستون، أقام منها مع جده الحسين ثلاث سنين، ومع أبيه زين العابدين ٣٣ سنة وبقي بعد موت أبيه ١٩ سنة»[1].

عبد الله بن محمد بن عامر

«محمد بن علي عليه السلام: هو الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، سمي بالباقر من بقر الأرض أي شقها وأنار مخبآتها ومكامنها، فكذلك هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف وحقائق الأحكام والحكمة واللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة، ومن ثم قيل هو باقر العلم وجامعه ورافعه، صفا قلبه وزكا علمه وعمله وطهرت نفسه وشرف خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة مولاه، وكنيته أبو جعفر لا غير، وألقابه ثلاثة: الباقر، والشاكر، والهادي، وأشهرها الأول، ويكفيه ما رواه ابن المديني عن جابر رضي الله عنه أنه قال له ـ وهو صغير ـ رسول الله ﷺ: يسلم عليك، فقيل له وكيف ذلك؟ قال: كنت جالساً عنده والحسين عليه السلام في حجره يداعبه فقال: يا جابر يولد له مولود اسمه علي، إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيد العابدين، فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد فإن أدركته فاقرأه مني السلام»[2].

محمد بن عبد الفتاح الحنفي

«الباقر محمد بن علي زين العابدين ابن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي أبو

---

(١) الاتحاف ص٥٢.

(٢) جوهرة الكلام ص١٣٢ ـ ١٣٥.

جعفر الباقر خامس الأئمة الإثنى عشر عند الإمامية: كان ناسكاً عابداً، له في العلم والتفسير آراء وأقوال، ولد في المدينة وتوفي بالحميمة»[1].

الزركلي

«محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين عليه السلام، سمي به لأنه بقر العلم أي شقه فعرف أصله وخفيه، وله من الرسوخ في مقام العارفين ما تكل عنه ألسن الواصفين، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف يعجز عن حكايتها الواصف. فمن كلامه: الصواعق تصيب المؤمن وغيره ولا تصيب ذاكر الله عزّ وجلّ. وقال: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله منه أو أكثر. وقال: ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج، وقال: ليس في الدنيا شيء أعون من الإحسان للاخوان، وقال: بئس الأخ يرعاك غنياً ويقطعك فقيراً، وقال: اعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك. وكلامه من هذا المهيع كثير»[2].

المناوي

«أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب، فولد أبو جعفر: جعفر بن محمد وعبد الله بن محمد، وأمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وإبراهيم بن محمد، وأمه أم حكم بنت أسيد بن المغيرة بن الأخنس الثقفي، وعلي بن محمد وزينب بنت محمد، وأمهما أم ولد، وأم سلمة بنت محمد، وأمها أم ولد... مات سنة ١١٧هـ وهو ابن ثلاث وسبعين سنة. وقيل توفي سنة ١١٨هـ، وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: توفي بالمدينة سنة ١١٤هـ، وكان ثقة كثير العلم والحديث وليس يروي عنه من يحتج به»[3].

ابن سعد

وحيث أخذنا على أنفسنا الإيجاز في البيان، فلنترك بقية الأقوال ونكتفي بما ذكرنا لنأخذ صورة من صور حياته، ولسنا من المغالين إن قلنا إنه فريد عصره، ولا

---

(١) الاعلام ج٣ ص٩٣٢.

(٢) الكواكب الدرية ج١ ص١٦٤.

(٣) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٣٨.

يدانيه أحد فيما اختص به من مميزات تؤهله لأن يكون هو المرجع الوحيد. وباستطاعتنا أن نضع بين يدي القارىء أدلة كافية على ذلك. ولعل بهذه الإشارة ما يكفينا عن التوسع في الموضوع.

والشيء الذي يلفت النظر هو قول ابن سعد في آخر كلمته عن الإمام الباقر: وليس يروي عنه من يحتج به. وهنا يجب أن نحاسب ابن سعد ونسائله عن هذا القول، فهو أمر يبعث على الاستغراب، وبعيد كل البعد عن الواقع، وتهجم على الحقيقة. فهل كان يقصد ابن سعد أن جميع من روى عن الإمام الباقر لا يحتج به؟ كيف وقد روى عنه ثقات التابعين وعلماء المسلمين، وقد احتج أصحاب الصحاح بتلك الروايات، ولم يتوقف أحد عن قولها. وليس من البعيد أن ابن سعد يقصد بكلمته هذه رواته من الشيعة، فهم في نظره غير ثقات، نظراً لنفسيته وتصوراته الذهنية التي علقت به من إيحاء الأوهام، وعوامل السياسة، وتدبير السلطة ضد شيعة أهل البيت، أو مجاراة للظرف الذي نشأ فيه.

وإذا أردنا أن ندرس نفسية ابن سعد وجدنا انطباعات الانحراف جلية لا مجال للتشكيك فيها، ولا حاجة إلى إجراء الحساب مع ابن سعد بأكثر من هذا، ولكنا نضع بين يدي القارىء بعضاً من رواة حديث الإمام الباقر عليه السلام - من التابعين وغيرهم - ممن يعترف ابن سعد بأنهم ثقات، كما ينص هو على أكثرهم في طبقاته، وخرج حديثهم أصحاب الصحاح لتظهر الحقيقة، فنعرف مقدار انحراف ابن سعد عن الحق وابتعاده عن الواقع.

من تلامذته ورواة حديثه:

عمر بن دينار

عمر بن دينار الجمحي مولاهم أبو محمد الكوفي الأثرم المتوفى سنة ١١٥هـ أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة، روى عنه قتادة وشعبة والسفيانان والحمادان وخلق.. قال ابن معين: له خمسمائة حديث. قال مسعر: ثقة ثقة ثقة. وقال ابن أبي نجيح: ما كان عندنا أحد أفقه، ولا أعلم من عمر بن دينار. وزاد غيره ولا عطاء ولا طاوس...

عبد الرحمن:

عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ، أحد رؤساء المذاهب البائدة ومن رجال الصحاح الستة[١].

عبد الملك:

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي، مولاهم أبو الوليد المكي المتوفى سنة ١٥٠هـ. روى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري والسفيانان. وهو أحد الأعلام واحتج بحديثه أصحاب الستة. قال أحمد: كان من أوعية العلم[٢].

قرة بن خالد:

قرة بن خالد السدوسي أبو خالد البصري المتوفى سنة ١٥٤هـ. له نحو مائة حديث. واحتج به أصحاب الستة.

محمد بن المنكدر:

محمد بن المنكدر بن عبد الله القرشي التيمي أبو عبد الله المدني المتوفى سنة ١٣٣هـ من أعلام التابعين. واحتج به أصحاب الصحاح الستة. قال ابن عيينة: كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون. وقال الذهبي: مجمع على تقدمه وثقته.

يحيى بن كثير:

يحيى بن كثير أبو نصر الطائي مولاهم اليمامي المتوفى سنة ١٢٩هـ. قال شعبة: هو أحسن من الزهري. وقال أبو حاتم: ثقة لا يروي إلا عن ثقة[٣]. وهو من رجال الصحاح الستة ومن الأعلام المشهورين.

الزهري:

أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب الزهري المدني المتوفى سنة ١٢٤هـ، روى عنه مالك بن أنس، وابن أبي ذئب، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد، والأوزاعي وغيرهم.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول.

(٢) طبقات الحفاظ ج١ ص١٦٠.

(٣) طبقات الحفاظ ج١ ص١٣١.

وهو من تلامذة الإمام زين العابدين وولده الإمام الباقر عليه السلام[1]. والزهري من كبار العلماء وممن احتج به أصحاب الصحاح، وستأتي ترجمته في هذا الكتاب عند ترجمة أساتذه مالك.

ربيعة الرأي:

أبو عثمان ربيعة بن عبد الرحمن فروخ التيمي المتوفى سنة ١٣٦هـ، احتج به أصحاب الصحاح وهو من كبار شيوخ مالك بن أنس ومن تلامذة الإمام الباقر عليه السلام[2] وروى عنه الأوزاعي، والثوري، وسليمان بن بلال وغيرهم.

الأعمش:

أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي مولاهم الكوفي المتوفى سنة ١٤٨هـ أحد الأئمة الأعلام ورؤساء المذاهب البائدة ومن رجال الصحاح الستة، وهو من تلامذة الإمام الباقر عليه السلام[3].

عبد الله بن أبي بكر:

أبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن حزم الأنصاري المدني المتوفى سنة ١٣٥هـ من رجال الصحاح الستة ومن شيوخ مالك، وهشام بن عروة والسفيانان وغيرهم قال النسائي ثقة ثبت وقال مالك بن أنس: إنه رجل صدق كثير الحديث وقال ابن سعد: ثقة كثير الحديث[4].

زيد بن علي:

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسين المدني المتوفى سنة ١٢٢هـ. روى عن أبيه وأخيه محمد الباقر.

وعنه الزهري والأعمش وشعبة وسعيد بن خيثم وإسماعيل السدي وزكريا بن أبي زائدة وعبد الرحمن بن الحارث بن عياش وغيرهم، قتل سنة ١٢٢هـ، وقال ابن خليفة سنة ١٢١هـ، وقال مصعب الزبيري: قتل وهو ابن ٤٢ سنة وبقي مصلوباً إلى

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ج١ ص٨٧.
(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ٤ ـ ٢٩٩.
(٣) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. الجزء الأول.
(٤) انظر تهذيب التهذيب ٥ ـ ١٦٤ وتاريخ الإسلام ٥ ـ ٣٦٤.

سنة ١٢٦هـ. قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس حدثنا العتكي عن جرير بن حازم أنه رأى النبي ﷺ متسانداً إلى جذع زيد بن علي وزيد مصلوب، وهو يقول للناس: هكذا تفعلون بولدي[١].

ولزيد بن علي منزلة عند الأئمة عليهم السلام وقد أخذ العلم عن أبيه زين العابدين وأخيه الباقر، وله كتاب في الفقه «وقد اكتشف «جرفيني» بين المخطوطات القيمة في المكتبة الامبروزية بميلانو ـ الخاصة ببلاد العرب الجنوبية ـ مختصراً في الفقه اسمه (مجموعة زيد) المتوفى سنة ١٢٢هـ (٧٤٠)م وهو منسوب إلى مؤسس فرقة الزيدية من الشيعة»[٢].

موسى بن سالم:

موسى بن سالم أبو جهضم مولى آل العباس. روى عنه عطاء بن السائب وهو من أقرانه، وليث بن أبي سليم، والثوري، والحمادان وغيرهم، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة، وأبو حاتم، وقال ابن عبد البر: لم يختلفوا في أنه ثقة[٣].

موسى الحناط:

موسى بن أبي عيسى الحناط أبو هٰرون المدني، روى عنه الليث بن سعد وابن عيينة، ويحيى القطان وغيرهم، وثقه النسائي وابن حبان، وروى له البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة.

القاسم بن الفضل:

أبو المغيرة القاسم بن الفضل بن معدان الحداني المتوفى سنة ١٦٧هـ خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة، وثقه القطان وأحمد وروى عنه ابن مهدي، ووكيع وآخرون[٤].

القاسم بن محمد:

القاسم بن محمد بن أبي بكر التيمي أبو محمد المدني المتوفى سنة ١٠٦هـ

---

(١) تهذيب التهذيب ج٣ ص٤٢٠.
(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٠٠.
(٣) تهذيب التهذيب ج١٠ ص٣٤٤.
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ج٤ ص٢٩٩.

أحد الفقهاء السبعة وأحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة، قال ابن سعد: كان ثقة عالماً فقيهاً إماماً كثير الحديث.

محمد بن سوقة:

محمد بن سوقة روى عنه مالك بن مغول، والثوري وابن المبارك وأبو معاوية وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، وإسماعيل بن زكريا، ومروان بن معاوية وأبو المغيرة النضر بن إسماعيل، وعطاء بن مسلم الخفاف وابن عيينة وعلي بن عاصم الواسطي وغيره.

قال محمد بن عبيد: سمعت الثوري يقول: حدثني الرضا محمد بن سوقة وقال الحسين بن حفص: قال الثوري: أخرج إليكم كتاب خير رجل بالكوفة، فأخرج كتاب محمد بن سوقة، وقال العجلي: كوفي ثقة. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال النسائي: ثقة مرضي، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: كان من أهل العبادة والفضل والدين، وقال الدارقطني: كوفي فاضل ثقة(١). خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة. قال ابن المديني له ثلاثون حديثاً. وقال ابن عيينة: كان لا يحسن أن يعصي الله تعالى.

حجاج:

حجاج بن أرطاة بن ثور بن شراجيل النخعي الكوفي القاضي المتوفى سنة ١٤٥هـ. روى عنه شعبة، وهشيم وابن نمير، والحمادان والثوري وحفص بن غياث، وغندر، وأبو معاوية، ويزيد بن هرون وخلق كثير.

وأخرج له مسلم في صحيحه، والبخاري في الأدب المفرد والأربعة. قال ابن عيينة: سمعت ابن أبي نجيح يقول: ما جاءنا منكم مثله يعني الحجاج. وقال الثوري: عليكم به فإنه ما بقي أحد أعرف بما يخرج من رأسه منه. وقال العجلي: كان فقيهاً، وكان أحد مفتي الكوفة(٢).

---

(١) تهذيب التهذيب ج٩ ص٢١٠.

(٢) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٩٦.

معروف:

معروف بن خربوذ الكوفي مولى عثمان روى عن الباقر وهو من خواصه: وعنه وكيع، وأبو داود الطيالسي وأبو بكر بن عياش وعبد اللّه بن داود وأبو عاصم وغيرهم، وخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، عده ابن حاتم في الثقات، وقال الساجي: صدوق[1].

وهو غير معروف بن خربوذ المعروف بالكرخي فإنه كان من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام وتوفي سنة ٢٠٠هـ.

وغير هؤلاء من علماء الأمة الذين حضروا عند الإمام الباقر عليه السلام ورووا عنه ممن لا يمكننا بسط القول في تراجمهم أمثال:

أبو حنيفة النعمان ثابت الكوفي المتوفى سنة ١٥٠هـ وقد جاءت رواياته عن الإمام الباقر عليه السلام وولده الإمام الصادق في كتب مناقبه وجامع مسانيده وغيرها.

ومنهم شيبة بن نصاح القارىء المدني القاضي المتوفى سنة ١٣٠هـ[2].

وأسلم المنقري أبو سعيد الكوفي المتوفى سنة ١٤٢هـ.

ومحمد بن إسحق بن يسار أبو بكر المطلبي مولاهم المدني المتوفى سنة ١٥١هـ وصاحب المغازي[3].

وعبد اللّه بن عطاء المدني الطائفي من رجال الصحاح ومن شيوخ إسحق، وشعبة، والثوري وغيرهم.

وعروة بن عبد اللّه بن قشير أبو مهل الجعفي، روى عنه الثوري، وزهير بن معاوية وغيرهما، وخرج حديثه أبو داود، وابن ماجة، والترمذي في الشمائل[4].

وعبد اللّه بن حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسدي مولاهم الكوفي خرج حديثه مسلم والنسائي في الخصائص، وروى عنه الثوري، ووكيع، وابن المبارك وغيرهم[5].

---

(١) الخلاصة ص٣٢٧.

(٢) التقريب لابن حجر ج١ ص٢٥٧.

(٣) تذكرة الحفاظ ج١ ص١٦٣.

(٤) الجرح والتعديل ج٣ ص١٩٧.

(٥) الجرح والتعديل ج٢ قسم ٢.

وقد ذكر ابن أبي حاتم الرازي في كتابه الجرح والتعديل وابن حجر في التهذيب، والخزرجي في خلاصة تذهيب الكمال وغيرهم عدداً وافراً من تلامذة الإمام الباقر عليه السلام تركنا ذكرهم لضيق المجال.

أصحاب الإمام الباقر ورواة حديثه من الشيعة

أما أصحابه ورواة حديثه من الشيعة فكثيرون منهم:

أبان بن تغلب:

أبان بن تغلب الربعي أبو سعد الكوفي المتوفى سنة ١٤١هـ كان من تلامذة السجاد والباقر والصادق، وأمره أبو جعفر الباقر أن يجلس في مسجد المدينة ويفتي الناس، وقال له: فإني أحب أن أرى في شيعتي مثلك. وقد خرج حديثه مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة، وثقه أحمد وابن معين والنسائي وأبو حاتم، وقال ابن عدي: له نسخ عامتها مستقيمة إذا روى عنه ثقة وهو من أهل الصدق وفي الرواية صالح لا بأس به، وإن كان مذهبه مذهب الشيعة، وقال ابن سعد: كان ثقة. وقال الذهبي ثقة ثقة... إلى آخر ما هو موجود في مدحه والثناء عليه[1] وله كتب في التفسير وعلم القراءة والفرائض، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن الصادق فقط.

بريد العجلي:

بريد بن معاوية أبو القاسم العجلي المتوفى سنة ١٤٨هـ، كان من حواري الإمام الباقر والصادق عليهما السلام وروى عنهما.

قال الكشي: هو ممن اتفقت العصابة على تصديقه، وقال العلامة الحلي: هو وجه من أصحابنا ثقة فقيه ممن اتفقوا على تصديقه وانقادوا له بالفقه. وقد ورد مدحه عن الأئمة عليهم السلام، وقد بلغ عندهم حداً فوق الوثاقة، لجلالة قدره وعظيم شأنه. روى داود بن سرحان قال سمعت الصادق عليه السلام يقول: إن أصحاب أبي كانوا زيناً أحياء وأمواتاً، أعني: زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، ومنهم ليث المرادي،

(١) تهذيب التهذيب، ولسان الميزان، وميزان الاعتدال، والخلاصة والفهرست ص٣٠٨ والإمام الصادق والمذاهب الأربعة ـ الجزء الأول.

وبريد العجلي. . .

إلى غير ذلك من أقواله في خواص أصحابه وأصحاب أبيه.

بكير بن أعين :

بكير بن أعين الشيباني، أخو زرارة بن أعين، من أصحاب الباقر والصادق، ومات في حياة الصادق عليه السلام، ولما بلغه خبر موته قال: أما والله لقد أنزله الله بين رسوله وأمير المؤمنين، وذكره يوماً فقال: رحم الله بكيراً، وهو من ثقات أولاد أعين وصلحائهم.

أبو حمزة الثمالي:

أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار، روى عن علي بن الحسين والباقر والصادق عليه السلام وبقي إلى أيام الكاظم عليه السلام وكان عظيم المنزلة، جليل القدر، روى عنه سفيان الثوري، وشريك، وحفص بن غياث، وأبو أسامة. وعبد الملك بن أبي سليمان، وأبو نعيم، ووكيع، وعبيد الله بن موسى. وخرج حديثه الترمذي، وابن ماجة، والنسائي في خصائص علي. وقد ورد مدحه عن الأئمة، وهو راوي دعاء علي بن الحسين الذي يقرأ سحر شهر رمضان المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي.

جابر الجعفي:

جابر بن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفي، أبو يزيد الكوفي المتوفى سنة ١٢٨هـ، روى عنه شعبة، والثوري، وإسرائيل، والحسن بن حي، وشريك، ومسعر، ومعمر، وأبو عوانة، وخرج حديثه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة. قال ابن مهدي: ما رأيت في الحديث أورع منه. وقال ابن علية: جابر صدوق في الحديث. وقال يحيى بن أبي بكير عن شعبة: كان جابر إذا قال حدثنا وسمعت، فهو من أوثق الناس.

وقال وكيع: مهما شككتم في شيء فلا تشكو في أن جابراً ثقة، وقال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال سفيان الثوري لشعبة: لئن تكلمت في جابر الجعفي، لأتكلمن فيك. وكان جابر يحفظ مائة ألف حديث[١].

---

(١) تهذيب التهذيب ج٢ ص٤٨.

هكذا وصفه معاصروه، وهكذا نقلوا عنه. وقد كانت له منزلة في الكوفة، وانتشر حديثه، وأخذ عنه العلماء. وبعد أن تطور الزمن وظهرت الآراء، وهبت زوبعة الخلاف، واشتد النزاع بين العرب والموالي، أو بين أهل الحديث وأهل الرأي، وبدا في أفق السياسة عامل التفرقة، أصبح جابر لا يؤخذ بقوله، ورماه غير واحد بالكذب وكانت كلماتهم مشوشة، وأدلتهم على تكذيبه واهية ولم يدعموها بحجة، ولقد ظهر من أبي حنيفة القول بتكذيب جابر، لأن جابراً عارض أهل الرأي. وانتصر لأهل الحديث، وبالطبع أن ذلك يصعب عليهم. يقول أبو يحيى الحماني: قال أبو حنيفة: «ما لقيت في من لقيت أكذب من جابر ما أتيته بشيء من رأيي إلا جاءني فيه بأثر». هذا هو استدلال أبي حنيفة على تكذيب جابر، وهو كما ترى، لأن أبا حنيفة قليل الحديث، ولم يكن من أهله حتى قيل: إنه لم يحفظ أكثر من سبعة أحاديث. وبالطبع إنه يستغرب كثرة أحاديث جابر، لأنه يحفظ مائة ألف حديث، على أن ذلك العصر قد تطلعت به رؤوس الموالي، وبدأت عوامل الفرقة وأنصار أبي حنيفة يأخذون قوله بعين الاعتبار، فوسعوا تلك الدائرة، فكثرت كلمات الذم له جرياً مع الظروف وخضوعاً لعوامل الخلاف. وروي أن بعضهم رأى أحمد بن حنبل معه كتاب (زهير عن جابر) وهو يكتبه فقال: يا أبا عبد الله: تنهوننا عن حديث جابر (الجعفي) وتكتبونه؟! فقال الإمام أحمد: نعرفه[1] وأدنى ما يفهم من كلمة أحمد أن يطلع على ما لدى جابر لشهرته. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في مدحه: رحم الله جابراً كان يصدق علينا، ولعن الله المغيرة، كان يكذب علينا.

وروى الكشي في رجاله روايات كثيرة دالة على مدحه، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن ابن أبي جيد عن ابن الوليد، كما انه يذكر له كتاباً في التفسير[2].

وعلى أي حال فإن الأمر لا يحتاج إلى مزيد بيان، لتلك العوامل التي أدت إلى تكذيبه من قبل بعض رجال عصره وبعد عصره. وقد كان يكثر روايته عن أهل البيت، ويقول عندما يحدّث عن الإمام الباقر: حدثني وصي الأوصياء. وهو أمر يعظم تحمله في عصر تقرب الناس لولاتهم بالابتعاد عن أهل البيت، لذلك رأينا كثيراً من رجال

---

(١) المجروحين لابن حبان ج١ ص٢٠٣.

(٢) الفهرست للشيخ الطوسي ص٤٥.

الحديث تركوا الرواية عنهم: إما خوفاً على أنفسهم، أو تقرباً لسلطانهم.

محمد بن مسلم:

محمد بن مسلم بن رياح أبو جعفر الكوفي الثقفي، مولاهم المتوفى سنة ١٥٠هـ عن سبعين سنة. روى عن الإمام الباقر وابنه الصادق، وقد أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنه.

وكان المثل الأعلى في الصلاح والطاعة والعلم، وقد حفظ عن الإمام الباقر ثلاثين ألف حديث، وعن الإمام الصادق ستة عشر ألف حديث. وله كتاب يسمى الأربعمائة مسألة في أبواب الحلال والحرام. قال عبد اللّه بن أبي يعفور: قلت لأبي عبد اللّه: إنه ليس كل ساعة ألقاك، ولا يمكن القدوم إليك، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني، وليس عندي كل ما يسألني عنه. قال فما يمنعك عن محمد بن مسلم الثقفي؟ فإنه قد سمع من أبي، وكان عنده وجيهاً.

ودعي لأداء شهادة عند شريك القاضي هو وأبو كريبة الأزدي، فقال ابن أبي ليلى: جعفريان فاطميان. ورد شهادتهما، فقال محمد بن مسلم لشريك: نسبتنا لأقوام لا يرضون بأمثالنا، ولرجل لا يرضى بأمثالنا أن نكون من شيعته، فإن تفضل وقبلنا فله المن علينا والفضل. فتبسم شريك ثم قال: إذا كانت الرجال فلتكن أمثالكم. وسئل أبو حنيفة صاحب الرأي عن مسألة الحامل التي تموت والولد يتحرك في بطنها، ويذهب ويجيء، فقال للسائل: عليك بمحمد بن مسلم الثقفي، فإنه يخبرك فيها.

ودخل عليه شريك القاضي وعنده امرأة تسأله عن امرأة ضربها الطلق، فما زالت تطلق حتى ماتت، والولد يتحرك في بطنها ويذهب ويجيء فما أصنع؟ فقال محمد بن مسلم: يا أمة الله سئل محمد بن علي بن الحسين الباقر عن مثل ذلك، فقال: يشق بطن الميت، ويستخرج الولد. فقالت: رحمك الله جئت إلى أبي حنيفة صاحب الرأي أسأله، فقال: ائتي محمد بن مسلم...

ولما ردّ ابن أبي ليلى شهادة محمد بن مسلم، أرسل الإمام الصادق من يسأل ابن أبي ليلى عن مسائل يعجز عن حلها، وقال قل له، إذا عجز عن ذلك، يقول لك جعفر بن محمد: ما حملك على أن رددت شهادة رجل أعرف منك بأحكام الله وسنة

رسوله ﷺ؟ فلما صار الرجل إليه وسأله فلم يجب وبلّغه قول الإمام الصادق، قال ابن أبي ليلى: من هو؟ قال هو محمد بن مسلم الثقفي. فلم يرد شهادته بعدها. وكان محمد بن مسلم رجلاً موسراً جليلاً في قومه، وله منزلة عظيمة. وأقام بالمدينة أربع سنين يتعلم العلم من الإمام الباقر.

حمران بن أعين:

حمران بن أعين الشيباني مولاهم الكوفي، روى عن الباقر والصادق عليهما السلام وكان الإمام الباقر يقول فيه: حمران من المؤمنين حقاً لا يرجع أبداً. وكانت له منزلة عندهم، وكان فقيهاً عالماً بعلوم القرآن واللغة والنحو وعلم الكلام.

زرارة:

زرارة بن أعين الشيباني أبو الحسن المتوفى سنة ١٥٠هـ من مشاهير رجال الشيعة، فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام، اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، وهو من أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام، قال النجاشي: شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم وكان قارئاً فقيهاً متكلماً شاعراً أديباً، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، وقال أبو غالب كما حكي عنه: إن زرارة كان وسيماً جسيماً أبيض، فكان يخرج إلى الجمعة وعلى رأسه برنس أسود وبين عينيه سجادة، وفي يده عصى فيقوم الناس سماطين ينظرون إليه لحسن هيئته فربما رجع من طريقه، وكان خصماً جدلاً لا يقوم بحجته، صاحب إلزام وحجة قاطعة إلا أن العبادة أشغلته عن الكلام، والمتكلمون من الشيعة تلاميذه.

وقيل لجميل بن دراج: ما أحسن محضرك وأزين مجلسك! فقال: أي والله ما كنا حول زرارة بن أعين إلا بمنزلة الصبيان حول المعلم. ودخل الفيض بن المختار على الإمام الصادق عليه السلام فسأله عن الاختلاف في الحديث فأجابه الإمام بعد كلام طويل: إذا أردت حديثنا فعليك بهذا الجالس وأشار إلى زرارة بن أعين. وقال سليمان بن خالد الأقطع: سمعت أبا عبد اللّه يقول: ما أجد أحداً أحيا ذكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة وأبا بصير المرادي، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية العجلي.

وفي الفصول المهمة للحر العاملي بإسناده، ان الإمام الصادق قال: بشّر

المخبتين بالجنة بريد بن معاوية العجلي وأبو بصير ليث بن البختري المرادي ومحمد بن مسلم وزرارة أربعة نجباء أمناء الله على حلاله وحرامه لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندرست. وقوله عليه السلام: رحم الله زرارة لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي عليه السلام.

وقد تحمل زرارة في سبيل دفاعه عن أهل البيت ونشر أحاديثهم ما يتحمله أمثاله من حملة العلم والمخلصين في الدعوة إلى آل الرسول ﷺ وقد تقوّل عليه خصومه أقوالاً وانتحلوا له آراء حتى بلغ ذلك الإمام جعفر بن محمد عليه السلام فقال: أنا أبرأ ممن يقول ذلك، فأظهر خصومه تلك المقالة وأشاعوها عليه ليحطوا من مقامه، فالتجأ آل زرارة إلى كشف الحال من الإمام الصادق.

دخل حمزة بن حمران على الإمام الصادق عليه السلام فقال: يا أبا عبد اللّه بلغني أنك برئت من عمي «يعني زرارة» فقال عليه السلام: أنا لم أبرأ من زرارة ولكنهم يجيؤون ويذكرون ويروون عنه فلو سكت ألزمونيه فأقول: من قال هذا أنا بريء منه.

وقال الحسين بن زرارة: يا أبا عبد اللّه إن أبي يقرأ عليك السلام ويقول لك: جعلت فداك لا يزال الرجل والرجلان يقدمان فيذكران أنك قلت فيّ. فقال أبو عبد اللّه: اقرأ أباك السلام وقل له: أنا والله أحب لك الخير في الدنيا وأحب لك الخير في الآخرة، وأنا والله عنك راض. إلى كثير من الأقوال في مدحه الدالة على جلالة قدره وعظيم منزلته.

قال الشيخ الطوسي: ولزرارة مصنفات منها كتاب الاستطاعة والجبر.

وقال ابن النديم: وزرارة من أكبر رجالات الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام والتشيع، ومن ولده الحسين بن زرارة والحسن بن زرارة من أصحاب جعفر بن محمد.

ومن تتبع كتب الحديث يقف على حقيقة أمره وعلو منزلته في العلم وحرصه الشديد على أخذ الأحكام من أهل بيت الرسول ﷺ.

عبد الملك بن أعين:

عبد الملك بن أعين الشيباني مولاهم الكوفي، روى عنه السفيانان وغيرهما وخرج حديثه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة والنسائي، روى عن

الإمام الباقر والصادق، وكان له عند الإمام الصادق درجة، ولما بلغه خبر وفاته ترحم عليه ودعا له، وكان من التابعين وحفاظ الحديث. قال أبو حاتم محله الصدق ومن عتق الشيعة يكتب حديثه. وقال ابن حجر[(١)]: عبد الملك بن أعين مولى بني شيبان صدوق شيعي.

* * *

وحيث قد أخذنا على أنفسنا الاختصار فلا يمكننا أن نتوسع بأكثر مما ذكر من رواة حديثه عليه السلام وقد جمعنا منهم أكثر من ثلاثمائة رجل. وعسانا نوفق لإبراز كتاب خاص في حياة الإمام الباقر فنذكرهم هناك، كما وانا لم نتعرض لذكر المؤلفين من أصحابه وعددهم ينوف على المائة. أما التفسير المنسوب إلى الإمام الباقر عليه السلام والذي يرويه عنه زياد بن المنذر أبو الجارود فقد ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست ورواه عنه بطريقين، كما ذكره صاحب الذريعة وابن النديم في الفهرست وغيرهم[(٢)].

مدرسة الإمام الباقر:

رأينا كيف انهال رجال العلم من التابعين وغيرهم على مدرسة الإمام الباقر عليه السلام مع وجود تلك الخطط التي ضربها الأمويون ليصرفوا الناس عن أهل البيت، وتقدموا بالتهديد والتوعيد وحذروا من خالف ذلك، وأظهروا كوامن الحقد وقديم الخصومة ولا يروق لهم أن يذكرهم أحد بخير، وقاموا إلى جانب ذلك بالمغريات الخداعة من بذل المال وإسناد الوظائف لمن عرفوا منه الانحراف عن آل محمد ﷺ.

ولكن تلك الخطط التي ساروا عليها لم تنجح النجاح المطلوب فاجتاز أكثر المسلمين تلك العقبات، وحفظوا لأهل البيت منزلتهم وعرفوا مقامهم وما وهبهم الله من علوم هم أحوج ما يكونوا إليها، فتحملوا ـ في سبيل أخذ العلم ونشر الأحكام في جميع الأقطار ـ مصاعب وواجهوا محناً ولكنها تهون عليهم في سبيل نصرة الحق وإظهار الحقيقة.

---

(١) التقريب لابن حجر ص٢٤٩.

(٢) وقد حققه الأستاذ المحامي شاكر الغرباوي في كتابه حياة الباقر الجاهز للطبع وأثبت ذلك من عدة طرق كما أنه وقف على معلومات كافية حول التفسير واستحصل جملاً منه.

وقد نشأ الإمام الباقر في عصر قوة الدولة وامتداد سلطانها وشدة نفوذها، ومع ذلك فقد قام بما يجب عليه من الدعوة لله ونشر تعاليم الإسلام وإلقاء دروس الأخلاق والعلوم الدينية، والحث على التمسك بالدين والابتعاد عن الظلمة الذين اتخذوا مال الله دولاً، فازدحم العلماء على أبواب مدرسته وانتشروا في أقطار المملكة الإسلامية يحملون للناس أصدق الحديث، وأظهروا الحقائق التي حاول الأمويون إخفاءها بأبراد التمويه والخداع.

وقد كان يؤلمهم موقف الإمام الباقر، وتقض مضاجعهم شهرته في الآفاق ولكن ماذا يصنعون والحجاز يخلص له بالولاء، والمدينة المنورة ترعى جانبه وتقدر منزلته. ولا يستطيعون أن يحركوا جانب المدينة مرة أخرى وهي المركز الإسلامي، وإليها تقصد وفودهم في أخذ الأحكام. فكان هو وحيد عصره في إرشاد الناس وتحذيرهم من الزيغ والضلال، وإليه يرجعون في معضلات المسائل، فيحل لهم عقالها ويوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه من أحكام الدين، فكان قوله الفصل وحكمه العدل.

روى مكحول بن إبراهيم عن قيس بن الربيع قال: سألت أبا إسحٰق عن المسح على الخفين فقال: أدركت الناس يمسحون حتى لقيت رجلاً من بني هاشم لم أر مثله قط وهو محمد بن علي بن الحسين فسألته عن المسح على الخفين. فنهاني عنه، وقال: لم يكن أمير المؤمنين يمسح عليهما وكان يقول: سبق الكتاب المسح على الخفين. قال أبو إسحٰق: فما مسحت مذ نهاني عنه، وقال قيس بن الربيع: وما مسحت أنا مذ سمعت أبا إسحٰق.

وقال زرارة: كنت جالساً إلى جنب أبي جعفر عليه السلام وهو مستقبل القبلة فقال: أما إن النظر إليها عبادة، فجاءه رجل من بجيلة فقال لأبي جعفر: إن كعب الأحبار[1]

(١) هو كعب بن ماتع الحميري أبو إسحاق المعروف بكعب الأحبار المتوفى سنة ١٣٤هـ بحمص وكان يهودياً أسلم في أيام أبي بكر وقيل في أيام عمر، وكان عنده تنبؤات عن طريق جمع الأحاديث التي وضعها اليهود أو المسيحيون واشتهر كعب بذلك ومثله وهب بن منبه وتميم الداري وكان لهذه الأحاديث أثر في المجتمع إذ أدخلوا أشياء من التكهن بوقوع الحوادث أو مصير العالم وقد استمد منهم معاوية أشياء يستعين بها على تقوية مركزه لذلك نوه باسم كعب: انه كان من أصدق هؤلاء المحدثين. ألا ان كعباً أحد العلماء، وقد روى عنه أبو هريرة ومعاوية. وأنكر المسلمون على كعب وأصحابه وكذبوهم لرجمهم بالغيب.

كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة، فقال أبو جعفر: فما تقول فيما قال كعب؟ فقال الرجل: صدق كعب، فقال له أبو جعفر: كذبت وكذب كعب الأحبار معك، وغضب. قال زرارة: ما رأيته استقبل أحداً بقوله كذبت غيره.

وكان عليه السلام إذا دخل مكة انثال عليه الناس يستفتون عن أهم مسائل الحلال والحرام، ويستفتحون أبواب مشاكل العلوم ويغتنمون فرصة الاجتماع به ليزودهم بتعاليمه، وإذا أقام بمكة عقدت له حلقة ينضم فيها طلاب العلم بل علماء الأمة، وحج هشام بن عبد الملك فنظر إلى اجتماع الناس حوله وحضور العلماء عنده فثقل عليه ذلك، فأرسل رجلاً من أصحابه وقال له: قل له يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكله الناس ويشربونه في المحشر إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فلما سأله الرجل قال له الإمام الباقر: يحشر الناس مثل قرص النقي[1] فيها أشجار وأنهار يأكلون ويشربون منها حتى يفرغوا من الحساب. فقال هشام للرسول: اذهب إليه فقل له يقول: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟ فقال أبو جعفر: هم في النار أشغل ولم يشتغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فسكت هشام ولم يظفر بما أراد من سؤاله للإمام فإنه سؤال امتحان لا استفادة.

ودخل عليه رجل من الخوارج فقال له: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟ فقال عليه السلام: الله.

قال الرجل: رأيته؟

قال: بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو.

فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

ودخل عليه عثمان الأعمى من أهل البصرة وقال له: يا ابن رسول الله إن الحسن البصري زعم أن الذين يكتمون العلم يؤذي ريح بطونهم النار، فقال أبو جعفر: إذاً هلك مؤمن آل فرعون والله مدحه بذلك.

---

(١) النقي كغني. قال في النهاية الحديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقي يعني الخبز الحواري.

وقصده العلماء للسؤال وكشف الحقائق كعمرو بن عبيد، وطاووس اليماني، والحسن البصري، ونافع مولى ابن عمر، وغيرهم ممن يطول ذكرهم[1]. وقد ناظر أهل الفرق وخاصمهم وبين لهم فساد آرائهم وسوء معتقداتهم إلى كثير مما هو مذكور في محله.

وكان عليه السلام يزود الوافدين بتعاليم قيمة، ويدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. ونرى من الأجدر أن نذكر بعضاً من كلماته ومختارات من مواعظه.

حكمه:

* كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه.

* أشد الأعمال ثلاثة: ذكر الله على كل حال، وإنصافك من نفسك، ومواساة الأخ في المال.

* إذا رأيتم القارىء يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص.

* ما شيب شيء بشيء أحسن من علم بحلم.

* إن استطعت أن لا تعامل أحداً إلا ولك الفضل عليه فافعل.

* من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه.

* إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر، فإن من كسل لم يؤد حقاً، ومن ضجر لم يصبر على حق.

* التواضع: الرضا بالمجلس دون شرفه، وأن تسلم على من لقيت، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً.

* إن لله عقوبات في القلوب والأبدان: ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب.

* الحياء والإيمان مقرونان، فإذا ذهب أحدهما ذهب صاحبه.

* إن هذا اللسان مفتاح كل خير وشر، فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما

(١) انظر الاحتجاج للطبرسي، وكتاب الإرشاد.

يختم على ذهبه وفضته، فإن رسول الله ﷺ قال: رحم الله مؤمناً أمسك لسانه من كل شر، فإن ذلك صدقة منه على نفسه.

* عليكم بالورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً كان أو فاجراً، فلو أن قاتل علي بن أبي طالب ائتمنني على أمانة لأديتها إليه.

* اعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك فأكرم وجهك عن رده.

* الكسل يضر بالدين والدنيا.

* لا يقبل عمل إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، ومن عرف دلته معرفته على العمل، ومن لم يعرف فلا عمل له.

* من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره في أهله زيد في عمره.

* ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك.

* سلاح اللئام قبيح الكلام.

وقد نظمه بعضهم:

لقد صدق الباقر المرتضى	سليل الإمام عليه السلام
بما قال في بعض ألفاظه	سلاح اللئام قبيح الكلام[1]

* قم بالحق واعتزل ما لا يعنيك، وتجنب عدوك، واحذر صديقك ولا تصحب الفاجر ولا تطلعه على سرك. واستشر في أمرك الذين يخشون الله.

* إنما مثل الحاجة إلى من أصابه ماله حديثاً كمثل الدرهم في فم الأفعى أنت إليه محتاج وأنت منها على خطر.

* قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم، فإن الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين، ويحب الحيي الحليم العفيف المتعفف.

* إن المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه ولا يحزنه ولا يسيء به الظن.

---

(١) الاتحاف ص٧٦.

وصيته لعمر بن عبد العزيز:

لما ولي عمر بن عبد العزيز طلب من الإمام الباقر أن يوصيه بما ينفعه في آخرته ودنياه فقال عليه السلام: أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أخاً، وأكبرهم أباً، فارحم ولدك وصل أخاك وبر والدك، وإذا صنعت معروفاً فربه (أي أدمه).

ودخل عمر بن عبد العزيز المدينة واجتمع بالإمام الباقر عليه السلام فأوصاه الإمام بقوله:

إنما الدنيا سوق من الأسواق يبتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرهم، وكم قوم ابتاعوا ما ضرهم فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا ملومين، لما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة، فقسم ما جمعوا لمن لم يحمدهم وصاروا إلى من لم يعذرهم، فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها، فكف عنها واتق في نفسك اثنتين: إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدمه بين يديك.

وانظر إلى ما تكره أن يكون معك إذا قدمت على ربك فارمه وراءك ولا ترغبن في سلعة بارت على من كان قبلك فترجو أن يجوز عنك.

وافتح الأبواب وسهل الحجاب وانصف المظلوم ورد المظالم.

ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان بالله: من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

وصيته لجابر الجعفي:

من وصيته لجابر بن يزيد الجعفي.

فكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك، فسقوطك من عين الله جل وعز عند غضبك من الحق، أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك.

واعلم أنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن

اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه، فاثبت وابشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك.

وإن كنت مبايناً للقرآن فماذا الذي يغرك من نفسك، إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله. إلى أن يقول:

وتوق مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإياك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق. . .

واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة.

واعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز. ولا رجاء كرجاء معين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف كبعد الهمة. . . إلى آخر وصيته وهي طويلة أخذنا منها اليسير(١).

من تعاليمه:

إلى كثير من وصاياه وتعاليمه(٢). وقد احتفظ التاريخ بكثير من تراثه الفكري بما فيه الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية، فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر والحكم، متوجهاً إلى النصح والإرشاد، منقطعاً لتوجيه المجتمع، فكان يغتنم فرصة استعداد سامعيه لتلقي ما يدلي به من النصائح التي تصل لقلب السامع، فلا يسعه إلا التسليم.

(١) تحف العقول ٦٩.

(٢) المذكورة في تاريخ ابن كثير واليعقوبي، والصواعق لابن حجر، وكشف الغمة للاربلي والفصول المهمة لابن الصباغ، وتحف العقول، ومطالب السؤول، وتذكرة الخواص وغيرها.

وقد كان يؤدب أصحابه بآداب الإسلام، ويحثهم على الطاعة ومكارم الأخلاق، ويدعوهم إلى العمل في إصلاح معائشهم بما يصلح به حالهم، فكان يقول:

من طلب الدنيا استعفافاً عن الناس وسعياً على أهله وتعطفاً على جاره، لقيَ الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر.

وكان يقول: نعم العون الدنيا على الآخرة، وكان عليه السلام يحثهم على حسن العشرة وملازمة الآداب لئلا يتكدر صفو المودة وتفسد الأخوة. وليس وراء ذلك إلا العناء. فتراه عليه السلام يكثر من قوله:

عظموا أصحابكم ووقروهم، ولا يتهجم بعضكم على بعض، ولا تضاروا ولا تحاسدوا، وإياكم والبخل، كونوا عباد الله المخلصين.

وكان ينهى عن كثرة المزاح بقوله:

كثرة المزاح تذهب بماء الوجه، وكثرة الضحك تمج الإيمان مجاً.

وكان يوصيهم بحسن الجوار وتحمل الأذى من الجار، ويقول: قرأت في كتاب علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من يثرب: إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه... الحديث.

ليس حسن الجوار كف الأذى وإنما حسن الجوار صبرك على الأذى. وقال عليه السلام: من القواصم التي تقصم الظهر، جار السوء إن رأى حسنة أخفاها وإن رأى سيئة أفشاها.

إلى غير ذلك مما لا يمكننا عرضه ولا نستطيع إحصاء تعاليمه القيمة وحثه على محاسن الأخلاق وحسن الآداب، فقد كان يحب الخير ويدعو إليه وهو في عصره المثل الأعلى في مكارم الأخلاق وجميل الصفات.

وهكذا قضى حياته متوجهاً لله باذلاً نصحه للأمة متحملاً من ولاة عصره ضروب الأذى والتضييق والأهوال عليه السلام ولكنه ثبت أمام تيار ظلمهم غير حافل بما يوجهونه إليه، مستعيناً بالله متوكلاً عليه، فاحتمل تلك الملمات في سبيل نصرة الحق وإحراز النصر، وتم له أعظم النجاح على خصومه الذين وجهوا إليه كل أذى،

وحاولوا صرف الناس عنه بكل وسيلة، ولقد جلبه هشام إلى الشام مرتين يحاول الفتك به، ولكن الله برعايته رد عنه كيده وصرف عنه أذاه.

الإمام الباقر وعبد الملك:

كان عبد الملك بن مروان يبتعد عن التعرض للإمام الباقر عليه السلام وأهل بيته وكتب إلى عامله في الحجاز: جنبني دماء آل أبي طالب فإني رأيت آل حرب لما تهجموا بها لم ينصروا[1].

فهو لا يجهل منزلتهم ويعرف مكانتهم، ولكن حرصه على ملكه وطمعه في دنياه يدعوه إلى نصب العداء لهم؟ لأنهم أوقع منه في نفوس الأمة وإليهم تهوي أفئدة المسلمين. وكان يلجأ إليهم في أكثر الأمور التي تهمه، ولا يجد المخرج منها إلا بهم لعلمه بمكانتهم مع تكتمه وعدم إظهار ذلك[2].

ولما كتب إليه ملك الروم يتوعده فضاق عليه الجواب، فكتب إلى الحجاج وهو إذ ذاك على الحجاز: أن ابعث إلى علي بن الحسين زين العابدين فتوعده وتهدده وأغلظ له، ثم انظر ماذا يجيبك؟ فاكتب به إليّ.

ففعل الحجاج ذلك. فقال له علي بن الحسين عليه السلام: إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة، وأرجو أن يكفينيك في أول لحظة من لحظاته. فكتب الحجاج إلى عبد الملك بذلك.

ولما كتب ملك الروم لعبد الملك بن مروان يتهدده أن يذكر النبي ﷺ في الدنانير بما يكرهون، فعظم ذلك على عبد الملك واستشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأياً[3].

فقال له روح بن زنباع: إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر، ولكنك تتعمد تركه، فقال ويحك من؟ فقال: عليك بالباقر من أهل بيت النبي ﷺ قال: صدقت ولكنه ارتج الرأي فيه.

---

(١) اليعقوبي ج٣ ص٤٧.

(٢) سنذكر ذلك في الجزء الثامن من الكتاب إنشاء الله.

(٣) شذور العقود للمقريزي ص٧.

فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إليّ محمد بن علي بن الحسين مكرماً، ومتعه بمائة ألف درهم لجهازه وبثلاثمائة ألف لنفقته، وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه، وحبس عبد الملك رسول ملك الروم إلى موافاة محمد بن علي الباقر، فلما وافاه أخبره الخبر، فقال له محمد الباقر: لا يعظم عليك فإنه ليس بشيء من جهيتن: إحداهما أن الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم في رسول الله ﷺ، والثاني وجود الحيلة فيه قال: وما هي؟ قال: تدعو بصاغة فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد إلى آخر القصة[1].

وعلى أي حال فالإمام أبو جعفر الباقر أعلم أهل زمانه وسيد الهاشميين وأفضلهم في عصره، ولم يكن ليحيا حياة العزلة أو ينضم في زاوية الخمول، بل كانت له شهرة، ولمدرسته أثر في توجيه الفكر. تخرج منها علماء الأمة الذين هم مفخرة الزمن.

وقد نظر إليه رجال السلطة نظر تهيب وتحفظ، ووقفوا أمام نشر تعاليمه وانتشار ذكره موقف المعارضة، لأن ذلك يهدد مناصبهم التي أحاطت بها هالة من الجهل، والتف حولها أعداء الفضيلة وخصوم الحق، وقد تحمل صلوات الله عليه ضروب الأذى، وثبت أمام تلك المصاعب مجاهداً لإحياء الدين وتأييد الشريعة وخدمة الإنسانية، ودعا المسلمين لما فيه صلاح دينهم ودنياهم ليصبحوا أمة أبراراً، يتعاونون على البر والتقوى والعدل والإحسان، حتى قضى صابراً محتسباً، سنة ١١٤هـ مسموماً ودفن بالبقيع مع أبيه زين العابدين عليه السلام والحسن السبط عليه السلام.

فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً. وقد أوصى لولده الإمام جعفر بن محمد الصادق بما أوصاه به أبوه زين العابدين عندما حضرته الوفاة بقوله:

يا بني إن العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والعقل ترجمان العلم، واعلم أن العلم أبقى واللسان أكثر هذراً، إلى أن قال له: إن الساعات تذهب عمرك وإنك لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى، فإياك والأمل الطويل فكم من مؤمل أملاً لا يبلغه، وجامع

---

(١) الدميري ج٢ ص٥٥، والمحاسن والمساوي للبيهقي، والعقد المنير ص١٨ وهامش شذور العقود ص٧ وقد نسب ابن الأثير هذه الفكرة لخالد بن يزيد وهي خطأ.

مال لا يأكله، ومانع ما سوف يتركه. إلى آخر وصيته ثم قال: أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة:

إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله.

وكان له من الأولاد خمسة من الذكور: الإمام جعفر الصادق عليه السلام وكان يكنى به، وعبد الله الأفطح وأمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله وإبراهيم أمهما أم حكيم بنت أسد الثقفية، وعليّ وأمه أم ولد.

وعلى كل حال فالإمام أبو عبد الله جعفر الصادق وارث أبيه وخليفته من بعده، وقد نشأ في ظله وتغذى من علومه واستمد مواهبه منه، وقد دب ودرج في حجور طابت وبيوت طهرت ونشأ في ربوع الوحي وترعرع في مهد الرسالة، وهو من أهل بيت النبوة ومعدن العلم ومهبط الوحي، وهم كما يقول القائل:

إذا ولد المولود منهم تهللت ... له الأرض واهتزت إليه المنابر

فهو حكام الإسلام وأعلام الأنام:

لو كان يوجد عرف مجد قبلهم ... لوجدته منهم على أميال

إن جئتهم أبصرت بين بيوتهم ... كرماً يقيك مواقف التسآل

نور النبوة والمكارم فيهم ... متوقد في الشيب والأطفال(١)

ولهم في كتاب الله غنى عن مدح المادحين ووصف الواصفين: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقد ختم الإمام الباقر عليه السلام حياته بالإيصاء بأصحابه ورعايتهم لأنه يعلم ما سيواجهون من مصاعب وويلات فقال للقائم بالأمر من بعده، ووصيّه جعفر الصادق لمّا حضرته الوفاة: يا جعفر، أوصيك بأصحابي خيراً.

---

(١) زهر الآداب ج١ ص٥٨.

الإمام الصادق
في عهد المنصور

تمهيد:

انتقل الأمر بعد السفاح إلى أخيه أبي جعفر المنصور سنة ١٣٦هـ وكان السفاح لين الجانب مع أبناء عمه، يصلهم ويتظاهر بالعطف عليهم، ويتحمس لما نالهم من الأذى وما حل بهم من نكبات في العهد الأموي، ويعلن بأخذ ثأرهم والانتقام من عدوهم.

وكان العلويون والعباسيون على وئام لم تنقطع بينهم الصلات، ولم يحدث بينهم ما يثير الأحقاد ويفرق الكلمة، وإن كان العباسيون قد استأثروا بالأمر ونقضوا بيعتهم التي عقدوها بالإبواء لآل علي عليهم السلام.

ولكن المنصور الدوانيقي عندما ولي الحكم ومهد له الأمر غدر بأبناء علي عليه السلام وتعرضوا في عهده لخطر شديد، ونالهم من الأذى ما لم يكن بالحسبان.

يقول السيوطي[1]: والمنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين، وكانوا شيئاً واحداً.

وإن سيرة حياته مليئة بتلك الحوادث المحزنة التي لقيها آل محمد صلى الله عليه وآله في عهده من قتل وسجن وتشريد كما أشرنا له من قبل.

لقد كان المنصور قوي النزعة إلى انتهاز الفرصة للإيقاع بمن يظن به نشاطاً سياسياً أو علمياً، فهو يتوصل بكل وسيلة إلى نيل مقصده ولا يتوقف بأن يسيء إلى من أحسنوا إليه، ويتنكر لمن قدموا له المعروف وغمروه بفضلهم.

---

(١) تاريخ الخلفاء ص١٠٢.

يقول المقدسي[١]: كان رجلاً أسمر نحيفاً طويل القامة قبيح الوجه دميم الصورة ذميم الخُلُق، أشحّ خلق الله وأشد حباً للدينار والدرهم سفاكاً للدماء ختاراً بالعهود غداراً بالمواثيق كفوراً بالنعم قليل الرحمة وكان جال في الأرض وتعرض للناس وكتب الحديث وحدّث في المساجد وتصرف في الأعمال الدنية والحرف الشائنة وقاد القود لأهلها وضربه سليمان بن حبيب بالسياط في الجملة والتفصيل، كان رجلاً دنياً خسيساً كريهاً شريراً فلما أفضى الأمر إليه أمر بتغيير الزي وتطويل القلانس فجعلوا يحتالون لها بالقصب من داخل، فقال أبو دلامة في هجوه:

وكنا نرجّي من إمام زيادة ... فزاد الإمام المصطفى بالقلانس
تراها على هام الرجال كأنها ... ديار يهود جللت بالبرانس

وعلى أي حال فقد تقدم في الأبحاث السابقة من الجزء الأول بعض أخباره مع الإمام الصادق عليه السلام ومحاولته الفتك به مراراً ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً. فقد عصمه الله منه ودفع شره عنه.

محاولة المنصور قتل الإمام:

وهنا نعود لذكر بعض ما لقيه الإمام الصادق عليه السلام في عهد المنصور لنأخذ صورة عن الحياة التي كان يحياها الإمام عليه السلام في عهده. وما من شك أن المنصور قد حاول عدة مرات أن يفتك بالإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وأرسل إليه من يحضره عنده عدة مرات.

وقد عزم على الحج في سنة ١٤٧هـ لأجل القبض على الإمام الصادق عليه السلام فلم يتم له ذلك[٢].

ولكن هل أن المنصور سجن الإمام الصادق عليه السلام ثم أطلقه أم أنه كان يعزم على ذلك ويحضره أمامه ويترك عما عزم عليه؟

وإن بعض المؤرخين قد ذكر أن المنصور قد حبس الإمام الصادق عليه السلام[٣] وبعضهم لم يتعرض لذلك كما أن أكثرهم قد أهمل كثيراً من الحوادث التي جرت في

---

(١) البدء والتاريخ ج٦ ص٩٠ ـ ٩١.
(٢) النجوم الزاهرة لجمال الدين الاتابكي ج٢ ص٦.
(٣) طمط النجوم الغوالي للعصامي المكي ج٣ ص٢٣٩.

عهد المنصور على أهل البيت عليهم السلام وبالأخص أخبار الإمام الصادق عليه السلام.

ونحن بعد ذكرنا لبعض أخبار الإمام عليه السلام مع المنصور نستطيع أن نقف على كثير من الحقائق:

حدث الربيع حاجب المنصور قال: لما استقرت الخلافة لأبي جعفر المنصور قال لي: يا ربيع ابعث إلى جعفر بن محمد.

قال الربيع: فذهبت إليه وقلت: يا أبا عبد الله أجب أمير المؤمنين فقام معي، فلما دنونا من الباب قام الإمام الصادق فحرك شفيته ثم دخل فسلم فلم يرد المنصور السلام، ثم رفع رأسه إليه فقال:

يا جعفر أنت الذي ألّبت عليّ؟

فاعتذر إليه الإمام حتى سكن غضبه، فقال: اجلس أبا عبد الله، ثم دعا بمدهن غالية، فجعل يطيبه بيده والغالية تقطر من بين أنامل المنصور، ثم قال: انصرف أبا عبد الله، وقال: يا ربيع اتبع أبا عبد الله جائزته وضاعفها.

قال الربيع: فخرجت فقلت: يا أبا عبد الله شهدت ما لم تشهد وسمعت ما لم تسمع، وقد دخلت ورأيتك تحرك شفتيك عند دخولك إليه، أشيء تؤثره عن آبائك الصالحين؟

فقال الصادق: حدثني أبي عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا حزنه أمر دعا بهذا الدعاء، وكان يقول: هو دعاء الفرج:

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بركنك الذي لا يرام، واحفظني بعزك الذي لا يضام، واكلأني في الليل والنهار، وارحمني بقدرتك عليّ، أنت ثقتي ورجائي، فكم من نعمة أنعمت بها عليّ قل لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل بها لك صبري، وكم خطيئة ركبتها فلم تفضحني، فيا من قلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قلّ عند بلائه صبري فلم يخذلني، ويا من رآني على الخطايا فلم يعاقبني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، ويا ذا الأيادي التي لا تحصى عدداً، ويا ذا الوجه الذي لا يبلى أبداً، ويا ذا النور الذي لا يطفأ سرمداً! أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم، وأن تكفيني شر كل ذي شر، بك أدرأ في نحره وأعوذ بك من شره، وأستعينك عليه. اللهم أعني على

ديني بدنياي، وعلى آخرتي بالتقوى، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حضرته. يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة اغفر لي ما لا يضرك، وهب لي ما لا ينقصك. يا إلهي أسألك فرجاً قريباً وأسألك العافية من كل بلية، وأسألك الشكر على العافية، وأسألك دوام العافية. وأسألك الغنى عن الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم بك أستدفع مكروه ما أنا فيه، وأعوذ بك من شرّه يا أرحم الراحمين[1].

وبهذا فقد رد الله كيد المنصور ودفع عن الإمام شره لأنه عليه السلام عليه من الله جنة واقية.

كما حدث الربيع مرة أخرى بأن المنصور أرسله لاستقدام جعفر الصادق عليه السلام لشيء بلغه عنه فلما وافى قال الحاجب:

أعيذك بالله من سطوة هذا الجبار فإني رأيت ضرره عليك شديداً.

فقال الإمام الصادق عليه السلام: عليّ من الله جنة واقية تعينني إن شاء الله. استأذن لي عليه فلما دخل الإمام عليه السلام دار بينهما حديث طويل وكان الإمام يجيب عما يوجه إليه المنصور من تهم حتى هدأ غيظه وتصاغر أمام قوة الإيمان وسلطان الحق، وقال المنصور: صفحت عنك لعذرك وتجاوزت عنك لصدقك فحدثني بحديث أنتفع به ويكون لي زاجراً عن الموبقات.

فقال الصادق عليه السلام: عليك بالحلم فإنه ركن العلم، واملك نفسك عند أسباب القدرة فإنك إن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن شفي غيظاً وتداوى حقداً، ويحب أن يذكر بالصولة، واعلم بأنك إن عاقبت مستحقاً لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل، والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر، فقال المنصور: وعظت فأحسنت وقلت فأوجزت.

وكان المنصور كلما دخل المدينة فلا يهمه أمر إلا الوقيعة بأبي عبد الله ويسلك إلى ذلك مختلف الطرق وشتى الوسائل، ولكن الإمام عليه السلام كان بقوة إيمانه والتجائه إلى ما وعد الله المؤمنين من الدفاع عنهم، فهو لا يهتم ولا يخشى بطشه.

---

(١) عيون الأدب والسياسة لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل ص١٦٣.

وأرسل إليه مرة أخرى وهو بالمدينة ـ كما حدث الربيع ـ، وقال: انطلق في وقتك هذا على أخفض جناح وألين مسير فإن استطعت أن تكون وحدك فافعل، حتى تأتي أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام وقل له: هذا ابن عمك يقرئك السلام ويسألك المصير إليه في وقتك هذا، فإن سمح بالمسير معك، وإن امتنع بعذر أو غيره فاردد الأمر إليه في ذلك.

قال الربيع: فصرت إلى بابه فوجدته في دار خلوته معفراً خديه، مبتهلاً بظهر يديه، قد أثر التراب في وجهه وخديه، فأكبرت أن أقول له شيئاً حتى فرغ من صلاته ودعائه، ثم انصرف بوجهه.

فقلت: السلام عليك يا أبا عبد الله فقال: وعليك السلام ما جاء بك؟ فأخبرته الخبر.

فقال: يا ربيع ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ... ﴾ [الحديد: ١٦].

ويحك يا ربيع ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩] ثم قال: وعليه السلام، ثم أقبل على صلاته، ثم صرف إليّ وجهه فقلت هل بعد السلام شيء؟ فقال: قل له: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٣ـ٣٥].

ثم قال له: بلغه إنا قد خفناك وخافت لخوفنا النسوة، فإن كففت وإلا أجرينا اسمك في كل يوم خمس مرات، إن رسول الله ﷺ قال: أربع دعوات لا يحجبن عن الله: دعاء الوالد لولده، والأخ بظهر الغيب لأخيه، والمظلوم، والمخلص.

وأرسل إليه محمد بن الربيع، وأمره أن يأتيه به على الحالة التي هو عليها وقال: امض إلى جعفر بن محمد فتسلق على حائطه ولا تفتح عليه باباً فيغير بعض ما هو عليه، ولكن انزل عليه نزولاً فامتثل ما أمره.

قال محمد بن الربيع: فوجدته قائماً يصلي، فلما سلم من صلاته، قلت: أجب أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: دعني ألبس ثيابي. فقلت: ليس إلى تركك من سبيل، إلى أن جاء به على حالته وأدخل على المنصور، فلما نظر إليه قال:

يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك على أهل هذا البيت من بني العباس، وما يزيدك ذلك إلا شدة الحسد وما تبلغ به ما تقدره.

فقال عليه السلام: والله ما فعلت شيئاً من هذا، ولقد كنت في ولاية بني أمية وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم، وأنهم لا حق لهم في هذا الأمر، فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عني سوء مع جفاهم الذي كان بي، وكيف أصنع هذا؟ وأنت ابن عمي وأمس الخلق بي رحماً. فأطرق المنصور ساعة ثم رفع وسادة إلى جنبه، فأخرج إضبارة كتب فرمى بها إليه وقال: هذه كتبك إلى خراسان تدعوهم إلى نقض بيعتي وأن يبايعوك دوني.

فقال عليه السلام: والله ما فعلت وقد بلغت من السن ما قد أضعفني عن ذلك لو أردته، فصيرني إلى بعض حبوسك حتى يأتيني الموت فهو مني قريب.

فقال: لا ولا كرامة، ثم أطرق وضرب يده إلى السيف فسل منه مقدار شبر ثم رد السيف وقال: يا جعفر أما تستحي مع هذه الشيبة ومع هذا السن أن تنطق بالباطل، وتشق عصا المسلمين؟ تريد أن تريق الدماء وتطرح الفتنة بين الرعية والأولياء؟.

فقال عليه السلام: لا والله ما فعلت ولا هذه كتبي ولا خطي ولا خاتمي، ثم أقبل على جعفر يعاتبه وجعفر يعتذر إليه، ثم رفع رأسه وقال: أظنك صادقاً[1].

وعن عبد الله بن أبي ليلى قال: كنت بالربذة مع المنصور وكان قد وجه إلى أبي عبد الله، فأتي به فلما جيء به صاح المنصور: عجلوا به قتلني الله إن لم أقتله. فأدخل عليه مع عدة جلاوزة فلما انتهى إلى الباب، رأيته قد تحركت شفتاه ودخل فلما نظر إليه المنصور، قال: مرحباً يا ابن عم مرحباً يا ابن رسول الله فما زال يرفعه حتى أجلسه على وسادته. ثم خرج فسأله ابن أبي ليلى عما قاله عند دخوله على المنصور، فأجابه الإمام: نعم إني قلت:

ما شاء الله ما شاء الله لا يأتي بالخير إلا الله، لا يصرف السوء إلا الله ما شاء الله ما شاء الله كل نعمة فمن الله، ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) البحار ج١٢.

وعن صفوان بن مهران الجمال قال: رفع رجل من قريش المدينة من بني مخزوم إلى أبي جعفر المنصور أن جعفر بن محمد بعث مولاه المعلى بن خنيس بجباية الأموال من شيعته، وأنه كان يمد بها محمد بن عبد الله، فكاد المنصور أن يأكل كفه على جعفر غيظاً وكتب إلى أمير المدينة أن يسير إليه جعفر بن محمد، ولا يرخص له في التلوم والمقام. فلما بلغه قال لي: تعهد راحلتنا فإنا غادون في غد إن شاء الله إلى العراق، فلما أصبح أبو عبد الله رحلت له الناقة، وسار متوجهاً إلى العراق حتى قدم مدينة أبي جعفر، فاستأذن وأذن له، فلما رآه قربه وأدناه، ثم أسند قصة الرافع على أبي عبد الله فقال الصادق عليه السلام: معاذ الله، قال المنصور: تحلف على براءتك، إلى أن قال المنصور: إني أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عنك حتى يواجهك، فجيء به واعترف أمام جعفر بصحة ما رفعه عنه. فقال أبو عبد الله: تحلف أيها الرجل؟ قال: نعم ثم ابتدأ الرجل باليمين، فقال الصادق: لا تعجل في يمينك.

ثم حلفه بما أراد وانتقم الله من الساعي عاجلاً.

وعن محمد بن عبد الله الاسكندري قال: كنت من ندماء المنصور وخاصته فدخلت عليه فوجدته مغتماً، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال لي: يا محمد لقد قتلت من أولاد فاطمة مقدار مائة ويقي سيدهم وإمامهم، فقلت له من؟ قال: جعفر الصادق، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه رجل أنحلته العبادة واشتغل بالله عن طلب الملك والخلافة، فقال: يا محمد وقد علمت أنك تقول به وبإمامته، ولكن الملك عقيم، وقد آليت على نفسي أن لا أمسي عشيتي هذه أو أفرغ منه.

قال محمد: ثم دعا سيافاً وقال له: إذا أنا أحضرت أبا عبد الله وشغلته بالحديث ووضعت قلنسوتي من رأسي، فهي العلامة بيني وبينك فاضرب عنقه، ثم أحضر أبا عبد الله فرأيت المنصور يمشي بين يديه واستقبله وأجلسه على سريره. ثم قال: سل حاجتك يا ابن رسول الله، قال: أسألك أن لا تدعوني. . .[1].

ونحن نستظهر من هذه الحوادث عدة أمور:

١ ـ إن حنق المنصور على الإمام ومحاولته الفتك به لم يكن لباعث عداء

(١) البحار ج١١ ص١٢٤.

متأصل فهو قد اتصل به أيام المحنة وسمع الحديث وكان من المؤازرين له إذ المنصور كان من أكبر الدعاة للعلويين، وقد بايع محمد ذي النفس الزكية وكان يدعو الناس للثورة على الأمويين باسم العلويين.

ولكن المنصور عندما ولي الحكم وتحول إليه الأمر تنكر لأبناء عمه فكان حرصه على ملكه يدعوه لأن يقضي على أعظم شخصية منهم تتجه إليها أنظار العالم الإسلامي، فقدكان موقف الإمام في عصر انتشار العلم وشهرته التي ملأت الآفاق تقض مضجع المنصور وتنكد عليه عيشه، فوجود الإمام الصادق كان من أخطر المشاكل التي تواجهها دولة العباسيين، لأنهم جلبوا قلوب الناس بالغضب على أمية، لسوء السيرة التي ارتكبوها مع أبناء عليّ، فنالوا بذلك السلطان الذي ساعدهم الحظ على الحصول عليه، فتظاهروا بالدين مع أن أعمالهم لا يمكن التوفيق بينها وبين نظم الإسلام الواقعية.

والإمام الصادق عليه السلام لعظيم منزلته كانت تتجه إليه الأنظار، فبمجرد إنكاره على الدولة يشتد جانب المنكرين من العلويين وغيرهم، فيتسع ميدان المؤاخذات. والدولة في دورها الجديد لا يمكنها أن تقف تجاه حزب العلويين وغيرهم، لذلك نرى المنصور وقف بين السلب والإيجاب في قضية الإمام الصادق، فهو يعزم على قتله مجازفاً في ذلك ولكن دهاءه في قضية الإمام الصادق، فهو يعزم على قتله مجازفاً في ذلك ولكن دهاءه وحذره من سوء العاقبة يدعو إلى التريث، فكان يتظاهر بالعطف، حتى حان الزمن وحصلت الفرصة.

٢ ـ اتضح لها من حديث إضبارة الكتب المزورة أن ذلك العمل يدل على وجود قوة متكاتفة من الدخلاء في الإسلام على السعي بكل جهد لتفريق الأمة، وإيقاد نار الفتنة بتزوير الكتب على الإمام الصادق وانتحال الأقوال التي يسلب لبّ المنصور سماعها، ويخرج عن حدود اتزانه فيخاطب الإمام بتلك اللهجة القاسية التي لا تصدر إلا عن جاهل لا يعرف ما يقول.

وإن كنت لا أستبعد التزوير من المنصور نفسه، أو من رجال بلاطه وعلى أي حال، فإن الدخلاء في صفوف المسلمين يجهدون في إيقاد نار الفتنة لحصول ثورة دموية، فيقفون موقف المتفرج وأينما أصابت فتح، فإنهم يأملون بقتل الإمام الصادق حصول اضطراب وحوادث تؤدي إلى ضعف الدولة الفتية وانحلالها، لأنهم يعلمون ما

لأهل البيت في قلوب المسلمين من الولاء، وأن الإمام الصادق هو الذي تجب طاعته، وتحرم مخالفته، وهم الذين يسميهم المنصور بالأوغاد. وفي الحقيقة هم علماء دار الهجرة، وفيهم خيرة الشباب النابه، وكذلك في سائر الأمصار.

والمحصل إن مسألة تزوير الكتب لا تخلو من اثنين: إما هؤلاء القوم الذين يريدون ضعف الأمة الإسلامية، وإما المنصور ورجالاته أرادوا أن يكون لهم طريقاً لقتل الإمام وعذراً به يعتذرون للمنكرين عليهم، ولكن الله رد مكر الجميع، وخيب سعيهم، وكان عليه من الله جنة واقية.

٣ ـ يظهر من رواية صفوان الجمال المتقدمة أن الإمام الصادق دخل بغداد، وأفاد الناس بها من علمه «وإن بالجانب الغربي من بغداد على ضفة الفرات شمال جسره الغربي اليوم المعروف بالجسر القديم مكان يعرفه الناس بمدرسة الصادق، ولس فيه اليوم أثر بيّن، ولعله أفاد الناس فيه عند مجيئه إلى بغداد على عهد المنصور»[١].

والغريب أن الخطيب البغدادي[٢] لم يذكره، ولكن لا يستغرب ذلك ممن نشأ في عصر احتدام التعصب الطائفي، ولا تجهل نفسية الخطيب.

٤ ـ إن المنصور مهما بلغت به الحالة من الشذوذ والانحراف عن الإمام الصادق، ومهما بلغ من عدائه وبغضه لا يجهل منزلة الإمام، ويعرف له قدره. ولقد حاول أن يستميله ويجلب وده، ولكن الإمام ابتعد عنه، وأعلن سخطه عليه وعلى ولاته، كما اتضح من سيرته، فكان اهتمام المنصور بأمره أعظم من كل أحد، لأن الملك عقيم، ولا يقف أمام تركيز دعائمه شيء، فقد أسرف المنصور في سفك الدماء في سبيل ذلك، حتى قتل أقرب الناس إليه وأمسهم رحماً به، لقد قتل عمه عبد الله بن عليّ.

---

(١) حياة الإمام الصادق لشيخنا المظفر ج١ ص١٤٦.

(٢) هو أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، أبو بكر الخطيب المتوفى سنة ٤٦٣هـ تفقه على مذهب الشافعي، ورحل إلى نيسابور في سنة ٤١٥هـ، لاضطراب الأحوال ببغداد، وحدوث التعصب بين المذاهب، وقد آذاه الحنابلة واستتر في فتنة البساسيري وخرج إلى الشام، لأنه كان على مذهب أحمد بن حنبل، قال ابن الجوزي: فمال عنه أصحابنا لما رأوا من ميله إلى المبتدعة وآذوه، فانتقل إلى مذهب الشافعي وتعصب في تصانيفه. كما أن الحنفية حملوا عليه وفسقوه.

يحدثنا المسعودي: أن المنصور سلم عبد الله بن علي إلى أبي الأزهر المهلب ابن أبي عيسى، فلم يزل عنده محبوساً، ثم أمره بقتله، فدخل عليه ومعه جارية له، فبدأ بعبد الله، فخنقه حتى مات، ثم مده على الفراش، ثم أخذ الجارية ليخنقها، فقالت: يا عبد الله قتلة غير هذه، فكان أبو الأزهر يقول: ما رحمت أحداً قتلته غيرها، فصرفت وجهي عنها، وأمرت بها فخنقت، ووضعتها معه على الفراش(١).

كما يتضح لنا أن المنصور كان يخشى دعوة الإمام الصادق، وكان يتهيبه في نفسه، فهو يشعر بالتصاغر أمام هيبة الإمام، مهما بلغت هيبة المنصور المصطنعة، ومهما كنت عظمته في ملكه.

وقد كان الإمام الصادق مجاب الدعوة عرف الناس عنه ذلك، فهو يلجأ إلى الله تعالى في كل ما يهمه، ويفزع إليه في شدائده، إذ الدعاء سلاح المؤمن ومخ العبادة.

وقد شاهد المنصور كثيراً من ذلك، كدعاء الإمام الصادق على حكيم بن عياش الكلبي شاعر الأمويين مفتخراً بقتل زيد بن علي بقوله:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ... ولم نر مهدياً على الجذع يصلب
وقستم بعثمان علياً سفاهة ... وعثمان أزكى من علي وأطيب

قال ابن حجر: فجاء رجل إلى جعفر الصادق فقال: هذا ابن عياش ينشد للناس هجاءكم بالكوفة. فقال: هل علقت بشيء منه؟ قال: نعم، فأنشده الأبيات، فرفع جعفر يديه، فقال: اللهم إن كان كاذباً، فسلط عليه كلبك، فخرج حكيم، فافترسه الأسد(٢).

وقصة رجل السوء الذي سعى بالإمام عند المنصور، فلما حج المنصور أحضر الساعي وأحضر الإمام وقال للساعي: أتحلف؟ قال: نعم. فحلف. فقال الإمام الصادق للمنصور: حلّفه بما أراه، فقال: حلفه، فقال الإمام قل: برئتُ من حول الله وقوته والتجأت إلى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا. فامتنع الرجل ثم حلف فما تم حتى مات(٣).

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص٢٣٠.
(٢) الإصابة ج١ ص٣٩٥ وتاريخ ابن عساكر.
(٣) الكواكب الدرية ج١ ص٩٤.

الإمام الصادق وولاة المنصور:

وكانت له مواقف مع ولاة المنصور الذين كانوا يتحدون مقامه، ويحاولون إيقاع الأذى تبعاً لرئيسهم، وامتثالاً لأمره، منها: ـ

أن أحد ولاة المدينة خطب يوم الجمعة، وكان الإمام حاضراً، فحمد الله، ثم ذكر علياً وتعرض له، فقام أبو عبد اللّه الصادق بذاك الحفل وقال له:

ونحن نحمد الله ونصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين. أما ما قلت من خير، فنحن أهله، وما قلت من سوء، فأنت وصاحبك به أولى، فاختبر يا من ركب غير راحلته، وأكل غير زاده! ارجع مأزوراً.

ثم أقبل على الناس، فقال: ألا أنبئكم بأخلى الناس ميزاناً يوم القيامة وأبينهم خسراناً، من باع آخرته بدنيا غيره، وهو هذا الفاسق. فسكت الوالي، ولم ينطق بحرف، وخرج من المسجد.

ومثل هذا لا يتحمله المنصور، لأنه لا يخفى عليه، فإن الرصد والعيون يوصلون إليه كل ما يصدر من الإمام الصادق، فهو يتقد بنار غيظه، ويتحين الفرص لإطفائها عندما يظفر به.

ولما كان داود بن علي والياً على المدينة، بالغ في إيذاء العلويين، وتتبع أنصارهم. وفي أيامه قتل المعلى بن خنيس، قتله السيرافي صاحب شرطة داود.

وكان المعلى رحمه الله من موالي جعفر بن محمد وأتباعه، وصودرت أمواله، وتحمل ما تحمل في سبيل نصرة أهل البيت. وقد ذكروا في سبب قتله أقوالاً: منها: ـ أن المعلى طلب منه داود أن يدله على المخلصين من شيعة أهل البيت، فامتنع، وهدده بالقتل، وأصر على امتناعه وتفانيه وإخلاصه لأهل البيت، فأمر داود بقتله.

ومنهم من يرى أن قتله كان بسبب القيام بالدعوة لمحمد بن عبد اللّه ذي النفس الزكية، وكان لهذا الحادث الأثر العظيم في نفس الإمام الصادق «وقد رأى في هذا الاعتداء اعتداءً على حقه، وحرباً معلنة عليه، يدل على ذلك عنف الاحتجاج الذي احتج به على الأمير، والتهديد الذي هدده به، فقد أجمعت روايات الباحثين في سيرته على أنه مشى إلى ديوان الأمير، وهو محنق على خلاف عادته، وألقى خطاباً موجزاً قال فيه:

«قتلت مولاي، وأخذت مالي، أما علمت أن الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب؟ وقد جرى إثر الخطاب أخذ ورد بين الإمام والأمير لا يخلوان من العنف، ولكن الأمير حاول التنصل وإحالة التقصير على صاحب شرطته. فكانت الحجة واهية. ولم يكن للأمير مهرب من القود، فأمر بقتل السيرافي، ولما أخذ ليقتل، صرح القاتل قائلاً: يأمرونني بقتل الناس فأقتلهم لهم. فيأمرون بقتلي.

وهي كلمة تدل على أن القاتل كان مأموراً بإزهاق روح المعلى بن خنيس وأنه امتثل أمر الأمير داود بذلك»[1].

وكما قلنا: إن الإمام الصادق كان يلجأ إلى الله في مهماته، فقد أهمه قتل المعلى ودعا على داود حتى سمعوه يقول: الساعة الساعة، فما استتم دعاءه حتى سمعت الصيحة في دار داود.

وانه قال في دعائه: اللهم إني أسألك بنورك الذي لا يطفى، وبعزائمك التي لا تخفى، وبعزك الذي لا ينقضي، وبنعمتك التي لا تحصى، وبسلطانك الذي كففت به فرعون عن موسى[2].

وهكذا بقي أبو عبد اللّه يتحمل ضروب الأذى وأنواع المحن وكان الخطر محدقاً به، ويدل على ذلك حديثه المشهور وكلمته الخالدة: «**عزت السلامة حتى لقد خفي مطلبها**».

وكان سفيان الثوري يكثر الدخول عليه قبل أن يشتد الأمر على الإمام، ولما دخل عليه في تلك الأيام يطلب منه أن يحدثه قال: يا سفيان أنت رجل يطلبك السلطان وأنا رجل أتقي السلطان قم فاخرج غير مطرود.

* * *

وخلاصة القول أن الإمام الصادق عليه السلام لقي في أيام المنصور محناً وواجه صعوبات لم يلق بعضاً منها في العهد الأموي. كما أن المنصور اقتضت سياسته عند اشتداد ملكه أن يقضي على الإمام الصادق، واتخذ شتى الوسائل في ذلك. فمرة يحضره للفتك به كما تقدم وكانت سلامته في تلك المواقف أعجوبة، لأن المنصور لا

---

(١) مؤرخ العراق لابن الفوطي.

(٢) الكافي ج٢ ص٥٥٧ ط٢.

يتوقف عن إراقة الدماء، وليس له وازع يحجزه عن ارتكاب المحارم، ولكن عناية الله وعينه التي كانت ترعى الإمام دفعت عنه كيده.

يحدثنا علي بن ميسرة، قال: لما قدم أبو عبد الله على أبي جعفر أقام أبو جعفر مولى له على رأسه، وقال له: إذا دخل جعفر بن محمد فاضرب عنقه، فلما دخل أبو عبد الله نظر إلى أبي جعفر وأسر شيئاً في نفسه ثم أظهره: «يا من يكفي خلقه كلهم ولا يكفيه أحد، اكفني شر عبد الله بن علي...» فسلمه الله من شره واستجاب دعاءه[1].

وكان يعرف كيد المنصور ووسائله التي اتخذها ضده، فمرة يرسل أموالاً إلى العلويين على يد رجال من أعوانه يتظاهرون بأنهم غرباء من أهل خراسان فإذا دفعوا المال إلى أحد من العلويين يأخذون منه كتاباً بوصول المال.

وجاء أحد هؤلاء الرجال إلى الإمام الصادق، وقد أرسل معه المنصور مالاً جزيلاً ليدفعه إليه وإلى عبد الله بن الحسن، فجاء الرجل إلى المسجد وكان الصادق يصلي فيه فجلس خلفه ينتظره، فالتفت الإمام إليه وقال: يا هذا اتق الله، وقل لصاحبك ـ يعني المنصور ـ اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان، وكلهم محتاج...[2].

وكذلك كان المنصور يكتب رسائل مزورة على لسان بعض شيعة أهل البيت ويرسلها بيد أعوانه، ويحاول أن ينال غرضه عندما يحصل على جواب من الإمام لتلك الكتب والرسائل، ولكنه لم يظفر بشيء من ذلك للخطة التي اتخذها الإمام، ولنظره الصائب ورأيه السديد.

وكثرت السعايات به إلى المنصور، واجتهد الوشاة بكل حيلة أن ينالوا قصدهم وغرضهم بذلك التقرب إلى المنصور بما يرفعونه إليه من أخبار الإمام التي تدور حول اتصاله بأنصاره وأوليائه في الحجاز والعراق وخراسان، وأنهم كانوا يحملون زكاة أموالهم إليه، وقد زوروا على لسانه كتباً إلى هؤلاء الأنصار يدعوهم فيها إلى خلع بني العباس.

---

(١) الكافي ج٢ ص٥٦١.

(٢) ابن شهرآشوب ج٢ ص٣٠٢.

وعلى أي حال فإن المنصور كان يهتم بأمر العلويين عامة، وبجعفر بن محمد خاصة، لأن شبح الثورة يلوح على الدوام في مخيلته، فهو يقض ولا يقر له حال، ويبذل كل ما في وسعه لتحصيل غايته.

سياسة المنصور تجاه العلويين:

اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين معاملة قاسية، لم يشهد التاريخ مثلها، لأنه يعلم ويعلم كل أحد أن الأمة ترى أهلية أهل البيت للخلافة، وهم أولى بالأمر من غيرهم، لقربهم من رسول الله ﷺ نسباً، ولما اتصفوا به من المؤهلات لذلك من وفور العلم والتمسك بالدين، وقد برهنوا على عدلهم في الحكم.

وقد كان العباسيون والعلويون من قبل يجمعهم السخط على أعمال الأمويين كما ملأ سمع الدنيا انتصار العباسيين لأبناء عمهم، فقد أظهروا للناس التودد لأهل البيت، وكانوا يتفجعون لما نالهم من الأمويين، ويمسحون دموعهم المصطنعة بتلك الأيدي التي خضبوها من دمائهم فيما بعد، وكانوا يظهرون للناس إنكارهم الشديد على الأمويين لأعمالهم السيئة، وما قابلوا به أهل البيت بقلوب لا عهد لها بالرحمة، كما أوضحوا ذلك في كثير من مواقفهم وأقوالهم، وقد قطعوا على أنفسهم عهداً في نصرة آل محمد. ولما تم الأمر ونالوا غايتهم ونجحت خططهم التي دبروها في استغلال تلك الفرصة، وتم لهم ما أرادوا نراهم يذيقون العلويين أنواع الأذى وضروب المحن، وعاملوهم أعظم مما كان الأمويون يعاملونهم به.

فقد كان المنصور يطارد العلويين ويضيق عليهم الدنيا، ويذيقهم أنواع العذاب، ولنا بما فعله مع أسرائهم منهم كفاية على عظيم ما كان يتحمله من الغيظ والحقد.

فقد جمع منهم جماعة في الربذة وأثقلهم بالحديد، وضربهم بالسياط، حتى اختلطت بدمائهم ولحومهم، ثم حملهم إلى العراق على أخشن مركب وتوجه بهم إلى الكوفة، فكانت خاتمة مطافهم ذلك السجن الضيق الذي لا يعرفون فيه الليل من النهار، وسلط عليهم شرطة ابتعدوا عن الرقة كابتعاده عن الإنسانية فقد عذبوهم بأمره.

كما أنه أمر أن تترك أجساد الموتى منهم في السجن. فاشتدت رائحة الجثث على الأحياء، فكان الواحد منهم يخر ميتاً إلى جنب أخيه.

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله أرسل برأسه إلى أبيه مع الربيع وهو في السجن،

وكان أبوه عبد الله يصلي فقال له أخوه إدريس، أسرع في صلاتك يا أبا محمد فالتفت إليه وأخذ رأس ولده، وقال: أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم، والله لقد كنت من الذين قال الله عز وجل فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ . . .﴾ [الرعد: ٢٠ ـ ٢١]. فقال له الربيع: كيف أبو القاسم في نفسه؟ قال: كما قال الشاعر:

فتى كان يحميه من الذل سيفه ... ويكفيه أن يأتي الذنوب اجتنابها

ثم التفت إلى الربيع فقال: قل لصاحبك قد مضى من يومنا أيام والملتقى القيامة.

فمكثوا في ذلك السجن، لا يعرفون أوقات صلاتهم إلا بأجزاء من القرآن، حتى كانت نهاية أمرهم أن أمر المنصور بهدم السجن على الأحياء منهم[1] ليذوقوا الموت من بين ألم القيود وثقل السقوف والجدران، وكان منهم من سمر يديه في الحائط. وهكذا اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين بهذه المعاملة القاسية، وقد أمر ببعضهم فوضع بالبناء حياً.

ولما خشي المنصور عاقبة فعله مع أبناء الحسن خشي الإنكار عليه، فقام خطيباً بالهاشمية فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا، وإن ولد ابن أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير إلى أن يقول: ثم وثب بنو أمية علينا فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا، والله ما كانوا لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا بسببهم وخروجهم ـ يعني العلويين ـ فنفونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالسراة، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً، فأحيى الله شرفنا وعزنا بكم وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا ﷺ، فقر الحق في قراره، وأظهر الله مناره وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل، وثبوا علينا حسداً منهم، وبغياً لهم بما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه.. إلى آخر خطبته[2].

(١) مروج الذهب ج٣ ص٢٩٩، ابن الأثير ج٤ ص٣٧١.
(٢) المسعودي ج٣ ص٣١٢.

ولا يخفى ما في هذه الخطبة من الأمور المخالفة للواقع، وإنما استعمل هذه اللهجة وسيلة لإرضاء أنصاره، وخشية من إنكارهم عليه، فهو يحاول أن يحل تلك المشكلة بهذه اللهجة الباردة، والواقع أن العلويين لم ينهضوا حباً للملك وطمعاً في السيادة، وإنما كانت مواقفهم مشرفة يدعوهم للنهوض إباؤهم للضيم ورعايتهم لمصلحة الأمة وهو ما يفرقهم عن غيرهم، وقد أقر المنصور في هذه الخطبة بأن ما لحقهم من بني أمية كان بسبب مواقف العلويين.

ويعلل ابن الساعي نهضة العلويين بقوله: إن من يمعن النظر كل الإمعان بتاريخ الإسلام يعلم علماً يقيناً أن كل من خرج من أهل البيت ما كان ذلك إلا عن مصيبة نابتة، وذل إهانة، فإن الأمويين كانوا يمنون على الموالي وصعاليك العرب بمئات الألوف من الدنانير، ويعطونهم الاقطاع والضيعات، ويستعملونهم على الممالك، ويستوزرونهم، ويقترون على الفاطميين حتى يصير الفاطمي في ضيق ومحنة شديدة، ويرى الذين يفرطون لبني أمية ويتمسخرون لهم في مجالسهم ويشاركونهم في شرابهم وفسقهم وفجورهم، يتقلبون بأنواع الرفاهة، فهنالك يهز الجماعة الفاطمية شرفهم ونخوتهم، فيخرجون لا خروجاً عن الطاعة ولا نقضاً لبيعة[1]. ولكن يقولون أرض الله واسعة، فيهاجر أحدهم إلى ناحية من الأرض فيها قوم من أمة جده، فإذا وصلهم حركتهم نخوة الدين فاحترموه وأكرموه وألفته قلوبهم واجتمعوا عليه، فمتى بلغ خبره الأمويين قالوا خرج ورب الكعبة، وساقوا عليه القواد والجنود ولا يزالون حتى يتركوه شهيداً. وكذلك بنو العباس. . .[2].

ويجب هنا أن نلحظ الفرق بين خطة الأمويين في معاملة أهل البيت وبين خطة العباسيين فإنهم يختلفون عن الأمويين. فأولئك قد جاهروا بالعداء لأهل البيت بكل ما للجهر بالعداء من طرق. ولم يتكتموا في شيء من سياستهم وهل بعد قتل الحسين عليه السلام وسبي نسائه وإعلان سب أمير المؤمنين وجعل ذلك سنة متبعة من شيء يدعو إلى التكتم؟ ولكن العباسيين لم يسلكوا ذلك الطريق بل تظاهروا بالولاء لآل محمد ﷺ، طمعاً في السيطرة، وحباً للإمرة.

---

(١) لم تكن للعباسيين بيعة في رقاب العلويين فإنهم لم يعترفوا بولايتهم ولم يلزموا بالبيعة لهم وعلى هذا ساروا وتبعهم أنصارهم.

(٢) تاريخ ابن الساعي ص٣٦.

وقد تحقق ذلك عندما ولي المنصور، وتثبتت دعائم الدولة فأوقع بالعلويين، فكانوا أول الضحايا، وفي مقدمة القوافل التي تساق للسجون وساحات الإعدام. وقد تحدثنا عن بعض أعمال المنصور مع العلويين وتشريدهم وإراقة دمائهم. ولعل أفجع حادث وأشجى حديث هو حديث الخزانة وإليك بيان ذلك:

حديث الخزانة:

وحديثها شجون، فقد احتفظ المنصور بخزانة ادخرها (ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون) ادخرها (ليوم الفصل)، (يوم يعض الظالم على يديه) أجل ما هذه الخزانة التي احتفظ بها في حياته، وأوصى بها المهدي بعد وفاته ودفع مفتاحها إلى ريطة زوجة المهدي، وأوصاها أن لا تدفعها إلا بيده عندما يصح لها موت المنصور؟ ولما مات المنصور وآن لريطة أن تنفذ وصيته بفتح تلك الخزانة، ولعلها كانت تأمل أنها تحتوي على نفائس من الجوهر تحلي بها جيدها، فوق ما وهبتها الكف الظالمة، كما حظت بيغيتها من الخزائن الأخرى.

فجاءت مع المهدي ولا ثالث معهما إلا عين الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. فاستبقا بكل بهجة وسرور لفتح تلك الخزانة العظيمة فوجدوا هناك أشلاء مطرحة، وجثثاً هامدة، وإليك حديثها: حدث الطبري في تاريخه قال:

لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت أبي العباس امرأة المهدي. وكان المهدي بالريّ قبل شخوص أبي جعفر. فأوصاها بما أراد وعهد إليها ودفع إليها مفاتيح الخزائن، وتقدم إليها وأحلفها ووكد الإيمان أن لا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها أحداً إلا المهدي. ولا هي إلا أن يصح عندها موته، فإذا صح ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة.

فلما قدم المهدي من الري إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح، وأخبرته عن المنصور أنه تقدم إليها فيه ألا يفتحه ولا يطلع عليه أحداً حتى يصح عندها موته، فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور وولي الخلافة فتح الباب ومعه ريطة، فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وإذا فيهم أطفال ورجال، شباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى، وأمر

فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها، وعمل عليها دكاناً[1]. ولا حاجة بنا إلى بيان أكثر من هذا مما استعمله المنصور مع أهل البيت، وكفى بذلك شاهداً على نوع السياسة الجديدة وسير حكم النظام الجديد.

تظاهر المنصور بالعدل:

والذي يلفت النظر: هو محاولة المنصور تغطية أعماله بأقوال فارغة، وادعاء كاذب وتظاهر بالزهد.

قيل لجعفر بن محمد عليه السلام: إن أبا جعفر يعرف بلباس جبة هروية مرقوعة وإنه يرقع قميصه.

فقال جعفر عليه السلام: الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه[2].

وضرب كاتبه محمد بن جميل خمس عشرة درة لأنه لبس سراويل كتان وقال له: إن هذا من السرف، وهو يحاول بذلك أن يفهم الناس بأنه أمين على أموال الأمة، ودينه يمنعه بأن يرى كاتبه يسرف في لباسه.

وخطب في يوم عرفة فقال:

أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني، فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه ـ في هذا اليوم الشريف[3] ـ أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحني لأعطياتكم!.

فهو يحاول أن يتبرأ من عهدة بخله ويدعي طهارة ثوبه مما علق به من الدماء، وأنه أمر يعود إلى الله وبأمره، إذ هو سلطانه فيتبع الحق ويخالف الباطل، ولكن الواقع غير ما يقول.

ثم نراه يصل إلى درجة أخرى من التظاهر بالقداسة بموافقة أعماله لما يرضي الله

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٤٤.
(٢) الكامل لابن الأثير ج٦ ص١٣.
(٣) الطبري ج٦ ص٣٣٠.

ولكنها أمور ادعائية لا صلة لها بالواقع. فهو يقول في خطبة أخرى:

الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فاعترضه معترض عن يمنيه ـ وهو أبو الجوزاء ـ فقال: أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به؟.

فقطع الخطبة، ثم قال: سمعاً سمعاً لمن حفظ عن الله وذكر به، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً. ثم التفت إليه قائلاً له: وإياك وإياكم معشر الناس أختها، فإن الحكمة علينا نزلت، ومن عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده، وتصدروه مصادره، وعاد إلى خطبته.

* * *

فهو بهذا الرد يخيف الناس ويهدد من يرد عليه أو ينقد عمله، لأنه يظهر نفسه بالمحافظة على الدين، وأنه يحكم بأمر الله، ولا يتبع الهوى، وأنه رجل عدل، ومثال تقوى، إذ هو سلطان الله، يعمل بمشيئته ولا يخالف حكمه، وكان ينقد سياسة الأمويين وأعمالهم مع أن عهده كان امتداداً للحكم الأموي وزيادة.

قال المنصور يوماً لعبد الرحمن الافريقي: كيف سلطاني من سلطان بني أمية؟.

فقال عبد الرحمن: ما رأيت في سلطانهم شيئاً من الجور إلا رأيته في سلطانك(١).

وكان عبد الرحمن هذا من أهل افريقيا يطلب العلم مع المنصور قبل الخلافة، فلما ولي المنصور وظهر الجور في عهده قدم عبد الرحمن على المنصور فأقام ببابه شهراً لا يمكنه الدخول عليه.

فلما أذن له بالدخول قال له المنصور: ما أقدمك؟

قال: ظهر الجور بيلادنا فجئت لأعلمك، فإذا الجور يخرج من دارك. ورأيت أعمالاً سيئة، وظلماً فاشياً، ظننت لبعد البلاد منك، فجعلت كلما دنوت منك كان الأمر أعظم. فغضب المنصور، وأمر بإخراجه(٢).

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٠٥.

(٢) تاريخ بغداد ج١٠ ص٢١٥.

ولما حج المنصور في السنة التي مات فيها فبينما هو يطوف بالبيت إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع.

فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد ودعا بالقائل فسأله عن قوله؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن أمنتني أنبأتك بالأمور على جليتها، فقال: أنت آمن على نفسك ومالك.

فقال: إن الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله هو أنت.

فقال: ويحك فكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء عندي؟!

فقال: يا أمير المؤمنين لأن الله استرعاك للمسلمين وأموالهم، فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجاباً معهم من الأسلحة، وأمرتهم أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الضعيف، ولا الفقير، ولا الجائع، ولا العاري، وما منهم إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجبي الأموال فلا تعطيها، وتجمعها فلا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله تعالى فمالنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه، فاتفقوا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل إلا أقصوه ونفوه، حتى تسقط منزلته، فلما اشتهر هذا عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم، فكان أول من صانعهم عمالك في الهدايا، ليقوا بهم على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة، لينالوا بهم ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً، وصار هؤلاء شركاؤك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول عليك، فإن أراد رفع قصته إليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلاً للمظالم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك، وإذا صرخ بين يديك ضرب ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر ولا تفكر فما بقاء الإسلام على هذا(١).

وقال له عمه عبد الصمد بن علي: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو؟!! فقال: لأن بني مروان لم تبل رممهم وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم،

---

(١) تاريخ ابن الساعي ص١٩.

ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة، واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة(١).

ووقفت في طريقه ـ يوم دخل المدينة ـ ابنة صغيرة لعبد الله بن الحسن وهي تستعطفه وتطلب منه الرحمة والإشفاق، عندما يقع نظره عليها وهي بتلك الحالة وتخاطبه برقة واستعطاف:

ارحـم كـبـيـراً سـنـه مـتـهـدم   في الـسـجـن بـين سـلاسـل وقـيـود
إن جـدت بـالـرحـم الـقـريـبـة بيـنـنـا   مـا جـدكـم مـن جـدنـا بـبـعـيـد

وكانت تأمل إطلاق أسيرها رحمة بحالها، ولكن المنصور عندما سمع صوتها قال: أذكرتنيه ثم أمر به فأحدر بالمطبق وضيق عليه سجنه وكان السجن خاتمة مطاف ذلك الأسير ونهاية حياته.

ورغم هذه الأعمال وما اتضح للناس من سوء السيرة والإجحاف بحقوق الرعية، فقد كان يحاول أن يصبغ الدولة بصبغة دينية، وأنه الوارث الشرعي لهذا الحق، وهو القائم بالعدل.

كان المنصور يطارد العلماء الذين يأمرونه بالمعروف وينكرون أعماله، ويقرب آخرين ممن خضع لغير الحق.

وكان يريق دماء أبناء رسول الله ويملأ السجون منهم، بينما نراه يحتفظ بحصيرة بالية قد مرت عليها السنون، يدعي بأنها كانت لرسول الله ﷺ، فيتبرك بها أمام الناس، وجعل لها موضعاً خاصاً، وخادماً يحتفظ بها يحملها أوقات الصلاة أمام الناس ليظهر لهم أنه محافظ على آثار النبي ﷺ تمويهاً وخداعاً.

وكان يطلب من الزهاد والوعاظ أن يعظوه بمجلسه، فيرق عند سماع الوعظ ويبكي، ولكنه بدون اتعاظ، وتجري دموعه ولكن بدون خشوع وإنما هو من باب: كف تذبح وأخرى تسبح، إلى غير ذلك من الأمور التي كان يفعلها إغراءً للناس ليغطي أعماله التي ارتكبها.

وسار على ذلك أحفاده ووضعت في دولتهم بشائر عن النبي ﷺ ليكون لهم في

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٠٤.

قلوب الناس اعتقاد راسخ وسلطة دينية، فمن الأحاديث التي وضعت لإعلاء شأنهم (اللهم اغفر للعباس ولولد العباس ولمن أحبهم)[١].

وبصورة أخرى: «اللهم اغفر للعباس وولد العباس ولمن أحبهم، اللهم اغفر للعباس ما أسر وما أعلن وما أبدى وما أخفى، وما كان وما يكون منه ومن ذريته إلى يوم القيامة»[٢]. وهذه أحاديث مكذوبة كما حققها الحفاظ من علماء الحديث.

وبهذا يريدون أن يكونوا في سلامة من المؤاخذة وعليهم حصانة من العقاب، كما حاولوا أن تكون دولتهم هي الدولة الصالحة التي يبشر بها النبي ﷺ، فرووا عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: يخرج منا رجل في انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يسمى السفاح[٣] وبلفظ آخر عن المهدي بن المنصور عن آبائه مرفوعاً: ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدي[٤].

يقول الدكتور أحمد أمين: فوضعت الأساطير حول العباس، وعبد الله بن العباس، وغيرهما من آل العباس، من مثل ما يروى أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط، فسقاهم الله تعالى به، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه، ولما سقي الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون له: ساقي الحرمين[٥].

وتصوير بعض المؤرخين بأنه ـ أي عبد الله بن العباس ـ سياسي محنك قدير، كان يرسم الخطط لعلي بن أبي طالب، مع أن أكبر مزية له في الواقع هي سعة علمه إلى غير ذلك[٦].

وقد حقق الحفاظ هذه الأحاديث وغيرها الواردة في حق بني العباس وقد نصوا على أنها موضوعة من قبل أناس تقربوا إليهم بالكذب على النبي ﷺ عندما لمسوا

---

(١) تاريخ بغداد ج١٠ ص٣٩.
(٢) انظر شرح الهمزية لابن حجر ص٣١٨.
(٣) تاريخ بغداد ج١ ص٤٨.
(٤) نفس المصدر.
(٥) أسد الغابة ج٣ ص١١١.
(٦) ضحى الإسلام.

رغبتهم في تأييد سلطانهم، وأنهم خلفاء الرسول ﷺ وأولياء الأمر. وإن ارتكبوا الجرائم وخالفوا الإسلام.

* * *

وعلى أي حال فإن المنصور الدوانيقي كان سيىء السيرة مع أبناء علي عليه السلام وقد قابل الإمام الصادق عليه السلام بكل جفاء وغلظة، وتشدد في أمره وحاول الفتك به مراراً حتى حان الوقت، وحل الأجل فدس إليه السم، وقضى عليه في سنة ١٤٨هـ.

وقد تحمل الإمام الصادق عليه السلام من طاغية زمانه أكثر مما تحمله من خصومه الأمويين، ولكنه عليه السلام لم تهن عزيمته، وسار في نهجه الذي نهجه لنفسه، من الدعوة إلى الله، ومناصرة المظلومين، وإعلان الغضب على المنصور ووجوب مقاطعته، وعدم المؤازرة له والمعاونة معه، لأن حكومته غير شرعية فهو ظالم غاشم وحاكم مستبد.

ولم تلن قناته يوماً ما، أو يخدع بحيل المنصور فيتحول عن رأيه، أو يتنازل عن أحقيته للإمرة دونه ولكن الوقت لم يأت، والزمان ليس بزمانه ولا يريد أن يزج الأمة في حرب طاحنة، تكون نتائجها غير مرضية. فسلك عليه السلام طريق التريث والنظر إلى العواقب ونهض إلى إصلاح المجتمع ليصلح وضع الدولة وحاول تطهير القلوب من رواسب الخلافات التي خلفها العهد الأموي، ووسع دائرتها العهد العباسي.

الشيعة وأهل البيت:

ومن حقنا هنا أن نشير إلى عظيم المحنة والخطر الجسيم الذي حل بأتباعه عليه السلام من بعده، وما اتخذته السلطات الغاشمة في إنزال العقوبة بهم. لقد ارتبط اسم الشيعة باسم أهل البيت فهم أنصارهم من عهد النبي ﷺ إذ عرف المحب لعلي بأنه شيعي له، ثم شمل المناصر له وهكذا أهل بيته فإن أنصارهم وأتباعهم شيعة لهم.

وبطبيعة الحال أن ينالهم من الأذى ما لم ينل غيرهم لأن أهل البيت عليهم السلام في جميع الأدوار هم المعارضون لتيار الظلم، وهم دعاة الحق والعدل، فأريقت دماؤهم، ونالهم من طغاة زمانهم ما يقف القلم عند بيان بعض تلك المآسي، فكيف الإحاطة بها وسردها جميعاً.

وإذا كان أهل البيت أنفسهم لم يسلموا من نقمة الظالمين وسخط الجبارين فالشيعة أولى بأن تشتد عليهم المحن، وتتوجه إليهم سهام الانتقام.

وقد خاض الشيعة عدة معارك وبذلوا أنفسهم في سبيل مناصرة دعاة الحق والعدل ولم يثنهم الخوف، أو تحولهم الأطماع عن منهجهم الذي ساروا عليه، فكانوا في معارضتهم يثقلون كاهل الدولة واسم التشيع يدخل الرعب في قلوب الحكام، ولهذا فقد سلكوا في معارضة الشيعة كل الطرق.

وقد أدخل أولئك الحكام ـ بمعاونة علماء السوء ـ في روع أتباعهم أن الشيعة إنما يناصرون آل محمد لا رعاية لحق النبي ﷺ ووصاياه فيهم وأنهم عدل القرآن، بل انهم اعتقدوا أنهم آلهة وهم بهذا يحاولون تكفير الشيعة.

كما أنهم حرموهم من كل ما يتمتع به غيرهم من سعة العيش وحرية الفكر وإظهار العقائد وإقامة الشعائر الدينية.

فكان الزنديق يعيش في سعة من العيش، وإن أنكر الخالق، وألحد في عقيدته فلا يؤاخذ بشيء ما دام مسالماً للدولة.

والشيعي مضايق من كل جهاته، ويرمى بسوء العقيدة، مع إقراره لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة، ولا يسلم من الطعن لأنه معارض للسلطة. فمنعوهم من الحديث ومن يأخذ الحديث عنهم يناله سوء الاتهام ووسموهم بالخروج عن الدين واتهموهم بالزندقة والإلحاد ليتوصلوا إلى حلية دمائهم ورد رواياتهم.

هذا إجمال سنفصله فيما بعد وقد أشرنا لبعضه من قبل وذكرنا ما بذل الولاة في محاربة الشيعة ودعايتهم ضد أهل البيت وأتباعهم، ما خرجوا عن الواقع المحسوس، واستعملوا الخرافات والأباطيل ليضلوا الناس عن طريق الحق ونهج الرشاد.

ونحن نأمل كما يأمل كثير من الناس أن تهزم خرافات الأجيال الماضية بقوة العلم، وتخضع تلك الأشباح الهائلة على التقهقر، فقد وقفت في طريق وحدة المسلمين واتفاقهم لتعود لواقعها من حيث هي، وتكشف الحقائق ويظهر لجيلنا المثقف خطأ الوضع، فإنه لا يكاد يخضع لتلك الخرافات التي هيمنت على عقول الأجيال زمناً طويلاً.

ولننتقل الآن إلى البحث عن حياة الإمام مالك بن أنس الأصبحي الإمام الثاني من الأئمة الأربعة، ونتعرف عليه ملتزمين البحث التاريخي بدون تعصب له أو عليه.

* * *

الإمام مالك بن أنس

تمهيد:

تقدمت الإشارة في الجزء الأول لمعركة أهل الحديث وأهل الرأي وما أحدثه ذلك النزاع في صفوف الأمة من تصدع وخلافات أدت إلى الهجاء والقول بما لا تحمد عقباه، وكان من نتائجه أن تظهر شخصية مالك في الحجاز وشخصية أبي حنيفة في العراق، كما أنه لم تخف أغراض السياسة من وراء انتصارها لأهل الرأي وسخطها على أهل الحديث.

وقد افترق المسلمون إلى فرقتين: أهل الحديث وأهل الرأي، وزعيم الفرقة الأولى مالك، والثاني أبو حنيفة، واتسع بينهما الخلاف حتى أدى إلى الخروج عن حدود العلم، وتجاوزها إلى الهجاء والقذف والسباب، ولكن تلك المعركة لم تطل أيامها، فقد رأينا بعد قليل التقاء أطراف ذلك الافتراق، واجتماع أهل الحديث وأهل الرأي، وكأن القضية كانت لتحقيق أمر وقد حصل ذلك.

وكان مالك بن أنس عرضة لسخط الدولة، حتى منعوه من الحديث، وضربوه بالسياط لأجل فتوى أفتاها لم توافق غرض الدولة، ولكنه بعد قليل من الزمن أصبح مقدماً في الدولة ملحوظاً بالعناية، محفوفاً بالكرامة، وكانت بابه تزدحم عليها الناس كأنها باب الأمير، بل كان الأمراء يتهيبون شخصه، وتقصر خطاهم عن الوصول إليه فشملته مظاهرهم.

وهذا التحول الغريب يحملنا على التساؤل: هل أن الدولة كانت تبغضه لشيء فتركه تقية أو تبدل رأيه عن ذلك؟ أم أنه ثبت على ما يراه وتحملت الدولة له ذلك، ووجدت نفسها مضطرة إلى مجاراته؟ أم أن هناك شيء آخر؟

ويمكننا أن نستحصل الإجابة عن هذه الأسئلة عند دراستنا لحياته ووقوفنا على عوامل شخصيته وبواعث انتشار ذكره، إذاً لنتعرف على الإمام مالك وندرس شخصيته دراسة تاريخية، ونستعرض حوادث عصره وسياسته لنكون على بينة من الأمر ومعرفة من الواقع.

من هو الإمام مالك:

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمر بن الحارث، وهو ذو أصبح من حمير بن سباء، وهي قبيلة يمينة، وأمه أزدية وهي العالية بنت شريك الأزدية. فعلى هذا فإن أمه وأباه عربيان.

وهنا تقف أمامنا مشكلتان لا يمكن أن نتخطاهما بدون إشارة لهما، ليتجلى لنا الأمر ويتضح القول الصحيح.

الأولى: إن البعض من كتّاب السير ذهبوا إلى عدم صحة هذا النسب، وإن مالكاً لم يكن عربياً وإنما هو من موالي بني تيم، فهو على هذا من موالي قريش وليس بعربي، وقد روي عن ابن شهاب أنه قال: حدثني نافع بن مالك ـ وهو عم مالك بن أنس ـ مولى التيميين[1] أن أباه حدثه عن أبي هريرة...

وابن شهاب الزهري هو أستاذ مالك وأعرف بحاله، فهو يعتبر مالكاً من الموالي لأنه اعتبر عمه نافعاً كذلك.

وقال ابن عبد البر: إن محمد بن إسحٰق الواقدي زعم أن مالكاً وأباه وجده وأعمامه موالي لبني تيم بن مرة، وهذا هو السبب في تكذيب مالك لمحمد بن إسحٰق وطعنه عليه.

فبهذا يصبح مالك هو من الموالي لا من العرب، وقد كان شائعاً في عصر مالك، لذلك وقف تجاه هذه الدعوى مكذباً لها وأنكرها أشد الإنكار، وكذب من يدعيها عليه، وكذلك أبو سهيل عم مالك قام في إنكارها وقال: نحن قوم من ذي أصبح، قدم جدنا المدينة فتزوج في التيميين، فكان معهم ونسبنا إليهم.

وهذا يدل على خمول ذكرهم وعدم اشتهار عشيرتهم، وقد أصر ابن إسحٰق

(١) الانتقاء ص١١.

على عدم صحة هذه الدعوى وتكذيب انتسابهم إلى العرب.

وقد ادعى أن حصول هذه الشبهة في نسب مالك وعدم كونه عربياً: أن مالك بن أبي عامر قدم المدينة متظلماً من بعض ولاة اليمن، فمال إلى بعض بني تيم بن مرة فعاقده، وصار معهم.

وهذا يختلف مع ما يقوله نافع بن مالك فإنه يدعي أن الحلف كان مع أبي عامر جدهم لا مع ابنه مالك جد مالك بن أنس.

ويروي ابن عبد البر عن البخاري بسند عن نافع بن مالك بن أبي عامر قال: قال لي عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي وهو ابن أخي طلحة: هل لك إلى ما دعانا إليه غيرك، فأبينا عليه أن يكون هدمنا هدمك ودمنا دمك ترثنا ونرثك[1]؟ وينسب هذا إلى الربيع بن مالك أيضاً[2].

ومهما يكن فإن نسب مالك للعرب لم يخل من طاعن فيه، وأنه من الموالي فهو بين مثبت وناف.

وكما طعن في أب مالك وعدم صحة عروبته، فكذلك الحال في أمه العالية فقيل: إنها أزدية يمنية وهي بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية، وقيل: إنها طليحة مولاة عبيد الله بن معمر حكاه القاضي عياض[3] وعلى هذا يكون نسب مالك من الطرفين إلى الموالي. ولا علقة له بالعرب.

الثانية: قضية بقائه في بطن أمه. قيل: سنتين وقيل: ثلاث سنين وقيل: أربع سنين، وقال ابن سعد في الطبقة السادسة من تابعي أهل المدينة: أخبرنا الواقدي قال: سمعت مالك بن أنس يقول قد يكون الحمل ثلاث سنين وقد حمل ببعض الناس ثلاث سنين يعني نفسه.

وقال ابن عبد البر: وقد ذكر غير الواقدي أن أم مالك حملت به ثلاث سنين[4].

وهذا بعيد كل البعد عن الصحة، لأن الطب يقرر أن الحمل لا يمكن أن يمكث

(١) الانتقاء ص١١.
(٢) تزيين الممالك للسيوطي ص٣.
(٣) مناقب مالك للسيوطي ص٥.
(٤) الانتقاء ص١٢ ومناقب مالك للسيوطي ص٦.

في بطن أمه أكثر من سنة، على أن الاستقراء مع المراقبة الدقيقة يجعلنا نؤمن بأن الحمل لا يمكن أن يمكث في بطن أمه أكثر من تسعة أشهر، مع أنا لم نقف على تاريخ وفاة أبيه، فنقارن النسبة بين الولادة والوفاة، وهذه الدعوى من شذوذ الطبيعة ولا نتعرض إلى إقامة البرهان على عدم بقاء الطفل في بطن أمه أكثر مما هو المتعارف.

ويذهب بعضهم إلى أن هذه الرواية: وضعها المعجبون بمالك، لأنهم يريدون أن يقرنوا حياته بالعجائب والغرائب، لبيان أنه صنف من الناس ممتاز اقترنت مميزاته بمولده، إذ أنه حمل به ثلاث سنين على حين يحمل بكل مولود تسعة أشهر، فكانت هذه منقبة اقترنت بميلاده، كما كانت حياته كلها مناقب، كما سيأتي بعضها.

وليس من البعيد أن يتقبل المعجب بشيء كل ما له علاقة فيه وإن خالف الحق ولم يؤيده العلم وشذ عن العقل ومجرى العادة، على أن مثل هذا لا يرتفع به مقام مالك وكان الأجدر رفضها دون قبولها.

ولادته:

اختلفت الروايات في سنة ولادة مالك كالاختلاف في مدة حمله، فقيل: إنه ولد سنة ٩٠هـ وقيل: سنة ٩٣هـ وقيل: سنة ٩٤هـ وقيل: سنة ٩٥هـ وقيل: سنة ٩٦هـ في المدينة المنورة، وتختلف الروايات في أول من نزل المدينة من أسرة مالك، فقيل: إن أول من نزل هو أبو عامر وأنه صحابي وشهد المغازي مع النبي ﷺ ما عدا بدراً ولم يذكره أحد في عداد الصحابة. قال الذهبي في التجريد: لم أر من ذكره في الصحابة.

والصحيح أن أول من انتقل إلى المدينة هو مالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس، وهو من التابعين كما رواه ابن عبد البر، وتدل عليه رواية أبي سهيل عم مالك المتقدمة في بيان نسبهم، ولكن المالكية ذهبوا إلى إثبات الصحبة لأبي عامر وليس لهم على ذلك دليل، لذلك لم يقبله المحققون ولم يثبتوا له صحبة. فابن حجر في الإصابة لم ينقل عنه شيئاً إلا أنه نقل عبارة الذهبي، وابن عبد البر في الاستيعاب لم يتعرض لذكره. وهذه الدعوى وليدة ظروف متأخرة أثبتتها كتب مناقب مالك، كما أن أنس بن مالك والد مالك ـ صاحب المذهب ـ لم يكن له ذكر في كتب الرجال ولم

يعرف عنه أنه اشتغل بالعلم، وليست له معرفة فيه، ولو كان يؤثر عنه شيء لكان مالك أولى بروايته. نعم ورد في بعض الكتب رواية مالك عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: ثلاث يفرح لهن الجسد فيربو عليهن: الطيب، والثوب اللين، وشرب العسل، ولكن المحققين من علماء الحديث قالوا: إن هذا الخبر لا يصح عن مالك(١).

وبهذا لم يكن لأنس رواية في الحديث ولا رواية واحدة.

قال الخطيب في المتفق بعد ذكر الحديث المتقدم: لا أعلم. روي عن مالك من هذا الوجه وفيه نظر، فهو يطعن بصحته، وقال أيضاً: لم يروه عن مالك غير يوسف بن هرون تفرد به القشيري، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء، وقال: هذا لم يأت به عن مالك غير يونس ـ وهو أحد رواة الحديث المتقدم ـ وقد روى عجائب لا تحل الرواية عنه. وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال: هذا لا يصح عن مالك، ويونس ضعيف. وربما يتوهم أن والد مالك بن أنس هو أنس بن مالك الصحابي الشهير، لأن المتسمين بأنس بن مالك هم خمسة:

١ ـ أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري أبو حمزة المدني المتوفى سنة ٩٣هـ وهو خادم رسول الله ﷺ.

٢ ـ أنس بن مالك الكعبي القشيري أبو أميعة، نزل البصرة، وروى عن النبي ﷺ حديثاً واحداً.

٣ ـ أنس بن مالك شيخ حمصي، ذكره أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى البغدادي في تاريخ الحمصيين، وليس له من الحديث شيء.

٤ ـ أنس بن مالك أبو القاسم الكوفي حدث عن عبد الرحمن بن الأسود وحماد بن أبي سليمان وغيره، وأحاديثه قليلة.

٥ ـ أنس بن مالك والد الإمام مالك هذا، ولم يكن له ذكر في كتب الحديث، ولم يفصح التاريخ عن شيء من حياته ولا تاريخ وفاته، بل هو مجهول كما إنا لم نقف على شيء من حياته لنتحقق نشأة مالك تحت رعايته وتربيته، ولعله مات قبل أن

---

(١) تزيين الممالك ص٥.

يولد مالك بمدة، ويقال: إن مالك نشأ تحت رعاية غيره من أسرته، ويدعي أنها مشهورة بالعلم، ولا نعرف منهم إلا نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو سهيل المتوفى في سنة ٣٤هـ ـ ٣٥. روى عن ابن عمر وأنس، وعنه ابن أخيه مالك بن أنس والزهري، ولم يكن له كثير حديث.

وأما أخوه النضر بن أنس أخو مالك، فقد روى عن أبيه وابن عباس وعنه بكر المزني، ويقال: إن مالكاً كان ملازماً له، ولا يعرف إلا بأخيه، فيقال عند تعريفه: أخو النضر لشهرة أخيه دونه، ولم يكن غير هؤلاء في أسرة مالك من عرف عنه الحديث، ولا يصح أن توصف هذه الأسرة من الأسر العلمية في المدينة، فيكون لها الأثر في توجيه مالك إلى طلب الحديث والفتيا، لأن الناشىء تتغذى مواهبه ومنازعه من منزع بيته وما يتجه إليه، فتزعزع تحت ظلها المواهب وتتجه المنازع، على أنهما لم يكونا بتلك المنزلة من الشهرة العلمية، ولم تكن لهما كثير رواية.

المناقب:

من الأمور التي تستدعي النظر والاهتمام هو الغلو في المناقب، وذلك لقوة نزعة التعصب، وبالأخص عند احتدام النزاع والتخاصم بين الفرق، فكل يحاول تأييد مذهبه وتعزيز رأيه، ويتخذ شتى الوسائل لتكون له الغلبة على غيره، حتى كان الحق في جانب والمغالون في جانب آخر مما أدى إلى حصول عقبات دون الباحث الذي يريد أن يتعرف على شخصية من شخصيات التاريخ. وقد تقدم بعض تلك المناقب التي انتحلوها لأبي حنيفة تعزيزاً لمركزه وتقويماً لشخصيته حتى ذهبوا إلى أبعد حد من ثبوت العبقرية الادعائية من وفور علمه، وعلو منزلته، وشرف بيته حتى قالوا: إن أهل الكوفة كلهم موالي لأبي حنيفة ـ أي عبيد فأعتقهم[1] ـ.

وهل ينكر أحد أن أبا حنيفة كان مولى لبيت من بيوت الكوفة، ولهم ولاؤه؟ ولكن المغالطات والادعاءات الفارغة لا حدّ لها ولا نهاية، فهي واسعة بمقدار اتساع الغرض، وتسير طيعة للهوى والنزعة التي تقتضيها، ويعود ذلك إلى المعركة الجدلية التي جرت في القرن الرابع وبالأخص بين الحنفية والشافعية، فملأت كتب المناقب

(١) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص١٧٤.

بالإغراق والمبالغة، حتى بلغت مغالاة أمة من الحنفية أن إمامهم أعلم من رسول الله وحدّث عليّ بن جرير: أن رجلين تماريا في مسألة فقال أحدهما: قال رسول الله ﷺ، فقال الآخر كان أبو حنيفة أعلم بالقضاء[1] وهذا منتهى الإغراق في الغلو وقد مرّ قسم من ذلك في الجزء الأول.

أما المالكية فإنهم أهون في تقحم الخطر على مركب الغلو من الحنفية في وضع المناقب، وقد خلت كتبهم من التحامل والطعن على غيرهم، على أنهم لم يخلوا من شائبة الغلو والمدح والإطراء المؤدي إلى الاضطراب، كما أنهم أكثروا من الأطياف والرؤيا بما يعود لمالك وعلو منزلته ويحصل فيه لشخصيته امتياز عن غيره، وتلك مبالغات مصدرها الغلو وحب الغلبة والشهرة. وإليك بعضاً من مناقبه:

عالم المدينة:

لما كانت المدينة المنورة مهداً للعلم ومصدراً للتشريع، فلا بد أن يكون لعلمائها منزلة دون غيرهم من علماء الأقطار، وقد ورد حديث عالم المدينة فجعلوه ينطبق على مالك وحده، وكأن المدينة لم ينبغ بها عالم حتى يكون مصداقاً للحديث غير مالك بن أنس.

فلا بد لنا أن نتكلم عن صحة الحديث وانطباقه على مالك دون غيره.

أخرج الترمذي بطريق عن أبي هريرة مرفوعاً: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة». وجعلوا المراد به مالك بن أنس دون غيره. قال ابن أبي الحوت في أسنى المطالب: خبر (أبي حنيفة سراج أمتي) موضوع باطل، ولم يرد في أحد من الأئمة نص لا صحيح ولا ضعيف كخبر: عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً، وحمل على الشافعي، وكذا خبر: يكاد يضرب الناس أكباد الإبل.. الحديث. سمعته من المالكية ولم أره، وحمل على مالك ويظهر عليه التكلف.

ولا حاجة بنا إلى نقل الأقوال في تفنيده، ومع التسليم لصحة الحديث فمن البعيد حمله على مالك بن أنس. قال الخطيب البغدادي عند ذكر هذا الحديث: قال

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤١٣ ـ ٤١٤.

أبو موسى الأنصاري: قلت لسفيان: إن ابن جريج يقول: نرى أنه مالك، فقال سفيان: إنما العالم من يخشى الله. وقد نقل عن ابن عيينة: أن المراد به عبد العزيز العمري.

ومع هذا فإن الحديث لا يخلو من خدشة في السند إن لم نقل في الواسطة الأولى، فإن أبا الزبير وهو أحد رواة هذا الحديث، قد تكلموا فيه وطعنوا عليه. وإذا أردنا أن نسلم لصحة هذا الحديث فإن انطباقه على مالك بعيد جداً ودونه خرط القتاد، فالمدينة المنورة قد ضمت علماء الإسلام الذين كانوا أعلى درجة من مالك وأرفع منزلة منه، ولو راق للسلطة غير مالك لحملوه عليه ولكنهم أرادوا ذلك، والناس تبعاً لما أرادوا.

وإن في المدينة من العلماء في ذلك العهد قوم هم شيوخ مالك، وهم أعلم منه، منهم: عبد العزيز العمري.

وزيد بن أسلم المتوفى سنة ١٣٦هـ وعنه أخذ مالك.

وأبو حازم سلمة بن دينار المتوفى سنة ١٤٠هـ وهو من شيوخ مالك.

وصفوان بن سليم المتوفى سنة ١٣٢هـ وهو من شيوخ مالك.

وعبد الرحمن بن أبي الزناد المتوفى سنة ١٧٤هـ وهو من شيوخ مالك.

وعبد الله بن ذكران المتوفى سنة ١٣١هـ وهو من شيوخ مالك.

وربيعة الرأي المتوفى سنة ١٣٦هـ وهو من شيوخ مالك.

ويحيى بن سعيد بن قيس المتوفى سنة ١٤٣هـ وهو من شيوخ مالك.

وأبو الحارث محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٦٠هـ، كان أفضل من مالك وكان يشبه سعيد بن المسيب.

ومحمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ، وهو من شيوخ مالك.

وغيرهم من علماء المدينة ممن لم يتعلق غرض السلطة في معارضتهم، ولم تقف أمامهم على ربوة العداء والخصومة، على أن المسألة لم تكن مسألة علم وعلمه، بل حظوظ ودعاية كما يقول ربيعة الرأي وهو أستاذ مالك ومعلمه. قال أبو بكر عبد الله الصنعاني: أتينا مالك بن أنس فحدثنا عن ربيعة الرأي فكنا نستزيده،

فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في ذاك الطاق؟ فأتينا ربيعة فقلنا: كيف يحظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟ فقال: أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حملي علم[1] وذلك أن الدولة رفعته بعد غضبها عليه، ولذلك نرى مبادلة العواطف بين المنصور ومالك بن أنس.

فكان المنصور يقول لمالك: أنت والله أعقل الناس وأعلم لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق فأحملهم عليه. وهذا غاية في التعظيم والإجلال وأقوى عامل لرفع مالك وعلو منزلته، وكان مالك يقول: وجدت المنصور أعلم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار من مضى.

* * *

وبالجملة فإن هذا الحديث لا ينطبق على مالك ولم يعتن به أكثر من كتب عن مالك، ولكن المالكية جعلوه دليلاً لهم على لزوم الأخذ عن مالك وهو كما ترى يبنى على الظنون والتكهن، وهذا لا يجدي، ولإن صح الحديث فلا مصداق له سوى حملة العلم وأعلام الأمة وورثة الرسول الأعظم، فهم أئمة الهدى، وإن لهم في صحيح الآثار وأصدق الأخبار عن الصادق الأمين كفاية عن التمحل والتكلف بأمثال هذا ونحوه.

أمين زمانه:

ليس من الغريب أن تصل يد الوضع والانتحال إلى ارتكاب ما لا يقبله العقل ولا يقره الوجدان والتتبع، ولا يتسق مع الواقع، وقد ورد ذلك في منقبة لمالك، هي بعيدة كل البعد عن الصحة، ولا يمكن قبولها بالمرة.

وذلك أنهم ادعوا أن الإمام الصادق عليه السلام أوصى إلى مالك عند وفاته وإليك نص هذا الافتعال:

روى الشيخ عيسى بن مسعود الزواوي في كتاب مناقب مالك ويعزيه إلى كتاب أبي نعيم.

---

(١) طبقات الفقهاء لأبي إسحاق ص٤٢.

دخل على الإمام الصادق قوم من أهل الكوفة في مرضه الذي توفي فيه فسألوه أن ينصب لهم رجلاً يرجعون إليه في أمر دينهم فقال:

عليكم بقول أهل المدينة فإنها تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد، عليكم بآثار من مضى، فإني أعلمكم أني متبع غير مبتدع، عليكم بفقه أهل الحجاز عليكم بالميمون المبارك في الإسلام المتبع آثار رسول الله، فقد امتحنته فوجدته فقيهاً فاضلاً، متبعاً مريداً لا يميل به الهوى، ولا تزدريه الحاجة، ولا يروي إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله ﷺ فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام، وإن خالفتموه ضللتم وهلكتم، فإنه قد أخذ عني كل ما يحتاج إليه فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا، أي أحذركم عذاب الله يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ و٨٩]، أحذركم فقد أرشدتكم إلى رجل نصبته لكم فإنه أمين مولود في زمانه. قالوا: من هو بينه لنا؟ قال: (ذلك مالك بن أنس) عليكم بقول مالك[(١)].

هكذا قال الزواوي، وهكذا نقل. ولا أقول إنه هو الذي وضعها أو افتعلها ولكنه ناقل عن غيره، ونحن لا ننكر أثر الخلافات التي حصلت بين الطوائف، ووجود قوة عاملة على إيجاد الخلاف وإيقاد نار الفرقة، فأصبح كل يذهب لتأييد مذهبه بشتى الوسائل والاجتهاد في تحصيل ما ينال به الظفر على خصمه، وأي ظفر أعظم من الحصول على شهادة أعظم شخصية علمية كان مالك يسارع لاستماع حديثه ويغتنم فرصة الحضور عنده، ويتلقى تعاليمه في مدرسته كما مر بيانه. تلك هي شخصية الإمام الصادق الذي ترأس أعظم مدرسة إسلامية شهدها التشريع الإسلامي، وبقيت آثاره مفخرة الدهر وحديث الأجيال، فكانت أقواله تؤخذ بالقبول والاعتبار، فقوله مسموع وحكمه نافذ. لذلك نرى كثيراً من الأقوال تنسب إليه طلباً لتأييد رأي أو ثبوت حكم، وقد حققها المنقبون من متبعي آثاره والذين يرجعون إليه في أخذ الأحكام الشرعية.

ومن هذا القبيل تلك الافتعالات التي انتحلها أصحاب المذاهب، وقد سبق للحنفية مثل ذلك في مدح أبي حنيفة كما مر بيانه في رواية أبي البختري وهذه المنقبة

---

(١) انظر مناقب مالك ص١٠.

التي ذكرها الزواوي من ذلك النمط. ويمكنك أن تقف على سيرة الإمام مالك لتعرف ابتعاده عن الصادق في آخر عهده لانحيازه لجانب السلطة، مما لا يتفق مع آراء الإمام الصادق وسيرته التي سار عليها مدة حياته. من مجانبته الحكّام والابتعاد عنهم. كما انه هجر كل من اتصل بالسلطة، ومنهم مالك بن أنس فإنه كان عند وفاة الإمام الصادق عليه السلام في أول مرحلة من التقرب للسلطان. وأظهر مالك حرصه على الاتصال بالحكام مؤذناً بتغيره.

ولا حاجة لنا في إطالة الوقوف عند مناقب مالك، وإعطائها مزيداً من البحث كقولهم مكتوب على فخذ مالك بقلم القدرة: مالك حجة الله في أرضه. وقولهم في ورعه: إنه لا يدخل الخلاء إلا في كل ثلاثة أيام مرة، بينما يقول هو عن نفسه: استحييت من كثرة دخولي للخلاء.

وهذا أمر لا دخل لقدرة الإنسان وسلطته فيه، إذ هو من الأمور القهرية على البشر، وقد أرادوا أن يسوّوه بالملائكة أو من شرفهم الله لحكمة فجعلهم يأكلون الطعام ولا يغوطون. ولو تأتى ذلك لكل أحد لفعل، ولكن شذوذ الآراء يثبت شذوذ الطبيعة، كما ادعوا أنه ألقى كتابه الموطأ في الماء عندما اتهم نفسه فيه فألقاه في الماء وقال: إن ابتل فلا حاجة لي به فلم يبتل منه شيء، إلى غير ذلك من الخرافات والأقوال الفارغة التي تدل بنفسها على نفسها بالكذب.

أطياف حول مالك:

ما أكثر وضع المنامات لتأييد رأي، أو رفعة شخص، أو حط كرامة من آخر، إنها دعايات كما قلنا وافتراءات كما ذكرنا، اتخذها القصاصون ليسيطروا على عقول السذج من الناس، واستعملها كثير ممن كتب في أكثر الشخصيات، حتى اتخذوا تلك الخرافات ـ وهي أكثر من أن تحصى ـ دليلاً لتأييد المذهب.

وقد وضع المالكية منامات في تأييد مذهب مالك: وعلو شأنه نذكر البعض منها:

قال العدوي: لما مات شيخنا شيخ الإسلام اللقاني رآه بعض الصالحين في المنام فقال: ما صنع الله بك؟ فقال: لما أجلسني الملكان في القبر يسألاني أتاني

الإمام مالك فقال: مثل هذا يحتاج إلى سؤال في إيمانه؟ تنحيا عنه، فتنحيا عني[1].

ومنها: إن النبي ﷺ هو الذي سمى كتاب مالك بالموطأ وانه سئل ﷺ في المنام: ان مالك والليث يختلفان في المسألة فأيهما أعلم؟ فقال: مالك وارث جدي يعني إبراهيم عليه السلام[2].

وانه سئل ﷺ مرة أخرى في المنام: من نسأل بعدك يا رسول الله؟ فقال: مالك بن أنس. كما وضع أهل الأندلس في تأييد مذهبه وتشجيع عالمهم سحنون وهو ناشر مذهب مالك في الأندلس: أن القيسي رأى النبي ﷺ يمشي في طريق وأبو بكر خلفه، وعمر خلف أبي بكر، ومالك بن أنس خلف عمر، وسحنون خلف مالك. وفي هذا إشارة للاتباع والاقتداء[3].

وكثير من هذا النمط. ولا حاجة إلى ذكره، ولا اعتبار بإثباته أو نفيه. وإنما المعتبر معرفة شخصيته من قبل معاصريه، ومن هم أدرى الناس به، فإن لأقوالهم تمام الأثر في التعرف عليه، فلننظر الواقع في مرآة الماضي، لأن هذه الأمور المستحدثة إنما هي وليدة عصور متأخرة لا نستطيع منها استخلاص صورة متناسقة، لأنها نتيجة جدل وخصام وإثارة فتن وتطاحن بين المذاهب. قال أبو عمر: قد ألف الناس في فضائل مالك وأكثروا، وأتوا بما لا فضيلة في بعضه حشوا بها كتبهم.

مالك وأقوال العلماء:

وهنا نقف بين طائفتين من الأقوال المأثورة عن علماء عصر مالك، فبعضها من نسق ما ذكرناه، وهي كثيرة مثبتة، والبعض الآخر لم يكن بدرجة من الحط بكرامته وانتقاصه، وإنما هي مؤاخذات علمية وأقوال صريحة. وآراء حرة. وإليك منها:

قال الشافعي: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

وقال سعد بن أيوب: لو أن الليث ومالكاً اجتمعا، لكان مالك عند الليث

(1) مشارق الأنوار للعدوي ص٢٨٨.
(2) مناقب مالك للزاوي ص١٨.
(3) مناقب مالك للزاوي ص١٧ ـ ١٨.

أبكم، ولباع الليث مالكاً فيمن يريد[1].

وسأل علي بن المديني يحيى بن سعيد: أيهما أحب إليك رأي مالك أو رأي سفيان؟ قال: رأي سفيان لا يشك في هذا.

وقال: سفيان فوق مالك في كل شيء.

وقال يحيى بن معين: سفيان أحب إليّ من مالك في كل شيء[2].

وقال سفيان الثوري: ليس له حفظ. يعني مالكاً.

وقال ابن عبد البر: تكلم ابن ذويب في مالك بن أنس بكلام فيه جفاء وخشونة كرهت ذكرها[3].

وتكلم في مالك إبراهيم بن سعد وكان يدعو عليه، وكذلك تكلم فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن أبي يحيى، ومحمد بن إسحق الواقدي، وابن أبي الزناد، وعابوا أشياء من مذهبه.

وقال سلمة بن سليمان لابن المبارك: وضعت شيئاً في رأي أبي حنيفة ولم تضع في رأي مالك؟ قال: لم أره علماً[4].

وقال ابن عبد البر في مالك: إنهم عابوا أشياء من مذهبه.

وعن عبد اللّه بن إدريس قال: قدم علينا محمد بن إسحق، فذكرنا له شيئاً عن مالك. فقال: هاتوا علمه، فإنا بيطاره.

وعابه قوم في إنكاره المسح على الخفين في الحضر والسفر، وفي كلامه في علي وعثمان.

وقال يحيى بن صالح: قال لي ابن أكثم: قد رأيت مالكاً وسمعت منه ورافقت محمد بن الحسن، فأيهما كان أفقه؟ فقلت: محمد بن الحسن فيما يأخذه لنفسه أفقه من مالك[5].

---

(١) الرحمة الغيثية لابن حجر ص٦.

(٢) تاريخ بغداد ج١٠ ص١٦٤.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص١٦٠.

(٤) ن.م. ص١٥٧.

(٥) الخطيب ج٢ ص١٧٥.

وكان أبو محمد بن أبي حاتم يقول: عن أبي زرعة عن يحيى بن بكير أنه قال: الليث أفقه من مالك، إلا أنه كانت الحظوة لمالك. وفي رسالة الليث بن سعد التي بعث بها إلى مالك يناقشه فيها في بعض آرائه مناقشة قوية، ويرد عليه، فيقول في بعضها:

ومن ذلك إنك تذكر أن النبي ﷺ لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين، ومنعه الفرس الثالث. والأمة كلهم على هذا الحديث: أهل الشام، وأهل مصر، وأهل العراق، وأهل أفريقية لا يختلف فيه اثنان، فلم يكن ينبغي لك وإن كنت سمعته من رجل مرضي أن تخالف الأمة أجمعين.

وقال أحمد بن حنبل: كان ابن أبي ذويب يشبه سعيد بن المسيب، وكان أفضل من مالك، إلا أن مالكاً أشد تنقية للرجال منه[1].

وقال أيضاً: هو أورع وأقوم بالحق - يعني ابن أبي ذويب - من مالك، دخل على المنصور فلم يهبه إن قال له الحق: وقال الظلم ببابك فاش، وأبو جعفر أبو جعفر[2] يعني في قوته وجبروته واشتداد سلطانه وعظمته وبطشه.

ونقف عند هذا الحد من استعراض آراء العلماء وأقوالهم في مالك، مما تدل على عدم امتيازه بموهبة يصبح بها أهلاً للمرجعية دون غيره. ولا حاجة بنا إلى غربلة الأقوال الأخر ومناقشتها. وإنما ذكرنا هذا كانموذج ومقدمة لما نريد أن نذكره في الموازنة فيما بعد عند انتهائنا من التعرف على شخصيات أئمة المذاهب.

مع الخلفاء والولاة:

أدرك مالك بن أنس من العهد الأموي أربعين سنة، ومن العهد العباسي ستاً وأربعين سنة، لأن ولادته سنة ٩٣هـ ووفاته سنة ١٧٩هـ على اختلاف الأقوال في ذلك، وبهذا فقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية، وقد كانت ولادة مالك في عهد الوليد بن عبد الملك.

---

(١) تذكرة الحفاظ ج١ ص١٧٦.

(٢) تاريخ بغداد ج٢ ص٣٠٢.

ولم نعرف عن نشأته الأولى شيئاً، حتى نتكلم عن حياته في العهد الأموي، لأن مالكاً لم يكن من المبرزين في ذلك العصر، فيسجل التاريخ قضاياه في العهد الأموي، ولم يكن لبيته نشاط سياسي ولا علمي حتى يكون معرضاً لأخطار الدولة، وإنما يأتي الحديث عنه في العهد العباسي الذي يبتدىء من سنة ١٣٣هـ، وهو تاريخ سقوط الدولة الأموية وانهيارها، كما أن عهد أبي العباس السفاح خال عن ذكره، وإنما يبتدىء حديثه من آخر خلافة المنصور.

ولم يكن لمالك بن أنس شهرة إلا بعد اشتداد الخلاف بين أهل الرأي، وأهل الحديث، وبعد وقوعه في المحنة. والشيء المهم الذي يجب أن يلحظ هو تطور حياة مالك وانتقاله من دور الغضب عليه ـ من قبل الدولة ـ إلى دور الرضا عنه، ومن عهد المحنة والشدة إلى عهد التبجيل والرفاهة. وقد اختلفت الأقوال في سبب محنته وضربه بالسياط.

فمن قائل: إن مالكاً كان يجاهر بمخالفة ابن عباس في جواز نكاح المتعة، ويقول: إنه حرام. ويروون أنه حمل إلى بغداد وسئل عن نكاح المتعة، فقال: هو حرام، فقيل له في قول ابن عباس فيها، فقال: كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله، وأصر على القول بتحريمها، فطيف به على ثور مشوهاً، فكان يرفع القذر عن وجهه، ويقول: يا أهل بغداد! أنا مالك بن أنس فعل بي ما ترون لأقول بجواز المتعة[1].

وهذا بعيد عن الواقع، لأن ضرب مالك بالسياط أو محنته ـ كما يقولون ـ كانت في المدينة لا في بغداد، ولئن كان سبب محنته قوله بجواز المتعة الأمر الذي أوجب الغضب عليه من الدولة، فهل أصرّ مالك على رأيه فيما بعد؟ ووافقته الدولة، وعرفت خطأها، فقربته؟ أم أنه وافق رأيها وتنازل عن إصراره وترك ما وافق كتاب الله لما وافق آراءهم؟ فهذا أمر يبعث على الاستغراب ولعلهم أرادوا اتساع دائرة ذكره بتعدد صورها.

ومنها ـ ما يذكره بعضهم: أن السبب هو عدم رضا بعض الطالبيين عنه، لتفضيله عثمان على علي عليه السلام. وهذا بعيد كالأول وإن كان يذهب مالك لذلك.

(١) الشذرات ج١ ص٢٩٠.

والصحيح في ذلك وإن اختلفت الأقوال فيه أن سبب ضربه بالسياط هو فتواه بما لا يوافق غرض السلطة بأي صورة كان وبأي سبب حصل، وذلك في زمن ولاية جعفر بن سليمان سنة ١٤٦هـ، فإنه جرد مالكاً ومده وضربه بالسياط حتى انخلعت كتفاه، وقيل: إن المنصور قد نهى مالكاً عن الحديث (ليس على مستكره طلاق) ثم دس إليه من يسأله عنه، فحدث به مالك، فضربه بالسياط[1] حتى انخلع كتفه. قال إبراهيم بن حماد: كنت أنظر إلى مالك إذ أقيم من مجلسه حمل يده اليمنى أو يده اليسرى بالأخرى.

كما أن مالكاً قد تظاهر بالدعوى لمحمد بن عبد الله ذي النفس الزكية. وبالجملة فإنه إلى حدود سنة ١٤٦هـ هو في دوره الأول، ثم انتقل بعد ذلك إلى دور الجفاوة والتجلة.

مع المنصور:

لمالك مع المنصور أخبار كثيرة، منها قبل اتصاله الوثيق به. ومنها بعد ذلك. ونأتي بالبعض من الطرفين في ذلك:

دخل عبد الله بن طاووس اليماني[2] على المنصور، ومعه مالك بن أنس، فقال المنصور: حدثني عن أبيك. قال حدثني أبي: أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في سلطانه، فأدخل عليه الجور في حكمه. فأمسك المنصور.

قال مالك: فضممت ثيابي خوفاً من أن يصيبني دمه. ثم قال المنصور ناولني الدواة. فلم يفعل، فقال: لم لا تناولني الدواة؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية. قال المنصور: قوما عني.

قال عبد الله: ذلك ما كنا نبغيه. قال: مالك فما زلت أعرف فضله[3].

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص٤٣ ـ ٤٤.

(٢) عبد الله بن طاووس اليماني أبو محمد اليماني روى عن أبيه وعكرمة بن خالد، وروى عنه خلق كثير، وهو من رجال الصحاح. وقد أخطأوا في تعيين سنة وفاته في سنة ١٣٣هـ وبهذا لا تصح هذه الحكاية. والصحيح أنه متأخر عن هذا الوقت.

(٣) الشذرات ج٢ ص١٨٨.

ودخل مالك هو وابن أبي ذؤيب وابن سمعان على المنصور عندما ولي الخلافة، وكان منظر المجلس يملأ القلب رعباً، كما يحدث مالك ويصف ما دخله من الخوف عندما نظر إلى الجلاوزة يحملون السلاح.

فألقى المنصور سؤالاً مشتركاً، فقال بعد كلام طويل: أي الرجال أنا عندكم؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة الجور؟ قال مالك بن أنس: فقلت: يا أمير المؤمنين أنا متوسل إليك بالله تعالى وأتشفع إليك بمحمد صلى الله عليه وسلم وبقرابتك منه إلا ما أعفيتني من الكلام في هذا.

قال: قد أعفاك أمير المؤمنين من هذا، ثم التفت إلى ابن سمعان، فقال له أيها القاضي: ناشدتك الله تعالى أي الرجال أنا عندك؟ فقال ابن سمعان: أنت والله خير الرجال، والله يا أمير المؤمنين تحج بيت الله الحرام وتجاهد العدو، وتؤمن السبل ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوي، وبك قوام الدين، فأنت خير الرجال، وأعدل الأمة.

ثم التفت إلى ابن أبي ذؤيب[1] فقال له: ناشدتك الله أي الرجال أنا عندك؟

قال: أنت والله عندي شر الرجال، استأثرت بمال الله ورسوله، وسهم ذي القربى، واليتامى، والمساكين، وأهلكت الضعيف وأتعبت القوي، وأمسكت أموالهم، فما حجتك غداً بين يدي الله؟ فقال أبو جعفر ويحك ما تقول انظر ما أمامك!! قال: نعم رأيت أسيافاً وإنما هو الموت، ولا بد منه عاجله خير من آجله[2] وخرج آمناً لم ينله شيء.

أما مالك فبقي عند المنصور. ويا ليت مالكاً أجاب المنصور بجواب وسط، لا كابن سمعان الذي خالف الحق ولا يستبعد منه، فهو يعيش على بساط الدولة ويشغل وظيفة القضاء، ويتمنى بقاء المنصور.

---

(١) هو أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أبي ذئب أو ذويب العامري المدني المتوفى سنة ١٥٩هـ. قال الواقدي ولد سنة ٨٠هـ، وكان من أورع الناس وأفضلهم، وقيل: إن المهدي حج فدخل مسجد النبي فقام الناس إلا ابن أبي ذئب، فقيل له: قم فهذا أمير المؤمنين، فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين، فقال المهدي: دعوه فقد قامت كل شعرة على بدني.

(٢) الإمامة والسياسة ج٢ ص١٥٣.

ويـعـد أيـام الـشـهـور لـيـوم تـعـداد الـنـقـود

ولا كجواب ابن أبي ذؤيب الذي هو بكامل الصراحة والجرأة الأدبية التي فقدها مالك.

ولم يحدثنا التاريخ بموقف مشهود له تتجلى به شجاعته واقدامه، كغيره من العلماء الذين واجهوا المنصور في أحرج المواقف، كعبد الله بن مرزوق عندما التقى بأبي جعفر في الطواف، وقد تنحى الناس عنه. فقال له عبد اللّه: من جعلك أحق بهذا البيت من الناس تحول بينه وبينهم وتنحيهم منه؟ فنظر أبو جعفر في وجهه فعرفه. فقال: يا عبد اللّه بن مرزوق!؟ من جرأك على هذا، ومن أقدمك عليه؟ فقال عبد اللّه: وما تصنع بي؟ أبيدك ضرر أو نفع؟ والله ما أخاف ضرك ولا أرجو نفعك، حتى يكون الله عزّ وجلّ يأذن لك فيه.

فقال المنصور: إنك أحللت بنفسك، وأهلكتها.

فقال عبد اللّه: اللهم إن كان بيد أبي جعفر ضري، فلا تدع من الضر شيئاً إلا أنزلته عليّ، وإن كان بيده منفعتي، فاقطع عني كل منفعة منه، أنت يا رب بيدك كل شيء، وأنت مليك كل شيء. فأمر به أبو جعفر فحمله إلى بغداد، فسجنه بها ثم أطلقه[1].

هكذا كان موقف ذوي الصراحة والجرأة الأدبية. أما مالك فلم يحدثنا التاريخ أنه أقدم على شيء من ذلك مع المنصور وغيره لكن يقال عنه: بأنه كان يدخل على الأمراء والخلفاء ويعظهم ويرشدهم ويدعوهم إلى الخير، وأنه كان يحث العلماء على إرشاد الخلفاء والأمراء، وقول الحق لهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

نعم يمكن أن ذلك كان يصدر منه مع أمراء المدينة بعد ما حظي بإقبال المنصور عليه وقربه منه، فقد نقل أنه كان يطلب من مالك أن يبدي رأيه في ولاته على الحجاز، وقال له في ذلك:

إن رابك ريب من عامل المدينة، أو عامل مكة، أو أحد من عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك أو سوء أو شر في الرعية، فاكتب إليّ بذلك أنزل بهم ما يستحقون.

---

(١) الإمامة والسياسة ج٢ ص١٥٦.

ولذلك نرى أن الولاة كانوا يحترمونه غاية الاحترام، ويخشونه كخشيتهم من المنصور، فعظمت بذلك منزلة مالك، وتقرب الناس إليه، وازدحموا على بابه كازدحامهم على أبواب الأمراء.

وهذا هو السبب في هيبة مالك في النفوس، لأن الحكام كانوا يهابونه حتى أنهم يحسون بالصغر في حضرته، كما حدث الشافعي عندما قدم المدينة يحمل كتاباً لواليها من والي مكة، ويطلب منه أن يوصله إلى مالك، فقال الوالي: يا فتى إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك، فلست أرى الذلة حتى أقف على باب داره[1] فإذا كان الولاة هذه حالتهم معه، فالناس أولى بذلك. وكيف لا يهابه الولاة وبيده أمرهم من عزل وتعيين؟ هذا هو سر هيبة مالك مرجعها لقوة المنصور التنفيذية.

اتصاله بالمنصور:

والذي يظهر أن اتصال مالك بالمنصور وتقريبه إياه كان في السنة التي حج فيها المنصور على ما يرويه ابن قتيبة: أن المنصور كتب إلى مالك: أن واف الموسم في العام القابل إن شاء الله، فإني خارج إلى الموسم. فلما حج المنصور ١٥٣هـ ودخل عليه مالك، فاعتذر المنصور إليه مما ناله من الضرب والإهانة وقال له ـ بعد كلام طويل ـ: ولقد أمرت أن يؤتى بعدو الله من المدينة على قتب ـ يعني جعفر بن سليمان الذي ضرب مالك ـ وأمرت بضيق مجلسه، والمبالغة في امتهانه، ولا بد أن أنزل فيه من العقوبة أضعاف ما نالك منه.

فقال مالك: عافى الله أمير المؤمنين، وأكرم مثواه، قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ ثم منك.

وبهذا يتضح أن هذا الاجتماع هو أول اجتماع بعد ضرب مالك وإهانته ثم أمره أن يضع كتاباً يحمل الناس عليه، ويبثه في الأمصار ويأمر الناس بالعمل به، وأن لا يقضى بسواه. فقال مالك: إن أهل العراق لا يرضون علمنا، ولا يرون في علمهم رأينا.

---

(١) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٧٥.

فقال أبو جعفر: يحملون عليه ونضرب عليه هاماتهم بالسيف وتقطع طي ظهورهم بالسياط، فعجل بذلك وسيأتي المهدي في العام المقبل. وقد فرغت من ذلك.

ثم أمر له بألف دينار عيناً ذهباً وكسوة عظيمة، ثم أمر لابنه بألف دينار[1].

وطلب المنصور من مالك أن يذهب معه إلى مدينة السلام، وقال له: اذهب معي فلا أقدم عليك أحداً، فقال مالك: إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين - يعني شيئاً واجباً - فلا سبيل إلى مخالفته، وإن تكن غير ذلك، فقد قال رسول الله ﷺ: والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، فقال له المنصور: فلا أحمل عليك شيئاً تكرهه، ثم أجازه بثلاث صرر: كل صرة ألف دينار، فلما خرج مالك، قال ولد المنصور لأبيه: أتدني رجلاً من رعيتك حتى يجلس منك هذا المجلس؟! فقال له المنصور: ما على وجه الأرض اليوم رجل يستحيى منه إلا مالك وسفيان الثوري[2].

وقال المنصور لمالك: يا أبا عبد الله! ذهب الناس ولم يبق غيري وغيرك. ودخل مالك بن أنس على المنصور فقال: يا مالك مالي أراك تعتمد على قول ابن عمر دون أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال مالك: يا أمير المؤمنين إنه آخر من بقي عندنا من أصحاب رسول الله ﷺ فاحتاج الناس إليه، فسألوه وتمسكوا بقوله. فقال: يا مالك عليك بما تعرف إنه الحق عندك، ولا تقلدن علياً وابن عباس.

ويمكن أن تكون كلمة ابن عباس من الزوائد التي ألحقت بالعبارة لتبرير موقف المنصور عن النهي عن تقليد عليّ في الأحكام الشرعية، لأنه بعد أن كان علم عليّ مفخرة لبني العباس، ويجاهرون بفضله وبعلمه، أصبح عند اشتداد ملكهم وقوة سلطانهم لا يروقهم أن يروي أحد عن عليّ وأهل بيته، وقد شاركوا الأمويين في هذه النزعة، بل بصورة أشد وأعظم في المؤاخذة.

وما من شك في أن المنصور اتجه لمالك بتمام العناية، واشتدت بينهم الروابط والصلات، تلك الروابط التي أوجدت في مالك شخصية له حق رعاية حكام الحجاز وولاته مما جعلهم يخشون مخالفته، ويتهيبون مقامه، وبذلك اتجهت الأنظار إليه

---

(١) الإمامة والسياسة ج٢ ص١٩٥.

(٢) مناقب مالك للزاوي ص٢٥.

وتكونت شخصيته، وعلت منزلته دون غيره من علماء دار الهجرة، وغيرهم من علماء المسلمين.

ونحن لا نريد أن نظلم مالكاً إن قلنا: إن من الظلم تقديمه على علماء المدينة، وجعل الفتوى منوطة به دون غيره، فما هي المؤهلات التي جعلته يكون كذلك؟ فقد كان مالك لا يعرف عن نفسه ما يقول المنصور بأنه أعلم أهل الأرض.

حدث مالك قال: قال لي أبو جعفر يوماً: أعلى ظهرها أحد أعلم منك؟ قلت: بلى. قال: فسمهم لي. قلت: لا أحفظ أسماءهم، قال أبو جعفر: قد طلبت هذا الشأن ـ أي العلم ـ في زمن بني أمية وقد عرفته.

وبهذا رأينا مالكاً يعترف بوجود من هو أعلم منه، ولكن لا يصرح باسمه، لعلمه بما وراء ذلك.

وقد كان مالك يُسأل عن كثير من المسائل الشرعية. فكان أكثر جوابه بلا أدري.

وقد قصده رجل من العراق بأربعين مسألة، فأجاب عن خمس وثلاثين بلا أدري. وقد أنكر مالك على أهل مصر بأنهم عرفوا البيوع وهو لا يعرفها، إذ كانوا يرجعون إليه، على أننا نجد في علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدري.

فهذا محمد بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨هـ كان يقول: أتعجب ممن يقول: لا أدري، وله كتاب في الرد على الشافعي فيما خالف الكتاب والسنة.

وقال عبد الرحمن بن المهدي: كنا عند مالك فجاءه رجل فسأله فقال: لا أحسن، فقال الرجل: وأي شيء أقول إذا رجعت إلى بلادي؟ قال تقول لهم: قال مالك بن أنس: لا أحسن.

والغرض أن مالكاً نال حظاً وافراً في آخر دولة المنصور مما جعله يحاول أن يجمع الناس على علمه، ومن يخالف تضرب عنقه.

وجاء من بعده المهدي، فكانت منزلة مالك في دولته عظيمة. وقد أمره بأن يضع للناس كتباً يحملهم عليها. وكان يحترمه ويجله ويوصله بهدايا جزيلة وعطاء وافر، ويقرب مجلسه، ويظهر للناس شأنه وعلو منزلته. وكان المهدي يطلب من مالك أن يزوده بوصاياه لينتفع بها.

فقال له مالك: أوصيك بتقوى الله وحده، والعطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة مهجري، وبها قبري، وبها مبعثي، وأهلها جيراني، وحقيق على أمتي حفظي في جيراني، فمن حفظهم كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة».

وعلى أثر هذه الوصية أخرج المهدي عطاء كثيراً، وطاف بنفسه على دور المدينة، ولما أراد الخروج، دخل عليه مالك فقال له: إني محتفظ بوصيتك التي حدثتني بها.

ولما جاء دور الرشيد، سار على تلك الخطة التي سار عليها آباؤه، فاحتفظ بمكانة مالك، وعظمه غاية التعظيم، ولما قدم المدينة جاء الرشيد إلى منزل مالك بنفسه، فأجلسه مالك على منصته التي كان يجلس عليها للحديث، ثم أراد مالك أن يظهر من الرشيد فيه للملأ أعظم من ذلك، فقال له: يا أمير المؤمنين ما أدركت أهل بلدنا إلا وهم يحبون أن يتواضعوا لله. فنزل الرشيد عن المنصة وجلس بين يدي مالك، تواضعاً لعلمه وانقياداً لقوله.

ويطول بنا الحديث إذا حاولنا أن نشبع الموضوع في علاقة مالك بالخلفاء والولاة، وأردنا أن نقيس حياته الأولى التي قضاها في خمول، لبعده عن سلطان عصره، مع حياته الثانية التي خطى بها إلى ميدان الشهرة والتفوق على غيره، حتى أصبح موضع عناية الدولة، وكان المنصور يطلب منه مزاملته للحج، ويسميه بركن الإسلام، وينوط أمر ولاته به، والرشيد يأمر عامله بأن لا يقطع أمراً دون مالك، فوقعت هيبته في النفوس، وهابته تلامذته، حتى انه ليدخل عليه الرجل إلى مجلسه فيلقي السلام عليه، فلا يرد عليه أحد إلا همهمة وإشارة، ويشيرون إليه ألا يتكلم مهابة وإجلالاً، ولا يستطيع أحد أن يستفهمه أو يدنو منه، وكان على رأسه سودان يأتمرون بأمره، فإذا أشار إليهم بإخراج أحد أخرجوه[1].

وكان على بابه حجاب يمنعون الناس من الدخول عليه فإذا أذن لهم ازدحموا على الباب.

قال أبو مصيب: كانوا يزدحمون على باب مالك بن أنس فيقتتلون على الباب

---

(١) مناقب مالك للزاوي ص١٨ والانتقاء لابن عبد البر ص١٢.

من الزحام، وكنا عند مالك فلا يكلم هذا هذا، ولا يلتفت ذا إلى ذا والناس قائلون برؤوسهم هكذا (مبالغة في الانصات)، وكان السلاطين تهابه، وهم قائلون ومستمعون، وكان يقول في المسألة لا أو نعم فلا يقال له من أين لك هذا.

وكانت لمالك بن أنس سلطة تنفيذية فهو يضرب ويسجن وقد ذكرت كتب مناقب مالك كثيراً من ذلك فمنها:

ان رجلاً كان عند مالك فقال: أليس قد أمر النبي ﷺ بدفن الشعر والاظفار فغضب مالك وأمر بضربه وسجنه.

فقيل له: إنه جاهل.

فقال: يقول قال النبي ﷺ وقد قال النبي ﷺ من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

وقد أعلن مالك غضبه عمن يروي عن النبي ﷺ فيضربه أو يحبسه حتى يصح عنده ذلك فيطلقه فما كان يتهيأ لأهل المدينة أن يقولوا قال رسول الله ﷺ.

وكان المشايخ الذين سمعوا الحديث مع مالك قد تركوا الحديث هيبة لمالك أو خشية منه إلى أن مات حدثوا بما عندهم.

وسأله هشام بن القاري عن حديث وهو واقف فضربه عشرين سوطاً ثم أشفق عليه فحدثه.

ودخل عليه رجل فقال: ما تقول فيمن قال: القرآن مخلوق؟

فقال مالك: زنديق اقتلوه. فقال الرجل: يا أبا عبد الله إنما أحكي كلاماً سمعته. قال مالك: لم أسمعه من أحد إنما سمعته منك.

إلى غير ذلك مما حدثتنا به كتب مناقبه(١) ويجب ألا يغيب من بالنا مقاصد الدولة من وراء هذا الاتجاه.

إذاً فليس من الغريب أن تتسع أقوال المدح فيه، وأن يتقرب الناس إليه برؤيا النبي فهذا يأتي إليه ويقول له: كنت راقداً في الروضة فرأيت رسول الله ﷺ متوكئاً على أبي بكر وعمر فقلت: يا رسول الله من أين أقبلت؟ فقال مضيت إلى مالك فأقمت له الصراط المستقيم(٢).

---

(١) مناقب مالك للزاوي ٣٠ وتزين المسالك للسيوطي ١٤.

(٢) تزين الممالك للسيوطي ص٤٤.

ويقدم عليه آخر وهو جالس في المسجد. فيقول: أيكم مالك بن أنس؟ فقالوا: هذا. فسلم عليه. فاعتنقه وقبله بين عينيه وضمه إلى صدره وقال: رأيت البارحة رسول الله ﷺ في هذا الموضع فقال: هاتوا مالكاً فأتي بك ترعد فرائصك فقال: ليس بك بأس أبا عبد الله وكناك. وقال: اجلس. وقال: افتح حجرك فملأه مسكاً منثوراً. وقال: بثه في أمتي. فبكى مالك طويلاً وقال: الرؤيا تسر ولا تضر إن صدقت رؤياك، فهو هذا العلم الذي أودعني الله[1].

ومن هذا ونحوه مما يتقرب به المتقربون، أو يفتعله المغالون فيه ويجعلونه من دواعي أهليته، بل مؤهلاته.

ولو أردنا استقصاء ما أحيطت به شخصية مالك من الزوائد والمبالغات فإننا نخرج عن خطة الاختصار.

شيوخ مالك:

ازدهر عصر مالك برجال العلم ولمعت فيه أسماء رجال تحدث الناس عنهم لشهرتهم العلمية، ومكانتهم في المجتمع الإسلامي، وأصبحت المدينة يؤمها طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية، وامتازت بالتمسك بالحديث ومحاربة الرأي والقياس، كما كانت صبغة الكوفة هي الميل إلى الرأي والقياس وعظم بين البلدين انشقاق أدى إلى خصومة وعداء، خرج عن نطاق البحث العلمي إذ تعصب كل لبلده.

وكانت المدينة تزدهر بمدرسة الإمام الصادق، وقد تهافتت الوفود إليها عندما وجد الناس فرصة الاتصال بأهل البيت، ورفع عراقيل المؤاخذة على ذلك، وكانت مدرسة الإمام الصادق متمسكة بالحديث، لا تجعل للرأي والقياس دخل في الأحكام الشرعية كما مر بيان ذلك.

وكان مالك بن أنس هو أحد المنتمين لمدرسة الإمام الصادق مدة من الزمن وعنه أخذ الحديث، فالإمام الصادق هو من أكبر شيوخ مالك بن أنس كما مر بيانه.

وقد أخذ مالك أيضاً عن عدة شيوخ من علماء المدينة وغيرهم: منهم عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام، وزيد بن أسلم، وسعيد المقبري، وأبي حازم،

---

(١) مناقب مالك للزاوي ص١٧.

وصفوان بن سليم، وصالح بن كيسان، وإسماعيل بن أبي حكيم وحميد بن قيس المكي.

واختص مالك بالأخذ عن جماعة منهم، ولازمهم ملازمة تامة: وهم ابن هرمز، ونافع مولى ابن عمر، وابن شهاب الزهري، وربيعة بن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي، وأبو الزناد. فهؤلاء أخص مشايخ مالك ولا بد من الإشارة إلى كل واحد من هؤلاء:

ابن هرمز:

وتطلق هذه الكنية (ابن هرمز) على رجلين، أحدهما عبد الرحمن بن هرمز، ولقبه الأعرج وكنيته أبو داود، وكان قارئاً محدثاً توفي سنة ١١٧هـ. وثانيهما عبد الله بن يزيد بن هرمز وكنيته أبو بكر توفي سنة ١٤٨هـ.

أما الأول: فهو عبد الرحمن بن هرمز مولى بني هاشم أبو داود توفي سنة ١١٧هـ بالإسكندرية، روى عن أبي هريرة ومعاوية وأبي سعيد، وعنه الزهري، وأبو الزبير، وأبو الزناد، وروى له أصحاب الصحاح الستة.

وقد اختلف فيمن اختص مالك من هذين، هل هو ابن هرمز المتقدم أم هذا؟ وقد حقق ذلك بعض الباحثين وانتهى إلى أنه الأول، ولم يكن هو هذا، ويمكن أن يكون هو الصحيح لأن ولادة مالك سنة ٩٨هـ على الاختلاف، فيكون عمره عند وفاة أستاذه ١٩ سنة، وفي هذا الدور لم يتجه مالك لطلب علم الحديث فلا يمكن أن يوصف بالملازمة له وكسب المواهب التامة منه على أنه يمكن أن خروج ابن هرمز للإسكندرية متقدم، فيكون عمر مالك أقل.

نافع:

نافع العدوي مولى عبد الله بن عمر المتوفى سنة ١١٧ ـ ١٢٠هـ.

روى عن مولاه عبد الله بن عمر، وأبي لبابة وأبي هريرة وعائشة، وعنه ابناه، وابن جريج ومالك. وهو أحد حلقات السلسلة (الذهبية) كما يقولون إن أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، فهو شيخ مالك، وعنه أخذ قضايا ابن عمر وفقهه، ونافع من رجال الصحاح الستة.

الزهري:

ابن شهاب الزهري هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب المتوفى سنة ١٢٤هـ.

وكانت له منزلة عند خلفاء بني أمية، وولاه يزيد بن عبد الملك القضاء وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه، وقد روى مالك أنه أول من دون أحاديث رسول الله ﷺ بأمر من عمر بن عبدالعزيز. وهو أحد تلامذة الإمام زين العابدين والإمام الباقر عليهما السلام، ولكنه على انحراف لعلقته ببني أمية.

وقد كتب إليه الإمام زين العابدين عليه السلام رسالة يعظه بها ويحذره أولئك الحكام الذين استمالوه وقربوه لأغراضهم، ونرى من المهم ذكر بعض تلك الرسالة الحكمية الخالدة:

رسالة الإمام زين العابدين للزهري:

«كفانا الله وإياك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يرحمك. فقد أثقلتك نعم الله بما أصح من بدنك، وأطال من عمرك. وقامت عليك حجج الله بما حملك من كتابه. وفقهك فيه من دينه وعرفك فيه من سنة نبيه. فانظر أي رجل تكون غداً إذا وقفت بين يدي الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتها... ولا تحسبن الله قابلاً منك بالتعذير، ولا راضياً منك بالتقصير، هيهات هيهات ليس كذلك، أخذ على العلماء في كتابه إذ قال: «لتبيننه للناس ولا تكتمونه».

واعلم أن أدنى ما كتمت وأخف ما احتملت أن آنست وحشة الظالم. وسهلت له طريق الغي بدنوك منه حين دنوت. وإجابتك له حين دعيت. فما أخوفني بإثمك غداً مع الخونة. وأن تسأل عما أخذت بإعانتك على ظلم الظلمة. إنك أخذت ما ليس لك ممن أعطاك. ودنوت ممن لم يرد على أحد حقاً ولم ترد باطلاً حين أدناك، وأحببت من حاد الله. أو ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلماً إلى ضلالهم، داعياً إلى غيهم، سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فما أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك فكيف ما خربوا

عليك، فانظر لنفسك فإنه لا ينظر إليها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسؤول، وانظر كيف شكرك لمن غذاك في نعمه صغيراً أو كبيراً، فما أخوفني عليك أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ... ﴾ الآية إلى آخر الرسالة الخالدة[1].

والرسالة تعبر عن اتجاه الإمام زين العابدين إلى إبعاد رجال الدين وأصحاب المنزلة الدينية عن دوائر الحكام ورجال الجور والباطل، فإنما احتل العلماء هذه المنزلة في نفوس الناس لمكان العقيدة في النفوس وتمجيد كل ما يمت إلى الدين بصلة، خاصة حملة العلم وأصحاب الفقه الذين يجب أن يكونوا دعائم للحق لا دعائم للباطل والجور. وقد لمست الأمة بُعد الحكام عن العقيدة وإن لم تكن مبادىء الإسلام هي التي قررت مضمون العدالة والمساواة، فإن نواميس الحياة تؤكد تأثر المجتمع بالعلماء والأمراء فإذا صلحا صلح المجتمع، فكيف إذا كان الزهري في غمار الملوك الطغاة البغاة، وصفة الزهري الدينية ومنزلته العلمية يفترض أن تحمله إلى شاطىء الإمامة لا إلى خضم السلطان فاختار الإمام زين العابدين عليه السلام أن يتجه بالخطاب إلى الزهري في فترة اختط فيها الإمام نهج الدعوة الدينية لبناء النفوس وتنزيه الدين من الالتقاء مع الجائرين وتأكيد سياسة عدم التعاون مع الظلمة التي سار عليها أهل البيت وحرصوا على إلزام الأمة مقاطعة الظالمين وهجرهم. وإن من أشد معوقات ذلك أن يكون من يفترض فيهم الصلاح جسراً للبلاء وسلماً للضلال.

والجدير بالذكر أن الإمام زين العابدين وجّه عنايته إلى الزهري كواحد من تلاميذه لما كان الزهري يغشى مجلسه فيقوم الإمام زين العابدين بإسداء النصح والإرشاد. دخل الزهري على الإمام زين العابدين وهو كئيب حزين، فقال له زين العابدين عليه السلام: ما بالك مغموماً؟ قال يا ابن رسول الله، غموم وهموم تتوالى عليّ لما امتحنت به من جهة حساد نعمي والطامعين فيّ، وممن أرجو، وممن أحسنت إليه فيخلف ظني. فقال له الإمام: اضغط عليك لسانك تملك به اخوانك، قال الزهري: يا ابن رسول الله، إني أحسن إليهم بما يبدر من كلامي. قال الإمام زين العابدين: هيهات هيهات، إياك أن تعجب من نفسك بذلك، وإياك أن تتكلم بما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن عندك اعتذاره، فليس كل من تسمعه شراً يمكنك أن توسعه عذراً.

---

(١) تحف العقول.

ثم قال: يا زهري، من لم يكن عقله من أكمل ما فيه كان هلاكه من أيسر ما فيه. ثم قال: يا زهري، أما عليك أن تجعل المسلمين بمنزلة أهل بيتك فتجعل كبيرهم بمنزلة والدك، وتجعل صغيرهم بمنزلة ولدك، وتجعل تربك منهم بمنزلة أخيك، فأي هؤلاء تحب أن تظلم، وأي هؤلاء تحب أن تدعو عليه، وأي هؤلاء تحب أن تهتك ستره، وإن عرض لك إبليس لعنه الله بأن لك فضلاً على أحد من أهل القبلة فانظر إن كان أكبر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعلم الصالح فهو خير مني. وإن كان أصغر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني. وإن كان تربك فقل: أنا على يقين من ذنبي في شك من أمره فما لي أدع يقيني لشكي. وإن رأيت المسلمين يعظمونك ويوقرونك ويبجلونك فقل: هذا فضل أخذوا به. وإن رأيت منهم جفاءً وانقباضاً فقل: هذا الذنب أحدثته، فإنك إذا فعلت ذلك سَهّل الله عليك عيشك وكثر أصدقاؤك وفرحت بما يكون من برّهم ولم تأسف على ما يكون من جفائهم[1].

أبو الزناد:

عبد الله بن ذكوان مولى بني أمية أبو الزناد المدني المتوفى سنة ١٢٠هـ، روى عن ابن عمر مرسلاً، وعن الأعرج فأكثر، قال الليث: رأيت أبا الزناد وخلفه ثلاثمائة طالب، وقد ولي بعض أمور بني أمية، وكان من الموالي الذين رفعت الدولة الأموية شأنهم، وقدمتهم على غيرهم وقد أخذ عنه مالك قليلاً وكان أكثر اتصاله وأخذه عن ابن هرمز والزهري.

ربيعة الرأي:

ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، ويكنى أبا عثمان وهو من موالي آل المنكدر توفي بالأنبار سنة ١٣٦هـ في مدينة الهاشمية، تقدمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وقد أخذ مالك عن ربيعة وحضر عنده وهو صغير السن، عندما وجهته أمه لطلب العلم، كما أن آراء ربيعة واضحة في فقه مالك.

---

(١) الاحتجاج للطبرسي.

تلامذة مالك:

لقد بالغ كتّاب المناقب بالكثرة لتلامذة مالك، وأضافوا إليهم من ليسوا منهم، وأخذوا يعدون من هم أكبر منه سناً ومن تقدم بهم الزمن عليه، ويعدون أحياناً أخرى من رواته شيوخه الذين تلقى عليهم وروى عنهم.

ولا غرابة أن يروي الشيخ عن تلميذه، ولكن إذا كان لذلك حقيقة واقعة فلا غضاضة في قبولها، وإن كان لمجرد المبالغة في التقدير والتوثيق فليس من العلم قبوله، بل يجب رده[1].

ولقد ادعوا أن الزهري قد روى عنه، فيذكر القاضي عياض: أن من التابعين الذين رووا عنه محمد بن مسلم الزهري، وقد نفى ذلك ابن عبد البر. ولعل الذي أوقعهم في هذا الخطأ: هو الاشتباه بين اسم الزهري هذا وبين الزهري أحمد بن أبي بكر قاضي المدينة فإنه من رواة الموطأ وتفقه بأصحاب مالك وتوفي سنة ٢٤٢هـ، كما قالوا إن أبا حنيفة من تلامذته لرواية أشهب أنه قال: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه.

واستدلوا بما أخرجه ابن شاهين والدارقطني في غرائب مالك بسند عن حماد بن أبي حنيفة عن أبي حنيفة عن مالك في حديث (الايم أحق بنفسها).

وأخرج الخطيب البغدادي بسند عن أبي حنيفة عن مالك في حديث راعية الغنم.

وقد أجيب عن ذلك بأن الرواية الأولى هي عن حماد بن أبي حنيفة دون ذكر أبيه.

وأن الرواية الثانية هي عن أبي حنيفة عن عبد الملك هو ابن عمير فصحفوه بمالك.

وقال ابن حجر لم تثبت رواية أبي حنيفة عن مالك. وهو الصحيح لأن أبا حنيفة أكبر من مالك بخمس عشرة سنة ومات قبله بأكثر من ثلاثين ولم تكن لمالك شهرة آنذاك.

---

(١) محمد أبو زهرة في حياة مالك ص٢٢٩.

وعلى أي حال فإنهم ذكروا رواة عن مالك تجاوز عددهم الألف وأكثرهم لم يدرك مالكاً وبعضهم لم يدركه مالك. ولم يصح ذلك ونحن هنا نذكر بعض تلامذته والرواة عنه.

وعلى أي حال فنحن نذكر كبار تلامذته وناشري علمه وفقهه.

ابن وهب:

عبد اللّه بن وهب بن مسلم البربري نسباً القرشي ولاءً أبو محمد المصري المتوفى سنة ١٩٩هـ.

روى عن يونس بن يزيد، وأسامة الليثي، ومالك، والثوري، رحل إلى مالك سنة ١٤٨هـ، ولم يزل في صحبته إلى أن توفي مالك، وكان أعلم أصحاب مالك، إلا أنه يروي عن الضعفاء، وكان مالك يكرمه ويجله. وما أحد من تلامذة مالك إلا وزجره مالك، إلا ابن وهب، وقد رحل لمصر ونشر مذهب مالك هناك، وفي المغرب أيضاً.

ابن القاسم:

عبد الرحمن بن القاسم أبو عبد اللّه العتكي مولاهم المتوفى سنة ١٩١هـ روى عن مالك، والليث وابن الماجشون، ومسلم بن خالد، وغيرهم. رحل إلى مالك بعد ابن وهب، ببضع عشرة سنة وطالت صحبته له، واختص بعلم مالك دون غيره، حتى كان أثبت أصحابه به، وكانت له آراء يخالف بها شيخه مالك. قال ابن عبد البر: كان فقيهاً قد غلب عليه الرأي، كما أنه خالف مالكاً في ابتعاده عن السلطان وعدم قبول جوائزهم، وكان يقول: ليس في قرب الولاة ولا في الدنو منهم خير.

أشهب:

أشهب بن عبد العزيز القيسي أبو عمرو العامري المتوفى سنة ٢٠٤هـ انتهت إليه الرئاسة بمصر بعد ابن القاسم، صحب مالكاً ولازمه وتفقه عليه، وله مدونة تسمى مدونة أشهب أو كتب أشهب، وكان يدعو على الشافعي ويتمنى موته، وتوفي بعد الشافعي بأيام.

عبد الله بن الحكم:

عبد الله بن الحكم بن الليث مولى عثمان بن عفان المتوفى سنة ٢١٠هـ وإليه أفضت الرئاسة بعد أشهب.

ابن الفرات:

أسد بن الفرات بن سنان المتوفى سنة ٢١٣هـ. أصله من خراسان، وولد بحرّان من ديار بكر، ورحل لمالك وسمع موطأه، ثم رحل إلى العراق فلقي أبا يوسف، ومحمد بن الحسن، وأسد بن عمرو، وأصحاب أبي حنيفة، فتفقه بهم، وسمع أبو يوسف منه موطأ مالك، وتولى قضاء القيروان واقتصر في العمل على مذهب أبي حنيفة، فانتشر بسببه مذهب أبي حنيفة هناك، وله مدونة على مذهب مالك.

الليثي:

يحيى بن يحيى بن كثير الليثي المتوفى سنة ٢٢٤هـ، كان أصله من البربر وأسلم جدهم (وسلاس) على يد يزيد بن عامر الليثي، فهو من موالي الليثيين وسمع يحيى من مالك بن أنس وهو أحد رواة الموطأ، وسمع من الليث بن سعد وغيره، وتفقه بأصحاب مالك كابن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم العتكي، وانتهت إليه الرياسة في الأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك، لمكانته من السلطان. قال ابن حزم:

مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل افريقية، فكان لا يولي إلا أصحابه، والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة، وكان لا يولي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ـ والناس سراع إلى الدنيا ـ فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به(١).

حتى قيل: إنه لم يعط أحد من أهل الأندلس ـ منذ دخلها الإسلام ـ ما أعطي

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص٢٠.

يحيى من الحظوة وعظيم القدر وجلالة الذكر. وقالوا: إنه كان مجاب الدعوة وقبره يستسقى به بقرطبة[1]

ابن الماجشون:

عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون مولى بني تيم المتوفى سنة ٢١٢هـ، كان أبوه قريناً لمالك، وهو الذي قيل إنه كتب موطأ قبل مالك، ودارت الفتوى على عبد الملك في زمانه، تفقه بأبيه وبمالك، قال يحيى بن أكثم: عبد الملك بحر لا تكدره الدلاء! وأثنى عليه ابن حبيب كثيراً، وهو من أهل مذهبه، وتفقه به خلق كثير: كأحمد بن المعدل وابن حبيب وسحنون، وكان مولعاً بسماع الغناء.

هؤلاء هم عظماء أصحاب مالك وناشرو مذهبه. ونسبتهم إليه نسبة المعلم من المتعلم. وله تلامذة آخرون ليس لهم مزيد أثر في نشر مذهبه. وقد ذكر السيوطي عنهم عدداً كثيراً نسبتهم إليه بالأخذ والرواية فقط.

كتب المذهب المالكي:

للفقه المالكي طريقان: أحدهما ـ كتابه الموطأ الذي رواه عنه الكثيرون ممن تلقوا عنه إلا أن في رواياتهم اختلافاً من زيادة ونقص، وأشهر رواة الموطأ يحيى بن يحيى الليثي، وهي المطبوعة بمصر، وهناك موطأ يرويه محمد بن الحسن، وهو مطبوع ببلاد الهند[2] وقد روي الموطأ بروايات مختلفة عدها بعضهم ثلاثين[3].

وثانيهما ـ تلاميذه، فقد كانوا هم المصدر الثاني لفقهه، وكانوا يدونون ما يفتي به في المسائل. قال القاضي عياض في المدارك: كان مالك إذا تكلم بمسألة كتبها أصحابه.

وأشهر كتب المذهب أربعة: المدونة، والواضحة، والعتبية، والموازية.

المدونة:

فالمدونة: هي أصح الكتب المعتبرة في المذهب، وأصل هذه المدونة هي الأسدية التي دونها أسد بن الفرات بالتلقي عن ابن القاسم، وذلك أن ابن الفرات

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص٢٣.
(٢) تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٠٥.
(٣) الزرقاني ج١ ص٧.

رحل إلى مالك وتلقى عليه، ثم رحل إلى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وأخذ عنه كتبه وتعلم فقه العراقيين ولما عاد إلى مصر، كان مالك قد مات، فأراد أن يجمع بين الفقه المالكي والفقه الحنفي، فأتى بالمسائل إلى أصحاب مالك الذين لازموه، فالتجأ أولاً إلى ابن وهب وقال له: هذه كتب أبي حنيفة، وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك، فتورع ابن وهب وأبى، فالتجأ إلى ابن القاسم، فأجابه إلى ما طلب، فأجابه فيما حفظ عن مالك بقول مالك، وفيما شك من حفظه قال: أخال، وأحسب، وأظن. ومنها ما كان يقول فيه بالقياس على رأي له في مثله، فكان يقول: سمعته يقول في مسألة كذا كذا، ومسألتك مثله، ومنه ما قال فيه باجتهاده على أصل قول مالك. وجمع تلك الأجوبة وسماها الأسدية.

والأسدية هذه هي الأصل لمدونة سحنون، لأنه تلقاها عن أسد بن الفرات. وقد تكلم بعض الناس فيها، لاشتمالها على أخال، وأظن، وأحسب. وقالوا له: جئتنا بأخال وأظن وأحسب، وتركت الآثار وما عليه السلف.

ولما تلقى سحنون الأسدية، ارتحل على ابن القاسم وعرضها عليه. وأسقط ما كان ظنياً، فأقبل الناس على كتب سحنون، وهجروا كتب أسد بن الفرات، ونظر سحنون بعد ذلك في كتبه بعد أن استوثق برواية ما هو رواية منها، وما هو رأي مخرج على أصل مالك، ورتبها وزاد عليها خلاف كبار أصحاب مالك له، وذيل أبوابها بالحديث والآثار، فأصبحت المدونة هي الأصل الثاني للفقه المالكي(١).

وأنت ترى أن الفقه المالكي تأثر بالفقه الحنفي، ودخله الرأي من أصحاب أبي حنيفة، كما أن مالك نفسه كان يلجأ إلى الرأي، ويعمل بالقياس، كما يأتي بيانه.

ثم جاء علماء المالكية، فشرحوا المدونة ووسعوها بما علقوا عليها. فالمدونة هي مجموعة لمسائل عن مالك، واجتهاد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه في وضع أحكام المسائل على قواعد مالك ومبادئه، وقد احتج سحنون لبعض مسائلها بالآثار، من روايته من موطأ ابن وهب وغيره، وبقيت منها بقية لم يتم سحنون فيها هذا العمل(٢) واتبع الناس مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت

(١) مالك لمحمد أبو زهرة.

(٢) التشريع الإسلامي ص٣٠٦.

تسمى المدونة والمختلطة، وعكف أهل القيروان على هذه المدونة، وأهل الأندلس عى الواضحة والعتيبية، وكذلك اعتمد أهل الأندلس على العتيبية، وهجروا الواضحة وما سواها[1].

* * *

والواضحة: ألفها عبد الملك بن حبيب[2] وقد أخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبث مذهب مالك في الأندلس.

والعتيبية: ألفها محمد بن أحمد العتبي القرطبي المتوفى سنة ٢٥٥هـ، وقد أكثر فيها من الروايات المطروحة، والمسائل الشاذة، وكان يأتي بالمسائل الغريبة، فإذا أعجبته قال: أدخلوها في المستخرجة. قال ابن وضاح: في المستخرجة خطأ كثير. وقال محمد بن عبد الحكم: رأيت جلها كذباً ومسائل لا أصل لها. ولكنها مع هذا الطعن وما فيها من الكذب والخطأ، فإن لها عند أهل العلم بافريقية القدر العالي والطيران الحثيث، قاله ابن حزم.

والموازية: هي لمحمد بن إبراهيم بن زياد الاسكندري المعروف بالمواز المتوفى سنة ٢٦٩هـ . قال القاضي عياض عن كتاب الموازية: هو أجل كتاب ألفه المالكيون، وأصحه مسائل، وأبسطه كلاماً، وأوعبه، وذكره أبو الحسن القابسي، ورجحه على سائر الأمهات.

هذه هي أمهات كتب المذهب المالكي، والمعول عليها في العمل. وقد خالف أصحاب مالك في أكثر المسائل ما ذهب إليه مالك، كما خالف أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني أبا حنيفة، وكما خالف المزني والبويطي الشافعي.

فأنت ترى أن مجموع ما عليه العمل في المذهب لم يكن من قول صاحب المذهب وحده، وإنما هو مجموع آراء. وقد كانوا مستقلين في تفكيرهم ويوضح لنا ابن خلدون حالة هذه الكتب واستعمالها بقوله:

---

(١) ابن خلدون ص٢٤٥.

(٢) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمي أبو مروان المتوفى سنة ٢٣٩هـ له تآليف كثيرة غير الواضحة: منها غريب الحديث، وتفسير الموطأ، وطبقات الفقهاء، وغيرها. قال ابن لبابة: لم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من سقيمه، ويفرق مستقيمه من مختلفه، وكان غرضه الإجازة. وكان يعرف بعالم الأندلس. ترجمته في نفح الطيب ج٦ ص١٥ والديباج المذهب ص١٥٤.

رحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبث مذهب مالك في الأندلس، ودون فيه كتاب الواضحة، ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية.

ورحل من افريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً، ثم انتقل إلى مذهب مالك، وكتب عن ابن القاسم في سائر أبواب الفقه، وجاء إلى القيروان بكتابه وسماه الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات، فقرأها سحنون على أسد، ثم ارتحل إلى المشرق، ولقي ابن القاسم وأخذ عنه، وعارضه بمسائل الأسدية، فرجع عن كثير منها، وكتب سحنون مسائلها. ودونها وأثبت ما رجع عنه، وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك، فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة، وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية، ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلفة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب، واعتمده المشيخة من أهل افريقية، وأخذوا به وتركوا ما سواه. وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية، وهجروا الواضحة وما سواها. ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح، والإيضاح والجمع، فكتب أهل افريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس، واللخمي، وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم. وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله. وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفروع الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة، وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان، ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب، وتعديد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب[1].

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون ص٣٧٧.

ولقد كان أهل الأندلس يغالون في مالك وفقهه: قال البيهقي: إن الشافعي إنما وضع الكتب على مالك: أنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقى بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: قال مالك، فقال الشافعي: إن مالكاً بشر يخطىء، فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه[١].

وعلى الجملة فإن انتشار مذهب مالك في الأندلس يعود أمره إلى قوة السلطان، فإنه قد حمل أهل مملكته عليه[٢] وقد كانوا يعملون بمذهب الأوزاعي. وكان يحيى بن يحيى الليثي مقدماً مكيناً عند السلطان فنشر المذهب هناك، إذ جعل إليه تعيين القضاة، فلم يول إلا من كان على مذهبه، حتى اضطر القضاة الذين كانوا على غير مذهب مالك أن يلتزموا الفتوى به، نظراً لإلزام السلطة.

فهذا القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة المتوفى سنة ٣٥٥هـ كان يتفقه بمذهب الظاهري، ويقضي بمذهب مالك وأصحابه، لأنه ألزم بالعمل به من قبل السلطان[٣].

ويعود ذلك إلى ثناء مالك على ملك الأندلس عندما سئل عن سيرة الملك، فذكر له عنها ما أعجبه، فقال مالك: نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم، فلما بلغ قوله إلى الملك حمل الناس على مذهبه بالقهر[٤].

ويقول المقريزي: لما ولي المعز باديس حمل جميع أهل افريقيا وأهل الأندلس على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه، فرجع أهل افريقيا وأهل الأندلس كلهم إلى مذهبه رغبة فيما عند السلطان وحرصاً على طلب الدنيا، إذ كان القضاء والإفتاء في جميع تلك المدن لمن سمي بمذهب مالك، فاضطرت العامة إلى أحكامهم وفتاواهم ففشي هذا المذهب هناك[٥].

---

(١) توالي التأسيس للحافظ ابن حجر ص٧٦.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص٤٥.

(٣) نفح الطيب ج٦ ص٤٥.

(٤) ميدان الاجتهاد.

(٥) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. الجزء الأول.

فالمذهب المالكي محفوف بعناية السلطة وعوامل السياسة من جميع جوانبه. وقد قام القضاة بنشره ولما خمل ذكر مذهب مالك في المدينة المنورة وعين إبراهيم بن علي اليعمري قاضياً على المدينة قام بنشر مذهب مالك بقوة سلطانه وسطوته وذلك في القرن السابع.

ولا بد أن نلحظ الشبه بين المذهب المالكي والمذهب الحنفي.

١ ـ إن كلاً منهما انتشر بالقوة والقهر من قبل السلطان على أيدي القضاة.

٢ ـ وإن كلاً من رئيسي المذهب قد أسعده الحظ بالقبول عند سلطان عصره، فكانت له المنزلة الرفيعة والدرجة العظيمة. فأبو حنيفة انتصر المنصور له وقربه وأدناه لغاية في نفسه، ولكنه فشل في محاولته فآل أمره إلى أن يغضب عليه ويقتله لمؤثرات في نفس أبي حنيفة وأسباب منعته من الاستجابة تماماً للسلطان، وبعدُ، اندفع أصحابه كما يشاؤون.

ومالك قد حظي برضا المنصور والمهدي والهادي والرشيد، ورفعوا من شأنه في حياته كما مر بيانه.

٣ ـ إن كل واحد منهما تأثر بالآخر، فالمذهب الحنفي دخلت فيه آراء مالك ورواياته أدخلها أبو يوسف ومحمد بن الحسن وطبقوا آراءهم على الموطأ واستخرجوا لها شواهد من الآثار.

وكذلك المذهب المالكي تأثر بالرأي الحنفي، أدخله عليه أسد بن الفرات كما مر ذكرناه.

٤ ـ إن أصول المذهبين ومسائلهما هما مجموعة آراء علماء كل من المذهبين التي قام عليها تخريج المسائل، وينسب ذلك إلى رئيس المذهب، فأصبحت تلك المسائل هي الأسس التي يقوم بها وإن كان فيها خلاف لمن نسب المذهب إليه. فإن لتلاميذ مالك آراء بجوار آرائه ومنزلتهم منه كمنزلة المزني من الشافعي وكمنزلة محمد وأبي يوسف من أبي حنيفة.

وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى بعض أصول فقه المذهب المالكي.

أصول الفقه المالكي:

يختلف المذهب المالكي عن بقية المذاهب بكثرة أصول الفقه، فإن الأصول عند الحنفية الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والعرف.

والأصول عند الشافعية: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

أما الأصول عند المالكية فأقل عدد أحصوه له تسعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والعرف، وإجماع أهل المدينة، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، وقيل أكثر من ذلك.

ولقد ذكر القاضي عياض في المدارك الأصول العامة للفقه الإسلامي: وهي القرآن الكريم نصوصه وظواهره ومفهوماته، والسنة متواترها ومشهورها وآحادها، ويؤخذ أيضاً بنصوصها ثم ظواهرها ثم مفهوماتها ثم الإجماع ثم القياس. وبعد ذلك ذكر أصول مالك ومقامها من تلك الأصول العامة فقال:

وأنت إذا نظرت لأول وهلة منازع هؤلاء الأمة ومآخذهم في الفقه واجتهادهم في الشرع وجدت مالكاً رحمه الله ناهجاً في هذه الأصول منهاجها مرتباً لها مراتبها ومدارجها، مقدماً كتاب الله على الآثار، ثم مقدماً لها على القياس والاعتبار، تاركاً منها ما لم يتحمله الثقات العارفون لما تحملوه، أو ما يجهلونه، أو ما وجد الجمهور الجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه ولا يلتفت إلى من تأول عليه بظنه في هذا الوجه سوء التأويل وقوله ما لا يقوله بل صرح بأنه من الأباطيل.

هذا ما ذكره القاضي عياض في أصول مذهب مالك، ذكر الكتاب والسنة، وعمل أهل المدينة والقياس ولم يذكر غيرها، فلم يذكر الإجماع، ولم يذكر القواعد التي امتاز بها مذهب مالك، وهي المصالح المرسلة وسد الذرائع، والعرف، والعادات، وغيرها وأحصيت إلى ستة عشر أصلاً. ومهما يكن من شيء فإن مالكاً لم يدون أصوله التي بنى عليها مذهبه في منحاه الاجتهادي الذي استخرج فروع مذهبه منها، فهو كأبي حنيفة في ذلك. «ولقد صنع فقهاء المذهب المالكي في فقه مالك ما صنعه فقهاء المذهب الحنفي، فجاؤوا إلى الفروع وتتبعوها واستخرجوا منها ما يصح أن يكون أصولاً قام عليها الاستنباط في ذلك المذهب العظيم، ودونوا تلك الأصول التي استنبطوها على أنها أصول مالك، فيقولون مثلاً: مالك يأخذ بمفهوم المخالفة

ويفحوى الخطاب ويظاهر القرآن، ويقول في العموم كذا، والحقيقة أن هذه ليست أقوالاً له مأثورة قد ذكرها ورويت عنه، بل هي مستخرجة من الفروع التي أثرت عنه وأدلتها التفصيلية التي ذكرت بجوارها أو ذكرها الفقهاء من بعده لها ولا يمكن الاستدلال بسواها»[(1)].

فأصبح ذلك المجهود الذي بذله علماء المالكية هو مجموع أصول المذهب المالكي، وفي أكثرها مخالفة لرأي مالك، أو تفردهم بما لم يرد من مالك أثر فيه، فقد ظهرت بعد وفاته آراء لكبار تلاميذه خالفوه فيها، ودونوا تلك المخالفة.

والشواهد كثيرة على مخالفة أصحاب مالك له من بعده، فهذا يحيى الأندلسي يخالفه في مسألة الشاهد ويمين صاحب الحق، وهذا أشهب تروى مخالفته حتى أن أسد بن الفرات لما أراد أن يدون آراء مالك ولجأ إلى أشهب لم يستطع عند التدوين التفرقة بين آراء التلميذ وشيخه مالك فعدل عنه وعاب مسلكه ولجأ إلى عبد الرحمن بن القاسم يأخذ منه، فقد جاء في مقدمات ابن رشد ما نصه:

قدم أسد يسأل مالكاً رحمه الله فألفاه قد توفي، فأتى أشهب ليسأله، فسمعه يقول: أخطأ مالك في مسألة كذا، وأخطأ في مسألة كذا فتنقصه بذلك وعابه ولم يرض قوله، والتجأ إلى ابن القاسم ليأخذ عنه آراء مالك وفقهه فقد كان أيضاً يخالف مالكاً وقد دون ذلك، فقد جاء في مدونة سحنون آراء صريحة في مخالفة مالك.

وأهم الأصول التي كان يعتمد عليها مالك في منحاه الاجتهادي كثيرة منها:

عمل أهل المدينة:

كان مالك قد أعطى ما جرى عليه العمل في المدينة أهمية كبرى، وهو يرد الحديث لأنه لم يجر عليه عمل، ويرى أن أهل المدينة أدرى بالسنة وبالناسخ والمنسوخ كما أشار لذلك في رسالته إلى الليث بن سعد إذا يقول فيها:

فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام، إذ رسول الله بين أظهرهم، إلى أن يقول:

فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من

---

(١) مالك لمحمد أبو زهرة ص٢٥٥.

تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا، لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة، ولم يكن من ذلك الذي جاز لهم. . . إلى آخر الرسالة.

وقد رد عليه الليث برسالة طويلة ناقشه فيها بمناقشة علمية ذكرها ابن القيم الجوزية في أعلام الموقعين بكاملها.

وقال في بعض فصولها: وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت قولك فيه، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغيره كثير ممن هو أسنّ منه حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت.

وكان من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك. . . إلى آخر الرسالة، وقد ناقشه فيها بكثير من المسائل العلمية التي نقض بها قول مالك، وكذلك الشافعي ناقش مالك مناقشة علمية قيمة في كتاب الأم، لأن مالك لا يفرق في لزوم اتباع أهل المدينة بين العمل النقلي، والعمل الاجتهادي، لذلك وجهوا إليه تلك المؤاخذات المعقولة.

«أما العمل النقلي فلا خلاف في حجيته عند مفسري مذهب مالك كنقل أهل المدينة تعيين محل منبر النبي ﷺ وقبره ومحل وقوفه للصلاة، وتعيينهم مقدار المد والصاع والأوقية في عهد رسول الله ﷺ، ونقلهم كيفية الأذان والإقامة. أما المسائل الاجتهادية فالأمر فيه سواء بين مجتهدي الصحابة. والتابعين من المدنيين والكوفيين والشاميين، والمصريين[1].

وقد رد ابن حزم على هذه القاعدة بقوله: وأما من قال إن الإجماع إجماع أهل المدينة لفضلها، ولأن أهلها شهدوا نزول الوحي فقول خطأ من وجوه. نذكر منها:

---

(1) ضحى الإسلام ج٢ ص٢١٢ والتشريع الإسلامي ص٢٤١.

١ ـ إن الذين شهدوا الوحي، إنما هم الصحابة رضي الله عنهم لا من جاء بعدهم من أهل المدينة، وعن الصحابة أخذ التابعون من أهل كل مصر.

٢ ـ إن الخلفاء الذين كانوا لا يخلو حالهم من أحد وجهين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد بينوا لأهل الأمصار من رعيتهم حكم الدين أو لم يبينوا. فإن كانوا قد بينوا لهم الدين فقد استوى أهل المدينة وغيرهم في ذلك.

وإن كانوا لم يبينوا لهم فهذه صفة سوء أعاذهم الله تعالى منها، فبطل قول هؤلاء بيقين.

٣ ـ إنه إنما قال ذلك قوم من المتأخرين ليتوصلوا بذلك إلى تقليد مالك بن أنس دون علماء المدينة جميعاً ولا سبيل لهم إلى مسألة واحدة أجمع عليها جميع فقهاء أهل المدينة المعروفون من الصحابة والتابعين خالفهم فيها سائر الأمصار(١).

المصالح المرسلة:

ومن أصول مذهب مالك: القول بالمصالح المرسلة كما نسب إلى الحنفية القول بالاستحسان، وقد تسمى هذه المصالح بالاستصلاح، ومعنى المصالح المرسلة المصالح التي لم يشهد لها من الشرع بالبطلان ولا بالاعتبار نص معين، ومحل النزاع في العمل بها إذا صادمت دليلاً آخر من نص أو قياس. ومثال ذلك الضرب بالتهمة للاستنطاق بالسرقة، فقد قال بجوازه مالك ويخالفه غيره.

لأن هذه المصلحة تعارضها أخرى، وهي مصلحة المضروب، لأنه ربما يكون بريئاً، وترك الضرب في مذنب أهون من ضرب بريء، فإن كان فيه فتح باب يعسر معه انتزاع الأموال. ففي الضرب فتح باب إلى تعذيب البريء.

ومن ذلك المفقود زوجها إذا اندرس خبر موته وحياته وقد انتظرت سنين وتضررت بالعزوبة، والمرأة تباعد حيضها سنين وتعوقت عدتها في النكاح وبقيت ممنوعة منه، أخذ مالك برأي عمر فيهما فقال: تنكح زوجة المفقود بعد أربع سنين من انقطاع الخبر مراعاة لمصلحة الزوجة، وعدم الالتفات إلى مصلحة الغائب، وفي المتباعد حيضها تعتد بثلاثة أشهر بعد أن تمر عليها مدة الحمل وهي تسعة أشهر

(١) النبذ لابن حزم ص١٦.

فالمجموع سنة راعوا مصلحة الزوجة مع المخالفة للنص الصريح، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهي لم تصل لسن اليأس حتى تعتد بالأشهر.

والخلاصة أن المصلحة المرسلة مصلحة ترجع إلى حفظ مقصود شرعي بالكتاب أو السنة أو الإجماع إلا أنها لا يشهد لها أصل معين بالاعتبار، وإنما يعلم كونها مقصودة لا بدليل واحد بل بمجموع أدلة وقرائن أحوال وتفاريق الإمارات. ومن أجل ذلك تسمى مصلحة مرسلة، ولا خلاف عندهم في اتباعها إلا عندما تعارضها مصلحة أخرى، وعند ذلك يكون الخلاف في ترجيح أحد المصلحتين(١).

الاستحسان:

كان مالك بن أنس يأخذ بالاستحسان وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال: الاستحسان تسعة أعشار العلم، وفي رواية أخرى عن مالك أنه قال: تسعة أعشار العلم الاستحسان. وكان القرافي يفتي بالاستحسان ويقول فيه: «قال به مالك رحمه الله في عدة مسائل في تضمين الصناع المؤثرين في الأعيان بصنعهم وتضمين الحمالين للطعام والادام دون غيرهم».

وقد عرفه ابن العربي: إن الاستحسان إيثار ترك مقتضى الدليل على طريق الاستثناء والترخيص لمعارضة ما يعارض به في بعض مقتضياته وأقسامه أربعة:

١ ـ ترك الدليل للعرف.

٢ ـ تركه للإجماع.

٣ ـ تركه للمصلحة.

٤ ـ للتيسير ورفع المشقة وإيثار التوسعة.

ويقول ابن الأنباري: الذي يظهر من مذهب مالك القول بالاستحسان لا على المعنى السابق ـ أي تعريف ابن العربي له ـ بل هو استعمال مصلحة جزئية في مقابل قياس كلي، فهو يقدم الاستدلال المرسل على القياس، ومثاله لو اشترى سلعة بالخيار ثم مات فاختلف ورثته في الإمضاء والرد، قال أشهب: القياس الفسخ، ولكنا

(١) تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٤٢.

نستحسن إذا قبل البعض الممضي نصيب الراد إذا امتنع البائع من قبوله أن نمضيه.

وعلى أي حال فإن الاستحسان في الفقه المالكي قد استعمل بكثرة، ونقلوا ذلك من مالك، وقد اختلفوا في تعريفه وفي بيان المواضع التي يجيز مالك الأخذ به ويعتمد عليه في بناء الأحكام، وسيأتي بيان ذلك بصورة واسعة عند حديثنا عن أصول الفقه الجعفري ومقارنته مع غيره.

وقد حمل الشافعي على مالك في مسألة الاستحسان وعقد باباً في الأم سماه كتاب إبطال الاستحسان. ولقد بنى إبطال الاستحسان:

أولاً: على أن الشارع ما ترك أمر الإنسان سدى، بل جاء في الشريعة بما فيه صلاحه ونص على الأحكام الشرعية الواجبة الاتباع وما لم ينص عليه قد أشير إليه وحمل على النصوص بالقياس فلا شيء لم يبينه الشارع، وترك بيانه للاستحسان، وإلا كان ثمة نقص في البيان.

ثانياً: لأن النبي ﷺ كان إذا نزلت به حادثة لم يجد بها نصاً ولا حملاً على نص سكت حتى ينزل وحي بالبيان، كما فعل عندما جاءه من ينكر نسب ولد جاءت به امرأته فسكت حتى نزلت آية اللعان، لأنه لم يجد نصاً، ولا حملاً على نص فانتظر، ولو كان الإفتاء بغير النص أو الحمل عليه جائزاً من أحد لجاز من النبي ﷺ.

ثالثاً: إن الله سبحانه أمر بإطاعته سبحانه وتعالى وإطاعة رسوله، وذلك باتباع ما جاء في كتاب الله تعالى، ثم ما جاء في سنة رسوله ﷺ وإن لم يكن نص فيهما كان الاتباع بالحمل على النص في أحدهما والاستحسان ليس واحد منهما.

رابعاً: إن النبي ﷺ قد استنكر تصرف من اعتمد على استحسانه من الصحابة لأنه لم يعتمد على نص.

خامساً: إن الاستحسان لا ضابط له ولا مقاييس يقاس بها الحق من الباطل. فلو جاز لكل مفت أو مجتهد أن يستحسن فيما لا نص فيه لكان الأمر فرطاً، ولاختلفت الأحكام في النازلة الواحدة على حسب استحسان كل مفت، فيقال في الشيء ضروب من الفتيا والأحكام، وما هكذا تفهم الشرايع ولا تفسر الأحكام الدينية[1].

---

(١) مالك لمحمد أبو زهرة ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.

القياس:

وهو أصل من أصول الفقه المالكي، وقد أجمع المالكيون أن مالكاً كان يقيس بعض المسائل التي تقع على مسائل قد علم فيها أقضية الصحابة كما قاس حال زوجة المفقود إذا حكم بموته فاعتدت عدة الوفاة وتزوجت بغيره ثم ظهر حياً، بحال من طلقها زوجها وأعلمها بالطلاق ثم راجعها ولم تعلم بالرجعة، فتزوجت بعد انتهاء العدة، وذلك لأن عمر أفتى في هذه بأنها لزوجها الثاني دخل أو لم يدخل، لأن الحالتين متماثلتين، فلا بد أن يكون الحكم متحداً، وكثيراً ما كان يقيس على القضايا، وأكثر قياسه على قضايا عمر لأنه يجعل ذلك نصاً في الحكم كما على سائر الأدلة، إذ لم يقتصر قياسهم على الأحكام الثابتة من الكتاب والسنة بل يقيسون على الفروع المستنبطة، والقياس حجة عند المالكية، كما هو حجة عند الحنفية ولكن هناك فرق بين القياسين وإن كان المدرك واحداً إذ لا يختلفان إلا في اتساع الدائرة وضيقها، فأبو حنيفة كان يتسع في استنباطه فيبحث عن أحكام المسائل التي لم تقع، ويتصور وقوعها، فهو يستنبط العلل الباعثة للأحكام، والغايات المناسبة لشرعيتها، ويبني عليها ويجعل العلل مطردة في كل ما تنطبق عليه، وعلى هذا فأخذه بالرأي لا بد وأن يجعل علة في القياس لأن قلة حديثه وسعت دائرة الرأي والقياس عنده كما يأتي بيانه إن شاء الله.

وقد كان أبو حنيفة يقدم القياس على خبر الواحد فكذلك كان مالك بن أنس كما في كثير من فتواه التي نقلها أصحابه.

الرأي:

والشيء الذي يجب الالتفات إليه: ان الذين كتبوا في تاريخ الفقه الإسلامي قد قسموا الفقه إلى فقه أثر وفقه رأي ويعدون مالكاً فقيه أثر وأبا حنيفة فقيه رأي.

وقد رأينا ابن قتيبة في معارفه يعد مالك بن أنس فقيه رأي كما ذكر منهم: ربيعة الرأي أستاذ مالك، والأوزاعي والثوري وابن أبي ليلى، وزفر، وأبو يوسف، وعد مالكاً من جملتهم[1] كما أنه لم يذكره في أصحاب الحديث إذ عد منهم: شعبة وجرير بن حازم، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة وغيرهم.

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢١٨.

وزيادة على ذلك ان اشتهار مالك بالرأي كان معروفاً في عصره، ويعتبرونه فقيه رأي، حتى ليسأل بعضهم من للرأي في المدينة بعد ربيعة ويحيى بن سعيد؟ فيجاب بأن مالكاً من بعدهما.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: وإن مقدار أخذ مالك بالرأي ليبدو جلياً في أمرين.

أحدهما في مقدار المسائل التي اعتمد فيها على الرأي سواء أكان بالقياس، أم بالاستحسان، أم بالمصالح المرسلة أم بالاستصحاب، أم بسد الذرائع... إلى أن يقول:

وإن ذلك لكثير وافتح المدونة تجد الكثرة بينة واضحة بل ان تعدد طرائق الرأي عنده أكثر من غيره، ليجعل له القدح المعلى فيه، فإن كثرتها تشير إشارة واضحة إلى كثرة اعتماده على الرأي لا إلى قلته.

ثانيهما عند تعارض خبر الآحاد مع القياس وهو أحد وجوه الرأي، وهنا نجد أنه يقرر الكثيرون من المالكية انه يقدم القياس، وانهم بالإجماع يذكرون أنه أحياناً قد أخذ بالقياس، ورد خبر الآحاد، ولقد أحصى الشاطبي في الموافقات طائفة من المسائل أخذ فيها مالك بالقياس أو المصلحة أو القاعدة العامة وترك خبر الآحاد، لأنه رأى الأصول التي أخذ بها قطعية أو تعود إلى أصل قطعي والخبر الذي رده ظني.

ومن ذلك حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب سبعاً إحداهن بالتراب فقد قال فيه مالك: جاء الحديث ولا أدري ما حقيقته وكان يضعفه ويقول: يؤكل صيده فكيف يكره لعابه(*)؟!

(*) ومن هذا الباب قضية أكل الكلاب، فقد اشتهر عن المالكية جوازه كما يقول المقدسي في أحسن التقاسيم: إنها تباع في المغرب جهراً وتطرح في عرائس مصر وقال ابن حزم في المحلى بعد ذكر حرمة أكل السباع ومنها الكلب: وأنكر المالكيون تحريم أكل السباع، وموهوا بأن قالوا: قد صح عن عائشة أنها سألت عن أكل لحوم السباع؟ فقرأت: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾ الآية. وقال القرطبي: روى ابن القاسم عن مالك أنها مكروهة، وعلى هذا القول عول جمهور أصحابه وهو الرأي المنصور عندهم، وقد فرق أصحاب مالك بين كلب الماشية والزرع فاتفقوا على أن ما لا يجوز اتخاذه لا يجوز بيعه أما من أراده للأكل فاختلفوا فيه فمن أجاز أكله أجاز بيعه فهو عندهم طاهر العين غير محرم الأكل. انظر بداية المجتهد والمحلى في باب الأطعمة وكتاب الطهارة والبيوع تجد هناك الأقيسة المعارضة للآثار الصحيحة.

وقد رد خيار المجلس الذي يوجب أن يكون لكلا العاقدين الحق في فسخ الخيار ما دام المجلس لم يتفرق، فقد قال مالك بعد روايته الحديث ليس لهذا عندنا معروف ولا أمر معمول فيه(١).

ولم يأخذ بخبر من مات وعليه صيام صام عنه وليه، ولا بالخبر الذي جاء عن ابن عباس أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال ﷺ: أفرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته؟ قالت: نعم، قال: فدين الله أحق أن يقضى، وقد رد مالك ذلك استناداً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولم يعتبر للرضاع نصاباً مقرراً عشراً ولا خمساً إطلاقاً للقاعدة المستفادة من الآية الكريمة: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فالرضاع عنده على القليل والكثير فليس له حد أدنى.

ورد خبر المصراة وهو ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا تصروا الإبل والغنم ومن ابتاعها بخير النظرين بعد أن يحلبها إن شاء أمسك وإن شاء ردها، وصاعاً من تمر(٢).

وبهذا يتضح أن مالكاً كان يعمل بالرأي والقياس ولم يكن الاختصاص فيه لأبي حنيفة. فالقول بأن مالكاً كان متمسكاً بالحديث حتى عرف به غير وجيه. ومن هذا يتضح أن معركة أهل الرأي وأهل الحديث كانت تحوم حول نقطة سياسية لا شرعية وهي معارضة مدرسة أهل البيت التي انهال الناس عليها في عصر الإمام الصادق وقد تمسكت بالحديث ولم تجعل للقياس والرأي دخل في الأحكام الشرعية.

إنكار الإمام الصادق للقياس:

وكان الإمام الصادق عليه السلام ينكر أشد الإنكار على ذلك كما مر بيانه في أقواله لأبي حنيفة ونهيه له عن القياس والقول بالرأي.

---

(١) الموطأ ج٢ ص٩٤.

(٢) مالك ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

ومن أقواله المأثورة: إن أصحاب المقائيس طلبوا العلم بالمقائيس فلم تزدهم المقائيس من الحق إلا بعداً.

وقال في رده على ابن شبرمة: لو علم ابن شبرمة من أين هلك الناس ما دان بالمقاييس ولا عمل بها.

وقال لأبي حنيفة: ويحك إن أول من قاس إبليس لما أمره الله بالسجود لآدم، قال خلقتني من نار وخلقته من طين.

وقال لأبي حنيفة مرة أخرى: اتق الله ولا تقس، فإنا نقف غداً بين يدي الله فنقول: قال الله وقال رسوله وتقول أنت وأصحابك سمعنا ورأينا[1].

ودخل عليه أبان بن تغلب فقال: يا أبا عبد اللّه رجل قطع اصبع امرأة؟

فقال فيها عشرة من الإبل.

فقال أبان: قطع اثنين.

قال الصادق: فيهما عشرون من الإبل.

قال: قطع ثلاث أصابع.

قال الصادق: فيهن ثلاثون من الإبل.

قال: قطع أربعاً.

قال الصادق: فيهن عشرون.

قال أبان: أيقطع ثلاثاً وفيهن ثلاثون من الإبل، ويقطع أربعاً وفيها عشرون من الإبل؟!

قال: نعم إن المرأة إذا بلغت الثلث من دية الرجل سفلت المرأة وارتفع الرجل، إن السنة لا تقاس، ألا ترى أنها تؤمر بقضاء صومها، ولا تؤمر بقضاء صلاتها، يا أبان أخذتني بالقياس وإن السنة إذا قيست محق الدين.

إلى كثير مما ورد عنه عليه السلام في شدة الإنكار على العمل بالقياس والأخذ بالرأي، وقد انتشر ذلك في عصره فوجه إليهم رسالة ينهاهم عن ذلك وبين لهم الأخطاء التي يؤدي إليها العمل بالرأي والقياس، وإليك نص الرسالة:

---

(١) ابطال القياس لابن حزم ٧١.

رسالة الإمام الصادق حول القياس:

أما بعد فإنه من دعا غيره إلى دينه بالارتياء والمقاييس لم ينصف ولم يصب حظه لأن المدعو إلى ذلك لا يخلو من الارتياء والمقائيس، ومتى ما لم يكن بالداعي قوة في دعائه على المدعو لم يؤمن على الداعي أن يحتاج إلى المدعو بعد قليل، لأنا قد رأينا المتعلم الطالب ربما كان فائقاً لمعلم ولو بعد حين!

ورأينا المعلم الداعي ربما احتاج في رأيه إلى رأي من يدعو، وفي ذلك تحير الجاهلون وشك المرتابون، وظن الظانون! ولو كان ذلك عند الله جائزاً لم يبعث الرسل بما فيه الفصل، ولم ينه عن الهزل، ولم يعب الجهل، ولكن الناس لما سفهوا الحق وغمطوا النعمة، واستغنوا بجهلهم وتدابيرهم عن علم الله، واكتفوا بذلك دون رسله، والقوامين بأمره قالوا: لا شيء إلا ما أدركته عقولنا وعرفته ألبابنا، فولاهم الله ما تولوا، وخذلهم حتى صاروا عبدة أنفسهم من حيث لا يعلمون.

ولو كان الله رضي منهم اجتهادهم وارتياءهم فيما ادعوا من ذلك لم يبعث إليهم فاصلاً لما بينهم ولا زاجراً عن وصفهم، وإنما استدللنا أن رضى الله غير ذلك، ببعثه الرسل بالأمور القيمة الصحيحة والتحذير عن الأمور المشكلة المفسدة، ثم جعلهم أبوابه وصراطه والأدلاء عليه بأمور محجوبة عن الرأي والقياس. فمن طلب ما عند الله بقياس ورأي لم يزدد من الله إلا بعداً، ولم يبعث رسولاً قط وإن طال عمره قابلاً من الناس خلاف ما جاء به حتى يكون متبوعاً مرة، وتابعاً أخرى، ولم ير أيضاً فيما جاء به استعمل رأياً أو مقياساً حتى يكون واضحاً عنده كالوحي من الله، وفي ذلك لكل ذي لب وحجى أن أصحاب الرأي والقياس مخطئون مدحضون... الخ الرسالة.

والغرض أن مالكاً كان يعد من أهل الرأي وقد نهاه أستاذه ابن هرمز عن الأخذ به كما حدث مالك عنه. قال مطرف: سمعت مالكاً يقول: قال ابن هرمز: لا تستمسك على شيء مما سمعته من هذا الرأي إنما افتجرته أنا وربيعة فلا تتمسك.

وكما صرح مالك بذلك في قوله: إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين[١] وكذلك كان تلاميذه وحملة حديثه وناشري مذهبه يحذرون من الأخذ بآرائهم قال عبيد الله بن يحيى بن يحيى: كنت آتي ابن القاسم فيقول لي: من أين جئت؟ فأقول

(١) جامع بيان العلم ج٢ ص٣٣.

من عند وهب فيقول: اتق الله فإن أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العلم. ثم آتي ابن وهب فيقول: من أين؟ فأقول: من عند ابن القاسم. فيقول: اتق الله فإن أكثر هذه المسائل رأي[1].

وقال العقبي: دخلت على مالك في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه فرأيته يبكي فقلت: يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك؟ فقال لي: يابن قعنب ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني والله لوددت أني ضربت بكل مسألة سوطاً وقد كانت لي السعة فيما سبقت إليه وليتني لم أفت بالرأي[2].

وعلى كل حال فإن المذهب المالكي توسع في استعمال القياس كالمذهب الحنفي، كما أنه توسع في اعتبار المصلحة وجعلها أصلاً قائماً بذاته.

وكذلك مذهب أحمد بن حنبل كما يأتي بيانه، فقد قرر أن نصوص الشارع لم تأت في أحكامها إلا بما هو المصلحة، وما كان بالنص عرف به.

بل لقد زاد بعض الحنابلة والمالكية فخصص النصوص القرآنية والنبوية بالمصالح، إذا كان موضوع هذه النصوص من المعاملات الإنسانية، لا من العبادات.

وقال الطوفي[3] ـ وهو أحد علماء الحنابلة ـ: إن رعاية المصلحة إذا أدت إلى مخالفة حكم مجمع عليه أو نص من الكتاب والسنة وجب تقديم رعاية المصلحة بطريق التخصيص لهما بطريق البيان[4].

وقد رد الإمام كاشف الغطاء ـ تغمده الله برحمته ـ على ذلك بمقال قيم ذكر فيه: أن تقديم المصلحة على إطلاقها ففيها توسع غريب أدهى من توسع بعضهم في القول بالمصالح المرسلة، وربما جر ذلك إلى الهرج والمرج والفوضى في أحكام الشريعة الإسلامية، والتلاعب حسب الأهواء فيتسنى للفقيه على هذا أن يحكم بحلية الربا مثلاً، لأن فيه مصلحة، والفائدة والمصلحة تعارض النص وتقدم عليه في

---

(١) نفس المصدر ص١٥٩.

(٢) ابن خلكان ج٣ ص٢٤٦.

(٣) هو نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي الحنبلي البغدادي المتوفى سنة ٧١٦هـ. وقد اتهم في التشيع لتأليفه كتاب العذاب الواصب على أرواح النواصب ولقوله الشعر في مدح علي، فعذب لذلك وعزر وطرد من وظيفة التدريس ـ شذرات الذهب ج٢ ص٣٩.

(٤) رسالة الإسلام السنة الثانية العدد الأول ص٩٤ تحت عنوان من ذخائر الفكر الإسلامي.

المعاملات، وهل ذلك إلا الفوضى والتلاعب بأحكام الشريعة؟[1] إلى آخر مقاله القيم الذي اقتصرنا منه على هذه الجملة.

هذا ما يتعلق ببيان بعض أصول الفقه المالكي وسيأتي الكلام على ذكر بعض المسائل الفقهية عند حديثنا عن فقه المذاهب.

ولا بد لنا من الإشارة لعصر مالك وما فيه من التطور الذي نستطيع أن نعرف موقفه عند تلك الحوادث فقد كان سابقاً من المنكرين على العباسيين اختصاصهم بالأمر دون بني علي وهو كغيره من المفكرين الذين أنكروا ذلك ونالوا جزاءهم.

عصر مالك وحوادثه:

كانت ولادة مالك في عهد الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٣ ـ ٩٩ هـ ووفاته في عهد الرشيد هرون سنة ١٧٩هـ فهو قد أدرك شطراً من العهد الأموي ومثله في العهد العباسي، وقد شاهد الكثير من حوادث العصر الأموي مما لا حاجة إلى بيانه فقد مرت الإشارة إليه.

ولا بد أن نشير هنا إلى العهد العباسي إشارة موجزة لحوادث عصره فإنه قد عاصر منهم: السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي وطرفاً من عصر الرشيد، فهذا هو أهم عهد في العصر العباسي الأول، ففيه تم انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين بعد اضطراب وحروب طاحنة ذهبت بكثير من النفوس والأرواح، وقد شاهد مالك أهم حوادث ذلك العهد، وعرف نصيب المدينة المنورة من تلك الثورة الماحقة، وذاك الانقلاب الهائل، كما أنه طمع كما طمع كثير من الناس أن ينال المجتمع سعادة تحت ظل دولة جاءت ساخطة على ظلم الأمويين، وسوء سيرتهم وجور عمالهم، وانتهاكهم لحرمات الإسلام، واعتدائهم على مقدسات الدين، ومعاملتهم السيئة لأهل بيت الرسول وشاهد كما شاهد كثير من الناس اتحاد العباسيين والعلويين واتفاقهم على محاربة عدو مشترك، ليعالجوا الوضع الذي عظم على المسلمين تحمله.

وكان العباسيون ينظمون لجانب أهل البيت، وينظمون حزبهم وسط ذلك

---

(١) رسالة الإسلام العدد الثاني ص١٩٣.

الجو، وهم أشد الناس انتقاداً لوضع الدولة الجائر، ويتألمون لما نال المسلمين بصورة عامة ولأبناء عمهم بصورة خاصة وهم موتورون من الأمويين وناهيك بما في قلب الموتور من واتره، وكانت الهتافات باسم الرضا من آل محمد وقد اتجهت الأنظار لآل محمد ﷺ، وحامت عليهم الآمال، واتسع نطاق الثورة باسمهم وتمت بيعة محمد بن عبد اللّه بن الحسن، وقد بايعه السفاح والمنصور وبقية العباسيين، وكثير من العلويين، وكان مالك ممن يرى لزوم تلك البيعة وصحتها.

وعلى أي حال فقد استقر حكم بني العباس بعد ذلك الاضطراب وقامت دولتهم على أساس الانتماء لأهل البيت والانتقام من أمية الظالمة.

وبطبيعة الحال أن يكون ذلك العصر مقروناً بتطورات وحوادث هامة، وقد شاهد مالك أكثرها، ولعلنا نستطيع أن نستكشف رأيه وموقفه عندما ننظر إلى مظاهر الدولة الجديدة التي كانت تنتقد أعمال الأمويين وإقامة عرشها على اطلال دولتهم.

فهل تبدل ذلك الوضع الذي بعث الاستياء في نفوس العباسيين من الأمويين في معاملتهم القاسية مع أهل بيت النبي ﷺ؟ وهل وجدوا في ظل دولة أبناء عمهم راحة بعد ذلك العناء الذي شاهدوه في عهد الأمويين؟ وهل ظفر الناس ببغيتهم في إقامة دولة عادلة تحكم بكتاب الله وسنة نبيه حتى يصبح مالك بن أنس من مؤازري الدولة وأعوانها؟ ويسعد برضاها لأنها دولة عادلة تسير على كتاب الله وسنة رسوله، كل ذلك لم يكن بل كان الأمر معكوساً. وقد تضاعف الجور وازداد العنف.

* * *

كان عهد السفاح عهد حروب ومذابح، ولكنه يعد في الواقع أحسن العهود، وعصره خير عصر على أهل البيت وأنصارهم، وذلك واضح بيانه، لأن الدولة في عهدها الجديد لا يمكنها ارتكاب ما يكدر الصفو ويغير الوضع وتكشف عن وجهها فيحدث من ذلك خطر لا يمكن تلافيه، ومع هذا فقد أعطانا أبو مسلم صورة عن سياسة السفاح بكتابه للمنصور:

أما بعد فقد كنت اتخذت أخاك ـ يعني السفاح ـ إماماً وجعلته على الدين دليلاً لقرابته، والوصية التي زعم أنها صارت إليه، فأوطأ بي عشوة الضلالة، وأرهقني في ربقة الفتنة، وأمرني أن آخذ بالظنة، وأقتل على التهمة، ولا أقبل المعذرة، فهتكت

بأمره حرمات حتم الله صونها، وسفكت دماء فرض الله حقنها وزويت الأمر عن أهله، ووضعته في غير محله[1].

ويقول في كتاب آخر للمنصور أيضاً:

أما بعد فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلاً، وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه، وكان كالذي دلى بغرور، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقيل العثرة، ففعلت توطيداً لسلطانكم، حتى عرفكم من كان يجهلكم، وأطاعكم من كان عدوكم، وأظهركم الله بي بعد الإخفاء والحقارة والذل، ثم استنقذني بالتوبة...[2].

والشيء الذي يلفت النظر في هذه المراسلة هو اعتراف أبي مسلم بخطئه في تأويل الآيات التي حاول العباسيون انطباقها عليهم تمويهاً على الناس، كآية التطهير التي نزلت في آل محمد دون غيرهم، وادعى العباسيون أنهم أهل البيت الذين تنطبق عليهم هذه الآية، وغيرها كآية المودة، لذلك تنبه أبو مسلم لهذا الخطأ في التأويل، وحاول أن يتدارك أمره بالتوبة، وإرجاع الأمر لآل علي، فراسل الإمام الصادق ـ كما ذكره غير واحد ـ بأن يدعو له، ويرجع الأمر إليه، ولكن الإمام رفض طلبه للأمور التي مر بيانها، فكان ذلك أعظم شيء على المنصور وقامت قيامته حتى استطاع أن يعجل على أبي مسلم قبل اتساع الخرق، وانتشار الأمر. وهذا هو السبب الوحيد في قتله بتلك الصورة كما قتل من قبله أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد لأنه حاول إرجاع الأمر لآل علي فقتله السفاح غيلة.

وجاء المنصور من بعده وهو اليقظ الذي أعطته المشاكل درساً، فكان قوي السطوة عظيم البطش، يخشى زوال ملكه، وتتصور أمامه أيام محنته وكده ونكده، يوم كان خائفاً متخفياً يسعى في الأرض لإثارة الشعور، وتحريك عواطف الأمة بما نال أهل البيت من الجور الأموي، فسفكوا دماءهم ولم يراعوا بهم حرمة الدين وقرابة النسب من رسول الله ﷺ، وكان يتوجع لمصائب الأمة ومحنها في عهدهم.

فلما نال غرضه وما يقصده من وراء ذلك فكان مثالاً للظلم والعدوان، وفتح

(١) تاريخ بغداد ج١٠ ص٢٠٨.

(٢) البداية والنهاية ج١٠ ص١٤.

على الأمة أبواب الجور، وأطلق عليهم عقال الفتنة وخالف بأعماله أقواله حتى انتشر الجور في عهده، وقد أسرف في إراقة الدماء حتى قال له عمه عبد الصمد:

لقد لججت في العقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو. فقال المنصور: لأن بني مروان لم تبل رممهم، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة فكيف تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو.

فهو يحاول تركيز دعائم ملكه بتلك القسوة الهائلة من جهة، وبالتظاهر بالتدين من جهة أخرى، ليدفع عن نفسه خطر المؤاخذات، وقد كثرت عليه لإسرافه في القتل وسوء معاملته لأهل البيت حتى قال أكثر الناس: ما على هذا بايعنا آل محمد أن نسفك الدماء التي حرمها الله.

وأنكر جماعة من القواد سياسة المنصور وقسوته فأظهروا الدعوة لآل علي عليه السلام فحاربهم عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي عامل خراسان سنة ١٤٠هـ فقتلهم وحبس منهم آخرين[(١)] وعظم الأمر على الأمة وسار العمال في العسف والجور كما كان في العهد الأموي.

وقال عمرو بن عبيد للمنصور: «إنه ما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه. قال المنصور: فما أصنع؟ قد قلت لك: خاتمي بيدك فتعال وأصحابك فاكفني، قال عمرو: ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك، إن ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق»[(٢)].

وعلى أي حال فإن الإمام مالك قد عاصر من خلفاء العباسيين: السفاح والمنصور، والمهدي، وموسى الهادي، وهرون الرشيد. وقد طلع نجمه في عهد المنصور، وكان ذلك العصر الذي عاش فيه مالك هو من أزهر العصور، ولكن لم يجد الناس فيه ما كانوا يأملونه من الأمن والاستقرار والعدل والمساواة، بل كانت هناك أثرة واستبداد وتحكم في مقدرات الأمة وكبت للحريات.

الخراج في عهد مالك:

أما مسألة الخراج التي عظم أمرها في العهد الأموي، وانتقد العباسيون سياسة

---

(١) ابن كثير ج١٠ ص٧٥.

(٢) عيون الأخبار ٢ ـ ٣٣٧.

الأمويين فيها ووعدوا الناس خيراً، وقطعوا على أنفسهم عهوداً في تخفيفها، والعمل فيها بما أمر الله ورسوله، فكانت نتيجة الأمر أن يتضاعف البلاء ويكون الحال فيها أعظم مما كان في العهد الأموي، حتى التجأ بعضهم إلى الاحتماء باسم رجال الدولة كالوزير مقابل ذلك مقدار من المال في السنة.

يقول الجهشياري: إن من أهل الخراج من يلجىء أرضه وضياعه إلى خاصة الملك وبطانته لأحد أمرين: إما للامتناع من جور العمال وظلم الولاة وإما لدفع ما يلزمهم من الحق والكسر له. ويعطي الجهشياري مثلاً لذلك بقوله:

جاء رجل من أهل الأهواز إلى أبي أيوب المورياني وهو وزير المنصور فقال له: إن ضيعتي بالأهواز قد حمل عليّ فيها العمال، فإن رأى الوزير أن يعيرني اسمه أجعله عليها، وأحمل له كل سنة مائة ألف درهم.

فقال له: «قد وهبت لك اسمي فافعل ما بدا لك». وفي العام التالي أحضر الرجل المال ودخل على أبي أيوب وأعلمه أنه قد انتفع باسمه، وأنه قد حمل المال فسر أبو أيوب كثيراً[1].

وكان أبو أيوب عبداً للمنصور اشتراه صبياً قبل الخلافة، وقلده الوزارة في خلافته، ثم غضب عليه فقتله سنة ١٥٣هـ واستصفى أمواله، وقلد الوزارة من بعده للربيع بن يونس مولى آل عثمان بن عفان، ولم يزال وزيراً إلى أن مات المنصور[2].

وليس في وسعنا أن نتوسع في قضية الخراج وتلاعب الجباة في ذلك وما نال أهل الخراج من الشدة والتعذيب، بالسباع والزنابير والسنانير[3] وذلك في عهد المهدي العباسي.

واشتد الأمر كلما امتد الزمن بالدولة العباسية، فقد كان عمال الخراج يستعملون وسائل الشدة وأنواع التعذيب، كما وصفوا بأنهم: عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان، شر من الأفاعي يضربون الناس ويحبسونهم، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يموت.

---

(١) الوزراء والكتاب ص٨٣.

(٢) أبو أيوب اسمه سليمان المورياني من قرية موريان من قرى الأهواز.

(٣) الجهشياري ص١٠٣.

ومن أظرف ما جرى في عهد الوزير ابن الفرات قصة ملخصها: أنه أراد إجراء الحساب مع محمد بن جعفر بن الحجاج سنة ٢٩٦هـ فطلب رجلاً لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فانتدب له رجل يكنى بأبي منصور فأحضر ابن الحجاج بين يديه وشتمه أبو منصور وافترى عليه، ثم أمر بتجريده وإيقاع المكروه به. وابن الحجاج يقول: يكفي الله، ثم أمر أبو منصور بنصب دقل وجعل في رأسه بكرة فيها حبل، وأمر برفع ابن الحجاج إلى أعلى الدقل وهو يستغيب ويقول: يكفي الله، فما زال معلقاً وأبو منصور يقول: المال المال. وهو غضبان حتى اختلط من شدة الغضب، وقال لمن يمسك الحبال: أرسلوا ابن الفاعلة وهو يرى أنهم يتوقفون، وهو يحاول بذلك تهديده فأرسلوا ابن الحجاج وكان بديناً فسقط على عنق أبي المنصور، فدقها وخرّ على وجهه وسقط ابن الحجاج مغشياً عليه، فحمل أبو منصور إلى منزله في محمل فمات في الطريق، ورد ابن الحجاج إلى محبسه وقد تخلص من التلف[1].

وكان أحد عمالهم يشتد في المطالبة بالأموال، فكان يضع على بطون الناس أطسات الجمر، ومنهم من يستعمل الدبابيس يضربون بها رؤوس أهل الخراج، إلى غير ذلك من أعمال القسوة والشدة مما لم يكن أكثره في العهد الأموي.

* * *

هذه نظرة موجزة لسياسة العباسيين وسيرتهم التي ساروا فيها بالرعية، وهي امتداد لسيرة الأمويين بل فيها ما هو أشد من ذلك.

والغرض أن الأمة لم تحقق أمانيها في ظل الدولة العباسية، وقد أنكر الناس سوء المعاملة، وكانت ظلمة السجن قد حجبت شعاع الحرية، ولغة السيف أخرست المتظلم، وقد وقف أهل البيت وأتباعهم موقف الحزم والبطولة، ولم يتنازلوا عن المعارضة وشدة الإنكار، فكانت معاملة بني العباس لهم ولأنصارهم بقسوة وسياستهم متجردة عن معاني الرحمة، وراقبوهم أشد المراقبة وضيقوا عليهم سعة الدنيا ليحملوهم على التنازل عن مبادئهم.

فكان نصيب بني العباس وأعوانهم التمتع بمسرات الحياة ولذائذ الدنيا وجمع الأموال ونشر السلطان، وإزهاق النفوس وحصد الرقاب.

---

(١) الحضارة الإسلامية ص٣٢٦.

وكان نصيب أهل البيت وأنصارهم ألم الحديد، وثقل القيود، وظلمة السجون، والتحلي بابراد الشهادة وهي مطرزة بدمائهم الزكية.

رسالة مالك:

ولا نحتاج إلى أكثر من هذا البيان لذلك العصر وما فيه من تبدل وتطور.

هذا ولم يؤثر عن مالك بن أنس معارضة للوضع، ولا دعوة إلى إصلاحه.

نعم هناك رسالة تنسب إلى الإمام مالك تحتوي على جملة من المواعظ والسنن، يقال: أرسلها مالك إلى الرشيد أو إلى يحيى البرمكي، فلما وصلت أمر الرشيد بكتابتها بالذهب(١).

وقد ذكرها القاضي عياض في ضمن ما ذكره من كتب مالك، وأول من حدث عنها بالأندلس ابن حبيب.

وينحصر سند هذه الرسالة بأبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس، أنه كتب بهذه الرسالة إلى يحيى البرمكي، ومرة أخرى إلى هرون الرشيد، فالذي عن أبي بكر مختلف في من وجهت إليه. فمرة إلى خالد ومرة إلى هرون، وقد حاولوا الجمع لذلك بتكرارها وأنها وجهت لكل منهما، وهو أمر غير مستساغ من فحوى الرسالة، وبالإعراض عن مناقشة السند، فقد أراحنا كثير من علماء المالكية عن فحصه ونقاشه منهم: القاضي إسماعيل المالكي، والأبهري، وأبو محمد بن أبي زيد، فقد قالوا: إنها لا تصح وأن طريقها إلى مالك ضعيف، وفيها أحاديث لا نعرفها.

وقال الأبهري: فيها أحاديث لو سمع مالك من يحدث بها لأدبه، وأحاديث منكرة تخالف أصوله، وقالوا فيها أشياء أخرى لا تعرف من مذهب مالك، وقَدَ أنكرها أصبغ بن الفرج أيضاً، وحلف ما هي من وضع مالك.

والحقيقة أن الرسالة موضوعة، لأنها خالية عما يخص العدل والالتزام به وترك الظلم اللذين هما أخص ما يخاطب به الملوك إلا قليلاً، بل الرسالة تذكر المستحبات

---

(١) طبعت هذه الرسالة في مصر مستقلة في المطبعة الأميرية سنة١٣١١هـ وطبعت بالمطبعة المحمودية سنة ١٣٤٣هـ وطبعت في خاتمة كتاب سعد الشموس وهي لا تتجاوز ٢٨ صفحة.

كقوله في الصفحة الرابعة: وصلّ من النهار اثني عشر ركعة واقرأ فيهن ما أحببت إن شئت صلهن جميعاً وإن شئت متفرقات، وقوله: وصم ثلاثة أيام من كل شهر، ويتعرض للغسل في الحمام وسائر المستحبات، وقوله في الصفحة السابعة: أقلل طلب الحوائج من الناس فإن في ذلك غضاضة، ويلغني عن النبي أنه قال لرجل: لا تسأل الناس. ومثل هذا كيف يخاطب به الملوك؟ ويقول: لتكن يدك العليا على كل من خالطت، فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: اليد العليا خير من اليد السفلى. ثم يتعرض إلى سنن الأكل والشرب واستحباب الجلوس في المسجد، إلى غير ذلك من الأمور التي تدل بكل وضوح على أن الرسالة منتحلة ولا أصل لها، ويقرأها الوعاظ والمرشدون.

ومهما يكن من أمر فإن عصر مالك اشتد فيه الوضع المؤلم والجور على الرعية ولم يرد عن مالك ـ مع عظمته ونفوذ سلطته ـ ما يدل على إنكاره لتلك الأوضاع.

وكان العباسيون يعتمدون على ما يفتي به مالك، حتى حملوا الناس على الأخذ بأقواله ومناديهم ينادي: ألاّ يفتي إلا مالك.

ولما قدم إبراهيم بن سعد الزهري العراق سنة ١٨٤هـ فأكرمه الرشيد وأظهر بره. وقال له الرشيد: من كان من فقهائكم يكره السماع؟ قال: من ربطه الله. قال: فهل بلغك عن مالك بن أنس في هذا شيء؟ قال: لا والله إلا أن أبي أخبرني أنهم اجتمعوا في مدعاة كانت في بني يربوع، وهم يومئذ جلة ومالك أقلهم في فقهه وقدره، ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون، ومع مالك دف مربع وهو يغنيهم:

سليما أجمعت بينا ... فأين لقاؤها أينا

وقد قالت لأتراب ... لها زهر تلاقينا

تعالين فقد طاب لـ ... ـنا العيش تعالينا[1]

وكان المنصور يعظمه ويوجه الأنظار إليه، ويعلن بأن مالكاً هو أعلم الناس، كما أن مالكاً يعلن بأن المنصور أعلم الناس بالكتاب والسنة.

(١) تاريخ بغداد ج٦ ص٨٤.

وكذلك المهدي، والهادي، والرشيد لحظوه بالعناية والتقدير، فتوجهت إليه أنظار الناس، وازدحموا على بابه، وانتشرت أقواله في الحجاز وكثر المنتمون لمدرسته، واستماع الموطأ منه، ولهذا اختلفت روايات الموطأ لكثرة رواته.

وقد حمل مذهب مالك في الحجاز فأظهره القاضي إبراهيم المعروف بابن فرحون(١).

كما أن مذهب مالك دخل الأندلس بواسطة زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٩٣هـ وتولى الأمويون نشره هناك، وتزلف الناس إليهم بقبوله وكان قاضي القضاة يحيى بن يحيى لا يولي قاضياً إلا من كان ينتمي للمذهب المالكي كما كان أبو يوسف بالعراق بالنسبة لمذهب أبي حنيفة.

وقد أشرنا من قبل لعوامل انتشار المذاهب أن القضاة هم الذين يتولون نصرة المذهب وانتشاره.

والخلاصة: أن الإمام مالك بن أنس قد ارتفع شأنه وعلت منزلته عندما اتجهت إليه الدولة بالعناية بعد محنته وتعذيبه وطلبوا وضع كتاب تقرره الدولة ويحملون الناس عليه بالسيف(٢) وهو كتاب الموطأ الذي سنتكلم عنه الآن تحت عنوان (تدوين العلم) لنرى هل أن مالكاً هو أسبق من دوّن في العلم أم غيره؟ وما هو نصيب الشيعة في تدوين العلم؟ وما هو أثرهم في نشاط الحركة العلمية؟

ولا بد لنا قبل الشروع في ذلك من القول: بأننا قد تركنا التعرض لآراء مالك وأقواله، فإن له آراء في السياسة وأقوال في أمور مختلفة لأن ذلك يستدعي الإطالة في القول والتوسع في البحث.

ولكننا سنتكلم حول رأيه في التفضيل فإن له رأياً يكاد ينفرد به عن علماء الإسلام، وذلك أنه يذهب إلى تفضيل أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، ويسكت، ويقول: هنا يتساوى الناس وهذا أمر غريب وسنبحث هذه المسألة قريباً تحت عنوان مشكلة التفضيل. ومن الله التوفيق والسداد.

---

(١) نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب ص٢٤.
(٢) الديباج المذهب لابن فرحون ص٢٥.

تدوين العلم

أول من دون العلم:

هذا تمهيد لأبحاث تأتي فيما بعد حول علم الحديث وسائر العلوم، فإن لعلم الحديث أهمية كبرى، فهو المدار لتفصيل الأحكام وتبيين الحلال من الحرام، وقد اعتنى رجال الأمة في معرفة الأحاديث النبوية، وسنتعرض لبيان أقسامه وصفات رواته بما له تمام الصلة بموضوعنا، والكلام هنا يقع حول أمرين:

١ ـ في أي عصر ظهر التدوين، هل هو في الصدر الأول، أم في العهد الأموي، أم في العهد العباسي؟

٢ ـ في تعيين أول من دون في الإسلام.

اختلفت أقوال المؤرخين في ذلك، فمن قائل: إن التدوين ظهر في عهد الصحابة، ومنهم من يقول: إنه في آخر العهد الأموي وأن عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١هـ أمر بجمع السنن فكتب دفاتر فبعث بها إلى كل بلد، أو أنه أمر ابن شهاب الزهري بالتدوين، إلى غير ذلك من الاختلاف في الأقوال. وها نحن ذا ندرس الموضوع لنقف على حقيقة الأمر والواقع، ولا مشاحة فإن حركة التأليف كانت في العصر العباسي قوية والنزعة إلى ذلك شديدة، لتشجيعهم الحركة العلمية، وانتعاش العلوم في ظل سلطانهم، لأنهم يحاولون أن يصبغوا الدولة صبغة دينية وجعل أمورها على منهاج شرعي كما اقتضت سياستهم لذلك، وقد مر بيانه.

وهنا لا بد لنا أن نتعرض للأقوال في تدوين العلم لاستكشاف الحقائق ومعرفة السابق إلى التدوين في الإسلام.

قال السيوطي في شرح الموطأ: أخرج الهروي في ذم الكلام من طريق

الزهري: أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن واستشار فيه أصحاب رسول الله. فأشار عليه عامتهم في ذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إني ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم كتبوا مع كتاب الله كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء. فترك كتابة السنن(١).

وكان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتابة العلم وتخليده في الصحف كعمر، وابن عباس، والشعبي، وقتادة ومن ذهب مذهبهم.

قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم: «من كره كتابة العلم إنما كرهه لوجهين: أحدهما أن يتخذ مع القرآن كتاب يضاهي به، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب، فلا يحفظ فيقل الحفظ».

وهذا هو رأي عمر وما أدى إليه اجتهاده في ذلك. وقال ابن عبد البر أيضاً: كان اعتماد الصحابة أولاً على الحفظ والضبط في القلوب غير ملتفتين إلى التدوين، فلما انتشر الإسلام وتفرقت الصحابة ومات معظمهم مست الحاجة إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة(٢).

وبهذا يظهر أن التدوين عندهم متأخر عن الصدر الأول، كما مر من رأي عمر في ذلك، ويذهب الغزالي إلى أن حدوث التدوين كان في سنة ١٢٠هـ وبعضهم يرى أنه قبل ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز.

جاء في الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر. وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصفهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى الآفاق: «انظروا إلى حديث رسول الله فاجمعوه».

وأبو بكر بن محمد بن عمر هذا كان أنصارياً مدنياً، ولي القضاء على المدينة لسليمان بن عبد الملك ولعمر بن عبد العزيز، وتوفي سنة ١٢٠هـ، وكانت ولاية

---

(١) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص٣٥.

(٢) جامع بيان العلم ج٢ ص٣٤.

عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ إلى سنة ١٠١هـ، فعلى هذه الرواية قد يكون أمر أبو بكر بالجمع حوالي سنة ١٠٠هـ. يقول الدكتور أحمد أمين: ولكن هل نفذ هذا الأمر؟ كل ما نعلمه أنه لم تصل إلينا هذه المجموعة ولم يشر إليها ـ فيما نعلم ـ جامعو الحديث بعد. ومن أجل هذا شك بعض الباحثين من المستشرقين في هذا الخبر، إذ لو جمع شيء من هذا القبيل لكان من أهم المراجع لجامعي الحديث، ولكن لا داعي إلى هذا الشك فالخبر يروي لنا أن عمر أمر. ولم يرو لنا أن الجمع تم. فلعلّ موت عمر سريعاً عدل بأبي بكر عن أن ينفذ ما أمر به[1] فلما جاء العصر العباسي وانتصف القرن الثاني بدأ التأليف في الحديث، كما بدأ في العلوم الأخرى، ووجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث في أمصار مختلفة وفي عصور متقاربة، ففي مكة جمع الحديث ابن جريح المتوفى سنة ١٥٠هـ (الرومي الأصل) ولم يوثقه البخاري، وقال: «إنه لا يتابع في حديثه» وفي المدينة محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥١هـ ومالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ، وبالبصرة الربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠هـ، وسعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ، وحماد بن سلمة المتوفى سنة ١٧٦هـ، وبالكوفة سفيان الثوري المتوفى ١٦١هـ، وبالشام الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٦هـ، وباليمن معمر المتوفى سنة ١٥٣هـ، وبخراسان ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ، وبمصر الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥هـ.

قال في كشف الظنون: واعلم أنه اختلف في أول من صنف في الإسلام فقيل الإمام عبد العزيز بن جريح البصري المتوفى سنة ١٥٥هـ، وقيل أبو النضر سعيد بن عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ، ذكرهما الخطيب البغدادي. وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠هـ ثم صنف سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ ومالك بن أنس بالمدينة، وعبد الله بن وهب المتوفى سنة ١٩٨هـ بمصر، وعبد الرزاق باليمن، ومحمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة، وحماد بن سلمة وروح بن عباد بالبصرة، وهيثم المتوفى سنة ١٨٣هـ بواسط، وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨٢هـ بخراسان.

قال الغزالي في الاحياء: بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في

---

(١) ضحى الإسلام ج٢ ص٦٠٦ ـ ٦٠٧.

زمن الصحابة وصدر التابعين، وإنما حدثت بعد سنة ١٢٠هـ من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجل التابعين، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين، بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا: احفظوا كما كنا نحفظ. . . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيف الموطأ، ويقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة، وقيل أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريح في الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني المتوفى سنة ١٥٤هـ باليمن جمع فيه سنناً مأثورة نبوية، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك، ثم جامع سفيان الثوري، ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات في الكلام، وكثر الخوض في الجدال، والخوض في إبطال المقالات(١).

وقال ابن عبد البر عن عبد العزيز الداروردي قال: أول من دون العلم وكتبه ابن شهاب. وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: كنا نكتب الحلال والحرام. وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع.

وقال السيوطي: أول القضاة بمصر سجل سجلاً بقضائه سليم بن عز: قضى في ميراث وأشهد فيه، وكتب كتاباً بالقضاء وأشهد فيه شيوخ الجند، فكان أول القضاة تسجيلاً، وكانت ولايته من سنة ٤٠هـ إلى موت معاوية، فترى من هذا أن الجمع بدأ في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني ـ غالباً ـ وأن الفكرة فشت في الأمصار المختلفة، ومن الصعب تحديد أي مصر كان له السبق، إلا إذا اعتبرنا أن ابن جريح في مكة كان أسبق هؤلاء العلماء موتاً، فيكون أسبقهم تأليفاً، وربما قلد في ذلك، وعمت الفكرة في الأمصار من طريق الحج، فالعلماء الذين رحلوا إلى مكة أخذوا فكرة جمع الحديث منها أثناء حجهم، ونشروها في بلادهم، وجمعوا ما في مصرهم من الحديث، كما جمع ابن جريح أحاديث مصره.

الشيعة والتدوين:

هذا ملخص ما في الباب من الاختلاف وكثرة الأقوال. ومن المؤسف له أن

---

(١) الأحياء ج٢ ص١٤٣ ـ ١٤٤.

أكثرهم أهمل ناحية سبق أهل البيت وأتباعهم إلى التدوين في جميع العلوم الإسلامية. ولا يستغرب هذا فالظروف قد اقتضت ذلك، نظراً لسياسة الوقت، فعدم تعرضهم لذلك لا لجهة العدم، وإنما هي أمور لا تخفى على المتتبع. والحق الذي لا غبار عليه: أن أهل بيت النبي ﷺ هم الحائزون على قصب السبق، وقد وجهوا عنايتهم التامة في تدوين العلوم، واحتفظ تلامذتهم والمختصون بهم بذلك. فسجلوا ما تلقوا عنهم، وحفظوا ما أخذوه منهم.

يقول العلامة مصطفى عبد الرازق عند ذكره لأول من دون الفقه: وعلى كل حال فإن ذلك لا يخلو من دلالة على أن النزوع إلى تدوين الفقه كان أسرع إلى الشيعة، لأن اعتقادهم العصمة في أئمتهم أو ما يشبه العصمة كان حرياً أن يسوقهم إلى الحث على تدوين أقضيتهم وفتاواهم(١).

وإن أسبق كتاب في الفقه هو كتاب قضاء الإمام علي بن أبي طالب الذي كان عند ابن عباس منه نسخة يعتمد عليها.

أهل البيت أول من دون العلم:

رأينا كيف اختلفت الأقوال في تعيين السابق إلى تدوين العلم في الإسلام والمحاولة التي تقضي بظاهرها صرف الحق في ذلك عن أهله، كغيرها من المحاولات التي اتخذت ضدهم من قبل المناوئين لهم، وخصومهم الذين كان يزعجهم ذكر آل محمد بخير، لأن ذلك يدخل على خصومهم القلق، وعدم الاستقرار والتنعم في ملاذ الحياة. ولكن أكثر المسلمين احتفظوا بالولاء لهم رغم كل محاولة.

وإن لأهل البيت قدماً راسخاً في العلم، وآثاراً خالدة في الإسلام. وفي الواقع أن أول من دوّن العلم هو سيد الأوصياء وإمام البلغاء علي بن أبي طالب عليه السلام، وإن أسبق كتاب في الفقه هو كتاب الإمام علي عليه السلام وأحكامه، فقد كانت عند ابن عباس منه نسخة ينظر فيها لأخذ أهم القضايا في القضاء عنه وكان عند الإمام الباقر عليه السلام نسخة من كتاب علي عليه السلام بخطه يرجع إليه وتوارثه أولاده وأحفاده كما أن عندهم صحف بمختلف الفنون والعلوم يتوارثونها عنه واحداً بعد واحد. ودوّن

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٠٢.

تلاميذه في عصره ما سمعوه منه وتلقوه عنه من الأحكام في الدين. كعبد الله بن أبي رافع، والأصبغ بن نباتة، وغيرهم الذين يأتي ذكرهم.

عهد الإمام عليّ لمالك الأشتر:

إن أعظم أثر خالد دوّنه الإمام علي بن أبي طالب هو عهده لمالك الأشتر الذي يحتوي على أهم القواعد والأصول التي تتعلق بالقضاء والقضاة، وإدارة الحكم في الإسلام، وقرر فيه قواعد مهمة في التضامن الاجتماعي، بل التعاون الإنساني في إقامة العدل، وحسن الإدارة، والسياسة وبيان صلاح الهيئة الاجتماعية، وتنظيم الجيش، وبيان الخراج وأهميته، وكيف يجب أن تكون المعاملة فيه، والنظر في عمارة الأرض وما يتعلق بذلك من أصول العمران، وما فيه صلاح البلاد ومنابع ثروته، وما للتجارة والصناعة من الأثر في حياة الأمة إلى غير ذلك من القواعد الهامة التي تهدف إلى أسمى هدف في العدل الإسلامي، وهو لا يعد في عداد الرسائل أو العهود القصيرة الموجزة، بل هو يعتبر في الواقع كتاباً مستقلاً له أهميته في التشريع الإسلامي، حتى أصبح موضع العناية من رجال الفكر، وأعطوه كبير العناية بالشرح والإفاضة واعتنى به علماء القانون وساسة الأمم، فهو أثر خالد ومفخرة الإسلام على ممر الدهور، إذاً فليس من الصحيح إهماله وجعله جزءاً من كتاب، بل هو كتاب برأسه، وقانون للتشريع الإداري بذاته.

ولهذا العهد شروح عديدة، منها:

١ ـ شرح العلامة المصلح مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣هـ الموسوم «مقتبس السياسة» المطبوع سنة ١٣١٧هـ.

٢ ـ شرح السيد الماجد البحراني، وسماه «التحفة السليمانية» شرحه في ستين فصلاً، طبع في طهران.

٣ ـ شرح المولى محمد صالح الروغني القزويني من علماء القرن الحادي عشر.

٤ ـ شرح المولى محمد باقر، وقد يظن أنه المجلسي المتوفى سنة ١١١١هـ.

٥ ـ شرح سلطان محمد المتوفى سنة ١٣٥٤هـ الموسوم أساس السياسة في تأسيس الرياسة.

٦ ـ شرح العلامة الهادي البرجندي المطبوع سنة ١٣٥٥هـ.

٧ ـ شرح الحسين الهمداني الموسوم «هدية الحسام لهداية الحكام».

٨ ـ ترجمة الفاضل محمد جمال الدين لهذا العهد الشريف إلى اللغة التركية منظوماً نظماً لطيفاً.

٩ ـ شرح العلامة الشيخ عبد الواحد المظفر، أسماء (السياسة العلوية) مخطوط يقع في ثلاثة أجزاء.

١٠ ـ وشرحه شراح نهج البلاغة بشروح وافية، كابن أبي الحديد، والشيخ ميثم، وغيرهما من العلماء الأعلام، ويزيد عدد شروح نهج البلاغة على المائة شرح باللغة العربية وغيرها.

١١ ـ شرح القانوني الكبير الأستاذ توفيق الفكيكي الموسوم بـ «الراعي والرعية» وهو شرح يمتاز عن غيره بكثير من النواحي، أهمها تطبيقه تلك القواعد على نظم العصر الحاضر من القوانين الحديثة. وقد طبع في النجف سنة ١٣٥٨هـ ويقع في مجلدين.

كما أن لهذا العهد شروحاً كثيرة لا يمكن الإحاطة بها، ذكرها شيخنا الحجة الشيخ محسن الطهراني في كتابه «الذريعة».

فكتاب عهد الإمام علي بن أبي طالب هو المثل الأعلى للحكم في الإسلام لما فيه من أهم القواعد السياسية، والإدارية، والقضائية، والمالية، والنظريات الدستورية، التي تتضمن السعادة لما فيها من نظام عادل.

فجدير إذا اعتنى به علماء الأمة، ورجال الحكم، وأرباب السياسة والتشريع والقضاء وأعطوه أهمية كبرى وعناية عظيمة.

وسار أولاده وأحفاده في تشجيع حركة التدوين، واحتفظ التاريخ بكثير من تلك الآثار الخالدة.

رسالة الحقوق للإمام زين العابدين:

ويجب أن لا يغيب عن بالنا ما لرسالة الحقوق التي كتبها الإمام زين العابدين عليه السلام، فهي في الواقع من أعظم الكتب التي دونت في القرن الأول، وهي تحتوي على خمسين فصلاً في بيان أهم الحقوق التي يلزم الإنسان القيام بها، لما في

ذلك من صلاح الهيئة الاجتماعية في سياسة الإنسان نفسه، وسيرته مع أبناء جنسه، وما يلزم على الحكام في سيرتهم مع الرعية، وما يجب على الرعية للحكام، وما يجب على العبد من العبودية لله وشكره، والقيام بما يجب عليه إلى غير ذلك من بيان أهم الحقوق والواجبات كحق الصلاة وحق السلطان، وحق الرعية، وحق الرحم، وحق الوالد، وحق الولد، وحق الجليس والصاحب، وحق الخصم، وحق الغريب... إلى آخر فصولها القيمة. وهي كبيرة. وقد طبعت في طهران في ضمن كتاب تحف العقول، وشرحها الخطيب السيد حسن القبانجي شرحاً وافياً في مجلدين طبعا في النجف الأشرف.

مسند زيد بن عليّ ومدونته الفقهية:

ولزيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب عليه السلام مسند كبير، جمع فيه الحديث عن آبائه وأخيه الباقر عليهم السلام، وهو لا يزال محل اعتماد المحدثين. ونقلوا عنه في كتب الحديث، ويرمزون له بـ (ز)، وعده في كتاب مفاتيح كنوز السنة من الكتب المعتمدة المنقولة عنها، وكذلك لمحمد بن الحنفية مسند في الحديث، له ذكر مشهور.

ولزيد بن علي مدونة فقهية اكتشفت بين المخطوطات القديمة في المكتبة الامبروزية بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية.

وهذا المخطوط يعد أقدم مجموعة في الفقه الإسلامي. وعلى كل حال ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الإسلامي[(١)].

ولا مشاحة في أن سبق أهل البيت إلى تدوين الفقه وسائر العلوم الإسلامية أمر لا يمكن إنكاره.

فقد دونوا العلم وأمروا تلامذتهم في ذلك، فكانوا يأمرونهم بالكتابة فدونوا ما تلقوه منهم في سائر العلوم. وليس من شك أن نزعة التدوين عند الشيعة كانت من عهد الإمام علي عليه السلام.

فهذا علي بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله كان من تلامذة أمير المؤمنين

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٠٠.

وخواصه، ذكره النجاشي في الطبقة الأولى من مصنفي الشيعة، وجمع كتاباً في فنون الفقه، تلقى ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام وكانوا يعظمون هذا الكتاب. وله كتاب السنن والأحكام.

وأبو سليمان زيد الجهني الذي شهد حروب الإمام علي عليه السلام وألف كتاب الخطب في عصر أمير المؤمنين عليه السلام.

وعبيد الله بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين عليه السلام له كتاب قضايا أمير المؤمنين عليه السلام يرويه الشيخ الطوسي، وله كتاب تسمية من شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام الجمل وصفين والنهروان، وهو أول مصنف في الرجال ذكره الشيخ محسن الطهراني في مصفى المقال في علم الرجال.

وسليم بن قيس من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام له كتاب يرويه عنه أبان بن عياش، وسيأتي الحديث حول هذا الكتاب.

وغير هؤلاء من أصحاب أمير المؤمنين ممن سبقوا إلى التدوين، ولما نشطت الحركة العلمية في عهد الإمام الباقر وولده الإمام الصادق، كثر تدوين الفقه والحديث وسائر العلوم عنهم، واتجه تلامذتهما إلى التأليف، ولا بد من الإشارة إلى ذلك بموجز من البيان.

عصر الإمام الباقر:

كان لانتعاش العلم في ذلك العصر أثر في اتجاه الناس إلى الأخذ عن أهل البيت، وقد مرت الإشارة إلى اتساع مدرسة الإمام الباقر، فكان عليه السلام قد وحّد جهوده إلى نشر العلم، فاتجهت إليه طلاب الحقيقة، لأنه خير رائد وأعظم مرشد.

وهو أول من أسس علم الأصول وفتح بابه وفتق مسائله، ومن بعده ولده الإمام الصادق عليه السلام، وقد أمليا على أصحابهما قواعده وجمعوا من ذلك مسائل دونها المتأخرون حسب ترتيب المصنفين فيه برواية مسندة إليهما من دون دخل لآرائهم فيها، ولا وضع قول إلى جنب قولهما، وتلك الكتب موجودة إلى هذا الوقت.

فالإمام الباقر عليه السلام هو واضع علم الأصول وفاتح بابه. وأول من صنف فيه هو هشام بن الحكم: صنف كتاب الألفاظ ومباحثها، وهو أهم مباحث علم الأصول، ثم من بعده يونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين صنف كتاب اختلاف

الحديث ومسائله، وهو مبحث تعارض الحديثين ومسائل التعادل والتراجيح، ثم أخذت حركة التأليف في الأصول من بعدهما بالتوسعة، واشتهر منهم أئمة أعلام: منهم أبو سهل النوبختي والحسن بن موسى النوبختي وهما من علماء القرن الثالث، ومن بعدهما ابن الجنيد وأبو منصور الصرام، وابن داود والشيخ المفيد والسيد المرتضى وغيرهم عدد كثير.

فالقول بأن الشافعي هو واضع علم الأصول ظلم للحقيقة وخروج عن حدود الإنصاف، على أن هذا القول لا يؤيده بقية العلماء من سائر المذاهب فللحنفية أصول وللمالكية أصول. نعم لا ينكر أن الشافعي ألف في الأصول ووسع دائرة بحثه ويعتبر عندهم أول من صنف فيه، وهو متأخر عن مصنفي الشيعة الذين سبقوا للتصنيف في علم الأصول، وقد ذكر ابن النديم كتاب مباحث الألفاظ في تعداد مؤلفات هشام بن الحكم. على أنا نجد في كتاب الفهرست أيضاً في ترجمة محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ذكر كتاب له يسمى أصول الفقه. وتدعي الحنفية أيضاً أن أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة هو أبو يوسف[1].

والغرض أن دعوى وضع الشافعي لعلم الأصول غير صحيحة، بل يقول الأكثر: إنه أول من صنف في أصول الفقه صنف كتاب الرسالة وكتاب أحكام القرآن كما جاء في البحر المحيط للزركشي.

ويقول ابن خلدون: أول من كتب في علم الأصول الشافعي أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس.

وقال في كشف الظنون: أول من ألف فيه الشافعي، إذاً فالشافعي مؤلف واضع، ونحن لا ننكر ذلك. ولكن هشام بن الحكم كان أسبق من الشافعي لأنه ألف مباحث الألفاظ من الأوامر والنواهي والبيان والنسخ، وغير ذلك الذي تلقى معلوماتها عن أستاذه الإمام الصادق عليه السلام قبل ولادة الشافعي. وكانت وفاة هشام سنة ١٧٩هـ ووفاة الشافعي سنة ٢٠٤هـ فرسالة هشام بن الحكم ـ في علم الأصول التي ذكرها النجاشي والكشي وابن النديم ـ أقدم من رسالة الشافعي أخذاً وتأليفاً. وقد وصف

---

(١) مناقب أبي حنيفة للمكي ج٢ ص٢٤٥.

الشهرستاني صاحب الملل والنحل هشاماً بأنه صاحب غور في الأصول. ورسالة الشافعي نقضها أبو سهل النوبختي من علماء القرن الثالث، وهو من علماء الشيعة.

وإن للإمام الباقر عليه السلام كتاب في التفسير يرويه عنه أبو الجارود وقد مرت الإشارة إليه.

أما تلامذته الذين ألفوا في عصره فعددهم كثير:

منهم - ثابت بن دينار له كتاب يرويه الشيخ الطوسي بطريق واحد، وله كتاب النوادر وكتاب الزهد، رواهما حميد بن زياد عن محمد بن عياش.

وأبان بن تغلب وهو من المؤلفين بشتى العلوم، وكان من تلامذة الباقر والصادق عليهما السلام، ذكره ابن النديم.

وحجر بن زائدة الحضرمي له كتاب في الحديث يرويه عنه النجاشي بست وسائط.

وسلام بن أبي عمرة الخراساني له كتاب رواه عنه عبد الله بن جبلة والنجاشي بإسناده إلى ابن جبلة عنه، وهو من الكتب الموجودة الباقية بالهيئة الأصلية.

وكليب بن معاوية بن جبلة الصيداوي الأسدي له كتاب في الحديث يرويه عنه جماعة: منهم عبد الرحمن بن أبي هاشم، ويرويه النجاشي بخمس وسائط عنه. وغيرهم كثير لا يسع المقام ذكرهم.

عصر الإمام الصادق:

وهو أزهر العصور في نشاط الحركة العلمية والنزوع إلى التدوين. والإمام الصادق عليه السلام هو زعيم تلك الحركة والمعلم الأول في ذلك العهد، فقد انتمى لمدرسته عظماء الأمة، ورجال العلم ورؤساء المذاهب.

وكان بيته كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر درسه في أغلب الأوقات ألفان، وفي بعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، وقد ألف تلاميذه من جمع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري، وقد بلغ عددها في أيام الإمام الحسن العسكري أربعمائة كتاباً.

فهشام بن الحكم، والطاقي، وزرارة، وأبو بصير، ومحمد بن مسلم من نوابغ تلاميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وهم في الحقيقة المرجع الأصلي لفقه المذهب الجعفري أو مذهب الشيعة وحكمته، وكان خلفاء الإمام جعفر الصادق يعدون مورداً فياضاً للاستفادة المذهبية والعلمية للشيعة[١].

وتسابق أعيان تلامذته إلى تدوين الحديث والمسائل الفقهية، فكان مجموع ما أحصي من التأليف في عصره أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف. وذكر الشيخ آغا بزرك[٢] من مصنفي تلامذة الإمام الصادق عليه السلام في الحديث فقط أكثر من مائتي رجل مع تراجمهم عدا المؤلفين من سائر أصحاب الأئمة عليهم السلام ومجموع ما ذكره سبعمائة وتسعة وثلاثون كتاباً، عدا الكتب التي ذكرها بعنوان الأصول. وقال في خاتمة البحث:

«هذا آخر ما ظفرنا به من فهرس كتب قدماء الأصحاب التي لم تسم إلا باسم الكتاب وعبرنا عنها بكتب الحديث لاشتمالها على أحاديثهم التي يروونها عن الأئمة عليهم السلام قد أودعت تلك الروايات بعين ألفاظها في المجاميع الأربعة التي ألفها المحمدون الثلاثة القدماء: الكافي، والتهذيب، والاستبصار والفقيه، والمحامدة المتأخرة أي: الوافي، والبحار، والوسائل ومستدركه، وغيرها من المجاميع المخطوطة الموجودة في خزائن الكتب في العالم مثل جامع المعارف والأحكام، وجوامع الكلم، ودرر البحار، والشفا في أخبار آل المصطفى، ومستدرك الوافي، ومستدرك البحار، وغير ذلك من الكتب. . .».

حركة التدوين عند الشيعة:

وخلاصة القول أن أهل بيت الرسول عليهم السلام هم أسبق الناس إلى التدوين وتشجيع الحركة العلمية، فهم أهل الفضل في كل علم، حفظوا أحكام الرسول وأخبروا عن أنباء التنزيل. فكانوا معدن العلم، وخزان الوحي، وورثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وهم عدل القرآن وتراجمته.

---

(١) رسالة الإسلام العدد ٤ السنة السادسة من مقال للأستاذ السيد صادق نشأت الأستاذ بكلية الآداب بالقاهرة.

(٢) الذريعة ج٦ ص٣٠١ ـ ٣٧٤.

ومن الظلم وعدم إنصاف الحق الإعراض عن ذكرهم في السبق إلى تدوين العلم، وتعليم الأمة، ولو فسح المجال وتخلت السلطة عن التدخل في شؤون العلم لأغراضها لتحررت الأفكار من ذلك الجمود الذي فرضته السلطة وذكرت الحقيقة التي ترعب الحكام.

ومما لا شك فيه أن حركة التدوين عند الشيعة كانت أسبق من غيرهم، وإثبات ذلك لا يستدعي كثير مشقة ومزيد عناء، ولكن الشيء الذي أدى إلى أن يتأخر ذكرهم في السبق: هو أن فقههم وحديثهم مأخوذ عن أهل البيت الذين أمر الرسول ﷺ باتباعهم، ولا يخفى على المتتبع المنصف معارضة الأمويين والعباسيين لإظهار ذكر آل محمد ﷺ ونشر مآثرهم، فإنهم يرون إظهار ذلك إضعافاً لحكمهم ومعارضاً لسياستهم، وقد منع الأمويون جميع المحدثين أن يذكروا علياً وأهل بيته بخير ولا يروون حديثهم، فكان العلماء إذا أرادوا أن يحدثوا عن علي كنوه بأبي زينب أو أشاروا إليه بإشارة متفق عليها.

ولما جاء الدور العباسي ونشطت الحركة العلمية وظهرت النزعة إلى التدوين وقاموا في تشجيعها، كانت الشيعة في طليعة السابقين لذلك، ولكن سياسة الدولة وتطور الزمن أدى إلى أن يصبح المتتبع لآثار آل محمد في الأحكام ـ بل المعروف بحبهم ـ متهماً بجرم لا يغفر، حتى امتحن كثير من العلماء.

فهذا الإمام الشافعي على ما هو فيه من اتضاح الحالة والنزعة اتهم في التشيع، وحوسب على ذلك، لأنه كان يظهر حب عليّ ويعتمد على أحكامه في أحكام البغاة على الإمام.

وكذلك الحاكم صاحب المستدرك لأنه كان يطعن على معاوية وروى في كتابه حديث الموالاة وغيره.

والحافظ الدارقطني اتهم بالتشيع لأنه كان يحفظ ديوان السيد الحميري.

والحافظ النسائي عذب بل مات من أثر ذلك لأنه حدث بفضائل عليّ ولم يحدث بفضائل معاوية، إلى عدد كثير من العلماء المعذبين باتهامهم في التشيع، وليسوا كذلك. وإنما الشيء الذي أوجب اتهامهم هو: إما رواية مناقب أهل البيت، أو استنباط مسألة من الأحكام من طريقتهم وتلك حقيقة ملموسة، أبرزها التأريخ في مرآته

بأجلى صورة وأوضح بيان. فلقي أكثر المحدثين محناً. وواجهوا مصاعب. أما الذين أرادوا أن يؤكدوا للسلطة القائمة في زمانهم بأنهم منحرفون عن أهل البيت، فتجنبوا الرواية عنهم، ولم يخرجوا فضائلهم، فكانوا موضع عناية السلطة ومحلاً لثقتها التامة.

هذا ما أردنا بيانه من حركة التأليف عند الشيعة في الصدر الأول بإيجاز، أما نشاط الحركة العلمية فقد بدأ في القرن الثاني، وأشهر الكتب التي ألفت في ذلك: مصنف شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ، ومصنف سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ، ومصنف الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥هـ، وموطأ مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ ، ومسند الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ ، ومختلف الحديث له، والجامع للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ومجموعات من عاصرهم من حفاظ الحديث كالأوزاعي والحميدي.

موطأ مالك:

لا بد وأن نذكر هنا نبذة يسيرة عن موطأ مالك وفاء بالوعد وإتماماً للغرض وقد تقدم أن المنصور لقي مالكاً من قبل في موسم الحج، وفاتحه في كثير من المسائل، واعتذر إليه عما لقي من عامله على المدينة، وأمره أن يدوّن كتاباً يحمل الناس عليه، ليوحد بذلك نظام التشريع ويحمل الناس على الجمود على قول مفت واحد، إلى آخر ما هنالك من أقوال حول تأليف الموطأ، وقد اشترط المنصور عليه أن لا يروي عن علي، فوفى مالك بالشرط، إذ لم يرو عن عليّ عليه السلام في موطأه[1].

وقد نال موطأ مالك شهرة حتى قالوا: إنه لا مثيل له ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز وجل[2].

---

(١) إذا أحصينا ما في الموطأ وجدنا ذكر الإمام عليه السلام، ويبدو أن تنفيذ مالك لشرط المنصور ـ كما هو رأي المالكية ـ تحاشي الإكثار من فتاوى الإمام عليه السلام أدى إلى ذلك. ولذا فإن رواية مالك عن أستاذه الإمام جعفر الصادق عليه السلام في طريقها يرد اسم الإمام علي فمن السلسلة الذهبية التي هي سند أحاديث أهل البيت كما جاءت في حديث الإمام الصادق الذي ذكره الشيخ المفيد في الإرشاد والكليني في الكافي وغيرهما من علمائنا: «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله وحديث رسول الله قول الله».

(٢) مقدمة النص لابن عبد البر ص٩.

ووضعوا عن رسول الله ﷺ منامات في مدحه وأنه قال: ليس بعد كتاب الله عز وجل ولا سنتي في إجماع المسلمين حديث أصح من الموطأ[(١)].

وقالوا: إن النبي سمى الموطأ بهذا الاسم.. إلى غير ذلك.

وقد روي عن مالك أنه قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ.

وكان قد جمع فيه عشرة آلاف حديث ثم هذبه ونقحه فلم يبق من ذلك العدد إلا ألف وسبعمائة حديث وقيل خمسمائة[(٢)] وقيل أقل وأكثر لاختلاف النسخ زيادة ونقصاً وإسناداً وإرسالاً.

واختلفوا في منزلة الموطأ من كتب السنة فمنهم من جعله مقدماً على الصحيحين كابن العربي، وابن عبد البر والسيوطي.

وقال الحافظ ابن حجر: إن كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده، على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع[(*)] وغيرهما.

وجملة ما في الموطأ ١٧٢٠ حديث، المسند منها ٦٠٠، والمرسل ٢٢٨، والموقوف ٦١٣، ومن قول التابعين ٢٨٥. وقد وصلت مراسيله من طرق أخرى بواسطة أصحابه. قال ابن حزم: في الموطأ سبعون حديثاً قد ترك مالك نفسه العمل بها، وفيه أحاديث ضعيفة قد رواها جمهور العلماء[(٣)].

وهكذا نرى العلماء يختلفون في صحة كل ما اشتمل عليه الموطأ، لاختلافهم في قبول المرسل ونحوه، فالمالكية إذ يقبلونه يحكمون بأن كل ما في الموطأ صحيح وغيرهم إذ لا يقبل المرسل إلا بقيود لا يقبلون مرسلاته ولكن بعض المالكية ندب نفسه لوصل ما ليس متصل السند.

وعلى كل حال فكتاب الموطأ يعد من أوائل الكتب التي ألفت في الحديث لا

---

(١) كشف المغطى في فضل الموطأ ص٢.

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ ج١ ص٧.

(*) المرسل من الحديث ما سقط من مسنده الصحابي بأن يرويه التابعي عن الرسول ﷺ مباشرة. والمنقطع ما سقط من أثناء سنده راو أو أكثر مع عدم التوالي فإن كان مع التوالي فذلك المعضل.

(٣) مفتاح السنة للخولي ص٢٤.

أولها. وقد نشره الآخذون عن مالك في الأمصار: كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق، ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وأشهب في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان.

هذه هي أهم الكتب المدونة في القرن الثاني عند السنة، وأما حركة التدوين عند الشيعة في ذلك القرن، فنشاطها مستمر ـ كما تقدم ـ من جميع الوجوه وفي جميع العلوم. وفي القرن الثالث اتجه الناس إلى التدوين بنشاط ملموس، وحركة قوية، واتجه رواة الحديث في جمعه إلى طريقة الافراد إذ كان قبل ذلك ممزوجاً بأقوال الصحابة، وفتاوى التابعين. وأشهر الكتب المؤلفة لأهل السنة هي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وصحيح الترمذي، وسنن ابن ماجة. وهذه هي التي يطلق عليها الصحاح الست، وأقدمها وأهمها صحيح مسلم والبخاري، ويطلق عليهما الصحيحان، وعلى مؤلفيهما الشيخان. وقد وقع الاختلاف في تفضيل أحدهما على الآخر وأيهما أصح وأشد قبولاً. ولنلقِ على كل واحد من أصحاب الصحاح نظرة إجمالية.

صحيح البخاري:

البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن (بردزية) ولد سنة ١٩٤هـ ومات سنة ٢٥٦هـ.

انحدر من سلالة فارسية تدين بالمجوسية وأول من أسلم من أجداده المغيرة على يد اليمان الجعفي، فهو مولى الجعفيين لذلك يقال للبخاري: الجعفي لأنه مولى لهم.

وقد نشأ يتيماً في حجر أمه، ورحل إلى البلدان في طلب الحديث. ووضع كتابه وخطا فيه خطوة جديدة في جمع الحديث، إذ لم يقتصر على رواية بلد واحد كغيره من علماء الحديث. والذي يظهر أن تلك الخطوة أخذها عن علي بن المديني، وذلك أن ابن المديني ألف كتاب العلل، وكان ضنيناً به، فغاب يوماً في بعض ضياعه، فجاء البخاري إلى بعض بني علي بن المديني، وراغبه بالمال على أن يرى الكتاب يوماً واحداً، فأعطاه له، فدفعه إلى النساخ فكتبوه وردوه إليه، ولما علم ابن

المديني اغتم لذلك حتى مات بعد يسير، واستغنى البخاري عنه بذلك الكتاب، وخرج إلى خراسان، ووضع كتابه الصحيح[1].

وبهذا يتضح أنه سلك طريقة ابن المديني وأخذ كتابه واستغنى فيه، ولا حاجة إلى إطالة القول حول البخاري وصحيحه. فقد أشرنا لذلك في الجزء الأول، وذكرنا المؤاخذات من قبل المفكرين عليه كانتقادهم عليه ١٢٠ حديثاً، وفي الواقع أنها أكثر، وفي تقطيع الأحاديث وغير ذلك، وعدة ما في البخاري من الأحاديث بالمكرر ٧٣٩٧، سوى المعلقات والمتابعات والموقوفات[2] وبغير المكرر من المتون الموصولة ٢٦٠٢ ومن المتون المعلقة المرفوعة التي لم يصلها في موضع آخر منه ١٥٩. وقد تقدم الكلام حول البخاري في الجزء الأول من هذا الكتاب.

صحيح مسلم:

وهو يعد في الدرجة كصحيح البخاري. والناس يختلفون في تقديم صحيح البخاري أو مسلم. وكان مسلم من تلامذة البخاري وشاركه في مشايخه.

ومسلم هو ابن الحجاج القشيري النيسابوري ولد سنة ٢٠٤هـ وتوفي سنة٢٦١هـ، وكان مخلصاً للبخاري، وحصل بينهما فتور آخر أيامه، دعاه لأن ينتقد من طريقة البخاري في مقدمة صحيحه.

وقد انتقده الحفاظ بكثرة روايته عن الضعفاء، وقد طعنوا في مائة وستين رجلاً من رواة مسلم.

ومع ذلك فقد فضلوا كتاب مسلم على كتاب البخاري من وجوه:

١ ـ إن مسلماً ألف كتابه في بلده بحضور أصوله في حياة شيوخه، من أن يتحرز في الألفاظ، ويتحرى في السياق.

٢ ـ إن مسلماً لا يقطع الحديث كما يفعل البخاري، لأنه يروي جزءاً من

---

(١) تهذيب التهذيب ج٩ ص٥٤.

(٢) المعلق من الحديث: ما كان في سنده سقط من أوله. كأن يقول البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ: كذا. والموقوف: ما انتهى سنده إلى الصحابي فلم يذكر فيه قولاً للنبي ﷺ، ولا فعلاً، ولا وصفاً، ولا تقريراً. والمقطوع: ما انتهى سنده إلى من دون الصحابي كالتابعي، وقد يطلق على المقطوع (موقوف على فلان) أي الذي انتهى إليه السند.

الحديث بسند، وقد يروي جزءاً آخر بسند آخر في مكان آخر، فيصعب على المحدث معرفة الحديث كاملاً بأسانيده المختلفة.

٣ ـ إن البخاري قد يقع له الغلط في أهل الشام وذلك أنه أخذ كتبهم، فربما ذكر الواحد منهم بكنيته. ويذكره في موضع آخر باسمه، ويتوهم أنهما اثنان. أما مسلم فقلمايقع له الغلط[١] وقال الطيبني: كان من شيوخي من يفضل كتاب مسلم على كتاب البخاري[٢].

وقال أبو علي النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث.

وعدد أحاديثه ٧٣٧٥ بالمكرر، ومن غير المكرر نحو أربعة آلاف، وقد أجمع الحفاظ على أن البخاري ومسلم لم يستوعبا تخريج الأحاديث الصحاح.

صحيح الترمذي:

والترمذي هو: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتولد سنة ٢٠٠هـ والمتوفى سنة ٢٧١هـ في أواخر رجب.

سمع الحديث من البخاري، وغيره من علماء بخارى، وكان ضريراً وألف الصحيح، وعرضه على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، وسلك طريقة في تأليفه لم يسكلها من قبله، وهو بيانه حول درجة الحديث، وبين الصحيح منه والمعلول، كما ميز المعمول به من المتروك، وساق اختلاف العلماء وكتابه جليل القدر كثير الفائدة قليل التكرار. وقد فضله بعض الحفاظ على صحيح البخاري.

والترمذي لم يتجنب الرواية عن النواصب والخوارج، كغيره من أصحاب الصحاح، وقد أحصينا عليه جملة منهم، كما أن في رجاله كثير من الضعفاء والكذابين منهم:

سيف بن عمر البرجمي، ويقال السعدي، ويقال الضبيعي صاحب كتاب الردة والفتوح، كان يروي الموضوعات عن الإثبات، وأنه يضع الحديث واتهم بالزندقة.

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص١٠٢.

(٢) شرح ألفية العراقي ج١ ص١٦.

والشيء الذي يلفت النظر أن هذا الرجل وهو سيف بن عمر قد اعتمد عليه ابن جرير في تاريخه، فروى عنه بواسطة مكاتبات السري عن شعيب عنه في الحوادث الواقعة من سنة ١١هـ إلى سنة ٣٧هـ. وقد ضبط تلك الموضوعات والأكاذيب ـ التي توالت عليها السنين، ولم تنلها يد التنقيب ـ شيخنا فقيه التاريخ العلامة الأميني[1]. فقد ذكر الطبري في ج٢ من تاريخه في حوادث سنة ١١، ٦٧ حديثاً عن سيف بن عمر، وأخرج في ج٤ في حوادث سنة ١٢، ٤٢٧ حديثاً عن سيف بن عمر، وأورد في ج٤ في حوادث سنة ٢٣، ٢٠٧ أحاديث ـ المجموع ٧٠١.

وهذه القائمة العظيمة ـ التي ذكرها الطبري عن هؤلاء المجاهيل والكذابين ـ لها تمام الأثر الفعال في تمويه الحقيقة، ومخالفة الحق، وإثارة نار البغضاء بين المسلمين. ولو وسع المجال لأعطينا أنموذجاً منها. وقد سار على ذلك المؤرخون من بعد الطبري، كابن الأثير، وابن كثير، وابن خلدون بدون تحقيق، بل تقليداً للطبري.

كما أن أسطورة ابن سبأ كانت من اختراع سيف بن عمر، رواها الطبري وأخذها عنه المؤرخون وسنشير لذلك في الجزء السادس إن شاء الله.

صحيح أبي داود:

أبو داود هو: سليمان بن الأشعث بن إسحٰق بن بشير الأزدي المتولد سنة ٢٠٢هـ والمتوفى سنة ٢٧٥هـ كان من الحفاظ، وعده الشيرازي في الطبقات من تلامذة أحمد وصحيحه المعروف بسنن أبي داود. قال فيه الخطابي: كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين مثله، وقد رزق القبول من كافة الناس، فصار حكماً بين فرق الناس، وعليه معول أهل العراق، وأهل مصر، وبلاد الشام وكثير من أقطار الأرض.

صحيح النسائي:

النسائي هو: أحمد بن شعيب بن علي أبو عبد الرحمن النسائي المتولد سنة ٢١٥هـ والمتوفى سنة ٣٠٣هـ، كان من أئمة الحديث، وقد برع في علم الحديث

---

(١) الغدير ج٨ ص٣٣٦.

وتفرد بالمعرفة وعلو الإسناد، وكان أحفظ من مسلم بن الحجاج، وسننه أقل السنن ضعفاً. قاله: الذهبي.

ولما دخل دمشق فسئل عن معاوية وفضائله، فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس، حتى يفضل. وفي رواية: ما أعرف له فضيلة إلا «لا أشبع الله بطنك» - وهو دعاء النبي ﷺ عليه فصار يأكل ولا يشبع - فما زالوا يدافعونه في خصيتيه، وداسوه، ثم حمل إلى مكة فتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة. وقال الحافظ أبو نعيم: لما داسوه بدمشق، مات بسبب ذلك الدوس فهو مقتول[1].

وكان قد صنف كتاب الخصائص في فضل علي بن أبي طالب وأهل البيت عليهم السلام، وأكثر روايته فيه عن الإمام أحمد بن حنبل، وكذلك صنف كتاب مسند الإمام علي عليه السلام، ويرمزون له في التخريج بـ (عس) ولخصائص علي عليه السلام بـ (ص).

صحيح ابن ماجة:

ابن ماجة هو: محمد بن يزيد بن ماجة أبو عبد الله القزويني المتولد سنة ٢٠٩هـ والمتوفى سنة ٢٧٣هـ ارتحل إلى العراق، والكوفة، ومكة والشام وألف كتابه في الحديث، وهو أحد الصحاح الست. وقدموا كتابه على موطأ مالك.

هذه هي الصحاح الست التي يخصها أهل السنة بالثقة على اختلاف في درجاتها في الصحة. على أن هناك كتب توصف بالصحة، لأن الصحيحين لم يستوعبا جميع الأخبار الصحيحة، فألفت كتب توصف بالصحاح: كصحيح إسحق بن خزيمة وصحيح أبي حاتم المتوفى سنة ٣٥٤هـ، وصحيح أبي عوانة، وغيرها. وقد استدرك الحاكم النيسابوري على الصحيحين أحاديث خرجها على شرطهما[*].

---

(١) الشذرات ج٢ ص٢٤٠.

(*) اصطلح الرجاليون على الإشارة لمن خرج له البخاري بـ (خ) ومسلم (م) والترمذي (ت) والنسائي (س) وأبو داود (د) وابن ماجة (ق) ولمن خرج حديثه أصحاب الصحاح الست (ع) وإذا اجتمع الأربعة (عـ) فإذا وجدت العلامة في أول الترجمة، عرف أنه حديث صاحب الترجمة رواه من أشير إليه.

عود على بدء:

ذكرنا سبق أهل البيت عليهم السلام إلى تدوين العلم، واهتمام الشيعة في حفظ آثارهم، والانتهال من عذب غديرهم، إذ وجدوا سنداً قوياً ومرعى خصيباً تتصل سلسلة أحاديثهم بصاحب الرسالة، وهي السلسلة المعروفة بالذهبية، أو هي الترياق المجرب، فكان الإمام الصادق عليه السلام عندما يحدث بإسناده، يقول: حدثني أبي محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله. وهناك تتصل هذه السلسلة بالوحي الإلهي، وكذا كل واحد من الأئمة عليهم السلام.

وكان الإمام الصادق عليه السلام إذا أرسل حديثه، فهو اتصال بهذه السلسلة، لأنه كان يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث أبيه، وحديث أبيه حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

وفي هذا يقول الشاعر:

ووالِ أناساً ذكرهم وحديثهم روى جدُّنا عن جبرئيل عن الباري

ولكن بمزيد الأسف أن البخاري قد تحرج وتضايق من تخريج حديث الإمام الصادق عليه السلام، وتوسع وتساهل لقبول رواية عمران بن حطان وداود بن الحصين، وأضرابهم من الفسقة الذين عرفوا بالعداء لله ولرسوله وكذلك خرج لرجال دخلوا في الإسلام للدس والتضليل، ولم يخرج حديث الإمام الصادق عليه السلام، لأن ظروفه اقتضت ذلك ونزعته ضربت بسلطانها عليه.

وقد عظم على خصوم الشيعة اختصاصهم بذلك التراث العظيم. ولم يستطع أحد أن يطعن في حديث أهل البيت عليهم السلام فالتجأوا إلى الطعن على حملة آثارهم ورواة حديثهم، كما لا ينكر تدخل عملاء السلطة والدخلاء في الإسلام أن يدخلوا على أهل البيت عليهم السلام مما لم يحدثوا به ويتقولوا عليهم ما لم يقولوه، يقصدون بذلك تنفير الناس واشمئزاز النفوس من تلك الروايات المدسوسة، لذلك كانت الشيعة

(١) الروضة للحافظ أبي علي النيسابوري، وروى في ص١٧٥ عن الإمام الباقر عليه السلام كذلك عندما سئل عن إرساله الحديث فقال: حديثي حديث أبي. . .

أشد تنقية للرجال وتصحيحاً للأحاديث، فألفوا بذلك كتباً، وتشددوا في قبول الرواية، وهذا بحث واسع لا يمكننا أن نخوضه الآن.

الكتب الأربعة:

وخلاصة القول: أن الشيعة احتفظت بآثار أهل البيت عليهم السلام وسبقت جميع الأمة إلى تدوين علومهم، فكانت حركة التدوين عندهم قوية في جميع العلوم والفنون.

أما ما يختص بالفقه والحديث، فكانت أصولهم أربعمائة أصل، وهي التي سمعها تلامذة الأئمة منهم، وجمعت هذه الأصول في الكتب الأربعة وهي:

١ ـ الكافي:

للشيخ المجدد محمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٩هـ وقد ألفه في عشرين سنة، وقد دخل إلى الأقطار الإسلامية في طلب الحديث، وجمع فيه من الأحاديث ستة عشر ألفاً ومائة وتسعين حديثاً، وهو أكثر من مجموع ما في الصحاح الست. وليس هذا محل التوسع في البحث عن الكافي ومكانته.

٢ ـ من لا يحضره الفقيه:

للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الشهير بالصدوق المتوفى سنة ٣٨١هـ بالري، ورد بغداد سنة ٣٥٥هـ وحدث بها، وكان جليلاً حافظاً للأحاديث بصيراً بالرجال ناقداً للأخبار كثير التأليف، وقد أحصيت مؤلفاته فكانت ٣٠٠ كتاباً على اختلاف العلوم، وأهمها كتابه الجليل «من لا يحضره الفقيه» الذي هو من أهم كتب الحديث عند الشيعة وعدد أحاديثه ٥٩٦٣ حديثاً.

٣ ـ ٤ ـ التهذيب والاستبصار:

لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي المولود سنة ٣٨٥هـ والمتوفى سنة ٤٦٠هـ في النجف الأشرف.

هاجر إلى بغداد سنة ٤٠٨هـ في أيام علم الشيعة ورئيسها محمد بن محمد بن النعمان الشهير بالشيخ المفيد فاتصل به واستفاد منه، ولما توفي سنة ٤١٣هـ اتصل من بعده بعلم الهدى السيد المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ، وبعد وفاة السيد استقل الشيخ

بالزعامة، وكانت كمدرسة جامعة تأوي إليها طلاب العلوم، فكان عدد تلامذته ثلاثمائة من الشيعة وكثير من سائر المذاهب، لذلك ترجم له السبكي في طبقات الشافعية[1] وغيره، لأنه كان يملي على أهل المذاهب ويجيبهم عن مسائلهم لغزارة علمه وسعة اطلاعه، فكان يفيد الأمة بعلومه، وأملى كتابه المعروف بالأمالي على تلامذته، يقع في مجلدين وكانت له منزلة علمية عظيمة في بغداد، وقد جعل له خليفة عصره ـ القائم بأمر الله عبد الله بن القادر ـ كرسي الكلام والإفادة، لأنه فاق أقرانه فتعين هو لتلك المنزلة، ولما هبت عواصف الطائفية واشتد النزاع بين المذاهب وبين السنة والشيعة بالأخص، وكان الموقف في الوقت على أشد ما يكون من الخصام، ولم تزل الدولة تنضم لجانب السنة فأحرقت كتب الشيخ بأمر طغر لبك أول ملوك السلاجقة، قال السبكي: وقد أحرقت كتبه ـ أي الشيخ الطوسي ـ عدة نوب بمحضر من الناس. وكذلك أمر السلجوقي بإحراق مكتبة الشيعة في محلة الكرخ، وكانت تحتوي على أكثر من عشرة آلاف مجلد من أهم الكتب كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة كما ذكر ذلك ياقوت الحموي وغيره. وفي سنة ٤٤٨هـ نهبت داره وكبست وأخذت كتبه والكرسي الذي كان يجلس عليه للكلام فأحرقت[2] وهاجر الشيخ إلى النجف فقصده طلاب العلم، فأصبحت دار هجرة لانتهال العلم ولم تزل حركتها بنشاط من ذلك العهد تقصدها وفود العالم الإسلامي لأخذ العلم والانتماء لمعهدها على ممر الدهور.

فالشيخ الطوسي يعد في الواقع هو واضع الحجر الأساسي لمعهد النجف الأشرف، وقبره فيها قريباً من المرقد المطهر.

وله مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسين مؤلفاً في شتى العلوم. وأهمها التهذيب والاستبصار في الحديث.

والحديث عن حياة شيخ الطائفة واسع، وناحية البحث عنها لا يمكننا الإلمام بها في هذا العرض الموجز.

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ج٣ ص٥١ وترجم له في الشذرات وفي البداية والنهاية لابن كثير وابن الجوزي في المنتظم وغيرهم.

(٢) المنتظم لابن الجوزي ج٨ ص١٧٣ و١٧٩.

أما التهذيب: فهو أحد الكتب الأربعة والمجاميع القديمة المعول عليها، وقد أنهيت أبوابه إلى ٣٩٠ باباً واحصيت أحاديثه في١٣٥٩٠، وتوجد منه نسخة بخط المؤلف.

وأما الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار فهو أحد الكتب الأربعة التي عليها مدار استنباط الأحكام الشرعية عند فقهاء الشيعة، وقد أحصيت أحاديثه فكانت ٥٥١١ حديثاً.

والغرض أن تلك الأصول والكتب التي ألفت في زمن الأئمة قد جمعت في هذه الكتب الأربعة وفي غيرها كالوافي للمحقق الكاشاني، والبحار للعلامة المجلسي، والوسائل للمحدث محمد بن الحسن الحر العاملي، ومستدرك الوسائل للشيخ النوري. وعلى هذا سارت حركة التدوين عند الشيعة باتباع آثار أهل البيت نزولاً على حكم الأدلة والبراهين وتعبداً بسنة النبي ﷺ.

وقد احتفظت الشيعة باستقلالها الروحي ولم ترتبط يوماً ما بسلطة لتشجيع حركتها العلمية أو تأييد مبدأها، بل كان ولاة الأمر يحاولون اكتساح ما لهذه الطائفة من أثر، ولكن الشيعة وقفوا أمام ذلك السيل الجارف، واستطاعوا تركيز مبادئهم بقواهم الروحية، ونبغ منهم المحدثون والمفسرون واللغويون والنسابون والشعراء والأدباء مما يطول ذكره، وكان لهم الأثر العظيم في جميع فنون الإسلام وعلومه، وقد أحصينا من علماء الحديث الذين خرج حديثهم أصحاب الصحاح عدداً لا يقل عن مائتين وخمسين رجلاً أكثرهم حفاظ حديث وأعلام في الفقه، وقد اعترف الكل لهم بذلك. إذاً فالتدوين على ما قررناه لم يكن السبق لأحد سوى أهل البيت وشيعتهم، وليس لمالك ولا لغيره.

مسألة التفضيل

مالك ومسألة التفضيل:

سبقت الإشارة إلى رأي مالك في التفضيل وأنه يذهب إلى مساواة الإمام علي عليه السلام لسائر الناس، وأن أفضل الأمة الخلفاء الثلاثة، ثم يقف ويقول: هنا

يتساوى الناس. فهو لا يرى لعلي عليه السلام ميزة عن سائر الصحابة كما يروى عنه، ومن الغريب ذلك، فهو يكاد ينفرد بهذا الرأي، ويمتاز عن سائر علماء الأمة بهذه النزعة، كما أنه لم يرو عن علي في موطأه.

ولم تكن مسألة التفضيل من الأمور الاعتيادية التي يمر عليها المؤرخ أو الكاتب فلا يعطيها مزيداً من البيان، فهي من أعظم المشاكل التي حلت في المجتمع الإسلامي، ولها تمام الأثر في تطور الأوضاع وإثارة نار البغضاء بين المسلمين، لتدخل السياسة فيها، وما تدخلت السياسة في أمر إلا وجعلته عرضة للاضطراب والتقلب، ولو انفردت القضية عن ذلك لما كان من ورائها ما كان، ولسارت على ضوء العلم والواقع، وتجردت عن الظنون والاتهامات وانتهت بالدليل والإقناع، ولكنها في الواقع كانت بالإرهاب والقهر والعسف، أو الإغراء والخداع السياسي.

وقد حاولنا بقدر الإمكان أن لا نتعرض للأمور التي أثارتها أغراض المتعطشين على السيادة، لتفريق كلمة الأمة، وإيجاد مشاكل يحاولون من وراء إيجادها حل مشاكلهم السياسية، لأنهم يريدون أن يرغموا الأمة على اتباع آرائهم، وتصديق أقوالهم، ولا يكون هناك رأي إلا ما تراه الدولة، فإذا وقف المفكرون إلى جانب غير جانبها فهناك الخطر العظيم من الاضطهاد والاتهام بالعقائد الفاسدة، لأن الاستقلال في الرأي لم يكن من صالح الدولة، وهم يحاولون توجيه الناس إلى حيث اتجهوا. فالمخالف لذلك يتهم بالخروج على الدولة مرة، وعن الدين أخرى.

ومن أعظم المسائل في تاريخ الإسلام هي مسألة التفضيل، فقد جعلوا عنوان الرفض هو: محبة الإمام علي عليه السلام وتفضيله على الصحابة. يقول ابن حجر في مقدمة فتح الباري: والتشيع محبة علي وتقديمه على الصحابة فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غال في تشيعه ويطلق عليه رافضي، وإلا فشيعي.

فالشيعي في عرفهم هو محبة علي عليه السلام. أما إذا فضله على أبي بكر وعمر فهو الرافضي. وناهيك ما وراء كلمة الرافضي من خطر عظيم، فقد اتخذته السلطة ذريعة للقضاء على كثير من رجال الأمة الذين لم ينحازوا إليها، ولم يتعاونوا معها ويقفوا إلى جانبها، واتخذت هناك الخدع والمكائد التي تؤدي إلى سفك الدماء، وقام المتمرغون على أعتاب الظلمة، والمتنعمون في خيرات الدولة بما يجلب قلوب ولاة الأمر إليهم في إلصاق العيوب بالشيعة، وذمهم والطعن في عقائدهم، حتى قال

بعضهم: آكل ذبيحة اليهودي ولا آكل ذبيحة الرافضي[1] وقد عرفت أن الرافضي هو الذي يفضل علياً عليه السلام على أبي بكر وعمر فقط.

ولم تكن المسألة في حقيقتها مسألة حب لأبي بكر وعمر أو تفضيل بموجب الفضائل والمناقب وإنما كانت قضية أوجدتها في الأصل القبلية التي حقدت على الإمام علي ووجدت فيه واترها الذي جندل فرسانها وأهلك شجعانها فكيف تترك له الأولية والصدارة في الدين والقيادة. ثم توطى الحكام من الأمويين وغيرهم فأكدوا ذلك المنهج لأن المنزع واحد والغاية لا تختلف، وقد جرّت القضية على الأمة الويلات.

الاختلاف في التفضيل:

والغرض أن الأمة اختلفت في مسألة التفضيل على ثلاثة أقوال:

١ ـ تفضيل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على جميع الصحابة، وهو رأي أهل البيت وجميع الصحابة والتابعين ـ إلا القليل النادر ـ وجميع الهاشميين وأهل الحجاز وأهل الكوفة، ووافقهم كثير من المتأخرين من علماء السنة تصريحاً أو تلميحاً، نظراً للظروف التي قضت على المفكرين من رجال الأمة بمجاراتها.

٢ ـ إن علي بن أبي طالب أفضل الأمة بعد الشيخين.

٣ ـ إنه أفضلهم بعد الثلاثة وعليه رأي الجمهور من السنة.

قال القرطبي: والمسألة اجتهادية ومستندها، إن هؤلاء الأربعة اختارهم الله لخلافة نبيه وإقامة دينه، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم بالخلافة.

ونحن هنا لا نريد أن نتعرض للأقوال ونقضها، ولا نريد أن نتساءل عن صحة الدليل، ولا نناقش رواية ابن عمر التي أصبحت هي دليل الإجماع ومستند التفضيل وهي قاصرة عن الدلالة، فلنترك ابن عمر ورأيه ـ أوروايته ـ ولننظر إلى رأي مالك بن أنس في جعل علي عليه السلام كسائر الناس، لا يمتاز عنهم بصفة ولا بفضيلة، وهو رأي انفرد به ولا يوافقه أحد من علماء الإسلام.

روى مصعب وهو تلميذ مالك أنه سأل مالكاً: من أفضل الناس بعد

(١) الصارم المسلول لابن تيمية ص٥٧٥.

رسول الله ﷺ؟ فقال مالك: أبو بكر. قال: ثم من؟ قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. قال: ثم من؟ قال: هنا وقف الناس.

ودخل مالك على المنصور فسأله المنصور: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال مالك: أبو بكر وعمر. فقال المنصور أصبت وهذا رأي أمير المؤمنين - يعني نفسه.

وفي رواية ابن وهب: أنه قال - أي مالك -: أفضل الناس أبو بكر وعمر، ثم أمسك. فقال له ابن وهب: ثم من؟ فأمسك فقال له: إني امرىء أقتدي بك في ديني فقال مالك: عثمان. فهو في هذا يتردد في ضم عثمان إلى الشيخين ولذلك أمسك ولم يذكر علياً عليه السلام بعدهم. وسأله أحد العلويين في مجلس درسه: من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ قال مالك: أبو بكر. قال: ثم من؟ قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. فقال العلوي: لا جالستك أبداً.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: إن مالكاً رضي الله عنه يخالف بذلك إمامين آخرين عاصراه: أحدهما أسن منه ومات قبله، وثانيهما أصغر منه وهو تلميذه الشافعي، فإن أبا حنيفة لا يعد علياً كسائر الناس بل يرفعه إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء، ويقدمه في الترتيب على عثمان رضي الله عنه، والشافعي يعلن محبته لعليّ ويحكم على خصومه بأنهم بغاة، ويعتمد في استنباط أحكام البغاة على ما كان يفعله علي رضي الله عنه مع الخارجين عليه والذين بغوا على حكمه، حتى لقد اتهم بأنه شيعي وحوسب على ذلك وتعرض للتلف ولكنه كان يذكر مناقب أبي بكر ويفضله على عليّ، ولذلك لم يكن رافضياً(*).

ولماذا رأى مالك عدم ذكر عليّ في مقام المفضلين، بل كان يقف بعد عثمان ويقول: هنا يتساوى الناس. فما كان عليّ كسائر الناس، فهل جهل ذلك الإمام الجليل مناقبه وسابقته في الإسلام، وجهاده وحسن بلائه ومقامه من النبي صلى الله عليه وسلم؟

لا نظنه أنه جهل شيئاً من ذلك أو أنكره، إنما هو يعرف علياً رضي الله عنه

(*) هذه نقطة يجب الالتفات إليها وهي أن حب علي عليه السلام والاعتماد على قوله في استنباط الأحكام من علامات التشيع ويوجب الاتهام وإجراء الحساب، وقد افتخر الشافعي بهذه التهمة.

وقد بسطنا القول في ذلك بكتابنا (الشيعة في قفص الاتهام) وهناك نقطة أخرى، وهي أن من يفضل علياً على أبي بكر فهو رافضي، وناهيك ما للرافضي من صفات أقلها الخروج عن الدين.

ويعرف مقامه، ولكنه عندما يجيب عن المسألة كان يجيب فيما يتعلق بالخلافة والخلفاء، ولعل لجوابه بعض المبررات وإن كنا لا نوافقه في جوابه (ثم يذكر المبررات لقول مالك) إلى أن يقول: وهو في هذا القول يضرب على نغمة معاوية والأمويين.

ومهما تكن المبررات التي تدفع إلى ذلك الحكم على سيف الإسلام أخي رسول الله، وزوج ابنته، ومن كانت منه الذرية الطيبة النبوية عليهم السلام فإن ذلك الحكم يدل على نزعة أموية(١).

العباسيون والتفضيل:

ونحن نقول: إنها نزعة عباسية أيضاً، وذلك لأن العباسيين سرت إليهم نزعة العداء لآل محمد ﷺ: بصورة أشد مما كانت عند الأمويين، فإنهم بعد أن كانوا يتفقون مع العلويين في الرأي ويتحدون معهم في الغضب على أعمال أمية، وينتصرون للعلويين ويخلصون لهم الود، ويذهبون لأحقية عليّ بالخلافة وأفضليته على جميع الأمة، وكان المنصور نفسه يحدث بفضائل علي، وهو أحد رواة حديث الغدير(٢)، وكانوا يأمرون الدعاة بأول ما يظهرونه للناس هو فضل عليّ وأولاده، فلما استجابت الأمصار لهم، وتم زوال الدولة الأموية، وتربعوا على دست الحكم حصل ذلك التبدل السريع، والتحول الغريب، فأظهروا العداء لأهل البيت، وساموهم الخسف والهوان، وأصبح العلويون يُطاردون من قبل الدولة، ولا ذنب لهم إلا أنهم المرشحون للخلافة، وإليهم تتجه الأنظار، وعليهم تحوم الآمال، فهم أهل الزعامة الدينية والحق الشرعي، وقد سبق الاعتراف من العباسيين لهم بذلك. حقاً أنه تحول غريب ولكنه الملك، والملك عقيم.

دخل المهدي على أبي عون بن عبد الملك يعوده وطلب إليه أن يعرض عليه حوائجه، فقال أبو عون: يا أمير المؤمنين حاجتي أن ترضى عن عبد الله بن أبي عون وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه. وكان عبد الله يرى رأي الشيعة في الخلافة، وأن علياً أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ، فقال المهدي: يا أبا عون إنه على غير الطريق، وعلى خلاف رأينا.

---

(١) مالك لأبي زهرة ص٦٩ ـ ٧١.

(٢) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٤٤.

فقال أبو عون: هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمرونا حتى نطيعكم.

وعرضت على المهدي وصية القاسم بن مجاشع التميمي وقد جعل المهدي وصيه وكان قد كتب فيها:

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام. ثم كتب: والقاسم بن مجاشع يشهد بذلك ويشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن علي بن أبي طالب وصي رسول الله ﷺ ووارث الإمامة من بعده. فلما بلغ المهدي إلى هذا الموضع رمى بالوصية ولم ينظر فيها[1] وعظم عليه ذلك، لأنه مخالف لرأي الدولة الجديد. ومن هنا نعرف الفرق بين الماضي والحاضر بذلك التحول السريع والتطور الغريب، كل ذلك بغضاً للعلويين وكراهة لموافقتهم في الرأي، حتى أصبحوا يعظمون الأمويين ويعاقبون من ينتقصهم.

فقد عذب يحيى بن كثير ـ وهو أحد الأعلام ـ وضرب وحلق رأسه لأنه انتقص الأمويين[2] وكثير من أمثال ابن كثير، كما عظم على العباسيين ثبوت الخلافة لعليّ بغضاً للعلويين.

قال أبو معاوية: دخلت على هرون الرشيد، فقال لي: لقد هممت أن من يثبت خلافة علي فعلت به وفعلت. قال: فسكت فقال لي: تكلم، قلت: إن أذنت لي تكلمت. قال: تكلم.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قالت تيم: منا خليفة رسول الله. وقالت عدي: منا خليفة خليفة رسول الله. وقالت بنو أمية: منا خليفة الخلفاء. فأين حظكم فيها يا بني هاشم؟ والله ما حظكم فيها إلا ابن أبي طالب[3].

ثم تطورت الحالة واشتد الأمر من قبل العباسيين حتى أدى الأمر إلى قتل من عرف بحب علي وأهل بيته، واتخذوا لذلك شتى الطرق ومختلف الأساليب، وأقرب طريق سلكوه للوصول إلى إيقاع الفتك بمن عرف بحب أهل البيت هو مسألة تفضيل

---

(١) الطبري ج٦ ص٣٩٧ حوادث ١٦٩هـ.

(٢) تذكرة الحفاظ ج١ ص١٢١.

(٣) تاريخ الخطيب ج٥ ص٢٤٤.

علي عليه السلام على الخلفاء، وجعلوا قاعدة مطردة عندهم وهي: أن من فضل علياً عليه السلام فقد طعن على الصحابة، ومن طعن على الصحابة طعن على رسول الله، ومن طعن على رسول الله صلى الله عليه وآله فهو زنديق.

وجعلوا مدح علي وذكره بما خصه الله ورسوله من الفضائل التي امتاز بها على غيره طعناً على الصحابة، وموهوا على السذج بذلك، وانخدع أكثر الناس واستجاب آخرون تحت الضغط، ولقي المفكرون من الأمة عناءً، وواجهوا مشاكل عند محاولتهم الوقوف أمام تيار ذلك السيل الجارف، فساير أكثرهم تلك الأوضاع، وجارى تلك الظروف دفاعاً عن النفس وطمعاً في الحياة، فخضعوا لرأي الدولة وتجنبوا الحديث عن أهل البيت وفضائلهم ودرج الناس على ذلك، ونظروا إلى الشيعة بعيون مزورة وقلوب تتقد بنار العداء، فكانوا لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت، وإذا رأوا أحداً يذكرهم بخير رموه بالرفض، واتهموه بالزندقة، وقد أعطانا الإمام الشافعي صورة عن تلك الأوضاع بقوله:

إذا في مجلس ذكروا علياً ... وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزوا يا قوم عنه ... فهذا من حديث الرافضية
برئت إلى المهيمن من أناس ... يرون الرفض حب الفاطمية

وستلمس عزيزي القارىء أن حقيقة تكالب الحكام على مقاومة آثار أهل البيت ومناوأة محبيهم كانت من أعظم الجنايات التي تركت آثارها على حركة العلم وحالت دون الاستفادة من نتاج الأفكار بحريّة، كما أنها من أكثر الظواهر إثارة للألم لتمكن الحكام من توجيه الآراء وانقياد الناس إليهم في ذلك دون وعي، فلذلك سيكون فشل سياسة الحكام تجاه أهل البيت من محاور البحث الأساسية.

تطور الخلاف في مسألة التفضيل:

ويصف لنا ابن قتيبة[1] أوضاع عصره ونصبهم العداء لأهل البيت وبغضهم للشيعة في تفضيلهم علياً عليه السلام على جميع الأمة بقوله:

---

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة المروزي المتوفى سنة ٢٧٦هـ كان من علماء الحديث في القرن الثالث وله مؤلفات كثيرة، يعرف بالدينوري لأنه أقام بالدينور قاضياً مدة من الزمن فنسب إليها وقد وصفه ابن حجر بالانحراف عن أهل البيت.

وقد رأيت هؤلاء أيضاً كلما رأوا غلو الرافضة في حب علي وتقديمه، قابلوا ذلك أيضاً بالغلو في تأخير علي كرم الله وجهه، وبخسه حقه، ولحنوا في القول وإن لم يصرحوا إلى ظلمه، ولم يوجبوا له اسم الخلافة لاختلاف الناس عليه، وأوجبوها ليزيد بن معاوية لاجتماع الناس عليه، واتهموا من ذكره بخير وتحامى كثير من المحدثين أن يحدثوا بفضائله كرم الله وجهه، أو يظهروا ما يجب له وكل تلك الأحاديث لها مخارج صحاح. . وساووا بينه في الفضل وبين أهل الشورى، لأن عمر لو تبين له فضله لقدمه عليهم وأهملوا من ذكره أو روى حديثاً من فضائله حتى تحامى كثير من المحدثين أن يتحدثوا بها، وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية، كأنهم لا يريدونها وإنما يريدونه، فإن قال قائل: «أخو رسول الله ﷺ عليّ وأبو سبطيه الحسن والحسين وأصحاب الكساء عليّ وفاطمة والحسن والحسين» تمعرت الوجوه، وتنكرت العيون، وظهرت حسائك الصدور. وإن ذكر ذاكر قول النبي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه» و: «أنت مني بمنزلة هٰرون من موسى» وأشباه هذا، التمسوا لتلك الأحاديث المخارج لينتقصوه ويبخسوه حقه بغضاً منهم للرافضة وإلزاماً لعلي عليه السلام ما لا يلزمه. وهذا هو الجهل بعينه، والسلامة من ذلك أن لا تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضه وأن لا تحتمل ضغناً عليه بجناية غيره فإن فعلت فأنت جاهل مفرط في بغضه، وأن تعرف مكانه من الرسول بالتربية والأخوة والصهر، والصبر في مجاهدة أعدائه، وبذل مهجته في الحروب بين يديه مع مكانه في العلم، والدين، والبأس، والفضل. . . إلى أن يقول:

ولو كان إكرامك لرسول الله ﷺ هو الذي دعاك إلى محبة من نازع علياً وحاربه ولعنه إذ صحب رسول الله ﷺ - يعني معاوية - لأنت بذلك في عليّ أولى لسابقته وفضله وخاصيته وقرابته والدناوة التي جعلها الله بينه وبين رسوله عند المباهلة حين قال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] فدعا حسناً وحسيناً «ونساءنا ونساءكم» فدعا فاطمة عليها السلام «وأنفسنا وأنفسكم» فدعا علياً عليه السلام، ومن أراد الله تبصيره بصره، ومن أراد به غير ذلك حيره[١].

هكذا تأثر ذلك المجتمع وتكيف بمزاج الدولة، ولم تجر الأمور طبقاً للحقيقة،

(١) الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص٤٧ ـ ٤٩.

مما أدى إلى مخالفة الواقع والابتعاد عن الحق، كما وصف ذلك ابن قتيبة وغيره، ولا يسع المجال لبسط القول في ذكر تلك الأوضاع السياسية التي سار عليها ولاة الأمر، وحملوا الناس على الخضوع لها، ولا يستغرب أن تكون نزعة الدولة نزعة عداء لأهل البيت، ولكن الغريب أن يتأثر فيها بعض من عرف بالفهم، ووسم بالعلم، ولم يمنح عيناً تدرك الحقائق.

ولا نريد أن نرجع إلى الماضي، ونقف عند تلك المحاولات التي اتخذها خصوم أهل البيت في العصر الأموي ليمحوا بذلك ذكرهم، فقد مر كثير من الإشارة إليها، كما أنا لا نريد أن نحاسب ابن عمر(*) على روايته في التفضيل التي كانت سبباً لإيجاد تلك المشاكل، ولا نريد أن ندرس نفسيته لنعرف الأسباب التي حملته على ذلك القول، وادعائه أمراً لم يكن له أهلية الاتصاف به لحداثة سنه وخمول ذكره.

أخرج البخاري من طريق ابن عمر أنه قال: كنا نخير بين الناس فنخير أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم[1].

وفيه أيضاً بلفظ: كنا في زمن النبي لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر ثم عثمان[2].

وهذه الرواية هي عمدة ما تمسك به القوم في بحث الإمامة، تقليداً لابن عمر، وجرياً مع الظروف وسياسة الزمن، فنحن لا نريد أن نطيل الوقوف على هذه الرواية، ولا نريد أن نناقشها سنداً ودلالة، وقد كفانا البحاثة الكبير العلامة الأميني نقاشها في

(*) كان من رأي عمر في ابنه أنه لا يحسن أن يطلق امرأته، ولم يره أهلاً لشيء، وليس فيما (وقلته العبادة) شهادة له بل من جملة ما كان يبعد عمر عن ابنه، وقد كان ظن الوالد بابنه صحيحاً حتى أنه بمرور الأيام لم ينصر الحق ولم يميز بين إمام الهدى وقائد البغاة فامتنع عن بيعة الإمام علي وطرق على الحجاج بابه ليلاً ليبايع عبد الملك كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام فأخرج الحجاج رجله من الفراش وقال لابن عمر: أصفق بيدك عليها!!

ويبدو أن الحجاج علم حقيقة ابن عمر مما اشتهر عنه بعد موقعة الحرّة أو مأساتها ودعوته إلى عدم خلع الطاعة ونكث البيعة فيما خلع الناس يزيد بن معاوية. راجع صحيح مسلم ج٢ ص١٢١. ومسند أحمد ج٢ ص٤٨.

(١) البخاري ج٥ ص٢٤٢.

(٢) البخاري ج٥ ص٢٦٢.

غديره. وبين نفسية ابن عمر ومؤهلاته ومقدار تحمله لذلك، وقيمة ما يروى عنه في نظر حفاظ الحديث وعلماء الأمة[1].

ولا نعود إلى مسألة مالك بن أنس عن الأسباب التي حملته على رأي المساواة، ولعلها لا تخفى على المتتبع، فهو لا يجهل مكانة عليّ عليه السلام في الإسلام من البداية إلى النهاية، كما أنه لا يجهل اختصاص عليّ عليه السلام بمزيد فضل وعظيم شرف لم يشاركه أحد في ذلك. وقد امتاز على غيره من أصحاب محمد ﷺ، الذين كانوا على جانب عظيم من الصفات الفاضلة والمزايا الجليلة: من الإيمان والصلاح والورع والزهد والجهاد...

فقد كان أسبقهم إلى الإسلام، وأقربهم من رسول الله ﷺ، وأشدهم جهاداً في الحرب، وأعلمهم بالدين، وأعظمهم منزلة، فهو أقضى الأمة، وأعلم الصحابة، وأول من أسلم، وقد آزر النبي ﷺ في نشر الدعوة وغير ذلك.

وامتاز عنهم بأنه أخو رسول الله ﷺ ومنه الذرية الطيبة. وهو نفس محمد ﷺ وهو مطهر من الرجس، ومنزه عن المعائب، يمثل النبي ﷺ في زهده وورعه وخلقه وهديه وفعله وعلمه وفضله. وهو ورسول الله ركيضا رحم، ورضيعا لبن واحد، إلى غير ذلك من المميزات التي اختص بها الإمام عليّ عليه السلام، وامتاز بها على غيره، فذاته صيغت من فضيلة. ولا يمكننا أن نعطي صورة واقعية عن شخصية الإمام بدراسة حياته بجميع نواحي عظمتها فليس ذلك بمستطاع.

فضل عليّ وامتيازه وخصاله:

رأينا كيف تدخلت السياسة في تشويه الحقائق، وحمل الناس على مخالفة الواقع بأشكال وألوان مختلفة، مما أفسد على المجتمع ما صلح، وقامت بسبب ذلك فتن وحروب، وليس ذلك بعجيب، ولكن الأعجب منه حمل من خالف تلك الأوضاع الشاذة، ووقف لجانب الحقيقة على الشذوذ والانحراف، وأن يصبح غرضاً ترشقه سهام التهم بدون تثبت في الحكم. وتدبر في الأمر. وقد كانت مسألة التفضيل من أهم الأسباب التي تذرع بها ولاة الأمر للقضاء على المفكرين من الأمة، وجعلتهم

(١) الغدير ج١٠ ص٣ - ٧٣.

عرضة لخطر غضب الرأي العام من الذين أغواهم شيطان السياسة الفاسدة ليلقوا بأنفسهم في مهاوي الهلكة، حتى أصبح الأمر بأشد ما يكون من الخطر، والتجأ الكثير إلى الدفاع عن النفس بالمجاراة للرأي العام الذي تكيف بسياسة الدولة بدون تدبر وتفكير.

ولو تجردت المسألة عن ذلك التدخل لما كان أي شيء من ذلك، لأن الحقيقة في جانب، وما يذهبون إليه في جانب آخر. وإنما هي أقوال يرددونها اتباعاً لقائليها بدون تحقيق من صحتها.

وإذا أردنا أن نسألهم عن التطبيق العملي يصعب عليهم ذلك، ولا يجدون للإجابة عن طريق المنطق الصحيح سبيلاً.

وأقل قدر من التجرد من دواعي التقليد وعوامل التعصب يساعد في اكتشاف جذور إظهار هذه المسألة ودفع الإمام عن مكانته الدينية والتاريخية، فقريش التي أوصل سيف علي الحزن إلى قلوبها وفجعها بصناديد الكفر لا تريد ذلك والأمويون الذين استخذوا تحت أقدام جند النبي عام الفتح وأظهروا الإسلام تفاقم حقدها الجاهلي وعظم شركها ولم تكتف بسنة شتم الإمام بل امتدت أياديها القذرة إلى العترة الطاهرة قتلاً وسبياً وتشريداً.

وإذا استكشفنا حقيقة الأمر على ضوء الأحاديث النبوية والآيات القرآنية الواردة في فضل علي عليه السلام واختصاصه بمزايا لم يشاركه فيها أحد، لوجدنا تلك الآراء التي ذهبوا إليها في مسألة التفضيل، بعيدة عن الصواب، إذ هي تعطينا صورة واضحة، لمقام علي عليه السلام وأنه أفضل الأمة لأنها حقائق ملموسة لا يمكن لأحد أن يحيد عنها، فهي تقضي بأفضليته على جميع الأمة.

كيف؟ وقد ملأ سمع الدنيا نداء رسول الله ﷺ يوم غدير خم: **«من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه»** وقد رواه جمع من الصحابة يربو عددهم على المائة[١].

وفي حديث الثقلين كفاية للدلالة على علو شأن علي وفضله واختصاصه دون

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١.

سائر الصحابة باقترانه مع القرآن في وجوب الاتباع، فهو مع القرآن والقرآن معه[1].

إذاً كيف يصح لقائل أن يقول بمساواته لسائر الناس، وعدم امتيازه عنهم بمؤهلات الفضل؟ ولا غرابة في ذلك بعد أن وقفنا على الأسباب التي أدت إلى هذا الرأي.

ألعليّ يقال هذا؟ وهو نفس محمد بنص الوحي الإلهي بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] ودعا النبي علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال: اللهم هؤلاء أهلي[2].

فهو بنص القرآن الكريم نفس النبي ﷺ، ولو وجد ﷺ نظيراً لعلي عليه السلام لضمه إليه، كما صنع في الحسن والحسين، إذاً ليس في أمته من يكون نفسه غير علي. وقد احتج علي يوم الشورى بذلك، فقال لهم: أنشدكم الله هل أحد أقرب إلى رسول الله ﷺ في الرحم مني. ومن جعله ﷺ نفسه، وابناه أبناءه، ونساءه نساءه غيري؟ قالوا: اللهم لا، وقد أصبح ذلك من المقرر عند الناس والمشهور بينهم، ولم يستطع أحد إنكاره.

ولو أصغي إلى قواعد البيان وأدلة اللسان لوضح الحق وبان الهدى ولم تصرف كلمة في محكم التنزيل وسفر الإعجاز عن دلالتها ومعناها كذلك قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] فلو كان المقصود بنفسه هنا النبي ﷺ لاقتضى البيان تعبيراً يتسق مع الإعجاز والبلاغة بضمير دال عليه ﷺ، ولكن التصريح بالنهي عن التخلف عن وصي رسول الله الإمام علي وهو نفسه كان سبب ذلك. ومن حق كتّاب اليوم أن يروا أن بعض مناقب أمير المؤمنين الإمام علي لم تأخذ مكانها من الاهتمام، أو أن الشيعة لم يجعلوا بعضها بدرجة اهتمامهم في المناقب الأخرى كقضية مبيت الإمام في فراش النبي الأعظم التي تعد من أعظم فضائل الإمام وأقوى دلائل الاختصاص بالنبي محمد ﷺ والقرب

(١) نفس المصدر ج١.

(٢) صحيح مسلم ج٥ ص١٧٦ من شرح النووي، وتفسير الرازي ج٢ ص٤٨٨.

منه[1]. ولكن ما يؤلم الشيعة ويحز في نفوس الآخرين من غير الشيعة الذين أبوا الاستسلام والتقليد أن تكون قضية إبراز فضل الإمام علي وإظهار مناقبه من اهتمامات الشيعة فحسب، والنظرة البسيطة توضح بجلاء من هو الإمام علي وما دوره في نصرة الإسلام وحماية نبيه ﷺ.

قام رجل في مجلس ابن عائشة، فقال: يا أبا عبد الرحمن من أفضل أصحاب رسول الله؟ فقال: أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن وطلحة والزبير.

فقال الرجل: فأين علي بن أبي طالب؟ فقال ابن عائشة: تستفتيني عن أصحابه أم عن نفسه؟.

فقال الرجل: عن أصحابه.

قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] فكيف يكون أصحابه مثل نفسه؟[2].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: ما تقول في التفضيل؟

قال: في الخلافة أبو بكر، وعمر، وعثمان.

فقلت: فعليّ؟

قال: يا بنيّ علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد[3].

وكان النبي في مختلف الظروف وشتى المناسبات قد بيّن للناس أن علياً كنفسه، وهو منه بمنزلة رأسه من بدنه[4].

كقوله ﷺ: لينتهين بنو ربيعة، أو لأبعثن إليهم رجلاً كنفسي[5].

وكقوله ﷺ: عليّ مني وأنا منه. ويحدث ابن عباس عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال: يا أم سلمة علي مني وأنا من علي، لحمه من لحمي ودمه من دمي وهو مني بمنزلة هٰرون من موسى.

---

(١) انظر: الإمام علي بن أبي طالب لعبد الكريم الخطيب. ط بيروت.

(٢) البيهقي في المحاسن ج١ ص٣٩.

(٣) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلي ج٢ ص١٢٠.

(٤) انظر الخطيب البغدادي ج٧ ص٤١.

(٥) الرياض النضرة ص٦٤.

وكان ﷺ يظهر للملأ في المواقف العامة فضل علي ﷺ وأنه كنفسه ففي الحج أشركه في نحر البدن: وهي الهدي.

قال عرفة بن الحرث الكندي: شهدت رسول الله ﷺ وأتى بالبدن فقال: «ادعوا لي أبا حسن فدعي له علي عليه السلام فقال ﷺ: خذ بأسفل الحربة. وأخذ ﷺ بأعلاها ثم طعنا بها البدن فلما فرغ ركب وأردف علياً عليه السلام»[1].

وكان ﷺ يأمر علياً بأن يقوم على البدن وأن يتولى تقسيم لحومها بنفسه[2].

وكان ﷺ يخطب الناس في الحج على ناقته الشهباء وعلي عليه السلام يعبر عنه (أي يفهمها الناس).

رواه ابن حجر في المواهب[3] وأخرجه أبو داود، والنسائي والبغوي والطبراني.

والنبي الأعظم يرعى علياً كما لو كان يرعى نفسه في جميع الأحوال، أخرج الطبراني عن إبراهيم بن رفاعة بن رافع بن مالك بن عجلان الأنصاري عن أبيه عن جده قال: أقبلنا يوم بدر تفقدنا رسول الله ﷺ فنادت الرفاق بعضها بعضاً أفيكم رسول الله ﷺ؟ فوقفوا حتى جاء رسول الله ﷺ معه علي بن أبي طالب، فقالوا: يا رسول الله: فقدناك، فقال: «إن أبا حسن وجد مغصاً في بطنه فتخلفت عليه»[4].

وكثير من هذا الباب الذي يدل بالبرهان القاطع أنه عليه السلام نفس محمد ﷺ وشريكه في مميزاته وصفاته، إلا ما علم بالضرورة استثناؤه.

وكان أصحاب النبي ﷺ يعرفون علياً بتلك المنزلة، ولا يجهلون ذلك الاختصاص.

أخرج الطبري عن ابن عباس: أنه مر بمجلس من مجالس قريش وهم يسبون علياً، فقال لقائده: أما سمعت هؤلاء ما يقولون؟ قال: سبوا علياً. قال: فردني إليهم فرده. فقال: أيكم الساب لرسول الله ﷺ؟ قالوا: سبحان الله من سب رسول الله فقد كفر، فقال: أيكم الساب لعلي؟ قالوا: أما هذا فقد كان. قال ابن عباس: فأنا أشهد

---

(١) شرح المواهب اللدنية ج٨ ص١٩٤.
(٢) البخاري ج٢ ص٢٠١.
(٣) شرح المواهب ج٨ ص٢٠٥.
(٤) المعجم الكبير ج٥ ص٤٦.

بالله لسمعت رسول الله ﷺ يقول: من سب علياً فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله، ومن سب الله عز وجل أكبه الله على منخره[1].

وأخرج النسائي عن عبد اللّه الجدلي. قال: دخلت على أم سلمة، فقالت لي: أيسب رسول الله فيكم؟ قلت: سبحان الله أو معاذ الله. قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سب علياً فقد سبني[2].

فامتياز شخصية علي عليه السلام اقتضت أن يختص بأمور لا يشاركه فيها أحد لذلك كان أخاً للنبي من دون أصحابه يوم آخى النبي بينهم وأخذ بيد علي فقال: هذا أخي[3]. وقالت عائشة لرجل من بني ضبة ـ وهو آخذ بخطام جملها ـ: أين ترى علي بن أبي طالب؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء. قالت: ما أشبهه بأخيه.

قال الضبي: ومن أخوه؟ قالت: رسول الله ﷺ. فقال الضبي: فلا أراني أقاتل رجلاً هو أخو رسول الله ﷺ فنبذ خطام جملها ومال إلى علي عليه السلام[4].

وقد أراد الله إظهار فضل علي، وأراد أن يعرف الناس منزلته فخصصه بتلك المزايا التي لا يمكن حصرها، وكيف تجهل مكانة عليّ وعظيم منزلته فيساوى مع سائر الناس؟ وقد جعل النبي ﷺ حب علي علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق بقوله ﷺ: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق» وقال علي عليه السلام: «إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق»[5].

وكان أصحاب النبي ﷺ يعرفون إيمان الإنسان بحبه لعلي، ونفاقه ببغضه له، متخذين من قوله قاعدة مطردة على الدوام في معرفة الناس، وتمييز الأشخاص. قال أبو سعيد الخدري: كنا نحن معشر الأنصار نعرف المنافقين ببغضهم علي بن أبي طالب[6] وقال جابر بن عبد اللّه الأنصاري: ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم علياً[7].

---

(١) الرياض النضرة ج٢ ص٢١٩.
(٢) الخصائص ص٢٤ والرياض النضرة ج٢ ص٢١٩.
(٣) مصابيح السنة ج٢ ص٢٠٣.
(٤) المحاسن والمساوي للبيهقي ج١ ص٣٥.
(٥) صحيح مسلم شرح النووي ج١ ص٦٤ وخصائص النسائي ص٢٧ وذخائر العقبى ص٩١ والاستيعاب بهامش الإصابة ج٣ ص٣٧ وشرح الشفاء للخفاجي ج٣ ص٤٥٧.
(٦) صحيح الترمذي ج٢ ص٢٩٩. (٧) الذخائر ص٩١ والاستيعاب ج٣ ص٤٦.

فبنص هذا الحديث الشريف أن محب علي مؤمن، ومبغضه منافق. والمنافق هو المؤمن بلسانه والكافر بجنانه و«إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار».

قال أحمد بن منصور: كنا عند أحمد بن حنبل، فقال رجل: يا أبا عبد الله ما تقول في هذا الحديث الذي يروي أن علياً قال: «**أنا قسيم النار**»؟

فقال أحمد: وما تنكرون من ذا؟! أليس روينا أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «**لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق**» قلنا قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: وأين المنافق؟ قلنا: في النار. قال أحمد: فعليّ قسيم النار(١).

وقد امتاز علي عليه السلام على جميع أصحاب محمد ﷺ بأنه نظيره في الأداء والتبليغ بقوله ﷺ: لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني. وذلك لما أرسل أبا بكر ليقرأ براءة على أهل مكة، أوحى الله إليه أن يرجعه، ويرسل علياً ليقوم مقام النبي في الأداء، فانصرف أبو بكر كثيباً، فقال لرسول الله ﷺ: أنزل فيّ شيء؟؟ قال: لا، إلا أني أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتي. وفي رواية سعد: لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني. وفي رواية أبي هريرة: لا يبلغ غيري أو رجل مني(٢).

فالإرسال كان بوحي من الله تعالى. وقد رشحه لمقام التبليغ، ووسمه النبي بذلك الوسام، وميزه بتلك الصفة. كما ميزه ﷺ بأنه باب مدينة علمه لما بينهما من المشاركة والمجانسة بقوله: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**»(٣).

قال الهيتمي: رواه جماعة وصححه الحاكم، وحسنه الحافظان العلائي وابن حجر. وقال ابن حجر في شرح الهمزية في تعداد فضائل علي عليه السلام: ومنها العلوم التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**» وفي رواية من أراد العلم فليأت الباب. وفي أخرى عند الترمذي: «**أنا دار الحكمة وعليّ بابها**». وفي أخرى عند ابن عدي: «**عليّ باب علمي**»(٤). وقال أيضاً: مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى اختص علياً من العلوم ما تقصر عنه العبارات كقوله ﷺ: «**أقضاكم علي**» وهو

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٣٢٠.

(٢) الرياض النضرة ج٢ ص٢٢٨ والخصائص ص٢٠.

(٣) لهذا الحديث طرق معتبرة صحيحة، وقد أفرد له الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق المغربي مؤلفاً يقع في ١٠٢ صفحة ذكر فيه طرق الحديث وتعرض لجميع الأقوال فيه.

(٤) شرح الهمزية ص٣٠٢.

حديث لا نزاع فيه. وقوله ﷺ: «أنا دار الحكمة وعليّ بابها» وقوله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»[1].

واختص علي عليه السلام بأنه أحب الخلق إليه ﷺ وأقربهم منه، ووجوب محبته ولزوم اتباعه، وأنه مع الحق والحق معه، وكان يحل له ما يحل لرسول الله ﷺ يوم أمر النبي ﷺ بسد أبواب أصحابه إلا باب علي. أخرج النسائي من طريق زيد بن أرقم: كان لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة في المسجد، فقال رسول الله ﷺ: سدوا الأبواب إلا باب علي عليه السلام فتكلم بذلك الناس، فقال رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب عليّ. وقال فيه قائلكم: والله ما سددته ولا فتحته، ولكني أمرت فاتبعته[2]. أخرجه أحمد والطبراني وما ذلك إلا لميزة في شخص علي اقتضت هذا التخصيص.

وقد أكبر عمر بن الخطاب هذه الخصلة، وكانت من أهم الخصال التي كان يتمناها، فكان يقول: لقد أوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال لئن يكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حمر النعم: زوجه رسول الله ﷺ ابنته، وسد الأبواب إلا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم حنين[3].

وكم تمنى عمر بن الخطاب بعض ما اختص به علي عليه السلام، كما يحدثنا عن نفسه في عدة موارد: كيوم خيبر، يوم قال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ[4]، وكان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن[5].

ولم يشهد المسلمون شخصية برزت في ذلك العصر بمؤهلات الفضل والكمال كشخصية الإمام علي بن أبي طالب، فلا يستطيع أي أحد أن يتطاول إليها في الشرف. وقد بذل النبي عنايته في تربيته، وكان يغمره بالحب ويأمر بحبه، ويوجه الناس إلى

---

(١) انظر ص٣٠٣.
(٢) الخصائص ص١٣. وشرح المواهب اللدنية ج٨ ص٢٥٣.
(٣) ذخائر العقبى ص٧٧. ومسند أبي يعلى ص٢٥١.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم، والترمذي في الصحيح، والنسائي في الخصائص، وغيرهم.
(٥) الإصابة ج٢ ص٥٠٩.

معرفة مميزاته، وصفات الكمال التي اجتمعت فيه، فكان يعلن للملأ بقوله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هٰرون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي» «علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي» أخرجه الترمذي في صحيحه[1] والنسائي في خصائصه[2] وغيرهما.

«ما تريدون من علي إن علياً مني وأنا من علي وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة»[3].

وأخرجه الترمذي بلفظه: «ما تريدون من علي ما تريدون من علي ما تريدون من علي إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن من بعدي»[4].

«من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن آذى علياً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[5].

«يا علي طوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك»[6].

وروى عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله، ومن أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل، أخرجه الطبراني في الكبير وابن عساكر في تاريخه[7].

وأخرج أحمد رواية الإمام علي عليه السلام: والله إنه مما عهد إليّ رسول الله ﷺ أنه لا يبغضني إلا منافق ولا يحبني إلا مؤمن[8].

ونكتفي بهذا البيان الذي لم نقصد به التوسع والإحاطة لتعذر ذلك، ولكنها إشارة موجزة من حيث الارتباط في الموضوع، كما وأنا لم نتعرض لذكر الآيات الواردة في فضل علي عليه السلام مما أجمع المفسرون على أنها نزلت فيه، وقد أفرد

(١) الترمذي ج١٣ ص١٦٩.
(٢) الخصائص ص٢٠.
(٣) الإصابة لابن حجر ج٢ ص٥٠٩.
(٤) صحيح الترمذي ج١٣ ص١٦٥.
(٥) الاستيعاب ج٣ ص٣٧ بهامش الإصابة.
(٦) الرياض النضرة ٢ ص٢٨٥.
(٧) كنز العمال ص١٤٥ ج٦.
(٨) مسند أحمد ج١ ص٨٤.

علماء الإسلام ـ في فضائله ومناقبه التي اختص بها وامتاز عن سائر الصحابة ـ مؤلفات كثيرة، عدا ما أودع في مضامين الكتب التي لا تحصى. وأفرد الحافظ أبو نعيم الأصفهاني كتاباً في بيان ما نزل من القرآن في علي، وله كتاب الخصائص أيضاً. وألف النسائي والإمام أحمد وعبد الرحمن السكري وغيرهم كتباً في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام التي اختص بها دون سائر الصحابة، وعسى أن تتاح لي الفرصة إلى العودة في البحث عن حياة الإمام علي بن أبي طالب، لنقتبس من حياته نظرة واسعة.

ونكتفي هنا بهذه النظرة الخاطفة عن بقية مميزاته وصفاته التي يعجز أي أحد عن الإحاطة بها، وإعطائها حقها من البيان، فإن لشخصيته منزلة مرموقة، وما رسمت ريشة التاريخ في صفحة الوجود كصورته بعد صاحب الرسالة.

أقوال الصحابة في عليّ:

ولا بد لنا ونحن في معرض البحث عن مسألة التفضيل أو مشكلته، من الرجوع لأقوال الصحابة ولمعرفة ما لمسوه من الحقائق في شخصية الإمام علي عليه السلام وامتيازه بتلك الصفات التي اختص بها من بين الأمة. ولنا بذكر أقوال البعض كفاية عن الإحاطة بأقوال الجميع.

لما بويع علي وعادت الخلافة إليه بعد أن تخطته زماناً، قام خطباء الصحابة في مجلس البيعة، وتكلموا بما يحق لهم أن يتكلموا فيه: منهم ثابت بن قيس قال(١):

والله يا أمير المؤمنين لئن تقدموك في الولاية فما تقدموك في الدين، ولئن كانوا سبقوك إليها أمس لقد لحقتهم اليوم، وكنت لا يخفى موضعك، ولا تجهل مكانتك، يحتاجون إليك فيما لا يعلمون، وما احتجت إلى أحد مع علمك.

وقام خزيمة ذو الشهادتين فقال: يا أمير المؤمنين ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك، ولا كان المنقلب إلا إليك، ولو صدقنا أنفسنا فيك لأنت أقدم الناس إيماناً، وأعلم الناس بالله، وأولى المؤمنين برسول الله، لك ما لهم وليس لهم ما لك.

---

(١) ثابت بن قيس بن الحطيم بن عدي الأنصاري، توفي في خلافة معاوية شهد مع النبي ﷺ وقعة أحد وما بعده من المشاهد، واستعمله علي عليه السلام على المدائن وشهد معه حروبه، وقد نسب بعض المؤرخين هذه الكلمة لثابت بن شماس الأنصاري خطيب الأنصار، وهو اشتباه؛ لأن الشماس قتل يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر.

وقام صعصعة بن صوحان فقال: والله يا أمير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زانتك، ورفعتها وما رفعتك، ولهي إليك أحوج منك إليها.

وقام مالك بن الحرث فقال: أيها الناس هذا وصي الأوصياء، ووارث علم الأنبياء، العظيم البلاء، الحسن العناء، الذي شهد له كتاب الله بالإيمان، ورسوله بجنة الرضوان، من كملت فيه الفضائل، ولم يشك في سابقته وعلمه وفضله الأوائل ولا الأواخر.

وقام عقبة بن عمر فقال: من له يوم كيوم العقبة، وبيعة كبيعة الرضوان والإمام الأهدى الذي لا يخاف جوره. والعالم الذي لا يخاف جهله[١].

وتتابع الخطباء والشعراء في ذلك اليوم، وبما لا يتسع المجال لذكره ولا يمكن الإحاطة بجميع أقوالهم في عليّ بشتى المناسبات، ومختلف المقامات. وعلى الإجمال، فإن أصحاب محمد ﷺ كانوا يعترفون لعلي بالفضل الذي لا يتطاول إليه أحد، ويرجعون إليه في مهماتهم، ويحدثون بفضله، وعلو منزلته.

فهذا أبو بكر كان يكثر النظر إلى وجه علي، فقالت له عائشة: يا أبة إنك لتديم النظر إلى وجه علي، فقال: يا بنيه سمعت رسول الله ﷺ يقول: النظر إلى وجه عليّ عبادة. أخرجه ابن السمان في الموافقة. وأخرج أبو الحسن الحربي مثله عن عبد الله بن مسعود، والأبهري عن عمرو بن العاص مثله. واشتهرت عن أبي بكر أحاديث كثيرة في فضله كما اشتهر عنه رجوعه إليه في أهم المسائل.

وهذا الخليفة الثاني كان يعترف بعلم علي وأفضليته. وجاءت عنه أقوال كثيرة في ذلك: منها أنه قال لرجل: لا تذكر علياً إلا بخير فإنك إن تنقصه آذيت صاحب هذا القبر في قبره ـ يعني رسول الله ﷺ ـ خرجه أحمد في المناقب وابن السمان في الموافقة[٢].

وقال: أقضانا عليّ. أخرجه الحافظ السلفي[٣] وفي لفظ ابن عبد البر أنه قال: عليّ أقضانا. أخرجه عن ابن عباس[٤].

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٥٥.
(٢) الرياض النضرة ٢٢٠ ج٢.
(٣) الذخائر ص٨٣.
(٤) الاستيعاب ج٣ ص٣٩.

وقال سعيد بن المسيب: كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن.

وقال في المجنونة التي أمر عمر برجمها، وفي التي وضعت لستة أشهر فأراد عمر رجمها فقال له علي عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا...﴾ [الأحقاف: ١٥]».

وقال في المجنونة: «رفع القلم عن المجنون... الحديث» فكان عمر يقول: لولا عليّ لهلك عمر.

وقال أذينة العبدي: أتيت عمر بن الخطاب، فسألته من أين أعتمر؟ فقال: إئت عليّ بن أبي طالب فاسأله. وقال له: ما أجد لك إلا ما قال علي عليه السلام[1] وأقواله في علي كثيرة منها:

قوله: لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر.

وقوله: اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب.

وقوله: اللهم لا تنزل بي شديدة، إلا وأبو الحسن إلى جنبي.

وقوله: كاد يهلك ابن الخطاب، لولا علي بن أبي طالب.

وقوله: عجزت النساء أن تلدن مثل علي بن أبي طالب.

وقوله: ردوا قول عمر إلى علي عليه السلام، لولا علي لهلك عمر.

وقوله: يا ابن أبي طالب، فما زلت كاشف كل شبهة، وموضع كل علم.

قال ابن الأثير في أسد الغابة: ولو ذكرنا ما سأله الصحابة به مثل عمر وغيره رضي الله عنهم لأطلنا[2].

وجاء رجل إلى معاوية بن أبي سفيان فسأله عن مسألة، فقال: سل عنها علي بن أبي طالب، فهو أعلم. قال: يا أمير المؤمنين جوابك فيها أحب إليّ من جواب علي. قال: بئس ما قلت. لقد كرهت رجلاً كان رسول الله ﷺ يغزره بالعلم

---

(١) الاستيعاب ج٢ ص٤٣.

(٢) راجع الاستيعاب لابن عبد البر وشرح الهمزية لابن حجر. وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة. والفتح لأحمد بن محمد الصديق. والغدير للأميني تجد هذه الأقوال الواردة عن عمر.

غزاراً ولقد قال له: أنت مني بمنزلة هٰرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وكان عمر إن أشكل عليه شيء أخذه منه. أخرجه أحمد بن حنبل في المناقب(١).

وقال ابن عباس: لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربي وعجمي، صلى مع رسول الله ﷺ وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف. وهو الذي صبر معه يوم فرّ غيره. وهو الذي غسله وأدخله قبره. أخرجه أبو عمر.

ولما حضرته الوفاة، قال: اللهم إني أتقرب إليك بولاية علي بن أبي طالب. خرجه أحمد في المناقب(٢).

وقيل له: أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط(٣).

وقال ابن مسعود: أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب(٤).

وقال سعد بن أبي وقاص ـ عند ما طلب منه معاوية أن يسب علياً ـ: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه، لئن تكون لي واحدة منهم أحبّ إليّ من حمر النعم: سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هٰرون من موسى. . . .**».

وكانت عائشة تقول: علي أعلم الناس بالسنة(٥).

ودخل عليها جابر بن عبد اللّه الأنصاري، فقال لها: ما تقولين في علي فأطرقت رأسها ثم رفعته فقالت:

إذا ما التبر حك على محك ... تبين غشه من غير شك
وفينا الغش والذهب المصفى ... علي بيننا شبه المحك(٦)

وقال معاوية بن أبي سفيان: لما بلغه قتل الإمام علي عليه السلام: لقد ذهب العلم

---

(١) الرياض النضرة ج٢ ص٢٥٧.
(٢) الرياض النضرة ج٢ ص٢٢٧.
(٣) شرح النهج ج٢ ص٦.
(٤) الاستيعاب ج٣ ص٤١.
(٥) الاستيعاب بهامش الإصابة ج٣ ص٤٠.
(٦) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص١٩٣.

والفقه بموت ابن أبي طالب. وسئل عطاء: أكان في أصحاب محمد ﷺ أحد أعلم من علي قال: والله ما أعلمه[1].

إلى كثير مما لا يصعب على المتتبع الوقوف عليه لاستجلاء الحقائق منه. وإظهار ما خفي على كثير من السذج والبسطاء الذين استولت على شعورهم الدعايات الكاذبة والأقوال الفارغة.

وعلى أي حال، فإن مسألة التفضيل لم تقم على سند من العلم والبحث أو التفكير السليم، ولم يكن هناك دليل إقناعي أو برهان قاطع، بل المسألة تعود لآراء ذوي السلطة كما تقدم بيانه. وإن الإجماع المدعى لم يحصل إلا في زمن أحمد بن حنبل في عهد المتوكل[2] وقد كانت بشكل حتمي لا ترجع للواقع من حيث هو، وإذا رجعنا لذلك بدون تحيز وتعصب، بل يترك الأمر وحرية الرأي، ويجري البحث على ضوء الأدلة والدراسات الصحيحة الخالية من نزعة التعصب والهوى، وتدخل السياسة لما كان أي شيء ولم يحصل الاختلاف في أفضلية علي عليه السلام على جميع الأمة، كما عليه السلف وأكثر علماء الإسلام، ولكن التدخل في الآراء والمعتقدات من قبل ولاة الأمر أوجد تلك المشاكل، وسلب الناس حرية الرأي، لذلك أصبح الكثير منهم يتكتم في إبداء رأيه لما وراء ذلك من الخطر، كما تحامى أكثر المحدثين ذكر فضائل علي وأهل بيته، وتركوا الرواية عنهم. ويذكر ابن حجر القول في ذلك: وكان سبب ذلك بغض بني أمية، فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته وكلما أرادوا إخماده وهددوا من حدّث بمناقبه لا يزداد إلا انتشاراً[3].

ويحدثنا الخطيب البغدادي. أن نصر الجهضمي المتوفى سنة ٢٥٠هـ حدث عن النبي ﷺ أنه: أخذ بيد حسن وحسين فقال: **«من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»** فلما حدث بهذا الحديث أمر المتوكل بضربه ألف سوط، فكلمه جعفر بن عبد الواحد وجعل يقول للمتوكل: هذا رجل من أهل السنة ولم يزل به حتى تركه.

---

(١) كتاب ألف باء للبلوي ١ ص٢٢٢.

(٢) الاستيعاب ج٣ ص٥٤.

(٣) الإصابة ج٢ ص٥٩.

قال الخطيب البغدادي: إنما أمر المتوكل بضربه لأنه ظنه رافضياً، فلما علم أنه من أهل السنة تركه[١].

ومن هذا نعرف عظيم الخطر الذي تلاقيه الشيعة أو الروافض، كما يقولون، فقد أصبح في عرف أهل ذلك العصر أن من روى منقبة لعلي وأهل بيته يعد رافضياً، وكم اتهم بذلك من العلماء فأصبحوا عرضة للبلاء، ومحلاً للنقمة، وما أكثر الشواهد على تأثر المجتمع بتلك النزعة السياسية، فلا نستغرب تلك الأقوال التي كان يتخذها أصحابها ضد أهل البيت وشيعتهم وسيلة للنجاة وطريقاً لاستمالة قلوب ولاة الأمر إرضاء لهم، وإن غضب الله عليهم بما يفترون.

خلاصة البحث في مسالة التفضيل:

هذا ما تعلق الغرض ببيانه حول مسألة التفضيل. بعد أن وقفنا على رأي مالك بن أنس وانفراده برأي يبعث على الاستغراب، فلا حاجة لنا في الاستمرار برده ومناقشته بعد معرفة الأسباب التي دعت لذلك[*]، وإلا كيف يتساوى عليّ مع سائر الناس؟ بعد اختصاصه بمزيد فضل وعلو منزلة لا يدانيه أحد. فقد رباه النبي ﷺ في حجره ونشأ في ظلمه، وتغذى تعاليمه منه، ونمت مواهبه في تربيته، فتأدب بآدابه، وتخلق بأخلاقه، واهتدى بهداه، ولازمه طول حياته، وسبق إلى تصديقه في الرسالة قبل كل أحد، ولبى دعوته في مؤازرته يوم نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وفداه بنفسه يوم أزمع كفار قريش على قتله وأمره الله بالهجرة[٢] واختص النبي بمؤاخاته من بين أصحابه يوم آخى بينهم، فأخذ بيد علي وقال: هذا أخي[٣] وذلك على سبيل المشاكلة والمجانسة. وعلي نفس محمد بنص القرآن الكريم، وهو منه بمنزلة رأسه من بدنه. وهو أعلم الأمة وأقضاهم وأقربهم وأشدهم جهاداً.

قال أبان بن عياش: سألت الحسن البصري عن علي عليه السلام فقال ما أقول فيه؟ كانت له السابقة والفضل والعمل، والحكمة والفقه، والرأي والصحبة والنجدة والبلاء

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٢٨٧.

(*) سنلتقي في الجزء الثامن مع مالك في تكملة البحث عن رؤساء المذاهب.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص٩٥.

(٣) كنز العمال والرياض النضرة وتذكرة الخواص وغيرها.

والزهد والقضاء والقربة إلى أن قال: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة عليها السلام: زوجتك خير أمتي، فلو كان في أمته خيراً منه لاستثناه، ولقد آخى رسول الله بين أصحابه، فآخى بين عليّ ونفسه فرسول الله خير الناس نفساً وخيرهم أخاً[1].

وسأله رجل عن علي أيضاً، وكان يظن بالانحراف عنه، فقال: ما أقول في من جمع الخصال الأربع؟ ائتمانه على براءة، وما قاله له في غزوة تبوك، فلو كان غير النبوة شيء يفوته لاستثناه، وقول النبي ﷺ: الثقلان كتاب الله وعترتي، وأنه لم يؤمر عليه أمير قط. وقد أمرت الأمراء على غيره.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: اجتمعت جماعة عند أبي، فخاضوا في الخلافة، فرفع أبي رأسه، وقال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول في علي والخلافة. إن الخلافة لم تزين علياً. بل عليّ زانها.

وعن عبد الله أيضاً، قال: سمعت أبي يقول: ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما ورد لعلي عليه السلام[2].

ولسنا بحاجة إلى ذكر أقوال التابعين وغيرهم من العلماء في مدح عليّ وفضله. ونكتفي بهذه النظرة الخاطفة ولا يمكن التوسع في ذلك.

وقصارى القول في مسألة التفضيل: أنها أهم مسألة وأعظم مشكلة. وقد اتخذها ـ خصوم الشيعة في عصر احتدام النزاع بين الطوائف ـ ذريعة للوقوع فيهم، والطعن في عقائدهم، وأصبحوا بتقديمهم علياً عليه السلام مبتدعة لا تحل الرواية عنهم، وهم ـ في نظر طائفة من السلف ـ كفار لا يجوز الأخذ عنهم[3].

وقالوا: إن من يقدم علياً على عثمان فهو من أهل البدع.

وإنه لمما يثير الأسى والشجون أن يضطر المسلم إلى النقاش وإيراد الأدلة والحجج في هذه المسألة التي تتظافر على تأكيدها الحقائق التاريخية والشرعية ومن المؤلم أن ينساق مسلم إلى ما اختلقته الأغراض وأدّعته القوى التي هدم الإسلام عزّها في الجاهلية ونالها على يد الإمام علي ما نالها من ويلات وليسأل من استسلم

---

(١) ابن أبي حديد ج١ ص٣٦٩.

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص١٦٣.

(٣) الكفاية للخطيب البغدادي ص٤٨.

للاختلاقات والادعاءات ما للغير في أن يحتل علي ما أراده الله له ورسوله؟ ولو أن قريشاً تخلت عن أحقادها ولم تخضع للموتورين منها هل ستكون هذه القضية بمثل هذه الخطورة والمشكلة بمثل هذه الصورة وتصبح من المرتكزات. لكنها الجاهلية التي استسلمت للإسلام لتسلم رؤوسها وكانت أمية تقودها، وبواعث الملك والتسلط لذلك كان قول أحمد بن حنبل وقد سأله ولده عن علي ومعاوية: «اعلم أن علياً كان كثير الأعداء ففتش له أعداؤه شيئاً فلم يجدوا فجاؤا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً منهم له»[1]. وفي قوله ما يصف سنة العداء التي اتبع بها العباسيون أسلافهم من الحكام وجهود زبانيتهم.

هذا ما أردنا بيانه حول مسألة التفضيل التي هي من أهم المشاكل ـ كما قدمنا ـ وبيان رأي مالك بن أنس، وبهذا تنتهي دراستنا لحياة مالك، وبيان آرائه، ولنا عودة للبحث عنه إن شاء الله في الأجزاء القادمة.

وحيث كنا على موعد مع القراء ـ في آخر الجزء الأول ـ بأن نتعرض للبحث عن اتهام الشيعة في الطعن على جميع الصحابة، أو تكفيرهم أجمع (والعياذ بالله).

ولمناسبة الموضوع نتحول لموضوع الشيعة والصحابة وسنتعرض لما أثير حول الشيعة من زوابع التهم وما لفقه خصومهم من ادعاءات كاذبة وأقوال فارغة، ومن الله نطلب التسديد، وهو ولي التوفيق.

---

(١) انظر شرح الهمزية لابن حجر الهيتمي ص٢٣٩.

الشيعة والصحابة

تمهيد:

إن موضوع الحديث عن عقيدة الشيعة في الصحابة هو أهم موضوع نريد أن نتحدث عنه، وكان بودنا التجنب عن ذلك ولكن من شرط هذا الكتاب هو التعرض لكل ما له علاقة بمذهب أهل البيت، وسائر المذاهب فإن هذه المسألة من أهم المسائل التي كانت ذريعة لمعارضة مذهب أهل البيت وانتشاره.

فقد نسبوا إلى الشيعة ما لا يتفق مع الواقع في اعتقادهم حول الصحابة.

وتقولوا عليهم بأنهم (أي الشيعة) يكفرون جميع الصحابة ـ والعياذ بالله ـ وأنهم لا يعتمدون على أحاديثهم، ويطعنون فيهم إلى غير ذلك.

وجعلوا ذلك أساساً لقاعدة بنوا عليها الحكم بالزندقة وحلية إراقة الدماء فقالوا: من طعن في الصحابة فقد طعن على رسول الله ﷺ، ومن طعن على رسول الله فهو زنديق.

وقالوا: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمد فاعلم أنه زنديق، وجعلوا الخوض فيما جرى بين الصحابة وحرية الرأي في مناقشتهم هو انتقاص لهم.

فلندرس هذا الموضوع بدقة، ورجاؤنا معقود على إيلاء هذه الدراسة جل عنايتها، وإعطائها وجهة النظر بصورة خاصة، لأن اتهام الشيعة بسب الصحابة، وتكفيرهم أمر عظيم، ومعضلة شديدة اتخذها خصوم أهل البيت وسيلة للقضاء على مبادئهم وانتشار مذهبهم، عندما بان عجزهم عن اللحوق بهم. وقد تدخل الدخلاء وأعداء الإسلام في اتساع شقة الخلاف بين صفوف الأمة ليجدوا طريقهم لبث آرائهم الفاسدة، حتى أصبح من المقرر في تلك العصور تكفير الشيعة وإبعادهم عن ذلك المجتمع، كل ذلك مبعثه آراء السلطة وأغراضها التي قضت على الأمة بكبت الشعور،

وكم الأفواه وسلب الأفراد حرية الرأي لأن الجمود الفكري هو الذي يخدم مصالحهم، عندما حاولوا ربط العقائد بالدولة وإناطة الآراء بما تراه السلطة لا غير، وفرضوا ربط التعليم بهم، وضربوا سلطانهم على بعض العلماء، ووجهوهم حيث شاءت إرادتهم، إلى غير ذلك من المحاولات التي كانوا يقصدون بها القضاء على أهل البيت ومعارضة مذهبهم ولكن شاء الله أن تذهب تلك المحاولات أدراج الرياح، ويبقى ذكر أهل البيت على ممر الدهور والأعوام، ولم تقف تلك الدعايات الكاذبة والتهم المفتعلة أمام انتشاره، وإن اتهام الشيعة بسب الصحابة وتكفيرهم أمر عظيم حاول خصومهم فيه تشويه سمعتهم، لأنهم خصوم الدولة وأنصار أهل البيت ونحن لا نريد أن نرغم خصوم الشيعة على الاعتراف بالأخطاء التي ارتكبوها في تعبيرهم عنهم بعبارات التهجم التي تشمئز منها النفوس، وتنفر منها الطباع.

ولا نريد منهم أن يغالطوا أنفسهم في مجاراتهم للأوضاع الحاضرة. ولا نريد منهم أن يتركوا الخطأ الذي وقفوا عليه في زاوية الإهمال، ولا إسدال الستر على العيوب التي عثروا عليها في المجتمع الشيعي. والنقص الذي لمسوه. ولكنا نريد منهم أن لا يكذبوا أو يتقولوا. ونريد منهم أن يتحرروا من تقليد أقوام أعمتهم المادة وأخضعتهم السلطة، فحملتهم على الافتعال والأكاذيب.

ونريد منهم أن يصرحوا لنا بلغة العلم والمنطق الصحيح عن الأمور التي استوجبت أن يرتكبوا من الشيعة ما ارتكبوه، وليحاسبوا أنفسهم قبل يوم الحساب، إن أهملوا محاسبة الوجدان والضمير الحر.

ونريد منهم أن يصرحوا لنا عن نقاط الضعف التي وقفوا عليها فيما تدعيه الشيعة فأباحت لهم ذلك التهجم، وليقولوا بكل صراحة فإنا نتقبل قول الحق، ولا يهم الشيعة أقوال أهل التهريج والهوس، ولا يعبأون بأقلام المستأجرين من قبل أعداء الإسلام الذين عظم عليهم انتشاره وأخضعهم بقوة برهانه، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فالتجأوا إلى لغة الدس والخيانة.

ونريد منهم أن يتنبهوا رويداً إلى التباين بين ما يدعونه أو يفتعلونه على الشيعة وبين الواقع. ونريد من الباحث أن يتحرى ببحثه الدقة والتمحيص وأن يتثبت قبل الحكم، وأن يعرف الخطر الذي ينجم من وراء ذلك، فقد بلغ الأمر إلى أشد ما يكون من الخطورة.

ومن المؤلم أن تروج هذه الدعايات المغرضة أو الأكذوبة الكبرى فتصبح من الأمور المسلمة بها لا تحتاج إلى نقاش، والواقع أن اتهام الشيعة كان سياسياً قائماً على مخالفة الواقع وإنكار الحقائق والجهل الفاضح.

الشيعة والصحابة:

نحن أمام مشكلة كبرى، وقف التاريخ أمامها ملجماً واختفت الحقيقة فيها وراء ركام من الادعاءات الكاذبة، والأقوال الفارغة فالتوت الطرق الموصلة إليها. كما أثيرت حولها زوابع من المشاكل والملابسات. ولم تعالج القضية بدراسة علمية ليبدو جوهر المسألة واضحاً وتظهر الحقيقة كما هي.

وعلى أي حال فقد تولع كثير من المؤرخين بذم الشيعة، ونسبت أشياء إليهم بدون تثبت، فهم يكتبون بدون قيد وشرط، ويتقولون بدون وازع ديني أو حاجز وجداني، وقد اتسعت صدور الشيعة لتحمل أقوالهم، بل تقولاتهم كما اتسعت سلة المهملات لقبر شخصياتهم، وترفعوا عن المقابلة بالمثل، وإن أهم تلك التهم هي مسألة الصحابة وتكفيرهم (والعياذ بالله) مما أوجب أن يحكم عليهم بالكفر والخروج عن الإسلام كما يأتي بيانه.

قال السيد شرف الدين: «إن من وقف على رأينا في الصحابة علم أنه أوسط الآراء إذ لم نفرط فيه تفريط الغلاة الذين كفروهم جميعاً، ولا أفرطنا إفراط الجمهور الذين وثقوهم جميعاً، فإن الكاملية ومن كان في الغلو على شاكلتهم قالوا: بكفر الصحابة كافة، وقال أهل السنة بعدالة كل فرد ممن سمع النبي أو رآه من المسلمين مطلقاً، واحتجوا بحديث «كل من دب أو درج منهم أجمعين أكتعين».

أما نحن فإن الصحبة بمجردها وإن كانت عندنا فضيلة جليلة لكنها بما هي من حيث هي غير عاصمة، فالصحابة كغيرهم من الرجال، فيهم العدول وهم عظماؤهم وعلماؤهم، وفيهم البغاة وفيهم أهل الجرائم من المنافقين، وفيهم مجهول الحال، فنحن نحتج بعدولهم ونتولاهم في الدنيا والآخرة. أما البغاة على الوصي وأخي النبي ﷺ وسائر أهل الجرائم كابن هند، وابن النابغة، وابن الزرقاء، وابن عقبة، وابن أرطاة، وأمثالهم فلا كرامة لهم ولا وزن لحديثهم، ومجهول الحال نتوقف فيه حتى نتبين أمره.

هذا رأينا في حملة الحديث من الصحابة والكتاب والسنة بنينا على هذا الرأي كما هو مفصل في مظانه من أصول الفقه. لكن الجمهور بالغوا في تقديس كل من يسمونه صحابياً حتى خرجوا عن الاعتدال، فاحتجوا بالغث منهم والسمين، واقتدوا بكل مسلم سمع من النبي ﷺ أو رآه اقتداءً أعمى، وأنكروا على من يخالفهم في هذا الغلو، وخرجوا في الإنكار على كل حد من الحدود. وما أشد إنكارهم علينا حين يروننا نرد حديث كثير من الصحابة مصرحين بجرحهم أو بكونهم مجهولي الحال عملاً بالواجب الشرعي في تمحيص الحقائق الدينية والبحث عن الصحيح من الآثار النبوية.

وبهذا ظنوا بنا الظنون فاتهمونا بما اتهمونا رجماً بالغيب وتهافتاً على الجهل. ولو ثابت إليهم أحلامهم ورجعوا إلى قواعد العلم لعلموا أن أصالة العدالة في الصحابة مما لا دليل عليها، ولو تدبروا القرآن الحكيم لوجدوه مشحوناً بذكر المنافقين منهم. وحسبك منه سورة التوبة والأحزاب...

مسألة الصحابة:

وعلى أي حال فإن فروض المسألة ثلاثة:

الأول: أن الصحابة كلهم عدول أجمعين، وما صدر منهم يحتمل لهم، وهم مجتهدون. وهذا هو رأي الجمهور من السنة.

الثاني: أن الصحابة كغيرهم من الرجال وفيهم العدول، وفيهم الفساق، فهم يوزنون بأعمالهم، فالمحسن يجازى لإحسانه، والمسيء يؤخذ بإساءته. وهذا رأي الشيعة.

الثالث: أن جميع الصحابة كفار ـ والعياذ بالله ـ وهذا رأي الخارجين عن الإسلام ولا يقوله إلا كافر، وليس من الإسلام في شيء.

هذه ثلاثة فروض للمسألة وهنا لا بد أن نقف ملياً لنفحص هذه الأقوال: أما القول الثالث فباطل بالإجماع ولم يقل به إلا أعداء الإسلام أو الدخلاء فيه. وأما القول الأول وهو أشبه شيء بادعاء العصمة للصحابة، أو سقوط التكاليف عنهم، وهذا شيء لا يقره الإسلام، ولا تشمله تعاليمه.

بقي القول الوسط وهو ما تذهب إليه الشيعة، من اعتبار منازل الصحابة حسب الأعمال، ودرجة الإيمان وذلك:

إن الصحبة شاملة لكل من صحب النبي ﷺ أو رآه أو سمع حديثه، فهي تشمل المؤمن والمنافق، والعادل والفاسق، والبر والفاجر، كما يدل عليه قول النبي ﷺ في غزوة تبوك عندما أخبره جبرئيل بما قاله المنافقون: إن محمداً يخبر بأخبار السماء ولا يعلم الطريق إلى الماء، فشكا ذلك إلى سعد بن عبادة فقال له سعد: إن شئت ضربت أعناقهم. قال ﷺ: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا».

فالصحبة إذن لم تكن بمجردها عاصمة تلبس صاحبها ابراد العدالة، وإنما تختلف منازلهم وتتفاوت درجاتهم بالأعمال.

ولنا في كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ كفاية عن التمحل في الاستدلال على ما نقوله، والآثار شاهدة على ما نذهب إليه، من شمول الصحبة وإن فيهم العدول من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ورسخت أقدامهم في العقيدة، وجرى الإيمان في عروقهم، وأخلصوا لله فكانوا بأعلى درجة من الكمال، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾(١).

وهم المؤمنون: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾(٢).

وقد أمر الله تعالى باتباعهم والاقتداء بهم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣). هؤلاء هم أصحاب محمد ﷺ ومن يستطيع أن يقول فيهم ما لا يرضي الله تعالى ويخالف قوله.

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٩ ـ ١٠٠.

شمول الصحبة ومميزاتها:

كما أن الصحبة تشمل من مردوا على النفاق، والذين ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لرسول الله الأمور، وأظهروا الغدر، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون.

وفيهم من كان يؤذي رسول الله وقد وصفهم الله بقوله:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾(١)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفيهم المخادعون والذين يظهرون الإيمان وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٢)، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(٣).

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(٤).

والحاصل أن الصحبة منزلة عظيمة، وفضيلة جليلة، وهي بعمومها تشمل من امتحن الله قلبه للإيمان، وأخلص لله، وجاهد وناصر، ومن رقي درجة الكمال النفساني. فكان مثالاً لمكارم الأخلاق، وهم يخشون الله ويمتثلون أوامره، كما وصفهم تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٥).

كما أنها لم تشمل من لم يدخل الإيمان قلبه ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾(٦).

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦١.
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٨ و٩.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٤.
(٤) سورة التوبة، الآيات: ٧٥ ـ ٧٧.
(٥) سورة الأنفال، الآيات: ٢ ـ ٣ ـ ٤.
(٦) سورة الفتح، آية: ١١.

ومن الحقيقة، التي تتجلى بسهولة لكل من نزع عن عينيه التعصب وتمرد على تأثير الدعايات وإيحاءات الباطل، أن شروط الصحبة وصفات المؤمن التي نص عليها القرآن وخصائص القرب من الرسول الأعظم لم تكن تشمل كل أفراد عصر الرسالة، فإن المغالاة في التعميم تقوم على غرض لا يختلف في شيء عن الغرض الذي أعيا الحكام الظلمة تحقيقه وهم يواجهون أهل البيت بمكانتهم وعظيم منزلتهم بين الناس باعتبار الأئمة منهم أهل الولاية الشرعية ونواب صاحب الرسالة والأوصياء المؤتمنين على أمور الدين والرعية فكانت مسألة تقديس كل من ضمته تسمية الصحبة بعد توسيعها وتعميمها هي مضاهاة منزلة أهل البيت وعدم تمييزهم وإرغام الناس على عدم ذكر الحقائق والأحداث إذ كانت العملية تنص على التقديس بغض النظر عن الأفعال، فكم شملت الصحبة أناساً ما زال التأريخ يذكر ما اقترفوه، وما زالت أفعالهم مثالاً للظلم، وماذا نصنع بما نص عليه القرآن من ذكر المنافقين؟ وما أثبته التاريخ من أفعال، كذلك فإن الجانب الآخر لعملية التقديس يتفق مع روح الحكام في تحجير الأفهام وتقييد حرية الفكر، إذ فرضت العملية تلقّي ما صدر عن الذين شملتهم عملية توسيع الصحبة بالقبول، وإن ما كان منهم ليس لأحد قدرة على أن يرقى إليه فهو في أعلى مستوى من الكمال، مهما كانت مؤاخذات الواقع، وناهيك بما في هذا من استهانة بنعمة العقل التي ركبها الله للإنسان، ثم كان ادعاء العصمة.

ليت شعري ما هذه العصمة، أكانت في حياة النبي ﷺ أم بعده؟! فإن كانت في حياته فما أكثر الشواهد على نفي ذلك:

أخرج البيهقي بسنده عن أبي عبد الله الأشعري عن أبي الدرداء قال: قلت: يا رسول الله بلغني أنك تقول: ليرتدن أقوام بعد إيمانهم. قال ﷺ أجل ولست منهم(١).

ومن الغريب أن البعض علل ذلك بأن المراد من هؤلاء المرتدين، هم الذين قتلوا عثمان، وأن أبا الدرداء مات قبل قتل عثمان، وبهذا التأويل يتوجه الطعن على أكثر الصحابة، فإنهم اشتركوا بقتل عثمان، والمتخلفون عن ذلك عدد لا يتجاوز أصابع الكف. وبمقتضى هذا التأويل يدخل في قائمة الحساب عدد كثير هو أضعاف

(١) تاريخ ابن كثير ج٦ ص١٧٠.

ما في قائمة الشيعة من المؤاخذات. ومن الشواهد على نفي العدالة في زمان النبي ﷺ.

١ ـ كان رجل يكتب للنبي ﷺ، وقد قرأ البقرة وآل عمران، فكان رسول الله ﷺ يملي عليه غفوراً رحيماً، فيكتب عليماً حكيماً فيقول له النبي: اكتب كذا وكذا. فيقول: أكتب كيف شئت، ويملي عليه عليماً حكيماً فيكتب سميعاً بصيراً وقال: أنا أعلمكم بمحمد. فمات ذلك الرجل فقال النبي ﷺ: الأرض لا تقبله. قال أنس: فحدثني أبو طلحة، أنه أتى الأرض الذي مات فيها الرجل، فوجده منبوذاً فقال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل؟ قالوا: دفناه مراراً فلم تقبله الأرض. قال ابن كثير: وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه(١).

٢ ـ وهذا الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي سماه الله فاسقاً حينما أرسله النبي ﷺ على صدقات بني المصطلق فعاد وأخبر النبي ﷺ أنهم خرجوا لقتاله فأراد أن يجهز لهم جيشاً فأنزل الله فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ . . . ﴾ الآية [الحجرات: ٦] فقد كان في عداد الصحابة فأين العدالة من الفاسق؟!(٢).

٣ ـ وهذا الجد بن قيس أحد بني سلمة نزلت فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾(٣).

٤ ـ وهذا مسجد ضرار وما أدراك ما مسجد ضرار قد بناه قوم، وسموا بالصحبة يتظاهرون فيه بأداء الصلاة في أوقات لا يسعهم الوصول إلى النبي ﷺ، ولكن فضح الله سرهم وأبان أمرهم فهم منافقون.

وأنزل الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾(٤) وكانوا اثنى عشر رجلاً من المنافقين منهم خذام بن خالد بن عبيد، ومن داره أخرج المسجد، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن أبي الأزعر وغيرهم(٥).

---

(١) تاريخ ابن كثير ج٦ ص١٧٠.

(٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢١٢.

(٣) سيرة ابن هشام ج٢ ص٣٣٢.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٧.

(٥) سيرة ابن هشام ج١ ص٣٤١ وتفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٨.

٦ ـ وهذا ثعلبة بن حاطب بن عمر بن أمية ممن شهد بدراً وأحداً، فقد منع زكاة ماله، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

وكان ثعلبة هذا من الصحابة ملازماً لأداء الصلاة في أوقاتها، وكان فقيراً معدماً، فقال لرسول الله ﷺ: ادع الله لي أن يرزقني مالاً فقال ﷺ: ويحك يا ثعلبة قليل تشكره خير من كثير لا تطيقه فقال ثعلبة: والذي بعثك في الحق نبياً لأن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً، فزاد وفره وكثر ماله وامتنع من أداء زكاته فأعقبه نفاقاً إلى يوم يلقاه بما أخلف وعده وكان من الكاذبين.

٧ ـ وهذا ذو الثدية كان في عداد الصحابة متنسكاً عابداً، وكان يعجبهم تعبده واجتهاده فأمر النبي بقتله وكان ﷺ يقول: إنه لرجل في وجهه لسفعة من الشيطان، وأرسل أبا بكر ليقتله فلما رآه يصلي رجع وأرسل عمراً فلم يقتله ثم أرسل علياً عليه السلام فلم يدركه[2] وهو الذي ترأس الخوارج وقتله علي عليه السلام يوم النهروان.

٨ ـ وهؤلاء قوم وسموا بالصحبة كانوا يجتمعون في بيت سويلم يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ فأمر من أحرق عليهم بيت سويلم[3].

٩ ـ وهذا قزمان بن الحرث شهد أحداً وقاتل مع النبي ﷺ قتالاً شديداً، فقال أصحاب النبي ﷺ ما أجزأ عنا أحد كما أجزأ عنا فلان فقال النبي ﷺ: أما إنه من أهل النار، ولما أصابته الجراحة وسقط فقيل له: هنيئاً لك بالجنة يا أبا الغيداق. قال: جنة من حرمل والله ما قاتلنا إلا على الأحساب[4].

١٠ ـ وهذا الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس طريد رسول الله ولعينه وهو والد مروان وعم عثمان.

حدث الفاكهي بسند عن الزهري وعطاء الخراساني أن أصحاب محمد ﷺ

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص٢٠١.
(٢) الإصابة ج١ ص٤٢٩.
(٣) سيرة ابن هشام ج١ ص٣٣٢.
(٤) الإصابة ج٣ ص٢٣٥.

دخلوا عليه وهو يلعن الحكم فقالوا: يا رسول الله ما باله؟ فقال: دخل عليّ شق الجدار وأنا مع زوجتي فلانة.

ومرّ النبي بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي بإصبعه فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزغاً فزحف مكانه[1] وكان يسمى خيط الباطل وقال ﷺ فيه: ويل لأمتي مما في صلب هذا.

ومن حديث عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: أشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه.

١١ ـ وهذه أم المؤمنين عائشة لم يثبت لها ﷺ الإيمان كما حدث كثير بن مرة عنها: أن النبي ﷺ قال: أطعمينا يا عائشة قالت: ما عندنا شيء، فقال أبو بكر: إن المرأة المؤمنة لا تحلف أنه ليس عندها شيء وهو عندها. فقال النبي ﷺ: ما يدريك أنها مؤمنة؟ إن المرأة المؤمنة في النساء كالغراب الأبقع في الغربان[2].

وهذا إنكار من النبي ﷺ على القطع بالعدالة والإيمان. ولو كان كما يدعى لقال مؤيداً لقول أبي بكر. نعم إنها مؤمنة وزوجة نبي ومن أهل الجنة ولكنه ﷺ لم يرض بذلك الاعتقاد وإنما الأمور منوطة بالعمل وحسن الخاتمة.

ويدل على ذلك أنه ﷺ عاد كعباً في مرضه فقالت أم كعب: هنيئاً لك الجنة يا كعب، فقال ﷺ: من هذه المتالية على الله عز وجل. قال كعب: هي أمي يا رسول الله. فقال ﷺ: وما يدريك يا أم كعب؟ لعل كعباً قال ما لا يعنيه ومنع ما لا يغنيه[3].

١٢ ـ وأخرج النسائي في صحيحه عن ابن عباس في نزول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أنه قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس، وكان بعض القوم يتقدم لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ليراها. فأنزل الله فيهم ذلك.

---

(١) الإصابة ج١ ص٣٤٦.

(٢) علل الحديث لابن أبي حاتم ج١ ص٤٣٩.

(٣) تاريخ بغداد ج٤ ص٢٧٣.

١٣ ـ وأخرج ابن حنبل من طريق ابن عباس وابن عمر أنهما سمعا النبي ﷺ على منبره يقول: لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكتبن من الغافلين[١].

١٤ ـ وأخرج أحمد في مسنده: عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه: أنا فرطكم على الحوض ولأنازعن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فأقول: يا ربي أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك[٢]. وأخرج عن ابن مسعود أيضاً بلفظ: وإني ممسك بحجورك إن تهافتوا في النار كتهافت الفراش[٣].

وأخرج الترمذي عن النبي ﷺ: ويؤخذ من أصحابي برجال ذات اليمين وذات الشمال فأقول: يا ربي أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فإنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: إن تعذبهم فإنهم عبادك[٤]

وأخرج مسلم من طريق عائشة بلفظ: إني على الحوض أنتظر من يرد عليّ منكم فوالله لينقطعن رجال فلأقولن أي ربي... الحديث. وأخرج مثله من طريق أم سلمة[٥].

ولعل الاستمرار بذكر الشواهد ـ وما أكثرها ـ يوجب الإطالة، والإطالة توجب الملل، فلهذا نكتفي بالقليل من البيان حول الشواهد على نفي العدالة المزعومة: «لكل من دب ودرج».

والحق أن الصحبة بما هي فضيلة جليلة لكنها غير عاصمة، فإن فيهم العدول والأولياء والصديقون، وهم علماء الأمة وحملة الحديث، وفيهم مجهول الحال وفيهم المنافقون وأهل الجرائم، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ

(١) مسند أحمد ج٥ ص٤٠.
(٢) مسند أحمد ج٥ ص٢٣١.
(٣) مسند أحمد ج٦ ص٥١.
(٤) صحيح الترمذي ج٢ ص٦٧.
(٥) صحيح مسلم ج٤ ص٦٥ ـ ٦٧.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾(1) وفيهم من كان يؤذي رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(2) فإلى الله نبرأ من هؤلاء وممن ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(3) والذين ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾(4).

والكتاب العزيز يعلن بصراحة عن وجود طائفة تستمع إلى رسول الله ﷺ ولكن طبع الله على قلوبهم لأنهم اتبعوا الهوى فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾(5). كما أعلن تعالى لعن طائفة منهم وهم الذين في قلوبهم مرض والذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۞ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(6).

أجل أين ذهب أولئك بعد رسول الله ﷺ؟ وقد جرعوه الغصص في حياته، ودحرجوا الدباب، فهل انقلبت حالهم بعد موته ﷺ من النفاق إلى الإيمان؟ ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الشك إلى اليقين، فأصبحوا في عداد ذوي العدالة من الصحابة الذين طبعت نفوسهم على التقى والورع وعفة النفس والعلم والحلم والتضحية في سبيل الله وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(7).

فنحن لا نرتاب في ديننا ولا نخالف قول الحق في تمييز منازل الصحابة

---

(1) سورة التوبة، آية: ١٠١.
(2) سورة التوبة، آية: ٦١.
(3) سورة المجادلة، آية: ١٦.
(4) سورة النساء، الآيتان: ١٤٢ و١٤٣.
(5) سورة محمد، آية: ١٦.
(6) سورة محمد، الآيتان: ٢٣ و٢٤.
(7) سورة الحجرات، آية: ١٥.

ودرجاتهم فنتبع الصادقين منهم، ونوالي من اتصف بتلك الصفات التي ذكرها الله ورسوله، كما أنا لا نأتمن أهل الخيانة لله ورسوله، ففي ذلك جناية على الدين وخيانة لأمانة الإسلام ولا نركن لمن ظلم منهم، ولا نود من حاد الله ورسوله. هذا هو قول الحق. والحق أحق أن يتبع.

وقد اختلفوا في تعريف الصحابة ومن هو الصحابي الذي يطلق عليه هذا الاسم وإليك بيان ذلك:

تعريف الصحابي ونقطة الخلاف:

اختلفت الأقوال في حد الصحبة ومن هو الصحابي فقيل: من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين، فهو من أصحابه.

* * *

وإليه ذهب البخاري في صحيحه وسبقه إليه شيخه علي بن المديني وقال: من صحب النبي ﷺ أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحابه.

وهذا التعريف ينطبق على المرتدين في حياة النبي ﷺ وبعده، وعلى كل راءٍ له وإن لم يعقل وهذا أمر لا يقره العقل والوجدان، فإن الردة محبطة للعمل فلا مجال لبقاء سمة الصحبة، وقد ذهب أبو حنيفة إلى الإحباط، ونص عليه الشافعي في الأم.

وقال الزين العراقي: الصحابي من لقي النبي مسلماً ثم مات على الإسلام.

وقال سعيد بن المسيب: من قام مع النبي سنة كاملة، أو غزا معه غزوة واحدة.

وهذا القول لم يعملوا به لأنه يخرج بعض الصحابة الذين لم تطل مدتهم مع النبي ﷺ، ولم يغزوا معه.

قال ابن حجر: والعمل على غير هذا القول(١).

وحكى ابن الحاجب قولاً لعمرو بن يحيى أنه يشترط في الصحابي طول الصحبة، والأخذ عنه(٢).

كما أنهم جعلوا من الصحابة من لم ير النبي ﷺ وهو مسلم أو له رؤية قصيرة.

---

(١) المواهب شرح الزرقاني ٨ ـ ٢٦.

(٢) شرح ألفية العراقي ٤ ـ ٣٢.

ومهما تكن الأقوال والتعاريف فإن هذا الاسم يطلق على كل من سمع النبي ﷺ أو رآه من المسلمين مطلقاً وهم كلهم عدول عندهم وما صدر منهم يحتمل لهم بحجة أنهم مجتهدون.

وهذه هي النقطة الجوهرية التي وقع الاختلاف فيها، إذ الشيعة لا يذهبون لهذا القول فلا يثبتون العدالة إلا لمن اتصف بها، وكانت فيه تلك الملكة، وإصالة العدالة لكل صحابي لا دليل عليه، ولا يمكن إثباته.

فالشيعة تناقش أعمال ذوي الشذوذ منهم بحرية فكر، وتزن كل واحد منهم بميزان عمله فلا يوادون من حاد الله ورسوله ويتبرؤون ممن اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله.

والشيعة لا يخالفون كتاب الله وسنة رسوله وعمل السلف الصالح في تمييز الصحابة، ومن هو مصداق هذا الاسم حقيقة... فيكون عمله بحسب قوله وقوله بحسب إيمانه ويجعل بينه وبين شعائر الجاهلية وأحلاف المشركين حاجزاً ويلوذ بأفياء شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ويتبرأ مما يسيء إلى عقيدته أو يمسّ إيمانه، ولا يلغي الشيعة قوانين الطبيعة البشرية القاضية بتفاوت مدارك الناس واختلاف قابلياتهم.

ومن هذا فتحت على الشيعة باب الاتهامات الكاذبة، التي لفقها خصومهم، ولو كان هناك صبابة إنصاف، ومسكة من عقل، وقليل من تتبع وإعطاء الفكر حريته، لما وقعت تلك الملابسات، وحلت تلك المشاكل.

ومن الغريب أن تتهم الشيعة بسب الصحابة والطعن عليهم أجمع، وبذرة التشيع نشأت في مجتمع الصحابة، ومنهم أبطال التشيع وحاملو دعوته، وهم الذين عرفوا بالولاء لعلي عليه السلام وناصروه في حربه لمن بغى عليه، وهم خيار الأئمة، وسيأتي ذكر بعضهم في الأجزاء القادمة، كما أن من الغريب أن يطالبوا بمخالفة مقاييس الإيمان والسلوك، ولكن الشيعة يأبون إلا حفظ شرف الصحبة وعدم الإساءة إلى مقام الحظوة عند النبي والإخلاص له والتمسك بهداه، وإذا طرح علماء السوء أردية التعصب والعداء لتبين لهم أن الشيعة مثال ما قادت إليه عقول الكثير الكثير من رجال السنة كابن عيينة الذي قال: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك فما رأيت

لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه[1]. والشيعة تتحرى التقوى والاستقامة على أمر محمد ﷺ.

موالاة الشيعة للصحابة:

والشيعة يوالون أصحاب محمد ﷺ الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرة الدين، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم.

وإن الدعاء الذي تردده الشيعة لأصحاب محمد ﷺ لهو دليل قاطع على حسن الولاء وإخلاص المودة.

نعم إن الشيعة ليدعون الله لأتباع الرسل عامة ولأصحاب محمد ﷺ خاصة بما ورثوه من أئمتهم الطاهرين، ومن أشهر الأدعية هو دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في صحيفته المعروفة بزبور آل محمد الذي يقول فيه:

«اللهم وأتباع الرسل ومصدقوهم من أهل الأرض بالغيب عند معارضة المعاندين لهم بالتكذيب والاشتياق إلى المرسلين، بحقائق الإيمان في كل دهر وزمان، أرسلت فيه رسولاً، وأقمت لأهله دليلاً، من لدن آدم إلى محمد ﷺ، من أئمة الهدى وقادة أهل التقى على جميعهم السلام.

اللهم وأصحاب محمد خاصة، الذين أحسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا في ظل قرابته، اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الحق عليك، وكانوا من ذلك لك وإليك، واشكرهم على هجرتهم فيك ديارهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه...».

هؤلاء هم أصحاب محمد ﷺ الذين تعظمهم شيعة آل محمد ﷺ ويدينون بموالاتهم ويأخذون تعاليم الإسلام فيما صح وروده عنهم.

ولكن التلاعب السياسي واحتدام النزاع بين الطوائف خلق كثيراً من المشاكل في

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ج٤ ص١١٢.

عصور قامت بها فئات لإثارة الفتن حباً للسيطرة وطمعاً في النفوذ من باب فرّق تسد.

وصفوة القول إن عصور التلاعب بالمبادىء والتطاحن حول بغية ذوي الأطماع قد ولت، ونحن في عصرنا الحاضر عصر انطلاق الفكر من عقاله والتقدم والرقي، أيصح لنا أن نستمر على ضرب وتر العصبية؟ ونطرب لنغمات النزعة الطائفية، ونكرع بكأس الشذوذ عن الواقع، ونهمل ما يجب علينا من مكافحة خصوم الإسلام وأعدائه، فقد وجهوا إلينا سيلاً جارفاً من الآراء الهدامة والمبادىء الفاسدة.

أليس من الذوق السليم الترفع عن التعبير بتلك العبارات التي اتخذها ضعفاء العقول، وأهل الجمود الفكري عندما يكتبون عن الشيعة فينبزونهم بكل عظيمة، أليس من الحق أن يتبينوا من صحة ما يقولون؟

وإن اتهام الشيعة بسب الصحابة وتكفيرهم أجمع إنما هو اتهام بالباطل ورجم بالغيب، وخضوع للعصبية وتسليم لنزعة الطائفية، وجري وراء الأوهام والأباطيل.

الصحابة في حدود الكتاب والسنة:

وهل تجاوزت الشيعة في نقد أعمال بعض الصحابة حدود الكتاب والسنة؟ إذ وجدوا في أعمالهم مخالفة ظاهرة، لا يمكن لها التأويل والتسامح، لأن عموم الصحبة لا يمنحهم سلطة التصرف بالأحكام، ولا تسوغ لهم مخالفة تلك الحدود، وإن الاجتهاد في مقابلة النص هو في الحقيقة طرح للأحكام، ونبذ للقرآن وراء الظهور، وإن كثيراً منهم حديثو عهد في الإسلام. قد ألفت نفوسهم أشياء وطبعت عليها، ومن الصعب عليها أن تتحلل منها بسرعة.

وليس من الإنصاف أن يكونوا هؤلاء بمنزلة أهل السبق، ومن رسخ الإيمان في قلوبهم فنشروا الإسلام وحملوا ألوية العدل، ونشروا العقيدة الإسلامية، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم عن نية صادقة، وهاجروا عن إيمان خالص.

وقد قال النبي ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**(١).

---

(١) صحيح مسلم ج٦ ص٤٨.

وسأله ناس من أصحابه فقالوا: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية فقال ﷺ: «أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ به، ومن أساء أخذ في الجاهلية والإسلام»(١). وعن صهيب مرفوعاً: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه»(٢) وعنه ﷺ بلفظ: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ في الأول والآخر»(٣).

وعن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم. من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»(٤).

وهكذا يتضح لنا على ضوء الأحاديث النبوية وآي القرآن الكريم مساواة الناس وشمول الأحكام لهم، وأن ثبوت العدالة بالعمل ولا أثر لها بدونه والصحابة هم أولى بتنفيذها، والقول في اجتهادهم مطلقاً يحتاج إلى مشقة في الإثبات، والنتيجة عقيمة لا تثمر كثير فائدة، والتأويل في مقابلة النص معناه طرحاً للأحكام. فلا يصح أن يتأولوها على خلاف ظاهرها ثم يستبيحوا لأنفسهم مخالفة الظاهر منها، بل الأحكام شرعة واحدة بين الناس لتشملهم عدالتها، فلا مجال لأحد عن الخضوع لها وتطبيقها.

ولنا في سياسة الإمام علي بن أبي طالب وسيرته في عصر الخلفاء وفي عصره لأكبر دليل على ما نقول، فقدكان يقيم الحد على من تعدى حدود الله ويعامل كل واحد بما يقتضيه عمله، ويقدر منزلته عندالله تعظم منزلته عنده، وكم كان يدعو على أولئك الذين وسموا بالصحبة وخالفوا كتاب الله وسنة رسوله ونصبوا له الحرب. وقدأعلن عليه السلام البراءة منهم بل أعلن سب بعضهم على منبره لأنهم خالفوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ومن وقف على عهوده عليه السلام لعماله ووصاياه لأمراء جيشه ورسائله لولاة أمره

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص٧٧.
(٢) صحيح الترمذي ج٢ ص١٥١.
(٣) صحيح مسلم ج١ ص٧٧.
(٤) صحيح الترمذي ج١ ص٣٦٥.

يعرف هناك عدم الالتزام بما ألزموا الأمة به من القيود التي فرضتها ظروف خاصة، وهو القول بعدالة الصحابي وإن ارتكب ما حرم الله.

والتحدث عن سيرة عليّ لا يتسع له مجال هذا الموضوع الذي خضناه بهذه العجالة، والغرض أن أصحاب محمد ﷺ لا بد أن يلتزموا باجتناب ما حرم الله تعالى ويهتدوا بهدي رسوله ﷺ ولم يفتحوا المجال لمتأول في مقابلة النص، وللاجتهاد شروط، ولعل في قصة قدامة أكبر دليل على ذلك.

قدامة بن مضعون:

قدامة بن مضعون بن حبيب المتوفى سنة ٣٦هـ كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين واستعمله عمر بن الخطاب على البحرين، فقدم الجارود سيد عبد القيس على عمر بن الخطاب من البحرين وشهد على قدامة أنه شرب الخمر فسكر، فقال: من يشهد معك، فقال الجارود: أبو هريرة، فقال عمر لأبي هريرة: بم تشهد؟ قال: لم أره شرب ولكن رأيته سكران يقيء. فقال عمر: لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم، فقال الجارود: أقم على هذا حد الله. فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد؟ فقال: شهيد. فقال: قد أديت شهادتك.

ثم غدا الجارود على عمر فقال: أقم على هذا حدّ الله فقال عمر: ما أراك إلا خصماً وما شهد معك إلا رجل واحد، فقال الجارود: أنشدك الله. فقال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوأنك. فقال: يا عمر ما ذلك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوأني، فقال أبو هريرة: يا أمير المؤمنين إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها ـ وهي امرأة قدامة ـ فأرسل عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها، فأقامت الشهادة على زوجها.

فقال عمر لقدامة: إني حادّك، فقال قدامة: لو شربت كما تقول ما كان لكم أن تحدّوني. فقال عمر: لمَ؟

قال قدامة: قال الله عزل وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ . . .﴾ الآية فقال عمر: أخطأت التأويل أنت إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله، ثم أقبل عمر على الناس فقال: ما ترون في جلد قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام مريضاً. فسكت على ذلك أياماً ثم أصبح وقد عزم على جلده، فقال: ما ترون في جلد

قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام وجعاً. فقال عمر: لأن يلقى الله تحت السياط أحب إليّ من أن ألقاه وهو في عنقي، ائتوني بسوط تام. فأمر به فجلد(١).

هذه قصة قدامة وإقامة الحد عليه وتأويله فيما ارتكبه ولم نوردها لنحط من كرامته أو نطعن عليه في دينه، فله شرف الهجرة والسبق، ولكنا ذكرناها ليتضح لنا عدم صحة ما يقولون بعدم مؤاخذة المتأول وإن خالف الإجماع وما هو معلوم بالضرورة كقضية أبي الغادية وقتله لعمار بن ياسر مع اعترافه بأن ما ارتكبه جريمة توجب دخول النار.

وهناك جماعة من الصحابة تأولوا فأخطأوا فلم يدرأ تأويلهم الحد لوقوعهم في الخطأ. منهم: أبو جندل وضرار بن الخطاب وأبو الأزور فقد وجدهم أبو عبيدة قد شربوا الخمر فأنكر عليهم فقال أبو جندل: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا . . .﴾ الآية ولم ينفعهم ذلك وأقام عليهم الحد. فأين العدالة من إقامة الحد.

وكان عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر بمصر فأقام الحد عليه عمرو بن العاص إلى كثير من ذلك.

سياسة عمر تجاه بعض الصحابة:

وهذا عمر بن الخطاب لم يثبت العدالة لأبي هريرة عندما استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه، فقال أبو هريرة: لست بعدو الله ولا عدو كتابه ولكن عدو من عاداهما. فقال عمر: من أين هي لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة ورقيق لي وأعطية تتابعت(٢).

وفي لفظ ابن عبد ربه أن عمر دعا أبا هريرة فقال له: علمت أني استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار. قال: كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت، قال عمر: قد حسبت لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأده، قال أبو هريرة: ليس لك ذلك. قال: بلى والله أوجع ظهرك، ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه، ثم قال: ائت بها. قال: احتسبتها عند الله. قال: ذلك

(١) الإصابة ج٣ ص٢٢٨.
(٢) تاريخ ابن كثير ج٨ ص١١٣.

لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً، أجئت من أقصى البحرين تجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين؟ ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمر، وأميمة أم أبي هريرة[1].

هكذا رأينا عمر يقابل أبا هريرة بشدة ويتهمه بخيانة أموال المسلمين وينسبه لعداء الله وعداء كتابه ولا يصدقه فيما يدعيه. ولو كان أبو هريرة عادلاً في نظر عمر لصدق قوله. ولقال: أنت عادل أو مجتهد مخطيء، وكذلك موقف عمر مع خالد بن الوليد في جنايته الكبرى مع مالك بن نويرة.

ويحدثنا البلاذري أن أبا المختار يزيد بن قيس رفع إلى عمر بن الخطاب كلمة يشكو بها عمال الأهواز وغيرهم يقول فيها:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة	فأنت أمين الله في النهي والأمر
وأنت أمين الله فينا ومن يكن	أميناً لرب العرش يسلم له صدري
فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه	وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما	ولا ابن غلاب من سراة بني نصر[2]

إلى آخر الرسالة وذكر فيها جماعة من عماله الذين استأثروا بالأموال وجلهم من الصحابة فعاقبهم عمر واتهمهم بالخيانة والخيانة لا تجتمع مع العدالة.

ولا نطيل الحديث حول قاعدة إصالة العدالة لكل صحابي أو تأويل الأخطاء لهم على وجه يلزم السكوت عليه.

ما ذلك إلا تحد لنواميس الدين ومقدسات الشريعة، ومجادلة بالباطل لحفظ كرامة معاوية وحزبه ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[3].

رواية الصحابي:

وواضح مما تقدم أن الشيعة لا يذهبون إلى عدالة كل من وسم بالصحبة وتحقيقها لا يكون إلا بالعمل الذي يصح أن يتصف الراوي بشروط العدالة المقررة،

(١) العقد الفريد ج١ ص٢٦.
(٢) فتوح البلدان ص٣٧٧.
(٣) سورة النساء، آية: ١٠٩.

واصالة العدالة في حق الصحابة لا أصل له وإثبات ذلك يحتاج إلى مشقة والنتيجة عقيمة لا تثبت أي ثمرة هناك.

أما السنة فقد أثبتوا العدالة لكل صحابي واستدلوا بأدلة ذكرت في محلها ومع ذلك فقد اختلفوا، فذهب طائفة إلى عدالة الصحابة أجمع بدون استثناء وآخرون ذهبوا إلى عدالة من لم يلابس الفتنة «أي من حين مقتل عثمان».

وذهبت المعتزلة: إلى فسق من قاتل علياً عليه السلام منهم وحكى ابن الصلاح إجماع الأمة على تعديل من لم يلابس الفتنة.

وحكى الآمدي وابن الحاجب قولاً أنهم كغيرهم في لزوم البحث عن عدالتهم إلى غير ذلك من الأقوال(١).

أما الشيعة فلا يذهبون لعدالة الجميع كما تقدم. فهم يتثبتون في قبول الرواية فلا يروون إلا عن ثقة ولهم شروط مقررة في محلها، إذ الحديث هو دستور الإسلام، ومنهاج حياة المسلمين الدينية والاجتماعية، لذلك اجتهد المسلمون في دراسته من حيث السند والدلالة.

وقد سمعنا وسمع كل أحد تلك التقولات على الشيعة: بأنهم يردون أحاديث الصحابة ولا يأخذون عنهم، وهذا طعن على أصحاب محمد ﷺ.

وقد ذكر بعضهم أن الشيعة لا يعتمدون على شريعة المسلمين لأنهم يردون أخبار الصحابة إلى غير ذلك من الأقوال بل التقولات.

وواضح أن مقتضى تلك الأقوال تهدف لشيء خلاف الواقع اتباعاً لظروف قضت على الأمة بذلك، وليت شعري أمن الإنصاف والواقع أن تؤاخذ الشيعة في التثبت عند قبول الرواية، وهل جاءوا بشيء نكراً إذا لم يقبلوا رواية من اتضحت حاله لسوء عمله ومجاراة هواه؟؟ بل ترد أقوالهم وعدم الاعتماد على رواياتهم ولا كرامة. هذا من جهة. ومن جهة أخرى أن هناك أمور تقتضي الوقوف عن قبول كثير من الأحاديث من حيث السند والدلالة، فإن هناك سيلاً جارفاً يسبق إلى الذهن إنكاره ويقضي العقل السليم برده.

---

(١) شرح ألفية العراقي ج٤ ص٣٥ وكفاية الخطيب البغدادي ص٨١ ـ ٨٣.

وعلى أي حال فإن رواية الصحابي وقبولها عند الشيعة لم يكن كما يذهب إليه غيرهم من عدم الاعتماد مطلقاً.

وليس من الحق أن يقال لمن احتاط لدينه وتثبت في أخذ أحكامه أنه طعن على أصحاب رسول الله ﷺ.

فإذا أردنا أن نتثبت في قبول رواية أبي هريرة مثلاً ونقف أمام أحاديثه موقف التثبت لاستجلاء الواقع وظهور الحقيقة يقال هذا طعن على الصحابة.

أليس من الحق أن نقف موقف الإنكار على كثرة أحاديثه الهائلة ونتساءل عن اختصاصه بمنزلة لم تكن لأحد من الصحابة قط، وهو حديث عهد في الإسلام. فإنه أسلم بعد خيبر في السنة السابعة، وذهب إلى البحرين مع العلاء في السنة الثامنة، وبقي فيها إلى أن توفي النبي ﷺ، فتكون صحبته أقل من سنتين. فكيف يختص بما لم يختص به من هو أسبق إسلاماً، وأكثر ملازمة منه للنبي ﷺ وأفرغ بالاً لقبول ما يسمع؟؟

فقد كان أبو هريرة مشغولاً بسد رمقه، ويصرع من الجوع مرة بعد أخرى، وكان يتعرض للناس يسألهم عن مسائل، وما كان يقصد إلا أن يتعطفوا عليه بشيء يسد رمقه، لماذا كانت هذه الكثرة الهائلة عند أبي هريرة دون غيره من أصحاب محمد ﷺ؟! فقد كانت كثرة أحاديثه تبعث على الاستنكار والتساؤل، فقد روى عن النبي ﷺ ٥٣٧٤ حديثاً، وقد أنكر الصحابة عليه ذلك وكذبوه، وكان يعتذر بأن غيره من الصحابة تشغلهم التجارة.

روى الأعرج عن أبي هريرة أنه قال: إنكم تقولون ما بال المهاجرين لا يتحدثون عن رسول الله ﷺ بهذه الأحاديث، وإن أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم في الأسواق، وإن أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم أراضيهم والقيام عليها، وإني كنت امرأً معتكفاً أكثر من مجالسة رسول الله ﷺ أحضر إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا[1].

وهذا لاعتذار لا يمكن قبوله إذ لم يقبله أصحاب النبي، وقد أنكرت عليه عائشة وابن عمر، ونهاه عمر بن الخطاب عن الحديث.

---

(١) الفتوحات الوهبية ص١٣٦.

إن أبا هريرة يدعي أنه كان معتكفاً لا يشغله شيء عن حفظ الحديث، لأنه من أهل الصفة وبالإعراض عن شغله بسد رمقه وكثرة صرعه من الجوع كما يحدث هو عن نفسه، فإنا نسائله عن اختصاصه بذلك ولِمَ لم يشاركه المعتكفون معه وهم أسبق وأقدم إسلاماً، فلم تكن لهم هذه الخصوصية. وإليك أنموذجاً عن حديث أهل الصفة. بذكر البعض منهم:

حديث أهل الصفة:

حجاج بن عمر المازني الأنصاري شهد صفين مع علي عليه السلام له في الصحاح حديث واحد.

حازم بن حرملة الأسلمي له حديث واحد رواه ابن ماجة عن مولاه أبي زينب.

زيد بن الخطاب العدوي قتل يوم اليمامة له حديث واحد يرويه عنه ابن عمر.

سفينة مولى رسول الله ﷺ له أربعة عشر حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد.

شقران مولى رسول الله ﷺ، له عند الترمذي حديث واحد.

طنخفة ـ بكسر أوله وإسكان المعجمة ـ ابن قيس الغفاري مختلف في اسمه، له حديث واحد أخرجه أصحاب الصحاح.

عبد الله بن أنيس أبو يحيى المتوفى سنة ٨٠هـ بالشام له أربع وعشرون حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد.

عبد الله بن الحرث بن جزع ـ بفتح الجيم ـ الزبيدي المتوفى سنة ٨٠هـ بمصر، وهو آخر من مات بها من الصحابة، له أحاديث قليلة خرجها أبو داود والترمذي وابن ماجة.

عبد الله بن قرط الثمالي المتوفى سنة ٥٦هـ له عند أبي داود والنسائي حديث واحد، ولعله حديث المعراج.

عقبة بن عامر الجهني المتوفى سنة ٥٨هـ له خمس وخمسون حديثاً، انفرد البخاري بواحد ومسلم بتسعة، وهو ممن حضر صفين مع معاوية.

عمر بن تغلب العبدي له حديثان رواهما عنه البخاري.

عمر بن عنبسة السلمي له ثمانية وأربعون حديثاً انفرد مسلم بحديث واحد.

عتبة بن عبد السلمي المتوفى سنة ٨٧هـ له ثمانية وعشرون حديثاً.

عتبة بن الندر ـ بضم النون وفتح الدال المشددة ـ له حديثان عند ابن ماجة.

عياض بن حماد المجاشعي البصري له ثلاثون حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد.

فضالة بن عبيد الأنصاري المتوفى سنة ٥٣هـ شهد أُحداً وبيعة الرضوان، له خمسون حديثاً انفرد له مسلم بحديثين.

فرات بن حيان العجلي له عند أبي داود حديث واحد، وهو الذي كان عيناً لأبي سفيان وحليفه، فأمر النبي ﷺ بقتله فمر على حلقة من الأنصار وقال: إني مسلم. فقال رجل منهم: يارسول الله يقول: إني مسلم، فقال رسول الله ﷺ: «إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم الفرات بن حيان».

السائب بن خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمر الخزرجي المتوفى سنة ٧١هـ، له خمسة أحاديث، وغير هؤلاء من أهل الصفة.

حديث أبي هريرة:

فهؤلاء كانوا يشاركون أبا هريرة فيما ادعاه من تلك الخصوصية التي امتاز بها على جميع أصحاب النبي ﷺ، وقد ضرب الرقم القياسي في الكثرة وهو في الدرجة الأولى من الصحابة في ذلك، مع أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وقد اعتذر عن ذلك بقوله كما أخرجه أحمد في مسنده: حضرت يوماً من رسول الله ﷺ مجلساً فقال: من بسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني، فبسطت بردة عليّ حتى قضى مقالته ثم قبضتها إليّ فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً سمعته منه[1].

ولنا أن نسائله عن إعراض من كان في المجلس عن هذه المكرمة، ولأي شيء لم يتسابقوا لهذه الفضيلة؟ أكانوا يشكون بما قال رسول الله ﷺ، حاشا وكلا، أم أنهم لم يملكوا رداءً يبسطونه كما بسط أبو هريرة رداءه! فهل يصح لنا أن نتساءل عن ذلك، أم لا يسوغ ونرجع إلى العصور الماضية فنسكت خوفاً من الوقوع في الزندقة وليس وراءها إلا السيف والنطع؟

---

(١) تاريخ ابن كثير ج٨ ص١٠٥.

كما حدّث الخطيب البغدادي: ذكر عند الرشيد حديث أبي هريرة: أن موسى لقي آدم فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة؟ فقال رجل من قريش: أين لقي آدم موسى؟ فغضب الرشيد وقال: النطع والسيف زنديق يطعن في حديث رسول الله ﷺ(1).

ومن هذا نعرف شدة الأمر وخطر الموقف، فهذا رجل يسأل عن المكان الذي لقي موسى آدم ليتضح له أمر لعله كان يجهله فلقي ما لقي وطبقت عليه مادة الفناء وهي الاتهام بالزندقة، لأنه يستفسر عن غموض حصل له في حديث أبي هريرة، فأدت الحالة أن اتهم بالطعن على حديث رسول الله ﷺ.

فكيف إذا أراد الاستفسار عن حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم والبخاري: إن جهنم لا تمتلىء حتى يضع الله رجله فتقول قط قط. الحديث(2).

إذاً لا يصح للمسلم الذي ينزه الله تعالى عن تلك الصفة أن يسأل لأن في السؤال وتنزيه الله طعن على أبي هريرة، والطعن على أبي هريرة طعن على النبي.

وكيف إذا أراد أن يستفسر عن المحل الذي ينزل إليه الله جل وعلا في سماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل، فقد روى ذلك أبو هريرة كما أخرجه الشيخان(3) إلى غير ذلك من أحاديثه التي يطول الحديث بالتحدث عنها(4).

وغرضنا من هذا العرض أن أحاديث أبي هريرة تحوط بها أشواك من التشكيك لحصول تلك الكثرة الهائلة، ولأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وهو حديث عهد في الإسلام، وأقل الصحابة صحبة لرسول الله ﷺ، فهو يحدث عن وقائع لم يحضرها، ومشاهد لم يشهدها إجماعاً.

فمن ذلك ما حدث به عن سهو النبي ﷺ في الصلاة (وهو منزه عن ذلك).

---

(1) تاريخ بغداد ج14 ص7.
(2) وأخرجه أحمد في ج3 ص314.
(3) أخرجه البخاري في باب الدعاء ومسلم في باب الترغيب في الدعاء.
(4) وقد جمع قسماً منها سيدنا الحجة شرف الدين في كتابه (أبو هريرة) وأعطى صورة صادقة عنه ببحث علمي يتركز على حرية الفكر فكان موضع عناية المفكرين ونال القبول لما فيه من إظهار للحقائق الضائعة.

قال أبو هريرة: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر أو العصر فسلم في ركعتين، فقال له ذو اليدين: أنقصت الصلاة أم نسيت؟!

وفي لفظ كما أخرجه مسلم: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ: الحديث.

مما يدل على حضوره الواقعة، ومما لا شك فيه أن إسلام أبي هريرة كان بعد خيبر سنة ٧هـ ووفاة ذو اليدين في بدر في السنة الثانية. وقد حاولوا التوجيه لذلك ولم يتوجه جواب شاف كما يقول ابن عابدين[١].

ويحدث عن رقية بنت رسول الله ﷺ وأنه دخل عليها وسألها عن فضيلة لعثمان.

ورقية ماتت قبل إسلام أبي هريرة في السنة الثالثة من الهجرة.

كما أنه لم يكن حاضراً في المدينة ويحدث عن أشياء يدعي أنه اشترك بها كقوله: كنت مع علي عليه السلام حينما بعثه النبي ﷺ ببراءة[٢].

ومرة يقول: كنت مع أبي بكر، مع أن التاريخ يشهد بأنه لم يكن حاضراً في المدينة، لأنه كان مؤذناً في البحرين.

نسوق هذا من باب المثال للتناقض الذي حصل في روايات أبي هريرة. ونحن إذ نتثبت ونرد الرواية التي ليس لها نصيب من الصحة فإن ذلك مما يوجبه الإسلام ويقره العقل.

وعلى أي حال فأبو هريرة هو في الدرجة الأولى من المكثرين.

فالوقوف عند تلك الكثرة للتثبت لا يوجب طعناً في حديث رسول الله ﷺ وذلك لا يستوجب أن يقال إن الشيعة لا يعتمدون على أحاديث الصحابة.

* * *

ولا نريد هنا أن نتحدث عن حديث عبد الله بن عمر واختصاصه بما لا يكون لأحد من الصحابة، فهو في الدرجة الثانية بعد أبي هريرة، فقد روى ٢٦٣٠ حديثاً وهذا لم يكن عند من هو أكبر منه سناً وأشد منه ملازمة، فقد كان حدث السن لأن

---

(١) حاشية ابن عابدين على الدر المختار ١ ـ ٦٤٣.

(٢) أخرجه النسائي في الحج.

عمره يوم توفي النبي ﷺ لم يتجاوز العشرين سنة، فهذه الكثرة تبعث على الاستغراب، كما أن هناك أموراً لا تسيغ لنا قبول كثير من رواياته. والتوقف في ذلك لا يدعو إلى الطعن في الصحابة. ولا نريد أن نعتذر عن رد أحاديثه عند التثبت لمعرفة حاله فإضبارة عمله كافية لكشف الحقيقة. فلنطو صحيفة البحث عن ذلك طلباً للاختصار هنا ونتركه لمحل آخر.

أما أم المؤمنين عائشة فلا نريد أن نساير موكب حياتها من البداية إلى النهاية، فاستقصاء البحث يقصينا عن الموضوع[1].

ولكنا نريد أن نتحدث عن حديثها بصورة موجزة، فإن لشخصيتها مكانة في المجتمع وأثر في التشريع الإسلامي، وقد اختصت دون سائر أزواج النبي ﷺ بكثرة الرواية عنه ﷺ بما لا نسبة له بين مجموع رواياتهن ورواياتها، وإليك ما يلي:

حديث أمهات المؤمنين:

زينب بنت جحش سنة ٢٠هـ، لها ١١ حديثاً.

صفية بن حيي بن أخطب المتوفاة سنة ٥٠هـ اتفق مسلم والبخاري على حديث واحد.

سودة بنت زمعة المتوفاة في خلافة عمر انفرد البخاري لها بحديث.

هند بنت أمية المخزومية وهي آخر أزواج النبي وفاة، لها ٣٧٨ حديثاً.

حفصة بنت عمر بن الخطاب المتوفاة سنة ٤١هـ لها ٦٠ حديثاً.

جويرية بنت الحرث المتوفاة سنة ٥٦هـ لها أحاديث انفرد لها البخاري بحديثين.

رملة بنت أبي سفيان المتوفاة سنة ٤٤هـ لها ٦٥ حديثاً.

ميمونة بنت الحرث الهلالية المتوفاة سنة ٥١هـ لها ٤٠ حديثاً.

عائشة بنت أبي بكر الصديق المتوفاة سنة ٥٧هـ لها ٢٢١٠ أحاديث، فارتفاع هذا الرقم وحصول تلك الطفرة في الكثرة يستوجب التريث والتثبت وعدم الإسراع في

---

(١) ذكرنا أطوار حياتها ومنزلتها في التشريع الإسلامي في كتابنا (عائشة والتشريع الإسلامي) مخطوط.

قبول ذلك، ولا حجر على المفكر لو أعطى النظر حريته مع حصول أشياء تؤيد هذا التفكير من شغلها وشواغلها، وصغر سنها ولعبها باللعاب ومنادمة صويحباتها[1] والقيام بخدمة البيت إلى كثير من ذلك.

فالوقوف هنا لاستجلاء الحقيقة لا يوجب الطعن على أمهات المؤمنين ليستوجب الكفر والخروج عن الدين، على أن هناك شيئاً يدعو إلى التثبت وهو أمر رواة أحاديثها، فإنهم اتخذوا الرواية عنها سبباً للتقرب إلى بني أمية، وقد طعن على هشام بن عروة وغيره، ممن تقربوا للأمويين بوضع الأحاديث عن عائشة خدمة لمصالحهم.

ولا نطيل نقاشنا للأحاديث الواردة عنها التي فيها من الدخل الشائن لروح الإسلام والمنافية لمقام النبي الأعظم، كما يروي البخاري عنها في الأدب المفرد، أنها قالت: كنت آكل حيساً مع النبي ﷺ فمرّ عمر فدعاه فأكل فأصابت يده إصبعي فقال عمر: خس لو أطاع فيكن ما رأتكن عين[2].

أليس في ذلك حط لمقام النبي ﷺ ونقصه؟ وهو الإنسان الكامل والمثل الأعلى لمكارم الأخلاق، أكانت داره أطروقة للذاهب والجايي؟!! أم كان يأكل هو وزوجته على قارعة الطريق؟؟ أم أن عمر كان لا يحترم النبي ﷺ فيدخل عليه دخول عابر سبيل؟؟ كل هذا نسكت عنه لا خوفاً من القول بأنه طعن على ما يروى عن عائشة، والطعن عليه خروج عن ملة المسلمين كما يقولون! ولكن ضيق المجال يحول دون بسط القول في ذلك.

أليس لنا حق التثبت بما يروى عن عائشة؟ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة، فقال ﷺ: إني لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل[3].

كيف يصح هذا؟ ورسول الله ﷺ مثال الغيرة ومجمع الفضائل والإنسان الكامل، فالعقل يمتنع عن قبوله احتراماً لمقام الرسول الأعظم ﷺ لذاته وخلّته

---

(١) البخاري في الأدب المفرد ص٥٤.
(٢) الأدب المفرد ص١٥٢.
(٣) البخاري ج١ ص١٦١ وصحيح مسلم ج١ ص١٨٧ وسنن البيهقي ج١ ص١٦٤.

الشخصية فما بالك إذا كان رسول الله وأمينه على وحيه وخير خلقه؟ وليكن من وراء عدم قبول ذلك اتهام بالكفر ورمي بالزندقة.

كما يحق لنا أن نناقش ما يرويه مسلم في صحيحه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: إن النبي كان مسحوراً يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله[1].

فسل صحيح مسلم عن صحة ذلك، وسل عروة وابنه إن كنت رجلاً لا تخاف الاتهام بالزندقة، وإلا فاترك مسؤولية البحث لمن لا يتقيد بالأوهام ولا يخضع لسلطان العاطفة العمياء ولا يبالي بتوجيه التهم ما دمنا محافظين على كرامة النبي ﷺ وإن طعنا بألف صحابي وصحابي وكذبنا ألف صحيح وصحيح، حاشا للنبي الأعظم ومنقذ الإنسانية وهو الإنسان الكامل في كل صفاته، وهو المثل الأعلى لكل مكرمة، كيف يعتريه النقص ويخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله؟!

ليت شعري أيتم نظام العالم وهو مصلحه مع اتصافه بهذه الصفة؟ كلا إنه (ما ينطق عن ا لهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى).

فلنترك مناقشة كثير من الأحاديث ولا نمضي في هذا الموضوع بأكثر مما ذكرناه، ونكتفي بذكر ما دعت الحاجة إلى عرضه بدون استقصاء في البحث ولا تتبع شامل لنقاط الموضوع، وغرضنا من ذلك إعطاء صورة عن تلك الاتهامات التي وجهت للشيعة بأنهم لا يأخذون برواية الصحابة. نعم الشيعة لا يأخذون إلا عن الصادقين في القول، ويتشددون في قبول الرواية أكثر من غيرهم.

تهمة سب الصحابة:

إن تهمة سب الصحابة قد استأصل داؤها فعز علاجه، ونفذ حكمها فعظم نقضه، وسرت تلك الدعاية في مجتمع تسوده عاطفة عمياء وعصبية هوجاء، وقد وقفت الحقيقة أمام ذلك الوضع المؤلم مكتوفة اليد، وأسدلت دونها أبراد التمويه، وأحيطت بأنواع الحواجز وأقيمت في طريق الوصول إليها آلاف من العقبات وسلاح القوة فوق ذلك، إذ السلطة قررت نظام انطباق الكفر والزندقة على المعارضين لسياستها، ولم يمكنهم تحقيقه إلا باتهام سب الصحابة أو أبي بكر وعمر بصورة خاصة.

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص٢٤.

وإذا حاول المفكرون أن يقفوا على حقيقة الأمر والواقع أخذوا بتلك التهمة وشملهم ذلك النظام الجائر.

فكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم عليّ بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر. قاله في المنتظم، وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٠٧: وفي هذه السنة قتلت الشيعة في جميع بلاد إفريقيا وجعل سبب ذلك اتهامهم بسب الشيخين(١).

وما أكثر تلك الفظائع السود والأعمال الوحشية التي وقعت طبقاً لنظام السياسة ولا علاقة لها بنظام الإسلام الذي يقضي على مرتكبها بالخروج منه.

وإن المسألة مكشوفة لا تحتاج إلى مزيد بيان لشرح الأسباب التي أدت إلى حدوث تلك الحوادث المؤلمة، وارتكاب تلك الجرائم الفادحة، ومعاملة شيعة أهل البيت بتلك المعاملة القاسية.

وليس هناك من شك بأن استقلال الشيعة الروحي وعدم اعترافهم بشرعية سلطان لا يحترم نواميس الدين ولا يلتزم بأوامر الشرع جعلهم خصوماً للسلطة.

فكانت مشكلة التشيع من أعظم المشاكل التي تواجهها الدولة.

فلقيت الشيعة بسبب خصومتها للدولة ومعارضتها لحكام الجور انتكاسات في سبيل نشر الدعوة، كما لقيت انتصارات إذ لم تكن تلك الانتكاسات لتعود بهم القهقرى، أو تلقي بهم في نطاق الفشل الضيق، واليأس من المضي في سبيل إظهار عقيدتهم، فقد كان لهم من الحيوية ورسوخ العقيدة ما ساعدهم على المضي في استرجاع مكانتهم في التاريخ، لحمل رسالة يلزمهم أداءها ويجب عليهم مواصلة الكفاح لتحقيقها تلك هي رسالة الإسلام، تحت ظلال دعوة أهل البيت ﷺ.

فكان لهم الأثر العظيم في نشر الوعي الإسلامي وإطلاق الفكر من عقال الجمود.

وعلى أي حال فإن أعداءهم لم يجدوا حلاً لهذه المشكلة إلا بأن يلصقوا بهم تهماً يتلقاها المجتمع بالقبول، فتوسعوا في التهم واتخذوا مرتزقة لتحقيق ذلك

---

(١) الكامل ج٩ ص١١٠.

الغرض، فقالوا: إن الشيعة تكفّر جميع أصحاب محمد ﷺ ويطعنون عليهم، وبذلك يتوجه الطعن على النبي ﷺ وأنهم يرمون أمهات المؤمنين وغير ذلك.

ووضعوا قاعدة قررها علماء السوء وهي: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمد ﷺ فاعلم أنه زنديق. وذلك أن رسول الله ﷺ حق والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرّح بهم أولى وهم زنادقة[1].

وحكموا على من اتهم بسب الشيخين بالكفر، فلا يغسل ولا يصلى عليه، ولا تنفعه شهادة أن لا إله إلا الله، ويدفع بالخشب حتى يوارى في حفرته[2].

وإنه إذا تاب لا تقبل توبته بل يجب قتله[3]. وقال بعضهم بحرمة ذبيحته وحرمة تزويجه. ومن هذا وذاك سرت فكرة كفر الشيعة، لأن الدولة قضت بنظامها القضاء عليهم، وأن يسندوا ذلك إلى الشرع ـ وحاشاه من ذلك ـ ولكن السياسة عمياء، والحق لا قيمة له عند علماء السوء الذين اندفعوا لمؤازرة السلطة وإغواء العامة.

ومن الغريب أن بعض أولئك المرتزقة احتاط لدينه واستشكل في تنفيذ ذلك النظام المخالف للشرع، فجاء بحكم جديد فأفتى بوجوب قتل من سب الصحابة سياسياً لدفع فسادهم وشرهم، وإن كانوا لا يجوزونه شرعاً للحديث الشريف: لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه[4] خرجه جميع الحفاظ وصححوه... هكذا أفتى هذا المأجور.

وكم حكمت السياسة على نصوص الشريعة ونسخت أحكامها المقررة لأن السياسة اقتضت ذلك، وعلماء السوء قد فتحوا باب الارتزاق بالدين وأعمتهم المادة واستغواهم شيطان اللذة وحب التمتع بالحياة، فلم يقفوا عند حدود الله، وحكموا بغير ما أنزل الله.

---

(١) الكفاية للخطيب البغدادي ص٤٩.
(٢) الصارم المسلول ص٥٧٥.
(٣) رسائل ابن عابدين ج١ ص٣٦٤.
(٤) رسائل ابن عابدين ج١ ص٣٦٧.

وطغى طوفان الانفعالات وتلاطمت أمواج الأكاذيب على الله ورسوله من أولئك القوم الذين ساروا على غير هدى، ولم يستمعوا لمرشد ولم يقفوا عند حد، بل الأمر منوط لرأي السلطة كيف شاءت.

ونود هنا أن نشير لنبذة من بحث للإمام كاشف الغطاء حول ذكر الفروق الجوهرية بين الطائفتين[١].

قال رحمه الله ـ بعد ذكر الاختلاف في الخلافة ـ: نعم ونريد أن نكون أشد صراحة من ذلك، ولا نبقي ما لعله يعتلج أو يختلج في نفس القراء فنقول: لعل قائلاً يقول: إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم، وقد يتجاوز البعض إلى السب والقدح مما يسيء الفريق الآخر طبعاً ويهيج عواطفهم فيشتد العداء والخصومة بينهم.

والجواب أن هذا لو تبصرنا به قليلاً ورجعنا إلى حكم العقل بل والشرع أيضاً لم نجده مقتضياً للعداء أيضاً.

أما أولاً: فليس هذا من رأي جميع الشيعة وإنما هو رأي فردي من بعضهم، وربما لا يوافق عليه الأكثر، كيف وفي أخبار أئمة الشيعة النهي عن ذلك. فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءات بعض المتطرفين منهم.

وثانياً: إن هذا على فرضه لا يكون موجباً للكفر والخروج عن الإسلام، بل أقصى ما هناك أن يكون معصية وما أكثر العصاة في الطائفتين. ومعصية المسلمين لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعاً.

وثالثاً: قد لا يدخل هذا في المعصية أيضاً ولا يوجب فسقاً إذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد وإن كان خطأ، فإن من المتسالم عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أن للمخطىء أجراً وللمصيب أجرين. وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة في الصدر الأول، كحرب الجمل وصفين وغيرهما، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وإن أخطأوا في اجتهادهم، ولكن لا يقدح ذلك في عدالتهم وعظيم مكانتهم. وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس وإراقة دمائهم فبالأولى

---

(١) انظر هذا البحث القيم الذي نشرته مجلة رسالة الإسلام تحت عنوان (بيان للمسلمين) ص٢٢٧ ـ ٢٢٨ السنة الثانية العدد الثالث.

أن يبرر ولا يستنكر معه (أي مع الاجتهاد) تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة، إلى آخر البحث.

وليس في وسعنا نقل كلمات علماء الشيعة حول هذه النقطة المهمة التي لها أثرها العظيم في تكدير صفو الأخوة الإسلامية، فأصبحت طريقاً لأعداء الدين يدخلون فيه لأغراضهم.

نهاية البحث:

إن فكرة اتهام الشيعة بسب الصحابة وتكفيرهم ـ كونتها السياسة الغاشمة، وتعاهد تركيزها أناس مرتزقة باعوا ضمائرهم بثمن بخس وتمرغوا على أعتاب الظلمة، يتقربون إليهم بذم الشيعة. وقد استغل أعداء الدين هذه الفرصة فوسعوا دائرة الانشقاق لينالوا أغراضهم، ويشفوا صدورهم من الإسلام وأهله، وراح المهرجون يتحمسون لإثارة الفتن وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين بدون تدبر وتثبت، وقد ملئت قلوبهم غيظاً.

وبفعل السياسة وتحكمها أصبحت الشيعة وهي ترمى بكل عظيمة وتهاجم بهجمات عنيفة، واندفع ذوو الأطماع يعرضون ولاءهم للدولة في تأييد ذلك النظام والاعتراف به، وأنه قد أصبح جزءاً من حياة الأمة العقلية وهم يخادعون أنفسهم.

ولم يفتحوا باب النقاش العلمي وحرموا الناس حرية القول، وأرغموهم على الاعتراف بكفر الشيعة والابتعاد عن مذهب أهل البيت عليهم السلام ولو سألهم سائل عن الحقيقة وطلب منهم أن يوضحوا لهم ذلك، فليس له جواب إلا شمول ذلك النظام له، ونحن نسائلهم:

١ ـ أين هذه الأمة التي تكفر جميع الصحابة ويتبرأون منهم؟

٢ ـ أين هذه الأمة التي تدّعي لأئمة أهل البيت عليهم السلام منزلة الربوبية؟

٣ ـ أين هذه الأمة التي أخذت تعاليمها من المجوس فمزجتها في عقائدها؟

٤ ـ أين هذه الأمة التي حرفت القرآن وادعت نقصه؟

٥ ـ أين هذه الأمة التي ابتدعت مذاهب خارجة عن الإسلام؟

إنهم لا يستطيعون الجواب على ذلك، لأن الدولة قررت هذه الاتهامات فلا

يمكنهم مخالفتها. ولا يمكن إقناعهم بلغة العلم. وما أقرب الطريق إلى معرفة الحقيقة لو كان هناك صبابة من تفكير وبقايا من حب الاستطلاع وخوف من الله وحماية للدين.

أليس التشيع مبدأ يشمل عدداً وافراً من أصحاب محمد ﷺ وهم من البدريين وأهل بيعة الرضوان؟ ممن والى علياً عليه السلام ويرى أحقيته بالخلافة.

أليس من الشيعة علماء اعترف الكل بعلو منزلتهم وغزارة علمهم، واحتاج الناس إليهم، وهم من شيوخ كبار العلماء ورجال الصحاح كأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، والبخاري وغيرهم، وقد خرج أصحاب الصحاح لعدد وافر من رجال الشيعة، يربو عددهم على ثلاثمائة رجل، ولا يسع المقام لنشر أسمائهم فنتركهم لفرصة أخرى[1].

أليس من الشيعة رجال حملوا رسالة الإسلام وتحملوا المصاعب في أدائها ومنهم حملة فقه لولاهم لضاع الفقه وذهبت تعاليم الإسلام؟ وإن للشيعة يداً في المحافظة على التراث الإسلامي وصيانته عن تلاعب السياسة.

التثبت قبل الحكم:

لم نسهب في بيان الموضوع عبثاً واستطراداً، ولم نقصد به خوض بحث لا علاقة له بموضوع الكتاب، بل الواقع أن هذا الموضوع من أهم المواضيع التي يجب أن نتطرق إليها في هذا الكتاب الذي أقدمنا عليه لبيان مذهب أهل البيت عليهم السلام.

فمما لا شك فيه أن أهم مشكلة تقف أمام الباحث هي مسألة اتهام الشيعة بسب الصحابة أو تكفيرهم. وقد بينا مراراً أن ذلك يعود إلى عوامل سياسية لا صلة لها بالواقع، لأن اسم الشيعة ارتبط بآل محمد ﷺ وهم أنصارهم وآل محمد هم الشجى المعترض في حلق أولئك الحكام الذين استبدوا بالحكم وجاروا على الأمة، فكان من دواعي السياسة أن تطبع في قلوب الناس طابع البغض للجانب الذي ينافسهم ويعارضهم، أو من لا يؤازرهم، وهو يقف موقف المعارضة لأعمالهم.

---

(١) ذكر منهم سيدنا شرف الدين في كتاب المراجعات مائة رجل. وذكر العلامة الأميني في كتاب الغدير في ج٣ عدداً وافراً منهم. وبأيدينا قائمة تقارب ثلاثمائة رجل قد اعتمد رجال الصحاح عليهم.

وهل من شك في معارضة الشيعة وعدم مؤازرتهم الدولة، وإنهم لا يعترفون بشرعتيها في تلك العصور، لأنهم لا يتنازلون عن الاعتقاد بأحقية أهل البيت للخلافة، لما طبعوا عليه من صفاء النفس والتضحية في سبيل المصلحة العامة، وهم أولى الناس بالأمر وأعدلهم بالحكم. لذلك نرى أن تشريع نظام الحكم على من اتهم بسب الصحابة يهدف إلى عقاب الشيعة فقط. أما غيرهم فلا يشمله هذا الحكم ولو كان ملحداً كما مر بيانه.

وقد تسرع المخدوعون بالظواهر إلى الاعتراف به، وقاموا بتنفيذه، فحكموا على الشيعة بالفسق مرة وبالكفر أخرى، وليتهم حددوا لذلك حداً حتى يعرف الناس كيفية المؤاخذة، ولكنهم وسعوا الدائرة واختلفت الصور، كما أنهم قرروا عدم قبول توبة المتهم بسب الصحابة أو الشيخين بصورة خاصة، وقرروا انطباق الآراء الفردية على مجموع الأمة. من دون تثبت في الحكم وتورع في الموضوع.

ولهذا فإن المرتزقة - من العلماء الذين أصبحوا مصدراً للفتوى وحكاماً في السلطة التشريعية - قد أخذوا على عاتقهم مسؤولية إغواء العامة وحملهم على خلاف الحق، فكانوا دعاة فرقة وأئمة ضلال، فحكموا على الشيعة بالأخص - من دون بيان لمستند الحكم ودليل للفتوى - بأن قتالهم (أي الشيعة) جهاد أكبر، ومن قتل في حربهم فهو شهيد. ويقول في خاتمة الفتوى: ومن شك في كفرهم - أي الشيعة - كان كافراً. وآخر يقول كما في الخلاصة: الرافضي إذا كان يسب الشيخين ويلعنهما، فهو كافر، وإن كان يفضل علياً عليهما، فهو مبتدع[(١)].

وهكذا زينوا للناس حب الوقيعة بعضهم ببعض، وأباحوا قتل المسلم بيد أخيه المسلم بدون تثبت في الحكم ووقوف أمام حرمة ذلك، وليس غرضهم إلا إرضاء السلطة وإن غضب الله عليهم.

ولا حاجة بنا إلى نقل عبارات تعبر عن عقلية قائليها ومقدار إدراكهم للواقع فلا نطيل الوقوف على تلك الخرافات والأباطيل، فلنسدل الستار عنها ولا بد لنا أن نلحظ نقطتين:

الأولى: هل الطعن على مجموع الصحابة موجب لهذه الأحكام القاسية، أم أن

(١) رسائل ابن عابدين ج٢ ص١٦٩.

هناك فرقاً وتمييزاً؟ فإن كان هذا الحكم على كل من طعن صحابياً أو وصفه بصفة لا تليق به، فلماذا لم يحكموا على من طعن على عدد كثير من الصحابة ووصفهم بما لا يليق بهم؟ وهم من كبار الصحابة وأعيانهم، لأنهم أنكروا على عثمان أوضاع بني أبيه الشاذة ومسايرته لهم، أو خالفوا معاوية بن أبي سفيان.

أليس من الطعن والتنقيص وصفهم للصحابة: بأنهم أجلاف أخلاط من الناس، لا شك أنهم مفسدون في الأرض بغاة على الإمام[1].

ويقول ابن تيمية: بأنهم خوارج مفسدون في الأرض إلى أن يقول: ولم يقتله ـ أي عثمان ـ إلا طائفة قليلة باغية ظالمة. وأما الساعون في قتله فكلهم مخطئون بل ظالمون باغون معتدون[2].

ويقول ابن حجر في وصف المعترضين عليه: إن المجتهد لا يعترض عليه في الأمور الاجتهادية، لكن أولئك الملاعين المعترضون لا فهم لهم ولا عقل[3].

وقد قرروا في بحث العدالة أن الصحابة عدول إلى وقوع الفتن. أما بعد ذلك فلا بد من البحث عمن ليس ظاهر العدالة. هذا هو أحد الأقوال[4].

ولا نريد التعرض لجميع الأقوال التي وصفوا بها الصحابة الذين اشتركوا في معارضة عثمان، وحرضوا الناس عليه، ولكنا نورد بعضاً من الرأي المعاصر في هذه القضية ونأخذ قول رفيق بك العظم إذ يقول: «... فإن أولئك الثائرين على عماله (عثمان) الناقمين منه مهما كان الدافع لهم إلى ذلك العمل فإن غايتهم التي يقصدون إليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح ومنافع الأمة». ويستطرد فيقول: «... فوقوف الناس على أخبارهم (الصحابة) والأخذ والرد فيما حدث بينهم يحيي في القلوب روح الحرية ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها الآن الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حوّلوا الخلافة إلى الملك العضوض وأمعنوا في التمكن من رقاب المسلمين، ولهذا ولما كثر خوض الناس في

---

(١) تاريخ ابن كثير ج١ ص١٧٦.
(٢) منهاج السنة ج٣ ص١٩١ ـ ٢٠٦.
(٣) الصواعق المحرقة لابن حجر ص٦٨.
(٤) شرح ألفية العراقي ج٤ ص٣٦.

أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها، فأوعزوا إلى الوضاع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنترة وأشباها في أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق»[1].

وكان من السهل على الأستاذ رفيق بك أن يعلم أعصر وأزمان حركات الوضع والقصص التي لجأ إليها من ذكرهم من المتسلطين والتي انصبت على الإساءة إلى رموز العدل وأهل الإيمان إلى جانب الأخبار والمغازي.

الثانية: إن الشيعة لا تتكتم في بغض من عادى علياً، فإن مبغض علي منافق بنص الحديث الشريف: **«يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»** وإن المنافقين لفي الدرك الأسفل من النار، وقد ثبت أن بعض من وسموا بالصحبة كانوا يبغضون علياً عليه السلام ويسبونه. وقد اشتهر ذلك عنهم:

فالله يشهد إنا لا نحبهم   لله لا نختشي في ذاك من غضبا

وبدون شك أن معاوية وحزبه كانت تتجلى بهم صفة البغض لعليّ وأهل البيت أجمع، وقد قابلوه بالعداء وأعلنوا الحرب عليه.

كما أعلن معاوية شتم عليّ وجعله سنة، وتتبع أنصاره من الصحابة والتابعين، فأذاقهم أنواع الأذى والمحن، وجرعهم الغصص وقتلهم تحت كل حجر ومدر بما لا حاجة إلى بيانه.

على أن أعماله لا يمكن السكوت عنها، ولا طريق إلى حملها على وجه صحيح. وليس من الإنصاف أن يقال: إن معاوية مجتهد متأول، وقد عطل الحدود، وأبطل الشهود، وقتل النفس المحرمة. وسبى نساء المسلمين، وعرضهن في الأسواق، فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشتريت على عظم ساقها[2] إلى كثير من تلك الفظائع والفجائع.

وهذا أبو الغادية الجهني، كان من الصحابة، وممن سمع النبي ﷺ، وروى عنه، وهو أحد رواة حديث **«يا عمار تقتلك الفئة الباغية»**.

---

(١) انظر: عثمان، لمحمد رضا ص٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) الاستيعاب ج١ ص١٥٧.

وهو الذي قتل عمار بن ياسر رضوان الله عليه، وقد أنكر الناس عليه ارتكابه لهذه الجريمة، واعترف هو على نفسه بأنه من أهل النار، وكان يقول: والله لو أن عماراً قتله أهل الأرض لدخلوا النار[١].

فكيف يتهم بالخروج عن الدين من تبرأ من هذا المجرم الذي اعترف على نفسه بأنه عدو الله، ولكن بعض المحدثين تأولوا له ذلك، وأنه مجتهد أخطأ ويلزم حسن الظن بالصحابة[٢].

ونحن لا نعرف هذا المنطق الذي يقضي بطرح الأحكام، وهجر الكتاب في جانب حسن الظن بالصحابة والسكوت عما ارتكبوه.

وهل يسوغ لنا السكوت عن أعمال بسر وموبقاته؟ إذ وسم بالصحبة أيضاً، وهو قائد جيش معاوية. وقد ارتكب جرائم لم يشهد التاريخ مثلها فظاعة، حتى أنكرت النساء عليه عندما دخل اليمن، وقتل الشيوخ والأطفال وسبى النساء، فقالت له امرأة من كندة: يا ابن ارطاة إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الأرحام إنه لسلطان سوء[٣].

فكيف يسوغ لنا السكوت عن أعمال بسر، ونصم أسماعنا عن صوت ثكلى تردد نغماتها موجات الحق، وترفع ظلامتها إلى رجال العدل، وتدعو هائمة مذهولة؟؟

يا من أحس بابنيَّ اللذين هما	كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بابنيَّ اللذين هما	سمعي وعقلي فعقلي اليوم مختطف
من دل والدة حيرى مدلهة	على صبيين ذلاً إذ غدا السلف
نبئت بسراً وما صدقت ما زعموا	من إفكهم ومن الإثم الذي اقترفوا
أحنى على ودجي ابنيَّ مرهفة	مشحوذة وكذاك الإثم يقترف

فهذا صوت يبعث في القلب شجى، وفي العين قذى، يصدر من أم والهة ـ وهي زوجة عبيد الله بن العباس ـ فقدت ولديها وهما قثم وعبد الرحمن. أخذهما بسر بن أرطاة وهما صغيرين، فذبحهما بين يدي أمهما، فهامت على وجهها مذهولة،

---

(١) أسد الغابة ٥ ـ ٢٦٧.
(٢) الإصابة ٤ ـ ١٥١.
(٣) الكامل لابن الأثير ج٣ ص١٩٥.

فكانت تأتي الموسم وتنشد هذا الشعر وتهيم على وجهها[1].

إذاً فليس من أنصاف الحق أن يؤاخذ المسلم عندما يغضب لسماع صوتها وينسب الظلم لمن قتل ولديها فيرمى بالزندقة والإلحاد لأنه طعن على معاوية، إذ القتل بأمره وهو صحابي، وله في ذلك اجتهاد مقبول أو تأويل صحيح، إذاً ليجري معاوية في ميدان الحياة وليفعل ما شاءت له نفسه، فقد ضربت الصحبة عليه حصانة لا يمكن مؤاخذته فليأمن من كل خطر وليسفك الدماء، وليقتل على الظنة والتهمة، فقد انهارت الحواجز كلها في وجهه واندكت العقبات أمامه، فلا تشمله تلك النظم والأحكام التي قررها الشارع المقدس، وفيها سعادة البشر ونظام الحياة، لأنه صحابي وله حرية التصرف في الأحكام.

ولو كان له ذلك لما أنكر الصحابة عمله، وفي طليعتهم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري، فقد أعلن للملأ انحراف سيرة معاوية ومخالفته لنظم الدين.

وقد أنكرت عائشة على معاوية قتله لحجر وأصحابه وغضبت عليه ومنعته من الدخول عليها ولم تقبل بأعذاره إذ قال: إن في قتلهم صلاحاً للأمة، وفي مقامهم فساداً للأمة فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء[2].

وكثر الإنكار على معاوية لما ارتكبه من الأعمال ولا يتسع المجال للإسهاب في هذا الموضوع.

وخلاصة القول أن الصحبة بشروطها في الإخلاص في الدين والولاء في الإسلام وليست منزلة توجب العصمة وتلزم الاعتراف بالتفرد دون نظر وتدقيق، قال سفيان بن عيينة: نظرت في أمر الصحابة وأمر بن المبارك فمارأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه[3]. فليست مقرونة بمواهب خارقة وخصال خاصة وقد تكون اصطحاباً بلا أثر وغزواً في الظاهر، وفي السريرة أغراض نفع ورياء فعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام

(١) الاستيعاب ج١ ص١٥٦ والكامل لابن الأثير ج٣ ص١٩٥.
(٢) تاريخ ابن كثير ٨/ ٥٥.
(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي ج١ ص١١١ وتاريخ ابن كثير.

وأنفق الكريمة واجتنب الفساد فإن نومه ونبهته أجر كله، وأما من غزا رياءً وسمعة وعصى الإمام وأفسد في الأرض فإنه لا يرجع بالكفاف[1]. فإذا كان ذلك في حياته عليه أفضل الصلاة والسلام فما ظنك بعدأن قبض ﷺ، ولقد أخبر ﷺ أولئك ـ كما روي عن ابن مسعود وأنس وآخرين: **«يرفع إلي أقوام فيقولون: يا محمد يا محمد، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: بُعداً وسحقاً»**.

وسنعود إن شاء الله تعالى للبحث عنه مرة أخرى في الأجزاء القادمة.

وها نحن أولاء نعيد تأكيد الطلب من الكتّاب الذين يهمهم خدمة الحق وإظهار الحقيقة، أن يتثبتوا قبل الحكم حول تلك الاتهامات الموجهة إلى الشيعة[*] وأن يستعملوا لغة المنطق ولا يخضعوا للتقاليد واستعمال الأقيسة المعكوسة ومؤاخذة الأمة بالفرد.

نقول هذا ولنا كبير أمل فيما نلمسه من وعي في المجتمع الإسلامي لنبذ الحزازات، وقبر تلك الآراء التي أوجدت الخلافات. ومن الله نسأل تحقيق الآمال فهو الموفق وعليه الاتكال. ونسأله تعالى أن ينصر المسلمين ويوحد كلمتهم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

والحمد لله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

والصلاة على محمد وآله الطيبين وأصحابه المنتجبين

تم الجزء الثاني
ويليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى

(١) النسائي في السنن ج٧ ص١٥٥.

(*) استقصينا البحث عن التهم الموجهة إلى الشيعة في كتابنا (الشيعة في قفص الاتهام) وقد حالت الظروف بيننا وبين طبعه.

فهرس